شيخ الإسلام

ابن تيمية

وجهوده في تفسير القرآن الكريم تطبيقًا على آيات السنن الربانية

وفاء عبد العظيم عبد الوهاب محمد

تقديم أ.د محمد عمارة

دار البشير للثقافة والعلوم

شيخُ الإسلام ابن تيمية

وجهودُه في تفسير القرآن الكريم

تطبيقًا على آيات السّنن الربانية



اسـم الكتـاب: شيخُ الإسلام ابن تيمية وجهودُه في تفسير القرآن الكريم
التــأليـف: وفاء عبد العظيم عبد الوهاب محمد
موضوع الكتاب: دراسة إسلامية
عـدد الصفحات: **456** صفحة
عـدد المـلازم: **28.5** ملزمة
مقـاس الكتاب: **24 x 17**
عـدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـم الإيـداع: **2018 / 9525**






elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

01152806533 - 01012355714



يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

مكتبة الرافدين
https://t.me/ahn1972

شيخُ الإسلام ابن تيمية

وجهودُه في تفسير القرآن الكريم

تطبيقًا على آيات السّنن الربانية

وفاء عبد العظيم عبد الوهاب محمد

تقديم

د. محمد عمارة





الاستهلال

قال تعالى:

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ {١٣٧/٣} هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ {١٣٨/٣} ﴾.

[آل عمران: ١٣٧، ١٣٨]

الإهداء

- إلى جيل النصر والتمكين الذي ترتقبه البشرية، وتهفو إلى مجيئه نفوسُ الأحرار.. كلّ الأحرار.
- وإلى الدّعاة الصامدين الصابرين الصادقين الذين بذلوا أرواحهم وأموالهم في سبيل نصرة الحقّ والحرية.
- وإلى كلّ مَن يضع لبنةً في ميدان علم السنن ليخرج جيلَ التمكين، ويمدّ الدعاة بقوانين الصمود والتمكين...

أهدي هذا العمل.

الشكرُ والتقدير

- إلى دولة السودان، بلدنا الثاني على ما آوتْ وأكرمت....

- وإلى والديَّ الكريمين اللّذين كان أملهم أنْ يروا هذه اللحظات الطيبة لينعموا بغراسهم، ويسعدوا بثمرة تعبهم...

- إلى العالم الجليل فضيلة الأستاذ الدكتور الطاهر أحمد عبد القادر عرفانًا وشكرًا؛ على ما بذل من جهد وصبر، وذلّل من عسير وصعب..

- وإلى كلّ مَن أعانَ وأسهم، ولو بكلمة أو دعاء...

أسأل الله للجميع القبولَ والسّتر في الدنيا والآخرة.

تقديم

بقلم أ. د. محمد عمارة

في التاريخ الفكري للحضارة الإسلامية، تألق عددٌ من أعلام علماء الإسلام في سماء الفكر حتى أصبحوا منارات هادية، لا لعصورهم فقط، ولا لمحيطهم فحسب، وإنما لكلّ العصور وعلى امتداد أوطان عالم الإسلام.. بل وامتدت تأثيراتهم إلى ما وراء عالم الإسلام.. لقد مثّل كلٌّ واحدٍ منهم «ظاهرة فكرية» دائمة العطاء.. وضمنوا الخلود؛ لأنهم ارتبطوا بمصادر الخلود: البلاغ الإلهي الخالد- القرآن الكريم- والبيان النبوي لهذا البلاغ، سنّة رسول الله ﷺ... مع جمعهم بين الاجتهاد الفكري وبين الجهاد العملي في سبيل إعزاز دين الله وأمّة رسوله ودار الإسلام.

ولقد كان شيخُ الإسلام ابن تيمية (٦٦١- ٧٢٨هـ ١٢٦٣- ١٣٢٨م) واحدًا من صفوة هذه الصفوة من أعلام علماء الإسلام.

وإذا كان المقامُ لا يسمح بتفصيل الحديث عن حيثيات هذه الحقيقة- حقيقة تحوّل ابن تيمية إلى «ظاهرة فكرية» متعدّيةً للعصور والآفاق- فإنّ إشارات إلى بعض إجاباته على عددٍ من «مشكلات عصرنا وواقعنا المعيش» هي دليلٌ على حضور هذا العقل الذي رحل صاحبُه عن عالمنا قبل سبعة قرون.

إنّ عالمنا- في شرقه وغربه وشماله وجنوبه- لا يزال حائرًا حول علاقة العقل بالنقل.. فهناك مَن يطوون صفحة النقل عندما يطبّقون على الكتب السماوية نظرية «موت المؤلف»، ويحلّون تأويلات العزاء محلّ المقاصد الإلهية في الوحي الإلهي.

وهناك التأويلات الباطنية الغنوصية التي عمّمت التأويل العبثي، المنفلت من قواعد اللغة وثوابت العقيدة، فحوّلت كلّ الحقائق إلى مجازات وخيالات..

وهنـاك ردّ الفعـل الـذي وقـف بأصحابـه عنـد الجحـود عـلى ظواهـر النصـوص- محكـمات كانـت هـذه النصـوص أو متشـابهات-.

وأمـام هـذا «المشـكل- المعْضـل» لا تـزال إجابـات شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة حـاضرةً ووافيـة وشـافية.. فعنـده: «أنّ مـا عُـرف بصريـح العقـل لا يُتصـور أن يعارضـه منقـول صحيـح قـطّ.. ولقـد تأمّـل في ذلـك في عامّـة مـا تنـازع النـاس فيـه فوجـدت مـا خالـف النصـوص الصحيحـة شـبهات فاسـدات يُعلـم بالعقـل بطلانُهـا، بـل يُعلـم بالعقـل ثبـوتُ نقيضهـا الموافـق للـشرع. وهـذا تأمّلتـه في مسـائل الأصـول الكبـار، كمسـائل التوحيـد والصفـات ومسـائل القـدر والنبـوات والمعـاد، وغـير ذلـك.

ووجـدتُ مـا يُعلـم بصريـح العقـل لم يخالـف لسـمع قـطّ، بـل السـمع الـذي يُقـال إنـه يخالفـه إمّـا حديـث موضـع أو دلالـة ضعيفـة، فـلا يصـحّ أن يكـون دليـلاً لـو تجـرّد عـن معارضـة العقـل الصريـح، فكيـف إذا خالـف صحيـح المعقـول؟.

ونحـن نعلـم أنّ الرسـل لا يخـبرون بمجـالات العقـول، بـل يخـبرون بمجـازات العقـول: فـلا يخـبرون بمـا يعلـم العقـل انتقـاءه، بـل يخـبرون بمـا يعجـز العقـل عـن معرفتـه[1].

والقـول كلّـما كان فاسـدًا في الـشرع كان أفسـد في العقـل، فالحـقّ لا يتناقـص، والرّسـل إنمـا أخـبرت بحـقّ، واللـه فطَـرَ عبـاده عـلى معرفـة الحـقّ، والرسـل بُعثـت بتكميـل الفطـرة لا بتغيـير الفطـرة.

قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾.

[فصلت: ٥٣]

فأخـبر أنّـه سـيريهم الآيـات الأفقيـة والنفسـية المبينـة لأنّ القـرآن الـذي أخـبر بـه عبـاده حـقّ، فتتطابـق الدلالـة البرهانيـة القرآنيـة والبرهانيـة العيانيـة، ويتصـادق موجـب الـشرع المنقـول والنظـر المعقول..» [2].

---

(١) ابن تيمية: [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول] ج١ ص٨٣، طبعة القاهرة الأولى ١٣٢١هـ.

(٢) ابن تيمية: [منهاج السنة النبوية] ج١ ص ٨٢ طبعة القاهرة الأولى ١٣٢١هـ.

وفي قـدرة العقـل عـلى التحسـين والتقبيـح، وإدراك التحسـين والتقبيـح: «وإدراك الحُسـن والقُبـح في الأشـياء لا يـزال الجـدل قائمًـا.. ولحسـم هـذا الجـدل العقيـم نجـد الإجابـة الشـافية في تـراث شـيخ الإسـلام الـذي يقـول: «إنّ أكـثر الطوائـف عـلى إثبـات الحُسـن والقُبـح العقليّـين.. وهـذا قـول الحنفيـة.. وهـو قـول كثـير مـن المالكيـة والشـافعية والحنبليـة.. وكذلـك أهـل الحديـث.. بـل لقـد ذكـر هـؤلاء أنّ نفـي ذلـك هـو مـن البـدع التـي حدثـت في الإسـلام.. وقالـوا: إنّ نفـي الحُسـن والقُبـح العقليـين مطلقًـا لم يقلـه أحـدٌ مـن سـلف الأمّـة ولا أئمتهـا، بـل مـا يؤخـذ مـن كلام الأئمـة والسـلف في تعليـل الأحـكام وبيـان حكمـةِ اللـه في خلقـه وأمـره وبيـان مـا فيـما أمـر اللـه بـه مـن الحُسـن الـذي يُعلـم بالعقـل ومـا في مناهيـه مـن القُبـح المعلـوم بالعقـل، ينـافي قـول النّفـاة.

والحُسـن والقُبـح مـن أفعـال العبـاد يرجـع إلى كـوْن الأفعـال نافعـةً لهـم وضـارّةً لهـم، وهـذا مـما لا ريـب أنّـه يُعـرف بالعقـل..

وأخـصّ صفـات العقـل عنـد الإنسـان أنْ يعلـم مـا ينفعـه ويفعلـه، ويعلـم مـا يـضرّه ويتركـه، والمـراد بالحُسـن هـو النافـع، والمـراد بالقُبـح هـو الضّـار، فكيـف يُقـال: إنّ عقـل الإنسـان لا يميّـز بـين الحُسـن والقُبـح؟ وهـل أعظـم تفاضـل العقـلاء إلّا بمعرفـة هـذا مِـن هـذا؟ بـل وجنـس النـاس يميـل إلى مَـن يتّصف بالصّفـات الجميلـة وينفـر عمّـن يتصـف بالقبائـح، فـذاك يميـل جنـس الإنسـان إلى سـمع كلامـه ورؤيتـه، وهـذا ينفّـر عـن رؤيتـه وسـمع كلامـه..

إنّ العقـل يحـبّ الحـقّ ويلتـذّ بـه، ويحـبّ الجميـل ويلتـذّ بـه، وإنّ محبّـة الحمـد والشـكر والكـرم هـي مـن العقليـات.. وإنّ للإنسـان قوتـين: قـوة علميـة فهـي تحـبّ الحـقّ، وقـوة عمليـة فهـي تحـبّ الجميـل، والجميـل هـو الحُسـن، والقبيـح ضـده.. »[1].

هكـذا تألّـق شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة فيلسـوفًا في العقلانيـة المؤمنـة.. وفي الحسـن والجـمال.. يقـدّم الإجابـات الشـافية والوافيـة عـلى المشـكلات التـي لا تـزال مثـارة في واقعنـا المعيـش.

(١) ابن تيمية: [كتاب الردّ على المنطقيّين] ص ٤٢٠ – ٤٢٢ – ٤٢٩ – ٤٣٠ – ٤٣٣. طبعة دار المعرفة، بيروت.

- وفي الموقـف مـن الغلـو الدينـي، الـذي أشـبع أصحابـه «ظاهـرة التكفـير» في واقعنـا المعيـش، نجـد ابـنَ تيميـة حـاضرًا بكلماتـه النفيسـة التـي يقـول فيهـا:

«والـذي نختـاره أنْ لا نكفّـر أحـدًا مـن أهـل القبلـة».. والدليـلُ عليـه أنْ نقـول: المسـائل التـي اختلـف أهـلُ القبلـة فيهـا مثل:

أنّ الله تعالى هو عالم بالعلم أو بالذات؟

وأنّه تعالى هل هو موجدٌ لأفعال العباد أم لا؟

وأنّه هو متحيّز؟ وهل هو في مكانٍ وجهة؟ وهل هو مرئي أم لا؟

لا تخلـو- [هـذه المسـائل]- إمّـا أن تتوقّـف صحـة الديـن عـلى معرفـة الحـقّ فيهـا أو لا تتوقّـف؟ والأوّل باطـل؛ إذْ لـو كانـت معرفـة هـذه الأصـول مـن الديـن لـكان الواجـبُ عـلى النبـي- صـلّى اللـه عليـه وسـلم- أنْ يطالبهـم بهـذه المسـائل، ويبحـث عـن كيفيـة اعتقادهـم فيهـا، فلـمّا لم يطالبهـم بهـذه المسـائل، بـل مـا جـرى حديـثٌ مـن هـذه المسـائل في زمانـه عليـه السـلام ولا في زمـان الصحابـة والتابعـين رضي اللـه عنهـم، علمنـا أنـه لا تتوقّـف صحّـة الإسـلام عـلى معرفـة هـذه الأصـول، وإذا كان كذلـك، لم يكـن الخطـأ في هـذه المسـائل فادحًـا في حقيقـة الإسـلام، وذلـك يقتـضي الامتنـاعَ عـن تكفـير أهـل القبلـة».

إنّ الكفـر إنمـا يكـون بتكذيـب الرسـول فيـما أخـبر بـه، أو الامتنـاع عـن متابعتـه مـع العلـم بصدقـه..»[1].

هكـذا نـزع ابـنُ تيميـة فتيـلَ التكفـير مـن حقـل الاختـلاف حـول هـذه «المسـائل الأصوليـة»، فأصبـح الاختـلاف فيهـا كالاختـلاف في الفقهيـات والسياسـات لا تكفـير فيـه.. ووقفـت معايـير الاختـلاف عنـد الخطـأ والصـواب، دونمـا تكفـير.. لأن التكفـير هـو- فقـط- تكذيـب الرسـول ﷺ، فيـما أخـبر بـه أو الامتنـاع عـن متابعتـه مـع العلـم بصدقـه.

(١) ابن تيمية: [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول] ج١ ص٥٠، ١٤٤، ١٤٥.

ولقد أشار ابن تيمية- في دعم اجتهاده هذا- إلى أنّ هذا هو موقف العديد من أئمّة مذاهب أهل السنة والجماعة.

***

ولأنّ هذه هي حقيقةُ مكانة شيخ الإسلام- مكانة «الظاهرة الفكرية» المتعدّية للقرون والآفاق.. فقد استلهمَ أعلام اليقظة الإسلامية الحديثة- روّاد مدرسة الإحياء والتجديد- الفكر التجديدي لشيخ الإسلام، ليكون زادًا للبحث الإسلامي الحديث في مواجهة التغريب.. وفي مواجهة الجمود والتقليد.

- فرأينا الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ - ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥م] الذي لفت الأنظار إلى تراثنا في علم مقاصد الشريعة، وسعى لتجديد مناهج الفكر- يلفت الأنظار إلى تراث شيخ الإسلام ابن تيمية، فيشير بطبْع كتابيْه النفيسين: [بيان موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول] و[منهاج السنة النبوية].. ويتصدّى للدفاع عن صاحبهما- ضدّ ظالميه وجاهليه- فيقول عنه: «إنه أعلمُ الناس بالسنة، وأشدّهم غيرةً على الدين.. ولقد قال فيه قومٌ يعدّون أنفسهم مسلمين: إنه ضالّ مُضل، وجاء على أثر هؤلاء مقلّدون يملئون أفواههم بهذه الشتائم.. وعليهم إثمُها وإثمُ مَن يقفوهم بها إلى يوم القيامة»[١].

- وعلى هذا الدّرب سار أعلامُ اليقظة الإسلامية على امتداد عالم الإسلام.. ففي الجناح الغربي لهذه اليقظة يقول الإمام محمد البشير الإبراهيمي [١٣٠٦ - ١٣٨٥هـ ١٨٨٩ - ١٩٦٥م] عن موقع شيخ الإسلام في مواجهة الفكر الخرافي المتحالف مع الاستعمار والاستلاب الحضاري:

«لا زلنا نلمح وراء كلّ داجية في تاريخ الإسلام نجماً يشرق، ونسمع بعد كلّ خفتة فيه صوتًا يخرق، من عالم يعيش شاهدًا ويموت شهيدًا، ويترك بعده ما تتركه الشمس من شفق

(١) محمد عبده [الأعمال الكاملة] ج٣ ص ٣٥٩. دراسة وتحقيق د. محمد عمارة. طبعة دار الشروق - القاهرة ١٩٩٣.

يهـدي السـارين المدلجـين إلى حـين.. ولم يكـن مـن الذيـن قرأنـا أخبارهـم، وتقّفينـا آثارهـم مـن علـماء الإسـلام مَـن كان مثـلاً مشـهودًا لـه بشـجاعة الـرأي العـام أكمـل مـن الإمـام أحمـد بـن تيميـة.. الـذي كانـت كتبـه عامـلاً لـه أثـره في التمهيـد للدعـوة الإصلاحيـة»[1].

ومـع البشـير الإبراهيمـي- في الجنـاح الغـربي لليقظـة الإسـلامية الحديثـة- يقـول الإمـام عبـد الحميـد بـن باديـس [١٣٠٨ – ١٣٥٩هــ - ١٨٨٩ – ١٩٤٠م]: «إنّ كتـب ابـن تيميـة وآراءَه لهـي بـابُ الشريعـة الإسـلامية»[2]. وفي الشـام، يتحـدّث الأسـتاذ محمـد كـرد عـلي [١٢٩٢ – ١٣٧٢هــ - ١٨٧٦ – ١٩٥٣م] الـذي شـبّه تجديـد ابـن تيميـة للإسـلام بتجديـد مارتـن لوثـر [١٤٨٣ – ١٥٤٦م] للمسـيحية-.. يتحـدّث عـن جهـود الشـيخ طاهـر الجزائـري [١٢٦٨ – ١٣٣٨هــ - ١٨٥٢- ١٩٢٠م] في إحيـاء تـراث ابـن تيميـة لينهـض بـدوره في تزكيـة تيـار اليقظـة الإسـلامية ببـلاد الشـام[3].

- وفي مـشرق العـالم الإسـلامي، يتحـدّث العلامـة أبـو الأعـلى المـودودي [١٣٢١ – ١٣٩٩ هــ ١٩٠٣ – ١٩٧٩] عـن مكانـة المـشروع التجديـدي لابـن تيميـة في تاريـخ التجديـد والمجدديـن للإسـلام.. فينـوّه بنقـده للمنطـق اليونـاني والفلسـفة اليونانيـة.. وإقامـة الأدلـة والبراهـين عـلى اسـتقامة عقائـد الإسـلام وأحكامـه وقوانينـه.. ورفعـه النكـير عـلى التقليـد والجمـود.. ومزاولـة الاجتهـاد عـلى طريقـة المجتهديـن في القـرون الإسـلامية الأولى.. والجهـاد القـوي والعنيـف ضـدّ البـدع وتقاليـد الـشرك وضـلال العقائـد والأخـلاق.. ومـا لاقـاه في سـبيل ذلـك مـن المصائـب العظمـى.. مـع الجهـاد بالسـيف ضـدّ همجيّـة التتـار ووحشـيتهم.

---

(١) محمد البشير الإبراهيمي. طبعة بيروت ١٩٩٧م.

(٢) [ابن باديس.. حياته وآثاره] ج٤ ص ١٥٧. جمعها وقدم لها د. عمار الطالبي. طبعة الجزائر ١٣٨٨هـ ١٩٨٦م.

(٣) المصدر السابق. ج٤ ص ١٥٦.

وينبّه المودودي إلى أنّ مشروع التجديد لابن تيمية لو قدّر له امتلاك الدولة التي تتبنّاه؛ لتغيّر مجرى الحضارة الإسلامية، ولما دخلت طور التراجع الذي مكّنَ منها الاستعمار الغربي في العصر الحديث[1].

- وفي مصر، قلب العالم الإسلامي.. وفي الأزهر الشريف، القبلة العلمية للأمّة الإسلامية، يقول شيخه الأكبر الإمام مصطفى عبد الرازق [١٣٠٢ - ١٣٦٦هـ ١٨٨٥ - ١٩٤٦م) عن ابن تيمية:

«إنّه شيخ المجدّدين في تاريخ الإسلام.. لقد دافع عن القياس، إذْ ليس في الشريعة شيء يخالف القياس، ولا في المنقول عن الصحابة الذين لا يُعلم لهم فيه مخالف، إذ القياس الصحيح دائرٌ مع أوامر الشريعة ونواهيها وجودًا وعدمًا.. كما أنّ المعقول الصريح دائرٌ مع أخبارها وجودًا وعدمًا، فلم يخبر الله ولا رسوله بما يناقض صريح العقل، ولم يشرع ما يناقض الميزان والعدل.. والأنبياء- صلوات الله وسلامه عليهم- إنما يخبرون بمجازات العقول لا بمجالات العقول.

ولقد كان نظر ابن تيمية في الكلام والتصوف والفلسفة نظرًا عميقًا، فكتبه تدلّ على سعة اطّلاعٍ على المذاهب الفلسفية وتاريخها، وحسن تصويره لما يعرض للردّ عليه من مذاهب الفلسفة ينبئ عن علمٍ وفهْم، وطريقته في جودة الترتيب والتقسيم والتبْيين لا تخلو من أثر الفلسفة.. كما كان نقده لما انتقد من المذاهب الفلسفية مستندًا إلى مخالفتها صريح المعقول، وليس لمخالفتها الدين فحسب..

ويضيف الشيخ الفيلسوف مصطفى عبد الرازق: «ولو أنّ دراساتنا المنطقية سارت منذ عهد ابن تيمية على منهاجه في النقد، بدل الشرح والتفريع والتعميق؛ لبلغنا بهذه الدراسات من التجديد والرقي مبلغًا عظيمًا».

(١) المودودي: [موجز تاريخ إحياء الدين وتجديده] ص ٧٣، ٧٦ - ٧٩. ترجمة: محمد كاظم سباق. طبعة بيروت ١٣٩٥هـ ١٩٧٥م..

كـما أشـار شـيخُ الأزهـر إلى تميّـز ابـن تيميـة وامتيـازه بالجهـاد- بالسـيف- ضـدّ أعـداء الإسـلام- التتـار.. والنصيريـة- الذيـن انحـازوا إلى التتـار والصليبيّـين.

مع لفت الأنظار إلى ردّه على الصوفية القائلين بوحدة الوجود..»[1].

هكـذا شـهد أعـلامُ اليقظـة الإسـلامية الحديثـة لشـيخ الإسـلام ابـن تيميـة، ولمنهاجـه في التجديـد الأصـولي. والأصالـة المجـدة.. وهكـذا اسـتلهموا تراثـه في البعـث الإسـلامي الحديـث.

ولقـد دفـع ابـن تيميـة الأثمـانَ الغاليـة مـن راحتـه وحريتـه في سـبيل اجتهاداتـه وشـجاعته الفكريـة، فسُـجن مـرّات عـدّة- بالقاهـرة.. والإسـكندرية.. ودمشـق- حتـى لقـد صعـدت روحُـه إلى بارئهـا وهـو سـجين!..

ولقـد أمـضى بالسـجن – ٧٢١هــ ١٣٢١م – خمسـة أشـهر وثمانيـة عـشر يومًـا بسـبب فتـواه بـأنّ الطـلاق الثـلاث إنمـا يقـع طلقـةً واحـدة.. وهـي الفتـوى التـي اعتمدتهـا الأمّـة الإسـلامية الآن في سـائر بـلاد الإسـلام!

***

تلـك لمحـةٌ- مجـرّد لمحـةٍ- إلى «الظاهـرة الفكريـة» التـي تمثّلـت في الاجتهـاد الفكـري وفي الجهـاد العمـلي لشـيخ الإسـلام ابـن تيميـة.. الـذي تألّـق في تاريخنـا الفكـري منـارةً هاديـة، عـبّرت عنهـا كلمـةُ الإمـام محمـد عبـده: «إنّـه أعلـم النـاس بالسـنة، وأشـدّهم غـيرةً عـلى الديـن».

ولأنّ هـذه هـي حقيقـة مكانـة ابـن تيميـة في الـتراث المتجـدد لحضـارة الإسـلام، كان مشروعـه الفكـري- وسـيظلّ- ميدانًـا للدراسـات العلميـة الجديـدة والجـادة.. ومنهـا هـذه الدّراسـة المتميـزة والممتـازة التـي ارتـادت صاحبتُهـا- الأسـتاذة وفـاء عبـد العظيـم عبـد الوهـاب محمـد- ميدانًـا جديـدًا

---

(١) مصطفى عبد الرازق: [الأعمال الكاملة] ج٣ت ص٥٦٩ – ٥٨٢. دراسة وتحقيق: د. عصمت نصار. طبعة القاهرة ١٤٣٤هـ ٢٠١٣م..

مـن ميادين فكـر شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة.. ميـدان علـم السـنن الربانيـة كـما تجلّـت في تفسـيره للقـرآن الكريـم.. وهـي شـاهدٌ جديـد عـلى أنّ العطـاء الفكـري لابـن تيميـة كان- وسـيظلّ- «ظاهـرة فكريـة» ملهمـة، ومتعدّيـة للزمـان والمـكان، وذلـك لارتباطهـا بالمعجـز المحفـوظ ربانيًّـا- القـرآن الكريـم- والبيـان النبـوي لهـذا النبـأ العظيـم.

رحـم اللـه شـيخَ الإسـلام ابـن تيميـة.. ووفّـق صاحبـة هـذه الدراسـة الممتـازة- التـي نقـدّم بـين يديهـا- للمزيـد مـن العطـاء الفكـري، الـذي هـو ميـدانٌ عظيـم مـن ميادين الجهـاد في واقعنـا الإسـلامي المعيـش.

دكتور

محمد عمارة

١٥ رمضان ١٤٣٩هـ

٣١ مايو ٢٠١٨

ملخص الكتاب

لقد قضت سنّة الله ورحمته بأمّة الإسلام أن قيّض لها مَن يجدّد لها دينها، ويرشدها إلى طريق ربّها، وشيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- مِن العلماء الربانيّين الذين جعلوا كتاب الله وآياته وسنة نبيه منهاجًا ونبراسًا يعيشون به ويدرّسونه للناس، وقد شغل شيخ الإسلام حياته كلّها بالعلم والفقه والتفسير والحركة والدعوة والجهاد بالقلم والسيف، كما أنه ترك لنا تراثًا ضخمًا فخمًا أثرى المكتبةَ الإسلامية في كافة المجالات، وخاصة التفسير وعلوم القرآن والسّنن الربانية. ولقد تناولت هذا مُستخدمةً المنهج التاريخي في مرحلة الحديث عن ابن تيمية وعصره والترجمة له والمنهج الاستقرائي في مرحلة جمع المعلومات والمنهج التحليلي النقدي في مرحلة الاستنباط والاستنتاج.

واشتملت هذا الكتاب على أربعةِ فصول، شملت حياته وعصره ومَن تأثّر بهم وجهودَه في التفسير وعلوم القرآن ومنهجه في التفسير، وتناولت جهوده في علم السنن الربانية من ناحيتي التأصيل والتطبيق، ولقد بيّنت أنّ شيخنا ابن تيمية له مكانته البارزة وتراثه الزاخر في التفسير وعلوم القرآن، وأنه قدّم لنا منهاجًا في التفسير جديدًا ومميزًا كان بمثابة المنبع الصافي لِمَن جاء بعده مِن المفسّرين، فكان- بحقّ- مجدّدًا في طريقته وأدائه.

كما قدّم لنا حلولًا جِذرية لمشكلات الأمّة من خلال تناوله لعلم السنن تأصيلًا وتطبيقًا، وقد قدّم للأمة قناعات تطبيقية بأنّ حياتها كلها وسرَّ نجاحها وتقدمها مرتبطٌ بكتاب الله– عزّ وجلّ- فهمًا وتطبيقًا، وأنّ كتاب الله عزّ وجلّ زاخر بما ينفعها إلى يوم القيامة، رحم الله شيخ الإسلام ابن تيمية وجزاه عنّا خير جزاء.

Abstract

It is according to Allah's Sunnah(His decree and laws) and out of His mercy to send for the Muslim Nation people who shall revive their religion and guide them to the straight path of their lord as the holy Prophet (PBUH) indicated in the following Hadith، "Allah shall send for this Ummah at the head of every hundred years a person who shall revive their religion for them" (Abu Dawood، Hakim، Baihaqi). Sheikh Al-Islam Ibn Tayymiyyah (May Allah be merciful to him) was one of the God-fearing scholars who took Allah's book، His verses، and the Sunnah of his messenger as a way and a guidance to live by and to teach to other people.

Sheikh Al-Islam Ibn Tayymiyyah spent his whole life occupied with knowledge، Fiqh (jurisprudence)، Tafseer (Exegesis of the Quraan)، dynamic effort، da'wa (missionary activity) and Jihad whether by tongue or sword. Also، he has left for us a great and lofty heritage that enriched the Islamic Library with masterpieces of volumes and books in all fields of knowledge، specially Tafseer (Exegesis of the Quraan)، the science of the Quran and divine Sunnan (divine laws). In this research، I will use the historical approach to talk about Ibn Tayymiyyah، his era، and his biography. Then I will refer to the inductive approach in collection

of information and critical analytical approach in both inference and deduction stages.

This thesis includes four chapters covering his life، his era، those who had influence on him، his effort in Tafseer (Exegesis of the Quraan) and the sciences of the Quran as well as his approach in Tafseer (Exegesis of the Quraan). It also addresses his efforts related to the divine Sunnan (divine laws) in terms of induction and application. This study has shown that Ibn Tayymiyyah holds a prominent position and has an abundant heritage in Tafseer (Exegesis of the Quraan) and the sciences of the Quran.

The study also proved that he has provided us with an innovative and distinguished approach in Tafseer (Exegesis of the Quraan). This approach is considered a pure source for the Exegete the (Al-Mufseroon) who came after him. He was a truly inventive in his methodology and style، May Allah be merciful to him، and reward him well.

based on such thesis، he provided us with fundamental solutions for this Ummah's problems through his approach for the divine Sunnan (divine laws) in terms of the induction and application. He also provided the Islamic Ummah with applied practical convictions that their lives and the secret of their success are connected to the understanding and application of Allah's book (Quran)، and that the Quran is full of benefits for this Ummah till the day of resurrection، May Allah be merciful to Sheikh Al-Islam Ibn Tayymiyyah، and reward him well.

مقــدمة

الحمـد للـه، حمـدًا كثـيرًا مبـاركًا طيبًـا مبـاركًا فيـه، كـما ينبغـي لجـلال وجـه ربنـا وعظيـم سـلطانه، مـلء السـموات ومـلء الأرض، ومـلء مـا بينهـما، كـما يحـب ربنـا ويـرضى.

يـا ربي لـك الحمـد أولًا وآخـرًا، ولـك الحمـد في كلّ وقـت وحـين، لـك الحمـد في الـسراء، ولـك الحمـد في الـضراء، ولـك الحمـد في المنـع والعطـاء، ولـك الحمـد دائمًـا أبـدًا.

اللهم زوّدنا بالتقوى، وارزقنا العلم والخشية، وتوفّنا وأنت راضٍ عنّا، يا حنان يا منان.

أمّا بعد..

فـإنّ مـن نعـم اللـه عـلى هـذه الأمّـة أنْ قيـض لهـا- عـلى تطـاول الأعصـار وتباعـد الأمصـار- مَـن يجـدّد لهـا دينهـا، ويرشـدها إلى طريـق ربهـا، ويهديهـا إلى صراطهـا المسـتقيم.

وشـيخ الإسـلام ابـن تيميـة مِـن الذيـن شـغلوا الدنيـا فقهًـا وتفسـيرًا ودعـوة وحديثًـا وبيانًـا وأدبًـا، فالناظـر في تراثـه يجـد أنـه تـرك تراثًـا ضخـمًا فخـمًا يتـوزع عـلى: التفسـير وعلـوم القـرآن، والحديـث وعلومـه، والفقـه وأصولـه، والفتـوى والدعـوة والتربيـة، وغيرهـا.

وقـد أثـرى المكتبـة الإسـلامية في جانـب التفسـير وعلـوم القـرآن بعـدد مـن الدراسـات التحليليـة والموضوعيـة، وفي القلـب مـن ذلـك قضيـة: «السـنن الربانيـة»، التـي تناولهـا في دراسـات مفـردة، وعاشـها حركـة وجهـادًا، وعمـلاً وتطبيقًـا، ودعـوة، وعيشـة حقيقيـة واقعيـة.

وهـذه الدراسـة لمحـةٌ مـن لمحـات الوفـاء أكتبهـا عـن هـذا الإمـام الحجـة الـذي أثـرى الدراسـات الإسـلامية عامّـة، والقرآنيـة خاصّـة.

ويمكن بيان ذلك مِن خلال النقاط الآتية:

أولًا: أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

وتبدو أهميةُ الموضوع في النقاط الآتية:

١ـ أهمية موضوع السنن الربانية وضرورته للأمة الإسلامية خصوصًا في مراحلها الراهنة.

٢ـ أنّ الوعـي بالسـنن الربانيـة والسـير بهـا في الحيـاة يعالـج كثـيرًا مـن مشـكلات الأمّـة التـي تغيّبـت كثـيرًا عــن دورهــا الحضــاري، ومهمتهــا الرياديــة لقيــادة الأمــم.

٣ـ الوعـي بالسـنن وقضاياهـا صـورةٌ مـن صـور تعميـق الفهـم لكتـاب ربنـا - عـز وجـل -، وتقديـم الجديـد في وعْيـه، وصـورة مـن صـور ربطنـا بمنهـاج اللـه- تعـالى- وشريعتـه.

٤ـ أن القـرآن الكريـم سـيظلّ هـو الدسـتور والمنهـاج الـذي يقـدم باسـتمرار الحلـول الدائمـة لكافـة قضايـا البشريـة، والتعمـق في فهمـه وتفسـيره مـن زاويـة السـنن الربانيـة يفتـح مجـالات خصبـة لدراسـات جديـدة في القـرآن الكريـم وعطائـه.

ولدراسة هذه القضية أسبابٌ دفعتني إليها، منها:

١ـ أنّ شـخصية شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة شـخصية عملاقـة قـلّ أن تتكـرّر في تاريخنـا المعـاصر؛ فهـو نمـوذج أمثـل للشـخصية التـي تجمـع بـين العلـم والتطبيـق، مـع توفّـر الجانـب الخلقـي والسـلوكي الـذي يعيـد لنـا سـيرة السـلف الصالـح مـن الصحابـة والتابعـين.

٢ـ أنّ ابـن تيميـة اسـتطاع أنْ يقـدّم تصـورًا بديعًـا عـن السـنن الربانيـة بصورتيـه: التأصيليـة والتطبيقيـة عـلى حـدٍّ سـواء، فجمـع في تراثـه بـين الوعـي بهـا والتطبيـق لهـا، وقـلّ مِـن العلـماء مَـن توفّـر لديـه هـذا التـمازج البديـع بـين التأصيـل والتطبيـق في علـم السـنن خاصّـة.

٣ـ لابـن تيميـة جهـودٌ مباركـة في تفسـير القـرآن الكريـم عامّـة، وقضيـة السـنن خاصّـة، ولـه آراءٌ لهـا اعتبارهـا وتقديرهـا في نظـر العلـماء لا ينبغـي إغفالهـا أو تجاوزهـا حتـى نفيـد منهـا.

٤ـ جمـعَ ابـن تيميـة بـين المنهـج السـلفي الأصيـل والآراء الحـرّة المسـتندة إلى الأدلـة، فـلا تعـارض لديـه بـين صريـح المعقـول وصحيـح المنقـول، فـأردت أن أبـرز هـذا النمـوذج الفـذّ مـن خـلال تلـك القضيـة الهامّـة؛ حتـى يبـين للـرائي مـدى سـبق سـلفنا الصالـح في جوانـب متعـدّدة مـن الوعـي والعمـل.

ثانيًا: مشكلة البحث:

تـدور مشـكلة البحـث حـول بيـان جهـود شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة في تفسـير القـرآن الكريـم في زاويـةٍ مـن زوايـا التجديـد لديـه، وهـي زاويـة السـنن الربانيـة وآياتها.

ثالثًا: أسئلة البحث:

تـدور أسـئلةُ البحـث حـول سـؤالٍ رئيـس، هـو: مـا جهـود شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة في تفسـير القـرآن الكريـم؟ ومـدى تطبيـق ذلـك عـلى آيـات السـنن الربانيـة؟ ويتفـرّع عـن هـذا السـؤال الرئيـس أسـئلة أخـرى فرعيّـة، منهـا:

١ـ ما مدى تأثير عصر ابن تيمية عليه، ومَن أبرز مَن تأثّر بهم؟

٢ـ ما جهود ابن تيمية ومنهجه في التفسير وعلوم القرآن؟

٣ـ ما جهوده في علم السنن الربانية خاصة؟

٤ـ هل لديه جوانب تطبيقية من السنن الربانية، فحفل بها تراثه؟

رابعًا: أهداف الدراسة:

تكمـن أهـداف الدراسـة في الإجابـة عـلى السـؤال الرئيـس الـذي تعـرّض لـه، وهـو: مـا جهـود ابـن تيميـة في تفسـير القـرآن الكريـم؟

وتتحقّق بالإجابة على أسئلته الفرعية، وهي بيان:

١ـ مدى تأثير عصر ابن تيمية عليه، وبيان أبرز مَن تأثر بهم.

٢ـ بيان جهود ابن تيمية ومنهجه في التفسير وعلوم القرآن.

٣ـ بيان جهود ابن تيمية في علم السنن الربانية خاصّة.

٤ـ بيان الجوانب التطبيقية من السنن الربانية في تراث ابن تيمية.

خامسًا: حدود الدراسة:

تقتـصر الدراسـة عـلى بيـان جهـود شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة في التفسـير، وخصوصًـا جانـب السـنن الربانيـة منـه، مُسـتعينة في ذلـك- بعـد اللـه- بـتراث شـيخ الإسـلام، ومـا خلّفـه مـن كتـب، ومـا كتـبَ عنـه مـن دراسـات وبحـوث مفـردة أو جماعيـة، خصوصًـا مـا يتعلّـق بجانـب التفسـير وعلومـه، وتفيـد الدراسـة مـن كلّ مـا تسـتطيع أن تصـل إليـه مـن كتابـات في هـذا الجانـب.

سادسًا: منهج البحث وأداته:

يعتمد البحث أكثرَ من منهجٍ في سبيل الوصول إلى مبتغاه حسب طبيعة كلّ مرحلة من مراحله، فيعتمد المنهج التاريخي في مرحلة الحديث عن عصر ابن تيمية والترجمة له، ويعتمد المنهج الاستقرائي في مرحلة جمع المعلومة، والمنهج التحليلي والنقدي في مرحلة الاستنباط والاستنتاج.

سابعًا: هيكل البحث:

هذا وقد قسّمت تلك الدراسة بعد المقدّمة إلى أربعةِ فصول وخاتمة:

الفصلُ الأول

ابن تيمية.. حياتُه وعصره وأبرز مَن تأثّر بهم

وفيه ثلاثةُ مباحث:

•المبحث الأول:

اسمه ونسبه، حياته ونشأته وشخصيته السياسية.

•المبحث الثاني:

عصره.

•المبحث الثالث:

تكوينه العلمي وعطاؤه الفكري.

•المبحث الرابع:

ثناء العلماء عليه.

الفصلُ الثاني

جهود ابن تيمية ومنهجه في التفسير وعلوم القرآن

(الجانب التأسيسي)

وفيه مباحث:

•المبحث الأول:

منزلة ابن تيمية في التفسير.

•المبحث الثاني:

تصنيف نوعي لمؤلفات ابن تيمية في التفسير.

•المبحث الثالث:

منهجه في التفسير وعلوم القرآن.

•المبحث الرابع:

مصادر ابن تيمية في التفسير.

•المبحث الخامس:

أثر ابن تيمية فيمَن جاء بعده من المفسرين.

•المبحث السادس:

شيخ الإسلام ابن تيمية وعلوم القرآن.

•المبحث السابع:

ألوان التفسير لدى شيخ الإسلام ابن تيمية.

الفصلُ الثالث

جهودُه في علم السنن الربانية

وفيه مباحث:

• المبحث الأول:

روافد علم السنن عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

•المبحث الثاني:

التدبّر السنني عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

•المبحث الثاني:

سنة الله في الاختلاف.

•المبحث الثالث:

سنة الله في المتساوين والمختلفين.

•المبحث الرابع:

سنة الله في الفرقان بين الحقّ والباطل.

•المبحث الخامس :

سمة الله في الهدى والضلال والرشد والغي.

•المبحث السادس :

سنة الله في الابتلاء.

•المبحث السابع:

سنة الله في الخائنين للأمانة.

•المبحث الثامن:

سنة الله في التسخير.

•المبحث التاسع:

سنة الله في السعادة والشقاء.

•المبحث العاشر:

من سنن الله في خلقه أن جعل لهم أميراً ولا يصلح حالهم إلّا بهذه الإمارة.

•المبحث الحادي عشر:

من سنن الله في الأمّة المسلمة.

•المبحث الثاني عشر:

سنة الله في قبول الأعمال.

•المبحث الثالث عشر:

من سنن الله في العدل.

•المبحث الرابع عشر:

سنة الله في النصر والهزيمة.

•المبحث الخامس عشر:

سنة الله في الغرابة.

•المبحث السادس عشر:

سنة الله في التمكين.

•المبحث السابع عشر:

سنة الله في الاستبدال.

•المبحث الثامن عشر:

سنة الله في التدافع.

•المبحث التاسع عشر:

سنة الله في أوليائه.

•المبحث العشرون:

سنة الله في الأنبياء.

• المبحث الحادي والعشرون:

سنة الله في التداول.

•المبحث الثاني والعشرون:

سنة الله في الكافرين والمشركين.

•المبحث الثالث والعشرون:

سنة الله- تعالى- في المظهرين للإيمان.

•المبحث الرابع والعشرون:

سنة الله فيمَن يعرض عن ذكره.

•المبحث الخامس والعشرون:

سنة الله في شانئ الرسول.

•المبحث السادس والعشرون:

مِن سنن الله- تعالى- في المخلوقات أنْ خلقهم أزواجًا وأقرانًا.

•المبحث السابع والعشرون:

سنة الله في الأنفس.

•المبحث الثامن والعشرون:

سنة الله في المحبة والكراهية.

•المبحث التاسع والعشرون:

سنة الله في إهلاك الأمم.

•المبحث الثلاثون:

سنة الله في بقاء الأمم.

•المبحث الحادي والثلاثون:

سنة الله في التغيير.

- المبحث الثاني والثلاثون:

التوازن عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

- المبحث الثالث والثلاثون:

منهجية شيخ الإسلام ابن تيمية في عرض السنن.

- المبحث الرابع والثلاثون:

ملاحظات حول السنن لدى ابن تيمية.

الخاتمة: وشملت نتائج البحث والتوصيات.

فهرس المراجع والمصادر.

فهرس الموضوعات.

والله من وراء القصد.

الفصلُ الأول

ابنُ تيمية.. حياته، وعصره، وأبرز مَن تأثّر بهم

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: اسمه ونسبه، حياته ونشأته، وشخصيته السياسية.
- المبحث الثاني: عصره.
- المبحث الثالث: تكوينه العلمي وعطاؤه الفكري.
- المبحث الرابع: ثناء العلماء عليه.

المبحثُ الأول

اسمه ونسبه، وحياته ونشأته، وشخصيته السياسية

•اسمُه ونسبُه:

هـو الشـيخ الإمـام العـالم المفـسّر الفقيـه المجتهـد الحافـظ المحـدث شـيخ الإسـلام، نـادرة العـصر، ذو التصانيـف الباهـرة، والـذكاء المفـرط، تقـي الديـن أبـو العبـاس أحمـد بـن عبـد الحليـم بـن عبـد السـلام بـن عبـد اللـه بـن أبي القاسـم الخـضر بـن محمـد بـن تيميـة النمـيري الحـراني، ثـمّ الدمشـقي الحنبـلي[1].

(١) انظر ترجمته:

١- ذيل تاريخ الإسلام للإمام شمس الدين الذهبي، ص(٢٢).

٢- الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية للحافظ عمر بن علي البزار ت ٧٤٩، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، ط: ٣، ١٤٠٠هـ بيروت، لبنان، ص(١٢).

٣- ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية لابن حجر العسقلاني، ت: سعيد نغشاشة، دار ابن حزم، ط: ١، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م، ص(١٩).

٤- العقود الدرية في مناقب ابن تيمية، لمحمد بن أحمد بن عبد الهادي الدمشقي الصالحي ت ٧٤٤/٧٠٥هـ دراسة وتحقيق: طلعت فؤاد الحلواني، ط: أولى، الفاروق الحديثة للطباعة والنشر، ص(٣).

٥- الكواكب الدرية في مناقب ابن تيمية، تأليف الإمام مرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي المتوفّى سنة ١٠٣٣هـ تحقيق وتعليق: نجم عبد الرحمن خلف، دار الغرب الإسلامي، ط١، ١٤٠٦هـ- ١٩٨٦م.

٦- الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، لمرعي بن يوسف الكرمي الحنبلي (ت ١٠٣٣هـ)، تحقيق: نجم عبد الرحمن خلف، دار الفرقان، مؤسسة الرسالة، ط٢، ١٤٠٥هـ -١٩٨٥م، ص(٢٣).

٧- الدّرر الكامنة لابن حجر، ص(٥٢٣) من الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، جمَعَه ووضع فهارسه: محمد عزيز شمس، ومحمد بن علي العمران، بإشراف: العلامة بكر بن عبد الله أبو زيد، ط مؤسسة الراجحي، دار علم الفوائد.

٨- ترجمة ابن تيمية لابن كرد علي، ط ١، ١٣٨١هـ دمشق، ط٢، ١٣٩١هـ دمشق.

٩- مختصر طبقات علماء الحديث، للعلامة محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي (ت ٧٢٤)، ص(٢٤٨)، من الجامع لآثار ابن تيمية.

انظر: البداية والنهاية، (٢٥٥/١٣)، (٤٥١/١٧)، الجامع.

• مولده:

كان مولد شيخ الإسلام ابن تيمية في عاشر ربيع الأول سنة إحدى وستين وستمائة بحرّان[1]، وقدِمَ مع والده إلى دمشق[2].

بقي ابن تيمية في حرّان إلى أن بلغ سبع سنين، ثمّ انتقل إلى دمشق بعد غارات التتار[3] عليها.

وحرّان بلدةٌ قديمة كانت مِن أهمّ مراكز الديانات القديمة شمال شرقي الجمهورية التركية، قرب أورفة.

• سببُ تسمية شيخ الإسلام بابن تيمية:

قيل: إنّ جده محمد بن الخضر حجّ على درب تيماء، فرأى هناك طفلة، فلمّا رجع وجدَ امرأته قد ولدت له بنتًا، فقال: يا تيمية، يا تيمية، فلُقّب بذلك.

قال ابن النجار: ذكر لنا أنّ جده محمدًا كانت أمُّه تسمّى تيمية، وكانت واعظة، فنُسب إليها وعرف بها[4].

• سببُ تلْقيبه بشيخ الإسلام:

يقول صاحبُ الردّ الوافر: «إنّ لفظ شيخ الإسلام يحتمل وجوهًا من معاني الكلام:

---

(١) حران بلدة قديمة كانت من أهم مراكز الديانات القديمة شمال شرق الجمهورية التركية قرب أورفة، وهي الآن بلدة عامرة، والنسبة إليها حراني وهو الشايع، والصواب حرناني. راجع: معجم البلدان، (٢/٢٣٥)، ومعجم ما استعجم، (١/٣٣٥).

(٢) انظر: ذيل تاريخ الإسلام، للحافظ شمس الدين الذهبي، ت/ محمد بن ناصر العجمي، ط: أولى، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م، دار ابن الأثير، الكويت، ص(٢٢).

انظر: البداية والنهاية، (١٣/٢٥٥)، (١٧/٤٥١) سنة (٦٦٦)، وفي البداية والنهاية أنّ عمره كان ستّ سنوات.

الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، للحافظ ابن عمر بن علي البزار، المتوفى سنة ٧٤٩ هـ تحقيق: زهير الشاويش، ط٢، سنة ١٣٩٦هـ ص(١٦).

(٣) التتار: قبائل كانت تسكن أواسط آسيا، بين بحيرة بايسكال وجبال التائي، منهم المغول. والمغول دولتان: الأولى أسسها جنكيز خان في آسيا الوسطى، والثانية أسسها أحفاد تيمور لنك في الهند ١٥٢٦م.

(٤) العقود الدرية، ص(٤) لمحمد عبد الهادي، والكواكب الدرية، ص(٥٢)، والشهادة الزكية، ص (٢٥)، ومختصر طبقات الحديث للعلامة محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي، ص (٢٤٨).

منهـا: أنـه شـيخ قـد شـاب وانفـرد عمّـن مـضى عـن الأتـراب، وحصـل عـلى الوعـد المبـشّر بالسـلامة أنـه شـاب في الإسـلام، فهـي لـه نـور يـوم القيامـة.

ومنها: ما هو في عرف العوام أنه العدّة، ومفزعهم إليه في كلّ شدة.

ومنهـا: أنـه شـيخ الإسـلام بسـلوكه طريقـةِ أهلـه؛ قـد سـلم مـن شرّ الشـباب وجهلـه، فهـو عـلى السـنّة في فرضـه ونفله.

ومنها: شيخ الإسلام بالنسبة إلى درجة الولاية، وتبرك الناس بحياته، فوجوده فيهم الغاية.

ومنهـا: أنـه معنـاه المعـروف عنـد الجهابـذة النقـاد، والمعلـوم عنـد أئمـة الإسـناد أنّ مشـايخ الإسـلام والأئمـة الأعـلام هُـم المتبعـون لكتـاب اللـه - عـز وجـل - المقتفـون لسـنة النبـي ﷺ، الذيـن تقدّمـوا بمعرفـة أحـكام القـرآن ووجـوه قراءاتـه، وأسـباب نزولـه وناسـخه ومنسـوخه، والأخـذ بالآيـات المُحكـمات والإيمـان بالمتشـابهات، قـد أحكمـوا مِـن لغـة العـرب مـا أعانهـم عـلى علـمِ مـا تقـدّم، وعلمـوا بالسـنة نقـلاً وإسـنادًا وعمـلاً كـما يجـب بـه العمـل اعتـمادًا وإيمانًـا بمـا يلـزم مِـن ذلـك اعتقـادًا واسـتنباطًا للأصـول والفـروع مـن الكتـاب والسـنة، قائمـين بمـا فـرض اللـه عليهـم، مُتمسـكين بمـا سـاقه اللـه مـن ذلـك إليهـم، متواضعـين للـه العظيـم الشـأن، خائفـين مـن عـثرة اللّسـان، لا يدّعـون العصمـة، ولا يفرحـون بالتبجيـل، عالمـين أنّ الذيـن أوتـوا مـن العلـم قليـل، فمَـن كان بهـذه المنزلـة حكـم بأنـه إمـام، واسـتحقّ أن يقـال لـه: شـيخ الإسـلام.

فهـذا هـو شـيخ الإسـلام، وقـد تمثّلـت بـه هـذه الصفـات جميعهـا خـيرَ تمثيـل، لذلـك اسـتحقّ هـذا اللقـب الكريـم[1].

•نشأته وأسرته[2]:

نشأ ابن تيمية في حرّان إلى أن بلغَ سبع سنين، ثمّ انتقل إلى دمشق المحروسة.

(١) الردّ الوافر، ص(٤٤٩) عن القول الجلي، للعلامة سيد صفي الدين الحنفي، ط: دار لينة للنشر، دمنهور، مصر.

(٢) انظر: الأعلام العلية، ص(١٦)، وابن تيمية حياته وعصره وآراؤه الفقهية، محمد أبو زهرة، ط: دار الفكر العربي، ١٩٩١م القاهرة، ص(١٧).

نشـأ في بيـت علـمٍ وفقْـه وديـن، وأبـوه وأجـداده وإخوانـه، وكثـير مـن أعمامـه كانـوا مـن العلـماء المشـاهير.

لقـد كان ابــن تيميــة حنبليًّــا بنشــأته وأسرتــه، وثقافتــه الفقهيــة وميلــه في دراســته، مــع أنّ لــه اختيــارات مــن غــير مذهــب أحمــد.

كان والـد ابـن تيميـة- رحمـه اللـه- لـه كـرسي للدراسـة والتعليـم والوعـظ والإرشـاد، وقـد ذاع صيتُـه وفضلـه بمجـرّد أن وصـل دمشـق، وتـولى مشـيخة دار الحديـث السـكرية، وبهـا كان سـكنه، وتـربى ولـدُه تقـي الديـن بهـا، وكان يتميـز بقـوة الحافظـة والقـدرة عـلى البيـان، وثبـات الجنـان، ولقـد ورث شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة هـذه الصفـات.

وكان عمّـه فخـر الديـن[1] عالمًـا وخطيبًـا وواعظًـا، وجمـع تفسـيرًا للقـرآن حافـلاً في مجلّـدات ضِخـام، وقـد تخـرج عـن ابـن الجـوزي خطيـب بغـداد وواعظهـا، وحـلّ محلّـه في الوعـظ، وقـد أخـذ ابـن تيميـة العلـم عنـه.

وأيضًـا كان جـدّه أبـو الـبركات مجـدّ الديـن[2] مـن أئمـة المذهـب الحنبـلي وكبـار علمائـه، يقـول الإمـام الذهبـي مادحًـا لـه: كان الشـيخ مجـد الديـن معـدوم النظـير في زمانـه، رأسًـا في الفقـه وأصولـه، بارعًـا في الحديـث ومعانيـه، لـه اليـدُ الطـولى في معرفـة القـرآن والتفسـير، صنّـف التصانيـف، واشـتهر وبَعُـد صيتـه، كان فريـد زمانـه في معرفـة المذاهـب، مفـرط الـذكاء، متـين الديانـة، كبـير الشـأن[3].

(١) هو محمد بن الخضر بن محمد بن الخضر بن علي بن تيمية الحراني، الحنبلي، مفسر وخطيب وواعظ، كان شيخ حرّان وخطيبها، ولد في حرّان: ٥٤٢هـ وتوفي عام ٦٢٢هـ ومن كتبه: التفسير الكبير، ويقع في عدّة مجلدات، وتخليص المطلب في تلخيص المذهب، وترغيب القاصد. انظر الوافي بالوفيات، (٢٦٠/١٨)، والأعلام، (١١٣/٦).

(٢) هو مجد الدين عبد السلام بن عبد الله بن الخضر بن محمد بن تيمية الحراني أبو البركات مجد الدين، فقيه حنبلي محدّث مفسّر، ولد بحران عام ٥٩٠هـ وحدث بالحجاز والعراق والشام ثمّ ببلده حرّان، وتوفي بها عام ٦٥٢هـ كان فرد زمانه في معرفة المذهب الحنبلي، من كتبه: تفسير القرآن العظيم، وهو جدّ الإمام ابن تيمية. راجع: فوات الوفيات، (٢٧٤/١)، والأعلام، (٦/٤).

(٣) انظر: شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رجل الإصلاح والدعوة للعليمي، ص(٤٩)، ط: أولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م، بيروت، لبنان.

قـال الحافـظ الشريـف عـزّ الديـن: «حـدث بالحجـاز والشـام والعـراق وبلـدة حـرّان، وصنـف ودرس، وكان مـن أعيـان العلـماء وأكابـر الفضـلاء ببلـده، وبيتـه مشـهور بالعلـم والديـن والحديـث».

أخـذ عنـه العلـمَ جماعـةٌ مـن العلـماء أشـهرهم ابنـه شـهاب الديـن عبـد الحليـم، والحافـظ عبـد المؤمـن الدمياطـي، وآخـرون.

لـه مـن المصنّفـات: كتـاب الأحـكام الكـبرى، وكتـاب المنتقـى مـن أحاديـث الأحـكام، ولـه المسـودة في الأصـول، والتـي زاد فيـه ولـده شـهاب الديـن، ثـمّ حفيـده أبـو العبـاس تقـي الديـن.

تـوفّي- رحمـه اللـه تعـالى- يـومَ عيـد الفطـر بعـد صـلاة الجمعـة مـن سـنة اثنتـين وخمسـين وسـتمائة بحـرّان، ودفـن بظاهرهـا[1].

نشـأ ابـن تيميـة– رحمـه اللـه تعـالى- في تصـوّن تـام، وعفـاف وتألّـه، واقتصـاد في المـأكل والملبـس، بـرًّا بوالديـه، تقيًّـا عابـدًا ناسـكًا صوّامًـا قوّامًـا[2].

يقـول الحافـظ عمـر بـن عـلي البـزار المتـوفى سـنة ٧٤٩هــ: «إنـه نشـأ في دمشـق أتـمّ إنشـاء وأزْكاه، وأنبتـه اللـه أحسـنَ النبـات وأوفـاه، وكانـت مخايـل النجابـة عليـه في صغـره لائحـة، ودلائـل العنايـة فيـه واضحـة، ثـمّ ذكـر أنـه منـذ صغـره كان مُسـتغرق الأوقـات في الجـدّ والاجتهـاد، وختـم القـرآن صغـيراً، ثـمّ اشـتغل بحفـظ الحديـث والفقـه والعربيـة حتـى بـرع في ذلـك، مـع ملازمتـه مجالـس الذكـر والآثـار، ولقـد سـمع غـير كتـاب عـلى غـير شـيخ مـن ذوي الروايـات الصحيحـة العاليـة.

أمّـا دواويـن الإسـلام الكبـار كـ: مسـند أحمـد[3] وصحيـح البخـاري[4] ومسـلم[5] وجامـع

---

(١) انظر: مقدمة الجامع لسيرة شيخ الإسلام، الشيخ بكر أبو زيد، ص(١٨).

(٢) الجامع لسيرة شيخ الإسلام ابن تيمية خلال سبعة قرون، محمد عز الدين شمس، وعلي بن محمد العمران، إشراف وتقديم الدكتور بكر أبو زيد، ط: مؤسسة الراجحي، دار علم الفوائد، ط: ٢، ١٤٢٢هـ ص(١٩).

(٣) هو الإمام أحمد بن محمد بن حنبل، ولد ١٦٤، توفي عام ٢٤١ هـ ببغداد.

(٤) محمد بن إسماعيل البخاري، ولد عام ١٩٤، وتوفي عام ٢٥٦هـ.

(٥) مسلم بن الحجاج القشيري، ولد عام ٢٠٤ هـ وتوفي عام ٢٦١هـ.

الترمـذي[١] وسـنن أبي داود السجسـتاني[٢] والنسـائي[٣] وابـن ماجـه[٤] والدارقطنـي[٥]؛ فإنـه- رحمـه اللـه ورضي عنهـم وعنـه- سـمع كلّ واحـدٍ منهـا عـدّة مـرات.

وأوّل كتاب حفظه في الحديث «الجمع بين الصحيحين» للإمام الحميدي[٦].

وقلّ كتاب من فنون العلم إلّا وقف عليه.

وكأنّ اللـه قـد خصّـه بسرعـة الحفـظ، وإبطـاء النسـيان، لم يكـن يقـف عـلى شيء أو يسـتمع لـشيء- غالبًـا- إلّا ويبقـى عـلى خاطـره، إمّـا بلفظـه أو معنـاه، وكان العلـم كأنـه اختلـط بلحمـه ودمِـه وسـائره، فإنـه لم يكـن لـه مسـتعارًا، بـل كان لـه شـعارًا ودثـارًا، لم يـزل آبـاؤه أهـل الدّرايـة التامّـة والنقـد والقـدم الراسـخة في الفضـل، لكـن جمـع اللـه لـه مـا خـرق بمثلـه العـادة، ووفّقـه في جميـع أمـره لأعـلام السـعادة، وجعـل مآثـره لإمامتـه مـن أكـبر شـهادة، حتـى اتّفـق كلّ ذي عقـل سـليم أنـه ممّـن عنـى نبينـا ﷺ بقولـه: «إن اللـه يبعـث عـلى رأس كلّ مائـة سـنة مَـن يجـدّد لهـذه الأمّـة أمـر دينهـا»[٧]؛ فلقـد أحيـا اللـه بـه مـا كان قـد درس مـن شرائـع الديـن، وجعلـه حجّـة عـلى أهـل عـصره أجمعـين، والحمـد للـه رب العالمـين»[٨].

لقـد هيّـأ اللـه لشـيخ الإسـلام ابـن تيميـة نفسًـا صافيـة زكيّـة مُقبلـة عـلى العلـم محبّـة لـه، ولعـلّ بيئتـه كانـت مـن أكـبر الحوافـز عـلى ذلـك؛ لذلـك تعلّـم الخـطّ والحسـاب في الكتّـاب، وحفـظ القـرآن وهو في الصغـر، أتقـن العلـومَ مـن التفسـير والحديـث والفقـه والأصـول والعربيـة والتاريـخ والجـبر والمقابلـة والمنطـق والهيئـة وعلـم أهـل الكتابـين والملـل الأخـرى، وعلـم أهـل البـدع وغيرهـا؛ وهـو ابـن بضـع عـشرة سـنة، حتـى إنـه حـذق العربيـة في أيـام، وفهِـمَ كتـاب سـيبويه في أيـام، وفي الحديـث والتفسـير كان منقطـع النظـير.

---

(١) هو الإمام محمد بن عيسى الترمذي، ولد عام ٢٠٠ هـ وتوفي ببلده ترمذ ٢٧٩ هـ.

(٢) أبو داوود سليمان بن الأشعث، ولد عام ٢٠٢ هـ ومات عام ٢٧٥هـ.

(٣) أحمد بن علي النسائي، ولد عام ٢١٥، وتوفي عام ٣٠٣ هـ.

(٤) ابن ماجه هو محمد بن يزيد بن ماجه، ولد ٢٠٩، وتوفي عام ٢٧٣هـ.

(٥) هو الإمام علي بن عمر الدارقطني، ولد عام ٣٠٦، وتوفي عام ٣٨٥هـ.

(٦) هو محمد بن فلوح، ولد عام ٤٢٠، وتوفي عام ٤٨٨هـ.

(٧) سنن أبي داود، (١٠٩/٤)، وقال الألباني: صحيح.

(٨) الأعلام العلية، ص(١٦-١٩).

لقد ناظر واستدلّ وهو دونَ البلوغ، وأفتى في سن السابعة عشرة من عمره، أي: سنة ٦٧٧هـ ودرّس في الحادية والعشرين من عمره، أي: سنة ٦٨١؛ بعد موت أبيه في المدرسة السكرية، وتولّى مشيختها يوم الاثنين ٦٨٣/١/٢هـ.

بدأ يدرّس بالجامع الأموي في٦٩١/٢/١٠هـ أي: وهو ابن ثلاثين سنة، واستمر سنين مُتطاولة.

حجّ مرّة واحدة سنة ٦٩٢هـ أي: وعمره إحدى وثلاثون سنة، وبعد عودته من الحج آلتْ إليه الإمامةُ في العلم والدين.

ونشر العلم في دمشق، والقاهرة والإسكندرية وفي سجونهما.

درّس بالمدرسة الحنبلية في يوم الأربعاء ٦٩٥/٨/١٧هـ.

أوّل رحلاته إلى مصر في القاهرة والإسكندرية مرّتين سنة ٧٠٠هـ، ثمّ عاد إلى دمشق، ثمّ رجع إلى مصر سنة ٧٠٤هـ وكانت إقامته بها نحو سبع سنين وسبع جمع، أي: إلى سنة ٧١٢هـ متنقلًا في جلّها بين سجون القاهرة والإسكندرية.

بدأ في التأليف وهو ابنُ سبع عشرة سنة[١].

يقول الذهبي- واصفًا فضل ابن تيمية-: وكان يقضي منه العجب إذا ذكر مسألة من مسائل الخلاف واستدلّ ورجّح يحقّ له الاجتهاد؛ لاجتماع شروطه فيه، فإنني ما رأيت أحدًا أسرع انتزاعًا للآيات الدّالة على المسألة التي يوردها، ولا أشدّ استحضارًا لمتون الأحاديث[٢].

• صفاته الخِلقية:

كان الشيخ أبيض، أسودَ الشعر واللّحية، قليل الشّيب، شَعْرُه إلى شحمة أذنيه، كأنّ عينيه لسانان ناطقان، ربعة من الرجال، بعيدَ ما بين المنكبين، جهْوَري الصوت، فصيحًا، سريع القراءة، تعتريه حدة، ثمّ يقهرها بحلم وصفح، وإليه كان المنتهى في فرط الشجاعة والسماحة وقوة الذكاء[٣].

(١) مقدمة الجامع، ص(١٩-٢٠).

(٢) ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام، ص(٢٣).

(٣) ذيل تاريخ الإسلام، ص(٢٢-٢٣).

«وكان متوسطًا في لباسه وهيئته، لا يلبس فاخرَ الثياب بحيث يرمق، ويمدّ النظر إليه، ولا أطمارًا ولا غليظة تشهر حالَ لابسها، وهيئته كغالب الناس ومتوسطهم، ولم يكن يلزم نوعًا واحدًا من اللّباس، فلا يلبس غيره، بل كان يلبس ما اتّفق وحصل»[1].

وقد وهبه الله - عز وجل - ذكاء مفرطًا، وقوة حافظة، وسرعة إدراك[2].

• صفاته الأخلاقية:

كتب كثيرٌ من المؤرخين والعلماء عن صفات شيخنا الفاضل ابن تيمية، وذلك لما خصّه الله به من صفات جعلته آيةً من آيات الله في زمانه، وفي أزمنة أخرى كثيرة.

لقد كان في نجابته وذكائه وأخلاقه وإقباله على العلم والتعلم وعلو الهمة في كلّ مناحي الخير؛ مضربَ الأمثال. ولقد كتب كثيرٌ من العلماء عن أخلاقه إمّا بصورة إجماليّة مثل: محمد بن أحمد بن عبد الهادي الحنبلي المتوفّى سنة٧٤٤هـ؛ حيث ذكر أنه نشأ في تصوّن تامّ وعفاف وتألّه واقتصاد في الملبس والمأكل، ولم يزلْ على ذلك خلفًا صالحًا سلفيًّا برًّا بوالديه تقيًّا ورعًا عابدًا ناسكًا، صوّامًا قوّامًا ذاكرًا لله- تعالى- في كلّ أمر وعلى كلّ حال، رجّاعًا إلى الله في سائر الأحوال والقضايا، وقّافًا عند حدود الله، وأوامره ونواهيه، آمرًا بالمعروف، ناهيًا عن المنكر، نفسُه لا تشبع من العلم، ولا تُروَى من المطالعة، ولا تملّ من الانشغال، ولا تكلّ من البحث، وقلّ أن يدخل في علمٍ من العلوم في بابٍ من أبوابه إلّا أن يُفتح له من ذلك الباب أبوابٌ، ويستدرك أشياء في العلم على حذّاق أهله، وكان يحضر المدارس والمحافل في صغره، ويتكلّم ويناظر ويفهم الكبار، ويأتي بما يتحيّر منه أعيانُ البلد في العلم، وأفتى وله نحو سبع عشرة سنة، وشرع في الجمْع والتأليف في ذلك الوقت، ودرّس وله نحو إحدى وعشرين سنة، وحجّ سنة إحدى وتسعين، وله ثلاثون سنة، ورجع وقد انتهت إليه الإمامة في العلم والعمل، والزّهد

---

(١) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية لمحمد كرد علي- رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق، ط١، ١٣٨١هـ دمشق ص(٢)، ١٣٩١، دمشق في كتابه كنوز الأجداد ص(١٨)، وفوات الوفيات، ص(٣٩٠) لابن شاكر الكتبي، والأعلام العلية، ص(٥٣).

(٢) الدرر الكامنة، (١٥٤/١)، وترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(١٨)، والعقود الدرية، ص(٢٠).

والـورع والشـجاعة والكـرم والتواضـع والحلـم والأنَـاة والجلالـة والمهابـة والأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر، مـع الصـدق والأمانـة والصيانـة وحُسـن القصـد والإخـلاص والابتهـال إلى اللـه وشـدّة الخـوف منـه، ودوام المراقبـة لـه، والتمسّـك بالأثـر والدعـاء إلى اللـه، وحسـن الأخـلاق، ونفْـع الخلـق والإحسـان.

وكان- رحمـه اللـه- سـيفًا مسـلولًا عـلى المخالفـين، وشـجى في حلـوق أهـلِ الأهـواء والمبتدعـين، وإمامًـا قائمًـا ببيـان الحـقّ ونـصرة الديـن، طنّـت بذكـره الأمصـار، وضنّـت بمثلـه الأعصـار[1].

لقـد كان ابـنُ تيميـة آيـةً مـن آيـات اللـه في ذكائـه ونجابتـه وإقبالـه عـلى العلـم والتعلّـم والحفـظ، كـما كان- رحمـه اللـه- مـضربَ الأمثـال في أخلاقـه. ولقـد كتـب الكثـيرون عـن أخلاقـه الرائعـة التـي لا نسـتطيع الإلمـامَ بـكلّ مـا قيـل عنـه في هـذه الدّراسـة، وتلـك نبـذة قصـيرة عـن أخلاقـه التـي اشـتُهر بهـا بـين النـاس، ومِـن ذلـك:

• الرّبّانية:

كان ابـن تيميـة محبًّـا للـه - عـز وجـل - حبًّـا شـديدًا يملـك عليـه نفسَـه؛ حيـث جعـل عبادتـه لربّـه محـورَ حياتـه، فـتراه مُنشـغلًا بالعبـادة بـكلّ أنواعهـا، خاليًـا بربّـه، ضارعًـا مواظبًـا عـلى تـلاوة القـرآن الكريـم، مُحافظًـا عـلى العبـادات النّهاريـة والليليـة.

يقـول البـزار- رحمـه اللـه- واصفًـا صلاتَـه: كان إذا ذهـب الليـل وحـضر مـع النـاس بـدأ بصـلاة الفجـر يـأتي بسـنّتها قبـل إتيانـه إليهـم، وكان إذا أحـرمَ بالصـلاة تـكاد تنخلـعُ القلـوب لهيبـة إتيانـه بتكبـيرة الإحـرام، فـإذا دخـل في الصـلاة ترتعـدُ أعضـاؤه، تُميلـه يمنـة ويـسرة، وكان إذا قـرأ يمـدّ قراءتـه مـدًّا كـما صـحّ في قـراءة رسـول اللـه ﷺ، وكان ركوعـه وسـجوده وانتصابُـه عنهـما مِـن أكمـل مـا ورد في صـلاة الفرائـض، وكان يخفّـف جلوسـه للتشـهد الأوّل خفّـة شـديدة، ويجهـر بالتسـليمة الأولى حتـى يسـمع كلّ مَـن حـضر، فـإذا فـرغ مـن صلاتـه أثنـى عـلى اللـه - عـز وجـل - [2].

(١) مختصر طبقات علماء الحديث، محمد أحمد عبد الهادي الحنبلي، ص(٢٤٨).

(٢) الأعلام العلية، (٣٦، ٣٧).

وكان حريصًا على الدّعاء بعد كلّ صلاة بالمأثور عن النبي ﷺ والدعاء له وللمسلمين، ثمّ يأخذ في تلاوةِ أوراده بعد صلاة الفجر بذكر الله، لا يكلّمه أحدٌ ولا يتكلّم مع أحدٍ من الناس حتى ترتفع الشمس، ثمّ يذهب إلى المنزل، فإذا مرّ بجنازة شيّعها، ويمرّ على الناس يسلّم عليهم ويتفقّد أحوالهم، ثمّ يعود إلى مسجده فلا يزال تارة في إفتاء الناس وقضاء حوائجهم حتى صلاةِ الظهر، ثمّ يصلي المغرب، ثمّ يتطوّع لقراءة مؤلفاته حتى يصلّي العشاء، ثمّ يعود إلى العلم مرة أخرى، فلا يزال ذاكرًا لله طوالَ وقته يوحّده ويستغفره، وكان دائمًا يعود المرضى في كلّ أسبوع، خاصّة بالمارستان، وهكذا يقضي نهاره وليلَه ما بين العلم والعبادة وخدمة الناس، وإفادتهم، ولا ينسى أبدًا ذكره لله[1].

إنّنا نجد أنّ ابن تيمية كانت له شخصيةٌ نظيفة من الأنانية وحبّ الذات؛ حيث كان هدفه في الحياة تعلّمَ الدين وتعليمَه للآخرين، فكان سعيُه دائمًا لإعلاء شأن الدين وتصحيح العقيدة لدى الناس، وتنظيفها ممّا علق بها من الشوائب، وما كان هذا الأمر ليتحقّق لو كان للدنيا نصيبٌ في حياته، ويضاف إلى الإخلاص والتفاني في خدمة الدين شجاعةٌ نادرة تميّزت بالجَلَد والصبر، لذلك لم يكنِ ابن تيمية ليتردّد لحظة واحدة في إعطاء الدّروس أينما وجِد، وكذلك التدخّل في النقاش مهْما يكنِ الموضوع، ما دام في الشريعة واتباعًا لسنة المصطفى ﷺ، وكان يجاهد آمرًا ومأمورًا في سبيل الله حين يتطلّب الأمر مثل ذلك، كما حدث في اشتراكه في الحروب ضدّ التتار في أكثر المواقع[2].

• فقرٌ وإيثار:

كان - رحمه الله - تاركًا للدّنيا فقيرًا فيها، وكان مع ذلك يتصدّق بالقليل والكثير، حتى إذا لم يجدْ شيئًا يتصدّق به؛ نزع بعض ثيابه المحتاج إليها وأعطاها للفقير، وكان يتصدّق بقوته وطعامه ولو برغيف أو رغيفين، مؤثرًا بذلك على نفسه، وكان أكثر تصدّقه على الغرباء وطلبة العلم الفقراء، مِن الفقهاء والقراء، ومساعدته لهم ولغيرهم من المحتاجين[3].

---

(١) الأعلام العلية، ص(٣٩-٤١)، والكواكب الدرية، ص(٨٣).

(٢) ابن تيمية حياته وعصره، محمد أبو زهرة، ص(٨٥)، وما بعدها.

(٣) الأعلام العلية، ص(٤٨-٥٠).

• التواضع:

كان الشيخ ابن تيمية - رحمه الله - لا يبخلُ بمجلسه على أحد؛ فكان يحضر مجلسَه الصغيرُ والكبير والعبدُ والحرّ، والأنثى والذكر؛ فهو عامّ لجميع الناس، وكان يتواضع للكبير والصغير والجليل والحقير والغني الصالح والفقير، وكان يخدمه بنفسِه ويُعينه على قضاء حاجته، جبرًا لقلبه وتقرّبًا إلى الله بذلك.

كان- رحمه الله- لا يسأم مِن الفتوى، ويقابل الناس بالبَشاشة وسعة الصدر حتى يُفهِمَهم ما يسألون عنه، فقد كان متواضعًا في جميع أحواله، فكان يجلس تحت الكرسي ويدعُ صدرَ المجالس[1].

يقول عنه البزار: وأظهر لي مِن حسن الأخلاق والمبالغة في التواضع بحيث إنه كان إذا خرجنا مِن منزله بقصد القراءة يحملُ هو بنفسه النّسخة، ولا يدع أحدًا منّا يحملها، وكنت أعتذر إليه من ذلك خوفًا من سوء الأدب، فيقول: لو حملته على رأسي لكان ينبغي، ألا أحمل ما فيه كلام رسول الله[2].

• زهدُه وتقاعدُه عن الدنيا:

إذا تأمّلنا حياة هذا الشيخ الجليل لوجدنا أنه عاش حياته منذ صغره لهدفٍ محدّد، وهو إرضاء ربّ العالمين، والسعي للدار الآخرة، ولقد جعله هذا الهدف غير راغب في الدّنيا، ومُتحرّرًا من عبوديتها له، فمنذ أنْ كان صبيًّا رافضًا للجائزة التي جعلها له والده لتحفّزه على حفظ كتاب الله، قائلًا: إنّه لا يأخذ على القرآن أجرًا، إلى أنْ كان شيخًا اشتُهر في أهل زمانه أنه أزهدُ الناس وأكملُهم في رفض فضول الدنيا، فلم يُسمَع عنه رغبتُه في زوجةٍ حسناء أو دارٍ أو بستان أو عقار، ولا سعى للرئاسات وأبواب الملوك كما يسعى غيرُه، بل سعى إليه الأمراءُ والملوك والتجار خاضعين لقوله وفضله[3].

(١) الأعلام العلية، ص(٥٠، ٥١).
(٢) الأعلام العلية، ص(٥٢).
(٣) الأعلام العلية، ص(٤٥، ٤٦)، والكواكب الدرية، ص(٨٤).

• ورعُه وكرمُه:

كان - رحمـه اللـه - غايـةً في الـورع، فـما خالـط النـاسَ في بيـعٍ ولا شراء، ولا معاملـةٍ ولا تجـارة، ولا مشـاركة ولا زراعـة، ولا عـمارة، ولا كان ناظـرًا مبـاشرًا لحـال وقـف، ولم يكـن يقبـل جرايـة ولا صلـة لنفسـه مـن سـلطان ولا أمـير ولا تاجـر، ولا كان مدّخـرًا دينـارًا ولا درهـمًا، ولا متاعًـا ولا طعامًـا، وإنمـا كانـت بضاعتـه مـدّة حياتـه وميراثـه بعـد وفاتـه - رحمـه اللـه - العلـمَ اقتـداءً بسـيد المرسـلين ﷺ.

أمّـا عـن كرمـه، فقـد كان مَجبـولاً عـلى الكـرم؛ فهـو لـه سـجيّة، فقـد كان لا يـردّ مَـن يسـأله شـيئًا يقـدرُ عليـه مـن دراهـم ولا دنانـير ولا ثيـاب ولا كتـب ولا غـير ذلـك، وإذا سـأله فقـيرٌ شـيئًا ليـس عنـده أعطـاه أي شيء مِـن لباسـه ولم يدعْـه يذهـب بـلا شيء، بـل ربّمـا قسَـمَ عمامتَـه نصفـين لمَـن لم يجـدْه مُعتـمًّا، واعتـمَّ هـو بالنصـف الآخـر، لقـد كان جـوادًا بالميسـور كائنًـا مـا كان[1].

وهـذا مِـن أبلـغ إخـلاص العمـل للـه - عـز وجـل -، وهـو- أيضًـا- كان لا يمنـع أحـدًا مـن كتـاب ينتفـع بـه أو مصحـفٍ قـد اشـتراه بدراهـم كثـيرة، وكان ينكـر عـلى مَـن يمنـع النـاسَ الكتـبَ والعلـم، فسُـبحان الموفّـق إلى العمـل الصالـح الـذي يحبّـه ويرضـاه[2].

• قوّةُ قلبه وشجاعتُه:

يقـول البـزار: كان - رحمـه اللـه - مِـن أشـجع النـاس وأقواهـم قلبًـا، مـا رأيـت أحـدًا أثبـت جأشًـا منـه، ولا أعظـمَ عنـاء في جهـاد العـدو منـه، كان يجاهـد في سـبيل اللـه بقلبـه ولسـانه ويـدِه، ولا يخاف في اللـه لومـةَ لائـم، وأخـبر غـيرُ واحـدٍ أنّ الشـيخ رحمـه اللـه إذا حـضر مـع عسـكر المسـلمين في جهـادٍ يكـون بينهـم واقيتَهـم، وقطـبَ نباتهـم، إنْ رأى مِـن بعضهـم هلعًـا أو رقّـة أو جبانـة شـجّعه وثبّتـه وبـشّره، ووعـدَه بالنـصر والظفـر والغنيمـة، وبـيّن لـه فضـلَ الجهـاد والمجاهديـن وإنـزالَ اللـه عليهـم السّـكينة، وكان إذا ركـب الخيـل يتحنّـك ويجـول في العـدو، كأعظـم الشـجعان، ويقـوم كأثْبَـت الفرسـان ويكـبّر تكبـيرًا أنـكى في العـدو مِـن كثـير مِـن الفَتـك، ويخـوض فيهـم خـوضَ رجـلٍ لا يخـاف المـوت[3].

---

(١) الأعلام العلية، ص(٤٢-٤٤)، والكواكب الدرية، ص(٨٥، ٨٦).
(٢) الأعلام العلية، ص(٦٣-٦٦).
(٣) الأعلام العلية، ص(٦٧، ٦٨).

وطرفًا مِن شجاعته- أيضًا- أنه كان لا يخاف السلاطين، فكان يذهب إليهم وينصحهم ويسألهم دون خوف أو تردّد، ومِن ذلك موقفه مع السطان غازان، وأيضًا- في موقفه مع السلطان الملك الناصر محمد ما يشهدُ له بذلك[١].

• قوّتُه في مرضاة الله - عز وجل -:

كان للشيخ من القوة والجَلَد في مرضاة الله والصبر على الشدائد والثبات على الحقّ ما شهدَ به جميعُ علماء وأهل زمانه، وعرف عنه أنه كان ذا نظرٍ لا يحيد لحظةً عن رؤية الحقّ والجهاد في سبيل الله، فكرهه بعضُ الناس وحقد عليه وحسده ضعافُ النفوس وطلّاب الرئاسة، وكثر الواشون به عند السلاطين؛ لأنه كان يقول الحقّ ولا يخاف في الله لومة لائم، ولا يُثْنيه عن قول الحقّ تحاسد أو عداء، ولقد سُجن أزمانًا وأعصارًا وسنين وشهورًا، ولم يوَلّهم دبُرَه فرارًا، ولقد قصد أعداؤه الفتكَ به مرارًا وأوْسعوا حيلَهم عليه إعلانًا وإسْرارًا، فجعل الله حفظه منهم له شعارًا ودثارًا، ولقد ظنّوا أنّ في حبْسه شينة؛ فجعل الله له فضيلة وزينة، وظهر له يوم موته ما لو رآه وادُّهُ أقرّ به عينه؛ فإنّ الله- تعالى- لعلمه بقرب أجلِه ألبسه الفراغَ عن الخلق للقدوم على الحقّ أجمل حُلَلِه، كوْنه حُبس على غير جريرةٍ ولا جريمة، بل على قوّة في الحقّ وعزيمة[٢].

إنّ شخصية ابن تيمية لعجيبةٌ في كلّ شيء؛ في حرصها على العلم، وفي حرصها على طاعة الله، والدار الآخرة، وفي حرصها على النّيل والظفر بدرجات الفضائل كلّها، فكان لها أنْ تسمو إلى أعلى، وأنْ يهبها الله بكلّ ما يزيدها ولا ينتقصها.

لقد وهبَهُ الله الفراسةَ والكرامة، وجعله حجّة عصره، وشيخًا رائعًا للإسلام والمسلمين.

«حَتَّى إنّ أهل البَلَد البعيد عَنهُ كَانُوا يرسلون إليه بالاستفتاء عَن وقائعهم، ويعوّلون عَلَيْهِ فِي كشف ما التبس عَلَيهم حكمه، فيشفي غلّتهم بأجوبته المسدّدة، ويبرهن على الحقّ من أقوال العلماء المقيدَة، حتَّى إِذا وقف عَليها كلّ محقّ ذُو بَصيرَة وتقوى ممَّن قد وفق لترك الهوى أذعَنَ

(١) الأعلام العلية، ص(٦٧).

(٢) الأعلام العلية، ص(٧٦، ٧٧).

بقبولها، وَبان لَه حقّ مَدلولها، وإنْ سمع عَن أحدٍ مِن أهل وقته مُخالفَته في حقّه المَشهور يكون ممَّن قد ظهر عليه للخاصّة وللعامّة فعل الشرور والاشتغال بترّهات الغرور»[1].

• شخصيتُه السياسيّة:

عاش ابن تيمية حياتَه كلّها وهو يضع نصبَ عينيه أنّ حال الأمّة لن يكون صالحًا إلّا إذا تمسّك بشرع الله نقيًّا خاليًا من الأدْران والبدع، ولعلّ محور حياته كلّها دار حول هذا الهدف، ولن يتحقّق هذا الهدف إلّا بالنظرة الشمولية للإسلام، فهو قولٌ وعمل، وحياة اجتماعية ودينية وسياسية لا انفصام بين هذه الجوانب ولا اختلاف، بل هناك تلاصق تامّ، وتمازُج رهيبٌ بين جميع الجوانب كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمّى والسهر.

لذلك اهتمّ شيخ الإسلام بالحياة السياسية كما اهتمّ بغيرها، ولعلّ أهمّ المواقف التي جعلت ابن تيمية يعي معنى السياسة وتأثيرها في حياة الناس موقفُه عندما خرج مع والديه تاركًا بلدته (حرّان) التي تربّى بها، لا يهتمّون فيها بمنازلهم وأموالهم، خرجوا حرصًا على حياتهم من هوْل التتار ووحشيتهم، وهُم يعانون المشقّة في الطريق، كما أنه رأى فزَعَ الناس وهروبهم إلى دمشق، فكَرِهَ التتارَ وكرهَ الغزاة والظالمين، ثمّ استوى رجلاً فأخذ يقودُ الجحافل لقتالهم، لقد كان يراهم بُغاةً ظالمين يجب قتالهم حتى يتوبوا أو يقدر عليهم قضاؤهم حتى تخرج الشعوب التي يهضمون حقوقَها من تحت سلطانهم، ويعيثون فسادًا في الأرض»[2].

وظهرتْ شخصية ابن تيمية الفعليّة منذ سنة ستّ وتسعين وستمائة، وبدأ تعويل الأمّة عليه في دفع أعدائها عنها في نوبة غازان، فقام بأعباء الأمْر بنفسه، واجتمع بنائبه، وتوجّه بعد ذلك إلى الدّيار المصرية لمّا اشتدّ الأمر بالشام من المغول، واستصرخ بأركان الدّولة، وحضّهم على الجهاد، ثمّ عاد بعد أيام على دمشق، وظهر اهتمامه بجهاد التتار وتحريضه الأمراء على ذلك، إلى

(١) السابق، ص(٧٩).
(٢) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٨) بتصرف.

أن ورد الخبر بانصرافهم، وقيامه المحمود في وقعة شقحب[١] سنة اثنين وسبعمائة، واجتماعه بالخليفة والسلطان، وأرباب الحلّ والعقد، وتحريضهم على الجهاد.

ثمّ توجّهه في آخر سنة أربع وسبعمائة لقتال الكسروانيّين واستئصال شأفتهم.

ثمّ مناظرته للمخالفين في سنة خمس وسبعمائة في المجالس التي عقدت له بحضرة نائب السلطنة الأفرم، وظهوره عليهم بالحجّة والبرهان، ورجوعهم إلى قوله طائعين ومُكرَهين[٢].

لقد كان دورُه في انتصار دولة المماليك على التتار اليدَ الطولى التي لا تنكر، ودلّ أنه في السياسة كما هو في الدّين إمامٌ عظيم، وأنّ الدين لا ينفصل عن السياسة في نظره، وما سمع لأحدٍ من علماء الدّين في عصره صوتٌ مثل صوته في إحقاق الحقّ ونصرة سلطان الإسلام، ولم يرضَ يوم عقد الصلح مع التتار أن يتخلّى عن الأسرى من النصارى واليهود فقال: إنهم ذمّتنا ولا بدّ من إرجاعهم إلى ديارهم[٣].

لقد عانى ابن تيمية كثيرًا مِن لجوء المخالفين له في الرأي إلى الحكام مُختلقين الأسبابَ من أجل المَساس به حسدًا وحقدًا، وتسبّبوا في سجْنه عدّة مرّات حتى توفي وهو في سجنه- رحمه الله- وما ذلك إلّا لأنه رفض استمرارَ المجتمع في البدع، واستمراءهم للخرافات، فواجههم بالردّ والحجّة، مُستعينًا بالله - عز وجل - موضّحًا رأي السلف والسنة والصحابة - رضي الله عنهم - في هذه الآراء، ولعلّ مسألة شدّ الرحال إلى قبور الأنبياء والأولياء والصالحين خيرُ دليلٍ على ذلك.

لقد عاش الشيخ عمرًا حافلًا بالعلم والمعرفة، وزاخرًا بالجهاد بشتّى صنوفه، صابرًا مُحتسبًا حياتَه لها، مُفعمة بالنّور والحياة؛ فرحمَهُ الله رحمةً واسعة، وجزاه عنِ الإسلام والمسلمين خيرَ الجزاء.

---

(١) شقحب: قرية في جنوب غرب دمشق تبعد عنها ٢٥ ميلًا وكانت بها معركة بين التتار وأهل الشام.

(٢) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(٢١-٢٣).

(٣) السابق، ص(٣٢، ٣٣).

المبحثُ الثّاني

عصرُ ابن تيمية

إنّ للعصر تأثيراً بالغًا على العالم الذي تربّى فيه، فقد يؤدي فسادُ العصر إلى فساد الرّجل، وقد يكون التأثير عكسيًّا، فكثرة الفساد تحمل على التفكير الجدّي في الإصلاح، وكثرة الشرّ تحمل على حفْز العزائم لنشر الخير، وقد تكون من الدوافع المهمّة التي تبثّ في نفس المصلح اقتلاعَ الشرّ ومحاربته، وهذا هو حال ابن تيمية مع عصره، فقد نفذت روحه ممّا درس في حياته، وما عكف عليه في كهولته وشيخوخته من الرجوع إلى ينابيع الشّرع الأولى، وكنوز السنة النبوية المشرفة، وما كان عليه سلف المؤمنين، فاستطاع أن يقارن بين ما درس من الإسلام من النور الساطع وبين هذا الظلام الدامي في هذا العصر، والفساد الشديد في كلّ نواحي الحياة، يرى في الإسلام عزًّا واتحادًا، ويرى في عصره ذلًّا وانكسارًا وانقسامًا، يرى في الماضي حكمًا صالحًا، وأمور المسلمين شورى بينهم، ويرى في حاضره استبدادًا وطغيانًا، وقد أكل القوي الضعيف، واستمرأ الحاكم لحمَ المحكوم ومالَه، لذا تقدّم شيخ الإسلام ابن تيمية ليصلح ويداوي، وقد وجد الدواء في كتاب الله وسنة رسوله، وأعمالِ الصحابة وكبار التابعين، فكانت آراؤه العلمية دواءً لهذا العصر، ولو فتّشت عن البواعث التي بعثته على الجهر بكلّ ما جهر به؛ لوجدت أنّ الباعث على المجاهرة عيبٌ في الزمان، وفساد أهل العصر في العمل أو الفكر أو فيهما معًا[1].

ويمكن أنْ نتناول ملامح العصر الذي عاش فيه ابن تيمية من خلال الحالات الآتية:

• الحالة السياسيّة:

انقسم الناسُ في هذا العصر (السابع والثامن من الهجرة) إلى دويلاتٍ صغيرة، يحكمها مجموعةٌ من المماليك، جاءوا بعد الدولة الأيوبيّة، وانتهت بدخول الجيوش العثمانية، ولقد كانت المنافسة بين هؤلاء الحكام على أشدّها، وكانت المنازعات على المصالح والمنافع تبلغ ذروتها،

---

(١) انظر: ابن تيمية، حياته وعصره وآراؤه الفقهية، للعلامة محمد أبي زهرة، ص(١٠٥)، ط: دار الفكر، ١٩٩١م.

وأخـذوا يتسـلّطون عـلى الضعفـاء مـن عامّـة الشـعب، غـير خاضعـين لسـلطان الخلافـة في بغـداد؛ لأنّهـا لم تكـن قويّـة بالقـدر الـذي تسـتطيع فيـه إخضـاع هـؤلاء الحـكام لهـا، وذلـك لضعـف خلفـاء بنـي العبـاس وانشـغالهم بالشـهوات وجمـع الأمـوال في أكـثر الأوقـات، فقـد خـرج عـن بنـي العبـاس بـلادُ المغـرب، ملَكَهـا بعـضُ مَـن بقـي مِـن بنـي أميـة مِـن ذريـة عبـد الرحمـن بـن معاويـة، والدولـة الفاطميـة ببـلاد مـصر، وبعـض بـلاد المعـرب، وبـلاد الشـام، وبـلاد الحرمـين، وكذلـك خرجـت خراسـان ومـا وراء النهـر، وتداولتهـا الملـوك دولًا بعـدَ دولٍ حتـى لم يبـقَ للخليفـة فيهـم إلّا بغـداد وبعـض بـلاد العـراق، واسـتمرت دولـة الفاطميّـين قريبًـا مـن ثلاثمائـة سـنة، وكان آخـر خلفـاء بنـي العبـاس عبـد اللـه المعتصـم[١].

٢- أدى هـذا الانقسـام والضّعـف إلى طمـع أعـداء الإسـلام مـن التتـار والذيـن أقبلـوا مـن الـشرق، والفرنجـة مـن الغـرب يعيثـون في البـلاد فسـادًا، يقـول ابـن الأثـير في ذلـك: «لقـد بـلي الإسـلامُ والمسـلمون في تلـك الأزمـان بمصائـب لم يبْتَـلِ بهـا أحـدٌ مـن الأمـم.

منهـا: ظهـور التتـار- قبّحهـم اللـه، أقبلـوا مـن المـشرق ففعلـوا الأفعـال التـي يسـتعظمها كلّ مَـن سـمع بهـا.

ومنهـا: خـروج الفرنـج مـن المغـرب إلى الشـام، ومقصدهـم ديـار مـصر وغيرهـا أنْ يملكوهـا، لـولا لطـف اللـه- تعـالى- ونـصره عليهـم.

ومنها: أنّ السيف بينهم مسلول والفتنة قائمة»[٢].

ولقـد أشـارَ ابـن تيميـة إلى أسـباب هـذه الحـروب الصليبيـة في كتاباتـه، فقـال: «فلـمّا ظهـر النّفـاق والبـدع والفجـور المخالـف لديـن الرسـول؛ سُـلّطَت عليهـم الأعـداء، فخرجـت الـرّوم النّصـارى إلى الشـام والجزيـرة مـرّة بعـد مـرّة، وأخـذوا الثغـور الشـاميّة شـيئًا فشـيئًا، إلى أنْ أخـذوا بيـت المقـدس...

(١) البداية والنهاية، (٢٣٩/١٣).
(٢) الكامل في التاريخ، (٣٣/٩).

وبعـد هـذا بمـدّة حـاصروا دمشـق، وكان أهـلُ الشـام بأسـوأ حـال، بـين الكفـار النصـارى والمنافقـين الملاحـدة»[١].

ولعـلّ خـيرَ مـا يوصـف بـه هـذا العـصر قـولُ النبـي ﷺ: «يوشـك أن تداعـى عليكـم الأمـم كـما تداعـى القـومُ عـلى قصعتهـم». قيـل: مِـن قلّـة؟ قـال: «لا، ولكنّـه غثـاء كغثـاء السـيل، يجعـل الوهـن في قلوبكـم، وينـزع الرعـب مـن قلـوب عدوكـم بحبكـم الدنيـا وكراهيتكـم المـوت»[٢].

٣- يظهـر، أيضًـا، في هـذا العـصر مـوالاة أهـل الذمّـة للأعـداء أيًّـا مـا كان لونهـم، بـل كان مِـن الفِـرق الإسـلامية مَـن يمهّـد السـبيل للتتـار؛ يقـول ابـن تيميـة واصفًـا تحـزّب هـذا العـدو مِـن مغـولٍ وغيرهـم مِـن أنـواع الـترك ومِـن فـرس مسـتعرب ونحوهـم مـن أجنـاس المرتـدّة مِـن نصـارى الأرض وغيرهـم: «ونـزل هـذا العـدو بجانـب ديـار المسـلمين، ومقصودُهُـم الاسـتيلاءُ عـلى الـدار واصطـلام أهلهـا»[٣].

٤- لقـد كان لوحشـيّة التتـار في هـذا العـصر مظهـرٌ بـارز، لـوَّن هـذا العـصر وميّـزه عـن باقـي العصـور؛ لأنـه كان مِـن أفظـع المصائـب التـي جـرتْ عـلى الأمّـة الإسـلامية، يقـول ابـن الأثـير واصفًـا وحشـيّة التتـار: «لقـد بقيـت عـدّة سـنين معرضًـا عـن ذكْـر هـذه الحادثـة؛ اسـتعظامًا لهـا، كارهًـا لذكْرهـا، وهـا أنـا ذا أقـدّم إليهـا رِجْـلاً وأؤخّـر أخـرى، فمَـن الـذي يسـهل عليـه أن يكتـبَ نعـي الإسـلام والمسـلمين، ومَـن الـذي يهـون عليـه ذكـرُ ذلـك، فيـا ليـتَ أمّـي لم تلـدْني، ويـا ليتنـي مـتّ قبـل هـذا وكنـتُ نسـيًا منسـيًّا! إلى أن حثّنـي جماعـةٌ مـن الأصدقـاء عـلى تسـطيرها وأنـا متوقّـف، ورأيـت أن تـركَ ذلـك لا يجـدي نفعًـا»[٤].

---

(١) الفتاوى، (١٧٣/١٣).

(٢) شعب الإيمان، لأبي بكر البيهقي، (٢٩٧/٧)، وجامع الأحاديث لجلال الدين السيوطي، (٢٨١/٢٤)، وأخرجه البزار كما فى مجمع الزوائد، (٢٩١/٨)، وقال الهيثمى: رجاله رجال الصحيح غير أحمد بن يحيى الأودي وهو ثقة، وأخرجه الطبراني، (٢١٥/٢)، رقم(١٨٨٠).

(٣) الفتاوى، (٤٤/٢٨).

(٤) الكامل في التاريخ، (٣٩٩/١٠).

لقد جاء هؤلاء التتار بقيادة جنكيز خان بكلّ ما يملكون من وحشيّة وتعطّش لسفك الدّماء ونهب الأموال، وتخريب الديار، ولم يزل خطر هؤلاء التتار يزداد وتسقط المدن في أيديهم حتى سقطت بغداد سنة٦٥٦ هـ، وقُتل الخليفةُ المستعصم[١].

ثمّ دخلت سنة سبع عشرة وستمائة، في هذه السنة عمّ البلاء وعظُمَ العزاء بجنكيز خان المسمّى بتموجين- لعنه الله تعالى-، ومَن معَه من التتار- قبّحهم الله أجمعين، واستفحل أمرُهم واشتدّ إفسادهم من أقصى بلاد الصين إلى أنْ وصلوا بلاد العراق وما حولها حتى انتهوا إلى إربيل[٢] وأعمالها، فملكوا في سنة واحدة- وهي هذه السنة- سائرَ الممالك إلّا العراق والجزيرة والشام ومصر، وقهروا جميعَ الطوائف التي بتلك النواحي...، وقتلوا في هذه السنة من طوائف المسلمين وغيرهم في بلدان متعدّدةٍ كبارٍ ما لا يُحدّ ولا يوصف، وبالجملة فلَمْ يدخلوا بلدًا إلّا قتلوا جميعَ مَن فيه مِن المقاتلة والرّجال، وكثيرًا مِن النساء والأطفال، وأتلفوا ما فيه بالنّهب إنِ احتاجوا إليه، وبالحريق إنْ لم يحتاجوا إليه، حتى إنّهم كانوا يجمعون الحرير الكثير الذي يعجزون عن حمْله فيطلقون فيه النار وهُم ينظرون إليه، ويخرّبون المنازل وما عجزوا عن تخريبه؛ يحرقونه، وأكثر ما يحرقون المساجدُ والجوامع، وكانوا يأخذون الأسارى من المسلمين فيقاتلون بهم ويحاصرون بهم، وإنْ لم ينصحوا في القتال قتلوهم[٣].

لقد كان التتار يعبدون الشمس، ولا يحرّمون شيئًا، ويصف ابن كثير[٤] سقوطَ بغداد في يدِ التتار، وحالَ هذه المدينة وهي في أيديهم، فيقول: «ولمّا انقضى الأمر المقدّر وانقضت الأربعون

(١) انظر: حوادث سنة ٦٥٦ من البداية والنهاية، (٢٠٤٣/٢)، طبعة بيت الأفكار الدولية، والوافي بالوفيات، (٢٣٣/٢٧).
(٢) مدينة أربل: اسم لمدينة صيداء التي بالساحل من أرض الشام. (معجم البلدان ١٣٩/١).
(٣) البداية والنهاية، (١٠٣/١٣).
(٤) إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضوء بن كثير القيسي البصروي الشيخ عماد الدين ولد سنة سبعمائة أو بعدها بيسير، ومات أبوه سنة ٧٠٣، ونشأ هو بدمشق وسمع مِن ابن الشحنة وابن الزراد وإسحاق الآمدي وابن عساكر والمزي وابن الرضي، وطائفة وأجاز له من مصر الدبوسي والواني والختني وغيرهم، واشتغل بالحديث مطالعةً في متونه ورجاله فجمع التفسير وشرع في كتاب كبير في الأحكام لم يكمل، وله تصانيف مُفيدة، مات في شعبان سنة ٧٧٤هـ، وكان قد أضرّ في أواخر عمره. راجع: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة (١/ ٤٤٦).

يومًـا، بقيـت بغـداد خاويـةً عـلى عروشـها ليـس بهـا أحـدٌ إلّا الشـاذّ مـن النـاس، والقتـلى في الطرقـات كأنهـا التلـول، وقـد سـقط عليهـم المطـر فتغـيّرت صورهـم وأنتنـت مِـن جيفهـم البلـد، وتغـيّر الهـواء فحصـل بسـببه الوبـاءُ الشـديد حتـى تعـدّى وسرى في الهـواء إلى بـلاد الشـام، فـمات خلـقٌ كثـير مـن تغـيّر الجـوّ وفسـادِ الريـح، فاجتمـع عـلى النـاس الغـلاءُ والوبـاء والفنـاء والطّعـن والطّاعـون، فإنـا للـه وإنـا إليـه راجعـون»[1].

ويصـف ابـن الأثـير في كتابـه الكامـل هـذا الاعتـداءَ مـن التتـار فيقـول: «هـذا فصـل يتضمّـن ذكـر الحادثـة العظمـى والمصيبـة الكـبرى التـي عقمـتِ الليـالي والأيـام عـن مثلهـا، عمّـت الخلائـق وخصّـت المسـلمين، فلـو قـال قائـل: إنّ العـالم منـذ خلـق اللـه آدم وإلى الآن، لم يبتلـوا بمثلهـا لـكان صادقًـا، فـإنّ التواريـخ لم تتضمّـن مـا يقاربهـا ولا يدانيهـا، ومِـن أعظـم مـا يذكـرون مِـن الحـوادث مـا فعـلَ بُخْتنـصّر[2] ببنـي إسرائيـل مِـن القتـل، وتخريـب بيـت المقـدس، ومـا بيـت المقـدس بالنسـبة إلى مـا خـرّب هـؤلاء المَلاعـين مـن البـلاد، التـي كلّ مدينـةٍ منهـا أضعـاف البيـت المقـدس، ومـا بنـو إسرائيـل بالنسـبة لمـا قتلـوا، فـإنّ أهـل مدينـةٍ واحـدة ممّـن قتلـوا أكـثرُ مـن بنـي إسرائيـل، ولعـلّ الخلائـق لا يـروْن مثـل هـذه الحادثـة إلى أن ينقـرض العـالم، وتفنَـى الدنيـا إلّا يأجـوج ومأجـوج[3]، وأمّـا الدّجـال فإنـه يُبقـي عـلى مَـن اتّبعـه، ويهلـك مَـن خالفـه، وهـؤلاء لم يبقـوا عـلى أحـد، بـل قتلـوا الرجـال والنسـاء والأطفـال، وشـقّوا بطـونَ الحوامـل، وقتلـوا الأجنّـة.

فإنّـا للـه وإنـا إليـه راجعـون، ولا حـول ولا قـوة إلّا باللـه العـلي العظيـم، لهـذه الحادثـة التـي اسـتطار شررُهـا، وعـمّ ضررُهـا، وسـارت في البـلاد كالسّـحاب اسـتدبَرته الرّيـح، فـإنّ قومًـا خرجـوا مِـن أطـراف الصـين، فقصـدوا بـلاد تركسـتان.. ثـمّ منهـا إلى بـلاد مـا وراء النهـر مثـل سـمرقند وبخـارى

---

(١) البداية والنهاية، (٢٣٦/١٣).

(٢) بخت نصر: رجل سلطه الله على اليهود فقتلهم بعد قتل اليهود ليحيى بن زكريا عليه السلام، ودخل المسجد الأقصى واستولى عليه، وقيل أيضًا لمّا كثرت ذنوب بني إسرائيل سلّط عليهم بخت نصر فقتل منهم عددًا كبيرًا واستولى على بيت المقدس، وهذه هي الكَرّة الأولى، ثمّ تأتي الكَرّة الثانية في آخر الزمان، البداية والنهاية: ١٣/ ١٠٣.

(٣) مأجوج: قبيلة همجيّة يقرن اسمها بـ (يأجوج)، وهما قبيلتان من ولد يافث بن نوح، وقد بنى ذو القرنين سَدًّا حجزهم وراءه. - يأجوج: قبيلة همجيّة، بنى ذو القرنين سدًّا لمنع شرورها عن جيرانها.

وغيرهـما، فيملكونهـا، ويفعلـون بأهْلها مـا نذكـره، ثـمّ تعـبر طائفـة منهـم إلى خراسـان فيفرغـون منهـا ملـكًا، وتخريبًـا وقتـلاً ونهبًـا، ثـمّ يجاوزونهـا إلى الـرّي وهمـذان وبلـد الجبـل ومـا فيـه مـن البـلاد إلى حـدّ العـراق، ثـمّ يقصـدون بـلاد أذربيجـان وأرانيـة ويخرّبونـه، ويقتلـون أكـثرَ أهلهـا، ولم ينـجُ منهـم إلّا الشريـد النـادر في أقـلّ مـن سـنة.

• هذا ما لم يُسمَع بمثله.

ثـمّ سـاروا إلى دربنـد شرْوان فملكـوا مدنَـه، ولم يسـلم غـير قلعتـه التـي بهـا ملكهـم، وعـبروا عندهـا إلى بلـد الـلان، [و] اللكـز ومـن في ذلـك الصقـع مـن الأمـم المختلفـة، فأوسـعوهم قتـلاً ونهبًـا وتخريبًـا... وهُـم مِـن أكـثر الـترّك عـددًا، فقتلـوا كلّ مَـن وقـف لهـم وهـربَ الباقـون إلى الغيـاض وملكـوا عليهـم بلادهـم، وسـارت طائفـةٌ أخـرى إلى غزنـة[1] وأعمالهـا، ومـا يجاورْهـا مِـن بـلاد الهنـد وسجسـتان وكرمـان، ففعلـوا فيهـا مثـلَ أفعـال هـؤلاء وأشـدّ، هـذا مـا لم يطـرقِ الأسـماعَ مثلُـه؛ فـإنّ الإسـكندر الـذي اتّفـق المؤرّخـون عـلى أنـه ملَـكَ الدنيـا لم يملكهـا في سـنة واحـدة، إنّمـا ملكهـا في نحْـو عـشر سـنين، ولم يقتـل أحـدًا، بـل رضي مـن النـاس بالطّاعـة، وهـؤلاء قـد ملَكـوا أكـثرَ المعْمـور مـن الأرض وأطيبَـه وأحسـنَه عـمارة، وأكـثرَه أهـلاً وأعدلَهـم أخلاقًـا وسـيرةً في نحـو سـنة، ولم يتّفـق لأحـدٍ مِـن أهـل البـلاد التـي لم يطرقوهـا بقـاء إلّا وهـو خائـف مترقّـب وصولَهـم، وهُـم مـع ذلـك يسـجدون للشـمس إذا طلعـت، ولا يحرّمـون شـيئًا، ويأكلـون مـا وجـدوه مِـن الحيوانـات والميتـات- لعنهـم اللـه تعـالى.

قـال: وإنّمـا اسـتقام لهـم هـذا الأمـر لعـدم المانـع؛ لأنّ السـلطان خـوارزم شـاه محمـدًا كان قـد قتـل الملـوك مِـن سـائر الممالـك واسـتقرّ في الأمـور، فلـمّا انهـزم منهـم في العـام المـاضي وضعـفَ عنهـم وسـاقوا وراءه فهـرب فـلا يـدرى أيـن ذهـب، وهلـك في بعـض جزائـر البحـر، خلـت البـلاد ولم يبـقَ لهـا مَـن يحميهـا ﴿لِّيَقْـضِيَ اللــهُ أَمْـراً كَانَ مَفْعُـولاً﴾ [الأنفـال: ٤٢]، وإلى اللـه ترجـع الأمـور»[2].

---

(١) غزنة: بفتح أوله وسكون ثانيه ثمّ نون هكذا يتلفظ بها العامّة، والصحيحُ عند العلماء غزنيّين ويعربونها فيقولون جزنة، وهي مدينة عظيمة وولايةٌ واسعة في طرف خاراسان، وهي الحدّ بين خاراسان والهند في طريق فيه خيراتٌ واسعة، وهي شديدة البرودة. (معجم البلدان ٤/٢٠١).

(٢) البداية والنهاية، (١٣/١٠٣)، وابن تيمية لأبي زهرة، ص(١١٢، ١١٣).

لقد خرجت الخلافة مِن بغداد، ثمّ استمرّ التتار في عدوانهم على البلاد، وذهبوا إلى دمشق سنة ٦٥٨هـ، واستولوا عليها قاصدين مصر، فكانت نهايتهم، وانتصر المسلمون عليهم بقيادة قطز سنة ٦٥٨هـ فقتلوهم وشرّدوهم وأسروا منهم أعدادًا كبيرة، وواصل الجيشُ المصري انتصاراتِه عليهم، فأجْلاهم عن دمشق ثمّ عن سوريا والثّغور بقيادة الظاهر بيبرس، فانكسرت شوكةُ التّتار بفضل الله تعالى ورحمته[١].

وكانت حوادث التتار قبل ميلاد ابن تيمية وواقعة عين جالوت بنحو ثلاث سنين، حيث كانت سنة ٦٥٨هـ وميلاده كان سنة ٦٦١هـ، ولقد أعاد الظاهر بيبرس الخلافة الإسلامية لبني العبس بعد أن استمرّ ذلك المنصب شاغرًا ثلاث سنوات، بعد قتل الخليفة العباسي، وجعل القاهرة مستقرًّا له ومقامًا[٢].

ولد شيخ الإسلام ابن تيمية والخطرُ الصليبي في نهايته، وذلك سنة تسعين وستمائة للهجرة، أمّا الخطر التّتري فقد عاينه شيخ الإسلام ابن تيمية وعائلته وعانى منه الأَمَرّين؛ حيث اضطرّوا للهجرة من بلدهم بسبب هجوم التتار المتكرّر عليها، وتخريبهم لها، فهُم قد انسابوا مِن المشرق فما مرّوا على بلدة إلّا جعلوها كالرميم، لا يبقون من معالم الحضارة في البلاد التي مرّوا عليها شيئًا[٣].

ويقول ابن تيمية معرّفًا تلك الحادثة الخطيرة: «ينبغي للعاقل أن يعتبر سنة الله وآياته في عباده، ودأب الأمم وعاداتهم، لاسيّما في هذه الحادثة العظيمة التي طبق الخافقين خبرها، واستطار في جميع ديار الإسلام شرّها، وأطلع فيها النفاق ناصية رأسه، وكشّر فيها الكفر عنْ أنيابه وأضراسه، وكادَ فيه عمود الكتاب أن يجتث ويخترم، وحبل الإيمان أن ينقطع ويصطلم، وعقر دار المؤمنين أن يحلّ بها البوار، وأن يزول هذا الدين باستيلاء الفجرة التتار، وظنّ المنافقون والذين في قلوبهم مرضٌ أنْ ما وعدهم الله ورسوله إلّا غرورًا، وأن لنْ ينقلب حزبُ الله ورسوله

(١) البداية والنهاية، (٢٠٥٢/٢)، ط: بيت الأفكار الدولية.
(٢) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٦).
(٣) البداية والنهاية، (٣٣٨/٣).

إلى أهليهم أبدًا، وزيّن ذلك في قلوبهم، وظنّوا ظنّ السوء، وكانوا قومًا بورًا، ونزلت فتنة تركت الحليمَ فيها حيرانًا، وأنزلت الرجل الصاحي منزلة السّكران، وتركت الرجل اللبيب- لكثرة الوسواس- ليس بالنّائم ولا باليقظان، وتناكرت فيها قلوبُ المعارف والإخوان، حتى بقي للرجل بنفسه شغلٌ عن أن يغيث اللّهفان، وميّز الله فيها أهل البصائر والإتقان مِن الذين في قلوبهم مرضٌ أو نفاق وضعفُ إيمان، ورفع بها أقوامًا إلى الدرجات العالية كما خفضَ بها أقوامًا إلى المنازل الهاوية، وكفّر بها عن آخرين أعمالهم الخاطئة، وحدث من أنواع البلوى ما جعلها قيامةً مختصرة من القيامة الكبرى»[(١)].

وهكذا استقرّ في وعي ابن تيمية الفظائع الوحشية التي قام بها التتار في كلّ مكان، قال: «وعندما كان قدْ قارب سبع سنين شنّ التتار حملةً على مسقط رأسه حران في شمال سورية، بين دجلة والفرات، ولقد خرجت أسرته شأنَ الأسرِ الكثيرة من حران فرارًا من فظائع التتار وتوجّهت إلى دمشق، ولكنّ ابن تيمية وَعَى بعد ذلك انتصارَ المسلمين في عين جالوت الذي وقع قبل مولده بثلاث سنين، كما أنّ فتوح الملك الظاهر بيبرس كانت أحاديثَ صباه وسميرَ المجالس في ذلك العصر»[(٢)].

وعاش ابن تيمية في عصر الدولة المملوكيّة الأولى التي كانت مصر والشام تحت سلطانها، وعاصر ابن تيمية السلطان الناصر الذي جاء بعد الظاهر، وابتلي بمجيء التتار إلى دمشق، ولكن تصدّى لهم الناصر بتحريض ابن تيمية ومعاونته، حيث قام بحثّ الناسِ على الجهاد وحمل السلاح خارجًا إلى ميدان الجهاد، وقادَ الجيش[(٣)].

• الحالة الاجتماعيّة:

شهدَ ابنُ تيمية مجتمعًا تمازجت مكوّناته من عناصر مختلفة، وأجناس مُتباينة، فهناك مُخلّفات الحروب الصليبيّة؛ حيث امتزج الشّرق بالغرب، وتلاقت الحضارات والدّيانات والعادات

(١) مجموع الفتاوى، (٤٢٧/٢٨).

(٢) رجال الفكر والدعوة، للأستاذ الندوي، تعريب سعيد الأعظمي، تقديم الدكتور عدنان زرزور، ط: دار القلم، دمشق، ط: أولى، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م، (٨/٢).

(٣) البداية والنهاية، (٢٠٥٩/٢).

والأفكار، على الرغم مِن المحاربة، فالعدوى النفسية سارية، وكذلك في حروب التّتار التقت الأقوامُ مِن أقْصى الشّرق في الصين حاملين عاداتهم وأخلاقهم وأهواءهم ومنازعهم بأهلِ الإسلام الذين اعْتدلت أمزجتهم وأفكارهم واستقامت عقائدهم، وهُم خاضعون لنُظم مقرّرةٍ ثابتة، استنبطها العلماءُ مِن كتاب الله الهادي إلى سواء السبيل، وسنة النبي المُبيّنة لأقومِ منهاجٍ مستقيم، التقى هؤلاء وهؤلاء فكان ذلك اللّقاء اضطرابًا في العادات والمنازع[١].

لقد خلطت الحربُ القاسية- أيضًا- بين أصناف المسلمين في الأمصار المختلفة، فأهلُ العراق يفرّون إلى الشام عندما يُغير التتار عليهم، وأهلُ الموصل وما حولها يفرّون إلى دمشق، وأهلُ دمشق ينتقلون إلى مصر، بل إلى بلاد المغرب، فقد خرج علماءُ دمشق وولاتُها والقادرون فيها عندما ساوَرَها التتار، وبقي ابن تيمية مع الضعفاء من العامّة، ومَن لا حول لهم ولا قوّة، وهذه الخلطة الإجبارية تؤدي إلى خلطةٍ فكرية ونفسية واجتماعية، ويتكوّن منها مجتمعٌ مضطرب ليس فيه قرار ولا سكون[٢].

لقد بدا هذا جليًّا في مصرَ التي كانت مثابة كلّ هذه الأجناس، فهذا الاضطراب السّياسي الذي كان سببُه طمعَ المماليك والصراع بيْنهم على الحكم أدّى إلى اضطراب اجتماعي واضح.

ولقد كان للأسرى الفرنج والتّتر شأنٌ في الحياة الاجتماعية؛ لأنّهم مثّلوا طبقة لا تندمج مع الشعوب كما كانت الوظائف والإمارات وقيادةُ الجيش تحت سيطرتهم، خاصّة مع المماليك الذين أسروا أو اشترتهم الدّولة الأيوبية، ثمّ آل المُلك إليهم.

ولقد كان لهؤلاء الطوائف خيطٌ يجمع بينهم، وهو أنّهم كلّهم أسرى أو كلّهم مماليك، فانتشر بينهم الحقدُ والتّنافس وحبّ السيطرة على الناس والتعالي عليهم، والحرص على مصلحتهم الخاصة، وكذلك الوافدون انتشروا في البلاد، وكان لهم من التقاليد والعادات التي انتشرت معهم، وحتى عندما دخل التتار في الإسلام كانوا يطبّقون أحكام جنكيز خان والاقتداء بحكم الياسة[٣].

---

(١) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٢٧).

(٢) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٢٥، ١٢٦)، ورجال الفكر والدعوة، ص(٢٣، ٢٤).

(٣) رجال الفكر والدعوة، ص(٣٨-٤٠) بتصرف، وسير أعلام النبلاء، ط الرسالة، (٢٢٨/٢٢)، والياسة: هي شريعةُ المغول وقانونهم.

كان حكامُ المماليك دائمًا يشعرون بالأفضلية، ويتكلّمون بالتركية فيما بينهم، ما عدا بعض المناسبات أو خطابهم مع العلماء أو الحديث مع الجماهير، وكانوا مع ذلك يقدّرون العلماء، ويحبّون المشايخ، ويقبلون على بناء المساجد، وتأسيس المدارس، لم يكونوا يتحيّزون في تقسيم المناصب إلى فئةٍ دون فئة، أو جنسٍ دون جنس، إلّا أنّ المناصب الإدارية والعسكرية كانت ملكًا لهم، وقد كان المماليك والتّتار هُم أصحاب الإقطاعات، وكان دورُهم في استغلال المزارعين والعمال، وفرض الضرائب؛ واضحًا.

كما كان طبيعيًّا- وهذا نظامُ المجتمع؛ حيث الحروب المتوالية من غارات الفرنجة والتتار والتّطاحن على السلطة- أن تضطرب حالةُ الأمن في البلاد، وينتشر الفزع، ويختفي الاستقرار الاجتماعي، ويكون تابعًا لذلك كسادٌ في الحياة الزراعية والتجارية والاقتصادية، ومن مظاهر ذلك نقص المحاصيل والغلاء والفقر الشديد.

ولقد أشار ابن تيمية إلى ذلك من انتشار الثلوج الشديدة التي أثّرت على المحاصيل.

وأيضًا تلا ذلك غارات التتار وتساقط الجثث، وانتشار الأوبئة والأمراض.

كما ظهرت- أيضًا- عادة تطفيف المكاييل، والغشّ في البيع، واضطرّ شيخ الإسلام أن يكتب كتاب الحِسبة في الإسلام؛ ليحضّ فيه ولاة أمور المسلمين والمُحتسبين على متابعة أمورِ ومصالح جماعة المسلمين، وإنزال العقوبة الرّادعة بالمفسدين في الأرض، وفرض تسعيرات تحفظ للناس أرزاقهم وأقواتهم[١].

كما نتجَ عن اختلاف المجتمع أنْ تتأثر الحالة الدينية وتختلط الأفكار، وتظهر الحركات والتوجّهات، والفلسفات المختلفة، بدا ذلك ظاهرًا في كتب شيخ الإسلام عن الفرق الباطنية[٢] والمتصوفة، وديانات التّتار والنصارى، وانتشار البدع والخرافات التي وقف العلماء ورجال

(١) رجال الإصلاح والدعوة، إبراهيم محمد العلي، ط: دار القلم، دمشق، ص(٢٨، ٢٩) بتصرف.

(٢) الباطنية: هي فرقةٌ من فرق القرامطة انتسبوا إلى إسماعيل بن جعفر، وسبب تسميتهم بالباطنية أنهم ادّعوا أنّ لظواهر القرآن وللأخبار باطنًا، وغرضهم من ذلك إبطال الشرائع، وهُم فرقة من فرق الشيعة. (الفرق الإسلامية جـ٦ صـ٢٠،٢١) (الملل والنحل للشهرستاني ١٩٠/١).

الدين على اختلاف مذاهبهم لها بالمرصاد، كلّ يحاول أن يزيل الغشاوة عن المجتمع بطريقته، كما أدى هذا الاختلاف إلى انتشار المذهبية والتعصب والتقليد، ومثال هذا الاختلاف في ديانات التّتار، فقد كان منهم مَن يعبد الشمس، ولا يحرّمون شيئًا، ويتجاوزون الحدّ في المنكرات، ويأكلون الميتة وتظهر الوحشية في القتل وسفْك الدّماء، كما أنّ المرأة حقّها ضائعٌ بينهم، فهي ملك مُشاع للرجال، وإذا جاء الولد لا يُنسَب إلى أحد، حتى بعد دخولهم الإسلام «نجد أنّهم لقّنوا القرآن، وعرفوا أحكام الملّة المسلمة، لكنهم جمعوا بين الجيد والرّديء، وفوّضوا إلى قاضي القضاة كلّ ما يتعلق بالأمور الدينية من الصلاة والصوم والزكاة والحج، وأناطوا به أمر الأوقاف والأيتام، وجعلوا إليه النظر في الأقضية الشرعية وكتداعي الزوجين وأبواب الدين، ونحو ذلك، واحتاجوا في ذات أنفسهم إلى الرجوع إلى عادة جنكيز خان، والاقتداء بحكم الياسة»[1].

كما أنّ النصارى غالبًا كانوا يميلون إلى أعداء المسلمين، ويستميلونهم، كما حدث أيامَ غزو الفرنجة؛ حيث ذهب النصارى إليهم يستميلونهم، ومالؤوا التتار وكاتبوهم، يقول المقريزي في حوادث سنة ٦٥٨هـ: واستطال النصارى بدمشق على المسلمين، وأحضروا فرمانًا من هولاكو بالاعتناء بأمرهم وإقامة دينهم، فتظاهروا بالخمر في نهار رمضان، ورشّوه على ثياب المسلمين في الطرقات، وصبّوه على أبواب المساجد، وألزموا أرباب الحوانيت بالقيام إذا مرّوا بالصليب عليهم، وأهانوا مَن امتنع عنِ القيام للصليب، وصاروا يمرّون به في الشوارع إلى كنيسة مريم، ويقفون به ويخطبون في الثناء على دينهم، وقالوا جهرًا: ظهر الدّينُ الصحيح.. دين المسيح. فقلق المسلمون من ذلك، وشكوا أمرَهم لنائب هولاكو وهو «كتبغا» فأهانهم وضرب بعضهم، وعظّم قدرَ قساوس النصارى، ونزل إلى كنائسهم وأقام شعارهم»[2].

ويقول ابن كثير: «وذهب طائفةٌ من النصارى إلى هولاكو، وأخذوا معهم هدايا وتُحفًا وقدموا مِن عنده ومعهم أمان فرمان مِن جهته، ودخلوا مِن باب توما ومعهم صليبٌ منصوب

(١) ابن تيمية محدثًا، د/ أحمد محمد العليمي، دار ابن حزم، ط: أولى، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠٢م، ص(٣٧) بتصرف.
(٢) السلوك لمعرفة دول الملوك، (١٤٠/١).

يحملونـه عـلى رءوس النـاس، وهُـم ينـادون بشـعارهم، ويقولـون: ظهـرَ الديـن الصحيـح.. ديـنُ المسـيح، ويذمّـون ديـن الإسـلام وأهلَـه، ومعهـم أواني فيهـا خمـر، لا يمـرّون عـلى بـابِ مسـجد إلّا رشّـوا عنـده خمـرًا، وقماقـم ملآنـة خمـرًا يرشّـون منهـا عـلى وجـوه النـاس وثيابهـم، ويأمـرون كلّ مَـن يجتـازون بـه في الأزقّـة والأسـواق أن يقـومَ لصليبهـم»[1].

• الفرقُ الباطنية:

تحـدث شـيخُ الإسـلام ابـن تيميـة عنهـم في رسـالته إلى الملـك النـاصر، وقـد دعـا إلى محاربتهـم؛ لأنّهـم مـن أهـل البـدع والمنكـرات، وأنّهـم مارقـون عـن الإسـلام، مفارقـون للشريعـة والطاعـة، ومثـل هـؤلاء مِـن أهـل الجبـل والكسروان فهُـم مِـن أكابـر المفسـدين في الدّيـن والدنيـا، باعتقادهـم أنّ أبـا بكـر وعمـر وعثمان وأهـل بـدر وبيعـة الرضـوان وجمهـور المهاجريـن والأنصـار والتابعـين لهـم بإحسـان وأئمـة الإسـلام وعلماءهـم أهـل المذاهـب الأربعـة وغيرهـم ومشـايخ الإسـلام وعبادهـم وملـوك المسـلمين وأجنادهـم وعـوام المسـلمين وأفرادهـم؛ كلّ هـؤلاء عندهـم كفّـار مرتـدّون، أكفـرُ مِـن اليهـود والنصـارى؛ لأنهـم مرتـدّون عندهـم، والمرتـدّ شرّ مـن الكافـر الأصـلي، ولهـذا السـبب يقدمـون الفرنـج والتتـار عـلى أهـل القـرآن والإيمـان، ولهـذا لمّـا قـدِمَ التتـار إلى البـلاد وفعلـوا بعسـكر المسـلمين مـا لا يحـصى مـن الفسـاد، وأرسـلوا إلى أهـل قـبرص، فملكـوا بعـض السـاحل، وحملـوا رايـة الصليـب وحملـوا إلى قـبرص مـن خيـل المسـلمين وسـلاحهم وأسراهـم مـا لا يحـصي عـددَه إلّا اللـه، وأقـام سـوقهم بالسـاحل عشريـن يومًـا يبيعـون فيـه المسـلمين والخيـل والسـلاح عـلى أهـل قـبرص وفرحـوا بمجـيء التتـار..... ولمّـا خرجـت العسـاكر الإسـلامية مـن الديـار المصريـة ظهـر فيهـم مـن الخـزي والنـكال مـا عرفـه النـاس منهـم، ولمّـا نـصر اللـه الإسـلام النـصرة العظمـى عنـد قـدوم السـلطان كان بينهـم شـبيه بالعـزاء، كلّ هـذا وأعظـم منـه عنـد هـذه الطائفـة التـي كانـت مـن أعظـم الأسـباب في خـروج جنكيـز خـان إلى بـلاد الإسـلام، وفي اسـتيلاء هولاكـو عـلى بغـداد، وفي قدومـه الى حلـب، وفي نهْـب الصالحيـة، وفي غـير ذلـك مـن أنـواع العـداوة للإسـلام وأهلـه»[2].

(١) البداية والنهاية، (٢١٩/١٣).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية، (٤٠٠/٢٨، ٤٠١)، وانظر: إغاثة الغريق وإنارة الطريق إجابات لشيخ الإسلام ابن تيمية، ص(١٥)، ولمحات من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(٥٣).

كـما يقـول- رحمـه اللـه: «ولقـد كان جيرانهـم مـن أهـل البقـاع وغيرهـا معهـم في أمـرٍ لا يضبـط سرّه. كلّ ليلـة ينـزل عليهـم منهـم طائفـة، ويفعلـون مـن الفسـاد مـا لا يحصيـه إلّا ربّ العبـاد، وكانـوا في قطـع الطرقـات، وإخافـة سـكّان البيوتـات عـلى أقبـح سـيرةٍ عُرفـت مِـن أهـل الخيانـات، تـرد إليهـم النصـارى مـن أهـل قـبرص فيضيفونهـم، ويعطونهـم سـلاح المسـلمين، ويقعـون بالرجـل الصالـح مـن المؤمنـين، فإمّـا أن يقتلـوه أو يسـلبوه، وقليـل مَـن تفلّـت منهـم بالحيلـة»[١].

لقـد احتكـر المماليـكُ الأرض، وكانـت عامّـة النـاس مـن صنّـاع وزرّاع يعملـون عندهـم كادحـين، والحصـاد لـذوي السـلطان دونَ غيرهـم، كـما كانـت طبقـة أهـل الديـن الطبقـة الثانيـة في المجتمـع؛ لمكانـة الديـن، لهـم منـازل خاصـة، ولهـم الطاعـة في شـئون الديـن، ولا تتعـرّض سـلطتهم للمخالفـة، إلّا عندمـا يقفـون أمـام السـلطان أو ضرائبـه، كـما فعـل الظاهـر مـع النـووي[٢]، فقـد كان لا يهـمّ السـلاطين إلّا المـال؛ حيـث يحتالـون عليـه بـكلّ الحيـل، فالظاهـر بيـبرس يفـرض الضرائـب الكثـيرة، ويحـاول إخـراج الأرض مـن أيـدي أهلهـا، ويقـف أمامـه النـووي - رحمـه اللـه - معترضًـا في الأمريـن، وكان يضعـف سـلطان رجـال الديـن أن معيشـتهم مـمّا يفيـض بهـا الـوالي عليهـم مـن بيـت المـال، ومنهـم مـن كانـت تنزلـه الحاجـة أو حـبّ المـال والطمـع إلى مـا لا يليـق بالعلـماء»[٣].

• الحالةُ العلمية:

كان للناحيـة السياسـية ومـا زخـرتْ بـه مـن اضطرابـات ومنازعـات، ومـا تـوالى عـلى الأمّـة مـن حروب طاحنـة؛ أثـرُه- أيضًـا- عـلى الحركـة العلميـة؛ فقـلّ الإنتـاج العلمـي المبني عـلى الفكْـر والتحليـل والمقارنة، وكَثُر الإنتـاج العلمـي المبنـي عـلى الجمـع والتصنيـف للكتـب القديمـة في كلّ مذهـب عـدّة مـرّات.

(١) رسالة من ابن تيمية إلى الملك الناصر، ص(٥)، ومجموع الفتاوى، (٤٠٣/٢٨)، ولمحات من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(٥٥).

(٢) هو الشيخ محيي الدين يحيى بن شرف، عالم بالفتوى، له كتب كثيرة منها الأذكار للنووي ورقائق النووي وله كتاب المنهاج. راجع: الكواكب السائرة في أعيان المائة العاشرة ١/ ١٦٦)، الوافي بالوفيات ٣٦٤/١م.

(٣) ابن تيمية، حياته وعصره، ص(١٢٨).

واتّسـم العلـم والتأليـف في هـذا القـرن بالسّـعة وقلّـة التعمّـق، ويغلـب طبـع النّقـل والاقتبـاس عـلى التفكـير والدّراسـة والتعمّـق في العلـم، باسـتثناء عـددٍ مـن الشـخصيات والمآثـر العلميـة[1].

يقـول الأسـتاذ هـرّاس: «لقـد قـلّ الإنتـاج العلمـي، وركـدت الأذهـان، وأقفـل بـابُ الاجتهـاد في الأصـول والفـروع جميعًـا، فحـرم الأخـذُ مـن الأصـول بغـير المذهـب الأشـعري، وفي الفـروع بغـير مذاهـب الأئمـة الأربعـة، وأصبـح قصـارى جهْـد العـالم أن يفهـم مـا قيـل مِـن غـير بحـثٍ ولا مناقشـة، وعمـد العلـماء إلى جمـع المعلومـات المتعلّقـة بـكلّ فـنّ فنظموهـا في سـلكٍ واحـد، وألّفـوا فيهـا كتبًـا مطوّلـة أحيانًـا، ومختـصرة أحيانًـا، وسـلكوا منهجًـا حسـنًا في التأليـف، ولكـنْ لا أثـر فيـه للابتـكار والتجديـد.

وغلبـت عـلى العلـماء في هـذا العـصر نزعـة التقليـد، وسـيطر الجمـود الفكـري، وأصبـح العـالم إنمـا يُقـاس بكـثرة مـا حفـظ مـن كلام الأولـين، وعـرف مـن آرائهـم، وإن لم يكـن لـه مـن اسـتقلال الفكـر، وحريـة الـرأي أدنى نصيـب؛ بحيـث يمكـن تسـمية هـذا العـصر (عـصر دوائـر المعـارف)»[2].

وتكوّنـت للمذاهـب الفقهيـة قوالـبُ مـن حديـد؛ لا تقبـل المرونـة والتسـامح، وإن كان القـول السـائد: إنّ الحـقّ دائـرٌ بـين المذاهـب الأربعـة، ولكـن أتبـاع كلّ مذهـب يحـصرون الحـقّ في مذهبهـم في الواقـع، ولا يزيـدون- إذا توسّـعوا- كثـيرًا عـلى أنْ يقولـوا: رأي إمامنـا صـوابٌ يحتمـل الخطـأ، ورأي غيرنـا خطـأ يحتمـلُ الصـواب.

لقـد كان أتبـاع كلّ مذهـب يرجّحـون مذهبهـم الفقهـي عـلى سـائر المذاهـب الفقهيـة الأخـرى، ويعتبرونـه مقبـولًا ومؤيّـدًا مـن اللـه، وكانـوا يبذلـون كلّ ذكائهـم، وقـوةَ بيانهـم وتأليفهـم في ترجيحـه وتفضيلـه عـلى غـيره.

أمّـا النظـرة التـي كان أتبـاع المذاهـب ينظـرون بهـا إلى مذاهبهـم العقليـة التـي كانـت تسـودُ عـلى أهلهـا؛ فيمكـنُ تقديـر ذلـك بـأنّ الملـك «الظاهـر بيـبرس» لمّـا نصّـب لـكلّ مذهـب قاضيًـا للقضـاة

---

(١) رجال الفكر والدعوة، ص(٤٤).

(٢) ابن تيمية السلفي، نقده لمسائل المتكلمين والفلاسفة في الألوهيات، محمد خليل هراس، ط: أولى، ١٣٨٧هـ- ١٩٥٢م، ص(١٧).

خاصًّا بـه خلافًـا للعـادة المتّبعـة في زمنـه، وهـي ألّا يكـون قـاضي القضـاة إلّا شـافعيًّا؛ اسـتنكرَ ذلـك فقهـاء الشـافعية؛ إذْ كانـوا لا يرضـون إلّا أن يـروا مـصر خاضعـة للقـاضي الشـافعي؛ لأنهـا مدفـن الإمـام الشـافعي، ولمّـا انتهـى حكـم الملـك الظاهـر، وانتقلـت المملكـة مـن أسرتـه إلى غـيره، رأى ذلـك بعـضُ الشـافعية نقمةً إلهيّـة، وعقابًـا لفعلتـه التـي فعلها[١].

وقـد كان التعصّـب الكلامـي مـع التحـزّب الفقهـي بالغًـا مـداه، بينـما أتبـاع المذاهـب الأربعـة تلاميـذ وشـيوخًا؛ يتبادلـون الحـبّ والزيـارة، غـير أنّ اتحـاد الأشـاعرة مـع الحنابلـة كان شـبهَ مسـتحيل؛ لأنهـما كانـا يختلفـان في الفكْـر والإسـلام، وليـس عـلى الأفضليـة؛ فقـد كانـت كلّ طائفـة تُلـحّ عـلى تكفـير الأخـرى، وكانـت المباحـث الاعتقاديـة وتقعّـر المتكلمـين، يتغلّـب عـلى جميـع المباحـث الأخـرى، حتـى إنّ الأشـاعرة كانـوا يعتـبرون الحنابلـة قرنـاء للنّصـارى، وقـد كتـب منشـئ المدرسـة الرواسـية في دمشـق في حجّـة وقفيّـة هـذه المدرسـة نصًّـا يمنـع دخـولَ اليهـود والنصـارى والحنابلـة لهـذه المدرسـة[٢].

«وعـلى الرّغـم مـن ذلـك الجمـود في التأليـف؛ إلّا أنّ العلـم كان في انتشـار مسـتمرّ؛ فقـد وجـدت مـدارس كبـيرة، ودورٌ للحديـث، تلـك التـي أسّسـها الأيوبيـون والمماليـك في مـصر والشـام، وكان يؤمّهـا الطـلاب مـن أنحـاء العـالم؛ لتلقـي العلـوم الدينيـة والتجريبيـة، وكانـت مكتبـاتٌ كبـيرة تابعـة لهـذه المـدارس، وأخـرى مسـتقلّة بذاتهـا تحتـوي عـلى ذخائـر علميـة، ونـوادر في كلّ علـم وفـن، ولا يوصـد بابُهـا عـن أيّ دارس، ولقـد كانـت المكتبـة التابعـة للمدرسـة الكامليـة- التـي أسسـها (الكامـل محمـد الأيـوبي) سـنة ٦٢١هــ- تحتـوي وحدهـا عـلى مائـة ألـفِ كتـاب»[٣].

كـما توفّـرت دورٌ كثـيرة لتدريـس القـرآن الكريـم والحديـث النبـوي الشريـف، وأيضًـا مـدارس للحنفية والشـافعية، وأخـرى للمالكيـة والحنابلة[٤].

---

(١) رجال الفكر والدعوة، ص(٤٣).
(٢) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٣١).
(٣) رجال الفكر والدعوة، ص(٤٢، ٤٣).
(٤) ابن تيمية محدثًا: (٤٦).

كما نهض في أوساط هذا القرن أئمةٌ كبار، كالعلامة تقي الدين أبي عمرو بن الصلاح (٤٦٣-٥٧٧هـ)، وشيخ الإسلام عزّ الدين بن عبد السلام (٥٧٨-٦٦٠هـ)، والإمام محيي الدين النووي (٦٣١-٦٧٦هـ).

وظهر في أواخر هذا القرن علماء كبار، مثل المحدّث الكبير تقي الدين بن دقيق العيد (٦٢٥-٧٠٢هـ)، والأصولي العلامة علاء الدين الباجي (٦٣١-٧١٤هـ)، وقد كان من معاصري ابن تيمية كبارُ المحدثين والمؤرخين، كالعلامة جمال الدين أبي الحجاج المزي (٦٥٤-٧٤٢هـ)، والحافظ علم الدين البرزالي (٦٦٥-٧٣٩هـ)، والعلامة شمس الدين الذهبي (٦٧٣-٧٤٧هـ)، الذين كانوا يعدّون الأركان الثلاثة للحديث والرواية في عصرهم، والذين يعتمد على كتبهم المتأخرون من العلماء.

كما نبغ في عصره أساتذة الفنّ البارعون، وعلماء ذوو كفاءات علمية قوية، كانت مرجع الخلق، وطار صيتُهم العلمي في الآفاق، كقاضي القضاة جمال الدين بن الزملكاني (٦٦٧-٧٢٧هـ)، وقاضي القضاة جلال الدين القزويني (ت٧٣٩)، والعلامة أبو حيّان النحوي (٦٥٤- ٧٤٥هـ)، وقاضي القضاة تقي الدين السبكي (٦٨٣-٧٥٦هـ) وغيرهم.

وقد أُلف في نفس هذا القرن كتبٌ جليلة تُعتبر مرجعًا للمتأخرين من العلماء؛ كمقدمة العلامة تقي الدين بن الصلاح، والقواعد الكبرى للشيخ عز الدين بن عبد السلام (٥٨٧-٦٦٠هـ)، والمجموع شرح المهذب، وشرح مسلم للإمام النووي، وكتاب الإلمام وإحكام الأحكام لابن دقيق العيد، وتهذيب الكمال لأبي الحجاج المزي، وميزان الاعتدال، وتاريخ الإسلام للعلامة الذهبي، إضافة إلى عددٍ من الشخصيات والمآثر العلمية.

الاتجاهاتُ الفكرية السائدة في هذا العصر:

يمكن أن نلخّص الاتجاهات الفكرية السائدة في هذا العصر في النقاط الآتية:

١ـ العلماء في التخصّصات الشرعية.

٢ـ الفلاسفة المسلمون.

٣ـ المتصوّفة.

٤ـ الفرق الإسلامية.

ونفصّل ذلك فيما يأتي:

كانت الحياة الفكرية في عصر ابن تيمية متشعّبة؛ فنجد التخصّصات الشرعية من الحديث والتفسير والنحْو والفقه والعقائد، كذلك كان الفلاسفة المسلمون الذين ينطلقون في دراستهم مُنتهين إلى ما تتأدّى بهم إليه النتائج، غير مُلتفتين وراء ذلك، وبين هؤلاء وهؤلاء علماء حاولوا أن يربطوا بين الفلسفة والدين، كما فعل أصحاب «رسائل إخوان الصفا»، وكما فعل ابن رشد في كتابه «فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال».

وفي وسط ذلك الجمود الفكري، والشطط الفلسفي؛ نجد علماء أفذاذًا، قد جمعوا بين المعقول والمنقول، وقوة الفكر مع قوة الدين، كالعز بن عبد السلام، ومحيي الدين النووي، وابن دقيق العيد، والغزالي، وفخر الدين الرازي.

أيضًا بجوار هؤلاء العلماء نجد المتصوّفة، الذين جمعوا بين المناهج الفلسفية العقلية، والمنازع الروحية الخالصة، وخلصوا من ذلك بفلسفة روحية تقرب أو تبعد من المناهج الدينية التي سلكها علماءُ الدين بالمصباح المنير من كتاب الله المبين، وسنة رسوله النبي الكريم ﷺ.

ومن وراء ذلك المتصوّفة المتفلسفة، كان أصحاب الطريق يقودون العامة، ويرشدونهم إلى مناهج السلوك الذي سنّه علماء الصوفية، وقد يشتطّون فيبتعدون عن الدين، ومسالكُهم في الإرشاد والتقويم تقوم على التهذيب الشخصي من الشيخ لمريديه، بما يُشبه الاسْتهواء، وجاء من وراء ذلك تقديس الأشياخ والاعتقاد فيهم، واتباعهم في الحياة، وتكريمهم بالزيارة بعد الوفاة، حتى كان من وراء ذلك الاعتقاد بمنازلهم من الله، وكرامتهم، وشاعت حولهم الأقوال التي تتجاوز بهم المراتب الإنسانية.

كما كان للفرق الإسلامية في هذا المجتمع مهمّات بارزة؛ حيث إن التنازع بدا واضحًا بين هذه الفرق، وظهر فيها التعصب لفكرها واضحًا، وكان الجدل بينهم عقيمًا لا يستند إلى

دليـلٍ يقْنِـع، وإنّمـا كانـت المناظـرات للغلبـة والسـيطرة، وليسـت للحـقّ ومسـاندته؛ ولذلـك فقـدت الباعـثَ الحسـن؛ فـكان التناحـر الفكـري الـذي ورّث عـداوة القلـوب، والتفرقـة بـين أهـل الملّـة، حتـى صـاروا شـيعًا وأحزابًـا ﴿كُلُّ حِـزْبٍ بِمَـا لَدَيْهِـمْ فَرِحُـونَ﴾ [المؤمنـون: ٥٣]، ثـمّ انتقـل الأمـر مـن الجـدل والمناظـرة إلى المكايـدة وتدبـير المؤامـرات، ومـوالاة أعـداء الإسـلام، ووضـع الكمـين لأذى الأمـين، وفسـاد الأمـر عنـد أوليـاء الأمـر؛ كـما كان الأمـر بـين الجماعـة والشـيعة[1].

ويمكننا أن نلخّص أبرز معالم ذلك العصر في عددٍ من النقاط، منها:

١- انتهاء الخطر الصليبي وبقاء آثارُه السيئة على البلاد والعباد.

٢- اجتياح التتار لبلاد المسلمين، وبروز جهود ابن تيمية في جهادهم وقتالهم.

٣- كـثرة الحـكّام في هـذا العـصر كـثرةً جعلـت الحيـاة السياسـية مليئـة بالأحـداث والمخالفـات، مـمّا جعـل للعلـماء دورًا بـارزًا في نصـح الحـكام وحثّهـم عـلى إقامـة أحـكام الديـن ومبادئـه الأساسـية.

٤- كـثرة الخلافـات الفكريـة والمذهبيـة في هـذا العـصر الناتجـة عـن تعـدّد الأجنـاس البشريـة في المـكان الواحـد وتعـدّد القضايـا.

كـما اتّسـم هـذا العـصر بنُشـوء المـدارس العلميـة، وبـزوغ الأئمـة الأعـلام أصحـاب الكفـاءات العلميـة، كـما سـاد هـذا العـصر التعصّـب الفكـري الـذي لم يكـنْ يقبـلُ الاجتهـاد، كـما ظهـرت بـدعُ الصوفيـة وتأويـلات المتكلّمـين.

***

(١) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٣٢، ١٣٣) بتصرف.

المبحثُ الثالث

تكوينه العلمي وعطاؤه الفكري

• ابنُ تيمية ومكانته العلمية:

كان ابنُ تيمية عظيماً في شخصيته حيث اجتمعت له صفات لم تجتمع في أحدٍ مِن عصره، فهو الذّكي الألْمعي، وهو الكاتب العبقري، وهو الخطيب المصقع، وهو الباحث المُنقب والعالم المطّلع، الذي درس أقوال السابقين وقد أنضجها الزمان وصقلتها التجاربُ ومحّصتها الاختبارات، فنفذت بصيرته إلى لبّها وتغلغلَ في أعماقها، وعرف أسرارها، وفحص الروايات ووازَنَ بين الآيات، وطبّقها على الزمان مع إدراكٍ للقوانين الجامعة، وربط للجزئيات وجمع للأشتات المتفرّقة ووضعها في قرن واحد.

امتازَ ابنُ تيمية بخصائص علميّة منها:

• غزارة علومه:

لم يكنِ ابنُ تيمية مُقتصرًا على فنٍّ مِن الفنون العلمية، ولكنه أجاد ونبغَ في كثير من العلوم خاصّة علوم القرآن والسنة النبوية، بالإضافة إلى الرياضيات والفلك والجغرافيا والطبّ وغيرها، كما أنّه أحاط بالمذاهب الباطلة التي نشأت في عصره آنذاك ليردّ عليها، وليأخذ بأيدي مُعتنقيها إلى الصلاح.

ومِن هذه العلوم التي تميّز فيها:

١- علوم القرآن:

كان علمُه بكتاب الله لافتًا؛ فقد كان يعرف دقائق القرآن ويستنبط المعاني بمهارة بالغة، وينقل أقوالَ العلماء في التّفسير ويستشهد بالدّلائل، «وَلَقَد كَانَ إِذا قرئ فِي مَجْلِسه آياتٌ من القُرْآن العَظِيم يشرع فِي تَفْسيرها فينقضي المجْلس بجُملته والدرس برمّته وهوَ في تَفْسير بعض

آيَـة مِنهـا، وَكانَ مَجلِسـه فِي وَقـت مُقَـدّر بِقـدر ربـع النَّهـار يفعـل ذَلـك بديهـةً مـن غـير أن يكـون لَـه قـارِئ معـين يقْـرأ لَـه شـيئًا معيّنًـا يبيتـه ليسـتعدّ لتفسـيره، بـل كانَ مَـن حـضر يقـرَأ مَـا تيَـسّر وَيأخُـذ هُـو فِي القَـول عـلى تَفْسـيره، وَكانَ غالبًـا لا يقطـع إلَّا وَيفهـم السـامعون أنّـه لَـولا مُـضِيّ الزّمـن المُعْتـاد لأورد أشْـياء أخَـر فِي معنـى مـا هُـو فيـهِ مـن التَّفسـير، لَكِـن يقطـع نظـرًا فِي مصالـح الحاضِريـن، وَلقَـد أمْـلى فِي تَفْسـير ﴿قُـلْ هُـوَ اللـهُ أَحَـدٌ {١/١١٢}﴾ مجلـدًا كبـيرًا، وَقَولـه تعـالى: ﴿الرَّحْمَـنُ عَـلَى الْعَـرْشِ اسْـتَوَى﴾ [طـه: ٥] نَحْـو خمـس وَثلاثـينَ كراسـة، وَلقَـد بَلغنـي أنـه شرع في جمـع تَفْسـير لَـو أتمّـه لبلـغ خمسـين مجلـدًا»[١].

٢- علمُه بالسنة:

أمّـا السـنّة، فقـد كان- أيضًـا- مميّـزًا في فهْمهـا والوقـوف عليهـا، وكان بـصره بِسـنة رَسـول اللـه ﷺ وأقوالـه وأفعالـه وقضايـاه وَوَقائعـه وغزواتـه وسراياـه وبعوثـه، وَمـا خصّـه اللـه- تعـالى- مِـن كراماتـه ومعجزاتـه ومعرفتـه بِصَحيـح المَنْقـول عَنـه وسـقيمه وَبَقِيَّـة المَنْقـول عَـن الصَّحابَـة - رضي اللـه عنهـم- فِي أقْوالهـم وأفعالهـم وقضاياهـم وفتاويهـم وأحوالهـم وأحـوال مجاهداتهـم في ديـن اللـه، وَمـا خصّـوا بِـه مـن بَـين الأمّـة، فإنَّـه كانَ - رحمـه اللـه - مِـن أضبـط النّـاس لذلِـك وأعرفهـم فيـه وأسرعهـم اسْـتحضارًا لمـا يُريـده منْـه؛ فإنَّـه قـلّ أنْ ذكـر حديثًـا فِي مُصَنّـف أو فَتـوَى أو اسْتشـهد بِـه أو اسـتدلَّ بِـه إِلَّا وَعَـزاهُ فِي أي دواويـن الإسـلام هُـو، وَمـن أَي قسْـم مـن الصَّحيـح أو الحسـن أو غَيرهـما، وَذكـر اسْـم روايـه مِـن الصَّحابَـة، وَقـلّ أنْ يسْـأَل عَـن أثـر إلَّا وَبَـيّن في الحـال حَالـه وَحـال أمـره وذاكـره»[٢].

• ابنُ تيمية بين العلماء:

لم يكـنِ ابـنُ تيميـة مختصًّـا كالأئمّـة السـابقين؛ فأبـو حنيفـة كان فقيهًـا ولم يعـرف إلّا أنّـه فقيـه، وإنْ كانـت لـه في صـدْر حياتـه جولـة في علْـم الـكلام، فقـد طـرح الخـلاف في علـم الـكلام إلى التخصّـص

(١) الأعلام العلية، ص(٢١٢)، والكواكب الدرية، ص(١٤٩).

(٢) الأعلام العلية، ص(٢١، ٢٢).

في الفقـه واسـتنباط الأحـكام، ومالـك كان فقيهًـا ومحدّثًـا، ولم تكـن قـدْ تميّـزت التّفرقـة بـين الفقـه والحديـث تميّـزًا كامـلاً، والشـافعي وإنْ كان الفصيـح الأديـب فقـد تخصّـص في الفقـه وأصولـه، ولذلـك كانـت دراسـة علومهـم سـهلة؛ لأنها ناحيـة واحـدة مـن العلـم، والنواحـي الأخـرى كانـت آراءً اعْتقدوهـا بوصـف كوْنهـم علـماء مسـلمين لا بوصـف كوْنهـم علـماء مختصّـين.

أمّـا ابـن تيميـة، فجولاتـه في الفقـه جعلتـه فقيـهَ عـصره، وجولاتـه في علـم الـكلام جعلتـه أبـرزَ شـخصية فيـه، وتفسـيراتُه للقـرآن الكريـم ودراسـته لأصـول التفسـير ووضعـه المناهـج لهـا جعلتـه في صفـوف المفسّريـن، ولـه في كلّ هـذه العلـوم آراءٌ مبنيّـة عـلى فحـص ودراسـة، ويعـدّ أوّل مَـن جهـر بهـا، وإنْ كان يقـول: إنهـا مذهـب السّـلف وليسـت بدعًـا ابتدعـه، ولا بديئًـا ابتكـره، وإنّمـا هـي رجعـةٌ إلى حيـث كان الإسـلام في إبّـان مجْـدِه أيـام كان غضًّـا لم تلـقِ عليـه السـنون غبـارَ التقليـد والنسـيان[1].

لقـد بلـغ ابـنُ تيميـة بمواهبـه الفطريـة وعلـوّ نفسـه ومقدرتـه الفكريـة وبعْـدِ غايتـه وسـموٍّ قصـدِه وإحاطتـه بزمَنـه وأحـوال أهلِـه وبمختلـف العلـوم درسًـا وتحصيـلاً وتدريسًـا وتأليفًـا؛ رُتبـةَ الاجتهـاد في الفقـه والإمامـة في كلّ فـنٍّ مارسـه عـلى فطاحـل العلـماء، وفـاقَ فيـه الأعْيـان والنظـراء، وتحـدّث عـن ذلك الثّقـات مـن العلـماء، وأثنـوا عليـه الثنـاءَ الحسـن، وكان أتبـعَ النـاس للكتـاب والسـنّة وأقـوال الصحابـة والتابعـين المقتفـين آثـارَ النبـوة، فـكان سـلفيَّ العقيـدة والمنهـج[2].

• نشأتُه العلمية:

يقـول الذّهبـي- رحمـه اللـه- واصفًـا نشـأةَ ابـن تيميـة العلميـة التـي بهـرتِ العلـماء والحكـماء شـارحًا لبعـض صفاتِـه الخُلقيـة والخِلقيـة:

«تحـوّل بـه أبـوه وأقاربـه إلى دمشـق في سـنة سـبعٍ وسـتين عنـد جـوْر التتـار منهزمـين في الليـل، يجـرّون الذريّـة والكتـب عـلى عجلـة، فـإنّ العـدو مـا تـرك في البلـد دوابّ سـوى بقـر الحـرْث، وكلّـت

(١) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٣، ١٤).

(٢) شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية، للعلامة الشيخ حسنين مخلوف، ضمن تقدمة ديوان ابن تيمية، جمع وتحقيق وشرح: د محمد عبد الرحيم، ص(٣٩-٤١).

البقـر مـن نقـل العجلـة، ووقفـت، وخافـوا أن يدركهـم العـدو، ولجئـوا إلى اللـه- تعـالى- فسـارت البقـرُ بالعجلـة، ولطـف اللـه- تعـالى- حتـى انْحـازوا إلى حـدّ الإسـلام.

فسـمع مِـن ابـن عبـد الدايـم[١] وابـن أبي اليـسر[٢] والكـمال بـن عبـد[٣]، وابـن أبي الخـير[٤]، وابـن الصـيرفي، والشـيخ شـمس الديـن[٥]، والقاسـم الإربيـلي[٦]، وابـن عـلان[٧]، وخلـق كثـير، وأكـثرَ وبالـغَ وقـرأ بنفسـه عـلى جماعـة، وانتخـب ونسـخ عـدّة أجـزاء، و«سـنن أبي داود»، ونظـر في الرجـال والعِلـل، وصـار مِـن أئمّـة النقـد ومِـن علـماء الأثـر، مـع التديّـن والنّبالـة والذّكـر والصيانـة، ثـمّ أقبـل عـلى الفقـه ودقائقـه وقواعـده وحججـه، والإجـماع والاختـلاف، حتـى كان يقـضى منـه العجـب إذا ذكـر مسـألةً مـن مسـائل الخـلاف، ثـمّ يسـتدلّ ويرجـع ويجتهـد، وحـقّ لـه ذلـك؛ فـإنّ شروط الاجتهـاد كانـت قـد اجتمعـتْ فيـه، فإننـي مـا رأيـت أحـدًا أسرعَ انتزاعًـا للآيـات الدالـة عـلى المسـألة

(١) محمد بن أبي بكر بن أحمد بن عبد الدائم المقدسي، ولد سنة ثمان أو ٦٤٩، وتوفّي في رجب سنة ٧٤٣، وسمع من جدّه السراجيات الخمسة. انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٤١٥/٢، إكمال الكمال ١١٣/٥.

(٢) إسماعيل بن إبراهيم بن أبي اليسر شاكر بن عبد الله بن محمد بن عبد الله ابن أبي المجد مسند الشام تقي الدين شرف الفضلاء أبو محمد التنوخي المعري الأصل الدمشقي، ولد سنة تسع وثمانين وتوفي سنة اثنين وسبعين وستمائة، تفرّد بأشياء كثيرة، وكان متميّزًا في كتابة الإنشاء، جيّد النظم، حسن القول، ديّنًا، متصونًا، صحيح السماع، من بيت كتابة وجلالة، وكان جدّه كاتب الإنشاء لنور الدين. انظر: الوافي بالوفيات للصفدي ١٩٥/٣.

(٣) الكمال بن عيد: هو محمد بن علي بن عبد القوي الصالحي الحنبل، درس وأفتى وحذق وبرع في العربية واللغة، وعاش سبعين سنة.

(٤) ابن أبي الخير: هو أحمد بن سلامة بن إبراهيم الدمشقي الحنبلي المقرئ الخياط الدلال. ولد سنة ٥٨٩هـ الموافق ١١٩٣م، وتوفي سنة ٦٧٨هـ الموافق ١٢٧٩م.

(٥) شمس الدين بن عطاء الحنفي، هو محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن يوسف بن القاضي شمس الدين بن عطاء الحنفي الدمشقي، سمع من الفخر من مشيخته، كان قاضيًا، وتوفّي بدمشق في شوال سنة ٧٦٤ هـ، (المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي) ١/٩٩، (الدّرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ٣١٨/٢).

(٦) القاسم بن أبي بكر القاسم بن غنيمة العدل أمير الدين أبو محمد الأربكي المقرئ المحدث.

ولد سنة خمس وتسعين، وتوفي ثماني وستمائة، وروى صحيح مسلم عن الطوى المؤبد بدمشق، من غير أصل. سمع منه ابن تيمية وابن الفتح. راجع: الوافي بالوفيا ١/ ١٩٨.

(٧) ابن علان: فقيه ومحدّث، وهو آخرُ مَن روى مِن الحفاظ عن الحافظ بن عساكر بدمشق. توفي عن عمرٍ يناهز التسع وثمانين سنة. البداية والنهاية (١٨٦/١٣).

التـي يوردهـا منْـه، ولا أشـدّ اسـتحضارًا لمُتـون الحديـث وعزْوهـا إلى الصحيـح، أو إلى المسـند أو إلى السّـنن منـه، كأنّ الكتـاب والسـنن نُصْـب عينيـه وعـلى طـرفِ لسـانه، بعبـارة رشـيقة وعـين مفتوحـة، وإفحـامٍ للمخالـف.

وكان آيـةً مـن آيـات اللـه- تعـالى- في التّفسـير والتوسّـع فيـه، لعلـه يبقـى في تفسـير الآيـة المجلـسَ والمجلسـين.

وأمّـا أصـول الدّيانـة ومعرفتهـا ومعرفـة أحـوال الخـوارج والروافـض والمعتزلـة وأنـواع المبتدعـة، فـكان لا يشـقّ فيـه غبـاره، ولا يلحـق شـأوه.

هـذا مـا كان عليـه مـن الكـرم الـذي لم أشـاهدْ مثلـه قـطّ، والشـجاعة المفرطـة التـي يـضرب بهـا المثـل، والفـراغ عـن مـلاذِ النفـس مـن اللّبـاس الجميـل والمـأكل الطيـب والراحـة الدنيويـة.

ثـمّ اسـتكمل الحديـث واصفًـا مؤلفاتِـه بقولـه: «ولقـد سـارت بتصانيفـه الرّكبـان في متـون مـن العلـم وألـوان، ولعـلّ تواليفـه وفتاويـه والأصـول والفـروع والزهـد واليقـين والإخـلاص وغـير ذلـك تبلـغ ثلاثمائـة مجلـدًا، لا بـل أكـثر مـن ذلـك.

كان قـوّالًا بالحـقّ، نهّـاءً عـن المنكـر، لا تأخـذه في اللـه لومـةَ لائـم، ذا سـطوة وإقـدام وعـدم مـداراة الأغيـار، ومَـن خالطـه وعرفـه قـد ينسـبني إلى التقصـير في وصفـه، ومَـن نابـذه وخالفـه ينسـبني إلى التّغـالي فيـه، وليـس الأمـر كذلـك، مـع أننـي لا أعتقـد فيـه العِصمـة، كلّا فإنّـه مـع سـعة علمـه، وفـرط شـجاعته، وسَـيلان ذهنـه وتعظيمـه لحرمـات الدّيـن؛ بـشَرٌ مـن البـشر، تعتريـه حـدّة في البحـث وغضـب، وشـظف للخصْـم يـزرع لـه عـداوة في النفـوس، ونفـورًا عنـه، وإلّا- واللـه- لـو لطـف الخصـوم ورفـق بهـم ولـزم المجاملـة، وحسـن المكالمـة؛ لـكان كلمـة إجـماع، فـإنّ كبارهـم وأئمتهـم خاضعـون لعلومـه وفقهـه، مُعترفـون بشـغوفه وذكائـه، مُقـرّون بنـدور خطَئـه، لسـت أعنـي بعـضَ العلـماء الذيـن شـعارهم وهجيراهـم الاسـتخفاف بـه، والازْدراء بفضلـه، والمَقـت لـه، حتـى اسـتجهلوه وكفّـروه، ونالـوا منـه مِـن غـير أن ينظـروا في تصانيفـه، ولا فهمـوا كلامَـه، ولا لهـم حـظّ تـامّ مـن التوسّـع في المعـارف، والعـالمُ منهـم قـد ينصفـه ويـردّ عليهـم بعلـم، وطريـق العقـل السـكوت عـمّا شـجر بـين الأقـران، رحـم اللـه الجميـع.

يواصل الذهبي- رحمه الله- الحديثَ عن شيخ الإسلام ابن تيمية موضحًا غزارة علمِه، وطرفًا مِن خلاف أعداء الشّيخ له، موضحًا ردّه على مَن اتّهمه بالكفر، واقعًا على أسباب هذا العداء، فيقول- رحمه الله:

«وأنا أقلّ مِن أن ينبه على قدْره كلمي، أو أنْ يوضّح نبأه قلمي، فأصحابُه وأعداؤه خاضعون لعلمه مَقرون بسرعةِ فهمه، وأنه بحرٌ لا ساحل له، وكنزٌ لا نظير له، وأنّ جوده حاتمي، وشجاعته خالديّة، ولكن قد ينقمون عليه أخلاقًا وأفعالًا، مُنصفهم فيها مأجور، ومقتصدُهم فيها معذور، وظالمُهم فيها مأزور، وغاليهم مغْرور، وإلى الله ترجع الأمور.

وكلّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويُترك، والكمال للرسل، والحجّة في الإجماع، فرحِمَ الله أمرًا تكلّم في العلماء بعلم، أو صمت بحلم، وأمعن في مضايق أقاويلهم بتؤدة وفهم، ثمّ استغفرَ لهم ووسّع نطاق المعْذرة، وإلّا فهو لا يدري، ولا يدري أنه لا يدري، وإن أنت عذرت كبارَ الأئمّة في معضلاتهم، ولا تعذر ابن تيمية في مفرداته فقد أقررْت على نفسك بالهوى وعدم الإنصاف.

وإنْ قلت: لا أعذره لأنه كافر، هو والله- تعالى- ورسوله محافظٌ على الصلاة والوضوء وصوم رمضان، معظّم للشريعة ظاهرًا وباطنًا، لا يؤتى مِن سوء فهم، بل له الذّكاء المُفرط، ولا من قلّة علم، فإنه بحر زخّار بصيرٌ بالكتاب والسنة، عديم النظر في ذلك، ولا هو بمُتلاعب بالدين، فلو كان كذلك لكان أسرع شيء إلى مداهنة الخصوم وموافقتهم ومنافقتهم، ولا هو يتفرّد بمسائل بلا تشهّي، ولا يفتي بما اتفق، بل مسائله المفردة يحتجّ لها بالقرآن والحديث أو بالقياس، ويبرهنها ويناظر عليها ويطيل البحث أسوةً بمَن تقدّمه مِن الأئمة، فإنْ كان قد أخطأ فله أجرُ المجتهد من العلماء، وإنْ كان قد أصاب فلَهُ أجْران، وإنّما الذّم والمقت لأحدِ رجُلين: رجل أفتى في مسألة بالهوى ولم يبدِ حجّة، ورجل تكلّم في مسألة بلا خميرة من علمٍ ولا توسّع في نقل، فنعوذ بالله من الهوى والجهل.

ولا ريبَ أنه لا اعتبار بذمّ أعداء العالم، فإن الهوى والغضب يحملهم على عدم الإنصاف والقيام عليه، ولا اعتبار بمدح خواصّه والغلاة فيه، فإنّ الحبّ يحملهم على تغطية هَناته، بل

قد يعدّوها له محاسن، وإنّما العبرة بأهل الورع، والتقوى من الطرفين الذين يتكلّمون بالقسط، ويقومون لله ولو على أنفسهم وآبائهم، فهذا الرجل لا أرجو على ما قلتُه فيه ذنبًا ولا مالًا ولا جاهًا بوجْه أصلًا، مع خبرتي التامّة به، ولكن لا يسعني في ديني وعقلي أنْ أكتم محاسنه، وأدفن فضائله، وأبرز ذنوبًا له مغفورة في سعة كرم الله تعالى، وصفحة مغْمورة في بحر علمه وجوده، فالله يغفر له ويرضى عنه، ويرحمنا إذا صرْنا إلى ما صار إليه، مع أني مُخالف له في مسائل أصلية وفرعية، قد أبديتُ آنفًا أنّ خطأه فيها مغفور، بل قد يثيبه الله- تعالى- فيها على حُسن قصده، وبذل وسْعِه، مع أني قد أوذيت لكلامي فيه مِن أصحابه وأضداده، فحسبي الله»[(١)].

• ابن تيمية وجهادُه الفكري:

استطاع ابنُ تيمية بأخلاقه وعلمه أنْ يصل إلى درجة الإمامة في العلم والعمل، والزهد والورع والشجاعة، والكرم والتواضع، والحلم والأناة والجلالة والمهابة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع الصدق والأمانة، والعفة والصيانة وحسن القصد والإخلاص والابتهال إلى الله تعالى، وشدة الخوف منه، ودوام المراقبة له، والتمسّك بالأمر بالمعروف والدعاء إلى الله تعالى، وحسن الأخلاق، ونفع الخلق والإحسان إليهم[(٢)].

وحريًّا برجُلٍ هذه صفاته أن يقف على مشكلات عصره، خاصّة بعدما رآها وقد خالفت وتجاوزت الحدّ في البُعد عن الكتاب والسنة ومنهج الصحابة - رضي الله عنهم - والسلف الصالح، وحياتهم المليئة بالأمجاد والتضحيات، من أجل الإسلام وإعلاء كلمته؛ أنْ يضع نفسَه مصلحًا ومجاهدًا لتلك النقائص التي تنتابُ عصره، وقد جعل الله ذلك فرضًا مِن فروض

---

(١) انظر: الدرر الكامنة لابن حجر العسقلاني، ص(٥٤٠، ٥٤١) الجامع.

ترجمة ابن تيمية من كتاب ذيل تاريخ الإسلام للحافظ شمس الدين الذهبي، تحقيق وتعليق: محمد بن ناصر العجمي، ط١، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م، دار ابن الأثير، الكويت، ص(٢٢، ٢٣).

انظر: ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- الحافظ ابن حجر العسقلاني، تحقيق: ابن عبد الرحمن سعيد مغشاشة، دار ابن حزم، ط١، ١٤١٩هـ-١٩٩٨م، ص(٣٩، ٤٠).

وانظر: مقدمة كتاب اقتضاء الصراط المستقيم لابن تيمية للإمام أبي عبد الله الذهبي صاحب سير أعلام النبلاء، ص(٤، ٥، ٦).

(٢) ترجمة شيخ الإسلام، ص(١٣).

الكفايـة عـلى المسـلمين؛ لذلـك عمـل جاهـدًا عـلى إزالـة الأغشـية التـي غشـيته بفعْـل العصـور وتـوالي الجمـود عـلى أفـكار لم تسـتق مِـن منابـع الـشرع والديـن؛ لذلـك تعـرّض لمخالفـة علـماءِ المُسـلمين وفـرق معتدلـة لم تكـن مُغاليـة أو لم تكـن مُبتدعـة، ثـمّ تعـرّض لمخالفـة الصوفيـة فجـاءه العَـداء مـن ناحيـة التيّـار الأشـعري والماتريـدي، ثـمّ مـن ناحيـة الصوفيـة الذيـن كانـوا يشـعْوذون إنْ لم يكـن في قلوبهـم ونيّاتهـم الكيـد للإسـلام، ثـمّ مِـن ناحيـة الفقهـاء الذيـن خـرج عليهـم بآرائـه الفقهيـة، التـي لم يكـن لهـم عهـدٌ بهـا، فـكان كلّ أولئـك مُنازعـين عـلى مـودّة في أحيـان قليلـة، وعـلى عـداوة في أكـثر الأحيـان، فناظـر كلّ طائفـةٍ مـن هـذه الطوائـف، وجادلهـا بالقـول في المجالـس الحافلـة، وبالرسـائل يرسـلها قويّـة بالحجّـة الدافقـة، حتـى ابتـلي وسُـجن[١].

ولعلّ ما قام به ابن تيمية يُمكننا أن نلخصه في النقاط الآتية:

١- تجديد عقيدة التوحيد، وإبطال العقائد الشركية.

٢- نقـد الفلسـفة والمنطـق وعلـم الـكلام، وترجيـح منهـج الكتـاب والسـنة وأسـلوبهما عـلى كلّ منهـج وأسـلوب.

٣- الردّ على الفرق والمِلل غير الإسلامية، ومقاومة عقائدها وتقاليدها وتأثيرها.

٤- تجديد العلوم الشرعية، وبعث الفكر الإسلامي.

٥- قيامـه بالجهـاد بالنفـس وتغْيـير المنكـر، وكان رائـدًا للتجديـد والإصـلاح والنهضـة السـلفية وإعـادة البنـاء بعـد سـقوط الخلافـة[٢].

• وسائلُ ابن تيمية في عطائه العلمي:

تعـدّدت وسـائلُ ابـن تيميـة في مجـال جهـاده بالعلـم إلى وسـائل متعـدّدة ومتنوّعـة طبقًـا للظـروف والأحـوال، فهـو مـع عامّـة النـاس ومؤيّديـه؛ تجـد الفتـاوى والمحـاضرات المتنوعـة الطويلـة، والرسـائل القويـة التـي توضّـح لهـم مـا غمـض عليهـم، أو حلـول واعيـة لـكلّ مـا يعْتريهـم مِـن مُشـكلات، ومـع

(١) ابن تيمية حياته وعصره، ص(١٠٥).

(٢) رجال الفكر والدعوة، ص(٦).

المخالفين تجدُ المناظرات والمناقشات الجادّة المستندة إلى الأدلّة الواضحة مِن الكتاب والسنة؛ لمحْو البدع وتصحيح الأفكار من العقائد الفاسدة، متحمّلاً كلّ المشاقّ والانتقادات والخلافات في سبيل الوصول إلى الحقيقة الناصعة.

وأيضًا في كلّ الأوقات المتاحة تقريبًا نجدُه مؤلفًا شارحًا كلّ ما يستطيع تقديمه للناس من قضايا وحلول فكرية واجتماعية، أو سياسية دولية، فهو لا يرى نفسه إلّا مُصلحًا قدِ اختاره الله - عز وجل - لهذا الزّمن ليجدّد للناس دينهم، ويخلّصهم من المفاسد التي اعْترتهم من تكْرار الغفوة عن المنهج الرباني.

أمّا فتاويه فيبيّنها البزار في كتابه الماتع «الأعلام العليّة» بأنها أكثر مِن أن يحصيها «ومصنفاته فإنَّها أكثر من أن أقدر على إحصائها أو يحضرني جملَة أسمائها، بل هَذا لا يقدر عَليه غالبًا أحد؛ لأنَّها كَثيرَة جدًّا كبارًا وصغارًا، وَهي منشورة في البلدانِ، فَقلّ بلد نزلته إلَّا وَرأيْت فِيه مِن تصانيفه»[1].

وقد صدق؛ فقد أفردت بدراسات مُفردة كدراسة ابن القيم، وكالتي جمعَها علّامة الحجاز الفاضل الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد بعنوان الجامع لآثار ابن تيمية- كما سيأتي.

• دروسُه:

وأمّا دروسه، فيبيّنها بيانًا واضحًا البزار نفسُه بقوله: «وأمّا ذكر دروسه فقد كنت في حال إقامتي بِدمَشق لا أفوتها، وَكانَ لا يهيئ شيئًا من العلم ليلقيه ويوردَه، بل يجلس بعد أن يُصَلّي رَكعَتَيْن فيحمد الله ويثني عَلَيه ويُصلي على رَسوله صلى الله عليه وسلم على صفة مُسْتحسنة مُسْتعذبة لم أسمعْها من غيره، ثمّ يشرع فَيفتح الله عَلَيه إيراد عُلوم وغوامض ولطائف ودقائق وفنون ونُقول واستدلالات بآيات وَأحاديث وأقوال العلماء وَنصر بَعضها وَتبين صِحَّته أو تزييف بَعضها وإيضاح حجَّته، واستشهاد بأشعار العَرَب، وَرُبما ذكر اسْم ناظمها، وهُو مَع ذَلك يجْري كَما يجْري السَّيْل، وَيفيض كَما يفيض البَحْر، وَيصير منذُ يتكَلَّم إلَى أن يفرغ كالغائب عَن الحاضرين

(١) الأعلام العلية، ص(٢٦).

مُغمضًا عَيْنيه، وَذلكَ كُله معَ عدم فكر فيهِ أو رويّة من غير تعجْرف، وَلا توقف ولا لحْن، بل فيض إلهي حتَّى يبهر كلّ سامعٍ وناظر، فَلا يزال كَذلك إِلَى أن يصمت، وَكنت أراه حينئذٍ كأنَّه قد صار بِحضرَة من يشْغلهُ عَن غَيره، وَيقَع عَلَيه إذْ ذاك مِن المهابة ما يرعد القُلوب ويحيّر الأبْصَار والعقول، وَكانَ لا يذكُر رَسول الله ﷺ قطّ إلّا وَيصلي وَيسلم عَلَيه، وَلا والله ما رَأيْت أحدًا أشدّ تَعظيمًا لرَسول الله ﷺ وَلا أحرص على اتّباعه وَنَصْر ما جاءَ بِه مِنْه، حتَّى إذا كانَ وردّ شيء من حَديثه في مَسْألة، ويرى أنه لم ينسخه شَيء غَيره من حَديث يعْمل بِه وَيقضي ويفتي بِمقْتضاهُ وَلا يلْتَفت إلى قَول غَيره من المخلوقين كائِنًا مَن كان»[1].

• مؤلفاتُه:

بدأ شيخُ الإسلام التأليفَ في سنّ مُبكرة وله تسعة عشر عامًا، وعاش سبعًا وستين عامًا؛ لذلك كثرت مؤلفاته، وتعدّدت أقوال العلماء في عددِ مؤلفاته؛ فقد ذكر الذهبي أنّ تصانيفه بلغت أربعة آلاف كرّاسة أو أكثر[2]، وأوصل السيوطي عددَها إلى ثلاثمائة، وحكى الصفدي[3] وابن شاكر عن الذهبي أنه عدّها خمسمائة مؤلفًا[4].

وقيل: إنها بلغت مائتي مجلد أو أكثر[5].

وقيل: إنّها ألف[6].

وأجمع أغلبُ العلماء على أنّ مُصنّفاته أكثر مِن أن تحصى؛ لأنها كثيرة جدًّا، كبارًا وصغارًا، وهي مَنشورة في البلدان، ولعلّ سببَ اختلاف العلماء في عددها كثرتها، وأنّ منهم مَن حصرها مجلدات، ومنهم مَن حصرها كتبًا، أو رسائل.

---

(١) السابق، ص(٢٨).

(٢) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(١٧).

(٣) خليل بن أيبك بن عبد الله الأديب صلاح الدين الصفدي أبو الصفاء، ولد سنة ستّ أو سبع وتسعين وستمائة تقريبًا، وتعلّم صناعة الرسم فمَهَر فيها، ثمّ حُبّب إليه الأدب فولع به، وكتب الخط الجيد، ومات بدمشق في ليلة عاشر شوال سنة ٧٦٤، الدرر الكامنة: ٢/ ٢٠٧ وما بعدها

(٤) شذرات الذهب، (٨٤/٦).

(٥) الأعلام العلية، ص(٢٦).

(٦) الشهادة الزكية، ص(٤٣)، والعقود الدرية، ص(٢٣).

• أسبابُ كثرة مؤلّفات ابن تيمية:

كثرتْ مؤلّفات ابن تيمية كثرةً لافتةً للنظر، ولذلك أسبابٌ كثيرة، منها: أنه بدأ التأليف من صغره- كما سبق، واستمرّ عليه ولم يتركْه، حتى في فترات المحنة وسنوات السّجن، كما كان يؤلّف من صدره لحفظه لكتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وما دوّن فيهما مِن شرح، وما قاله العلماء في تفسيرهما، وقد ساعدته كثرةُ محفوظاته وفيضُ خاطره وسعةُ بيانه على تدوين حقائق لم يكتبْ لعالم مثله في موضوعه، ولو لم يكنْ له سوى منهاج السنة لَكَفاه على الأيام فخرًا[1].

• أسبابُ تعذّر حصر مؤلفاته:

حصرُ مؤلفات شيخ الإسلام ابن تيمية متعذّرة وغير مُمكنة بشهادة كثيرٍ مِن العلماء، ويرجع ذلك لأسبابٍ، منها:

١- سرعة كتابته؛ فهو يكتب مِن حفظه، مِن غيْر نقل، ويكتب في كلّ زمان ومكان، وعلى أي حال.

٢- صعوبة خطّ الشيخ؛ لهذا لا يبيّض ما كتبه، وقد شعر الشيخ بذلك فطلب إظهارَ ذلك وعدمَ كتمانه؛ لينتشر، ولكنّ التلاميذ لم يفعلوا فانتشر بعد وفاته.

٣- أنّه كان يكتب الجوابَ لبعض السائلين فيذهب بخطّه، وبما كتب فيه فإنِ اطّلع عليه بعض التلاميذ بيّضَه، وإلّا ذهب معه، فقد يظهر يومًا من الأيام بعد وفاة الشيخ، أو لا يظهر أبدًا.

٤- يكتب الشيخ المجلدَ في اليوم الواحد أو أكثر من ذلك.

٥- يجيب الشيخُ على الأسئلة الموجّهة إليه مكتوبة كتابة بأكثر من مجلد؛ لهذا كثرتْ مؤلّفاته مع جَهالة اسم المؤلف؛ لأنها إجابةٌ لسؤال، فقد يسمّى باسم السائل.

٦- الفتن والامتحانات التي تعرّض لها شيخ الإسلام.

٧- خوف أصحابه من إظهار كتبه بعد حبْس الشيخ، وذهاب كلّ واحدٍ بما عنده، وتفرّقهم.

---

(١) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(٢٨).

٨- أكثر ما كتبه في الحبْس صودِرَ وأخذه منه خصومه، ومنها ما أتلف، وحتى بعدَ وفاته إلى عصور متأخّرة؛ حيث قام بعضُ أعيان دمشق من خصوم الشيخ بمحاولاتٍ عديدة لإتلاف كتبه[١].

يقول الإمام الصفدي في معرض الحديث عن عدم حصْر كتب الشيخ وتصانيفه، وصعوبة ذلك: «مَن الذي يأتي على مجموعها، ولله درّ القائل:

إنّ في الموج للغريق لعذرًا   واضحًا أن يفوته تعداده»[٢]

وقد نصّ ابنُ رجب على ذلك بقوله: «وأمّا تصانيفه- رحمه الله- فهي أشهرُ مِن أن تُذكر، وأعرف مِن أن تُنكر. سارت مسير الشمس في الأقطار، وامتلأت بها البلاد والأمْصار، قد جاوزت حدّ الكثرة، فلا يمكن لأحدٍ حصرها، ولا يتّسع هذا الكلام لعدّ المعروف منها ولا ذكرها، وقد بلغت ثلاثمائة مجلدة.

وكتب بخطّه من التصانيف والتعاليق المفيدة، والفتاوى المشبعة في الأفرع والأصول والحديث وردّ البدع بالكتاب والسنة؛ شيئًا كثيرًا، يبلغ عدّة أحمال، وقد امتحن وأوذي مرارًا»[٣].

ويقول ابن عبد الهادي: «وعددُ مصنّفاته تحتاج إلى أوراق كثيرة، ولا أعلم مِن المتقدّمين ولا مِن المتأخّرين مَن جمع مثل ما جمع، ولا صنّف نحو ما صنّف، ولا قريبًا مِن ذلك، مع أنّ تصانيفه كان يكتبها مِن حفظه»[٤].

• صفةُ مصنّفاته:

يقول ابن الزملكاني عن مصنفات الشيخ وصفاته العلمية: كان إذا سئل عن فنٍّ مِن العلم ظنّ الرائي والسّامع أنه لا يعرف غير ذلك الفن، وحكم أنّ أحدًا لا يعرف مثله، وكان الفقهاء مِن سائر الطوائف إذا جلسوا معه استفادوا في مذاهبهم منه ما لمْ يكونوا عرفوه قبْل ذلك، ولا

(١) انظر: جهود شيخ الإسلام ابن تيمية في توضيح الإيمان بالقدر، د/ تامر متولي، ص(٤٥).

(٢) انظر: منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في التأليف، ومراحله المتعددة، ط: أولى، ١٤٢٠هـ- ١٩١٩م، د/ عبد الله محمد الحجيلي، ص(٢٢)، وانظر البيت في: زهر الأكم في الأمثال والحكم، (٢٥٨/٢).

(٣) طبقات المفسرين للداوودي، (٤٩/١) ضمن الجامع.

(٤) مختصر طبقات علماء الحديث، ص(٢٥٧) ضمن الجامع.

يعرف أنه ناظرَ أحدًا فانْقطع معه، ولا تكلّم في علمٍ من العلوم سواء كان مِن علوم الشرع أو غيرها إلّا فاقَ فيه أهله والمنسوبين إليه، وكانت له اليدُ الطولى في حُسن التّصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم والتبيين»[١].

لقد كان أسلوبُ ابن تيمية موسوعيًّا خاليًا من الجفاف، مُعتمدًا على الاستدلال بالقرآن والسنة، نابذًا للمنطق وعلم الكلام[٢].

• أسماءُ مؤلفاته:

ذكر كثيرٌ من العلماء مؤلفاته، فمنهم مَن ذكرها مُفردة كابن القيم وابن الرشيق، ومنهم مَن ذكرها ضمْن ترجمته مثل ابن عبد الهادي في طبقات علماء الحديث، والكواكب الدريّة، والصفدي في الوافي بالوفيات، والداودي في طبقات المفسرين، والبزار في الأعلام العليّة، فنرى البزار- مثلاً- يتحدّث عن كتب الشيخ وكثرتها، وتنوّعها بقوله: «وَمن أعجب الأَشْيَاء فِي ذَلِك أنه فِي محنته الأولى بِمصر لما أُخذ وسجن وحيل بَينه وَبَين كتبه؛ صنّف عدَّة كتب صغارًا وكبارًا، وَذكر فِيهَا مَا احْتَاجَ إِلَى ذكره من الأحَادِيث والآثَار وأقوال العلمَاء وَأَسْمَاء المُحدثين والمؤلفين ومؤلفاتهم، وَعزا كلّ شيء من ذَلِك إِلَى ناقليه وقائليه بِأَسْمائهِمْ، وَذكر أسمَاء الكتب الَّتِي ذكر فِيهَا، وَأي مَوضع هُوَ مِنْها، كلّ ذَلِك بديهة من حفظه؛ لأَنَّهُ لم يكن عِنْده حينَئذٍ كتاب يطالعه، ونقبت واختبرت واعتبرت فَلم يُوجد فِيهَا بِحَمْد الله خلل، وَلا تغيّر، وَمن جُمْلَتهَا كتاب الصارم المسلول على شاتم الرَّسول»[٣].

ومِن عجائبه- أيضًا- ما أخبر به تلميذُه الإمام البزار بقوله: أَخْبرنِي الشَّيْخ الصَّالح تَاج الدّين مُحَمَّد المَعْرُوف بابْن الدوري أنه حضر مجْلِس الشَّيْخ - رحمه الله - وَقد سَأَلَهُ يَهُودِيّ عَن مسألة فِي القدر قد نظمها شعرًا فِي ثَمَانِيَة أبْيَات، فَلَمَّا وقف عَلَيْهَا فكر لَحْظَة يسيرَة وأنشأ يكْتب جوابها، وَجعل يكْتب وَنحن نظن أنه يكْتب نثرًا، فَلَمَّا فرغ تَأمله من حضر من أَصْحَابه وَإِذا هُوَ

(١) الردّ الوافر، ص(٥٨)، والعقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ص(٣٨٩)، ولمحات تاريخية من حياة ابن تيمية، (١٠٩/٤)، والشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، ص(٣٦).

(٢) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(٢٨).

(٣) الأعلام العلية، ص(٢٢).

نظـم فِي بَحـر أَبْيَـات السُّـؤَال وقافيتهـا تقـرب مـن مائَـة وَأَرْبَعَـة وَثَمَانِـينَ بَيْتًـا، وَقـد أبـرز فِيهَـا مـن العُلُـوم مَـا لَـو شرح بـشرح لجـاء شَرحـه مجلديـن كبيريـن، هَـذَا مـن جملَـة بواهـره، وَكـم مـن جَـوَاب فَتْـوَى لم يسْـبق إِلَى مثلـه»[1].

وقـد جمـعَ ابـن القيـم كتـبَ ورسـائل شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة التـي قـام بتأليفهـا في رسـالة وهـي مطبوعـة، يقـول البـزار- رحمـه اللـه: «وَأمـا مؤلفاتـه ومصنفاتـه فَإِنَّهَـا أَكـثر مـن أن أقـدر عـلى إحصائهـا أو يحـضرني جملَـة أسـمائها، بـل هَـذَا لا يقـدر عَلَيْـهِ غالبًـا أحـد؛ لأَنَّهَـا كَثِـيرَة جـدًّا كبـارًا وصغـارًا، وَهِـي منشـورة فِي البلـدانِ فَقـلّ بلـد نزلتـه إِلَّا وَرَأَيْـت فيـهِ مـن تصانيفـه، فَمِنْهـا مَـا يبلـغ اثنـي عـشر مجلـدًا كـ: تَلخِيـص التّلبيـس عـلى أسـاس التَّقْديـس وَغَـيره، وَمِنْهـا مـا يبلـغ سـبعَةَ مجلّـدات كـ: الجمـع بَـين العقـل والنَّقْـل، وَمِنْهـا مـا يبلـغ خمسَـةَ مجلـدات، وَمِنْهَـا منهـاج الاسْـتقَامَة والاعتـدال وَنَحْـوه، وَمِنْهـا مَـا يبلـغ ثَلاثـة مجلـدات كـ: الـرَّد عـلى النَّصـارَى وَشـبهه، وَمِنْهـا مجلّـدان كـ: نِـكاح المُحَلّـل وَإِبْطـال الحيَـل وَشرح العقيـدة الأصبهانيّـة، وَمِنْهـا مُجَلّـد وَدون ذَلِـك.

وَهَـذانِ القسْـمان مـن مؤلفاتـه فَهِـيَ كَثِـيرَة جـدًّا لا يمكننـي اسـتقصاؤها، لَكِـن أذكـر بَعْضهـا استئناسًـا، كتـاب تَفْسـير سُـورَة الإخـلاص مُجَلـد، كتـاب الـكَلام عـلى قَوْلـه - عـز وجـل -: ﴿الرَّحْمَـٰنُ عَـلَى الْعَـرْشِ اسْـتَوَىٰ {٥/٢٠} ﴾، كتـاب الصـارم المسـلول عـلى شـاتم الرَّسـول، مُجَلـد، كتـاب الفرْقَـان المُبـين بَـين الطَّـلاق وَاليَمِـين، كتـاب الفـرق بَـين أَوْلِيَـاء الرَّحْمَـن وأوليـاء الشَّـيْطان، كتـاب اقْتِضـاء الـصِّراط المُسْـتَقيم مُخالفَـة أَصْحـاب الجَحيـم، كتـاب الكَلـم الطّيـب، كتـاب إِثْبـات الكَـمال، كتـاب الـرَّد عـلى تأسـيس التَّقْديـس، كتـاب الجمـع بَـين العقـل وَالنَّقْـل، كتـاب نقـض أَقْـوَال المبتدعـين، كتـاب الـرَّد عـلى النَّصـارَى، كتـاب منهـاج الاسْـتقامَة، كتـاب إبطـال الحيَـل وَنِـكَاح المُحَلّـل، كتـاب شرح العقيـدة الأصبهانيـة، كتـاب الفتـاوى، كتـاب الـدّرّ المُلْتَقـط، كتـاب أَحْـكَام الطَّـلاق، كتـاب الرسـالَة، كتـاب اعْتِقَـاد الفرْقَـة النَّاجِيـة، كتـاب رفـع المـلام عَـن الأَئِمَّـة الأعْـلام، كتـاب تَقْريـر مسـائِل التَّوْحيـد، كتـاب الاسـتغاثة والتوسّـل، كتـاب المسـائِل الحمويـة، كتـاب المسـائِل الجزريـة، كتـاب المسـائِل المفـردة»[2].

---

(١) الأعلام العلية، ص(٢٦، ٢٧).

(٢) الأعلام العلية، ص(٢٣) وما بعدها.

• خصائصُه العلمية:

يُمكننا بعدما ذكرنا ثناءَ العلماء عليه وعلى مؤلفاته، وتحدّثنا عن صفة تلك المؤلفات وأسمائها؛ أنْ نذكر الخصائص العلمية لشيخ الإسلام ابن تيمية؛ بيانًا لتطابق تلك الشهادات الزكيّة في ثنائهم عليه، وعنايتهم به، على النحْو الآتي:

١- النظرة الشموليّة للعلوم؛ حيث إنه لم يقتصرْ على علمٍ بعينه، وهذا ما أهّله للقيام بعلم السنن قيامًا لافتًا للنظر، مسترعيًا للانتباه.

٢- تمكّنه من هذه العلوم، واستحضاره لها في وقت الحاجة بمهارةٍ فائقة، وهذا ما يفسّر لنا تلك الكثْرة والتنوّع في مؤلفاته- كما سبق.

٣- السّعة والغزارة مِن تلك العلوم، حتى تناولت معظم الدراسات الشرعية، وتعمّقت حتى أفاضت بالجديد مِن الآراء.

٤- الاستغراق الذّهني التامّ في العلم، حتى إنه ملك عليه نفسه، فلا يلتفت إلى شيءٍ من الدنيا، مِن ملاذّها وأهوائها.

٥- سموّ الغاية في تحصيل العلْم، فهو لم يتعلّم العلم ليسودَ الناس أو ليجهل عليهم، أو ليماري به السّفهاء، أو للحصول على منزلةٍ مادية عارضة، ولكنه تعلّم العلم ليتقرّب به إلى الله، ويقوم بإصلاح المسلمين وواجبه نحوهم من النّصح والنّفع.

٦- وضوح الغاية والتمسّك بها، ووضع أسس منظّمة ومنهج واضح للوصول إلى هذه الغاية، وتلك الأسس مُعتمدة على ميراث الأنبياء والرسل والسلف الصالح.

٧- غزارة مؤلفاته، كما سبق البيان عنها، حتى وصلت إلى ألفي مؤلف، غير الرسائل وما فقده أثناء محْبسه.

٨- امتازت كتبُه بالاتزان والتّنظيم والنظرة الشمولية الجامعة للقضايا التي يشرحها في مهارةٍ عالية ولغةٍ قويّة وفصاحة وسهولة، وحُسن ترتيب.

وهكذا أهّلَت ابن تيمية تلك المكانةُ العلمية أنْ يكون سيفًا مسلولًا على المخالفين، وشجى في حلوق أهلِ البدع والأهواء، وإمامًا قائمًا ببيان الحقّ ونصرة الدين طنّت بذكره الأمصار، وضنّت بمثله الأعصار[١].

• شيوخُ ابن تيمية، ومصادرُ تلقّيه للعلم:

نشأ ابنُ تيمية في حجور العلماء، راشفًا كؤوس المفهوم، راتعًا في رياض التفقّه، ودوحات الكتب الجامعة لكلّ فنّ مِن الفنون، لا يلوي إلى غير المطالعة والاشتغال والأخذ بمعالي الأمور، وخصوصًا علم الكتاب والسنة النبوية ولوازمها.. هكذا وصفه بعضُ قرناء الشيخ- رحمه الله[٢].

لقد كانت نشأةُ ابن تيمية الأولى هي الشيخَ الأول الذي أورثه عشقَ العلم واحترامه، وعلمته الاتزان النفسي؛ فورث عقلًا نابهًا قادرًا على الاختيار والتمييز بين الحقّ والباطل، كما أورثته قلبًا نابضًا يحبّ الله - عز وجل -، يستطيع دائمًا التفرقةَ بين الكذب والصّدق، الحقّ والباطل، الصواب والخطأ، فكان محصّلته الفكرية تابعة لشخصيته الذاتيّة، فهو حريصٌ على التعلّم والفهم والإدراك لكلّ ما يجده أمامه، ووسيلته إلى ذلك التي ورثها ولا يثق إلّا بها هي الكتاب والقراءة والحرص على العلم الموسوعي في كلّ المَجالات؛ ليزداد إدراكًا وفهمًا للحياة وللكوْن والمجتمع، ثمّ ليتعلّم كيف يصحّح الأخطاء، ويردّ الأمور إلى الصواب الذي تربّى عليه، ولم يرَ غيره في حياته.

لقد كانت بيئةُ ابن تيمية هي أولَ تأثير في حياته العلمية، حيث كان لأبيه دورٌ بارز في تلقّيه المذهب الحنبلي، كما أنّ صلة والده بالعلماء أورثته معرفةً قويّة بالعلماء وامتزاجًا بهم.

لقد تنوّعت مصادر المعرفة في عصر ابن تيمية، فلم يكنِ التلقّي من أفواه الرجال فقط كما كان الشأنُ في عصر أبي حنيفة ومالك، بل كان تلقي العلم كما هو في عصر تدْوين العلم مِن ناحيتيْن: مِن الرجال الذين يوجّهون ويلقنون ويتخرّج العالم عليهم، ومِن الكتب؛ يدرسها ويفْحصها وينقّب فيها، ومِن مجموع ما يتغذّى ممّا يتناوله مِن شيوخه، وما يستخرجُه مِن بطون

(١) ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية، ص(١٣).

(٢) العقود الدرية، ص(٩).

الكتـب تتكـوّن المـادة العلميـة التـي يبنـي عليهـا، ويسـتنبط منهـا، ويزيـد عليهـا، وقـد يـأتي بلـونٍ آخـر مِـن ألـوان الفكـر.

• مادّتُه الأولى فيما درس:

لقـد بلـغ شـيوخُ ابـن تيميـة الذيـن سـمعَ منهـم أكـثرَ مِـن مائتـي شـيخ، يقـول صاحـب الكواكـب الدريّـة: «فلـمْ يـزلْ إبّـان صغـره مسـتغرقَ الأوقـات في الجـدّ والاجتهـاد، وختـم القـرآن صغـيراً، ثـمّ اشـتغل بحفـظِ الحديـث والفقـه والعربيـة، حتـى بـرعَ في ذلـك مـع ملازمتـه مجالـس الذّكـر وسـماع الأحاديـث والآثـار، ولقـد سـمع غـيرَ كتـاب عـلى غـيرِ شـيخ مـن ذوي الرّوايـات الصحيحـة العاليـة.

أمّـا دواويـن الإسـلام الكبـار كمُسـند أحمـد وصحيـح البخـاري ومسـلم، وجامـع الترمـذي وسـنن أبي داود السجسـتاني والنسـائي وابـن ماجـه والدارقطنـي؛ فإنـه سـمعَ كلًّا منْهـا مـرّات عديـدة، وأول كتـابٍ حفظَـه في الحديـث الجمْـعُ بـين الصحيحـين للإمـام الحميـدي، كـذا قـال الشـيخ الحافـظ سراج الديـن أبي حفـص عمـر.

وسـمعَ مِـن مشـايخ كابـن عبـد الدايـم المقْـدسي وطبقتـه، وطلـب بنفسـه قـراءة وسـماعًا مـن خلـق كثـير، وقـرأ الكتـبَ الكبـار وكتـب الطبقـات، ولازَمَ السـماع، واشـتغل بالعلـوم.

قـال ابـن عبـد الهـادي بـنُ قدامـة: وشـيوخُه الذيـن سـمع منهـم أكـثرُ مِـن مائتـي شـيخ، وسـمع مسـندَ الإمـام أحمـد مـرّات، وسـمع الكتـب الكبـار والأجـزاء، ومِـن مسـموعاته معجـم الطـبراني الكبـير، وعُنـي بالحديـث، وقـرأ ونسـخَ وانتقـى، وتعلّـم الخـطّ والحسـاب في الكتّـاب، وحفـظ القـرآن وأقبـلَ عـلى الفقـه، وقـرأ في العربيـة، وأخـذ يتأمّـل كتـاب سـيبويه حتـى فهمَـه وبـرعَ في النحـو، وأقبـل عـلى التفسـير إقْبـالًا كليًّـا حتـى حـازَ فيـه قصَـبَ السّـبق، وأحكـم أصـولَ الفقـه وغـير ذلـك، هـذا كلّـه وهـو بعْـدُ ابـنُ بضـع عـشرة سـنة، فانبهـر الفضـلاء مـن فـرْط ذكائـه، وسَـيلان ذهْنـه، وقـوة حافظتـه وسرعـة إدراكـه[1].

(١) ابن تيمية حياته وعصره، ص(٥٦).

وذكـر ابـنُ عبـد الهـادي[١] في كتـاب «ذيـل طبقـات الحنابلـة» أنـه سـمع مـن ابـن أبي اليسر والكـمال بـن عيـد[٢]، والشـيخ شـمس الديـن الحنبـلي[٣]، والقـاضي شـمس الديـن بـن عطـاء الحنفـي[٤]، والشـيخ جـمال الديـن بـن الصـيرفي[٥]، ومجـد الديـن بـن عسـاكر[٦]، والنجيـب المقـداد[٧] وابـن أبي الخـير[٨] وابـن عـلان[٩]، وأبي بكـر الهـروي[١٠] والكـمال عبـد الرحيـم فخـر الديـن بـن البخـاري[١١]، وابـن شـيبان، والـشرف بـن القـواس، وزينـب بنـت مـكي[١٢]، وخلـق كثـير[١٣].

---

(١) محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن عبد الصمد بن عبد الهادي بن محمد بن قدامة المقدسي الحنبلي شمس الدين، ولد في رجب سنة ٧٠٥، تردّد إلى ابن تيمية، مهَرَ في الحديث والفقه والأصول والعربية وغيرها، من أهمّ كتبه الأحكام في ثمانية مجلدات، والمحرّر في الحديث، وجمع التفسير المُسند، كان حافظًا علّامة ناقدًا، حصل من العلوم ما لا يبلغه الشيوخ الكبار، وبرع في الفنون، وكان بارعًا في العلل والطرق والرجال. (البدر الطالع بمحاسن من بعْد القرن السابع ١٠٢/٢، ذيل طبقات الحنابلة ٣٥٧/١)

(٢) هو محمّد بن علي بن عبد القوي الصالحي الحنبلي. توفي بمارستان البلد في رجب. درس وأفتى وحذق وبرع في العربية واللغة، وعاش سبعين سنة.

(٣) شمس الدين الحنبلي كان مِن الأئمة الأجلّاء، ضليعًا بعلوم الفقه والتفسير، أخذ عنه ابن تيمية وغيره، انظر البداية والنهاية: ١٤/ ١٣٦.

(٤) هو من أساتذة شيخ الإسلام ابن تيمية، البداية والنهاية: ١٤/ ١٣٦.

(٥) جمال الدين الصيرفي: عالم فقيه محدث و معتمد* ثبته الإمام ابن كثير و دققه في البداية والنهاية ثمّ كان من أساتذة ابن تيمية. درس عليه الفقه والتفسير. (البداية والنهاية ١٢٦/١٤).

(٦) هو القاسم بن أبي غالب المظفر بن محمود طبيب عالم بالحديث كتبت له مشيخة في سبعة مجلدات لزم بيته منقطعا إلى تدريس الحديث، انظر الدرر الكامنة: ٣/ ٢٣٩، والبداية والنهاية: ١٤/ ١٠٨، والأعلام: ٥/ ١٨٥.

(٧)) النجيب المقداد هو نجيب الدين المقدار بن أبي القاسم القيسي، قال ابن النجار: كان حافظا حجة نبيلا جم العلم كثير المحفوظ من أعلام الدين وأئمة المسلمين كثير العبادة والتهجد والصوم وله شعر جيد في الزهديا وسمع منه المصريون والبرزالي أي روح والمؤيد، مات في ربيع الآخر سنة ٦١٩.(سير أعلام النبلاء ١٦٥/٢٢).

(٨) هو أحمد بن سلامة بن إبراهيم الدمشقي الحنبلي المقرئ الخياط الدلال. ولد سنة ٥٨٩هـ الموافق ١١٩٣ م وتوفي سنة ٦٧٨هـ الموافق ١٢٧٩م، انظر: المنهل الصفي والمستوفي بعد الوافي: ١/ ٥٧.

(٩) فقيه و محدث و هو آخر من روى من الحفاظ عن الحافظ بن عساكر بدمشق. توفي عن عمر يناهز التسع وثمانين سنة. البداية والنهاية (١٨٦/١٣).

(١٠) السائح علي بن أبي بكر الهروي الزاهد الفاضل الجوال الشيخ علي بن أبي بكر الهروي الذي طوّف، غالب المعمور وقلّ أن تجدَ موضعًا معتبراً إلّا وقد كتب اسمه عليه مولده بالموصل واستوطن حلب، وله بها رباط، وجمع تواليف وفوائد وعجائب، وله كتاب المزارات وألّف خطبًا، مات في رجب٦١١. (إكمال الكمال ٣٩/٢) (إكمال الكمال ٥٦١/٤) (سير أعلام النبلاء ٥٦،٥٧/٢٢).

(١١) عالم ومحدّث، أخذ عليه ابن تيمية الفقه، البداية والنهاية، ١٤/ ١٣٥.

(١٢) هي زينب بنت مكي بن علي الحراني، فقيهة، ازدحم عليها الطلبة لطلب العلم، ولدت عام ٥٩٤ هـ وتوفيت في دمشق عام ٦٨٨هـ.

(١٣) ص(٢٤٩).

لقد ذكر الشيخ الذهبي- رحمه الله- بعضَ أسماء مشايخ ابن تيمية مثل: ابن عبد الدايم، وابن أبي اليسر، والكمال بن عبد، وابن أبي الخير، وابن الصيرفي، والشيخ شمس الدين والقاسم الإربلي، وابن علان[١].

ونذكر بعضًا مِن أسماء شيوخِه:

١- الإمام المحدّث الفقيه مسند الشام أبو العباس زين الدين أحمد بن عبد الدايم بن أحمد المقدسي المولود سنة ٥٧٥ هـ من شيوخ الحنابلة، عالم بالحديث، توفي سنة ٦٦٨ هـ[٢].

٢- الشيخ الإمام العالم العلّامة، الزاهد قاضي القضاة شمس الدين، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن قدامة المقدسي الحنبلي، ولد في محرم سنة ٥٩٧هـ وتوفي سنة ٦٨٢هـ وكان عالمًا في الفقه والحديث والأصول[٣].

٣- الإمام الفقيه القاضي شرف الدين أبو العباس أحمد بن أحمد بن نعمة المقدسي الشافعي، المولود سنة ٦٢٢ هـ برع في الفقه والأصول والعربية، توفي سنة ٦٩٤هـ[٤].

٤- والده الإمام الفقيه العلامة المحدث أبو المحاسن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، المتوفّى سنة ٦٨٢هـ سمع منه بحرّان سنة ٦٦٦هـ[٥].

٥- الإمام الفقيه المحدث زين الدين أبو البركات المنجي بن عثمان بن أسعد بن المنجيّ بن البركات التنوخي الدمشقي الحنبلي، المولود سنة ٦٣٢هـ أخذ عنه ابن تيمية الفقه، توفي سنة ٦٩٥هـ[٦].

---

(١) ذيل تاريخ الإسلام للذهبي، ص(٢٢).

(٢) شذرات الذهب، (٣٧٦/٥)، والبداية والنهاية، (٢٠٧/١٣).

(٣) البداية والنهاية، (٣٢/١٣)، وشذرات الذهب، (٣٧٦/٥).

(٤) البداية والنهاية، (٣٤١/١٣)، وشذرات الذهب، (٤٢٣/٥، ٤٢٤).

(٥) الدارس في تاريخ المدارس، لعبد القادر بن محمد النعيمي الدمشقي، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م، (٧٤/١)، والبداية والنهاية، (٢٨٧/١٣)، وشذرات الذهب، (٣٧٦/٥).

(٦) البداية والنهاية، (٣٤٥/١٣)، وذيل طبقات الحنابلة، (٢٠١/١)، وشذرات الذهب، (١٧/٥).

٦- الإمام الفقيه النحوي شمس الدين أبو عبد الله محمد بن عبد القوي بن بدران المقدسي المرداوي، فقيهٌ محدّث، نحوي، ناظم، قرأ ابن تيمية عليه العربية، توفي سنة ٦٩٦هـ[١].

٧- الإمام الفقيه القاضي شمس الدين أحمد بن إبراهيم بن المغني السروجي الحنفي، توفي سنة ٧١٠هـ[٢].

٨- الإمام فخر الدين أبو الحسن علي بن أحمد بن عبد الواحد بن أحمد السعدي المقدسي الصالحي الحنبلي المعروف بابن البخاري، المولود سنة ٥٩٥هـ، كان شيخًا عالمًا فقيهًا زاهدًا عابدًا مسندًا مكثرًا مكرمًا للطلبة، حدّث نحوًا من ستين سنة، توفي سنة ٦٩٠هـ[٣].

٩- الشيخ الفقيه الإمام العالم البارع جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن سليمان بن سعيد بن سليمان البغدادي، المولود سنة ٥٨٥هـ بحرّان نزيل دمشق، توفي سنة ٦٧٢هـ[٤].

١٠- الإمام المحدث مسند الشام الكاتب المنشئ تقي الدين أبو محمد بن إسماعيل بن أبي اليسر التنوخي، ولد سنة ٥٨٩هـ، وسمع منه ابن تيمية سنة ٦٦٩هـ، وتوفي سنة ٦٧٢هـ[٥].

• تلامذتُه:

عُرف شيخ الإسلام ابن تيمية بكثرة تلاميذه والمستفيدين منه، وكان من الطبيعي أن يكونَ له نفوذٌ قوي في عصره الذي عاش فيه، بما قد رزقه الله من حياة مشغولة بالعمل الإسلامي العظيم، ومِن شخصيّة عملاقة جبارة، ولا غرْوَ أن يتجمّع حوله حشدٌ كبير مِن تلاميذه والمعجبين به[٦].

لقد ربّى شيخ الإسلام ابن تيمية جيلاً عالمًا مجاهدًا، شارك معه أحداث عصره، فأصابه ما أصاب الشيخ من السرّاء والضّراء، ووقف معه يجابه الأحداث من قتال للتتار، وقيام بواجب

(١) الوافي بالوفيات، (٢٨٧/٣)، والبداية والنهاية، (٣٣٣/١٣)، وشذرات الذهب، (٤٥١/٥).
(٢) البداية والنهاية، (٦٠/١٤)، وطبقات الحنفية، (٥٣/١).
(٣) شذرات الذهب، (٤١٣/٥)، والبداية والنهاية، (٢٨٧/١٣).
(٤) شذرات الذهب، (٣٣١/٥)، والبداية والنهاية، (١٣٧/١٤)، والعبر، (٢٩٣/٥).
(٥) انظر: شذرات الذهب، (٣١٦/٤)، والبداية والنهاية، (٢٦٧/١٣)، والعبر، (٢٩٩/٥)، وراجع: شيخ الإسلام ابن تيمية رجل الإصلاح والدعوة، إبراهيم محمد العلي، ص(١١٣: ١١٧).
(٦) رجال الفكر والدعوة، ص(٣٠٣).

الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر، بالقـوة حينًـا وبالموعظـة الحسـنة حينًـا آخـر، كـما شـاركه الدعـوة والإرشـاد والتدريـس والإفتـاء، والكتابـة والتصنيـف والتأليـف[1].

إنّ شـيخ الإسـلام فـاقَ في كـثرة تلامذتـه كلّ شـيوخ عـصره، حيـث كان لـه تلاميـذ ومريديـن، في كلّ البـلاد التـي انتقـل إليهـا، مـن الشـام والإسـكندرية والقاهـرة بمـصر[2].

ولعلّ كثرةَ تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيمية ترجعُ إلى أسبابٍ، منها:

١- مـا كانَ يتمتّـع بـه مـن شـخصيةٍ عملاقـة جبّـارة تسـتهوي الأذكيـاء، وأصحـاب القـدرات العاليـة، مـع مـا أوتيـه مِـن قـدرةٍ عـلى التأثـير في مَـن حولـه، مـع عمـل دءوب للإسـلام عـلى مختلـف الجبهـات والمجـالات المختلفـة.

٢- غـزارة علمـه، وسـعة معارفـه واطّلاعـه عـلى شـتى العلـوم والمعـارف التـي كانـت معروفـةً في عـصره مـمّا جعلـه مَقصـدًا لطلبـة العلـم الراغبـين في أن ينهلـوا مـن هـذه الينابيـع الغزيـرة مـن العلـوم المختلفـة، مـمّا أعطـاه قـدرةً عاليـة في جـذب طلبـة العلـم إليـه، مـع مـا أوتيـه مـن فصاحـة لسـانٍ وقـدرةٍ بيانيـة عاليـة.

٣- كـثرة تنقّلاتـه بـين مـصر والشـام مـمّا كان لـه أكـبر الأثـر في اسـتفادة الكثيريـن مـن علومـه حيثـما نـزل أو ارْتحـل، لا يحـول بينـه وبـين الاسـتفادة مـن علومـه حائـل، حتـى أخـذوا عليـه في المعتقـلات حيـث سُـجن- رحمـه اللـه تعـالى.

٤- إلقـاؤه الـدروسِ العامّـة التـي أكسـبته علاقـاتٍ اجتماعيـةً كبـيرة مـع شرائـح واسـعة في المجتمـع الدّمشـقي والقاهـري، واكتسـب مِـن خـلال جرأتـه في قـول الحـقّ فيهـا مهابـة واحترامًـا عنـد العامّـة والخاصّـة، فـكان لـه مِـن المحبّـين في كلّ الطبقـات الاجتماعيـة، وفي ذلـك يقـول ابـنُ الـوردي- رحمـه اللـه: «.... لـه محبّـون مِـن العلـماء والصّلحـاء والجنـد والأمـراء والتجّـار والكـبراء وسـائر العامـة تحبّـه»، ويضـاف إلى ذلـك الـدروس الخاصّـة التـي كان يُلقيهـا عـلى خاصّـة تلاميـذه، والتـي مِـن خلالهـا بـرزت مداركُـه وقدراتـه الهائلـة في العلـم والمعـارف.

---

(١) أحمد بن تيمية رجل الإصلاح والدعوة، ص(١٣٤).

(٢) ابن تيمية حياته وعصره، ص(٤٣٧).

٥- احترامه ومحبّته لتلاميذه وبذْله العلم لهم، مع تلمّسه حاجاتهم وقدراتهم، وحسن تعامله مع هذه القدرات والكفاءات تهذيبًا وتنمية وتعميقًا ممّا رزقه هؤلاء التلاميذ كثيرًا من الثّقة بالنفس، والجرأة في قول الحقّ والدّفاع عنه، مهْما كانت العوائق التي تعوق ذلك[1].

بيْدَ أنّه يلاحظ أنّ تلاميذه نوعان؛ لأنّ دروسه كانت نوعيْن: فالنوع الأول من درْسه دروس عامّة يلقيها على العامة في المسجد الجامع يرشدهم ويبين لهم الاتباع وحقيقته، ويجنّبهم الابتداع، كما كان الشأنُ في كثيرٍ من دروسه بمصر، وببعض دروسه العامة في الشام، وحيثما حلّ، كما فعل بغزّة عندما مرّ بها، وهو مُقبلٌ إلى مصر، وقد كان له تلاميذ في هذه الدّروس العامّة يلازمونه، وإن كان الأحْرى أنْ ليسوا أكثر مِن مُريدين؛ لأنّهم لا طاقة لهم بأنْ يدركوا كلّ مدارك الشيخ حتى يكونوا تلاميذ بالمعنى الخاص الذي يرثون فيه علمَه.

والقسمُ الثاني مِن دروسه: دروس خاصّة كان يلقيها على تلاميذه الذين اختصّوا بعظَم المدارك، وصلحوا لأنْ يكونوا ورثته في علمِه مِن بعده، والقائمين على تركته الفكريّة وخلفاءَه عليها، وهؤلاء هُم الذين كان يلقي عليهم كلّ تفكيره ومنهاجه في مدارس الشام وبعض الاجتماعات الخاصّة في مصر والشام.

وإنّ هذا القسْم من التلاميذ الذين قاموا على تركتِه الفكرية مِن بعْده، وأكثرهم مِن الحنابلة وكثير منهم مِن الشافعيّة، وعددُهم لا يحصى، فقد كانوا كثيرين لطول المدّة التي ألقى دروسَه فيها، فقد ألقى دروسَه نحْوًا مِن ستّة وأربعين عامًا، دائبًا لا يني ولا يملّ ولا يكلّ، أي: مِن وقتِ أنْ توفي أبوه وهو في الحادية والعشرين إلى أنْ قبضه الله إليه، وقد بلغ السابعة والستين، ولقد كان أولئك الخاصّة مِن تلاميذه ينالهم الاضطهاد إذا اعْتقل، فقد كانوا معَه في البلاء كما كانوا معه في الدرس[2].

وقد تميّز مِن بيْن هؤلاء التّلاميذ تلميذُه النّجيب الحافظ ابن قيم الجوزية، الذي يعتبر خليفتَه الراشد ومدوّن علومه مِن بعده؛ لأنه تفرّد بخصائص ومزايا لا تتوفّر في غيره مِن تلاميذه، فقد

(١) شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رجل الإصلاح والدعوة، ص(١٣٧، ١٣٨).
(٢) ابن تيمية حياته وعصره، ص(٤٣٧، ٤٣٨).

ظلّ يشارك أستاذه في أحواله وأعماله، ولم يفارقْه حتى آخر لمحةٍ من حياته، وثبت على جادته بعد وفاته، من غير أن يفتر حبّه له، وإعجابه به، وإنّ خدماته العلمية وجلالة قدره وفضائله لجديرةٌ بتأليف كتابٍ مستقلّ عنه، يبحث عن مؤلفاته ودراساته الطيبة بغايةٍ من التفصيل[1].

وللإمام ابن القيم فضائلُ لا تخفى، حتى إنّ الحافظ ابن حجر ٨٥٢ هـ صاحب فتح الباري يقول: «لو لم يكنْ للشيخ تقي الدين مِن المناقب إلّا تلميذه الشيخ الشهير شمس الدين ابن القيم الجوزي صاحب التصانيف النافعة السائرة التي انتفع بها الموافِقُ والمخالف لكان غايةً في الدّلالة على عظم منزلته، فكيف وقدْ شهد له بالتقدم في العلوم والتميّز في المنطوق والمفهوم أئمةُ عصرِهِ من الشافعية وغيرهم، فضلاً عن الحنابلة، وكان تلميذه الذهبي له فضلٌ على الأمّة لا يُنسى في تأليف كتب التراجم»، وذكر السنماري وقيعة التاج السبكي في الذهبي فقال: ويكفينا في جلالته شرب شيخنا (أي: ابن حجر) ماءَ زمزم لنيل مرْتبته، وهل انتفع الناس في هذا الفنّ بعده وإلى الآن بغير تصانيفه، والسعيد مَن عدّت غلطاته[2].

وسنذكر أسماءَ أهمّ تلاميذه على النحو الآتي:

١ـ الإمام ابن القيم صاحب زاد المعاد، وهو محمد شمس الدين أبو عبد الله الزرعي، ولد في دمشق عام ٦٩١ هـ، وتوفي عام ٧٥١هـ[3].

٢ـ الحافظ ابن عبد الهادي المقدسي، وهو شمس الدين الملقب بالعماد، ويكنى أبا عبد الله وأبا العباس، وعُرف بوجْه عام بابن عبد الهادي، ولد عام ٧٠٤، وتوفي عام ٧٤٤هـ[4].

٣ـ الحافظ ابن كثير، وهو عماد الدين إسماعيل بن عمر، يكنّى أبا الفداء، ويُعرف بابن كثير، ولد عام ٧٠٤، وتوفي عام ٧٧٤ [5].

---

(١) رجال الفكر والدعوة، للإمام أبي الحسن الندوي، ص(٣١٧).

(٢) دعوة شيخ الإسلام وأثرها على الحركات الإسلامية المعاصرة، وموقف الخصوم منها، ص(٧٩، ٨٠)، ط: دار ابن الأثير، الكويت، ١٤١٢هـ -١٩٩٢م.

(٣) شذرات الذهب، (١٦٧/٦)، والبداية والنهاية، (٤٠٢/١٤).

(٤) البداية والنهاية، (٢٢١/١٤)، ومعجم المؤلفين، (٢٨٧/٨).

(٥) شذرات الذهب، (٢٣٠/٦)، وذيل طبقات الحنابلة، (٢٢٤/١)، وتذكرة الحفاظ، (١٥٠٨/٤).

٤ـ الحافظ ابن رجب، وهو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب، ولد سنة ٧٣٦، وتوفي سنة ٧٩٥هـ[١].

٥ـ علم الدين البرزالي وفاته سنة ٧٣٩هـ وهو صاحب التاريخ والمعجم[٢].

٦ـ جمال الدين المزي، وفاته سنة ٧٤٢هـ وهو صاحب تهذيب الكمال في الرجال[٣].

٧ـ شمس الدين الذهبي، وفاته ٧٤٨هـ صاحب تذكرة الحفاظ، وميزان الاعتدال[٤].

٨ـ سليمان بن عبد القوي الطوخي الصرصري، توفي سنة ٧١٦هـ[٥].

٩ـ عمر بن المظفر بن عمر بن محمد بن أبي الفوارس المعري الحلبي، توفي سنة ٧٤٩هـ[٦].

١٠ـ عمر بن علي بن قوس بن خليل البغدادي البزار، توفي سنة ٧٤٩هـ[٧].

١١ـ عمر بن سعد الله بن عبد الأحد الحراني، ثمّ الدمشقي، توفي سنة ٧٤٩هـ[٨].

١٢ـ محمد بن علي بن أبي الفتح بن أسعد بن المنجي الحميلي، توفي سنة ٧٥٤هـ[٩].

١٣ـ حمد بن مفلح بن محمد بن مفرج المقدسي الراميني الدمشقي، توفي سنة ٧٦٣هـ[١٠].

١٤ـ محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر الداراني الدمشقي، توفي سنة ٧٦٤هـ[١١].

١٥ـ أحمد بن الحسن بن الخطيب بن قدامة المقدسي قاضي الجبل، توفي سنة ٧٧١هـ[١٢].

---

(١) طبقات الحفاظ، (١/١١٤)، وشذرات الذهب، (٦/٣٣٩)، وطبقات المفسرين، (١/٢٥٣).

(٢) البداية والنهاية، (١٤/٢١٦)، والشهادة الزكية، (١/٦٠).

(٣) تذكرة الحفاظ، (٤/١٩٣)، والبداية والنهاية، (١٤/١٩١)، وشذرات الذهب، (٦/١٣٥).

(٤) البداية والنهاية، (١٤/١٦٤)، وشذرات الذهب، (٦/١٥١-١٥٦)، والوافي بالوفيات، (١/٢١٧).

(٥) شذرات الذهب، (٦/٣٨).

(٦) البدر الطالع، (١/٤٩١)، والدرر الكامنة، (٢/٢٤٦).

(٧) شذرات الذهب، (٦/١٦١)، والدرر الكامنة، (١/٤٠٤).

(٨) ذيل طبقات الحنابلة، (١/٣٦٠)، والدرر الكامنة، (١/٣٩٩)، وشذرات الذهب، (٦/١٦٢).

(٩) الدر الكامنة، (٣/٣٩)، وشذرات الذهب، (٦/١٧٦).

(١٠) شذرات الذهب، (٦/١٩٨)، والبداية والنهاية، (١٤/٢٥٢).

(١١) البداية والنهاية، (١٤/٣٠٣)، والنجوم الزاهرة، (٥/٢٧٥)، وشذرات الذهب، (٦/٢٠٣).

(١٢) معجم المؤلفين، (١/١٩٤)، وشذرات الذهب، (٦/٢١٧)، والبداية والنهاية، (١٤/٢٧٢)، والدرر الكامنة، (٤/٨٥).

وهنـاك عـددٌ كبـير مـن العلـماء في القـرن الثامـن والتاسـع عـدّوا تلاميـذَ لشـيخ الإسـلام ابـن تيميـة وتلاميـذَ تلاميـذه المذكوريـن ممّـن لا يـصرّح التاريـخ بأنهـم تلاميـذُ مدرسـة شـيخ الإسـلام، إلّا أنّ مؤلفاتهـم تنطـق بأفـكار شـيخ الإسـلام وروحـه وعلمـه، ودعوتـه، وسـواء اسـتفاد هـؤلاء العلـماءُ مِـن تلاميـذ شـيخ الإسـلام ومؤلفاتـه أمْ لمْ يسـتفيدوا فإنهـم لاتحـاد ذوقهـم وفكرهـم جديـرون بالاعتبـار في وصـفِ تلاميـذه، والمتخرّجـين مـن مدرسـته.

وأخـصّ بالذّكـر مِـن بـين هـذه الشـخصيات مؤلـف كتـاب الموافقـات العلّامـة البـارع أبـا إسـحاق الشـاطبي المتـوفي سـنة ٧٩٠هــ الـذي يبـدو كتابـه (الاعتصـام) حلقـة مِـن هـذه السّلسـلة الإصلاحيـة التي كان قـد بدأهـا شـيخ الإسـلام في عـصره، وهـو كتـابٌ جيـد في موضـوع السـنّة والبدعـة يمتـاز بمعلوماتـه الغزيـرة وجودتـه الأصوليـة[1].

• وفاتُه:

بَقِـي الشَّـيْخ - رحمـه اللـه - إلى لَيْلَـة الاثْنـينِ العشريـن مـن ذِي القعـدَة الحَـرام، وَتُـوفيِّ إلى رَحْمـة اللـه- تعـالى- ورضوانـه فِي بكـرَة ذَلـك اليَـوم، وَذَلِـكَ مِـن سـنة ثَمـانٍ وَعشْريـن وَسـبعمائة، وَهُـوَ عـلى حَالـه مجاهـدًا فِي ذَات اللـه- تعـالى- صابـرًا مُحتسبًا، لم يجبنْ وَلم يهلـعْ وَلم يضعـفْ وَلم يتَتَعْتـع، بـل كانَ - رحمـه اللـه - إلى حِـين وَفاتـه مُشـتغلًا بِاللَّـه عَـن جَمِيـع مَـا سـواه.

قالـوا: فَـما هُـوَ إلَّا أن سـمع النَّـاس بِمَوْتـه، فَلـم يبْـق فِي دمشـق مـن يَسـتَطيع المجـيء للصَّـلاة عليـه وأراده إلَّا حـضر لذَلِـك، وتفـرّغ لَـه حتَّـى غلقـت الأسـواق بِدمَشْـق، وعطلـت معايشـها حينَئـذٍ، وَحصـل للنَّـاس بمصابـه أمـرٌ شـغلهمْ عَـن غالـب أمورِهـم وأسـبابهم، وَخـرج الأمـراء والرؤسـاء وَالعُلَـماء وَالفُقَهـاء والأتـراك والأجنـاد وَالرِّجـال وَالنِّسـاء وَالصبيـان مِـن الخَـواص والعـوام. قَالـوا: وَلم يتَخَلَّـف أحـد مِـن غَالـب النَّـاس- فِيـما أعْلَـم- إلَّا ثَلَاثَـة أنفـس كَانُـوا قـد اشـتهروا بمُعاندتـه، فاختفـوا مـن النَّـاس خوفًـا عـلى أنفسـهم بِحَيـثُ غلـب عـلى ظنّهـم أنّهـم مَتـى خَرجُـوا رجمَهُـم النَّـاس فأهلكوهـم.

(١) رجال الفكر والدعوة، ص(٣٢٦).

فَغسّل - رحمه الله - وكفّن.

قَالـوا: وازدحـم مَـن حـضرَ غُسـله مـن الخاصَّـة والعامـة عـلى المَـاء المُنْفَصِـل عَـن غسـله حَتَّـى حصـل لـكلّ واحِـد مِنْهُـم شَيء قَليـل، ثـمّ أخرجـت جنازَتـه فَـما هُـوَ إلَّا أن رَآهَـا النَّـاس فأكبّـوا عَلَيْهـا مِـن كلّ جَانـب، كلًّا مِنهُـم يقْصـد التَّـبرُّك بهـا حتَّـى خـشِي عـلى النّعـش أن يحطـم قبـل وُصُولـه إلَى القَـبْر، فأحـدق بهـا الأمـراء والأجنـاد واجْتمـعَ الأتـراك فمنعـوا النَّـاس مِـن الزّحـام عَلَيها خَشـيَة مِـن سُـقُوطها، وَعلَيْهـم مِـن اختنـاق بَعضهـم، وَجعلـوا يردّونهـم عَـن الجِنـازَة بِـكُلّ مـا يُمكنُهـم، وهُـم لاَ يـزدادون إلَّا ازْدحامًـا وكَثْرَة حتَّـى أدخلـت جامـع بنـي أُميَّـة المحـروس ظنًّـا مِنْهُـم أنّـه يسـعُ النَّـاس، فَبقـيَ كثـيرٌ مـن النَّـاس خَـارج الجامِـع.

وَصُلّي عَلَيـهِ - رحمـه اللـه - فِي الجامِـع، ثـمّ حُمـل عـلى أيْـدي الكـبراء والأشراف وَمَـن حصـل لَـه ذَلِك مِـن جَميـع النَّـاس الى ظاهِـر دمشـق، وَوضـع بِأرْض فسْـحة متّسـعة الأطـراف، وَصـلّى عَلَيه النَّـاس[1].

***

(١) الأعلام العلية، ص(٨٣، ٨٤).

المبحثُ الرّابع

ثناءُ العلماءِ عليه

تعـدّدت مناقـبُ ابـن تيميـة ومميّزاتـه؛ فـزادت مكانتُـه العلميـة، وأعـلى اللـه ذكـرَه بـين النـاس، وتعـدّد ثناؤهـم عليـه، قُدامـى ومُحدثـين، مُعاصريـن لـه وتالـين، حتـى قـال بعضهـم عنـه: «ابـنُ تيميـة أكـبرُ مِـن أن ينبّـه مثـلي عـلى نعوتـه، فلـو حلفـت بـين الرّكـن والمقـام لحلفـتُ أنّي مـا رأيـت بعينـي مثلَـه، ولا رأى هـو مثـل نفسِـه في العلـم، وكان فيـه قلّـة مُـداراة وعـدم تـؤدة غالبًـا، ولم يكـنْ مـن رجـال الـدّول، ولا يسـلك معهـم تلـك النواميـس»[١].

ومِـن هـؤلاء الذيـن أثْنـوا عليـه الإمـام الذهبـي[٢] تلميـذُه النجيـب، فقـد أحـبّ الذهبـي شـيخه ورفيقـه، وأعجـبَ بـه، فقـال بعـدَ أنْ مدحـه مدحًـا عظيـمًا: «وهـو أكـبرُ مِـن أن ينبّـه مثـلي عـلى نُعوتـه، فلـو حلفـت بـين الرّكـن والمقـام لحلفـتُ أنّي مـا رأيـت بعينـي مثلـه، ولا واللـه مـا رأى هـو مثـل نفسِـه في العلـم»[٣].

ووضّـح الذّهبـي جوانـبَ ومؤهـلات ابـن تيميـة لهـذه المنزلـة بأنّـه «نظـر في العقليـات، وعـرفَ أقـوال المتكلمـين وردّ عليهـم ونبّـه عـلى خطئهـم وحـذّر، ونـصر السـنّة بأوضـح حجـجٍ وأبْهـر براهـين، وأوذي في ذاتِ اللـه مِـن المخالفـين، وأخيـف في نـصْر السـنة المحْضـة حتـى أعـلى اللـه منـارَه، وجمـع قلـوبَ أهـل التّقـوى عـلى محبّتـه والدّعـاء لـه، وكبـتَ أعـداءه، وهـدى بِـه رجـالًا كثـيرة مـن أهْـل الملـل والنحـل، وجبـل قلـوبَ الملـوك والأمـراء عـلى الانقيـاد لـه غالبًـا، وعـلى طاعتـه، وأحيـى بـه الشـام بـل

---

(١) أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم للقنوجي، (١٣٣/٣)، والعقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، (٥١/١).

(٢) هو الحافظ الذهبي محمد بن أحمد بن عثمان، شمس الدين أبو عبد الله، حافظ مؤرخ علّامة محقّق، تركماني الأصل، ولد في دمشق عام ٦٧٣ هـ وتوفي عام ٧٤٨، له تصانيف كثيرة كبيرة تقارب المائة منها: دول الإسلام، سير أعلام النبلاء، تذكرة الحفاظ، العبر في خبر من غبر). راجع: سير أعلام النبلاء، (٦٥/١)، وما بعدها، والدرر الكامنة، (٣٣٦/٣).

(٣) سير أعلام النبلاء، (٣٧/١).

الإسـلام بعـد أن كاد ينثلـم، خصوصًـا في كائنـة التتـار، وهـو أكـبرُ مِـن أن ينبّـه عـلى سـيرته مثـلي، فلـو حلفـت بـين الركـن والمقـام لحلفـت أني مـا رأيـت بعينـي مثلـه، وأنـه مـا رأى مثـل نفسـه» انتهـى كلام الذهبـي.

وكتـب الشـيخ كـمال الديـن بـن الزملـكاني[1] تحـت اسـم ابـن تيميـة: كان إذا سـئل عـنْ فـنٍّ مِـن العلـم ظـنّ الـرائي والسّـامع أنـه لا يعـرف غـير ذلـك الفـن، وحكـم أن أحـدًا لا يعرفـه مثلـه، وكان الفقهـاء مِـن سـائر الطوائـف إذا جالسـوه اسـتفادوا في مذاهبهـم منـه أشـياء، ولا يعـرف أنـه ناظرَ أحـدًا فانقطـع معـه، ولا تكلّـم في علـمٍ مـن العلـوم سـواء كان مِـن علـوم الـشّرع أو غيرهـا إلّا فـاق فيـه أهلَـه، واجتمعـت فيـه شروطُ الاجتهـاد عـلى وجْههـا.

وكتـب الحافـظ ابـن سـيد النـاس[2] في جـواب سـؤالات الدمياطـي في حـقّ ابـن تيميـة: ألفيتـه ممّـن أدرك مِـن العلـوم حظًّـا، وكان يسـتوعب السـننَ والآثـار حفظًـا، إن تكلّـم في التفسـير فهـو حامـلُ رايتـه، وإنْ أفتـى في الفقـه فهـو مُـدرك غايتـه، أو ذاكـر بالحديـث فهـو صاحـبُ علمـه وذو روايتـه، أو حـاضر بالنّحـل والملـل لم يـرَ أوْسـع مِـن نحلتـه، ولا أرفـع مِـن درايتـه، بـرز في كلّ فـنّ عـلى أبنـاءِ جنسـه، ولم تـرَ عـين مَـن رآه مثلـه، ولا رأتْ عينـه مثـلَ نفسـه»[3].

---

(١) هو محمد بن علي بن عبد الواحد الأنصاري، كمال الدين، المعروف بابن الزملكاني، فقيه انتهت إليه رياسة الشافعية في عصره، ولد في دمشق عام ٦٦٧هـ وتعلّم بها، وتصدّر للتدريس والإفتاء، وولي نظر ديوان الأفرم، ونظر الخزانة ووكالة بيت المال، وكتب في ديوان الإنشاء، وولي القضاء في حلب، فأقام سنتين وطلب لقاءَ مصر فقصدها، وتوفي في بلبيس عام ٧٢٧هـ ودفن في القاهرة). راجع: البدر الطالع، (٢٠٥/٢)، والعبر في خبر من غبر، (٢٨٩/١)، وشذرات الذهب، (٢٥٣/٨، والوافي بالوفيات، (٢٥/٢).

(٢) الحافظ فتح الدين محمد بن محمد بن محمد بن أحمد بن سيد الناس أبو الفتح العمرى، صاحب التصانيف في الحديث منها: سيرة كبرى جليلة، وأخرى صغيرة جدًّا وهى مفيدة، وشرح قطعة من الترمذي، وبها أكثر فوائده وأبرعه ويعزّ كماله على نمطه الغريب، الحديث من الشيخ تقى الدين القشيري وغيره، ورحل إلى الشام سنة تسعين وستمائة فلم يدرك الفخر بن البخاري، فمات وهو في الكسوة فدخلها، وسمع من غيره، وحدث وعاد بجامع ابن طولون). راجع: العقد المذهب في طبقات حملة المذهب، ص(٤٢٧).

(٣) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (٨١/٦).

وللشيخ أثير الدين أبي حيان النحوي[١]: لمّا دخل الشيخ مصر واجتمع به فأنشد أبو حيان:

لمّـا رأينـا تقـي الديـن لاحَ لنـا	داع إلى اللـه فـردًا مـا لـه وزر
عـلى محيّـاه مِـن سـيما الأولى صحبـوا	خـير البريـة نـور دونـه القمـر
حـبر تسربَـل منـه دهـره حـبرًا	بحـر تقـاذف مـن أمواجـه الـدرر
قـام ابـن تيميـة في نـصْر شرعتنـا	مقـام سـيد تيـم إذ عصـت مـضر
فأظهـر الديـن إذْ آثـاره درسـت	وأخمـد الـشرك إذ طـارت لـه شرر
يـا مَـن تحـدّث عـن علـم الكتـاب أصـخ	هـذا الإمـام الـذي قـد كان ينتظـر

يشير بهذا إلى أنه المجدّد.

وممّـن صرّح بذلـك الشـيخ عـماد الديـن الواسـطي[٢]، وقـد تـوفّي قبـل الشـيخ، وقـال في حـقّ الشـيخ- بعْـد ثنـاءٍ طويـل جميـل- مـا لفظـه: فـوَ اللـه، ثـمّ واللـه، ثـمّ واللـه، لم يُـرَ تحـت أديـمِ السّـماء مثـل شـيخكم ابـن تيميـة علـماً وعمـلاً وحـالاً وخلقًـا واتّباعًـا وكرمًـا وحلـماً وقيامًـا في حـقّ اللـه عنـد انتهـاك حرماتـه، أصـدقُ النـاس عقـدًا، وأصحّهـم علـماً وعزمًـا، وأنفذهـم وأعْلاهـم في انتصـار الحـقّ وقيامـه همّة، وأسـخاهم كفًّـا، وأكملهـم اتّباعًـا لنبيـه محمـد، مـا رأينـا في عصرنـا هـذا مَـن تسـتجلي النبـوّة المحمديـة وسـننها مِـن أقوالـه وأفعالـه إلّا هـذا الرّجـل، يشـهد القلـب الصحيـح أنّ هـذا هـو الاتبـاع حقيقـة.

---

(١) محمد بن يوسف بن علي بن حيان بن يوسف الأندلسي أثير الدين أبو حيان: إمام أهل عصره في النحو، والتصانيف، له: «البحر المحيط في التفسير»، و«شرح التسهيل»، و«الإرشاد» وغير ذلك، وكانت له معرفة بالقراءات، ودرس بالقبة المنصورية في الحديث وبالجامع الطولوني في التفسير، وتذهّب للشافعي). راجع: العقد المذهب في طبقات حملة المذهب، ص(٤٢٣).

(٢) هو الإمام العارف الزاهد القدوة عماد الدين أحمد بن شيخ الحزامين إبراهيم بن عبد الرحمن الواسطي، صاحب التواليف في التصوف، كان من سادة السالكين، له مشاركة في العلوم، وعبارة عذبة، ونظم جيد، ولد ٦٥٧هـ بشرق واسط، وتوفي عام ٧١٢هـ. راجع: العبر في أخبار من غبر، (٢٧٣/١)، وتذكرة الحفاظ، (٣١٩/٤)، وذيل طبقات الحنابلة، (٣٢٦/١).

وقال الشيخ تقي الدين بن دقيق العيد[1]- وقد سُئل عن ابن تيمية بعد اجتماعه به: كيف رأيته؟ فقال: رأيتُ رجلاً سائرُ العلوم بين عينيه، يأخذُ ما شاء منها، ويترك ما شاء.

فقيل له: فلمَ لا تتناظرا؟

قال: لأنّه يحبّ الكلام، وأحبّ السكوت.

وقال برهانُ الدين بن مفلح في طبقاته: كتب العلامة تقي الدين السبكي إلى الحافظ الذهبي في أمر الشيخ تقي الدين بن تيمية: فالمملوك يتحقّق قدره وزخارة بحْره وتوسعته في العلوم الشرعية والعقلية وفرط ذكائه واجتهاده، وأنه بلغَ من ذلك كلّ المبلغ الذي يتجاوزه الوصْف، والمملوك يقول ذلك دائمًا، وقدره في نفسي أكبر من ذلك وأجلّ، مع ما جمعَه الله له مِن الزّهادة والورع والدّيانة ونصرة الحقّ والقيام فيه، لا لغرضٍ سواه، وجريه على سنن السّلف، وأخذه مِن ذلك بالمأخذ الأوفى، وغرابة مثله في هذا الزمان، بل مِن أزمان» انتهى.

وقال العلّامة الحافظ ابن ناصر الدين في شرح بديعته- بعد ثناءٍ جميلٍ وكلام طويل: حدّث عنه خلقٌ منهم؛ الذهبي، والبرزالي، وأبو الفتح بن سيد الناس، وحدثنا عنه جماعة من شيوخنا الأكياس، وقال الذهبي في عدّ مصنّفاته المجودة: وما أبعد أنّ تصانيفه إلى الآن تبلغ خمسمائة مجلدة، وأثنى عليه الذّهبي وخلْقٌ بثناء حميد، منهم الشيخ عماد الدين الواسطي العارف، والعلامة تاج الدين عبد الرحمن الفزاري[2] وابن الزملكاني وأبو الفتح وابن دقيق العيد، وحسبه من الثناء الجميل قولُ أستاذ أئمة الجرح والتعديل أبي الحجاج المزي الحافظ الجليل؛ قال عنه: ما رأيت مثلَه، ولا رأى هو مثلَ نفسِه، وما رأيت أحدًا أعلمَ بكتاب الله وسنة رسوله

(١) هو محمد بن علي بن وهب بن مطيع، أبو الفتح تقي الدين القشيري المعروف بابن دقيق العيد، قاضي، من أكابر العلماء في الأصول، مجتهد أصل أبيه من منفلوط بمصر، انتقل إلى قوص، ولد سنة ٦٢٥هـ وتوفي ٧٠٢هـ له تصانيف منها: إحكام الأحكام، الإلمام بأحاديث الأحكام، تحفة اللبيب في شرح التقريب، ولي القضاء في الديار المصرية سنة ٥٩٥هـ. راجع: الوافي بالوفيات، (١٧/٢)، والبدر الطالع، (٢٢١/٢، ٢٢٣)، وتذكرة الحفاظ، (٣١٨/٤).

(٢) هو أحمد بن حصن بن عبد الرحمن الفزاري النسائي، روى عن ابن أبي الزبير والأوزاعي وجرير بن حازم. راجع: تهذيب التهذيب، (١٣٤/٤).

ولا أتبَـعَ لهـما منـه، وترجمـه بالاجتهـاد، وبلـوغ درجتـه، والتمكّـن في أنـواع العلـوم والفنـون. ابـن الزملـكاني والذهبـي والـبرزالي وابـن عبـد الهـادي، وآخـرون.

ولا يخلف بعده مَن يقاربه في العلم والفضل»[1].

وقـال عنـه بعضُهـم: إنـه «ممّـن أدرك مـن العلـوم حظًّـا، وكاد يسـتوعب السـنن والآثـار حفظًـا، إنْ تكلّـم في التّفسـير فهـو حامـلُ رايتـه، أو أفتـى في الفقـه فهـو مـدركٌ غايتـه، أو ذاكـر بالحديـث فهـو صاحـبُ علمـه وذو روايتـه، أو حـاضر بالنّحـل والمِلـل لم يُـرَ أوسـع مـن نحلتـه في ذلـك، ولا أرفـع مـن درايتـه، بـرز في كلّ فـنٍّ عـلى أبنـاء جنسـه، ولم تـرَ عـين مـن رآه مثلـه، ولا رأت عينـه مثـل نفسـه، كان يتكلـم في التفسـير فيحـضر مجلسـه الجـمّ الغفـير، ويـردون مِـن بحـر علمـه العـذب النّمَـير، ويرتعـون مِـن ربيـع فضلـه في روضـة وغديـر»[2].

وقـال الشـيخ علـمُ الديـن الـبرزالي في معجـم شـيوخه معرّفًـا بالشـيخ واصفًـا علمـه، ومـا نبـغَ فيـه، مُظهـرًا كيـف حـازَ رتبـة الاجتهـاد، مُبينًـا سـعةَ ثقافتـه، ومـدى انتفـاع النـاس بـه وبكلامـه؛ بـأنّ ابـن تيميـة «مجمَـعٌ عـلى فضلـه ونُبلـه ودينـه، قـرأ الفقـهَ وبـرع فيـه، والعربيـة والأصـول، ومهَـرَ في علمـي التفسـير والحديـث، وكان إمامًـا لا يلحـق غبـاره في كلّ شيء، وبلـغ رتبـةَ الاجتهـاد، واجتمعـت فيـه شروط المجتهديـن، وكان إذا ذكـر التفسـير بهِـتَ النـاس مـن كـثرةِ محفوظـه، وحُسـن إيـراده، وإعطائـه كلّ قـولٍ مـا يسـتحقّه مـن الترجيـح والتّضعيـف والإبطـال، وخوضـه في كلّ علـم، كان الحـاضرون يقضـون منـه العجـب، هـذا مـع انقطاعـه إلى الزّهـد والعبـادة والاشـتغال باللـه- تعـالى، والتجـرّد مـن أسـباب الدنيـا، ودعـاء الخلـق إلى اللـه- تعـالى، وكان يجلـس في صبيحـة كلّ جمعـة عـلى النـاس يفـسّر القـرآن العظيـم، فانتفـع بمجلسِـه وبركـة دعائـه وطهـارة أنفاسـه وصـدق نيّتـه وصفـاء ظاهـره وباطنـه وموافقـة قولِـه لعملـه، وأنـاب إلى اللـه خلـقٌ كثـير، وجـرى عـلى طريقـةٍ واحـدة مـن اختيـار الفقـر والتقلّـل مـن الدنيـا»[3].

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب للدمشقي، (٨٢/٦).

(٢) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، (٦/١).

(٣) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام ابن تيمية، (٧/١).

وعـن حـبّ النّـاس لـه مـن العامّـة والخاصّـة يذكـر ابـن رجـب أنّ العلـماء والصّلحـاء والجنـد والأمـراء والتجـار وسـائر العامـة كانـت تحبّـه؛ لأنّـه مُنتصـب لنفعهـم ليـلاً ونهـارًا بلسـانه وعلمـه»[١].

وكانـتْ لابـن تيميـة خـبرةٌ تامّـة بالرجـال وجرحهـم وتعديلهـم وطبقاتهـم ومعرفـة بفنـون الحديـث، وبالعـالي والنـازل، والصّحيـح والسـقيم، مـع حفظـه لمتونـه الـذي انفـرد بـه، وهـو عجيـبٌ في اسـتحضاره واسـتخراج الحجـج منـه، وإليـه المنتهـى في عـزْوه إلى الكتـب السـتّة والمسـند بحيـث يصـدق عليـه أنْ يقـال: كلّ حديـث لا يعرفـه ابـن تيميـة فليـس بحديـث، ولكـن الإحاطـة للـه، غـير أنّـه يغـترف فيـه مِـن بحـر، وغـيره مـن الأئمّـة يغترفـون مـن السّـواقي، وأمّـا التفسـير فسـلم إليـه، ولـه في اسْـتحضار الآيـات للاسـتدلال قـوةٌ عجيبـة، ولفـرط إمامتِـه في التفسـير وعظمـة اطّلاعـه بـين خطـأ كثـيرٍ مِـن أقـوال المفسرين، ويكتـب في اليـوم والليلـة مِـن التّفسـير أو مِـن الفقـه أو مِـن الأصلـين أو مِـن الـردّ عـلى الفلاسـفة والأوائـل نحـوًا مِـن أربعـة كراريـس، ومـا يبعـد أنّ تصانيفـه إلى الآن تبلـغ خمسـمائة مجلـدة، ولـه في غـيْر مسـألة مصنّـف مُفـرد كمسـألة التحليـل سـمّاه: بيـان الدليـل عـلى إبطـال التحليـل، مجلـد وغيرهـا، ولـه: مصنّـف في الـردّ عـلى ابـن مطهـر الرافضي الحـلي في ثلاثـة مجلّـدات كبـار سـمّاه: منهـاج السـنة النبويـة في نقـض كلام الشـيعة والقدريـة وتصنيـف في: الـردّ عـلى تأسـيس التقديـس للـرازي في سـبعة مجلّـدات، وكتـاب في: الـردّ عـلى المنطـق، وكتـاب في: الموافقـة بـين المعقـول والمنقـول في مجلّديـن، وقـد جمـع أصحابـه مِـن فتـاواه سـتّة مجلّـدات كبـار، ولـه بـاعٌ طويـل في معرفـة مذاهـب الصحابـة والتابعـين قـلّ أنْ يتكلّـم في مسـألة إلّا ويذكـر فيهـا مذاهـب الأربعـة، وقـد خالـف الأربعـة في مسـائلَ معروفـة، وصنّـف فيهـا واحتـجّ لهـا بالكتـاب والسـنة «[٢].

• خلاصةٌ واستنتاج:

وقفنـا في هـذا الفصـل عـلى بعـض الملامـح الباهـرة في حيـاة ابـن تيميـة- رحمـه اللـه، عـلى مسـتوى الصفـات الخلقيـة، وعـلى مسـتوى الصفـات العلميّـة، وامتـاز عـصرُه بأحـداث جِسـام بالغـة الأهميّـة

(١) شذرات الذهب في أخبار من ذهب، (٨٢/٦).

(٢) أبجد العلوم الوشي المرقوم في بيان أحوال العلوم للقنوجي، (١٣١/٣).

والخطـورة؛ فقـد وقـع في عـصره اعتـداءاتُ الصليبيّـين والتتـار بوحشـيّتهم وأطماعهـم عـلى الأمّـة المسـلمة، مـمّا حـدّد اتجاهـه وهدفـه في الحيـاة، فقـد كان إمامًـا مجاهـدًا عـن الأمّـة ضـدّ هـؤلاء.

لقـد نشـأ شـيخُ الإسـلام في تصـوّن تـامّ في بيـتٍ بـه العلـماء والأتقيـاء؛ فقـد كان أبـواه وأجـداده وإخوانـه وكثـيرٌ مـن أعمامـه مِـن العلـماء المعروفـين.

كان ابـنُ تيميـة حنبليًّـا بنشـأته وأسرتـه وثقافتـه الفقهيـة، ولكـن لـه اختياراتـه مـن غـير مذهـب أحمـد.

وشـاءت إرادة اللـه- تعـالى- أنْ يولَـد ابـن تيميـة والدولـةُ الإسـلامية في حالـةٍ مـن الضّعـف والتمـزّق الشـديديْن؛ فقـد زالـت هيبـةُ الخلافـة، وزالـت وحـدة الأمّـة، وتصـارع الأمَـراء عـلى الجـاهِ والدّنيـا، وظهـر التتـار فنهبـوا البـلادَ وقتلـوا العبـاد، ولم يكـن الشـيخ بعيـدًا عـن أحـداثِ عـصره؛ بـل شـارك في تلـك الأحـداث مشـاركةَ العـالم العامـل المجاهـد، فامْتشـقَ حُسـامه وحـارب التتـار بسـيفه كـما حاربهـم بلسـانه وقلمـه.

حـاول الشـيخُ جمـعَ الأمّـة وتوحيدَهـا مؤمنًـا بـأنّ النـزاع والخـلاف سـببُ هزيمة الأمّـة، فأعلـن الدّعوة إلى توحيـد الجميـع عـلى الكتـاب والسـنة، ويجمـع هـذا قلـوب جميـع الموحّديـن، عمـلاً بقولـه تعـالى: ﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ أَطِيعُـواْ اللـهَ وَأَطِيعُـواْ الرَّسُـولَ وَأُوْلِي الأَمْـرِ مِنكُـمْ فَـإِن تَنَازَعْتُـمْ فِي شَيْءٍ فَـرُدُّوهُ إِلَى اللـهِ وَالرَّسُـولِ إِن كُنتُـمْ تُؤْمِنُـونَ بِاللـهِ وَالْيَـوْمِ الآخِـرِ ذَلِـكَ خَـيْرٌ وَأَحْسَـنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النسـاء: ٥٩].

وتلبيـة للنـداء الإلهـي: ﴿وَلاَ تَكُونُـواْ كَالَّذِيـنَ تَفَرَّقُـواْ وَاخْتَلَفُـواْ مِـن بَعْـدِ مَـا جَاءهُـمُ الْبَيِّنَـاتُ وَأُوْلَـئِكَ لَهُـمْ عَـذَابٌ عَظِيـمٌ﴾ [آل عمـران: ١٠٥].

ودعـا إلى تـرك المذاهـب الباطلـة، التـي لا تتّفـق مـع الكتـاب والسـنة، وردّ عـلى الباطنيـة وغيرهـم، وهكـذا كانـت طريقتُـه في الإصـلاح.

لقد قام بدراسة الكتب الفلسفية وكتب المنطق للردّ عليهم ردًّا نزيهًا معتبراً.

وابتـلي ابـن تيميـة ابتـلاءً شـديدًا؛ فقـد أعلـن المخالفـون لـه الحـربَ عليـه ودبّـروا لـه الفـتن والدّسـائس، فسُـجن مرّتـين حتـى تـوفي في سـجنه صائمًـا مُعتكفًـا عـلى كتـاب اللـه تعـالى، وكانـت حياتـه سـجلًّا حافـلاً بالبطولـة والكفـاح.

اجتمعت على الشيخ كثيرٌ من قوى الخارج والداخل؛ ففي الخارج تجمّع الصليبيون والتتار، ومِن الدّاخل غلاة الصوفية والباطنية وغيرهم.

امتاز الشيخ- رحمه الله- بخصائص علمية كثيرة، ومنها غزارة العلم، وتنوّع المعرفة؛ فقد أجادَ في علوم القرآن، وعلوم السنة النبوية، وعلوم الفقه، وأحاط بالمذاهب الباطنية، ولم يكن ابن تيمية مختصًّا في علمٍ واحد، بل كان موسوعيًّا في علوم كثيرة.

لقد بدأ التأليف في سنّ مبكرة، كان له تسعة عشر عامًا، وعاش سبعة وستين عامًا كلّها خير وبركة على العلم والعلماء.

امتازت مؤلفاته بغزارة العلم وحسن التصنيف وجودة العبارة والترتيب والتقسيم، وكانت نظرته شمولية ومتمكّنة، كما اتسمت بسموّ الغاية ونبل الهدف.

لقد نال ثناءَ العلماء في عصره وفي غير عصره؛ فكان كما وصفه بعضُ الواصفين: كالبحر لا تكدّره الدّلاء، رحمه اللهُ رحمة واسعة، وأجزل مثوبته.

***

الفصلُ الثّاني

جهودُ ابن تيمية في التّفسير وعلوم القرآن

المبحث الأول

منزلةُ ابن تيمية في التفسير

بلغتْ منزلةُ ابن تيمية في التفسير مبلغًا مميزًا، وبهَرَ علماء عصره بفهمه لكتاب الله- تعالى- ومقدرته على تفسيره، تفسيرًا يصلُ آخر هذه الأمّة بأولها، ويعيد للقرآن منزلتَه التي كاد أنْ يفتقدها بمزاحمة العلوم الأرضية والمناهج البشرية، فعلّم الناس منزلةَ القرآن، وأنه هو الشفاء لهذه الأمّة، وتبوّأ الشيخ الصدارةَ بين علماء عصره في التفسير، فسارت بذكْره الرُّكبان، حتى أخبر المسافرون أنه نودي بعد موته بأقصى الصّين للصلاة عليه يومَ الجمعة بنداء: الصلاة على ترجمان القرآن[1].

لقد تعدّدت مناقب ابن تيمية- رحمه الله وأعلى الله ذكره، وشهد كثيرٌ من العلماء بذلك، نذكر من أقوالهم هذه الأقوال لتضع أيدينا على هذه المكانة البارزة في هذا العلم الجليل.

وذكر في موضع آخر أنه فسّر كتاب الله مدّة سنين من صدره أيام الجمع، ولقد تحدّث البرزالي- أيضًا- عن براعته في التفسير وغزارة علومه فيها، و»ذكر معرفته بعلوم القرآن المجيد واستنباطه لدقائقه ونقله لأقوال العلماء في تفسيره واستشهاده بدلائله، وما أودعه الله- تعالى- فيه من عجائبه وفنون حكمه وغرائب نوادره، وباهر فصاحته وظاهر ملاحته، فإنه فيه من الغاية التي ينتهى إليها، والنهاية التي يعول عليها.

ولقد كان إذا قرئ في مجلسه آيات من القرآن العظيم يشرع في تفسيرها فينقضي المجلس بجُملته والدرس برُمّته وهو في تفسير بعض آية منها، وكان مجلسه في وقت مقدر بقدر ربع النهار يفعل ذلك بديهة من غير أن يكون له قارئ معين يقرأ له شيئًا معينًا يبيته ليستعد لتفسيره، بل كان من حضر يقرأ ما تيسر، ويأخذ هو في القول على تفسيره، وكان غالبًا لا يقطع إلّا ويفهم

(١) انظر: اختيارات ابن تيمية في التفسير ومنهجه في الترجيح لابن زيلعي هندي، ص(٧٦).

السامعون أنه لولا مضي الزمن المعتاد لأورد أشياء أخرى في معنى ما هو فيه من التفسير، لكن يقطع نظرًا في مصالح الحاضرين.

ولقد أملى في تفسير ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ {١/١١٢}﴾ مجلدًا كبيرًا، وقوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى {٥/٢٠} ﴾ نحو خمس وثلاثين كراسة، ولقد بلغني أنه شرع في جمع تفسير لو أتمّه لبلغ خمسين مجلدًا»[١].

يقول ابن عبد الهادي: «ومهر في علمي التفسير والحديث... وكان إذا ذكر التفسير أبهر الناس من كثرة محفوظه وحسن إيراده وإعطائه كلّ قول ما يستحقه من الترجيح والتضعيف والإبطال»[٢].

برع الشيخ في التصانيف التي كتبها في التفسير، ويدل على ذلك ما قاله الإمام ابن عبد الهادي نقلاً عن كاتبه ابن الرشيق: «كتب الشيخ- رحمه الله- نقول السلف مجردة عن الاستدلال على جميع القرآن، وكتب في أوله قطعة كبيرة بالاستدلال، ورأيت له سورًا وآيات يفسرها ويقول في بعضها: كتبته للتذكّر ونحو ذلك، ثمّ لما حُبس في آخر عمره كتبت له أن يكتب على جميع القرآن تفسيرًا مرتبًا على السور»[٣].

وكان يتوقد ذكاء، وسماعاته من الحديث كثيرة، وشيوخه أكثر من مائتي شيخ، ومعرفته بالتفسير إليها المنتهى»[٤].

ومن أقواله مؤكدًا براعته في التفسير: «وكتب على تفسير القرآن جملة كبيرة تشتمل على نفائس جليلة ونكت دقيقة ومعان لطيفة، وأوضح مواضع كثيرة أشكلت على خلق من المفسرين»[٥].

---

(١) الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية، (٢٠/١، ٢١).

(٢) مختصر طبقات علماء الحديث، ضمن الجامع، ص(٢٥١).

(٣) العقود الدرية، (٤٣/١).

(٤) العقود الدرية، (٣٩/١).

(٥) مختصر طبقات علماء الحديث، ص(٢٦١).

ويقـول- أيضًـا- في موضـعٍ آخـر: «فمـن ذلـك مـا جمعـه في تفسـير القـرآن العظيـم، ومـا جمعـه مـن أقـوال مفـسري السـلف الذيـن يذكـرون الأسـانيد في كتبهـم، وذلـك في أكـثر مـن ثلاثـين مجلـدًا، وقـد بيّـض أصحابـه بعـض ذلـك، وكثـيرًا منـه لم يكتبـوه بعـد، وكان- رحمـه اللـه- يقـول: ربّمـا طالعـت عـلى الآيـة الواحـدة نحـو مائـة تفسـير، ثـمّ أسـأل اللـه الفهْـمَ وأقـول: يـا معلّـم آدم وإبراهيـم علّمنـي، وكنـت أذهـب إلى المسـاجد المهجـورة ونحوهـا وأمـرّغ وجهـي في الـتّراب، وأسـأل اللـه- تعـالى- وأقـول: يـا معلّـم إبراهيـم فهّمنـي»[١].

وأيضًـا- تحـدّث عـن منزلـة ابـن تيميـة في التفسـير الحافـظ ابـن سـيد النـاس فقـال: «فألفيتـه ممّـن أدرك مـن العلـوم حظًّـا، وكاد يسـتوعب السـنن والآثـار حفظًـا، إن تكلـم في التفسـير فهـو حامـل رايتـه»[٢].

ويقـول عنـه أبـو الحجـاج المـزي: «مـا رأيـت مثلـه، ولا رأى هـو مثـل نفسـه، ومـا رأيـت أحـدًا أعلـم بكتـاب اللـه وسـنة رسـوله ولا أتبـع لهـما منـه»[٣].

ويقـول ابـن الزملـكاني: «وأمّـا التفسـير فمسَـلّم إليـه، ولـه في اسـتحضار الآيـات مـن القـرآن وقـت إقامـة الدليـل بهـا عـلى المسـألة قـوة عجيبـة، وإذا رآه المقـرئ تحـيّر فيـه، ولفـرط إمامتـه في التفسـير وعظمـة اطّلاعـه يبـين خطـأ كثـير مـن أقـوال المفسريـن، ويوهـي أقـوالًا عديـدة، وينـصر قـولًا واحـدًا موافقًـا لمـا دلّ عليـه القـرآن والحديـث، ويكتـب في اليـوم والليلـة مـن التفسـير أو مـن الفقـه أو مِـن الأصلـين أو مـن الـردّ عـلى الفلاسـفة والأوائـل نحـوًا مـن أربـعِ كراريـس أو أزيـد»[٤].

ويقـول الإمـام الذهبـي: «... وأمّـا التفسـير فمسـلّم إليـه، ولـه في اسـتحضار الآيـات مـن القـرآن- وقـت إقامـة الدليـل بهـا عـلى المسـألة- قـوة عجيبـة، وإذا رآه المقـرئ تحـيّر فيـه، ولفـرط إمامتـه في التفسـير وعظـم اطّلاعـه يبـين خطـأ كثـير مـن أقـوال المفسريـن، ويوهـي أقـوالًا عديـدة، وينـصر قـولًا واحـدًا موافقًا لمـا دلّ عليـه القـرآن والحديـث.

---

(١) العقود الدرية، (٤٢/١).
(٢) العقود الدرية، (٢٦/١).
(٣) شذرات الذهب، (٨٤/٦)، والعقود الدرية، (٢٣/١).
(٤) العقود الدرية، (٤١/١).

ويكتـب في اليـوم والليلـة مـن التفسـير أو مـن الفقـه أو مـن الأصلـين أو مـن الـردّ عـلى الفلاسـفة والأوائـل نحـوًا مـن أربـعِ كراريـس أو أزيـد، ومـا أبعـد أن تصانيفـه الآن تبلـغ خمسـمائة مجلـدة، ولـه في غـير مسـألة مصنّـف مفـرد في مجلـد»[١].

وتحـدّث ابـن كثـير عـن تفسـير ابـن تيميـة موضحًـا ذلـك بأنـه جلـس الشـيخ تقـي الدين-أيضًـا- بالجامـع الأمـوي بعـد صـلاة الجمعـة عـلى منـبر قـد هيـئ لـه لتفسـير القـرآن العزيـز، فابتـدأ مـن أولـه في تفسـيره، وكان يجتمـع عنـده الخلـق الكثـير والجـمّ الغفـير مـن كـثرة مـا كان يـورد مـن العلـوم المتنوعـة المحـررة، مـع الديانـة والزهـادة والعبـادة، سـارت بذكـره الرّكبـان في سـائر الأقاليـم والبلـدان، واسـتمرّ على ذلـك مـدّة سـنين متطاولـة»[٢].

ويـرى الإمـام الذهبـي أن شـيخ الإسـلام كان رائعًـا في اسـتحضار الآيـات والأدلـة، فيقـول: ومـا رأيـت أحـدًا أسرع انتزاعًـا للآيـات الدالـة عـلى المسـألة التـي يوردهـا منـه».

وقال: «كان آية من آيات الله في التفسير والتوسّع فيه، لعله يبقى في تفسير الآية المجلس والمجلسْين».

ويصـف ثقافتـه التفسـيرية وعلمـه بكتـب التفسـير بقولـه: «حـكى لي مـن سـمعه يقـول: إني وقفـت عـلى مائـة وعشريـن تفسـيرًا، أسـتحضر مـن الجميـع الصحيـح الـذي فيهـا»[٣].

ويتحـدث الذهبـي عـن شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة وبراعتـه في التفسـير، وأنـه يمتلـك موهبـة خاصـة في هـذا العلـم جعلتـه مميـزًا عـن غـيره مـن المفسريـن، مبينًـا أنـه «بـرع في تفسـير القـرآن، وغـاص في دقيـق معانيـه بطبْـعٍ سـيّال وخاطـر وقـاد إلى مواضـع الإشـكال ميـال، واسـتنبط فيـه أشـياء لم يسـبق إليهـا»[٤].

وفي ذلـك- أيضًـا- مدحـه الصفـدي بأنـه لـه اليـدُ الطـولى قائـلًا: «وأمـا التفسـير فيـده فيـه طـولى، وسرده فيـه يجعـل العيـون حُـولًا»[٥].

(١) مختصر طبقات علوم الحديث، ص(٢٥٦).
(٢) البداية والنهاية، ط إحياء التراث، (٣٥٥/١٣).
(٣) الوافي بالوفيات، ص(٣٦٨)، ضمن الجامع.
(٤) شذرات الذهب، ص(٦٣٠)، ضمن الجامع.
(٥) أعيان العصر، ص(٣٤٨)، ضمن الجامع.

وهكـذا نجـد مـن كلام العلـماء أن شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة يمتلـك منزلـة رائعـة بـين المفسريـن، وربمـا تعـزو هـذه المنزلـة إلى الأسـباب الآتية:

١ـ فرط ثقافته، وغزارة علمه.

٢ـ قدرته الرائعة على الاستدلال وجمع الأدلة في المسألة الواحدة، ثمّ الربط بين هذه الأدلة.

٣ـ معرفته الرائعة باللغة العربية ودلالات الألفاظ.

٤ـ معرفته المستوعبة بالسنة النبوية ودرجات الأحاديث ومعرفة الرجال.

٥ـ منهجه المميّز عن باقي المفسرين.

٦ـ ارتباطه القوي قولًا وعملًا بالكتاب والسنة والصحابة ومنهج السلف الصالح.

٧ـ معرفتـه بعلـم السـنن والعلـوم الكونيـة والاجتماعيـة جعلتـه مسـتوعبًا لما يحتاجـه النـاس، ومـا يصـدر عليهـم مـن قوانـين إلهيـة لا تتحـوّل ولا تتبـدّل، وارتبـاط هـذه القوانـين بالآيـات القرآنيـة؛ لأن كلّ ذلـك حلقـة كاملـة لا تنفصـم عـن بعضهـا، بـل وحـدة كاملـة لـو اختلـت حلقـة فيهـا لاختـلّ جميـع الكـون، وهـو يؤكـد ذلـك دائمًـا.

٨ـ أنـه، حقًّـا، الداعيـة الـذي وضـع نصـبَ عينيـه مسـاعدة النـاس للرجـوع إلى ربهـم، والتفسـير وجميـع العلـوم التـي عرفهـا تخـدم هـذا الهـدف؛ لذلـك تميـز في تفسـيره عـن باقـي المفسريـن.

٩ـ المَلَكـة الربانيّـة التـي وهبـه اللـه إيّاهـا، فهـو نحسـبه كذلـك مـن العارفـين الصادقـين، وذلـك يذْكـره ويؤكـده كثـيرٌ مـن العلـماء المعاصريـن لـه، كـما سـبق.

• كتابات حول الشيخ في التفسير وعلوم القرآن:

حفَـلَ العلـماء المسـلمون قديمًـا وحديثًـا بابـن تيميـة وكتاباتـه لتميّـزه في منهجيتـه وشـموليته في تفسـيره، ومِـن أبـرز الكتابـات حولـه في التفسـير وعلـوم القـرآن مـا يـأتي:

١ـ أصـول التفسـير عنـد شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة وغـيره مـن المفسريـن، عبـد اللـه ديريـه ابتـدون، ماجسـتير مـن الجامعـة الإسـلامية ١٤٠٣هـ.

٢ـ القـراءات في فتـاوى شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة، عبـد الفتـاح إسـماعيل شـلبي، محـاضرات الموسـم الثقـافي لكليـة اللغـة العربيـة ١٤٠٢، ١٤٠٣هــ ٩ محـاضرات.

٣ـ منهج ابن تيمية في تفسير القرآن الكريم، صبري المتولي رسالة دكتوراه، ط: عالم الكتب ١٩٨١م.

٤ـ ابـن تيميـة ومنهجـه وأثـره في التفسـير، د/ نـاصر بـن محمـد الحميـد، رسـالة دكتـوراه، جامعـة الإمـام، كليـة أصـول الديـن، قسـم القـرآن الكريـم وعلومـه، ١٤٠٥هــ.

٥ـ الإمام ابن تيمية وموقفه من قضية التأويل، د/ محمد السيد الجليند، ط: القاهرة، ١٣٩٣هـ.

٦ـ المعجـزات والكرامـات وأنـواع خـوارق العـادات، ومنافعهـا ومضارهـا لشـيخ الإسـلام ابـن تيميـة، ت: أبي عبـد اللـه محمـود بـن إمـام، مكتبـة الصحابـة بطنطـا، ١٤٠٦هـ.

٧ـ ابـن تيميـة كمصـدر عنـد ابـن كثـير، د/ مسـعود الرحمـن خـان النـدوي، ضمـن نـدوة عالميـة حـول شـيخ الإسـلام.

٨ـ ابن تيمية حياته العلمية ومواقفه الخالدة، ط: ١٤٠٨هـ.

٩ـ ابن تيمية حامل راية الكتاب والسنة، د/ محمد نعمان السلفي، ضمن الندوة حول الشيخ.

١٠ـ مقارنـة بـين منهـج ابـن تيميـة في التفسـير ومنهـج الفراهـي، الأسـتاذ/ أشـهد رفيـق النـدوي، ضمـن النـدوة.

١١ـ ابن تيمية وعلم التفسير، للشيخ عبد الواحد عبد القدوس، ضمن الندوة.

١٢ـ ابـن تيميـة وجهـوده في التفسـير، إبراهيـم خليـل بركـة، رسـالة ماجسـتير، ط: المكتـب الإسـلامي، رسـالة في كليـة أصـول الديـن، جامعـة الأزهـر، ١٩٨٥م.

١٣ـ مقارنـة بـين الإمامـين ابـن تيميـة وابـن القيـم في تفسـير المعوذتـين، عبـد السـلام محمـود، رسـالة ماجسـتير مـن قسـم التفسـير كليـة أصـول الديـن، جامعـة الأزهـر، ١٩٩٥م.

١٤ـ آيـات الأحـكام عنـد شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة قسـم العبـادات والمعامـلات، وليـد محنـوس الزهـراني، رسـالة ماجسـتير.

١٥ـ آيات الأحكام كتاب النكاح والجنايات والقضايا، عبد الحي دخيل المحمدي، رسالة ماجستير.

١٦ـ تفسير ابن تيمية بين النظرية والتطبيق، صبري المتولي، رسالة ماجستير.

١٧ـ تفسـير سـورة الإخـلاص لشـيخ الإسـلام ابـن تيميـة، دراسـة عقديـة وتحقيـق: فوزيـة محمـد حمـد البـدر.

١٨ـ منهج ابن تيمية في التفسير، سعدى أحمد زيدان.

١٩ـ إعجـاز القـرآن عنـد شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة مـع المقارنـة بكتـاب إعجـاز القـرآن للباقـلاني، محمـد بـن عبـد العزيـز العواجـي[1].

• ما كتبه شيخُ الإسلام ابن تيمية في التفسير:

أولًا: آثارُ ومصنّفات ابن تيمية في التفسير إجمالًا:

١ـ مقدمة في أصول التفسير.

٢ـ الإكليل في المتشابه والتأويل.

٣ـ تفسير سورة الإخلاص.

٤ـ تفسير سورة النور.

٥ـ تفسير المعوذتين.

٦ـ دقائق التفسير، قام بجمعه وترتيبه: د/ محمد السيد الجليند.

---

(١) انظر في ذلك: دليل الرسائل الجامعية في علوم شيخ الإسلام، إعداد: عثمان بن محمد الأخضر شوشان، الرياض، ١٤٢٤هـ. وإعجاز القرآن الكريم، ص(٨٤، ٨٥)، د/ محمد عبد العزيز العواجي، مكتبة دار المنهاج، تقديم: د/ حكمت بشير، د/ محمد عمر عبد الله حوبة، وأوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، محمد بن إبراهيم الشيباني، ط: أولى، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م، مكتبة ابن تيمية.

٧ـ تفسير آيات أشكلت.

٨ـ أقسام القرآن.

٩ـ رسالة في المعاني المستنبطة من سورة الإنسان.

١٠ـ قاعدة في تحزيب القرآن، وما يتعلّق بذلك، وما ورد فيه من الآثار.

١١ـ قاعدة في تفسير أول البقرة.

١٢ـ فضائل القرآن.

١٣ـ تفسير سورة الفاتحة.

١٤ـ تفسير سورة المائدة.

١٥ـ تفسير سورة ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ البيّنة.

وهـذه المصنفـات بعضهـا مجلـد كبـير، وبعضهـا صغـير، ولـه في مسـألة القـرآن مؤلفـات كثـيرة وقواعـد وأجوبـة وغـير ذلـك، إذا اجتمعـت بلغـت مجلـدات كثـيرة.

المبحثُ الثّاني

تصنيفٌ نوْعي لما كتبَه شيخُ الإسلام ابن تيمية في التفسير

١- التفسير التحليلي:

وكتبَ فيه عددًا من المصنّفات منها: التفسير الكبير، التفسير الدقيق، تفسير سورة الإخلاص، تفسير سورة النور، تفسير المعوذتين.

٢- التفسير الموضوعي:

ومِن أهمّ مصنّفاته فيه: رسالة في المعاني المستنبطة من سورة الإنسان، رسالة في السنن، تفسير سورة الفاتحة، تفسير سورة المائدة، تفسير ﴿لَمْ يَكُنِ﴾، رسالة في الفرقان، رسالة في الحسنة والسيئة، رسالة في المحبة، رسالة في علم الظاهر والباطن، بيان طريقة القرآن في الدعوة وما بينها وبين الطرق الكلامية، الكيلانية، القادرية، الأزهرية، المسألة المصرية.

٣- ما كتبَه في علوم القرآن:

وممّا كتبه فيه: أقسام القرآن، أمثال القرآن، تحزيب القرآن، فضائل القرآن، قاعدة في القرآن وكلام الله، القرآن العظيم كلام الله ليس فيه كلام لغيره، مسألة الأحرف التي أنزل الله على آدم هل هي كلام الله، الحقيقة والمجاز، حديث الأحرف السبعة، قاعدة في فضائل القرآن، شكل ونقط المصاحف.

٤- المُتشابه:

وكتبَ فيه كتابه: تفسير آيات أُشكلت.

٥- أصول التفسير:

وفيه: مقدّمة في أصول التفسير.

وهاكم نبذة عن بعض هذه المصنّفات:

أوّلًا: التفسير التحليلي:

جمع معظم تفسير القرآن لابن تيمية في أربعة مجلّدات، وتناول شيخ الإسلام في هذه المجلّدات تفسير القرآن الكريم مركزًا على ما أشكل على المفسرين فهمه، مستخدمًا المنهج الموضوعي لتفسيره مرّة، والمنهج التحليلي مرّة أخرى، ذاكرًا لأوجه التفسير عند العلماء في الآية الواحدة أو الكلمة الواحدة أو المعنى الواحد، ومرجّحًا أفضل هذه الآراء طبقًا لفهْمه للقرآن والسنة، وما أُثر عن الصحابة، وما ورد في اللغة العربية.

ويظهر عمقُ علمِه وثقافته في اللغة والنحو والأدب والشعر، ويظهر طابعه الخاص ونبعه الصافي في هذا التفسير، حيث تشعر بخيطٍ واحد يجمع كلّ كتاباته، وهو التركيز على أنّ القرآن الكريم هو كتابٌ لهداية البشر وسعادتهم، ويحتاج منّا إلى عمق الفهْم والتأمّل الواعي في كلّ ما جاء فيه من قضايا وأحكام، وأنه هو منهج الحياة لكلّ البشر، ومركزًا على أنّ وسائلنا في هذا الفهْم لا بدّ ألّا تخرج عن إطار ما ورد عن النبي ﷺ والسلف الصالح، وهدايات التابعين- رضي الله عنهم وأرضاهم[1].

ثانيًا: ما كتبَه في التفسير الموضوعي:

جواب أهل العلم أنّ ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ {١/١١٢} ﴾ تعدل ثلثَ القرآن

تحدّث شيخُ الإسلام عن سورة الإخلاص موضحًا أفضليتها وكلامَ العلماء في أنها تعدل ثلثَ القرآن، شارحًا لمعانيها وسبب هذه الأفضلية، وأثناء ذلك تحدّث عن سبب نزولها، وهذا التناول من قبيل التفسير الموضوعي لهذه السور؛ حيث تناول في ذلك كلّ ما يخصّ سورة الإخلاص من قضايا عقدية، ومقدرًا آراء الصوفية وغيرهم في ذلك مثبتًا ما ورد عن النبي ﷺ والصحابة مستشهدًا بكلام الله - عز وجل - على كلّ معنى من المعاني التي تناولتها هذه السورة.

ولقد تناولها موضوعيًّا؛ حيث إنّ معانيها دارت حول قضية التوحيد، والتوحيد هو أساس الإيمان.

(١) مجموع الفتاوى: (جـ ١٤، ١٥، ١٦، ١٧)

السنّة في القرآن الكريم:

تنـاول شـيخُ الإسـلام السـنة في القـرآن الكريـم تنـاولًا موضوعيًّـا، فوضّـح معناهـا وصفاتها مُسـتدلًّا بالآيـات القرآنيـة التـي توضـح هـذا المعنـى، وسـيأتي تفصيـل ذلـك في هـذا الفصـل- إن شـاء اللـه.

قاعدةٌ في المحبة، وهي تفسير موضوعي:

تحـدّث فيهـا شـيخُ الإسـلام عـن أهميـة هـذه القاعـدة مبينًـا أنّ الحـبّ أسـاس عمـل كلّ الأفعـال، وأنّ الكراهيـة هـي أسـاس تـرك كلّ الأعـمال، وأنّ رأس الإيمـان هـو الحـبّ في اللـه والبغـض في اللـه، ووضّـح أنـواع المحبّـة، وأنّ منهـا مـا هـو محمـود، ومنهـا مـا هـو مذْمـوم، وأنّ لهـا آثـارًا ونتائـج، وبـيّن طبيعـة الحـبّ والبغـض أنهـما لا يبقيـان عـلى حالـة واحـدة؛ فهُـمَا يـزدادان وينقصـان ويتغـيّران.

وتعـرّض في هـذا البـاب لآراء الصوفيـة في المحبّـة، وكيـف تكـون محبـة اللـه للعبـد، وكيـف تكـون محبـة العبـد للـه - عـز وجـل -، وأيضًـا محبـة اللـه للعبـد والفـرق بينهـما.

ما هو العشق، وهل هو مرض، وما هي حدوده؟

وبين أحوال الناس في محبّتهم لله - عز وجل -.

الباقيات الصالحات:

تحـدّث شـيخُ الإسـلام ابـن تيميـة- رحمـه اللـه- في هـذه القاعـدة عـنِ الباقيـات الصالحـات (سـبحان اللـه، والحمـد للـه، ولا إلـه إلا اللـه، واللـه أكـبر).

حيـث بـدأ كلامَـه ببيـان فضـل هـذه الكلـمات كـما وردت في حديـث النبـيﷺ، ثـمّ ذكـر الآيـاتِ التـي تـدلّ عـلى التسـبيح، والمواضـع المسـتحبة للتسـبيح، وكذلـك في التكبـير والحمـد والتهليـل.

وهـي مِـن قبيـل التفسـير الموضوعـي حيـث يذكـر الآيـات ويقـوم بتفسـير دلالاتهـا مـن كتـب التفسـير وأحاديـث النبـي ﷺ وأقـوال الصحابة[1].

(١) الفتاوى : جـ ١٧ صـ ٥، ٢٥ بتصرف.

رسالةُ الفرقان دراسة موضوعية:

وهـي رسـالة تتحـدّث عـن الفرقـان بـين الحـقّ والباطـل تناولها شـيخُ الإسـلام ابـن تيميـة بـأنْ جمـع كلّ التعريفـات لكلمـة الفرقـان، ثـمّ تحـدّث عـن المعنـى الـذي يرجّحـه، وهـو التفريـق بـين الحـقّ والباطـل، معـززًا ذلـك بأقـوال المفسريـن، كـما تحـدّث عـن مرادفـات الكلمـة وموقِـعِ ذلـك في كتـاب اللـه - عـز وجـل -.

وتحـدّث- أيضًـا- عـنْ أمثلـة لهـذا الفرقـان ذُكـرت في كتـاب اللـه - سـبحانه وتعـالى - مثـل: التفرقـة بـين الحسـنة والسـيئة، والحـقّ والباطـل، والصالحـين والمفسـدين، والفـرق بـين الخالـق والمخلـوق، وتحدّث فيهـا- أيضًـا- عـن أهـل النّفـاق والبـدع، وذكـر أمثلـةً عـلى ذلـك، وأهـل الإيمـان متنـاولًا الفـرقَ الباطلـة التـي ظهـرت، وتوضيـح مـدى مخالفتهـا لمـا شرعـه اللـه - عـز وجـل - ، ومثّـل لذلـك بالكلمـة الطيبـة والخبيثـة[1].

الرّسالة العرشية أو الإحاطة:

وسُـمّيت بهـذا الاسـم لأنّهـا تناولـت الـردّ عـلى مـا أثـير حـول قضيـة العـرش وكرويّتـه، كـما تناولـت أسـبابَ اتجـاه العبـد إلى العلـو في دعائـه.

سُـئل فيهـا عـن العـرش: هـل هـو كـروي أم لا؟ وإن كان كرويًّـا واللـه محيـطٌ بـه؛ فـما فائـدة أنّ العبـد يقصـد العلـو حـين دعائـه؟ .. إلخ

الجواب بثلاثِ مقامات، أنه لم يثبت أنّ العرش كرويّ مستدير.

لقـد ردّ في هـذه الرسـالة عـلى مَـن نفـى العلـو عـن اللـه - سـبحانه وتعـالى - ، حيـث يقـول: «لا يجـوز أن يكـون التوجّـه إلى اللـه إلّا إلى العلـو مـع كوْنـه عـلى عرشـه مباينًـا لخلقـه، وسـواء قـدر مـع ذلـك أنـه محيـط بالمخلوقـات كـما يحيـط بـه إذا كانـت في قبضتـه، أو قـدر مـع ذلـك أنـه فوقهـا مـن غـير أن يقبضهـا ويحيـط بهـا؛ فهـو عـلى التقديريـن يكـون فوقهـا ومباينًـا لهـا، فقـد تبـيّن أنـه عـلى هـذا التقديـر في الخالـق، وعـلى هـذا التقديـر في العـرش لا يلـزم شيء مـن المحظـور والتناقـض».

---

(١) الفتاوى (١٤) ص(٥-٢٣٠)

وبيّن شيخُ الإسلام أنّ هذه الشبهة جاءت من اعتقاديْن فاسدين:

أنْ يظـنّ أنّ العـرش إذا كان كرويًّـا واللـه فوقـه وجـبَ أن يكـون كرويًّـا فيصبـح التوجّـه إليـه مـن جميـع الجهـات.

وردّ عـلى ذلـك بأنـه- سـبحانه- لـيس كمثلـه شيء، مـع أنّ اللـه فـوق العـرش، وإن كان العـرش كرويًّـا، ويقـول - عـز وجـل -: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [الزمـر: ٦٧].

٢- أنـه مـا كان فلـكًا يصـحّ التوجّـه إليـه مـن الجهـات السـتّ خطـأ باتّفـاق أهـل العقـل الذيـن يعلمـون الهيئـة، وأهـل العقـل الذيـن يعلمـون أن القصـد الجـازم يوجـب فعـل المقصـود بحسـب الإمكان.

ووضّـح- رحمـه اللـه- أنّ قصـد اللـه - عـز وجـل - مـن ناحيـة العلـو سـيتوافق مـع الفطـرة التـي فطـر النـاس عليهـا، كـما أنّ ذلـك مـا يقبلـه العقـل والـشرع.

وهـو في هـذه الرسـالة قـد أتى بالآيـات التـي تتحـدّث عـن السـموات والأفـلاك وقـدرة اللـه - عـز وجـل - في الإحاطـة بهـا، كـما جـاء بالآيـات التـي تـدلّ عـلى العـرش وشرحهـا، وأكّـد هـذه المعـاني بالأحاديـث النبويـة، وأقـوال الصحابـة، وهـذا قريـب جـدًّا مـن التفسـير الموضوعـي[1].

الكيلانية:

هـذه الرّسـالة سُـمّيت بهـذا نسـبة إلى عبـد القـادر الكيـلاني[2] (٤٧٠-٥٦١هـ) وجـاءت هـذه الرسـالة ردًّا عـلى قـومٍ يقولـون: إنّ كلام النـاس وغيرهـم قديـم سـواء كان صدقًـا أو كذبًـا أو غـير ذلـك، ولا فـرق بـين كلام اللـه - عـز وجـل - وكلامهـم في القـدم إلّا مـن جهـة الثـواب.

وبـيّن شـيخ الإسـلام أنّ كلامهـم هـذا مـردودٌ وخطـأ محـرم بإجـماع المسـلمين، وأنّ هـذا منكَـر ومحـرّم وكُفـر يجـبُ نهيهـم عنـه، ويجـب عـلى ولاة الأمـر عقوبـة مَـن لم ينتـه منهـم عـن ذلـك.

---

(١) مجموع الفتاوى: (٥٤٥/٦-٥٨٤).

(٢) هو أبو محمد عبد القادر بن موسى بن عبد الله، يلقب في المغرب بالشيخ أبو علام الجيلاني وفي المشرق بعبد القادر الجيلاني، ويعرف بسلطان الأولياء وهو إمام صوفي وفقيه حنبلي.

ثـمّ بـيّن أنّ هـذا القـول مخالـف للعقـل والديـن، مناقـض للكتـاب والسـنة وإجـماع المسـلمين، وأنـه بدعـةٌ شـنيعة لم يقلهـا أحـدٌ مـن قبـل لا علـماء السـنة ولا علـماء البدعـة، ولا يقولهـا عاقـلٌ يفْهـم، ولكـن وضّـح أنّ هـذه شـبهة وقـام بتفنيدهـا، وأثبـت أن كلّ مـا في السـموات والأرض ليـس شيء منـه خـارج عـن ربوبيتـه، ولا شيء مـن الملـك خـارج عـن ملكـه، ولا شيء مـن المحدثـات خـارج عـن خلقـه، قـال تعـالى: ﴿اللــهُ خَالِـقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُـوَ عَـلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيـلٌ {٦٢/٣٩} لَـهُ مَقَالِيـدُ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِيـنَ كَفَـرُوا بِآيَـاتِ اللــهِ أُوْلَئِـكَ هُـمُ الْخَـاسِرُونَ ﴾.. [الزمـر: ٦٢-٦٣].

وأوضـح أنّ اللــه- سـبحانه- وكيــلٌ عــلى كلّ مــا في الكــون، وكل حركـة أو سـكون تحـت مشـيئته وقدرتـه وعلمـه، وأيضًـا هـذا لا ينفـي الجبر للإنسـان فالعبـد لـه مشـيئته وقدرتـه وإرادتـه، وهـو فاعـلٌ لفعلـه حقيقـة، واللـه خالـق هـذا كلـه، كـما وضّـح- أيضًـا- مسـألة اللفـظ بالقـرآن.

وفي هـذه الرّسـالة وضـع هـذه الأقـوال الفلسـفية وبـدع المتكلمـين وبـيَّن رأي أهـل السـنة والجماعـة ودحَـضَ هـذه الشـبهات، وردّهـا، وجـرّمَ أصحابهـا.

فقـد بـيّن شـيخُ الإسـلام بالأدلـة بالكتـاب والسـنة أنّ اللـه - عـز وجـل - متّصـف بـكلّ صفـات الكـمال، ومنـزّه عـن صفـات النّقـص، وأن الكـمال صفـة مـن صفـات اللـه - عـز وجـل - ، كـما بـيّن أنـه مـا يقـرؤه النـاس مـن القـرآن هـو كلام اللـه - عـز وجـل - ، وإنْ كان ذلـك الصـوت هـو صـوت الشـخص الـذي يتلـوه؛ حيـث قـال النبـيﷺ: «زينوا القـرآن بأصواتكـم»[1].

المسألة المصرية:

هــذه المسـألة ردّ فيهـا شـيخُ الإسـلام عـلى اختـلاف المسـلمين في كلام اللـه- تعـالى- حيـث ذهـب النـاسُ في هـذه المسـألة إلى أنحـاءٍ ثلاثـة، فقـومٌ إلى أنـه قديـم الحـرف والصـوت وهُـمُ الحشـوية، وقـومٌ أنّـه حـادث بالصـوت والحـرف وهُـمُ الجهميـة ومَـن تابعهـم، وقـومٌ أنـه قديـم بـلا صـوت ولا حـرف إلى معنـى قائـم بـذات اللـه وهُـمُ الأشـعرية.

(١) مجموع الفتاوى(١٢/٣٢٣-٥٠١) بتصرف. والحديث أخرجه أبو داود في سننه: (٢/ ٥٩٤)، وهو صحيح.

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية في ذلك: إنّ الأقوال الواردة في هذه المسألة تبلغ سبعة أو أكثر.

وقام بتوضيح كلّ طريقة على حدَة، والردّ على آرائهم، وتفنيدها، وإظهار الصحيح والخطأ.

وذكر بعد ذلك أنّ مسألة القرآن قد كثر فيها اضطراب الناس، وغالبهم يقصد وجهًا من الحقّ، ويعزبُ عنهم وجهٌ آخر.

وذكر أنّ أصحّ الأقوال وأشدّها هي أقوال الصحابة والأئمة والتابعين الذين لهم في الأمّة لسان صدق، وأنّ كلامهم يطابق صحيح المعقول وصحيح المنقول، وذكر شيخ الإسلام أنّ هذه الخلافات تعود إلى إطلاقات لفظية لا إلى معانٍ عقلية، وأحسن الناس طريقةً مَن كان إطلاقه موافقًا للإطلاقات الشرعية والمعاني التي يقصدها معان صحيحة تطابق الشرع والعقل.

ووضّح- رحمه الله- أنّ منشأ النزاع بين المسلمين في هذا الباب أنّ المتكلمين من الجهمية والمعتزلة سلكوا في إثبات حدوث العالم وإثبات الصانع طريقًا مبتدعة في الشرع، مضطربةً في العقل، وأوجبوها، وزعموا أنّه لا يمكن معرفة الصانع إلّا بها، وتلك الطريق فيها مقدّمات مجملة لها نتائج مُجملة، فخلط كثير من سالكيها في مقْصود الشارع ومُقتضى العقل، فلم يفهموا ما جاءت به من نصوص نبوية، ولم يحرّروا ما اقتضته الدّلائل العقلية، وذلك أنهم قالوا: لم يمكن معرفة الصانع إلّا بإثبات حدوث العالم، ولا يمكن إثبات حدوث العالم إلّا بإثبات حدوث الأجسام.

ووضّح شيخُ الإسلام أنّ الذي يجب على المسلمين اتباعه هو "أنّ القرآن الذي أنزله الله على عبده ورسوله كلامُ الله- تعالى، وأنّه منزّل غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، فإنّه قرآن كريم في كتابٍ مكنون لا يمسّه إلّا المطهرون..

ويجب عليهم أنْ يلزموا سنة رسول الله ﷺ وسنة الخلفاء الراشدين والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان، وما تنازعت فيه الأمّة وتفرّقت إن استطاع أن

يفصل النزاع بالعلم والعدل والاستمساك بالجُمل الثابتة بالنصّ والإجماع، وأعرض عن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعًا، فإنّ مواضع التفرقة والاختلاف عامتها تصدر عن اتّباع الظّن، وما تهوى الأنفس، ولقد جاءهم من ربّهم الهدى[1].

التّبيان في نزول القرآن:

وضّح شيخُ الإسلام في هذه الرسالة أنّ هناك أخطاءً في تفسير النزول، ووضّح أنّ النزول في كتاب الله ثلاثة أنواع:

١- نزول مقيّد بأنه منه.

٢- نزول من السماء.

٣- نزول مُطلق.

ووضّح أنّ كثيرًا من الناس فسّروا النزول في مواضع من القرآن بغير معناه المعروف؛ لاشتباه المعنى في تلك المواضع، وصار ذلك حجّة لمَن فسّر نزول القرآن بتفسير أهل البدع.

وهذه الرسالة من أبواب علوم القرآن، ولكن طريق التناول من باب التفسير الموضوعي؛ لأنه تتبّع الموضوع مؤكدًا ذلك بآيات القرآن شارحًا لها.

وذكر أمثلةً على أنواع النزول منها: النزول المقيد بأنه منه، وهو لم يرد إلّا في القرآن، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠٢]، والنزول المقيد بالسماء، مثل: ﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاء مَاء بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَّاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لَقَادِرُونَ ﴾ [المؤمنون: ١٨]، ﴿ أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ ﴾ [الواقعة: ٦٩]، ﴿ فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ﴾ [النور: ٤٣].

وأمّا المُطلق ففي مواضع من إنزال السكينة، ومن إنزال الميزان، وإنزال الحديد.

---

(١) مجموع الفتاوى:(١٦٢/١٢-٢٣٤) بتصرف.

وبـيّن في تناولـه لهـذه الأنـواع خطـأ أهـل الـكلام الذيـن أولـوا النـزول بأنـه الخلـق، أو بمعنـى الإعـلام والإفهـام، ووضّـح أنّ كلمـة النـزول هـي الكلمـة الموافقـة للغـة العـرب، وهـي التـي جـاء بهـا القـرآن[1].

قاعدةٌ في القرآن وكلام الله:

لقـد تحـدّث ابـن تيميـة عـنْ هـذه القاعـدة، مبيِّنـا أنّ الأمّـة قـد اختلفـت في كتـاب اللـه - عـز وجـل -؛ وذلـك لأنّ الأمّـة أخـذت تدخـل في دائـرة الهـوى والظنـون، لذلـك ظهـرت فيهـم الفـرق الباطلـة مثـل: الجهميـة المشـتقة مـن الصابئـة، وكان هـذا الاختـلاف نوعـيْن:

١- اختـلاف في التنزيـل، وهـذا هـو الأعظـم، وهـو الـذي ذمّـه اللـه - عـز وجـل - في كتابـه، وهـو اختـلاف الحـقّ الواجـب الإيمـان بـه، والـذي لا يؤمـن بالكتـاب كلـه أو يؤمـن ببعـض ويكفـر ببعـض يعـدُّ كافـرًا آثمًـا.

٢- اختلاف في التأويل.

ولكنّ المقصود في هذه الرسالة الاختلافُ الأول.

ولقـد ذكـر أمثلـة كثـيرة مـن قصـص الأنبيـاء والأمـم السـابقة عـن اليهـود والنصـارى والصحابـة تبـيّن جهـود الأقـوام الماضيـة التـي آمنـت ببعـض الرسـل وكفـرت بآخريـن، أو آمنـت ببعـض الكتـب وكفـرت بأخـرى، وفي هـذه الأمّـة الضـلالات المبتدعـة مـن الإيمـان ببعـض الكتـاب والكفـر بالبعـض الآخـر، أو ببعـض صفـات التكليـم والرسـالة والنبـوة دون بعـض، وذلـك إمّـا في التنزيـل أو في التأويـل، وهـذه القاعـدة مـن علـوم القـرآن، وتنـاول الشـيخ فيهـا مـن التفسـير الموضوعـي[2].

الأحرفُ التي أنزلها الله على آدم:

سـئل شـيخُ الإسـلام عـن رجلـيْن تجـادلا في الأحـرف التـي أنزلهـا اللـه عـلى آدم، فقـال أحدُهـما: إنهـا قديمـة ليـس لهـا مبتـدأ، وشـكلها ونقطهـا محـدث.

---

(١) مجموع الفتاوى: (٢٤٦/١٢-٢٥٨) بتصرف.

(٢) مجموع الفتاوى: (٦/١٢-٣٧) بتصرف يسير.

فقـال الآخـر: ليسـت بـكلام اللـه، وهـي مخلوقـة بشـكلها ونقطهـا، والقديـم هـو اللـه، وكلامـه منـه بـدأ وإليـه يعـود، ومنـزل غـير مخلـوق، ولكنـه كتـب بهـا.

وسئل: أيهما أصوب قولًا وأصحّ اعتقادًا؟

فأجـاب: الحمـدُ للـه رب العالمـين، أصـل هـذه المسـألة هـو معرفـة كلام اللـه- تعـالى، ومذهـب سـلف الأمّـة وأمّتهـا مـن الصحابـة والتابعـين لهـم بإحسـان وسـائر أمّـة المسـلمين كالأمّـة الأربعـة وغيرهـم مـا دلّ عليـه الكتـاب والسـنة، وهـو الـذي يوافـق الأدلـة العقليـة الصريحـة أنّ القـرآن كلام اللـه منـزل غـير مخلـوق، منـه بـدأ وإليـه يعـود، فهـو المتكلـم بالقـرآن والتـوراة والإنجيـل وغـير ذلـك مـن كلامـه ليـس ذلـك مخلوقًـا منفصـلاً عنـه، وهو-سـبحانه- يتكلّـم بمشـيئته وقدرتـه، فكلامـه قائـم بذاتـه ليـس مخلوقًـا بائنًـا عنـه.

وقال أيضًا: إنّ كلام الله لا نهاية له.

ووضّح- أيضًا- أقوال السلف بالتفصيل، مع توضيح الآراء المخالفة لهم، وبيان خطئهم في ذلك.

ووضّـح أسـباب تنـازع النـاس في الحـروف الموجـودة في كلام الآدميّـين، أمّـا الأحـرف التـي أنزلهـا اللـه عـلى آدم فقـد أورد في ذلـك كلام ابـن جريـر الطـبري ونحـوه، وفنّـد آراءهـم في ذلـك، وقـال: لقـد علّـم اللـه آدمَ الأسـماء كلهـا، وأنطقـه بالـكلام المنظـوم، أمّـا تعلّـم حـروف مقطّعـة فهـو لا ينفـع، ولكـن هـذه الحـروف جعلـت للمبتدئـين في تعلـم القـراءة، ومـا ذكـر في ذلـك مـن أحاديـث فهـي واهيـة الأسـانيد[1].

طريقةُ شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير:

كان لشـيخ الإسـلام ابـن تيميـة أسـلوبٌ خـاص بـه في التفسـير ميّـزه عـن غـيره مـن المفسّريـن، جوهـره أنّ التفسـير وسـيلة رائعـة لهدايـة النـاس إلى منهـج اللـه، وتـرى هـذا الهـدف واضحًـا مـن

(١) مجموع الفتاوى: (١٢/٣٧-١١٧).

خـلال كتاباتـه في التفسـير، فهـو يأخـذك بـكلّ جوارحـك مـع هـذه المعـاني المسـتنبطة مـن السـورة ليوصلـك إلى أسـمى معـاني الهدايـات القرآنيـة.

كـما ميّـز شـيخ الإسـلام في تفسـيره طريقتـه في تعاملـه مـع النصـوص، يقـول الشـيخ أبـو عبـد اللـه بـن الرشـيق وكان مـن أخـصّ أصحـاب شـيخ الإسـلام وأكثرهـم كتابـة لعلمـه وحرصًـا عـلى جَمْعـه: «كتـب الشـيخ- رحمـه اللـه- نقـولُ السـلف مجـرّدة عـن الاسـتدلال عـلى جميـع القـرآن، وكتـب في أوّلـه قطعـة كبـيرة بالاسـتدلال، ورأيـت لـه سـورًا وآيـات يفسّرهـا ويقـول في بعضهـا: كتبتـه للتذكّـر، ونحـو ذلـك.

ثمّ لمّا حُبس في آخر عمره كتبت له أنْ يكتب على جميع القرآن تفسيرًا مرتبًا على السور.

فكتـب يقـول: إنّ القـرآن فيـه مـا هـو بـيّنٌ بنفسـه، وفيـه مـا قـد بيّنـه المفـسرون في غـير كتـاب، ولكـن بعـض الآيـات أشـكل تفسـيرها عـلى جماعـة مـن العلـماء، فربمـا يطالـع الإنسـان عليهـا عـدّة كتـب ولا يتبـيّن لـه تفسـيرها، وربمـا كتـب المصنـف الواحـد في آيـة تفسـيرًا ويفـسر غيرهـا بنظـيره، فقصـدت تفسـير تلـك الآيـات بالدليـل؛ لأنـه أهـمّ مـن غـيره، وإذا تبـيّن معنـى آيـة تبـيّن معـاني نظائرهـا.

وقـال: قـد فتـح اللـه عـليّ في هـذه المـرّة مـن معـاني القـرآن ومـن أصـول العلـم بأشـياء كان كثـيرٌ مـن العلـماء يتمنّونهـا، وندمـت عـلى تضْييـع أكـثر أوقـاتي في غـير معـاني القـرآن»[1].

وهكـذا نـرى مِـن هـذا الـكلام أنّ شـيخ الإسـلام- رحمـه اللـه- كانـت لـه طريقتُـه المميـزة عـن غـيره، التـي جعلتـه يبلـغ في التفسـير مبلغًـا عظيـماً، بهـر علـماء عـصره بهـذا الفهـم الرّائـع لكتـاب اللـه، واختصاصـه بتفسـير مـا أشـكل مـن الآيـات وتبيينهـا للنـاس، ملتزمًـا في ذلـك بمـا ورد عـن السـلف الصالـح مـن أقـوال في هـذه الآيـات، منسـقًا وشـارحًا لهـذه الآيـات، ومرجّحًـا لبعضهـا عـلى بعـض، في ترتيـبٍ يخطـف الأذهـان، مسـتخدمًا ثقافتـه الكبـيرة في اللغـة العربيـة في توضيـح المعـاني المترادفـة، مُستشـهدًا بالشـعر والنحـو في ترجيـح بعـض هـذه الأقـوال عـلى بعـض، مبينًـا بالدليـل لمـاذا اختـار هـذا القـول وأسـباب الاختيـار، مسـندًا كلّ قـول إلى صاحبـه، في أمانـةٍ علميـة رائعـة، فـكان في طريقتـه نموذجًـا لـكلّ مَـن جـاء بعـدَه مِـن العلـماء والمفسريـن.

(١) العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية، ص(٤٣).

كـما يتّضـح لنـا أنـه لم يكتـب تفسـيراً مرتبًـا مـن أول القـرآن إلى آخـره بالطريقـة المعتـادة عنـد كثـيرٍ مـن المفسريـن، ولكنـه اتخـذ منهجًـا خاصًّـا في تناولـه لتفسـير القـرآن، يظهـر ذلـك مـن خـلال ردّه عـلى أحـد تلاميـذه حـين سـأله أن يكتـب تفسـيراً كامـلاً للقـرآن الكريـم، فهـو اعتنـى بتفسـير مـا خفـي عـلى النـاس، وتـرك مـا لا يحتـاج إلى تفسـير.

***

المبحثُ الثّالث

منهجُ شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير

كتـبَ كثـيرٌ مـن العلـماء في هـذا المنهـج وفصّلـوا فيـه، وأوضحـوا مميزاتـه وخصائصـه، ولم يتركـوا شـيئًا لم يقومـوا بتحليلـه والإفـادة منـه؛ لأنّ هـذا المنهـج كان نبراسًـا وطريقًـا لغـيره مِـن المفسّريـن، فهـو منهـجٌ يربـط الإنسـان بذلـك الخـير العميـم الـذي اسـتقى منـه العـالم هداياتـه، وتلـك القـرون التـي هـي خـيرُ القـرون التـي مـرّت عليهـا البشريـة.

يقـول الإمـام محمـد أبـو زهـرة: «كان سـلفيًّا في تفسـيره، لا يعـدو منهـاج السـلف، وكان منهاجـه مـن كلّ الوجـوه آراء السـلف دائمًـا لا يتجاوزهـا إلى غيرهـا، ولا يعدوهـا قيـد أنملـة، وحيثـما وجـد فكـرًا سـلفيًّا ليـس في الآثـار مـا يناقضـه اعتـبره شـيخ الإسـلام في موضعهـا لا يتجاوزهـا إلى غـير سـبيلها؛ لأن سـبيلهم سـبيل المؤمنـين، وشرع رب العالمـين»[1].

ونلاحـظ في منهـج ابـن تيميـة في التفسـير أنـه يـرى أنّ النبـي ﷺ بـيَّن القـرآن كلـه، ولم يـترك فيـه جـزءًا يحتـاج إلى بيـان لم يبيّنـه، ولا جـزءًا يحتـاج إلى تفصيـل لم يفصلـه، ولا مجمـلاً يحتـاج إلى توضيـح لم يوضحـه؛ لأنّ هـذا جـزء مـن الإيمـان بالقـرآن؛ لأن اللـه - عـز وجـل - قـد أمـر النبـي بتبليـغ النـاس مـا نـزل إليهـم[2].

السّماتُ العامّة لمنهج شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير:

كتـب الكثـيرُ مـن العلـماء والباحثـين حـول منهـاج شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة في التفسـير، ونسـتطيع أن نُجمـل تلـك السـماتِ في النقـاط الآتيـة:

١ـ التركيز على المُشكل في التفسير.

٢ـ دقّة الاستنباط.

(١) ابن تيمية، ص(١٨٢).

(٢) مقدمة التفسير لابن تيمية، ص(٢٩).

٣ـ تحليل المعاني.

٤ـ موضوعيّة المناقشة.

٥ـ إيراد العِلل وتمييزها.

٦ـ العناية بأقوال السلف.

٧ـ المقارنة بين تفاسير النظائر.

٨ـ تأصيل الأقوال وبيان منشئها.

٩ـ ذكر الأقوال في المسائل الخلافيّة في الآيات المقصودة بالتفسير.

١٠ـ عدم التعصّب، فلم يسيطر عليه فكرٌ مُعين يتعصّب له ويجمد عليه، بل كان حرَّ التفكير، خلع نفسه مِن كلّ ما يقيده إلّا الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح، ولقد كان في نشأته حنبليًّا، ولكنه ما إن شبّ حتى درس المذاهب الإسلامية كلها، ثمّ حلّق في مصادرها؛ فهو يعرف كلّ رأي، ومِن أين جاء.

المنهجُ الخاصّ لشيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير(١).

أمّا منهج شيخ الإسلام الخاصّ في التفسير فيمكن أن نراه في النقاط الآتية:

١ـ تفسير القرآن بالقرآن:

يقول شيخ الإسلام في هذا المعنى: «إنّ أصحّ الطرق في ذلك أن يفسّر القرآن بالقرآن؛ فما أجْملَ في مكانٍ فإنه قد فسّر في موضع آخر، وما اختُصر من مكان فقد بُسط في مكان آخر».

ومِن هذا الكلام يتّضح لنا رؤية شيخ الإسلام من أنّ القرآن الكريم يفسّر بعضه بعضًا، بيانًا وتفصيلاً وإجمالاً، والأمثلةُ على ذلك كثيرة.

٢ـ تفسير القرآن بالسنة:

ويبيّن الإمامُ هذا المعنى بقوله: «فإنْ أعياك ذلك- أي: التفسير بالقرآن- فعليك بالسنّة؛ فإنها شارحة للقرآن وموضّحة».

(١) راجع في هذا مقدّمة شيخ الإسلام في أصول التفسير، ومجموع الفتاوى، (١٣/٣٦٣) وما بعدها.

ويفهـم مِـن هـذا أنّ السـنة شـارحة للقـرآن، وهـي- أيضًـا- وحـيٌ مـن اللـه- تعـالى- لنبيـه، وقـد أعطـاه اللـه تفصيـلَ وبيـان القـرآن الكريـم بقولـه: ﴿وَأَنزَلْنَـا إِلَيْـكَ الذِّكْـرَ لِتُبَـيِّنَ لِلنَّـاسِ مَـا نُـزِّلَ إِلَيْهِـمْ وَلَعَلَّهُـمْ يَتَفَكَّـرُونَ ﴾ [النحـل: ٤٤].

٣ـ أقوال الصحابة:

ويبـيّن- رحمـه اللـه- منزلـةَ قـول الصحـابي مـن التفسـير فيقـول: «وإذا لم نجـد التفسـير في القـرآن ولا في السـنة رجعنـا في ذلـك إلى أقـوال الصحابـة؛ فإنهـم أدرى بذلـك؛ لمـا شـاهدوه مِـن القرائـن والأحـوال التـي اختصّـوا بهـا، ولمـا لهُـم مـن الفهْـم التـامّ، والعلـم الصحيـح، والعمـل الصالـح، لا سـيّما علماؤهـم وكبراؤهـم، كـ: الأئمـة الأربعـة، والخلفـاء الراشـدين، والأئمـة المهديّـين، مثـل: عبـد اللـه بـن مسـعود.. والحـبر البحـر عبـد اللـه بـن عبـاس ابـن عـمّ رسـول اللـه ترجـمان القـرآن».

٤ـ الرجوع إلى أقوال التابعين:

كـما يـرى شـيخُ الإسـلام أنّ الرجـوع إلى أقـوال التابعـين يكـون في مرتبـة رابعـة بعـد القـرآن والسـنة وأقـوال الصحابـة، وخـصّ بالذّكـر مـن هـؤلاء التابعـين مَـن اهتمّـوا بتفسـير القـرآن مثـل: مجاهـد بـن جـبر؛ فإنـه كان آيـةً في التفسـير، وسـعيد بـن جبـير، وعكرمـة مـولى ابـن عبـاس، وعطـاء بـن ربـاح، والحسـن البـصري، ومـسروق، والأجـدع، وسـعيد بـن المسـيب، وأبي العاليـة، والربيـع بـن أنـس، وقتـادة، والضحـاك بـن مزاحـم.

وهكـذا يظهـر واضحًـا مـن هـذا المنهـج ترتيـب هـذه المقامـات، فـلا يتـأتّى لأحـدٍ أن ينتقـل مِـن مرحلـةٍ إلى أخـرى حتـى يسـتوفي هـذه المرحلـة.

***

المبحثُ الرّابع

مصادرُ شيخ الإسلام ابن تيمية في التفسير

اعتمد شيخُ الإسلام على القرآن في تفسيره للقرآن، وأوْلى اهتمامًا بالغًا بالسنة النبوية المطهّرة، وأقوال الصحابة، وما أجمع عليه التابعون، وهو يمتلك بلاغة وعلماً رائعًا في اللّغة، ومع ذلك اعتمدَ على بعض كتبِ التفسير، ومن هذه الكتب:

١ـ تفسير ابن أبي حاتم (٣٧٢هـ)، وقد ورد ذكره في تفسيره اثنتين وعشرين مرّة.

٢ـ تفسير البغوي (٥١٦هـ)، وقد ورد ذكره أربع عشرة مرّة.

٣ـ تفسير ابن جرير الطبري (٣١٠هـ)، وقد ورد ذكره ستّ مرّات.

٤ـ تفسير الثعلب (٤٢٧هـ)، وقد ورد ذكره خمس مرّات.

٥ـ تفسير السدي (١٢٧هـ)، وقد ورد ذكره مرّة.

٦ـ تفسير وكيع بن الجراح (١٩٧هـ)، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

٧ـ تفسير عبد الرازق (٢١١هـ)، وقد ورد ذكره مرّتين.

٨ـ تفسير سنيد (٢١٦هـ) مرّتين.

٩ـ تفسير إسحاق بن راهويه، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

١٠ـ تفسير أحمد بن حنبل (٢٤١هـ)، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

١١ـ تفسير دحيم (٢٤٥هـ)، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

١٢ـ تفسير عبد بن حميد (٢٤٩هـ)، وقد ورد ذكره مرّتين.

١٣ـ تفسير بقي بن مخلد (٢٧٦هـ)، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

١٤ـ تفسير أبي يعلى الموصلي (٣٠٧هـ)، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

١٥ـ تفسير أبي بكر بن عبد العزيز (٣٦٢هـ)، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

١٦ـ تفسير أبي الشيخ الأصبهاني (٣٦٩هـ)، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

١٧ـ تفسير أبي بكر بن المنذر (٣١٠هـ)، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

١٨ـ تفسير ابن مردويه (٤١٠هـ)، وقد ورد ذكره مرّة واحدة.

١٩ـ كتاب التفسير من صحيح البخاري، وقد نقل منه مرّة واحدة.

وقد كان رجوع شيخ الإسلام ابن تيمية إلى هذه الكتب يتمّ إمّا بالنقل المباشر، أو الإشارة إليها، أو بعزْو الأقوال إليها، ومع التعقيب بالنقد أو التوضيح[1].

***

(١) راجع في ذلك اختيارات ابن تيمية في التفسير ومنهجه في الترجيح، د/ محمد بن زيلعي هندي.

المبحثُ الخامس

أثرُ شيخ الإسلام ابن تيمية على مَن جاء بعده مِن المفسرين

سبق أنْ تناولنا الحديثَ عن سيرة شيخ الإسلام ومسيرته، وما قاله العلماء عنه، وإشادتهم بتفسيره وفهمه للقرآن الكريم، وغزارة علمه؛ حيث إنّه قرأ كتب المفسّرين واستوعبها سواءً بالمأثور أو الرأي، بالإضافة إلى ثقافته الواسعة العالية في اللغة وعلومها، وعلمه بالقراءات، ومعرفته بتفاسير الصحابة، وفهمهم للقرآن، بالإضافة إلى فهْم التابعين، ثمّ موهبته الربّانية وذكائه الفطري وحُسن تدبره لكتاب الله، كلّ تلك الأسباب مع حُسن صلته بالله، كلّ ذلك أدى إلى عطاء ابن تيمية عطاءً مميزًا، فخلف لنا مِن بين ما خلّف تفسيرًا مُميزًا عن غيره، فهو ليس هاضمًا لما قرأه واستوعبه، بل ناقدًا محلّلًا ذا رأي خاص، يبيّن خطأ المخطئين في الآراء، ويفنّد هذه الآراء ويصحّحها، مُستندًا في كلّ ذلك إلى الأدلة من القرآن والسنة واللغة، وكل ذلك بأسلوب سهل وعذب يفيدُ منه الجميع، ولا غرْو في ذلك فهو مصبوغ بروح عالم ارتبط بأخلاق الصالحين وروح الدعاة المصلحين[1].

تعدّدت أوْجه تأثير ابن تيمية فيمَن جاء بعده مِن المفسرين مِن هذه الأوجه:

١ـ أصالة المنهج.

٢ـ الفكر الخالي من التقليد.

٣ـ كتبه وتراثه التفسيري الرائع.

ولعلّنا نوضّح هذا ببعض البيان في الآتي:

أولًا: أصالةُ منهج ابن تيمية في التفسير:

وضعَ ابن تيمية في التفسير منهجًا جديدًا كان له أثرٌ بارز فيمَن جاء بعده؛ فهو مجدّد في التفسير بحقّ؛ حيث إنه جدّد وأحيا ما كان عليه السلف بوضعه هذه الأسس وهذا المنهج، في الوقت الذي ابتعد فيه كثيرٌ من المفسرين عن هذا المنهج، كما ظهر في التفسير كثيرٌ من البدع ممّا

---

(١) انظر: على ساحل ابن تيمية، ص(٣٧) بتصرّف كبير.

جعـل الحاجـة قائمـة للتأكيـد عـلى هـذه الأسـس والدعـوة إليهـا، مـمّا حمـل ابـن تيميـة عـلى ترسـيخ تلـك الأسـس والدعـوة إلى العمـل بهـا.

ومِن أسس التجديد في منهج ابن تيمية:

١ـ الرجوع إلى المصادر الأصلية.

٢ـ بيان كيفية التعامل مع الإسرائيليات.

٣ـ التحذير من الاتجاه المنحرف في التفسير.

٤ـ اهتمامه بما تدعو الحاجة إلى تفسيره.

أثرُ ذلك على المفسرين:

أثـرُ ابـن تيميـة عـلى كثيرٍ مـن المفسريـن بمنهجـه في التفسـير، ومـن هـؤلاء الذيـن تأثـروا بـه العلامـة ابــن كثـير، الــذي قــال فيــه الشــيخ الذهبــي: فلــم نــرَ مِــن المفسريــن رجــلًا كان لــه مــن قــوّة النقــد للمأثـورات وتمييـز جيادهـا مـن زيوفهـا مثـل مـا كانَ لابـن كثـير- رحمـه اللـه.

وقـال عنـه الدكتـور محمـد أبـو شـهبة، وهـو يتحـدّث عـن تفسـيره: مـن خصائـص هـذا التفسـير العظيـم أنـه يعتـبر نسـيجًا وحـدَه في التّنبيـه عـلى الإسرائيليـات والموضوعـات في التفسـير، وقـد تأثّـر في هـذا بشـيخه الإمـام ابـن تيميـة.

ولم يقتـصر هـذا الأثـر عـلى ابـن كثـير وحـدَه؛ لأن مَـن جـاء بعـد ابـن كثـير ممّـن أعـرض عـن الإسرائيليـات وانتقدهـا كالشـوكاني[١] والآلـوسي[٢] ورشـيد رضـا[٣]، والشـيخ محمـد حسـين الذهبـي[٤]، وغيرهـم، وقـد تأثّـروا بهـذا المنهـج الـذي رسـمه ابـن تيميـة وطبقـه ابـن كثـير[٥].

(١) محمد بن علي بن محمد الشوكاني، ولد سنة ١١٧٣هـ ١٧٥٩م، وتوفي سنة ١٢٥٠هـ ١٨٣٩م في صنعاء، راجع البدر الطالع: ٢/ ١٠٢.

(٢) شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي، ولد ١٢١٧هـ ١٨٠٢م ببغداد، وتوفي عام ١٢٧٠ هـ ١٨٥٧م. له روح المعاني في التفسير. راجع طبقات المفسرين ١/ ٦٤.

(٣) هو محمد رشيد السيد رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين، من رواد الإصلاح الإسلامي، له تفسير المنار، توفي عام ١٣٥٨هـ المعجم الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين، ١/ ٧٤ وما بعدها.

(٤) هو العلامة المفسّر صاحب التفسير والمفسرون، توفي سنة ١٣٩٨هـ

(٥) انظر: أسس التجديد في منهج ابن تيمية في التفسير، د/ فرقان إسماعيل، بحث مطبوع في مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية القانونية، (٢٠٠٥/٢١).

وظهـر تأثّـرُ المفسريـن بكتـب شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة في التفسـير واضحًـا، خاصّـة مـن خـلال مقدّمتـه في التفسـير؛ حيـث اعتمـد الحافـظُ ابـن كثـير في مقدّمـة تفسـيره المشـهورة في بيانـه لأحسـن طُـرق التفسـير عـلى مقدّمـة التفسـير لابـن تيميـة، وأفـاد منهـا الزركـشي[1] صاحـب البرهـان في علـوم القـرآن، وكثـيرًا مـا نَقـل منهـا بالحـرف دون أن يعْـزو إليـه أو ينسـب إليـه.

وتأثـر- أيضًـا- السـيوطي[2] بمقدّمـة ابـن تيميـة؛ فقـام بتلخيـص فصـول هـذه الرسـالة في كتابـه الإتقـان وهـو (أوجـه الاختـلاف في التفسـير وأسـبابها)، تحـت عنـوان: معرفـة شروط المفـسر وآدابـه، وأثنـى عـلى هـذا الفصـل بقولـه: «وهـو كلام نفيـس جـدًّا»، مـمّا يـدلّ عـلى إعجابـه بمـا كتبَـه في بـاب التفسـير بالـرأي وطبقـات المفسريـن.

وممّـن لخّـص هـذه المقدّمـة- أيضًـا- الشـيخ محمـد راغـب الطبـاخ[3]، في كتابـه (الثقافـة الإسـلامية) بعـد أن أعجـب بهـا وأثنـى عليهـا.

وكذلـك الشـيخ محمـد بهجـت البيطـار أعجـب بهـا وأثنـى عليهـا قائـلًا: «رسـالته هـذه فيـضٌ مـن بحـره، قـد أملاهـا مِـن فـؤاده، وقـد أودعهـا لآلئـه ودرَرَه، فهـي تُريـكَ صفحـةً ناصعـة مـن دراسـة سـلفنا للقـرآن وفهمـه، وتهديـك لحـلّ بعـض مشـكلات التفسـير ومصطلحاتـه، وتدلّـك عـلى أهـدى المفسريـن، وأفضـل كتبهـم، وتحـذّرك عـمّا انتحلـوا لأنفسـهم مـن عقائـد وأصـولٍ بَنَـوا تفاسـيرهم عليهـا، وردّوا كلام اللـه وسـنة رسـوله إليهـا».

تأثرُ المفسّرين بفكر شيخ الإسلام ابن تيمية:

تأثّـر الشـيخ محمـد عبـده[4] بمدرسـةِ ابـن تيميـة إلى حـدٍّ مـا في دعوتـه إلى تحريـر العقـل والفكـر مـن التقليـد، وإلى فهْـم الديـن عـن طريـق السـلف قبـل ظهـور الخـلاف، وإلى الرجـوع في جُملـة أصولـه إلى

---

(١) هو الإمام محمد بن بهادر بن عبد الله المصري الزركشي الشافعي الإمام العلّامة، ولد عام ٧٤٥هـ وأهمّ كتبه البرهان في علوم القرآن، ٧٩٤هـ الدرر الكامنة: ١/ ٤٧٩، شذرات الذهب: ٦/ ٣٣٤.

(٢) هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن محمد، ولد سنة ٨٤٩ هـ وهو صاحب الإتقان في علوم القرآن وطبقات المفسرين، وغيره من الكتب، توفي عام ٩١١هـ.

(٣) هو محمد راغب بن محمود بن هاشم الطباخ من أهل حلب الشهباء، حفظ المتون وتفقّه ودرس في كلية الشريعة في حلب، مِن أهمّ تصانيفه في الدروس الدينية، إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء، راجع الأعلام للزركلي: ٦/ ٣٥٩. معجم المؤلفين: ٩/ ٣٠٥، الموسوعة الفقهية: ١١/ ٧٢.

(٤) هو محمد عبد بن حسن خير الله، رائد الإصلاح في العصر الحديث، ولد عام ١٢٦٦هـ ١٨٤٩م، وتوفي عام ١٣٢٣هـ ، ١٩٠٥ م. راجع المعجم الجامع في ترادم العلماء.١/ ٣٢٣.

الكتاب والسنة حتى ترجع الأمور الاعتقادية والتعبدية إلى ما كانت عليه في عهد السلف بلا زيادة ولا نقصان[(١)].

كما انتفع الشيخُ رشيد رضا بكتب الشيخ وتلميذه ابن القيم- رحمهما الله، وذكر أنه لمْ يطمئن قلبُه بمذهب السلف تفصيلاً إلّا بممارسة هذه الكتب، وظلّ يعتزّ بقراءة هذه الكتب وبآراء الشيخين، ويستشهد بهما، وينقل عنهما طيلةَ حياته.

وكثيرًا ما نقل صاحبُ محاسن التأويل الشيخ جمال الدين القاسمي[(٢)] من كتب الشيخ، واستشهد بآرائه حتى إنه عقد في مقدّمة تفسيره في الجزء الأول فصلاً كاملاً تحتَ عنوان: «هل في القرآن مجاز أم لا؟» بما لا يقلّ عن ثلاثين صفحة من الحجم المتوسّط، فنقله بتمامِه من كتاب الإيمان لابن تيمية.

والإمام الشوكاني تأثّر- أيضًا- بكتب ابن تيمية وأفاد منها، وبالغ في الثناء عليه، قال عنه وعنِ ابن حزم الأندلسي[(٣)]: «وما أظنّ أنه سمع الزمان ما بين عصري الرّجلين بما يشبههما أو يقاربهما»[(٤)].

كما لا يخفى على أحدٍ من الدارسين لسيرة شيخ الإسلام تأثّر تلميذه ابن القيم به، ويظهر ذلك في مواضع مختلفة من كُتبه، فمِن ذلك ما قاله ابن القيم- رحمه الله- عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِ ﴾ [العنكبوت: ٤٥]: «وكان شيخ الإسلام أبو العباس- قدّس الله روحه- يقول: «والصحيح أنّ معنى الآية أنّ الصلاة فيها

(١) انظر: تفسير المنار، (٩/١، ١٠).

(٢) هو جمال الدين بن محمد سعيد بن قاسم الحلاق القاسمي، العلامة المفسر، ولد عام ١٢٨٣هـ ١٨٦٦م، أحد روّاد النهضة العلمية الحديثة ببلاد الشام حفظها الله، له التفسير المعروف وقواعد التحديث، توفي عام ١٣٣٢هـ ، ١٩١٤م. التأريخ والوفيات: ١م ٣٢.

(٣) هو علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب الأندلسي القرطبي، ولد عام ٣٨٤هـ، هو أحد أئمة الإسلام في الأندلس، له كتاب المحلى وغيره من الكتب التي تقارب أربعمائة كتابًا، توفي عام ٤٥٦هـ. راجع طبقات الحفاظ: ١/ ٨٨.

(٤) انظر: ابن تيمية وجهوده في التفسير وعلوم القرآن، إبراهيم خليل بركة، ص(١٨١-١٨٣) بتصرف.

مقصـودان عظيـمان، وأحدهـما أعظـم مـن الآخـر؛ فإنهـا تنهـى عـن الفحشـاء والمنكـر، وهـي مشـتملة عـلى ذكـر اللـه تعـالى، ومـا فيهـا مـن ذكـر اللـه أعظـم مِـن نهيهـا عـن الفحشـاء والمنكـر»[1].

علاقةُ شيخ الإسلام بعلم أصول التفسير:

لعـلّ أفضـل مـا قدّمـه شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة- رحمـه اللـه- في هـذا العلـم هـو تخْصيـص كتـاب في هـذا العلـم، وهـو (مقدّمـة في أصـول التفسـير)، وفي ذلـك يقـول شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة عـن سـبب حديثـه في هـذا العلـم: «لقـد سـألني بعـضُ الإخـوان أنْ أكتـب لـه مقدّمـة تتضمّـن بعـض القواعـد الكليـة، تعينـه عـلى فهـم القـرآن، ومعرفـة تفسـيره ومعانيـه، والتمييـز في منقـول ذلـك ومعقولـه بـين الحـقّ وأنـواع الأباطيـل، والتنبيـه عـلى الدليـل الفاصـل بـين الأقاويـل».

فجـاء جوابُـه عنهـا برسـالةٍ عظيمـة في هـذا البـاب، وقـد ذكـرت مقدّمتـه هـذه موضوعـات عامـة وتفصيليـة.

أمّا العامّة فهي:

١ـ بيان الرسول ﷺ ألفاظَ القرآن ومعانيه للصحابة.

٢ـ اختـلاف الصحابـة والتابعـين وأتباعهـم في التفسـير وأنواعـه، وأنّ سـبب الاختـلاف مـن جهـة المنقـول ومـن جهـة الاسـتدلال.

٣ـ بيان طرق التفسير.

٤ـ بيان التفسير بالرأي.

لقد بنى شيخ الإسلام ابن تيمية تفسيره على أصول، أهمّها:

١ـ أنـه وضـعَ مراتـب للتفسـير، وهـي أنهـا عـلى الترتيـب: القـرآن بالقـرآن، تفسـير القـرآن بالسـنة، ثـمّ تفسـير القـرآن بأقـوال الصحابـة، ثـمّ التفسـير بأقـوال التابعـين.

٢ـ الاكتفـاء بالتفسـير النبـوي في حالـة وجـوده، قال شـيخ الإسـلام: «وممّا ينبغـي أنْ يعلم أنّ تفسـير القرآن والحديث إذا عرف تفسيره من جهة النبي ﷺ لم يحتج في ذلك إلى أقوال أهل اللغة... ولا غيرهم»[2].

---

(١) انظر: شيخ الإسلام أحمد بن تيمية رجل الإصلاح والدعوة، إبراهيم محمد العلي، ص(٤٣٧).

(٢) مقدّمة في أصول التفسير، الفتاوى، ط ١ ابن القاسم، (٣٦٣/١٣-٣٦٩).

٣ـ أنّ المراسيل هي الغالب على المنقول في التفسير، وهي صحيحة قطعًا إذا تعدّدت طرقها وخلتْ عن المواطأة قصدًا واتفاقًا بغير قصد.

يقول شيخ الإسلام: «ومعلوم أنّ المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم، ولهذا قال الإمام أحمد: ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير والملاحم والمغازي، ويرى أنه ليس لها أيّ أصل أي بالإسناد؛ لأنّ الغالب عليها المراسيل، والمراسيل إذا تعدّدت طرقها وخلت عن المواطأة قصدًا أو الاتفاق بغير قصد؛ كانت صحيحة قطعًا»، وبيّن طرق معرفة المراسيل والأمارات التي تعرف بها[١].

٤ـ لا يجوز العدول عن تفسير الصحابة والتابعين إلى ما يخالفه.

يقول شيخ الإسلام: «وفي الجملة، مَن عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك؛ كان مخطئًا، بل مبتدعًا، وإن كان مجتهدًا مغفورًا له خطؤه».

٥ـ لا يجوز إحداث قولٍ جديد في مسألة تنازع فيها السلف.

ومن باب التأكيد نكرّر أنه من عدل عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئًا في ذلك، بل مبتدعًا، وإن كان مجتهدًا يغفر له خطؤه، فالمقصودُ بيان طرق العلم وأدلّتهم وطرق الصواب، ونحن نعلم أنّ القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم كانوا أعلمَ بتفسيره ومعانيه، كما أنّهم أعلمُ بالحقّ الذي بعث الله به رسوله ﷺ فمَن خالف قولَهم وفسّر القرآن بخلاف تفسيرهم؛ فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعًا».

٦ـ أنّ الأخبار الإسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتقاد.

٧ـ أنّ اللغة مصدر من مصادر التفسير، ورتبتها متأخّرة عمّا سبق من مصادر، فوضّح أنّها هي المرجع إذا اختلف التابعون «فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على مَن بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن، أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك»[٢].

(١) الفتاوى، (١٣/٤٤٦، ٣٤٩).

(٢) الفتاوى، (١٣/٣٧٠).

٨ـ التفسير بمجرّد الرأي حرام، يقول- رحمه الله: «أمّا تفسير القرآن بمجرد الرأي؛ فَحَرام»[(١)].

ويـدلّ كلامُـه عـلى أنّ المـراد بالـرأي الـرأي المحـض الـذي لا يسـتند إلى علـم، وهـو الـذي يحصـل بـه الخطـأ في التفسـير، وذلـك مِـن جهتـين: إحداهـما: أن يعتقـد معـاني، ثـمّ يريـد حمـل ألفـاظ القـرآن الكريـم عليهـا، والثانيـة أن يفسر القـرآن بمجـرد مـا يسـوغ أن يريـده مَـن كان مِـن الناطقـين بلغـة العـرب بكلامـه مِـن غـير نظـر إلى المتكلـم بالقـرآن المنـزّل عليـه والمخاطـب بـه[(٢)].

٩ـ دوام التفكّر في معاني القرآن والتدبر في ألفاظه، والحذر من الحجب المانعة من فهم القرآن.

يدعـو شـيخ الإسـلام المسـلمين أنْ يتدبّـروا القـرآن، ولا يشـغلوا أنفسـهم بحروفـه شـغلًا يُبعدهـم عـن تدبّـره مثـل: التجويـد ووجـوه الإعـراب، وأنْ يجاهـدوا أنفسـهم عـن كلّ مـا يشـغلهم عـنْ هـذا التدبّـر مـن الألغـاز أو الأحاجـي أو الانشـغال بمذهـب بعينـه.

فهكـذا عنـده مَـن يفْهـم القـرآن هـو الـذي يظـلّ دائـمَ التفكـير والتدبّـر لمعانيـه وألفاظـه واسـتغنائه بمعـاني القـرآن وحُكمـه عـن غـيره مـن كلام النـاس، وإذا سـمع شـيئًا مـن كلام النـاس وعلومهـم عرَضَـه عـلى القـرآن، فـإنْ شـهدَ لـه بالتزكيـة قَبِلـه وإلّا ردّه[(٣)].

١٠ـ ليس في القرآن مجاز[(٤)].

١١ـ لا شيء في القـرآن لا يعـرف معنـاه، والمتشـابه نسـبي. تحـدّث شـيخ الإسـلام عـن هـذه القاعـدة أثنـاء حديثـه عـن المُحكـم والمتشـابه مبينًـا أنّ اللـه - عـز وجـل - قـد بـيّن جميـع القـرآن لنبيـه ﷺ، وأنّ هنـاك كثـيرًا مـن الدلائـل مـن الكتـاب والسـنة تبـين ذلـك، وأنّ الفهـم والتدبـر لكتـاب اللـه مُمكـن ومتـاح، وليـس فيـه مـا لا يُفهـم، وأنّ الراسـخين في العلـم مـن الصحابـة والسـلف كانـوا

---

(١) الفتاوى، (١٣/٣٧٠).

(٢) اختيارات ابن تيمية في التفسير ومنهجه في الترجيح، د/ محمد بن زيدان الهندي، ص(٤٥)، وانظر: الفتاوى، (١٣/٣٥٦).

(٣) انظر: الفتاوى، (١٦/٥٠).

(٤) الفتاوى، (٦/٣٥١، ٣٧٤).

على علمٍ بفهْم المتشابه كـ: مجاهد ومحمد بن جعفر والربيع بن أنس، ونقلوا ذلك عن ابن عباس أنه قال: أنا مِن الراسخين الذين يعلمون تأويله[1].

١٢ـ ومن المواد التي تعدّ مِن أصول التفسير، وكان شيخ الإسلام عالمًا فذًّا في ذلك هو علم الترجيح خاصّة في تفسير القرآن، ولقد كتبت عنه رسالة علمية في ذلك بعنوان: «اختيارات ابن تيمية في التفسير ومنهجه في الترجيح» للدكتور محمد بن زيلعي هندي، وليس في هذا البحث متّسعٌ لعرض ذلك، وستجد في هذا البحث صيغًا وأساليبَ الترجيح وأوْجهَه عند شيخ الإسلام.

١٣ـ قدّم شيخ الإسلام ابن تيمية قواعدَ وأسسًا للتفسير ولفهم القرآن، كتب فيها كثيرٌ من العلماء، ومِن هذه الكتب كتاب «القواعد الحِسان من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية» لمحمد بن العزيز المسند.

ومِن هذه القواعد:

ـ ألفاظ الكتاب والسنة إذا عُرف تفسيرها من جهة النبي ﷺ لم يحتجْ إلى الاستدلال بأقوال أهل اللغة أو غيرهم.

ـ مِن عادة السّلف في تفسيرهم أن يذكروا بعضَ صفات المفسر من الأسماء أو بعض أنواعه، ولا ينافي ذلك ثبوت بقية الصفات للمسمى، بل قد يكونان متلازميْن ولا دخول لبقية الأنواع فيه.

ـ ما دلّ عليه السّياق هو ظاهر الخطاب، فلا يكون من موارد النزاع.

ـ الصريح يقضي على الظاهر ويبيّن معناه.

ـ يجوز أن تفسّر إحدى الآيتين بظاهر الأخرى، ويصرف الكلام عن ظاهره وإن سمي تأويلاً وصرفًا عن الظاهر؛ وذلك لدلالة القرآن عليه.

(١) انظر: الفتاوى، (٣٩٠/١٦، ٣٩٧)، (٢٧٢/١٣-٢٧٣)، استفدت من كتاب اختيارات ابن تيمية في التفسير ومنهجه في الترجيح في استخراج هذه العناصر.

ـ استعمال القرآن لفظًا في معنى لا يقتضي أنّ ذلك اللفظ لا يحتمل غير ذلك المعنى.

ـ زيادة اللّفظ في القرآن لزيادة المعنى، وقوة اللّفظ لقوة المعنى.

ـ الكلام إذا اجتمع فيه شرطٌ وقسم، وقد تقدّم القسم؛ سدّ جوابُ القسم مسَدّ جواب الشرط.

ـ الأصل إقرار الكلام على نظمه وترتيبه، لا تغيير ترتيبه.

ـ حذف المضاف إليه يقارنه قرائن، فلا بدّ أنْ يكون مع الكلام قرينة تبيّن ذلك.

ـ القراءة الشاذّة تجري مجرى الخبر الواحد.

ـ العطف يقتضي مغايرةً بين المعطوف والمعطوف عليه مع اشتراكهما في الحكم الذي ذكر لهما.

ـ العطف تارة يكون لتغاير الذّوات، وتارة لتغاير الصفات.

ـ المعطوف إذا تقدّم اسمًا كان عطفه على الغريب أولى، كما أنّ عوْد الضمير إلى القريب أولى، إلّا إذا كان هناك دليل يقتضي العطف على البعيد.

ـ الضمير يعودُ إلى الغريب إذا لم يكن هناك دليل على خلاف ذلك.

ـ الضمير يجبُ عوْدُه إلى جميع ما تقدّم ذكره، فإن تضرّر عوده إلى الجميع؛ أعيدَ إلى أقرب المذْكورين، أو إلى دليل تعْيينه.

ـ أنّ المفسرة التي تأتي بفعل من معنى القول لا من لفظه.

***

المبحثُ السّادس

شيخُ الإسلام ابن تيمية وعلومُ القرآن

لقد تحدّث شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- في كثيرٍ من قضايا علوم القرآن، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

١ـ المحكم والمتشابه.

٢ـ الوجوه والنظائر.

٣ـ الناسخ والمنسوخ.

٤ـ الفرق بين التأويل والتفسير.

٥ـ أقسام القرآن.

٦ـ قضية الاختلاف في التفسير.

٧ـ حكم التفسير بالأحاديث الإسرائيلية.

٨ـ القراءات في القرآن.

٩ـ تحزيب القرآن.

١٠ـ التضمين في القرآن.

١١ـ أسباب النزول.

١٢ـ حديث الآحاد.

١٣ـ قضية إعجاز القرآن.

١٤ـ قاعدة في فضائل القرآن.

١٥ـ قضية الحقيقة والمجاز.

١٦ـ الأمثال في القرآن.

ولعـلّ مقدّمـات شـيخ الإسـلام في فهـم القـرآن التـي كتبـت كمقدمـة تفسـيره في كتـاب التفسـير الدقيـق وكتـاب التفسـير الكبـير أكـبرُ دليـل عـلى مهـارة شـيخ الإسـلام بهـذا العلـم، ولا مـكان لذكـر كلّ مـا قدّمـه في هـذا المبحـث، ولكـن نذكـر نبـذة مختـصرة عـن هـذه المفاهيـم؛ حتـى يكـون القـارئ قـادرًا عـلى فهْـم هـذه الأبـواب، واسـتيعاب مـا قدّمـه الشـيخ- رحمـه اللـه.

أولًا: معرفتُه بأسباب النزول:

تحدّث شيخ الإسلام عن أسباب النزول مبيّنًا أولًا معنى أسباب النزول، فيقول- رحمه الله:

«وقـد يجـيء مِـن هـذا البـاب قولهـم: هـذه الآيـة نزلـت في كـذا، لاسـيّما إن كان المذكـور شـخصًا، كأسـباب النـزول المذكـورة في التفسـير كقولهـم: إنّ آيـة الظهـار نزلـت في أوس بـن الصامـت»[1].

تحـدّث- أيضًـا- عـن حكـم أسـباب النـزول، فيقـول: فالذيـن قالـوا ذلـك لم يقصـدوا أنّ حكـم الآيـة مختـصّ بأولئـك الأعيـان دون غيرهـم، فـإنّ هـذا لا يقولـه مسـلم ولا عاقـل عـلى الإطـلاق، والنـاس وإنْ تنازعـوا في اللّفـظ العـام الـوارد عـلى سـببٍ هـل يختـصّ بسـببه أم لا؟ فلـم يقـل أحـدٌ مـن علـماء المسـلمين: إنّ عمومـات الكتـاب والسـنة تختـصّ بالشـخص المعـين، وإنّمـا غايـة مـا يقـال: إنّهـا تختـصّ بنـوعِ ذلـك الشـخص، فيعـمّ مـا يشـبهه، ولا يكـون العمـوم فيهـا بحسـب اللّفـظ، والآيـة التـي لهـا سـببٌ معـيّن إن كانـت أمـرًا فهـي متناولـة لذلـك الشـخص، ولغـيره ممّـن كان بمنزلتـه، وإن كانـت خـبرًا بمـدح أو ذمّ فهـي متناولـة لذلـك الشـخص وغـيره ممّـن كان بمنزلتـه أيضًـا[2].

وتحدّث- أيضًا- عنْ أهمية معرفة أسباب النزول، يقول- رحمه الله:

«معرفـة سـببِ النـزول يعـينُ عـلى فهـم الآيـة، فـإنّ العلـم بالسـبب يـورث العلـم بالمسـبّب، ولهـذا كان أصحّ قـول الفقهـاء: إنـه إذا لم يعـرفْ مـا نـواه الحالـف رجـع إلى سـبب يمينـه، ومـا هيّجهـا، وآثارها[3].

(١) انظر: الفتاوى، (٣٣٨/١٣).

(٢) انظر: الفتاوى، (٣٣٩/١٣).

(٣) انظر: الفتاوى، (٣٣٩/١٣).

حكمُ التّفسير بالأحاديث الإسرائيلية:

ذكر شيخُ الإسلام ابن تيمية عن أقاويل أهل الكتاب حديثَ النبي ﷺ: «بلّغوا عني ولو آية، وحدّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومَن كذب علي متعمدًا فليتبوّأ مقعده من النار» رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو،[1] فبيّن أنّ هذه الأحاديث التي بها أخبار أهل الكتاب هي للاستشهاد لا الاعتقاد، وذكر أنّ هذه الأحاديث على ثلاثةِ أقسام:

أحدهما: ما علمنا صحّته ممّا بأيدينا ممّا يشهد له بالصدق، فذلك صحيح.

وثانيهما: ما علمنا كذبه بما عندنا ممّا يخالفه.

والثالث: ما هو مسكوتٌ عنه، لا مِن هذا القبيل ولا مِن هذا القبيل، فلا نؤمن به ولا نكذّبه، وتجوز حكايته لما تقدّم، وغالب ذلك ممّا لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني[2].

أدبُ الخلاف عند ابن تيمية:

يقول- رحمه الله- مبيّنًا كيفية التعامل مع الخلاف: «أنْ تستوعب الأقوال في ذلك المَقام، وأنْ تنبّه على الصحيح منها وتبطل الباطل، وتذكر فائدة الخلاف وثمرته؛ لئلّا يطول النزاع والخلاف فيما لا فائدة تحته، فتشتغل به عن الأهمّ فالأهم.

فأمّا مَن حكى خلافًا في مسألةٍ ولم يستوعب أقوالَ الناس فيها فهو ناقص؛ إذْ قد يكون الصواب في الذي تركه.

أو يحكي الخلاف ويطلقه ولا ينبّه على الصحيح من الأقوال، فهو ناقص أيضًا.

فإنْ صحّح غير الصحيح عامدًا فقد تعمّد الكذب، أو جاهلاً فقد أخطأ، وكذلك مَن نصّب الخلافَ فيما لا فائدة تحته، أو حكى أقوالاً متعدّدة لفظًا ويرجع حاصلها إلى قولٍ أو قولين معنى، فقد ضيع الزمان، وتكثّر بما ليس بصحيح، فهو كلابسِ ثوبيْ زور، والله الموفق للصّواب[3].

---

(١) صحيح البخاري (٤/ ١٧٠).

(٢) انظر: الفتاوى، (٣٦٦/١٣) وما بعدها.

(٣) الفتاوى، (٣٦٨/١٣).

نزولُ القرآن على سبعة أحرف:

تحـدّث شـيخ الإسـلام عـن هـذه القضيـة موضّحًـا المـراد بهذه السـبعة، وهـل هـذه القراءات المنسـوبة إلى نافـع وعاصـم وغيرهـما هـي الأحـرف السـبعة أو واحـد منهـا، والسـبب الـذي أوجـب الاختـلاف بـين القـراء فيـما احتملـه خـطّ المصحـف، وهـل تجـوز القـراءة بروايـة الأعمـش وابـن مُحيْصِـن وغيرهـما مـن القـراءات الشـاذّة أم لا؟ وإذا جـازت القـراءة بهـا فهـل تجـوز الصّـلاة بهـا أم لا؟[١].

وتحـدّث عـن جميـع القـراءات وكوْنهـا سـنّة أو بدعـة، وهـل جُمعـت عـلى عهـد رسـول اللـه ﷺ، وهـل لجامعهـا ثـواب عـلى مَـن قـرأ بروايـة أم لا؟[٢].

ما أصحّ التفاسير في نظره؟

يقـول شـيخُ الإسـلام ابـن تيميـة: «وأمّـا التفاسـير التـي في أيـدي النـاس، فأصحّهـا تفسـير ابـن جريـر الطـبري؛ فإنـه يذكـر مقـالات السّـلف بالأسـانيد الثابتـة، وليـس فيـه بدعـة، ولا ينقـل عـن المتّهمـين، كمقاتـل بـن بكـير والكلبـي[٣]، والتفاسـير غـير المأثـورة بالأسـانيد كثـيرة كــ: تفسـير عبـد الـرازق، وعبـد بـن حميـد، ووكيـع[٤]، وابـن أبي قتيبـة[٥]، وأحمـد بـن حنبـل[٦]، وإسـحاق بـن راهويـه[٧].

(١) الفتاوى، (٣٨٩/١٣) وما بعدها.

(٢) الفتاوى، (٤٠٤/١٣).

(٣) هو العلامة الإخباري أبو النضر محمد بن السائب بن بشر الكلبي المفسر، شيعي متروك الحديث، توفي عام ٢٤٦ هـ بالكوفة. انظر: سير أعلام النبلاء: ٦/ ٢٤٨.

(٤) هو الإمام الحافظ وكيع بن الجراح بن مليح بن عدي بن غراس الرؤاسي الكوفي، محدث العراق، توفي سنة ١٩٦هـ سير أعلام النبلاء : ٩/ ١٤١.

(٥) هو أحمد بن عبد الله بن مسلم بن قتيبة بن مسلم الدينوري البغدادي، مولود عام ٢١٣ هـ ولي قضاء مصر، ومِن أهمّ كتبه عيون الأخبار، وتوفي عام ٣٢٢هـ انظر: الديباج المذهب: ١/ ٢١.

(٦) هو إمام أهل السنة أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الزهري، فقيه محدّث، ولد عام ١٦٤هـ وتوفي عام ٢٤١هـ ببغداد، راجع سير أعلام النبلاء: ١١/ ١٩٥، طبقات الشافعية: ٢/ ٢٩.

(٧) هو إسحق بن راهوية الحنظلي التميمي، أحدُ أمّة المسلمين وعلماء الدين، فقيهٌ، حافظ، اشتهر بالورع والزّهد والصدق، لقّب بشيخ المشرق، ولد عام ١٦١هـ بنيسابور، وتوفي عام ٢٣٨ هـ راجع سير أعلام النبلاء: ١٣/ ٥٤٤، طبقات الحنابلة: ٢/ ٥٤.

تحـدّث شـيخُ الإسـلام عـن أسـلمِ التفاسـير مـن البدعـة والأحاديـث الضعيفـة، وذكـر أنّ «البغـوي»[1] هـو أوّلُهـا؛ لأنّـه مختـصر مـن تفسـير «الثعلبـي»، وقـد حـذف فيـه الأحاديـث الموضوعـة والبـدعَ التـي فيـه، وحـذف منـه أشـياء أخـرى.

وأمّـا الواحـدي[2] فإنـه تلميـذ الثعلبـي[3]، وهـو أخـبر منـه بالعربيـة، لكـنّ الثعلبـي فيـه سـلامةٌ مـن البـدع، وإنْ ذكرهـا تقليـدًا لغـيره، وتفسـيره وتفسـير الواحـدي البسـيط والوسـيط والوجيـز فيهـا فوائـدُ كثـيرة، وفيهـا كثـيرٌ مـن المنقـولات الباطلـة وغيرهـا.

وأمّـا الزمخـشري فتفسـيره محشـوّ بالبدعـة، وعـلى طريقـة المعتزلـة مـن إنـكار الصفـات والرؤيـة والقـول بخلـق القـرآن، وأنكـر أنّ اللـه مريـد للكائنـات وخالـق لأفعـال العبـاد، وغـير ذلـك مـن أصـول المعتزلـة.

وتفسـير القرطبـي[4] خـيرٌ منـه بكثـير وأقـربُ إلى طريقـة أهـل الكتـاب والسـنة وأبعـدُ عـن البـدع، وإنْ كان كلّ مـن هـذه الكتـب لا بـدّ أنْ يشـتمل عـلى مـا ينقـد، لكـنْ يجـب العـدل بينهـا وإعطـاء كلّ ذي حـقّ حقّـه.

---

(١) هو أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد الفراء البغوي، ويلقب بركن الدين ومحيي السنة، له معالم التنزيل المعروف بتفسير البغوي ومصابح السنة، توفي عام ٥١٦هـ راجع سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٤٣٩.

(٢) هو أبو الحسن علي بن أحمد بن علي الواحدي النيسابوري الشافعي، هو عالم بالتفسير وأسباب النزول والعربية والتاريخ، له تفاسير الوسيط والبسيط والوجيز، وهو مؤرخ ومفسّر ولغوي وأديب، توفي عام ٤٦٨هـ راجع العبر في أخبار من غبر: ٣/ ١٤٦، ١٤٧.

(٣) هو أبو إسحق أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري، المفسّر المشهور، له تفسير الكشف والبيان عن تفسير القرآن، وتوفي عام ٤٢٧هـ وفيات الأعيان: ١/ ٧٩. والوافي بالوفيات: ٧/ ٣٠٧.

(٤) هو محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي القرطبي، ولد بالأندلس، صاحب الجامع لأحكام القرآن والتذكرة في أحوال الموتى وشئون الآخرة، كان إمامًا عالمًا، ولد عام ٥٩٨هـ وتوفي عام ٦٧١هـ راجع شذرات الذهب: ٨/ ٣٣٤، والديباج المذهب ١/ ٦٩.

وتفسـيرُ ابـن عطيـة[١] خـيرٌ مِـن تفسـير الزمخـشري، وأصـحّ نقـلاً وبحثًـا، وأبعـدُ عـن البـدع، وإنِ اشـتمل عـلى بعضهـا، بـل هـو خـيرٌ منـه بكثـير، بـل لعلّـه أرجـح هـذه التفاسـير، لكـنّ تفسـير ابـن جريـر[٢] أصـحّ مـن هـذه كلّهـا.

وثمّ تفاسير أخرى كثيرة جدًّا كـ: تفسير ابن الجوزي والماوردي[٣].

المحكم والمتشابه:

وضّـح شـيخُ الإسـلام ابـن تيميـة معنـى المحكـم ومعنـى المتشـابه، وذلـك أثنـاء حديثـه عـن قولـه تعـالى: ﴿مِنْـهُ آيَـاتٌ مُّحْكَـمَاتٌ هُـنَّ أُمُّ الْكِتَـابِ وَأُخَـرُ مُتَشَـابِهَاتٌ ﴾ [آل عمـران: ٧]، وخلاصـة مـا قـال في ذلـك: إنّ المحكـم مـن الآيـات هـو: الـذي ليـس فيـه تشـابه عـلى أحـد.

وأمّا المتشابهات ففيها قولان:

أحدهـما: أنهـا آيـاتٌ بعينهـا تتشـابه عـلى كلّ النـاس، والثـاني- ووضـحَ أنّـه الصحيـح- أنّ التشـابه أمـرٌ نسـبي، فقـد يتشـابه عنـد هـذا مـا لا يتشـابه عنـد غـيره.

ووضّح كيفية التعامل مع المتشابه بأنّ هذا المتشابه إذا عرف معناه أصبح محكمًا.

وذكـر- أيضًـا- أنّ المحكـم هـو الـذي لا يحتمـل إلّا أمـرًا واحـدًا مثـل: الأمـر والنهـي، والمتشـابه كـ: الوعـد والوعيـد. ووضّـح معنـى قولـه تعـالى: ﴿وَمَـا يَعْلَـمُ تَأْوِيلَـهُ إِلاَّ اللـهُ ﴾ أنـه مثـل معرفـة السـاعة فإنّنـا نعلـم حقيقتهـا ولكـن لا نعلـم وقتَهـا، وأنّ معنـى قولـه تعـالى: ﴿وَلَقَـدْ جِئْنَاهُـم بِكِتَـابٍ فَصَّلْنَـاهُ عَـلَى عِلْـمٍ هُـدًى وَرَحْمَـةً لِّقَـوْمٍ يُؤْمِنُـونَ {٥٢/٧} هَـلْ يَنظُـرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَـهُ يَـوْمَ يَـأْتِي تَأْوِيلُـهُ يَقُـولُ الَّذِيـنَ

(١) هو الإمام الحافظ الناقد المجود أبو بكر غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عطية المحاربي الأندلسي الغرناطي المالكي، ولد عام ٤٨٠ هـ ومِن أهمّ مؤلفاته تفسير المحرّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، توفي سنة ٥١٨ هـ راجع سير أعلام النبلاء: ١٩/ ٥٨٦، الوافي بالوفيات: ٦/ ٤٨.

(٢) هو الإمام محمد بن محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبري، ولد عام ٢٢٤، وتوفي عام ٣٢٠هـ من أهمّ مؤلفاته جامع البيان عن تأويل آي القرآن، وله تاريخ الأمم والملوك، راجع تهذيب الأسماء واللغات للنووي: ١/ ٩٨.

(٣) انظر: الفتاوى، (٣٨٥/١٣) وما بعدها بتصرف.

نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ...﴾ [الأعراف: ٥٢، ٥٣] يقول: إنّ الله فصّل الكتاب وبيّنه بحيث لا يشتبه، وأمّا المقصود بـ﴿تَأْوِيلَهُ ﴾: مجيء ما أخبر القرآن بوقوعه من القيامة وأشراطها كـ: الدّابة، ويأجوج ومأجوج، وطلوع الشمس من مغربها وغيرها[(١)].

الوجوه والنّظائر:

عرّف شيخُ الإسلام ابن تيمية الوجوهَ والنظائر، فقال: الأسماء المشتركة في اللفظ هي من «المتشابه»، وبعض «المتواطئة»- أيضًا- من المتشابه، ويسمّيها أهل التفسير: «الوجوه والنظائر»، وصنّفوا كتب «الوجوه والنظائر»؛ فالوجوه في الأسماء المشتركة، والنّظائر في الأسماء المتواطئة، وقد ظنّ بعضُ أصحابنا المصنّفين في ذلك أنّ الوجوه والنظائر جميعًا في الأسماء المشتركة، فهي نظائر باعتبار اللفظ، ووجوه باعتبار المعنى، وليس الأمر على ما قاله، بل كلامهم صريح فيما قلناه لمَن تأمّله[(٢)].

الناسخ والمنسوخ:

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- وذلك أثناء حديثه عن تفسير قوله تعالى: ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ﴾، يقول: في قوله تعالى: ﴿فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ﴾ [الحج: ٥٢]، والنسخ هنا: رفع ما ألقاه الشيطان، لا ما شرعه الله.

يقول: إن الله قد جعل المحكم مقابل المتشابه تارة، ومقابل المنسوخ تارة أخرى، والمنسوخ يدخل في اصطلاح السلف- العام: كلّ ظاهر ترك ظاهره لمعارض راجح كتخصيص العام وتقييد المطلق؛ فإن هذا متشابه لأنه يحتمل معنيين، فيدخل فيه المجمل فإنه متشابه، وإحكامه رفع ما يتوهّم فيه من المعنى الذي ليس بمراد، وكذلك ما رفع حكمه، فإن في ذلك جميعه نسخًا لما يلقيه الشيطان في معاني القرآن، ولهذا كانوا يقولون: هل عرفت الناسخ من المنسوخ؟ فإن

---

(١) انظر: الفتاوى، (١٣/١٣٤) وما بعدها، ص(٢٧٨) بتصرف.

(٢) انظر: الفتاوى، (١٣/٢٧٦) وما بعدها.

عـرف الناسـخ عـرف المحكـم، وعـلى هـذا فيصـح أن يقـال: المحكـم والمنسـوخ كـما يقـال المحكـم والمتشـابه[1].

الحقيقة والمجاز:

تحـدّث شـيخُ الاسـلام- رحمـه اللـه- عـن الحقيقـة والمجـاز، وأجـاب عـن أسـئلةٍ بعـض النـاس في ذلـك، وتناقـش مـع بعضهـم في هـذه المسـائل، وذكـر في ذلـك أنّ اللـه - عـز وجـل - إذا وصـف نفسـه بصفـةٍ أو وصفـه بهـا رسـولُه أو وصفـه بهـا المؤمنـون الذيـن اتّفـق المسـلمون عـلى هدايتهـم ودرايتهـم فصرفهـا عـن ظاهرهـا اللائـق بجـلال اللـه- سـبحانه- وحقيقتهـا المفهومـة منهـا إلى باطـن يخالـف الظاهـر ومجـاز ينـافي الحقيقـة؛ لا بـدّ مـن أربعـة أشـياء:

أحدهـما: أنّ ذلـك اللفـظ مسـتعمَل بالمعنـى المجـازي؛ لأن الكتـاب والسـنة وكلام السـلف جـاء باللسـان العـربي، ولا يجـوز أنْ يـراد بـشيء منـه خـلاف لسـان العـرب، أو خـلاف الألسـنة كلّهـا، فـلا بـدّ أن يكـون ذلـك المعنـى المجـازي مـا يـراد بـه اللفـظ، وإلّا فيمكـن كلّ مُبطـل أنْ يفـسّر أي لفـظ بـأي معنـى سـنَح، وإنْ لم يكـن لـه أصـلٌ في اللغـة.

والثـاني: أنْ يكـون معـه دليـل يوجـب صرفَ اللفـظ عـن حقيقتـه إلى مجـاز، وإلّا فـإذا كان يسـتعمل في معنـى بطريـق الحقيقـة وفي معنـى بطـرق المجـاز لم يجـزْ حملـه عـلى المجـازي بغـير دليـلٍ يوجـب الصرف بإجـماع العقـلاء، ثـمّ إنِ ادّعـى وجـوب صرفـه عـن الحقيقـة فـلا بـدّ لـه مـن دليـلٍ قاطـع عقلي أو سـمعي يوجـب الـصرف، وإنِ ادّعـى ظهـور صرفـه عـن الحقيقـة فـلا بـدّ مـن دليـلٍ مرجّـح للحمـل عـلى المجـاز.

الثالـث: أنـه لا بـدّ أن يسـلم ذلـك الدليـل– الصـارف- عـن معـارض، وإلّا فـإذا قـام دليـلٌ قـرآني أو إيمـاني يبـيّن أنّ الحقيقـة مـرادة امْتنـع تركهـا، ثـمّ إن كان هـذا الدليـل نصًّـا قاطعًـا لم يلتفـتْ إلى نقيضـه، وإن كان ظاهـرًا فـلا بـدّ مـن الترجيـح.

الرابـع: أنّ الرسـول ﷺ إذا تكلّـم بـكلام وأراد بـه خـلافَ ظاهـره وضـدّ حقيقتـه؛ فـلا بـدّ أن يبـينّ للأمّـة أنـه لم يـردْ حقيقتـه، وأنـه أراد مجـازَه سـواء عيّنـه أو لم يعيّنـه، لاسـيّما في الخطـاب العلمـي الـذي

(١) انظر: الفتاوى، (٢٧٢/١٣، ٢٧٣).

أريـد منهـم فيـه الاعتقـاد والعلـم دونَ عمـل الجـوارح؛ فإنـه - تعـالى - جعـل القـرآن نـورًا وهـدًى وبيانًـا للنـاس وشـفاءً لمـا في الصـدور، وأرسـل الرسـل ليبيّنـوا للنـاس مـا أنـزل إليهـم، وليحكـم بـين النـاس فيـما اختلفـوا فيـه، ولئـلّا يكـون عـلى اللـه حجـة بعـد الرسـل.

ويتابـع شـيخُ الإسـلام الـكلامَ في هـذا الموضـوع مُبينًـا أنّ النبـي ﷺ يسـتحيل عليـه هـو والصحابـة أنْ يذكـروا شـيئًا يـراد بـه خلافـه دون قرينـة توضّـح ذلـك، أو يكـون قاصـدًا بكلامـه كلامًـا لا يفهمـه سـوى خاصّـة النـاس أو أفـراد منهـم؛ فلقـد جـاء للنـاس كافّـة عـلى اختـلاف صفاتهـم وعقولهـم.

وتنـاول- أيضًـا- شـيخُ الإسـلام في هـذا الموضـوع تأويـلَ الصفـات وحمـلَ الـكلام عـلى غـير معنـاه الحقيقـي، والمعنـى الحقيقـي للصّفـة أوضـح وأبْـيَنَ، مثـل صفـة اليـدِ للـه - عـز وجـل -، وقـد أوّلهـا بعضهـم بالقـوّة والقـدرة، يذكـر شـيخ الإسـلام كثـيرًا مـن الأدلـة التـي تناقـش هـذه الأقـوال، ويوضّـح أنّ اللـه - عـز وجـل - لـه يـدٌ ولكنـه منـزّه عـن أنْ يشـبه أحـدًا مِـن خلقـه، وهـو مـا جـاء بالسـنة ويـدلّ عليـه العقـل، وذكـر كثـيرًا مـن هـذه الأدلـة التـي تؤكّـد هـذا القـول.

وجـاءت هـذه الرسـالة في الحقيقـة والمجـاز- أيضًـا- في الجـزء العشريـن مـن كتـاب الفتـاوى، وتحـدّث عــن الذيــن قالــوا بهــذا التقســيم، وهُــم مِــن المعتزلــة وغيرهــم، ونفــى أقــوالَ بعــض النــاس مِــن أنّ الأصوليـين هُـم مَـن قالـوا بذلـك، وذكـر بـأنّ مَـن اعتقـد أنّ المجتهديـن المشـهورين وغيرهـم مِـن أئمّـة السـلف قسّـموا الـكلام إلى حقيقـة ومجـاز؛ كان جاهـلًا بهـم، وأنـه- أيضًـا- مَـن قـال: إنّ ذلـك في كلام العـرب توقيفًـا، أو مَـن ظـنّ أنّـه مـن كلام الأئمـة المتأخّريـن؛ كان هـذا مِـن جهْلـه، ومَـن قـال بهـذا التقسـيم ليـس فيهـم إمـام فـنّ مِـن فنـون الإسـلام لا التفسـير ولا الفقـه ولا الحديـث ولا اللّغـة ولا النحـو، بـل أئمّـة النحـو لم يقسـموا تقسـيم هـؤلاء.

إعجاز القرآن:

تحـدّث شـيخُ الإسـلام ابـن تيميـة عـن إعجـاز القـرآن، وأنـه المعجـزة التـي أنزلهـا اللـه عـلى محمـد ﷺ كـما أنـزل المعجـزات عـلى الأنبيـاء- عليهـم السـلام- مـن قبْـل، فيقـول- رحمـه اللـه- في ذلـك: القـرآنُ كلام اللـه، وفيـه الدعـوة والحجّـة، فلـه بـه اختصـاصٌ عـلى غـيره، كـما ثبـت عنـه في الصّحيـح أنـه قـال:

«ما مِن نبي من الأنبياء إلّا وقد أوتي من الآيات ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»(١).

وجوهُ إعجاز القرآن:

تعدّدت وجوه إعجاز القرآن كما ذكر شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- جُملةً وتفصيلًا.

أمّا الجُملة: فإنه قد علمت الخاصّة والعامّة من عامّة الأمم، علمًا متواترًا أنه هو الذي أتى بهذا القرآن، وتواترت بذلك كلّ الأخبار أعظم مِن تواترها بخبر كلّ أحدٍ من الأنبياء والملوك والفلاسفة وغيرهم.

وأمّا التّفصيل: فإن القرآن نفسَه فيه تحدّي الأمم بالمعارضة أن يأتوا بمثله، قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور: ٣٤] فتحدّاهم بعشر سور، وتحدّاهم بسورة واحدة ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّمَا أُنزِلِ بِعِلْمِ اللّهِ﴾ [هود: ١٤]، وكان هذا التحدي في مكة، ثمّ تحدّاهم- أيضًا- في المدينة بعد الهجرة، فقال تعالى في سورة البقرة، وهي سورة مدنية: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُواْ شُهَدَاءكُم مِّن دُونِ اللّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [البقرة: ٢٣]، ثمّ قال: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤].

وهذا التحدّي- أيضًا- يضمّ العامّ والخاصّ، قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: فعلم بأمره أن يخبرَ بالخبر جميعَ الخلق معجزًا لهم، قاطعًا بأنّهم إذا اجتمعوا كلّهم لا يأتون بمثل هذا القرآن ولو تظاهروا وتعاونوا على ذلك، وهذا التحدي

(١) التفسير الدقيق، مقدمات في فهم القرآن الكريم، ص(١٥٢).

والدّعاء هو لجميع الخلق، وهذا قد سمعه كلّ مَن سمع القرآن، وعرفه الخاصّ والعام، وعلم مع ذلك أنّهم لم يعارضوه ولا أتوا بسورة مثله[1].

يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: وكوْن القرآن أنه معجزة ليس هو من جهة فصاحتِه وبلاغته فقط، أو نظمِه وأسلوبه فقط، ولا من جهة إخباره بالغيب فقط، ولا من جهة صرف الدواعي عن معارضته فقط، ولا من جهة سلب قدرتهم على معارضته فقط؛ بل هو آية بيّنة معجزة من وجوه متعدّدة، من جهة اللفظ ومن جهة النظم ومن جهة بلاغته في دلالة اللّفظ على المعنى، ومن جهة معانيه التي أمر بها، ومعانيه التي أخبر بها عن الله- تعالى- وأسمائه وصفاته وملائكته وغير ذلك، ومن جهة معانيه التي أخبر بها عن الغيب الماضي وعن الغيب المستقبل، ومن جهة ما أخبر به عن المعاد، ومن جهة ما بين فيه من الدلائل اليقينية والأقيسة العقلية التي هي الأمثال المضروبة، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُورًا ﴾ [الإسراء: ٨٩]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٤][2].

أمّا الدّليل التفصيلي فيقال: نفسُ نظم القرآن وأسلوبه عجيبٌ بديع، ليس مِن جنس أساليب الكلام المعروفة، ولم يأت أحدٌ بنظير هذا الأسلوب؛ فإنه ليس من جنس الشعر ولا الرّجز ولا الرسائل ولا الخطابة، ولا نظمه نظم شيء من كلام الناس؛ عربِهم وعجمِهم.

ونفسُ فصاحة القرآن وبلاغته هذا عجيبٌ خارقٌ للعادة، ليس له نظير في كلام جميع الخلق، وبسط هذا وتفصيله طويل، يعْرفه من له نظر وتدبّر.

ونفسُ ما أخبر به القرآن في بابِ توحيد الله وأسمائه وصفاته أمرٌ عجيب خارقٌ للعادة، لم يوجد مثل ذلك في كلام بشرٍ؛ لا نبي ولا غير نبي.

---

(١) التفسير الدقيق، ص(١٥٣، ١٥٤) بتصرف.

(٢) دقائق التفسير الجامع لتفسير الإمام ابن تيمية، مقدمات في فهم القرآن، ص(١٥٥).

وكذلك ما أخبر به عن الملائكةِ والعرش والكرسي والجنّ وخلق آدم وغير ذلك، ونفس ما أمرَ به القرآن من الدّين والشرائع كذلك، ونفس ما أخبر به من الأمثال وبيّنَه مِن الدّلائل هو- أيضًا- كذلك.

ومن تدبّر ما صنفه جميعُ العقلاء في العلوم الإلهية والخلقية والسياسيّة وجد بينه وبين ما جاء في الكتب الإلهية: التوراة والإنجيل والزبور وصحف الأنبياء، وجد بين ذلك وبين القرآن من التفاوت أعظم ممّا بين لفظه ونظمه، وبين سائر ألفاظ العرب ونظمهم.

فالإعجازُ في معناه أعظمُ وأكثر مِن الإعجاز في لفظه، وجميعُ عقلاء بني آدم عاجزون عن الإتيان بمثل معانيه، أعظم مِن عجز العرب عنِ الإتيان بمثل لفْظه[1].

وما كتبته في هذا المبحث هو القليلُ جدًّا بالنسبة لما قدّمه شيخ الإسلام- رحمه الله، ولا مجالَ في هذا المبحث أنْ أذكر كلّ التفاصيل، ولكنْ أردت فقط أن أشير إلى هذه العلاقة.

ولقد كُتب كثيرٌ من الرسائل والكتب حول هذه المعاني لمَن أراد أن يضع يدَه حول كلّ هذه التفاصيل، ومنها: المقدّمات في فهم القرآن التي كُتبت كمقدّمة لما قدّمه في التفسير في كتابي التفسير الكبير والتفسير الدّقيق، وأيضًا كتاب إعجاز القرآن الكريم عند شيخ الإسلام لمحمد بن عبد العزيز العواجي، مقدّمة التفسير بها كلّ ما كتبه شيخ الإسلام من مقدّمات فهم القرآن.

***

(١) انظر: كتاب إعجاز القرآن عند شيخ الإسلام، محمد بن عبد العزيز العواجي، ص(١١٥، ٢٩٢).

المبحثُ السّابع

ألوانُ التفسير عند شيخ الإسلام

تنـوّع أسـلوب شـيخ الإسـلام في تناولـه للتفسـير مـا بـين التفسـير التحليـلي للسـورة وتناولـه لآياتهـا ومعانيهـا ومفرداتهـا بالتحليـل والتوضيـح، ومـا بـين تناولـه للسـورة تفسـيرًا موضوعيًـا بأخـذ السـورة كيانًـا متكامـلًا يبنـى آخرُهـا عـلى أوّلهـا؛ فيذكـر مـا تتناولـه السـورة مـن موضوعـات، ومـا تهـدف إليـه مـن مفاهيـم، وسـنذكر نمـاذج توضيحيـة عـلى ذلـك، أو تفسـيرًا إجماليًّـا.

أوّلًا: التفسير التحليلي:

تناول شيخُ الإسلام- رحمه الله- سورة الفاتحة والإخلاص والمعوذتين والنّور؛ تفسيرًا تحليليًّا.

تنـاول الشـيخُ- رحمـه اللـه- سـورة الفاتحـة فبـيّن فضلهـا، وقـام بتفسـير آياتها مفـسّرًا كلّ آيـة بمفردها، مُعطيًـا لـكلّ آيـة منهـا حقّهـا في التفسـير، مبيّنًـا معـاني كلماتهـا، وموضّحًـا علاقـة الآيـات ببعضهـا، مبيّنًـا لدلالـة الآيـة بأكملهـا.

ومنهجُ شيخ الإسلام في أثناء تناولِه للتفسير التحليلي:

هـو أنْ يركـز دائمًـا عـلى مـا أشْـكِل فهمُـه مـن المعـاني، مُتتبعًـا ذلـك عـن طريـق مـا يماثلهـا مـن كتـابِ اللـه، ثـمّ سـنة الرسـول ﷺ، ثـمّ أقـوال الصحابـة، ثـمّ التابعـين، والتحليـلات اللّغويـة للكلـمات، مُختـارًا أرجـح الأقـوال الدّالـة عـلى المعنـى، ومفـسّرًا لـكلّ المعـاني التـي أشْـكِلت في تفسـيرها عـلى المفسريـن.

ثانيًا: التفسير الموضوعي:

تناول الشيخُ التفسيرَ لسور القرآن موضوعيًّا عن طريق المستويات الآتية:

١ـ تناوله له على مستوى السورة.

٢ـ تناوله له على مستوى الكلمة أو الموضوع.

٣ـ تناوله له على مستوى القرآن.

أولًا: تناولُه له على مستوى السورة:

يظهـر ذلـك واضحًـا عنـد تناولـه لقضيّتـين أساسـيّتين مـن خـلال تفسـير سـورتي آل عمـران والنسـاء، ولقـد عنـي الشـيخُ- رحمـه اللـه- بهاتـين القضيّتـين عنايـة خاصّـة، واحتلـت كلّ منهـما مكانـةً هامّـة في تراثـه.

١ـ القضية الأولى هي: موقف سورة آل عمران من أهل الكتاب وخاصّة النصارى.

٢ـ القضية الثانية هي: موقف ابن تيمية من النّفس وطبيعتها، وأحوالها، وأمراضها وعلاجها.

في القضيـة الأولى، تنـاول شـيخُ الإسـلام موقـفَ النّصـارى مـن الإسـلام ورسـوله مِـن خـلال تفسـيره لآيـات سـورة آل عمـران، ولقـد عنـي ابـنُ تيميـة في هـذه القضيـة بجمـع آراء فـرَقِ النصـارى القديـم منهـا والحديـث، وناقـش دعواهـم في طبيعـة المسـيح، وهـل هـي طبيعـة لاهوتيـة، أو ناسـوتية، أو هـي مزيـج مـن اللاهـوت والناسـوت، وتـدلّ مناقشـة ابـن تيميـة لآراء النصـارى عـلى خـبرةٍ ودرايـة بأقوالهـم وأصـول آرائهـم، فتنـاول أقوالَهـم بالتحليـل والمقارنـة والنّقـد، ويضـع المقدّمـات ليخـرج منهـا بنتائـج مـا كانـت تخطـر عـلى ذهـن أحـدٍ مـا لم ينبـئ بهـا ابـنُ تيميـة.

كـما ناقـش دعواهـم في أنّ المسـيحيّة هـي آخـر الأديـان السـماوية نـزولًا، وافتراؤهـم عـلى الحـقّ بقولهـم: إنّ محمـدًا بُعـث إلى العـرب خاصّـة، وتحريفهـم الكلِـم بقولهـم: المسـيح ابـن اللـه، أو إنّ اللـه ثالـث ثلاثـة.

٣ـ أمّـا القضيـة الثالثـة التـي شـغلت بقيّـة هـذا الجـزء، فهـي تلـك الدراسـة النفسـيّة المتعمّقـة التـي قدّمها شـيخُ الإسلام في تفسـيره للآيـة الكريمـة: ﴿مَّـا أَصَابَـكَ مِـنْ حَسَـنَةٍ فَمِـنَ اللـهِ وَمَـا أَصَابَـكَ مِـن سَـيِّئَةٍ فَمِـن نَّفْسِـكَ ﴾ [النسـاء: ٧٩]، وتتّسـم هـذه الدراسـة بعمـق النظـرة في أحـوال النفـس وأمراضهـا وعلاجهـا، فـكان يجمـع في الموقـف الواحـد بـين الآيـة والحديـث والأثـر الـوارد في النفـس، كـما يوضّـح النتائـج السـيئة التـي تترتـب عـلى ابتعـاد النفـس عـن المنهـج القـرآني في السـلوك والتربيـة[1].

ثانيًا: تناولـه لبعـض الموضوعـات القرآنيـة تفسـيراً موضوعيًّـا مثـل: المحبـة، التضمـين، المثـل، الفرقـان، السـنن، الباقيـات الصالحـات، الحسـنة والسـيئة.

(١) انظر: التفسير الدقيق، ص(٢٧٣، ٢٧٤).

وتناوله لهذه الموضوعات تفسيراً موضوعيًّا قد سبق الحديث عنها، وفي هذا الموضع نذكر مثالاً يوضّح ذلك المعنى ويؤكّده من خلال تناوله لموضوع (الحسنة والسيئة).

قال تعالى: ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النساء: ٧٩].

بيّن الشيخُ معنى الحسنة والسيئة من خلال تفسيره لهذه الآية تفسيراً موضوعيًّا موضّحًا تلك المعاني من خلال ذكْره للآيات القرآنية واستنباط المعاني منها، ومؤكّدًا لذلك بأقوال المفسّرين، ووضّح أنّ الحسنة تعني النّعمة والنصر والعمل الحسن، والسيئة تعني المصيبة والهزيمة والفعل السيئ، وبيّن المقابلة بين النعمة والابتلاء، والطاعة والمعصية، وبيّن أنّ الحسنة تعقبها حسنة، وأنّ السيئة تعقبها سيئة.

أمّا تناوله للتفسير الموضوعي على مستوى الكلمة، فيظهر من خلال تناوله لكلمة ﴿شَهِدَ﴾ في الآية الكريمة: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {١٨/٣} إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلاَمُ ...﴾ [آل عمران: ١٨-١٩].

فتتبّع معنى كلمة ﴿شَهِدَ﴾ من خلال أقوال المفسرين، وجمع الآيات التي تحوي هذه الكلمة، وبيان دلالتها من خلال ما ذكر من الآيات، ثمّ ذكر بعض الأحاديث التي تضمّنت هذه اللفظة فبيّنت معناها، ثمّ ذكر مراتب الشهادة، ثمّ تحدّث عن كيفية هذه الشهادة، وأنها تارة بالقول وتارة بالفعل، وأنها مرّة عن طريق السمع ومرّة عن طريق البصر، فالسمع عن طريق الأنبياء، والبصر عن طريق رؤية الكون، وما خلق الله من الأنفس والأشياء، وقد تكون الشهادة علماً في قلوب العلماء[١].

التفسير الإجمالي:

ظهر التفسيرُ الإجمالي لسور القرآن الكريم واضحًا عند الشيخ، وذلك من خلال تناوله لسورة البقرة؛ حيث أجمل الشيخ ما تضمّنته السورة من أحداثٍ ومعانٍ في بداية تفسيره للسورة، بعد ذلك قامَ بتفسير ما أشْكل من الآيات ففسّرها تفسيراً تحليليًّا، وأيضًا في سورة مريم، يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله: وقد ذكرتُ في مواضع ما اشتملت عليه «سورة البقرة» من تقرير

(١) التفسير الدقيق، ص(٢٨٥-٢٩٠).

أصـول العلـم وقواعـد الديـن: إنّ اللـه- تعـالى- افتتحهـا بذكـر كتابـه الهـادي للمتقـين، فوصـف حـالَ أهـل الهـدى ثـمّ الكافريـن ثـمّ المنافقـين، فهـذه «جُمـل خَبريـة»، ثـمّ ذكـر «الجُمـل الطَلَبيّـة» فدعـا النـاس إلى عبادتـه وحـده، ثـمّ ذكـر دلائـل ذلـك مـن فـرْش الأرض وبنـاء السـماء وإنـزال المـاء وإخـراج الثـمار رزقًـا للعبـاد، ثـمّ مـرّر «الرسـالة»، وذكَـر «الوعـد» و«الوعيـد»، ثـمّ ذكـر «مبـدأ النبـوة والهـدى»، ومـا بثّـه في العـالم مـن الخلْـق والأمـر، ثـمّ ذكـر تعليـم آدم الأسـماء وإسـجاد الملائكـة لـه لمـا شرّفـه مـن العلـم، فـإنّ هـذا تقريـر لجنـس مـا بُعـث بـه محمـد ﷺ مـن الهـدى وديـن الحـق، فقـصّ جنـسَ دعـوة الأنبيـاء، ثـمّ انتقـل إلى خطـاب بنـي إسرائيـل وقصـة مـوسى معهـم، وضمّـن ذلـك تقريـر نبوتـه إذْ هـو قريـن محمـد، فذكـر آدم الـذي هـو أوّل، ومـوسى الـذي هـو نظـيره، وهُـما اللّـذان احتجّـا، ومـوسى قتـل نفسًـا فغفـرَ لـه، وآدم أكلَ مـن الشـجرة فتـاب عليـه، وكان في قصّـة مـوسى ردٌّ عـلى الصابئـة ونحوهـم ممّـن يقـرّ بجنـس النبـوات ولا يوجـب اتّبـاع مـا جـاءوا بـه، وقـد يتأوّلـون أخبـار الأنبيـاء، وفيهـا ردّ عـلى أهـل الكتـاب بمـا تضمّنـه ذلـك مـن الأمـر بالإيمـان بمـا جـاء بـه محمـد ﷺوتقريـر نبوتـه، وذكـر حـال مَـن عـدل عـن النبـوة إلى السّـحر، وذكـر النسـخ الـذي ينكـره بعضهـم، وذكـر النصـارى وأنّ الأمّتـين لـن يرضـوا حتـى يتّبـع ملّتهـم، كلّ هـذا في تقريـر أصـول الديـن مـن الوحدانيـة والرسـالة، ثـمّ أخـذ- سـبحانه- في بيـان شرائـع الإسـلام عـلى ملّـة إبراهيـم، فذكـر إبراهيـم الـذي هـو إمـام، وذكـر البيـت الـذي بتعظيمـه يتميّـز أهـل الإسـلام عـمّا سـواهم، وذكـر اسـتقباله وقـرّر ذلـك، فإنـه شـعار الملّـة بـين أهلهـا وغيرهـم، ولهـذا يقـال: (أهـل القبلـة)، كـما يقـال: «مَـن صـلّى صلاتنـا واسـتقبل قبلتنـا وأكل ذبيحتنـا؛ فهـو المسـلم».

وذكـر مـن المناسـك مـا يختـصّ بالمـكان؛ وذلـك أنّ الحـج لـه مـكان وزمـان، والعمـرة لهـا مـكان فقـط، والعكـوف والركـوع والسـجود شرعَ فيـه ولا يتقيّـد بـه لا بمـكان ولا بزمـان، لكـنّ الصـلاة تتقيّـد باسـتقباله، فذكـر- سـبحانه- هـذه الأنـواعَ الخمسـة مـن العكـوف والصـلاة والطـواف والعمـرة والحـج، والطـواف يختـصّ بمـكان فقـط، ثـمّ أتبـع ذلـك مـا يتعلّـق بالبيـت مِـن الطـواف بالجبَلـين، وأنـه لا جنـاح فيـه جوابًـا لمـا كان عليـه الأنصـار في الجاهليـة مـن كراهـة الطـواف بهـما لأجـل إهْلالهـم لمَنـاة، وجوابًـا لقـوم توقّفـوا عـن الطـواف بهـما.

وجاء ذكرُ الطواف بعد العبادات المتعلّقة بالبيت، بل وبالقلوب والأبدان والأموال بعدما أمروا به مِن الاستعانة بالصّبر والصّلاة اللّذين لا يقوم الدين إلّا بهما، وكلّ ذلك مفتاح الجهاد والمؤسّس على الصبر؛ لأن ذلك مِن تمام أمر البيت؛ لأنّ أهل الملك لا يخالفون فيه، فلا يقوم أمرُ البيت إلّا بالجهاد عنه، وذكر الصبر على المشروع والمنْذور، وبين ما أنعمَ به على هذه الأمّة من البشرى للصابرين، فإنها أعطيت ما لم تعطَ الأمم قبلها، فكان ذلك مِن خصائصها وشعائرها كالعبادات المتعلّقة بالبيت، ولهذا يُقرن بين الحجّ والجهاد لدخول كلّ منهما في سبيل الله، فأمّا الجهاد فهو أعظم سبيل الله بالنصّ والإجماع، ولذلك الحجّ في الأصحّ كما قال: «الحجّ من سبيل الله».

فبيّن أنّ هذا معروف عند أهل الكتاب بذمّه لكاتم العلم، ثمّ ذكر أنه لا يقبل دينًا غير ذلك، ففي أوّلها: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ للهِ أَندَاداً ﴾ [البقرة: ٢٢]، وفي أثنائها: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللـهِ أَندَاداً ﴾ [البقرة: ١٦٥]، والأوّل نهي عام، والثاني نهيٌ خاص، وذكرها بعد البيت لينتهي عن قصد الأنداد المُضاهية له ولبيته من الأصنام والقبور ونحْو ذلك، ووحّد نفسه قبل ذلك وأنه ﴿ لاَّ إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٣]، ثمّ ذكر ما يتعلّق بتوحيده مِن الآيات، ثمّ ذكر الحلال والحرام، وأطلق الأمر في المطاعم؛ لأنّ رسول الله ﷺ بُعث بالحنيفية وشعارها وهو البيت، وذكر سماحتَها في الأحوال المباحة، وفي الدّماء ما شرعته من القصاص ومن أخذ الدّية، ثمّ ذكر العبادات المتعلّقة بالزمان، فذكر الوصيةَ المتعلّقة بالموت، ثمّ الصيام المتعلّق برمضان، وما يتّصل به من الاعتكاف؛ ذكَرَه في عبادات المكان وعبادات الزمان فإنه يختصّ بالمسجد وبالزمان استحبابًا أو وجوبًا بوقت الصيام، ووسطه أولًا بين الطواف والصّلاة؛ لأنّ الطواف يختصّ بالمسجد الحرام، والصّلاة تشرع في جميع الأرض، والعكوف بينهما، ثمّ أتبع ذلك بالنهي عن أكلِ الأموال بالباطل، وأخبر أنّ المُحرّم نوعان:

١ـ نوع لِعَينِه كالميتة.

٢ـ نوع لكسبه كالربا والمغصوب.

فأتْبـع المعنـى الثابـت بالمحـرم الثابـت تحريمـه لعينـه، وذكـرَ في أثنـاء عبـادات الزمـان المنتقـل، الحـرام المنتقـل، ولهـذا أتبعـه بقولـه تعـالى: ﴿يَسْـأَلُونَكَ عَـنِ الأهِلَّـةِ ...﴾ الآيـة [البقـرة: ١٩٠]، وهـي أعـلامٌ للعبـادات الزمنيّـة، وذكـر أنـه جعلهـا مواقيـتَ للنـاس في أمـر دينهـم ودنياهـم؛ لأنّ البيـت يحجّـه الملائكـة والجـن، فـكان هـذا- أيضًـا- في أنّ الحـج مؤقـتٌ بالزمـان كأنـه مؤقـت بالبيْـت المـكاني، ولهـذا ذكر بعـد هـذا مـن أحـكام الحـجّ مـا يختـصّ بالزمـان، مـع أنّ المـكان مِـن تمـام الحـج والعمـرة.

وذكـر المُحْـصر، وذكـر تقديـم الإحْـلال المتعلّـق بالمـال وهـو الهـدي عـلى الإحـلال المتعلّـق بالنفـس وهـو الحلـق، وأن المتحلّـل يخـرج مـن إحرامـه فيحـلّ بالأسـهل فالأسـهل، وهنـا كان آخـر مـا يحـلّ عـين الـوطء؛ فإنـه أعظـمُ المحظـورات، ولا يفسـد النّسـك بمحظـور سـواه.

وذكـر التمتّـع بالعمـرة إلى الحـج؛ لتعلّقـه بالزمـان مـع المـكان، فإنـه لا يكـون متمتعًـا حتـى يحـرمَ بالعمـرة في أشـهُر الحـج، وحتـى لا يكـون أهلُـه حـاضري المسـجد الحـرام- وهـو الأفقـي- فإنـه الـذي يظهـر التمتّـع في حقّـه لترفّهـه بسـقوط أحـدِ السـفرين عنـه، أمّـا الـذي هـو حـاضرٌ فسـيان عنـده تمتّـع أو اعْتمـر قبـل أشـهر الحـج، ثـمّ ذكـرَ وقـت الحـج وأنـه أشـهرٌ معلومـات، وذكـرَ الإحـرام والوقـوف بعرفـة ومزدلفـة؛ فـإنّ هـذا مختـصّ بزمـان ومـكان؛ ولهـذا قـال: ﴿فَمَـن فَـرَضَ فِيهِـنَّ الْحَـجَّ ﴾ [البقـرة: ١٩٧]، ولم يقـل: والعمـرة؛ لأنهـا تفـرض في كلّ وقـت، ولا ريـب أنّ السـنّةَ فـرضُ الحـج في أشـهره، ومِـن فـرض قبلـه خالـف السـنة فإمّـا أن يلزمـه مـا التزمـه كالنّـذر- إذْ ليـس فيـه نقـضٌ للمـشروع، وليـس كمَـن صـلى قبـل الوقـت، وإمّـا أن يلـزم الإحـرام ويسـقط الحـج ويكـون معتمـرًا، وهـذان قـولان مشـهوران.

ثـمّ أمـرَ عنـد قضـاء المناسـك بذكـره، وقضاؤهـا- واللـه أعلـم- قضـاءُ التفـث والإحـلال؛ ولهـذا قـال بعـد ذلـك: ﴿وَاذْكُـرُواْ اللـهَ فِي أَيَّـامٍ مَّعْـدُودَاتٍ﴾ [البقـرة: ٢٠٣]، وهـذا- أيضًـا- مِـن العبـادات الزمانيـة المكانيـة.

وذكـر أنّ الـبرّ ليـس أنْ يشـقي الرجـلُ نفسَـه، ويفعـل مـا لا فائـدة فيـه مِـن كوْنـه يـبرز للسـماء فـلا يسـتظلّ بسـقف بيتـه حتـى إذا أراد دخـولَ بيتـه لا يأتيـه إلّا مِـن ظهـره، فأخـبر أنّ الهـلال الـذي جعـل

ميقاتًا للحجّ شرع مثل هذا، وإنّما تضمّن شرع التقوى، ثمّ ذكر بعد ذلك ما يتعلّق بأحكام النكاح والوالدات، وما يتعلّق بالأموال والصدقات والربا والدّيون وغير ذلك، ثمّ ختمها بالدّعاء العظيم المتضمّن وضع الآصار والأغلال والعفو والمغفرة والرحمة وطلب النّصر على القوم الكافرين الذين هُم أعداء ما شرعه مِن الدين في كتابه المبين[1].

التفسيرُ الإجمالي لسورة مريم:

يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: سورة مريم مضمونُها تحقيقُ عبادة الله وحده، وأنّ خواصّ الخلق هُم عباده، فكلّ كرامة ودرجة رفيعة في هذه الإضافة، وتضمّنت الردّ على الغالين الذين زادوا في النّسبة إلى الله حتى نسبوا إليه عيسى بطريق الولادة، والردّ على المفرّطين في تحقيق العبادة وما فيها مِن الكرامة وجحدوا نعمَ الله التي أنعم بها على عباده المُصطفين.

افتتحها بقوله: ﴿ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾ [مريم: ٢] ونداؤه ربّه نداءً خفيًّا، وموهبته له يحيى، ثمّ قصّة مريم وابنها وقوله: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ﴾ [مريم: ٣٠].. إلخ؛ بيّن فيها الردّ على الغلاة في المسيح، وعلى الجفاة النافين عنه ما أنعم الله به عليه، ثمّ أمر نبيّه بذكر إبراهيم وما دعا إليه من عبادة الله وحدَه، ونهيه إيّاه عن عبادة الشيطان وموهبته له إسحاق ويعقوب، وأنّه جعل له لسانَ صدق عليًّا، وهو الثناءُ الحسن، وأخبر عن يحيى وعيسى وإبراهيم ببرّ الوالدين مع التوحيد، وذكر موسى وموهبته له أخاه هارون نبيًّا كما وهب يحيى لزكريا وعيسى لمريم وإسحاق لإبراهيم.

فهذه السورةُ سورة المواهب، وهي ما وهبَه الله لأنبيائه من الذريّة الطيبة والعمل الصالح والعلم النافع، ثمّ ذكر ذرية آدم لأجل إدريس ﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ [مريم: ٥٨] وهو إبراهيم، ومِن ذرية إبراهيم وإسرائيل إلى آخر القصّة.

ثمّ ذكر حال منكري المعاد، وحال مَن جعل له الأولاد وقرنَ بينهما، ثمّ ذكر إقسامَه حشدَهم والشياطين وإحضارَهم حول جهنم..

(١) راجع: التفسير الدقيق، من ص(١٩٥-١٩٩) بتصرف.

ثـمّ ذكـر حـالَ الذيـن قالـوا: اتّخـذ الرحمـن ولـدًا، فنفـى الـولادةَ عـن نفسـه، وردّ عـلى مَـن أثبتهـا، وأثبـتَ المـودةَ ردًّا عـلى مَـن أنكرهـا؛ فقـال: ﴿سَـيَجْعَلُ لَهُـمُ الرَّحْمَـنُ وُدًّا﴾ [مريـم: ٩٦][1].

خلاصةٌ واستنتاج:

وبعدَ هذه الرحلة، يمكننا أن نقول:

بلغـت منزلـةُ ابـن تيميـة في التفسـير منـزلاً رائعًـا وبهَـرَ علـماء عـصره بفهمـه لكتـاب اللـه، وقدرتـه عـلى تفسـيره تفسـيرًا يجعـل القـرآن منهـج حيـاة للنـاس جميعًـا ينظمهـا ويجدّدهـا، ويصلـح مـا فسـد منهـا، ويطوّرهـا إلى الأفضـل والأحسـن.

لقـد كان- رحمـه اللـه- عـلى وعـي كبـيرٍ بمقاصـد القـرآن الكريـم، فحمـل لـواءَ التبليـغ للنـاس مقتديًـا برسـول الأنـام- عليـه الصـلاة والسـلام- والسـلف الصالـح - رضي اللـه عنهـم -.

اهتـمّ شـيخُ الإسـلام بالتفسـير خاصّـة، ولمَ لا.. وقـد أجـاد كلّ أدواتـه التـي توصّلـه إلى الفهـم الجيـد والاسـتنباط السـليم مِـن كتـاب اللـه؛ فغـزارةُ علومـه التـي تحدّثنـا عنهـا قبـلاً تشـهد لـه بذلـك.

اهتـمّ شـيخُ الإسـلام بالأقـوال الصحيحـة المنقولـة عـبْر السـلف بأسـانيدها الصحيحـة غالبًـا دونَ غيرهـا، فـبرعَ في التصانيـف التـي كتبهـا في التفسـير حتـى يقـال: إنّهـا كانـت أكـثرَ مـن ثلاثـين مجلـدًا، وأنّـه بشـهادة الكثـير مـن العلـماء كان إمامًـا في التفسـير.

لقـد كانـت ثقافتُـه التفسـيرية يـضربُ بهـا الأمثـال؛ فقـد كان يقـرأ في الآيـة الواحـدة مائـة وعشريـن تفسـيرًا.

لقد كتب عنه الكثيرُ من العلماء، وكان نموذجًا ومثالًا للدارسين من الأقدمين والمحدثين.

كان لابن تيمية- رحمه الله- طرقًا متعدّدة في التفسير:

١ـ التفسير التحليلي مثل: «التفسير الكبير والدقيق».

٢ـ التفسير الموضوعي مثل: «رسالة في السنن».

(١) انظر: التفسير الدقيق، ص(١٨٣) وما بعدها بتصرف يسير.

٣ـ كتابات في علوم القرآن مثل: «فضائل القرآن».

٤ـ المتشابه مثل: «تفسير آيات أشكلت».

٥ـ أصول التفسير مثل: «مقدّمته في أصول التفسير».

لقد كان لشيخ الإسلام طريقتُه الخاصّة لكلّ ما يعرض له من قضايا في كتاب الله، وهي الرجوع للكتاب (القرآن الكريم)، فهو يفسّر بعضه بعضًا، ثمّ السنة النبوية وأقوال الصحابة والتابعين الذين لهم لسانُ صدق، ويرى أنّ ذلك يحلّ النزاعات والتفرق في الأمّة، ولا يمكن للأمّة أن تجتمع على ضلالة، مستعملًا المقارنات والترجيح لبعض الأقوال على بعض، ومستعملًا للعقل أحيانًا المعتمد على ما فهمه من لغة العرب وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم، كما أنه اهتمّ بالأسانيد اهتمامًا بالغًا، محاولاً إسناد كلّ قول إلى صاحبه في أمانةٍ علمية تامّة.

كما أنه اهتمّ بمُشكل القرآن فلم تكنْ غايته كتابةَ التفسير لكتاب الله مرتبًا حسب سور القرآن تفسيرًا تحليليًّا لآياته، ولكنه اعتبرَ القرآن الكريم كتابًا لهداية البشر، فأخذ يتبع فيه القضايا والموضوعات، رابطًا بين سوره وآياته.

تعدّدت مصادرُ شيخ الإسلام في تفسير القرآن، وتأتي كالآتي بالترتيب: القرآن، ثمّ السنّة النبوية، أقوال الصحابة، وما أجمع عليه التابعون، ثمّ ما يرجّحه هو معتمدًا على بلاغته وفهمه للغة العرب، أو على كتب التفسير.

كما كان لابن تيمية أثرٌ بالغ على مَن جاء بعده مِن المفسّرين، وذلك مِن طريقة تفسيره وأصالة نهجه وتراثه وكتبه.

لقد وضع شيخُ الإسلام أصولًا للتفسير في كتابه: «مقدّمة في أصول التفسير» توضّح أنّ التفسير عنده على مراتب: فالقرآن أولًا، ثمّ السنة، ثمّ أقوال الصحابة والتابعين.

أين رقم واحد هنا؟! وما العنوان الرئيس لهذا التصنيف؟!

٢- الاكتفاء بالحديث النبوي في حال وجوده.

٣ـ أنّ المراسيل صحيحة إذا تعدّدت طرقها.

٤ـ أنه لا يجوز العدول عن أقوال الصحابة والتابعين إلى ما يخالفها.

٥ـ لا يجوز إحداث قول جديد في مسألة تنازع فيها السلف.

٦ـ أنّ الإسرائيليات للاستشهاد لا للاعتقاد.

٧ـ أنّ اللغة مصدر من مصادر التفسير، ورتبتها متأخّرة عمّا سبق من مصادر.

٨ـ أنه ليس في القرآن مجاز، وأنه لا شيء في القرآن لا يعرف معناه، والمتشابه نسبي، وأنّ الصحابة والتابعين كان لهم علمٌ بالمتشابه، وأنّ الصحابة وضعوا قواعد لفهمه وتفسيره.

اهتمّ شيخ الإسلام بعلوم القرآن، ووضع مبدأً للتعامل مع الإسرائيليات أنها للاستشهاد لا للاعتقاد، فتناول الإسرائيليات وأسباب النزول والناسخ والمنسوخ والمحكم والمتشابه.

المتشابه عند ابن تيمية ما لا نصل إلى معرفة معناه، وهذا أمرٌ نسبي، فإذا عرف المعنى أصبح محكماً، وهي مثل الأمور الغيبيات التي لم تحدّث بعْد، وستفسر أحداثها يومَ القيامة.

لقد تعدّدت وجوه إعجاز القرآن الكريم جملة وتفصيلاً، وتنوّعت أساليب شيخ الإسلام في التفسير ما بين التفسير التحليلي والتفسير الموضوعي والتفسير الإجمالي، وكان رائعًا وافيًّا منوعًا في أنواعه كلّها، وكان التحليلي مثل سورة الفاتحة والإخلاص والمعوذتين، والإجمالي كتفسيره لسورة البقرة وسورة مريم، والموضوعي كان على مستوى السورة، وذلك من خلال قضية آل الكتاب، النفس الإنسانية، وذلك من خلال سورتي: آل عمران والنساء، وعلى مستوى الموضوع مثل: المحبة والتضحية والمثل والفرقان والسنن والباقيات الصالحات.

الفصلُ الثّالث

جهودُ شيخ الإسلام في علم السنن الربّانية

(الجانبُ التّأصيلي)

المبحثُ الأوّل

روافدُ علمِ السنّة عند شيخ الإسلام- رحمه الله

لعلـم السّـنن مؤهّـلات ومواهـب يجـب أن تتوفّـر للأفـراد الذيـن يسـتطيعون إيجادهـا واسـتنباطها مِـن آيـات اللـه الكونيّـة المقـروءة والمنظـورة.

ولقـد أعطـى اللـه - عـز وجـل - البـشرَ مؤهّـلات فطريـة لـكي يكتشـفوا بهـا قوانينـه الربانيّـة، ويفيـدوا منهـا، ويسـخّروها حتـى يعمـروا هـذا الكـون، ويكـون الإنسـان خليفتَـه في أرضـه، فسـبحانه وتعـالى أعطـى الإنسـان السـمعَ والبـصر والعقـل والفـؤاد، وجعـل هـذه الحـواس مسـئولةً مسـئوليّة كبـيرة عـن اكتشـاف هـذه الآيـات الكونيـة التـي تحكـم الكـون، وكذلـك السّـنن الاجتماعيـة التـي تحكـم الأفـرادَ والجماعـات وأفعالهـم وسـلوكهم في الحيـاة، ومـا يكونـون عليـه مِـن أحـوال، ومـا يترتّـب عـلى ذلـك مـن نتائـج كــ: الرّفاهيـة، أو الضيـق في العيـش، والسّـعادة والشـقاء، والعـزّ والـذل، والرقـي والتخلـف، والقـوة والضعـف، ونحْـو ذلـك مـن الأمـور الاجتماعيـة.

ومـا يصيبهـم في الآخـرة مِـن عـذاب ونعيـم لهـا- أيضًـا- مؤهّـلات تسـاعد الإنسـان عـلى إيجادهـا وفهمهـا فهـمًا عميقًـا، ومنهـا أنّـه لا بـدّ للإنسـان أن يكـون دارسًـا للتاريـخ ولأحـوال الأمـمِ السّـابقة، وملـمًّا بالقصـص القرآنيـة، ودارسًـا للشريعـة الإسـلامية، وملـمًّا بالسـنة النبويـة الشريفـة.

والواعـي المتأمّـل لسـيرة النبـي ﷺ يلمـح معرفتَـه الجيـدة للسـنن الإلهيـة وتطبيقـه لهـا في كلّ مـكالات الحيـاة، فقـد كان ﷺ حريصًـا عـلى الأخـذِ بالأسـباب في كلّ شـأنٍ سـواء أكان خاصًّـا أو عامًّـا، وأكـثر مـا يـدلّ عـلى ذلـك تخطيطـه الجيّـد لأمْـر الهجـرة، وتنظيمـه لأمْـر الحـرب وأخـذه بأسـباب النـصر، ولقـد كان ﷺ يختـار الرجـالَ في الشـئون المختلفـة طبقًـا لمؤهّلاتهـم التـي تسـاعدهم عـلى اجتيـاز الأعـمال، ثـمّ يتابعهـم ويسـاندهم ويحاسـبهم ويكافؤهـم؛ فـكان كلّ أمـرِه تخطيطًـا وتنظيـمًا، ولـه المعرفـة البالغـة بمـا يصلـحُ المجتمعـات وينظمهـا ويوحّدهـا وكان خـبرُه في تنظيـم المجتمـع المـدني خـيرَ دليـلٍ عـلى ذلـك، ونجـده ﷺ في مجـال التربيـة يـربّي أصحابـه عـلى تحمّـل المسـئولية والإيجابيـة

تجاه المجتمع ويمثّل لهم ذلك بمجتمع السفينة في قوله: «مثلُ القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضُهم أعلاها وأصاب بعضُهم أسفلها، وكان الذين في أسفلها إنْ أرادوا الماء مرّوا على مَن فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذِ مَن فوقنا، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا وهلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوْا ونجوا جميعً»[١]. تصويرٌ دقيق لسنن الله تعالى في الأجسام والمجتمعات، فإذا كانت السفينة يحكمها قانونُ الطفو فإنّ المجتمع يحكمه قانونُ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وكقوله: «مثلُ المؤمنين في توادّهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائرُ الجسد بالحمّى والسهر»[٢].

وكقوله: «المؤمنُ للمؤمن كالبنيان يشدّ بعضُه بعضًا» [٣].

ومِن أروع ما يدلّ على حرص الرسول على تعلّم أصحابه وأمّته إدراك السنن الإلهية قولُه لزياد بن لبيد: بعد أنْ ذكر شيئًا وقال: وذلك عند ذهاب العلم، قلنا: يا رسولَ الله، وكيف يذهب العلمُ ونحن نقرأ القرآن ونقرؤه أبناءنا، وأبناؤنا يقرءونه أبناءهم إلى يوم القيامة؟ فقال: «ثكلتك أمّك يا ابن لبيد، إنْ كنت لأراك مِن أفْقه رجلٍ بالمدينة، أو ليس هذه اليهود والنصارى يقرءون التوراة والإنجيل ولا ينتفعون ممّا فيهما بشيء» [٤].

وهذا الحديثُ الشريف يوضّح إرشاد الرسول لأصحابه إلى أمرِ السّنن التي تعمّ الجميع وتمضي بلا استثناء، وفي هذا إجابةٌ عن السؤال الحائر على شفاه المسلمين: كيف يكونون مسلمين وتظلّ أحوالهم بهذا التخلّف والتأخّر والجمود؟ وقد صاغ شوقي ذلك في قوله:

---

(١) صحيح البخاري، كتاب الشركة، باب (هل يقرع في القسمة والاستهام فيه). والترمذي، كتاب الفتن. وأحمد (أول مسند الكوفيّين).

(٢) مسلم ١٩٩٩/٤.

(٣) صحيح البخاري، كتاب الصلاة، باب (تشبيك الأصابع في المسجد وغيره). ومسلم، كتاب البر والصلاة والآداب.

(٤) ذكره ابن كثير، جـ٢ ص ٧٦.

وقل يا رسولَ الله يا خيرَ مُرسل | أبثّك ما تدري مِن الحسرات
شعوبُك في شرق البلاد وغربها | كأصحاب كهفٍ في عميق سُبات
بأيْمانهم نوران ذكرٌ وسنّة | فما بالُهم في حالك الظلمات؟!!

فليس المراد من قولهﷺ: «وذلك عند ذهاب العلم» ارتفاعَ المعارف والثقافة من الكتب والرؤوس؛ بل ارتفاع الارتباط بينها وبين السّنن الكونية وإحسان التعامل بهذا العلم مع تلك السّنن.

والصحابةُ الكرام بدوْرهم كانوا على علمٍ ووعي بهذه السّنن، ومِن أبرز الذين ظهرت في حياتهم وأقوالهم هذه السّنن عمرُ بن الخطاب - رضي الله عنه - الذي قال عنه ابنُ مسعود عندما مات: «مات تسعةُ أعشار العلم، فقيل له: أتقولُ ذلك وفينا جلّة الصحابة؟! فقال: لم أردْ علم الفتيا والأحكام، إنّما أريد العلم بالله تعالى»[(١)(٢)].

لذلك نجد أنّ شيخَ الإسلام ابن تيمية كان يتمتّع بكثيرٍ من هذه المؤهّلات التي جعلتْه عميقًا في معرفة السّنن الإلهية، ومحاولته توظيفها، ودعوة الناس للعمل بها، ومنها:

أولًا: مكوّنات شخصية ابن تيمية- رحمه الله:

وهب الله - عز وجل - لكلّ إنسان شخصيته التي شاركت في إعدادها العديدُ من العوامل، ومِن هذه العوامل: الوالدين والبيئة، وقد تكونُ هذه العوامل معلماً واعيًا، أو كتابًا هادفًا يكون عاملاً رئيسًا في تكوين شخصية الإنسان، وقد امتلك شيخُ الإسلام ابن تيمية شخصية قويّة مميّزة جعلته عالمًا مميزًا في مجاله العلمي والدعوي، ولقد كان لهذه الشخصيّة مكوناتٌ، منها: مواهبه الفطرية التي وهبها الله له، ومنها: ما تلقّاه عن معلّميه، أو كتبٍ قرأها، أو حياته وما انصرف إليه، وعصره الذي عاش فيه سواء كان ما أفاده فيه بطريق الإيمان بأن تغذّى من عناصره

(١) تفسير المنار، جـ ٤/ ١١٥، وانظر الإحياء ٢٣/١.

(٢) راجع: مفهوم السنن الربانية، د/ رمضان خميس الغريب، ط: مكتبة الشروق، ط: ثانية، ص(٣١).

ووجهتـه ودفعتـه، أو كانـت اسـتفادتُه مِـن مقاومـة مـا فيـه، فأرهقـت قـواه وشـدّت عـوده، فـضرب عـلى أوتـاره ضربًـا عنيفًـا، فـإنّ العـالم ذا الشـخصيّة القويـة يسـتفيد مِـن عـصره سـلبًا أو إيجابًـا[١].

ويمكن تلخيص أهمّ هذه الصفات التي أهّلته لمعرفة علم السنة فيما يأتي:

١- التأمّل والعمق:

اتصـف ابـنُ تيميـة- رحمـه اللـه- بأنـه كان متأمّـلاً ومفكّـرًا ومدقّقًـا في الأمـور، «لقـد كان - رحمـه الله - يـدرس المسـائل متعمّقًـا فيهـا، بـل ربّمـا قـضى الليـالي متفكّـرًا في مسـألةٍ واحـدة حتـى يحـلّ مغلقهـا، وينتهـي إلى الأمـر الجـازم فيهـا، وكان يتأمّـل الآيـات والأحاديـث وقضايـا العقـل، ويـوازن، ويعايـش بفكـرٍ مسـتقيم حتـى ينبلـج لـه الحـقّ واضحًـا، لذلـك كان مـن أدقّ العلـماء وأقدرهـم عـلى اسـتنباط المعـاني مـن الأحاديـث وآيـات القـرآن الكريـم»[٢].

ولقـد جـاء في الكواكـب الدريـة أيضًـا: «وأمّـا مـا وهبـه اللـه- تعـالى- ومنحَـه مـن اسـتنباط المعـاني مِـن الألفـاظ النبويّـة والأخبـار المرويّـة، وإبـراز الدّلائـل منهـا عـلى المسـائل، وتبْيـين مفهـوم اللّفـظ ومنطوقـه، وإيضـاح المخصّـص للعـام، والمقيّـد للمطلـق، والنّاسـخ للمنسـوخ، وتبيـين ضوابطهـا ولوازمهـا وملزوماتهـا، ومـا يترتّـب عليهـا، ومـا يحتـاج فيهـا إليهـا مـمّا لا يوصـف، حتـى كان إذا ذكـرَ آيـة أو حديثًـا وتبـيّن معانيـه ومـا أريـد بـه؛ يعجـب العـالم الفطـنُ مـن حُسـن اسـتنباطه، ويدهشـه مـا سـمعه، أو وقـفَ عليـه منـه، فلـم يكـن ابـنُ تيميـة حافظًـا وداعيًـا فقـط، بـل كان متعمّقًـا لا يكتفـي فيـما يـدرس بالنظـرة الأولى، بـل يـردّد البـصر ويسـبر غـوْرَ المسـائل حتـى يصـل فيهـا إلى نتائـج محقّقـة، ومـا يصـل إليـه يُدهـش العقـول ويحـيّر الخصـوم».

٢- حضور البديهة:

وصـف الكثـيرُ مِـن العلـماء المعاصريـن شـيخَهم ابـن تيميـة بهـذه الصفـة، وأكّـدوا ذلـك، فهـو دائمًـا يجيـب عـلى الأسـئلة والمسـائل بصـورةٍ سريعـة، ويسترسـل في اسـتحضار المعـاني بطريقـةٍ يعجـبُ منهـا

(١) ابن تيمية حياته وعصره، لمحمد أبي زهرة، ص(٨٢) بتصرف.

(٢) ابن تيمية حياته وعصره ، لمحمد أبي زهرة، ص(٨٤).

السّـامع، يقـول أحـدُ تلامذتـه أبـو حفـص البـزّار: «كان ابـن تيميـة إذا شرعَ في الـدّرس يفتـح اللـه عليـه أسرار العلـوم وغوامـض ولطائـف ودقائـق، وفنونًـا، ونُقـولَ العلـماء، واستشـهادًا بأشـعار العـرب، وهـو مَـع ذلـك يجـري كـما يجـري التيـار، ويفيـض كـما يفيـض البحـر»[١].

٣- الاستقلال الفكري:

ظهـر الاسـتقلالُ الفكـري لابـن تيميـة واضحًـا مـن خـلال منهجِـه في التفسـير؛ فهـو لا يتبـع مَـن سـبقَه في الآراء، ولكنّـه يتتبّـع الدّلائـل حيـث كانـت في القـرآن ثـمّ السـنة النبويـة ثـمّ أقـوال الصحابـة، ويأخـذ أقـوالَ المفسّريـن فيتفحّصهـا، ويرجّـح أحـد الأقـوال عـن الأخـرى بمهـارةٍ عجيبـة، فهـو مسـتقلّ الفكـر لا يحكمـه سـوى القـرآن الكريـم، والسـنة النبويـة الشريفـة.

يقـول أبـو حفـص البـزار في ذلـك: «كان إذا وضـح لـه الحـقّ يعـضّ عليـه بالنواجـذ، واللـه مـا رأيـت أحـدًا أشـدّ تعظيـمًا للرسـول- عليـه الصـلاة والسـلام- ولا أحـرص عـلى اتّباعـه ونـصْرِ مـا جـاء بـه منْـه، حتـى كان إذا أوردَ شـيئًا مـن حديثـه في مسـألة، ويـرى أنـه لم ينسـخه شيء غـيره مـن حديـثٍ يعمـل بـه ويقـضي ويفتـي بمقتضـاه، ولا يلتفـت إلى قـول غـيره مـن المخلوقـين كائنًـا مَـن كان، وإذا نظـر المصنّـف إليـه بعـيْن العـدل يـراه واقفًـا مـع الكتـاب والسـنة لا يميلـه عنهـما قـول أحـدٍ كائنًـا مَـن كان، ولا يرقـب في الأخـذ بمعلومهـا أحـدًا، ولا يخـاف في ذلـك أمـيرًا ولا سـلطانًا ولا سـيفًا، ولا يرجـع عنهـما لقـوْل أحـد، وهـو متمسّـك بالعـروة الوثقـى»[٢].

وهـذه الصّفـة لا بـدّ منهـا لـدارس السّـنن الإلهيـة؛ لأنهـا تجعلـه قـادرًا عـلى فهْمهـا وتطبيقهـا، فهـي حاكمـةٌ عليـه حيـث هـو لا يحيـد عنهـا لأمـرٍ آخـر، فهـو شـديد الالتـزام لمـا يفهمـه ويقتنـع بـه.

٤- الإخلاصُ في طلب الحقّ، والطهارةُ من أدران الهوى:

العلـمُ بالسّـنن الإلهيـة نـورٌ يقذفـه اللـه في قلـوب أحبّائـه ومخلصيـه، فيجعلهـم أكـثرَ فهـمًا وإدراكًا للحيـاة والأحيـاء، ويهبُهـم حسًّـا خاصًّـا فيجعلهـم يدركـون بـه مـا يخفـى عـلى الكثيريـن، فيعتـبرون

(١) الأعلام العلية، أبو حفص البزار، ص(٢٨).
(٢) الأعلام العلية، أبو حفص البزار، ص(٧٨).

ويقيسـون الأحـداث بعضهـا عـلى بعـض في وقـتٍ يذهـل فيـه عقـول الآخريـن، خاصّـة في أوقـات المِحـن والصعائـب، فسـبحانه يثّبـت مَـن يشـاء فيهبـه الفهـمَ والمعرفـة والفرقـان الـذي يسـتطيع أن يفـرّق بـه بـين الحـقّ والباطـل والخـير والـشر، فـيرى الحقائـق ماثلـةً أمامـه غـيرَ خافيـة عليـه، بينـما تغيـب عـنْ غـيره؛ ذلـك لأنـه ارتبـط في كلّ حياتـه باللـه هدفًـا وعمـلاً وعبـادة.

ومظاهـرُ الإخـلاص عنـد هـذا الشـيخ- رحمـه اللـه- تجلّـت في حياتـه كلهـا؛ لقـد عـاش مجاهـدًا بـكلّ أنـواع الجهـاد: بالقلـم، والأمـر بالمعـروف، والنهـي عـن المنكـر، وبدروسـه العلميـة، ثـمّ جهـاده بالسـيف، وتحمّلـه لبـلاء السـجن والظلـم، وعـدم مبالاتـه بمـا يجـري لـه مـا دام عـلى طريـق الحـقّ؛ حيـث يقـول: «إنْ سـجنوني فسـجني خلـوة، وإنْ نفـوني فنفيـي سـياحة، وإنْ قتلـوني فقتـلي شـهادة».

ولقد أفاضَ العلماء في ذكر هذه الصّفة كما بيّنا ذلك من قبل.

٥- قوّة الفراسة:

تحـدّث الكثـيرون عـن فراسـة شـيخ الإسـلام، منهـم: أبـو حفـص البـزار وغـيرُه مـن العلـماء، ووضّحـوا كيـف أنّ اللـه - عـز وجـل - وهبَـه هـذه الصفـة، والتـي- أيضًـا- نراهـا مِـن خـلال مؤلفاتـه وفتـاواه المتنوّعـة، فهـو سريـعُ البديهـة، ثاقـبُ الفهْـم، تلـوح لـه الأمـور مِـن بعيـد، يـرى الشّـخص فيفهـم مـا يـدور في وجْهـه حتـى لـو بـدا لـه لأوّل وهلـة، يصـف ذلـك الشـيخ محمـد أبـو زهـرة بتعبـيراتٍ رصينـة فيقـول: «امتـاز- رحمـة اللـه عليـه- بقـوّة عقلـه، ونفـاذ بصيرتـه، وحـدّة مداركـه، مـع قـوّة الإحسـاس؛ فقـد كان ينفـذ نظـره إلى قـرارات النفـوس فيدركهـا، وإلى بواطـن الأمـور فيكشـفها، فـكان الألمعـي يظـنّ الظـنّ كأنـه رأى وسـمع، وبـدتْ فرائسـه واضحـةً في كلّ أمـرٍ تـولّاه، رأى التتـار وحالهـم ففَهِـم بـذكاءِ نفسـه أنهـم تضعْضَعـوا، ولم يكونـوا عنـد غزوهـم الشـام كـما بـدءوا، بـل أترفـت نفوسُـهم فذهـب بأسُـهم، ولكـن ماضيهـم يرعـبُ مَـن يغزونهـم فيهزمـون بالرّعـب لا بفـرط القـوّة.

رأى العبقـري ذلـك فـكان يحلـف أغلـظَ الأيمـان بـأنّ جنـد مـصر والشـام لا محالـة مُنتـصرون، فـإذا قـال لـه الأمـير: قـل: إنْ شـاء اللـه! قـال: أقولهـا تحقّقًـا لا معلّقًـا، وهـذا يـدلّ عـلى قـوّة فراسـته ونفـاذ بصيرتـه.

ورأى رجلاً في زيّ طالب العلم يسير في طرق دمشق محتارًا؛ لأنه لم يكن معه ما ينفعه، فناداه ابن تيمية ووضع في يدِه دراهم، وقال: (أنفقْ منها، وأخلِ خاطرك)، وما تحدّث الشابّ بحاجته، ولكنها فراسة المؤمن وكرمُه»[1].

وفي هذا مِن الوعي بالسّنن وتوظيفها ما فيه؛ فهو يعرف بقوّة فراسته مدى تساقط التّتار وضعفهم، وأنّ لكل شيء إذا ما تمّ نقصانًا، وهذا مِن مكوّنات العلم بالسنن لديه.

٦ـ قدرته على التقعيد:

ويظهر ذلك جليًّا في ما كتبه من القواعد الفقهية، وقد سبق الحديثُ عن ذلك في الباب السابق.

ثانيًا: تكاملُ العلوم الدينيّة والعقلية لديه:

جمع شيخُ الإسلام- رحمه الله- بين المعرفة العميقة بالعلوم الدينية والعقلية بأنواعها مِن علومٍ كونيّة وفلسفية ومنطق وجغرافيا وتاريخ وفيزياء ورياضة وعلوم الأحياء وغيرها.

وهو يرى أنّ هذه «العلوم جميعها هي مظهرُ الكلمات الإلهية التي أشار إليها القرآن الكريم في مواضع متعدّدة، وهذه الكلمات تنقسمُ إلى كلمات دينية مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُ﴾ [البقرة: ١٢٤]، وكلمات كونيّة مثل: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

وهي المقصود بدعائه ﷺ: «أعوذ بكلمات الله التامّات التي لا يجاوزهنّ برّ ولا فاجر»، ولا يملك مخلوقٌ أنْ يخالف الكلمات الكونيّة التي تعني قوانين الكون والحياة والموت والخلق ومجريات الأحداث، وإنما تقع المخالفة في الكلمات الدينية؛ لأن الله امْتحن إرادةَ الإنسان بها، فالترابطُ هنا وثيقٌ بين الكلمات الدينية وبين العبادة الدينية من ناحية، ثمّ بين الكلمات الكونية والعبادة الكونية من ناحية أخرى»[2].

---

(١) ابن تيمية حياته وعصره، محمد أبو زهرة، ص(٩١) بتصرف يسير.

(٢) الفكر التربوي، ماجد عرسان، ص(١١٨).

وهكـذا نجـد أنّ العلـم الدينـي يتكامـل مـع العلـم الدنيـوي؛ لأنهـما يحقّقـان معًـا شرع اللـه «وقـد ظهـر هـذا التكامـل واضحًـا جليًّـا مـن خـلال كتابـات ابـن تيميـة؛ حيـث وضـح- أيضًـا- ذلـك مِـن خـلال حديثـه عـن العلـوم، فيذكـر أنّ العلـوم نوعـان: نـوعٌ يتعلّـق بتربيـة الإنسـان وتعليمـه وتهذيبـه عقائديًّـا ونفسـيًّا واجتماعيًّـا، وهـذه يسـمّيها ابـن تيميـة: «علومًـا سـمعية»؛ لأنهـا جـاءت بالسّـماع عـن طريـق الوحـي والرسـل، وهـي تسـتلزم الصـدقَ لعدالـة الأنبيـاء والرسـل وصدقهـم ومعجـزات مـا جـاءوا بـه.

ونـوعٌ يتعلّـق بجسـده وعقلـه كـ: الطـبّ والهندسـة والرياضيـات والفلـك، وهذه يسـمّيها عقليـة؛ لأنّ الـشرع التقـى بالدّلالـة عليهـا والإشـارة إليهـا، ثـمّ تـرك للعقـل أن يخـوض بهـا ويبحـث ويفصّـل.

وكلا النوعين علوم شرعية؛ لأنّ ثمراتها واحدة، وهي الكشف عن آيات الله في الوحي والخلق»[1].

ثالثًا: ثقافتُه الواسعة في جميع المجالات:

كان شـيخُ الإسـلام ابـن تيميـة يمتلـك العقـلَ المَوْسـوعي، فلـم يكـن متخصّصًـا في علـم مـن العلـوم- كـما سـبق-، ولكنّـه حـوى وجمـع بـين كلّ العلـوم كـما لـو كان متخصّصًـا في ذلـك، وهـذه المعرفـة أهّلتـه لمعرفـة السّـنن واسـتنباطها؛ فهـي القوانـين التـي تحكـم الأمـم والجماعـات، ولا بـدّ للإنسـان كي يعـرف قوانـين أي أمّـة أن يفهـم منهجهـا وفكرهـا ولغتهـا وتاريخهـا الـذي عاشـته، ومـدى فهمهـا للحيـاة ومعرفتهـا بالكـون الـذي تعيـش فيـه، ولـذا كان شـيخ الإسـلام أهـلاً لمعرفـة السـنن الإلهيـة.

وقـد سـبق الـكلام عنـد منزلتـه العلميّـة، ولكـن نشـير فقـط في هـذا المبحـث إلى هـذه الثقافـة عـن طريـق بعـض مـا كتبـه في ذلـك، ومِـن هـذه العلـوم مـا يـأتي:

- معرفته بقواعد اللغة العربية وإيحاءاتها.
- معرفته بالفقه.

---

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، (١٩)، ص(٣٢، ٣٣).

- معرفته بعلم البلاغة.

- معرفته بالفلسفة وعلم الكلام.

- معرفته بالأنساب.

- معرفته بالديانات الأخرى.

وسنقدّم بعض الأمثلة الشاهدة على معرفته بهذه العلوم من خلال ما كتبه في كتاب الفتاوى:

١- معرفتُه باللغة العربية:

أتقن الشيخُ- رحمه الله- قواعد اللغة العربية، ومِن ذلك يقول في أثناء شرحه لدرجات الإيمان: «فإنّ الدرجات الثلاث التي هي: الإسلام والإيمان والإحسان داخلة في الدين كما قال في الحديث الصحيح: «هذا جبريل جاءكم يعلمكم دينكم»[(١)] بعد أن أجابه عن هذه الثلاث، فبيّن أنّها كانت كلها من ديننا، والدين مصدر، والمصدر يُضاف إلى الفاعل والمفعول، يقال: دان فلان فلانًا: إذا عبده وأطاعه كما يقال: دانه إذا أذلّه؛ فالعبد يدين الله، أي: يعبده ويطيعه، فإذا أضيف الدين إلى العبد فلأنه العابد المطيع، وإذا أضيف إلى الله فلأنه المعبود المطاع، كما قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلّه ﴾ [البقرة: ١٩٣]»[(٢)].

وأيضًا نجد معرفته باللغة العربية واضحة في أثناء شرحه لسورة الغاشية، حيث يقول في قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ {١/٨٨} وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِعَةٌ {٢/٨٨} عَامِلَةٌ نَّاصِبَةٌ {٣/٨٨} تَصْلَى نَارًا حَامِيَةً {٤/٨٨} تُسْقَى مِنْ عَيْنٍ آنِيَةٍ ﴾ [الغاشية: ١-٥]، فذكر أنّ فيها قولين:

أحدهما: أنّ المعنى: وجوه في الدنيا خاشعة عاملة ناصبة تصلى يوم القيامة نارًا حامية، يعني بها عباد الكفار كـ: الرهبان وعباد البدور، وربما تؤولت في أهل البدع كالخوارج.

والقول الثاني: أنّ المعنى: أنها يوم القيامة تخشع، أي: تذل وتعمل وتنصب.

---

(١) السنن الكبرى للنسائي، (١٩٣/٢).

(٢) الفتاوى، (١٥٨/١٠).

قلت: هـذا الحقّ لوجوه، أحـدهما: أنه على التقدير يتعلّق الظرف بما يليه، أي: وجوه يوم الغاشية خاشعة عاملة ناصبة، وعلى الأوّل لا يتعلق إلّا بقوله: ﴿تَصْلَى﴾، ويكون قوله: ﴿خَاشِعَةٌ﴾ صفة للـ﴿وُجُوهٌ﴾ قد فصل بين الصفة والموصوف بأجنبي متعلّق بصفة أخرى متأخّرة، والتقدير: وجوه خاشعة عاملة ناصبة يومئذ تصلى نارًا حامية، والتقديم والتأخير على خلاف الأصل، فالأصل إقرارُ الكلام على نظمه وترتيبه لا تغيير ترتيبه، وإنّما يجوز فيه التقديم والتأخير مع القرينة، أمّا مع اللّبس فلا يجوز؛ لأنه يلتبس على المخاطب، ومعلومٌ أنه ليس هنا قرينة تدلّ على التقديم والتأخير، بل القرينة تدلّ على خلاف ذلك، فإرادة التقديم والتأخير بمثل هذا الخطاب خلاف البيان، وأمر المخاطب بفهمه تكليف لا يطاق»[(١)].

والأمثلةُ على معرفة شيخ الإسلام للغة العربية وإيحاءاتها وقواعدها كثيرة، سنجد الأمثلة مُتناثرة في ثنايا كلامه لكلّ مَن يتناول تراث هذا الرجل، ولقد تحدّث العلماء عن مكانته العلمية ذاكرين مكانتَه في اللّغة العربية، وكيف أنه كان بينه وبين سيبويه مناقشاتٌ كثيرة في علم النحو.

٢- معرفتُه بالفقه وتميّزه فيه:

لعلّ من أهمّ المعينات على فهْم السنن وتطبيقها معرفةَ الفقه معرفة جيدة، خاصّةً ما يعرف بفقه المآلات وفقه الموازنات وفقه المقاصد وفقه الأولويات وفقه الواقع، والدارسُ لسيرة شيخ الإسلام وتراثه دراسةً متأنّية جيدة يجد كثيرًا من الإلماحات إلى هذه العلوم، وسنذكرُ هنا إطلالة بسيطة على هذه العلوم عند شيخ الإسلام ابن تيمية.

فقهُ المآلات:

١- المعنى اللغوي: (ومعنى المآل عند أهل اللغة هو المرجعُ والمصير والعاقبة والمنتهى، ونحوه من المرادفات، وفي مصطلح «مآلات الأفعال» يستعمل لفظ المآل بمعنى نتائج الأعمال وآثارها وما تنتهي إليه من عواقب في الواقع)[(٢)].

---

(١) الفتاوى، (٢١٧/١٦، ٢١٨).

(٢) نظر فقه المآل مفهومه وقواعده، الدكتور سيد الدين العثماني- دار الكتاب المغربي، دار الكلمة جـ١- ص ١١ ط٢٠١٥- ١٤٣٦ .

٢- المعنـى الاصطلاحـي: (هـو الفقـه الـذي ينظـر إلى مـآل الحكـم الشرعـي عنـد تنزيلـه في الواقـع ويأخـذه بعـينِ الاعتبـار، فـإن كان الحكـم سـيؤدي إلى مقصـده أمضـاه، وإن كان لا يـؤدي إلى مقصـده عدّلـه أو غـيّره بحسـب طبيعـة المـآل، وذلـك يسـتلزم أيضًـا معرفـةَ فقـه التوقّـع والاسـشراف للمسـتقبل)[١].

ويتضّـح مضمـون فقـه المـآل مـن خـلال مـا وردَ عـن شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة- رحمـه اللـه- في تعاملـه مـع التّتـار ووحشـيتهم؛ حيـث يقـول: (مـررتُ أنـا وبعـض أصحـابي في زمـن التّتـار بقـومٍ منهـم يشربـون الخمـر فأنكَـرَ عليهـم مَـن كان معـي، فأنكـرت عليـه وقلـتُ لـه: إنّمـا حـرم اللـه الخمـر لأنهـا تصـدّ عـن ذكـر اللـه وعـن الصـلاة، وهـؤلاء يصدّهـم الخمـر عـنْ قتـل النفـوس وسـبْي الذريـة وأخـذ الأمـوال فدعْهـم)[٢].

فالغايـة مِـن إنـكار المنكـر هـو إزالتـه أو تحصيـل المعـروف، أمّـا إذا كان مـآل إنـكار المنكـر هـو أن ينتـج عنـه مـا هـو أنكـرُ منـه؛ فـإنّ إنـكاره لا يسـير عـلى سـنن الشريعـة[٣].

وفي موضـعٍ آخـر يتحـدّث شـيخ الإسـلام فيـه عـنْ واقعيـة فقـه المـآلات، وأنـه فقـهٌ تـزداد الحاجـةُ إليـه عـلى قـدْر ازديـاد الفتنـة (وقـد نـصّ تقـي الديـن ابـن تيميـة بـأنّ بـاب التعـارض بـين المصالـح والمفاسـد «بـابٌ واسـع جـدًّا» لاسـيّما في الأزمنـة والأمكنـة التـي نقصـت فيهـا آثـارُ النبـوة وخلافـة النبـوة، فـإن هـذه المسـائل تكـثر فيهـا، وكلّـما ازداد النقـص ازدادت هـذه المسـائل، ووجـود ذلـك مِـن أسـباب الفتنـة بـين الأمّـة، فإنـه إذا اختلطـت الحسـنات بالسـيئات وقـعَ الاشـتباه والتـلازم؛ فأقـوامٌ قـد ينظـرون إلى الحسـنات فيرجّحـون هـذا الجانـب وإن تضمّـن سـيئات عظيمـة، وأقـوامٌ قـد ينظـرون إلى السـيئات فيرجّحـون الجانـب الآخـر وإنْ تـرك حسـنات عظيمـة، والمتوسّـطون الذيـن ينظـرون الأمريـن قـدْ لا يتبـيّن لهـم أو لأكثرهـم مقـدارُ المنفعـة والمـضرّة أو يتبـيّن لهـم فـلا يجـدون مَـن يعينهـم العمـل بالحسـنات وتـرك السـيئات؛ لكـوْن الأهـواء قارنـت الآراء)[٤].

(١) السابق صـ١٥ بتصرف
(٢) انظر إعلام الموقعين، جـ٣ صـ٥.
(٣) فقه المآلات، صـ٤٨
(٤) الفتاوى، جـ٢٠ صـ٥٧-٥٨. وفقه المآل، ص ٧١.

وفي موضعٍ آخر يبين شيخ الإسلام- رحمه الله- أهمية الوعي بفقه المآلات فيقول: (الواجبات والمستحبّات لا بدّ أن تكون المصلحة فيها راجحةً على المفسدة؛ إذْ بهذا بعثت الرّسل ونزلت الكتب، واللهُ لا يحب الفساد ؛ بل كلّ ما أمر الله به فهو صلاح.

وقد أثنى اللهُ على الصلاح والمصْلحين والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذمّ المفسدين في غير موضعٍ، فحيث كانت مَفسدة الأمر والنهي أعظمَ من مصلحته لم تكنْ ممّا أمر الله به، وإن كان قد ترك واجبًا وفعل محرّمًا؛ إذ المؤمنُ عليه أن يتّقي الله في عباده، وليس عليه هداهم)(١).

فقه الموازنات:

لعلّ خيرَ دليل على معرفته بهذا العلم ما كتب عنه (رحمه الله) مِن دراسات في بيان معرفته بعلم الترجيح، وقد أشرنا إلى ذلك سابقًا عند الحديث عن الدراسات السابقة.

ومِن هذه الإلماحات التي كتبها ابنُ تيمية فتحدّث فيها عن فقه الموازنات؛ قوله: (ليس العاقل مَن يعلم الخير والشرّ فقط، بل يجب أن يعلم خيرَ الخيرين وشرَّ الشّرين، ويعلم أنّ الشريعة مَبناها على تحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، وإلّا فمَن لم يوازن ما في الفعل والتّرك من المصلحة الشرعية والمفسدة الشرعية؛ فقد يدعُ واجباتٍ ويفعلُ محرمات)(٢).

وأيضًا مِن هذه الإلماحات الجميلة ما ذكَره في أثناء حديثٍ عن الاحتفال بالمولد النبوي مع تبديعه إيّاه- على صاحبه الصلاة والسلام- حيث يقول رحمَهُ الله: (تعظيمُ المولد واتخاذه موسمًا قد يفعله بعضُ الناس، ويكون له فيه أجرٌ عظيم لحُسن قصده وتعظيمِه لرسول الله ﷺ كما قدّمته لك أنه يَحسن مِن بعض الناس ما يُستقبح من المؤمن المسدّد، ولهذا قيل للامام أحمد عن بعض الأمراء إنّه أنفق على مصحفٍ ألفَ دينار ونحو ذلك، فقال دعْه؛ فهذا أفضل ما أنفق فيه الذهب، أو كما قال، مع أنّ مذهبه أنّ زخرفة المصاحف مكروهة، وقد تأوّل بعض الأصحاب أنه أنفقها في تجديد الورق والخطّ.

(١) مجموع الفتاوى، جـ٢٨ صـ١٢٦

(٢) اقتضاء الطريق المستقيم، جـ١ صـ٢٩٨

وليس مقصودُ أحمد هذا، وإنّما قصده أنّ هذا العمل فيه مصلحة، وفيه أيضًا مفسدة كره لأجلها، فهؤلاء إنْ لم يفعلوا هذا؛ اعتاضوا الفسادَ الذي لا صلاح فيه مثل أن ينفقها في كتابٍ من كتب الفجور ككتب الأسماء أو الأشعار أو حكمة فارس والروم، فتفطّن لحقيقة الدين، وانظرْ ما اشتملت عليه)[1].

أمّا معرفته بعلم الواقع، فلا يخفى على أحدٍ جهادُ ابن تيمية في مواجهة المُبطلين من الخوارج والباطنة وأهل البدع من الفلاسفة والمتصوفة، ومعاركُه التي خاضها مع التّتار والصليبين، وكلّ الفتن التي تعرض إليها وتناولها العلماء في سيرته العطرة، وكيف أنّه واجهها بصبر وإيمان، وتحمّل فكان لهم القائدَ والمربي والداعية الأمين الناصح للأمّة في كلّ مصائبها وفي كلّ أفراحها، ورسائله التي كتبها ابن تيمية للأمراء ينصحهم فيها أو يهنّئهم على انتصارهم على الصليبيين والتتار لخيرُ دليل على فهْمه الرائع لواقع المسلمين، وكيف أنه أفاد مِن ذلك في دعوته الناس إلى الخير، وما كتبه في الفتاوى غالبًا ليس إلّا شرحًا لواقع الناس من عللٍ وأدوية.

فقهُ الأولويات:

يظهر جيدًا- مِن خلال دراستنا لابن تيمية- أنّه كان يوظّف هذا العلم توظيفًا جيدًا فإنه عرف جيدًا كيف يوظّف أدواته المختلفة في الدعوة إلى الله- عزّ وجلّ- طبقًا لحاجة المجتمع واحتياجاته، فكان وقتًا معلّمًا، ووقتًا قاضيًا، ووقتًا واعظًا، ووقتًا مجاهدًا بالسيف ومجاهدًا بالقلم، أو مجاهدًا بالمناظرات واللقاءات. كلّ شيء كما تُمليه الضرورة ويحتاجُه الناس، وخيرُ دليل على ذلك مصنفاتُه التي كتبها في داخل السجن؛ حيث ليس له مِن وسيلة ليستخدمها في نفع الناس في تلك الظروف العصيبة إلّا عن طريق صرير الأقلام يسجّل بها خلجاتِ نفسه وما يجول بخاطره وعقله من علمٍ وفهْم حول كتاب الله وفتاوى يحتاجها الناس في حياتهم ومعادهم، رحم الله شيخَ الإسلام.

فقهُ المقاصد:

ولعلّ مِن أفضل الأمثلة على معرفة شيخ الإسلام بعلم المقاصد ما تناوله- رحمه الله- في أثناء حديثه عن الشرّ الجزئي، والحكمة من خلق الله للشرّ، وأنّه يجب على الإنسان التفكّر فيما

---

(١) مجموع الفتاوى، جـ١٤ صـ٢٦٦.

خلقـه اللـه والبحـثُ عـن الحكمـة مِـن وراء ذلـك، فيقـول رحمـه اللـه: (وأمّـا الـشرّ الجـزئي الإضـافي: فهـو خـيرٌ باعتبـار حكمتـه. ولهـذا لا يضـاف الـشرّ إليـه مفـردًا قـط، بـل إمّـا أن يدخـل في عمـوم المخلوقـات كقولـه {وخلـق كلّ شيء}، وإمّـا أن يضـاف إلى السـبب كقولـه {مِـن شرّ مـا خلـق}، وإمّـا أن يحـذف فاعلـه كقـول الجـنّ {وأنّـا لا نـدري أشرّ أريـد بمَـن في الأرض أم أراد بهـم ربهـم رشـدًا})[1].

ولقـد فهـم شـيخُ الإسـلام- رحمـه اللـه- المقصـدَ مـن وراء العبـادات التـي أمرنـا اللـه بهـا، فليـس الهـدفُ مـن العبـادات المختلفـة التعـبَ والمشـقة، ولكـنْ هنـاك معنًـى واضـحٌ وهـدفٌ عظيـمٌ مِـن وراء كلّ عبـادة مـن العبـادات، وعـلى سـبيل المثـال تكلّـم الشـيخ- رحمـه اللـه- عـن المقصـود مِـن الصّيـام بأنـه التقـوى، وعـن المقصـود مـن الـزكاة بأنـه التّطهّـر[2].

٣- معرفتُه بعلم البلاغة:

إنـه لا بـدّ لمَـن يعـرف علـمَ السـنن الإلهيـة معرفـةً جيـدة أن يكـون ملـمًّا بعلـم البلاغـة؛ حتـى يسـتطيع تأمّـل الآيـات القرآنيـة، وفهـمَ معـاني الآيـات والإيحـاءات البلاغيـة التـي تشـير إليهـا الآيـات، ومثـالٌ عـلى معرفـة الشـيخ- رحمـه اللـه- بعلـم البلاغـة مـا وردَ في أثنـاء شرحـه للآيـة الكريمـة: ﴿يَسْـأَلُونَكَ عَـنِ الشَّـهْرِ الْحَـرَامِ قِتَـالٍ فِيـهِ قُـلْ قِتَـالٌ فِيـهِ كَبِـيرٌ ﴾ [البقـرة: ٢١٧] لمّـا ذكـر اللـه - عـز وجـل - في هـذه الآيـة لفـظ: (قِتَـالٌ) لم يسـتبدلْه بضمـير وقـال: (هـو كبـير).

يقـول: «في إعادتـه بلفـظ الظّاهـر بلاغـةٌ بديعـة، وهـو تعليـق الحكـمِ الخـبري باسْـم القتـال فيـه عمومًـا، ولـو أتى بمُضْمـر فقـال: هـو كبـير لَتوهّـم اختصـاص الحكـم بذلـك القتـال المسـئول عنـه، وليـس الأمـر كذلـك، وإنّمـا هـو عـامّ في كلّ قتـال وقـعَ في شـهرٍ حـرام»[3].

وتظهـر معرفـةُ الشـيخ بعلـم البلاغـة في كثـيرٍ مـن تفسـيره للقـرآن الكريـم؛ حيـث يظهـر خصوصيـات الـكلام وعمومُـه واختيـارات الألفـاظ القرآنيـة في مواضـع بعينهـا دونَ غيرهـا.

---

(١) مجموع الفتاوى، جـ١٤ صـ٢٦٦.

(٢) الفتاوى، (٢٠٠/١٦).

(٣) الفتاوى، جـ(١٤) عند تفسير قوله تعالى: ﴿يسألونك عن الشهر الحرام﴾.

٤- علمُ الفلسفة، وعلمُ الكلام:

لقد تحدّثنا سابقًا عن ثقافة الشيخ، وكيف أنه اعتكفَ على آراء الفلاسفة كلّها يعرفها وينقدها ويمحّصها، ويظهر الغثّ فيها مِن السمين، ويدحض شبهاتهم التي تمسّ العقيدة وتضلّل فكرَ الآخرين من الناس، ويظهر لهم أنّ ما وصلوا إليه من الحقّ كانوا في غنى عنه لو اعتكفوا على كتابِ الله وسنة رسوله، وكتب في الردّ عليهم كتبًا ورسائل كثيرة، منها: درءُ تعارض العقل والنقل.

ولقد سجلت سيرتُه مناظراتٍ كثيرةً بينه وبينهم؛ ليوضّح لهم الحقّ، ويبعدهم عن الباطل.

ولعلّ بعضَ كلامه في كتب الفتاوى دليلٌ على معرفته الجيدة بهذا العلم، وفي ذلك يقول متحدّثًا عن الإدراك والعلم والذّكر: «ولمّا كان النظر مبدأ والذكر منتهًى؛ لأن النظر يتقدّم الإدراك، والعلم والذكر يتأخّران عن الإدراك والعلم؛ ولهذا كان المتكلّمة في النظر المقتضي للعلم، وكان المتصوّفة في الذكر المقرّر للعلم؛ قدّم آلةَ النظر على آلة الذكر، وختمَ بهداية الملك الجامع الذي هو الناظر الذاكر»[1].

ويقول في موضعٍ آخر متحدّثًا عن حقيقة الأشياء: «وكلّ شيء له حقيقةٌ في نفسه ثابتة في الخارج عنِ الذّهن، ثمّ يتصوّره الذّهن والقلب، ثمّ يعبر عنه اللّسان، ثمّ يخطّه القلم، فلَهُ وجود عيني، وذهني، ولفظي، ورسمي، وجود في الأعيان والأذهان واللّسان والبنان»[2].

ثمّ يتحدّث عن الماهية والمقصود بها، ويبيّن أنّ الفلاسفة حاولوا إثبات وجود الله، وأنّ الإنسان مخلوق، وأنّ له خالقًا عن طريق التعريف بالماهية، وذكر أنّ هذه هي الطريقة المشهورة التي يسلكها الجهميّة والمعتزلة[3].

وخيرُ دليل على معرفته بالفلسفة وعلم الكلام ما كتبه فيهما مثلَ مختصراته كشرح الأصبهانية، ومطولاته تخليص التلبيس من تأسيس التقديس، والموافقة بين العقل والنقل، ومنهاج الاستقامة والاعتدال[4].

(١) الفتاوى، (٢٢٢/١٦).
(٢) الفتاوى، (٢١٩/١٦).
(٣) انظر: الفتاوى، ص(٢١٩) بتصرف.
(٤) الأعلام العلية: ٣٣.

٥- علمُه بالأنساب:

«لقد امتاز الصحابةُ - رضي الله عنهم - بمعرفتهم للأنساب، وكان مِن أشهر هؤلاء: سيدنا أبو بكر الصديق، وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وعُرف عنهما معرفتُهما العميقة لسنّة الله - عز وجل - ، وتوظيفهم إيّاها توظيفًا رائعًا»(١).

لذلك نجد أنّ من روافد السّنن عند شيخ الإسلام- رحمه الله- معرفته بأنساب العرب؛ حيث يقول في أثناء تفسيره للآية الكريمة: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣] يقول: «ولهذا كان الخلفاء أفضلَ من الطلقاء من قريش، وهُم ليسوا من ربيعة ولا مُضر، بل مِن قحطان، وأكثرُ الناس على أنّهم من ولد هود، ليسوا مِن ولد إبراهيم، وقيل: إنّهم مِن ولد إسماعيل؛ لحديث أسلم لمّا قال: (ارموا فإنّ أباكم كان راميًا)، وأسلم مِن خزاعة، وخزاعة من ولد إبراهيم»(٢).

إنّ المعرفة بالأنساب تتيح الفرصةَ الجيّدة لمعرفة معادن الناس وخصائصهم، وهناك مِن الصفات الموْروثة التي تناقلتها الأجيال مِن خلال الآباء لا تظهر ولا تعرف إلّا عن طريق هذه المعرفة الجيدة بالناس، فيتيح الفرصة الجيدة للتعامل الجيد مع الناس، وحسن توظيفهم على النّحو الأمثل، كما أنّ المعرفة بالإنسان تساعد على معرفة الأحداث.

٦- علمُه بالدّيانات الأخرى:

تظهر معرفةُ شيخ الإسلام جليّة واضحةً بالديانات الأخرى في أثناء حديثه عن اليهود والنّصارى، ودحضِه الشبهات التي ظهرت منهم، ومثالٌ على ذلك ما كتبه في ثنايا كتاب الفتاوى مِن آراء عن أهل الكتاب من اليهود والنصارى.

يقول في أثناء حديثه عن اليهود: «وإذا قال اليهود: نحن نقصد عبادة الله، كانوا كاذبين، سواء عرفوا أنّهم كاذبون أو لم يعرفوا، كما يقول النّصارى: إنا نعبدُ الله وحده وما نحن بمشركين، وهُم كاذبون؛ لأنّهم لو أرادوا عبادته لعبدوه بما أمر، وهو الشرع، لا بالمنسوخ المبَدّل.

---

(١) مفهوم السنن الربانية من الفهم إلى التسخير، د. رمضان خميس، ص(٣٢، ٣٣) بتصرف.

(٢) الفتاوى، (١٩١/١٦).

وأيضًا، فالربّ الذي يزعمون أنّهم يقصدون عبادته وهو عندهم ربّ لم ينزل الإنجيل ولا القرآن ولا أرسل المسيح ولا محمدًا، بل هو عند بعضهم فقير، وعند بعضهم بخيل، وعند بعضهم عاجز، وعند بعضهم لا يقدر أن يغيّر ما شرعه، وعند جميعهم أنه أيّد الكاذبين المفترين عليه، الذين يزعمون أنّهم رسله وليسوا رسله، بل هم كاذبون سحرة قد أيّدهم ونصرهم، ونصرَ أتباعهم على أوليائه المؤمنين؛ لأنّهم عند أنفسهم أولياؤه دون الناس، فالربّ الذي يعبدونه هو دائمًا ينصرُ أعداءه»[1].

ويتّضح من هذا الكلام أنّ شيخ الإسلام- رحمه الله- على معرفةٍ جيّدة بصفات اليهود والنصارى وديانتهم وشبهاتهم الخاطئة، لذلك كان لتلك المعرفة أثرٌ في تعامله معهم أثناءَ الحروب الصليبية، ولم ينخدعْ بهم عندما كرّروا الهجماتِ على الدول الإسلامية، فهو يعرف جيدًا «أنّ الأعراف والأخلاق عند الشعوب مِن الصعب تغييرها»[2].

ولم ينخدعْ بمظاهرهم المختلفة التي يُبدونها للتخفّي وراء أغراضهم الخبيثة؛ لأنه يعرفهم جيدًا، فهُم قساةٌ بخلاء لا ينخدعون لدين، ولا يحترمون الشعوب.

٧- معرفتُه بالعلوم الكونيّة:

تظهر معرفةُ شيخ الإسلام بالعلوم الكونيّة مِن خلال شرحِه لآي القرآن؛ حيث وضّح معنى الينابيع، وأنّها جمع ينبوع، وهو منبعُ الماء كالعين والبئر، فيقول: «فدلّ القرآن على أنّ ماء السماء تنبع منه الأرض، والاعتبار يدلّ على ذلك، فإذا كثر ماءُ السماء كثرتِ الينابيع، وإذا قلّ قلّت.

وماءُ السماء ينزل من السحاب، والله ينشئه مِن الهواء الذي في الجوّ وما يتصاعد من الأبخرة، وليس في القرآن أنّ جميع ما ينبع يكون مِن ماءِ السماء؛ فإنّ الماء قد ينبع مِن بطون الجبال، ويكون فيها أبخرةٌ ينبع منها الماء، والأبخرة وغيرها من الأهوية قد تستحيل كما إذا أخذنا إناءً فوضع

---

(١) الفتاوى، (٥٦٣/١٦).

(٢) السنن النفسية لتطور الأمم، غوستاف لوبون، ص(٢٤).

فيـه ثلـجٌ فإنـه يبقـى مـا أحـاط بـه مـاء، وهـو هـواء اسـتحال مـاء، وليـس ذلـك مِـن مـاء السـماء، فعلـم أنـه مُمكـن أن يكـون في الأرض مـاء ليـس مـن السـماء، فـلا يجـزم بـأنّ جميـع المياه مـن مـاء السـماء، وإن كان غالبهـا مـن مـاء السـماء، واللـه أعلـم»[١].

علـم الشـيخُ بطبيعـة الأشـياء يظهـر- أيضًـا- مـن خـلال كلامـه الـذي تحـدّث فيـه عـن الحـركات صفتهـا وطبيعتهـا وأنواعهـا، وكيـف أنهـا قـد تكـون قسريـة أو إراديـة أو طبيعيـة، وصنـف كلّ نـوع، وعرّفـه تعريفًـا جيـدًا، وبـيّن كيـف يكـون منشـؤه[٢].

٨- معرفتُه بأحوال النفوس:

لقـد كان لشـيخ الإسـلام- رحمـه اللـه- معرفـةٌ جيـدة بأحـوال النفـوس وطبيعتهـا، وكيفيـة التعامـل معهـا، وخصائصهـا الربّانيـة التـي منحهـا اللـه إيّاهـا، وخصائصهـا المكتسـبَة مـن البيئـات المختلفـة والعـادات والتقاليـد الموروثـة، فنجـده يوضّـح سـببَ امتنـاع النـاس عـن الاسـتماعِ إلى الحـقّ في ضـوء قولـه تعـالى: ﴿مَـا كَانُـواْ يَسْـتَطِيعُونَ السَّـمْعَ ﴾ [هـود: ٢٠]، فيقـول: «وسـببُ عـدم النظـر والاسـتماع: إمّـا عـدم المقتـضى فيكـون عدمًـا محْضًـا، وإمّـا وجـودُ مانـع مـن الكِبر أو الحسـد في النفـس ﴿ إِنَّ اللَّـهَ لَا يُحِـبُّ كُلَّ مُخْتَـالٍ فَخُـورٍ ﴾ [لقـمان: ١٨]، وهـو تصـوّر باطـل، وسـببُه عـدم غنـى النفـس بالحـقّ؛ فتعتـاض عنـه بالخيـال الباطـل»[٣].

وتظهـر معرفتُـه بأحـوال النفـوس مـن خـلال رسـمِه الطريقـةَ المثـلى لإصـلاح النفـوس حيـث بـيّن أنّ مِـن النـاس مَـن إذا نصحتـه بـأنْ يـترك مـا لديـه مـن الفضـل إلى مـا هـو أفضـل منـه فـلا يسـتطيع أن يفعـل الأفضـل، ولا مـا هـو أفضـل منـه، فيجـب علينـا مراعـاة النّـاس في ذلـك.

ويـرى- أيضًـا- أنّ مِـن النـاس مـا يـضرّه إذا سـلك سـبيلًا مِـن سـبل السـلام الإسـلامية أنْ يـرى غـيرَه أفضـل منهـا؛ لأنّـه يتشـوّق إلى الأفضـل فـلا يقـدر عليـه، والمفضـول يعـرض عنـه، لذلـك فإنّـه

(١) الفتاوى، (١٦/١٦) بتصرف يسير.

(٢) انظر: الفتاوى، (١٣١/١٦).

(٣) الفتاوى، (٢٣/١٣).

ليس مـن مصلحتـه أن يعـرف أفضـل مِـن طريقتـه إذا كان يـترك طريقتـه ولا يسـلك تلـك، فليـس- أيضًـا- مِـن الحـقّ أنْ يعتقـد أنّ طريقتـه أفضـل مـن غيرهـا، بـل مصلحتـه أنْ يسـلك تلـك الطريقـة المُفضيـة بـه إلى رحمـة اللـه تعـالى.

ويبيّن في ذلك أنّ النصيحة أو هذا العمل الدعوي مبنيّ على أربعة أصول في معالجة النفس:

أحدهـما: معرفـة مراتـب الحـقّ والباطـل والحسـنات والسـيئات، والخـير والـشرّ، فيعـرف خـير الخيرين وشرّ الشرّين.

والثاني: معرفة ما يجب من ذلك وما لا يجب، وما يستحبّ من ذلك وما لا يستحب.

والثالـث: معرفـة شروط الوجـوب والاسـتحباب مِـن الإمـكان والعجـز، وأنّ الوجـوب والاسـتحباب قـد يكـون مشروطًـا بإمـكان العلـم والقـدرة.

الرابـع: معرفـة أصنـاف المخاطبـين وأعيانهـم، ليأمـرَ كلّ شـخص بمـا يصلحـه، أو بمـا هـو الأصلـح لـه مِـن طاعـة اللـه ورسـوله، وينهـى بمـا ينفـع نهيُـه عنـه، ولا يأمـر بخـير يوقعـه فيـما هـو شرّ مِـن المنهـي عنـه مـع الاسـتغناء عنـه[١].

٩- علمُه بأهل البدع والمذاهب المنحرفة عن الشرع:

لا يخفـى عـلى أحـدٍ عـرفَ سـيرةَ شـيخ الإسـلام- رحمـه اللـه- مـدى مـا لاقـاه في محاربـة البدعـة والمذاهـب المُنحرفـة عـن الديـن، ولم يكـن ذلـك إلّا عـن معرفـةٍ جيـدة بمـا تحتويـه هـذه المذاهـب المُنحرفـة مـن فسـاد. ومِـن أجـل ذلـك كتـب الكتـبَ التـي توضّـح هـذه المفاسـد، وردّ عليهـا، وبـيّن خطرها عـلى العقيـدة الإسـلامية والأمـة الإسـلامية.

ومِـن كلامـه الـذي ذكـره في كتـاب الفتـاوى مـا يوضّـح- أيضًـا- تلـك الخـبرة؛ حيـث يقـول: «وكذلـك أهـلُ الفجـور المُترفـين قـد يظـنّ أحدهـم أنّـه لا يمكنـه فعـل الواجبـات إلّا بمـا يفعلـه مـن

(١) الفتاوى، (٤٣٣/١٤).

الذنـوب، ولا يمكنـه تـرك المحرمـات إلّا بذلـك، وهـذا يقـع لبـشرٍ كثـير مـن النـاس، منهـم مَـن يقـول: إنـه لا يمكنـه أداء الصلـوات واجتنـاب الـكلام المحـرّم مـن الغيبـة وغيرهـا إلّا بـأكل الحشيشـة.

ويقـول الآخـر: إنّ أكلهـا يُعـين عـلى اسـتنباط العلـوم وتصفيـة الذّهـن، حتـى يسـمّيها بعضهـم: معـدن الفكـر والذكـر ومُحرّكـة العـزم السـاكن، وكلّ هـذا مِـن خـدع النفـس ومكـر الشـيطان بهـؤلاء وغيرهـم، وإنّهـا لعمًـى للذّهـن، ويصـير آكلهـا أبكـمَ مجنونًـا لا يعـي مـا يقـول.

وكذلـك مِـن هـؤلاء مَـن يقـول: إنّ محبتـه للـه وحركتـه ورغبتَـه في العبـادة ووجْـدَه وشـوقَه وغـير ذلـك لا يتـمّ إلّا بسـماع القصائـد، ومعـاشرة الشـاهد مـن الصبيـان وغيرهـم، وسـماع الأصـوات والنغـمات، ويزعمـون أنّ لسـماع هـذه الأصـوات ورؤيـة الصـور المحـركات تتحـرّك عندهـم مِن دواعـي الزهـد والعبادة مـا لا تتحـرّك بـدون ذلـك، وأنهـم بـدون ذلـك قـد يتركـون الصلـوات ويفعلـون لـه المحرمـات الكبـار، كـ: قطـع الطريـق وقتـل النفـوس، ويظنّـون أنهـم بهـذا ترتـاضُ نفوسـهم وتلتـذّ بذلـك لـذّة تصدّهـا عـن ارتـكاب المحـارم والكبائـر، وتحملهـا عـلى الصـلاة والصـوم والحـج»[1].

ومِـن خـلال كلامـه السـابق يتّضـح لنـا مـدى معرفتـه بتلـك المذاهـب وطرقهـا، مثـل: الصوفيـة الفلسـفية، والمعتزلـة، والجهميـة، والخـوارج، ومـا تنطـوي عليـه تلـك الطـرقُ مـن أفـكار ومعتقـدات فاسـدة.

أمّـا معرفتـه بالمـواد الشرعيّـة باعتبارهـا رافـدًا مـن روافـد السّـنن مـن: الفقـه والتفسـير وعلـوم القرآن؛ فـلا يخفـى عـلى أحـدٍ مـا كتبـه هـذا الإمـام خاصّـة، ومـا أشـاد بـه أصحابُـه وأقرانـه مـن تفوّقـه في هـذه العلـوم، ولعـلّ خـيرَ شـاهدٍ عـلى ذلـك كتـب الفتـاوى حيـث نجدُهـا محتويـة عـلى: الفقـه، والتفسـير، والتصـوف، والعقيـدة، وأصـول الفقـه، وهـذا واضـح جـدًّا في تراثـه كلّـه.

١٠- معرفتُه بالقصص القرآني:

ولا يخفـى أنّ القصـص القـرآني مـن أهـمّ مواطـن ومَظـانّ وجـود السـنن الربانيّـة، حتـى لا تـكاد تجـدُ قصـةً مـن القصـص القـرآني إلّا وفيهـا سـنة، أو عـدد مـن سـنن اللـه تعـالى.

---

(١) الفتاوى، (١٤/٤٦٨، ٤٦٩).

رابعًا: التجاوبُ بين ابن تيمية وعصره:

مـمّا لا شـكّ فيـه مـدى تأثـير البيئـة عـلى الإنسـان في تشـكيل مواهبـه المختلفـة، فـإذا تهيّـأت الظروف الصّالحـة للإنسـان اسـتثمر تلـك المواهـب وظهـرت نتائجهـا جليّـة ظاهـرة، وإن لم تجدِ الشـخصية الراشـدة الموهوبـة هـذا الاهتـمامَ فقـد تتأخّـر في ظهـور مواهبهـا، أو توجيـه هـذه المواهـب إلى الـشرّ، أو تتعـثّر في إظهـار ثمارهـا عـلى النّحـو الجيـد المنتظر مِـن هـذه الموهبـة، وخـيرُ دليـل عـلى ذلـك شـخصية شـيخ الإسـلام- رحمـه اللـه؛ فقـد كان لعـصره تأثـيرٌ واضـحٌ عـلى اتجاهاتـه وأفـكاره؛ حيـث إنـه- كـما سـبق- نشـأ في ظـلّ ظهـور التتـار وهجمتهـم عـلى الإسـلام والمسـلمين، وقـد عـاصر التهجـيرَ لأهلـه حاملـين كتبهـم معهـم، ومـدى معاناتهـم في ذلـك، فنشـأ عـلى كراهيـة الحـروب، وكراهيـة الأعـداء، ومعرفـة معـادن النـاس مـن خـلال مواقفهـم المختلفـة في التعامـل مـع هـذه المحنـة.

ولا شـكّ أنّ لهـذا أهميـةً كبـيرة في فهْـم الحيـاة، وكيفيـة التعامـل مـع هـذه المِحْنـة إذا مـا تكـرّرت مـرّة أخـرى، وفهـم أسـباب النـصر وأسـباب الهزيمـة، وإحاطتـه بتلـك السـنن الإلهيـة.

فقـد كان تأثـيرُ البيئـة (العلميـة والسياسـية) واضحًـا في حيـاة ابـن تيميـة ومـا لهـا مـن تأثـير عـلى فكْـره كلّـه.

يقـول في ذلـك الشـيخ محمـد أبـو زهـرة واصفًـا بيئـةَ هـذا الإمـام الربّـاني شـيخ الإسـلام- رحمـه اللـه: «إنّ البـذرة الصالحـة لا تنمـو إلّا بسـقي ورعـي وجـوٍّ تتغـذّى منـه وتعيـش فيـه، فـكلّ حـي في الوجـود يتأثـر بالجـوّ الـذي يستنشـق منـه، والبيئـة التـي تظلّـه، فـإنّ البيئـات تفعـل في نفـس الإنسـان مـا لا يفعلـه المربّـون، ولذلـك كان للعـصر الـذي يعيـش فيـه العـالم الأثـر الـذي يوجّهـه، وقـد يكـون الأثـرُ مـن جنـس حـال العـصر، فـإن كان العـصر فاسـدًا فسـدَ الرجـل، وإن كان العـصر صالحًـا صَلـح، وقـد يكـون التأثـير عكسـيًّا، فكـثرة الفسـاد تحمـل عـلى التفكـير الجـدي في الإصـلاح، وكـثرة الـشرّ تحمـل عــلى اسـتحضار العزائـم للخـير، وقـد تكـون دافعـةً للمُصلـح لأن يفكّـر في أسـباب الـشرّ فيقتلعهـا، وفي نـواة الخـير الكامنـة فيغذّيهـا، وكذلـك كانـت المجاوبـة بـين ابـن تيميـة وعـصره، تغـذّت روحُـه غـذاءً صالحًـا مـمّا درس في صـدر حياتـه، ومـا عكـف عليـه في كهولتـه وشـيخوخته مـن رجـوع إلى

ينابيع الشرع الأولى، والكنز المختفي من الهدي النبوي، وما كان عليه سلف المؤمنين، فكانت المعركة الشديدة تعتلج في نفس هذا الرجل العظيم، يرى فيما درس من الإسلام نورًا ساطعًا لامعًا، ويرى في عصره ظلمة شديدة وفسادًا في كلّ نواحيه، يرى في ماضي الإسلام عزًّا واتحادًا ووئامًا، ويرى في عصره ذلًّا وانقسامًا، يرى في ماضيه حكمًا صالحًا وأمرَ المسلمين شورى بينهم، ويرى في حاضره استبدادًا وطغيانًا، وقد أكل القوي الضعيف، واستمرأ الحاكم لحمَ المحكوم وماله، فتقدّم الرجل ليصلح وليداوي، وقد وجد الدواء بأيسر كُلفة، ومِن أسهل طريق، وجده في كتاب الله وسنة رسوله وأعمال الصحابة وكبار التابعين، فتقدّم بالدواء ونادى به، وما كانت آراؤه العلمية كلها إلّا دواء عصره، ولو فتشت عن البواعث التي بعثته للمجاهرة بكلّ ما رأى لوجدت أنّ الذي بعث على المجاهرة عيبٌ في الزمان، وفساد عند أهل العصر في العمل، أو في الفكر، أو فيهما معًا»[1].

***

(١) ابن تيمية حياته وعصره، الشيخ محمد أبو زهرة، ص(١٠٥).

المبحثُ الثّاني

التدبّرُ السّنني لدى شيخ الإسلام ابن تيمية

تعـدّدت مشـاركات شـيخ الإسـلام- رحمـه اللـه- في مجـال التفسـير الموضوعـي، وتحدّثنـا عـن ذلـك سـابقًا في البـابِ الثـاني مـن جهـوده في التفسـير وعلـوم القـرآن، وأشرْنـا إلى أنّ موضـوع السّـنن الإلهيـة كان مِـن الموضوعـات التـي دخلـت تحـتَ نظـام التفسـير الموضوعـي، وكان لشـيخ الإسـلام جهـدٌ رائـع في هـذا المجـال سـيتّضح لنـا في هـذا البـاب- إنْ شـاء اللـه تعـالى.

إنّ موضـوع السـنن الإلهيـة موضـوعٌ ارتبـط بكتـاب اللـه - عـز وجـل -، فهـو يـدور مـع الآيـات القرآنيـة فهـمًا واسـتنباطًا إذا تدبّرنـا كتـاب اللـه - عـز وجـل - كـما يليـق، وعـلى الوجـه الصائـب، وحتـمًا سـيثمر ذلـك في معرفـة تلـك السـنن، خاصّـة إذا توافـرت لـدى الباحـث روافـد السـنن التـي تتيـح لـه اسـتنباطها ومعرفتهـا وتطبيقهـا عـلى الحيـاة والأحيـاء، حيـث إنهـا تربـط بـين آيـات اللـه- تعـالى- التـي نتلوهـا وآيـات اللـه التـي نشـاهدها بعـين أنفسـنا في الكـون والأنفـس والأحيـاء والحيـاة، فهـي تنظّـم العلاقـة القائمـة بـين الكـون والإنسـان، وكيـف أنـه لـو اسـتقام للإنسـان ذلـك لحقّـق الرسـالة التـي خُلـق مِـن أجلهـا، وهـي العبوديـة للـه - عـز وجـل -، والقيـام بحـقّ الخلافـة في هـذا الكـون وتعْمـيره، وكان خـير شـاهد عـلى جميـع الكائنـات يـوم القيامـة، ولقـد جـاء الأنبيـاء جميعهـم ليعلمونـا هديـه - سـبحانه وتعـالى -، ويربطوننـا بهـذه السـنن الإلهيـة.

ولقـد فهِـمَ الصحابـة - رضي اللـه عنهـم - هـذه السـننَ وطبقوهـا في حياتهـم ووظفوهـا، وكانـوا مـن السـابقين، وعـلى قـدر هـذا الفهـم للسـنن وعـلى قـدر الاجتهـاد في تطبيـق ذلـك تتحقّـق السـعادة في الدنيـا والآخـرة.

وهـذا- أيضًـا- مـا دعـا إليـه شـيخ الإسـلام- رحمـه اللـه- وبيّنـه في معظـم كتاباتـه، ووضّـح لنـا أنّ السـعادة والشـقاء مرتبطـان ارتباطًـا كليًّـا بمـدى هـذا الفهـم لكتـاب اللـه - عـز وجـل -، وتطبيـق سـننه- سـبحانه- في هـذا الكـون.

معنى التدبّر السّنني في القرآن الكريم:

أقصدُ بتدبّـر السـنن الإلهيـة: الوقـوف عنـد القـرآن والتفكـر فيـه لاسـتنباط مـا فيـه مِـن سـنن اللـه- تعـالى- المطّـردة لتسـخيرها والانتفـاع بهـا، والسـير عـلى منهاجهـا، وعـدم تنكّبهـا.

يقـول الرسـول ﷺ: «يخـرج في آخـر الزمـان قـومٌ أحـداث الأسـنان سُـفهاء الأحـلام يقـرءون القـرآن لا يجـاوزُ تراقيهـم، يقولـون مِـن قـول خـير البريـة، يمرقـون مِـن الدّيـن كـما يمـرق السّـهم مـن الرميّـة»[1].

والاكتفـاء بالتـلاوة والحفـظ دون التدبّـر مخالـفٌ لمنهـاج السـلف الصالـح في التعامـل مـع القـرآن الكريـم، عـن ابـن عمـر- رضي اللـه عنهـما- قـال: «كان الفاضـلُ مِـن أصحـاب رسـول اللـه ﷺ في صـدْر هـذه الأمّـة لا يحفـظ مـن القـرآن إلّا السـورة ونحْوهـا، ورزقـوا العمـل بالقـرآن، وإنّ آخـرَ هـذه الأمّـة يرزقـون حفـظ القـرآن ولا يرزقـون العمـل بـه».

وفي هـذا المعنـى قـال ابـن مسـعود: إنـا صعُـبَ علينـا حفـظ ألفـاظ القـرآن، وسـهُلَ علينـا العمـلُ بـه، وإنّ مَـن بعدنـا يسـهُلُ عليهـم حفـظ القـرآن، ويصعُـبُ عليهـم العمـل بـه.

فتدبّـر القـرآن وقراءتـه قـراءةً تدبّريـة هـي القـراءة المُنتجـة للفهـم والاعتبـار والعمـل، وهـي المِنهـاج الـذي سـار عليـه رسـول اللـه ﷺ في تعليمـه القـرآن للصحابـة - رضي اللـه عنهـم -.

ذكـر أبـو عمـرو الـداني بإسـناده عـن عثـمان بـن مسـعود وأبي y أنّ رسـول اللـه ﷺ كان يقرئهـم العـشرَ فـلا يجاوزونهـا إلى عـشرٍ أخـرى حتـى يتعلّمـوا مـا فيهـا مـن العمـل، فيعلمنـا القـرآن والعمـل جميعًـا.

وقـال محـمـد بـن كـعـب القرظـي: لأنْ أقـرأ: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ و﴿الْقَارِعَةُ﴾ ليلة أردّدهما وأتفكّـر فيهـما أحـبّ إليّ مِـن أن أبيـت أهـذّ[2] القـرآن[3].

---

(١) صحيح البخاري، (١٣٢١/٣)، باب: «علامات النبوة في الإسلام»، ومسلم، باب: «ذكر الخوارج وصفاتهم»، (١٠١/٣)، وسنن الترمذي، كتاب الفتن، باب: «في صفة المارقة»، ح(٢١٨٨)، والنسائي، (٤٦/٢).

(٢) الهذّ: سرعة القطع والقراءة.

(٣) مصنّف ابن أبي شيبة، باب: قراءة القرآن، ح(٨٨٢٤).

ولهـذا حـضّ سـلفنا الصالـح عـلى تدبّـر القـرآن الكريـم، والوقـوف عنـد آياتـه للانتفـاع بهـا، والامتثـال لهـا بمـا يعـود عـلى المـرْء بالخـير والصـلاح في الدّنيـا، والفـوز والنجـاة في الآخـرة[1]، واقتـداءً بمـا جـاء عـن النبـي ﷺ وأصحابـه الكـرام وسـلف الأمّـة الصالحـين- رضـوان اللـه عليهـم.

جـاء شـيخُ الإسـلام ابـن تيميـة سـنة (٦٦١هــ - ٧٢٨هــ) ليحيـي هـذه السـنة المباركـة، ويؤكّـد عليهـا وعـلى التزامهـا، فيقـول- رحمـه اللـه: «فأمرنـا أنْ نعتـبر بأحـوال المتقدّمـين علينـا مِـن هـذه الأمَّـة، وممّـن قبلهـا مِـن الأمـم، وذكـر في غـير موضـع أنَّ سـنَّته في ذلـك مطَّـردة وعادتـه مسـتمرّة، فينبغـي للعقـلاء أنْ يعتـبروا بسـنَّة اللـه وأيَّامـه في عبـاده، ودأب الأمَـم وعاداتهـم».

ومَن يتصفّح كتب ابن تيمية يجد أثرَ التدبّر السنني في صفحاتها واضحة.

ويقـول: «ذلـك أنّ اللـه- تعـالى- قـال: ﴿كِتَـابٌ أَنزَلْنَـاهُ إِلَيْـكَ مُبَـارَكٌ لِّيَدَّبَّـرُوا آيَاتِـهِ ﴾ [ص: ٢٩]، وقـال: ﴿أَفَـلاَ يَتَدَبَّـرُونَ الْقُـرْآنَ﴾ [النسـاء: ٨٢]، وقـال: ﴿أَفَلَـمْ يَدَّبَّـرُوا الْقَـوْلَ ﴾ [المؤمنـون: ٦٨]، وتدبّـر الـكلام دونَ فهْـم معانيـه لا يمكـن، وكذلـك قـال تعـالى: ﴿ إِنَّـا أَنزَلْنَـاهُ قُرْآنًـا عَرَبِيًّـا لَّعَلَّكُـمْ تَعْقِلُـونَ﴾ [يوسـف: ٢]، وعقـل الـكلام متضمّـن لفهمـه.

ومِن المعلوم أنّ كلّ كلام فالمقصود منه فهْمُ معانيه دونَ مجرّد ألفاظه، فالقرآن أولى بذلك.

وأيضًـا، فالعـادةُ تمنـعُ أنْ يقـرأ قـومٌ كتابًـا في فـنٍّ مِـن العلـم كـ: الطـبّ والحسـاب ولا يسـتشرحوه، فكيـف بـكلام اللـه الـذي هـو عصمتُهـم، وبـه نجاتهـم وسـعادتهم، وقيـام دينهـم ودنياهـم؟!

ولهـذا كان النـزاعُ بـين الصحابـة في تفسـير القـرآن قليـلاً جـدًّا، وهـو وإنْ كان في التابعـين أكـثرَ منـه في الصحابـة، فهـو قليـلٌ بالنسـبة إلى مَـن بعدهـم، وكلّـما كان العـصر أشرفَ كان الاجتـماع والائتـلاف والعلـم والبيـان فيـه أكـثر».

وقـال أيضًـا: «القـرآن مَـن تدبّـره تدبـرًا تامًّـا تبـيّن لـه اشـتمالُه عـلى بيـان الأحـكام، وأنّ فيـه مِـن العلـم مـا لا يدركـه أكـثرُ النـاس، وأنـه يبـيّن المشـكلات، ويفصـل النـزاع بكامـل دلالاتـه وبيانـه إذا أعطـي حقّـه ولم تحـرّف كلمـة عـن موضعهـا»[2].

(١) انظر: تدبر السنن الإلهية عند السلف الصالح، ص(١٣، ١٤)، د/ رشيد كهوس، ط أولى، المنصورة، دار الكلمة، ٢٠١٥م.
(٢) مجموع الفتاوى، (٨٢٥/٢٠).

وما يؤكّد ذلك- أي: تدبّر السنن وأهميتها عند شيخ الإسلام- أنّ هذا الأمر ورثه تلاميذُه عنه، فتجد أنّ تلميذه الإمام ابن قيم الجوزية- رحمه الله- يقول: «ليس شيء أنفعُ للعبد في معاشه ومعاده وأقرب إلى نجاته مِن تدبّر القرآن وإطالة التأمّل فيه، وجمع الفكر على معاني آياته؛ فإنها تطلع العبدَ على معالم الخير والشرّ بحذافيرهما، وعلى طرقاتهما وأسبابهما وغاياتهما وثمراتهما ومآل أهلهما، وتضع في يدِه مفاتيح كنوز السعادة والعلوم النافعة، وتثبتُ قواعد الإيمان في قلبه، وتشيّد بنيانه، وتوطّد أركانه، وتريَه صورةَ الدنيا والآخرة والجنة والنار في قلبه، وتحضره بين الأمم، وتريه أيامَ الله فيهم، وتبصّره مواقع العِبَر، وتشهده عدلَ الله وفضله، وتعرّفه ذاته وأسماءه وصفاته وأفعاله، وما يحبّه وما يبغضه، وصراطه الموصل إليه، وما لسالكيه بعد الوصول والقدوم عليه، وقواطع الطريق وآفاتها، وتعرّفه النفس وصفاتها، ومفسدات الأعمال ومُصحّحاتها، وتعرّفه طريق أهل الجنة وأهل النار وأعمالهم وأحوالهم وسيماهم، ومراتب أهل السعادة وأهل الشقاوة، وأقسام الخلق واجتماعهم فيما يجتمعون فيه، وافتراقهم فيما يفترقون فيه، وبالجملة تعرّفه الربّ المدعوّ إليه، وطريق الوصول إليه، وما له من الكرامة إذا قدم عليه».

وتعرّفه- في مقابل ذلك- ثلاثة أخرى: ما يدعو إليه الشيطان، والطريق الموصل إليه، وما للمستجيب لدعوته من الإهانة والعذاب بعد الوصول إليه.

فهذه الفقرة تعبّر عن التدبّر السنني عند الإمام ابن القيم، حيث يعتبر تدبّر سنن القرآن يعودُ على العبد بالمنافع الآجلة والعاجلة، ويضمنُ له صلاح دينه ودنياه، والنجاة في آخرته.

ثمّ تحدّث عن فوائد التدبّر السّنني التي ينبني عليها مجموعةٌ من سنن الله في الخير والشرّ، والدنيا والآخرة، والسعادة والإيمان، وسنن قيام الأمم وانهيارها، وسنن النفس وما يجولُ في خلجاتها، ثمّ السّنن الموصّلة إلى الله تعالى، فالسنن التي تصدّ عن سبيله، ثمّ مقاصد أفعال الله- جلّ وعلا[1].

فهرس بأهمّ السنن الإلهية التي تناولها الشيخ تناولًا موضوعيًّا من خلال آي القرآن الكريم:

(١) راجع: تدبر السنن عند السلف، ص(٤١).

١- سنّة الله في أهل الإيمان والجهاد.

٢- سنّة الله في المتوكلين.

٣- سنّة الله في أنّ الرفعة لأهل العلم.

٤- سنّة الله في تضييق الرزق على أهل الذنوب.

٥- سنّة الله في الابتلاء بالحسنات والسيئات.

٦- سنّة الله في أهل الفواحش.

٧- سنّة الله في نصر الأمم.

٨- سنّة الله في هزيمة الأمم.

٩- سنّة الله في هلاك الأمم.

١٠- سنّة الله في التّمكين.

١١- سنّة الله في التّسخير.

١٢- سنّة الله في التّوازن.

١٣- سنّة الله في هداية الناس بعد خلقهم.

١٤ـ سنّة الله في سَلْب النّعم.

١٥ـ سنّة الله في الجمع بين المتشابهين والتفرقة بين المختلفين.

١٦ـ سنّة الله في الظالمين.

١٧ـ سنّة الله في الاختلاف.

١٨ـ سنّة الله في الخير والشّر.

١٩ـ سنّة الله في الأنفس.

٢٠- سنّة الله في فقر المخلوقات إلّا إليه.

٢١- سنّة الله في المحبة والكراهية.

٢٢- سنّة الله في الفرقان.

٢٣- سنّة الله في السعادة والشقاء.

٢٤- سنّة الله في المخلصين مِن عباده.

٢٥- سنّة الله في الثواب والعقاب.

٢٦- سنّة الله في مَن يعتقد الحقّ الثابت.

٢٧- سنّة الله في بقاء الأمم.

٢٨- سنّة الله في أهل المنكر.

٢٩- سنّة الله في الصّالحين.

٣٠- سنّة الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٣١- سنّة الله في الأسباب والمسبّبات.

***

المبحثُ الثّالث

تعريفُه لعلم السنن الربانيّة ومعرفتُه بها

تظهـر معرفـةُ الشـيخ بعلـم السـنن قويّـة ظاهـرة في معظـم كتاباتـه، ولقـد جعلهـا مقياسًـا يقيـس عليـه العلـماء، يقـول عـن بعـض علـماء المعتزلـة: «وأبـو الحسـين هـو إمـامُ المتأخّريـن مـن المعتزلـة، ولـه مِـن العقـل والفضـل مـا ليـس لأكـثر نظائـره، لكنـه قليـلُ المعرفـة بالسـنن ومعـاني القـرآن وطريقـة السـلف»[1].

وقـد تـأتي هـذه المعرفـة للسّـنن بصريـح الـكلام مثـل سـنّته- سـبحانه- في نـصْرِ الأمـم وهلاكهـا، وقـد يـأتي فهمُهـا ضمنيًّـا مـن خـلال كلامـه وشروحـه مثـل سـنة اللـه - عـز وجـل - في الأنفـس ومـا جُبلـت عليـه.

تعريفُ السّنة لدى شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله:

يـرى شـيخُ الإسـلام- رحمـه اللـه- أنّ السـنة: هـي العـادة التـي تتضمّـن أن يفعـل في الثـاني مثـلَ مـا فعـل بـالأوّل، ولهـذا أمـر اللـه- تعـالى- بالاعتبـار[2].

فيقـول: «وهـو كـما يفـرق بـين الأمـور المختلفـة فإنـه يجمـع ويسـوّي بـين الأمـور المتماثلـة، فيحكـم في الـشيء خلقًـا وأمـرًا بحكـم مثلـه، لا يفـرق بـين متماثلـين ولا يسـوي بـين شـيئين غـير متماثلـين، بـل إنْ كانـا مختلفـين مُتضاديـن لم يسـوّ بينهـما»[3].

وقـد ذكـر شـيخُ الإسـلام تعريـفَ المِثـل: بأنـه النّظـير الـذي يقـاس عليـه ويُعتـبرَ بـه، ويـراد بـه مجمـوع القيـاس[4].

---

(١) الفتاوى، (٢٣٦/١١).

(٢) الفتاوى، (٢٠/٣).

(٣) الفتاوى، (١٩/١٣).

(٤) الفتاوى، (١٦/١٣، ١٧).

ولفظُ المِثل في القرآن الكريم وجهٌ مِن أوْجه السنّة الإلهية التي يُعرف بها.

ويتكلّم شيخُ الإسلام- رحمَه الله- في موضعٍ آخر عنْ هذا المفهوم للسنّة الإلهية، فيذكر أنّ: «طرق العلم: الحسّ، والخبر، والنظر، وكلّ إنسان يستدلّ مِن هذه الثلاثة في بعض الأمور، لكنْ يكون بعض الأنواع أغلب على بعض الناس في الدّين وغير الدين كالطبّ؛ فإنه تجربات وقياسات، وأهلُه منهم مَن تغلبُ عليه التّجربة، ومنهم مَن يغلب عليه القياس، والقياس أصلُه التجربة، والتجربة لا بدّ فيها من قياس، لكن مثل قياس العاديات لا تعرف فيه العلّة والمناسبة، وصاحب القياس مَن يستخرج العلّة المناسبة، ويعلّق الحكم بها والعقل خاصّة القياس والاعتبار والقضايا الكلية، فلا بدّ له من الحسّيات التي هي الأصل ليعتبر بها، والحسّ إن لم يكنْ مع صاحبه عقل وإلّا فقد يغلط»[1].

لذلك يتّضح لنا أنّ للسنّة مرادفات عند ابن تيمية، وهي المثل والاعتبار والقياس، ولذلك قام بشرح ذلك؛ فقال: «والاعتبار أنْ يقرن الشيء بمثله، فيعلم أنّ حكمه مثل حكمه، كما قال ابن عباس: هلّا اعتبرتم الأصابع بالأسنان؟ فإذا قال: ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢]، وقال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١] أفاد أنّ مَن عمل مثل أعمالهم جُوزي مثلَ جزائهم؛ ليحذر أنْ يعمل مثل أعمال الكفّار، وليرغب في أن يعمل مثل أعمال المؤمنين أتباع الأنبياء، قال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجوكَ مِنْهَا وَإِذًا لاَّ يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلاَّ قَلِيلاً {٧٦/١٧} سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً ﴾ [الإسراء: ٧٦، ٧٧]، وقال تعالى: ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا {٦٠/٣٣} مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً {٦١/٣٣} سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً ﴾ [الأحزاب:٦٠-٦٢].

(١) الفتاوى، (٧٦/١٣).

وقـد تـأتي السّـنن الإلهيـة- أيضًـا- عنـد شـيخ الإسـلام بمعنـى: كلـمات اللـه- تعـالى- التـي يأمـرُ بهـا هـذا الكـون، فسـبحانه: ﴿إِنَّمَـا أَمْـرُهُ إِذَا أَرَادَ شَـيْئًا أَنْ يَقُـولَ لَـهُ كُـنْ فَيَكُـونُ﴾ [يـس: ٨٢]، وهـي نوعـان: كلـمات كونيّـة وكلـمات دينيّـة، والكـون كلّـه داخـل هـذه الكلـمات[1].

وتـأتي السّـنن الإلهيـة- أيضًـا- عنـده بمعنـى: الحقيقـة الكونيّـة حيـث يقـول: «وكثـير ممّـن يتكلّـم في هـذه الحقيقـة ويشـهدها يشـهدُ هـذه الحقيقـة، وهـي الحقيقـة الكونيـة التـي يشـترك في شـهودها ومعرفتهـا المؤمـن والكافـر والـبرّ والفاجـر، وإبليـس معـترفٌ بهـذه الحقيقـة وأهـل النـار، قـال إبليـس: ﴿قَـالَ رَبِّ فَأَنظِـرْنِي إِلَى يَـوْمِ يُبْعَثُـونَ ﴾ [الحجـر: ٣٦]، وقـال: ﴿رَبِّ بِمَـآ أَغْوَيْتَنِـي لأُزَيِّنَـنَّ لَهُـمْ فِي الأَرْضِ وَلأُغْوِيَنَّهُـم أَجْمَعِـينَ﴾ [الحجـر: ٣٩]، وقـال: ﴿أَرَأَيْتَـكَ هَـذَا الَّـذِي كَرَّمْـتَ عَـلَيَّ ﴾ [الإسراء: ٦٢]، وأمثـال هـذا الخطـاب الـذي يقـرّ فيـه بـأنّ اللـه ربـّه وخـالقه وخـالقُ غـيره، وكذلـك أهـل النـار و﴿قَالُـوا رَبَّنَـا غَلَبَـتْ عَلَيْنَـا شِـقْوَتُنَا وَكُنَّـا قَوْمًـا ضَالِّـينَ﴾ [المؤمنـون: ١٠٦]، وقـال تعـالى: ﴿وَلَـوْ تَـرَى إِذْ وُقِفُـواْ عَـلَى رَبِّهِـمْ قَـالَ أَلَيْـسَ هَـذَا بِالْحَـقِّ قَالُـواْ بَـلَى وَرَبِّنَـا ﴾ [الأنعـام: ٣٠]»[2].

***

(١) انظر: الفتاوى، (٣٢٢/١١).

(٢) انظر: الفتاوى، (١٥٦/١٠، ١٥٧).

المبحثُ الرّابع

خصائصُ السّنن الإلهية عند شيخ الإسلام

للسننِ خصائصُ لا بدّ لنا من معرفتها حتى نستطيع أنْ نوظّفها، ونَفيد منها في واقعنا وحياتنا، ولقد حرص الكثيرُ من العلماء على توضيح تلك الخصائص؛ فهي حاكمةٌ على جميع الأفراد كما في السّنن الكونيّة تمامًا حيث يقول - تعالى- : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ ﴾ [الأنبياء: ٣٠]، وهي منضبطة وذات نظام ثابت حيث نجد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ {٣٨/٣٦} وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ {٣٩/٣٦} لَا الشَّمْسُ يَنبَغِي لَهَا أَن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾ [يس: ٣٨-٤٠].

فكما أنّ السنن الكونية أو الظواهر الكونية حاكمةٌ على الجميع، فتغلي المياه عند درجة مائة، وتتجمّد عند درجة الصفر، وتعطي هذه النتيجة لكلّ مَن يتعامل معها بغضّ النظر عن دينه ومذهبه، فكذلك السّنن الإلهية في الأفراد والأمم والمجتمعات.

فإذا وقفنا عند قانونٍ من قوانين الله- تعالى- كقانون النّصر نعلم أنّ له ضوابط ومعالم تنسحب على الجميع دونَ مجاملة ولا مُحاباة، فهي لا تفرق بين مجتمع ومجتمع، ولا تفرّق بين ديانة وديانة، ولا تفرّق بين جيل وجيل؛ لذا دعا القرآن الكريم إلى التفكّر في آثار السابقين، فالذي يفهم السّنن الإلهية وعمومها يملكُ القدرة على التّعامل مع هذه السّنن، ويحسن الاستعداد لنتائجها، وقد قال قومٌ جهلوا ذلك ندمًا في الآخرة: ﴿ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ [الملك: ١٠].

كما أنّ هذه السنن الإلهية تتّسم بالاطّراد، فهي لا تتبدّل ولا تتخلّف.

ونستطيع أن نقول: إنّ صفات هذه السّنن هي أنها:

١- ثابتة لا تتغيّر ولا تتبدل.

٢- حاكمة لا تحابي ولا تجامل.

٣- مطّردة لا تتوقّف ولا تتأجّل.

٤- عامّة لا تنتقي ولا تنتخب[(١)].

وبيّن شيخُ الإسلام ذلك في أثناء حديثه عن أنّ الله - تعالى - كما يفرّق بين الأمور المختلفة فإنه يجمع ويسوّي بين الأمور المُتماثلة، ثمّ بعد توضيحه لذلك المعنى يعقّب على هذا الكلام بقوله: «وقد بيّن - سبحانه وتعالى - أنّ السنة لا تتبدّل ولا تتحوّل في غيْر موضع»[(٢)].

ثمّ يقوم بتوضيح ذلك بأنّ المقصود أنّ الله أخبر أنّ سنته لن تتبدّل ولنْ تتحوّل، وسنته عادتُه التي يسوّي فيها بين الشيء ونظيره الماضي، وهذا يقتضي أنه- سبحانه- يحكمُ في الأمور المُتماثلة بأحكام مُتماثلة، ولهذا قال: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ ﴾ [القمر: ٤٣]، أي: أشباههم ونظائرهم، وقال: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾ [التكوير: ٧] قرن النظيرَ بنظيره، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم﴾ [البقرة: ٢١٤]، وقال: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاء مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاء أَبَدًا ﴾ [الممتحنة: ٤]، وقال: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فجعل التابعين لهم بإحسان مُشاركين لهم فيما ذكر من الرّضوان والجنة، وقد قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مِن بَعْدُ وَهَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ مَعَكُمْ فَأُوْلَئِكَ مِنكُمْ ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الحشر: ١٠]، وقال تعالى: ﴿وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [الجمعة: ٣] فمَن اتّبع السابقين الأوّلين كان منهم وهُم خيرُ الناس بعد الأنبياء، فإنّ أمّة محمد خيرُ أمّة أخرجت للناس، وأولئك خيرُ أمّة محمد كما ثبت

(١) انظر: مفهوم السنن الربانية من الفهم إلى التسخير دراسة في ضوء القرآن الكريم، د/ رمضان خميس الغريب، ص(٤٧) وما بعدها بتصرف كبير.

(٢) الفتاوى، (١٣/١٩، ٢٠).

في الصحاح مِن غير وجْه أنّ النبي ﷺ قال: «خير القرون القرن الذي بعثت فيهم، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم»[1].

ونستنتج ممّا سبق فهمَ شيخ الإسلام لخصائص السّنن، وأنها عامّة تطبق على كلّ الأفراد، ويشملهم نفسُ حكم الأوّلين ما داموا يفعلون فعلهم، سواء كان ذلك في الخير أو في الشرّ، وأنّ هذه السنن نافذةٌ حاكمة لا يستطيع أحدٌ ردّها أو أن يتجاوزها؛ فهي لا تُحابي.

ونجدُ في كلامه- أيضًا- ما نفهمُ منه هذا المعنى حيث يقول: «كلمات الله- تعالى- نوعان: كلمات كونيّة وكلمات دينية، فكلماته الكونية هي التي استعاذ بها النبي ﷺ في قوله: «أعوذ بكلمات الله التّامات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر»، وقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥]، والكون كلّه داخل تحت هذه الكلمات، وسائر الخوارق الكشفية التأثيرية»[2].

أي أنّ هذه الكلمات التي هي السّنن الإلهية قوانين حاكمة على كلّ شيء حتى الخوارق والمعجزات، فهي- أيضًا- واقعةٌ تحت سيطرتها فهي عامّة شاملة، ويقول في ذلك: «إنّ الأولى قدريّة كونيّة، والثانية شرعيّة دينية، وكشف الأولى العلم بالحوادث الكونية، وكشف الثانية العلم بالمأمورات الشرعية»[3].

ويحمدُ اللهَ- عزّ وجلّ- في مقدّمة كتاب الألوهية: ﴿الْحَمْدُ للهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِم يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١] العالم بما كان وما هو كائن وسيكون، الذي ﴿ وَإِذَا قَضَى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [البقرة: ١١٧] الذي ﴿يَخْلُقُ مَا يَشَاء وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [القصص: ٦٨]، ﴿وَهُوَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

(١) الفتاوى، (٢٣/١٣، ٢٤)، والحديث في شرح مشكل الآثار، (٢٦٠/٦)، والمعجم الكبير للطبراني، (٢١٢/١٨).
(٢) الفتاوى، (٣٢٢/١١).
(٣) الفتاوى، (٣٢٢/١١).

﴾ [القصص: ٧٠] الذي دلّ على وحدانيته في إلهيّته أجناس الآيات، وأبَان علمه لخليقته ما فيها مِن إحكام المخلوقات، وأظهر قدرته على بريّته ما أبدعه مِن أصناف المحدثات، وأرشد إلى فعله بسنته تنوّع الأحوال المختلفات...

عند تأمّل هذا الدّعاء نعلم كيف كان وعيُ الإمام- رحمه الله- بالسنّة الإلهية وخصائصها الحاكمة الشاملة لكلّ الأفراد والكائنات.

***

المبحثُ الخامس

حجيّةُ السّنن الربانيّة عند شيخ الإسلام ابن تيمية

إنّ السّنن الربانيّة قطعيّةُ الثبوت؛ لأنها جزءٌ من آيات القرآن الكريم الذي ثبت كلّه ثبوتًا قطعيًّا، وهي- أيضًا- قطعيّة الدّلالة؛ وذلك لكثرة تكرارها والتأكيد عليها وعلى مدلولاتها، والأمر في خواتيمها بالاعتبار والاتّعاظ سواء كان ذلك في الآيات التي ورد فيها لفظُ السّنة كـ: التداول الحضاري، والأجل، والتسخير، والإهلاك، وشكر النعم وكفرها، والتغيير، والترف والمترفين، إلى غير ذلك من السّنن المُثبتة في القرآن الكريم.

يقول ابن تيمية كلامًا يفهم منه حجيّة السّنن وثبوت حكمها: «وحقيقة الاستدلال بسنّته وعادته هي اعتبارُ الشيء بنظيره، وهو التسوية بين المتماثلين، والتفريق بين المختلفين، وهو الاعتبارُ المأمور به في القرآن كقوله تعالى: ﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ﴾ [آل عمران: ١٣]، وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، وإنّما تكون العبرة به بالقياس والتمثيل كما قال ابن عباس في دية الأصابع: هنّ سواء، واعتبروها بديّة الأسنان.

فإذا عرفت قصص الأنبياء ومَن اتّبعهم ومَن كذّبهم، وأنّ متبعيهم كان لهم النجاة والعافية والنصر والسعادة، ولمكذبيهم الهلاك والبوار؛ جعل الأمر في المستقبل مثلما كان في الماضي، فعلم أنّ مَن صدّقهم كان سعيدًا، ومَن كذّبهم كان شقيًّا، وهذه سنة الله وعادته، ولهذا يقول- سبحانه- في تحقيق عادته وسنّته، وأنّه لا ينقضها ولا يبدّلها: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٤٣]، ففي الدليل العقلي والسّمعي يقول: فإذا لم يكونوا خيرًا منهم فكيف ينجون من العذاب مع مماثلتهم لهم»[١]،[٢].

(١) النبوات، (١٦٥/١)، ط١، الطبعة السلفية.

(٢) انظر: مفهوم السنن الربانية من الفهم إلى التسخير، د/ رمضان خميس، ص(٥٣-٥٤) بتصرف واختصار كبيرَيْن.

المبحثُ السّادس

بينَ السّنن الإلهية الجارية والمعجزة لدى شيخ الإسلام ابن تيمية

للسّــنن الإلهيــة خصائــص ومميــزات قــد رأيناهــا ســابقًا، فهــي لا تحــابي ولا تجامــل ولا تســتثني، حاكمــةٌ عــلى جميــع الأفــراد، مطّــردة تشــمل جميــع الأجيــال والأمــم والأنفــس، ثابتــة لا تُنســخ ولا تتغــيّر، وهــذا مــا ذكــره شــيخ الإســلام مــن خصائــص السّــنن الإلهيــة.

أمّــا المعجــزة عنــد شــيخ الإســلام- رحمــه اللــه- فهــي، أيضًــا، ســنة مِــن ســنن اللــه - عــز وجــل - لا تــأتي إلّا بحُكمــه وإرادتــه وقدرتــه، قــد اختــصّ اللــه بهــا أنبيــاءه ورســله حتــى يســتطيعوا إثبــات رســالتهم لمَــن أرســلوا إليهــم، فهــي ســنّة إلهيــة لتأييدهــم، كــما فُعــل مــع إبراهيــم - عليــه الســلام - مــن أنّــه جعــل النــار بــردًا وســلامًا فــلا تحرقــه النــار ولا يمــوت مِــن دخانهــا، ويونــس - عليــه الســلام - يعيــش في بطْــنِ الحــوت، وغيرهــما مِــن الأنبيــاء، وهــذه الســنّة الخارقــة- أي: المعجــزة- لهــا قانونُهــا الثابــت المَنــوط بهــا[1].

يقــول شــيخُ الإســلام ابــن تيميــة- رحمــه اللــه: «وحقيقــة الأمــر أنّ مــا يــدلّ عــلى النبــوة هــو آيــةٌ عــلى النبــوة، وبرهــانٌ عليهــا، فــلا بــدّ أن يكــون مختصًّــا بهــا، لا يكــون مشــتركًا بــين الأنبيــاء وغيرهــم، والــربّ- تعــالى- لا ينقــض عادتــه التــي هــي ســنّته في التســوية بــين المُتماثلــين والتفريــق بــين المختلفــين، فهــو- ســبحانه- إذا ميّــز بعــض المخلوقــات بصفــات يمتــاز بهــا عــن غــيره ويختــصّ بهــا؛ قــرنَ بذلــك مِــن الأمــور مــا يمتــاز بــه عــنْ غــيره ويختــصّ بــه.

ولا ريــب أنّ النبــوّة يمتــاز بهــا الأنبيــاء ويختصّــون بهــا، واللــه- تعــالى- يصطفــي مِــن الملائكــة رســلاً ومِــن النــاس، وهــو أعلــمُ حيــث يجعــل رســالته، فمَــن خصّــه بذلــك كان لــه مِــن الخصائــص التــي لا تكــون إلّا لغــيره مــا يناســب ذلــك، فيســتدلّ بتلــك الخصائــص عــلى أنــه مِــن أهــل الاختصــاص

(١) السابق، ص(٥٦) بتصرف.

بالنّبـوة، وتلـك سـنّته وعادتـه في أمثالـه يميّزهـم بخصائـص يمتـازون بهـا عـن غيرهـم، ويعلـم أنّ أصحابهـا مـن ذلـك الصّنـف المخصـوص الذيـن هُـم الأنبيـاء مثـلاً.

فلـم تكـنْ لـه- سـبحانه- عـادة بـأنْ يجعـل مثـلَ آيـات الأنبيـاء لغيرهـم حتـى يقـال: إنّـه خـرقَ عادتَـه ونقضَهـا، بـل سـنته وعادتـه المطّـردة أنّ تلـك الآيـات لا تكـون إلّا مـع النبـوّة والإخبـار بهـا مـع التكذيـب بهـا أو الشـكّ فيهـا»[1].

***

(١) النبوات، (١٦٣/١).

المبحثُ السّابع

العلاقةُ بين المَسْطور والمَنْظور عند شيخ الإسلام

إنّ العلاقة بين المَسْطور الذي هو كتاب الله وسنّة رسوله وكلّ ما سُطّر وكُتب من علمٍ نافع مفيد، والمَنْظور الذي هو الكون والأحياء والحياة بما فيها من سعادة وشقاء وخير وشرّ؛ علاقةٌ وثيقة غير منفصلة لا تختلف عُراها.

فهذا العلم النافع المُستمد مِن الخالق والمُنسجم مع حقائق الخلق وتكوين الإنسان الفطري والقوانين التي تنظّم الكون والحياة هو الذي تقوم عليه الحياة الراشدة الفاضلة، وهو الذي يمنحها البقاءَ والاستمرار، وبدون ذلك تضيع حياةُ الإنسان بالضلال الذي هو ضدّ العلم، والبغي الذي هو اتباع الهوى.

ومِن هنا، كان طلب العلم عبادة، ومعرفتُه خشية، والبحثُ عنه جهادًا، وتعليمه لمَن لا يعلمه صدقة، ومذاكرتُه تسبيحًا، وبه يمجّد الله ويوحّد، وبه يرفع الله أقوامًا ويجعلهم للناس قادة وللعمران أمّة.

ولهذا ما تصدّق رجل بصدقةٍ أفضل مِن موعظة يعظُ بها جماعة فيتفرّقون وقد نفعَهم الله بها، ونعمة الهداية كلمةٌ من الخير يسمعها الرجل، ثمّ يهديها إلى أخٍ له، وهذه صدقة للأنبياء وورثتِهم، ولهذا كان الله وملائكته وحيتان البحر وطيرُ الهواء يصلّون على معلّم الناس الخير، كما أنّ كاتم العلم يلعنه الله ويلعنه اللاعنون، ولهذا مَن اشتغل بطلب العلم النافع بعدَ أداء الفرائض أو جلس مجلسًا يتفقّه فيه؛ كان هذا مِن أفضل الذكر[1].

ولقد تعدّدت كثيرٌ من المقالات التي تتحدّث عن هذه العلاقة عند شيخ الإسلام ابن تيمية، وهذا الأمر واضحٌ وجليٌ في مقالاته، وهي علاقة عظيمة تدعونا ألّا ننفصل عن هذا الكون

(١) انظر: الفكر التربوي عند ابن تيمية، د. ماجد عرسان الكيلاني، مكتبة دار تراث، المدينة المنورة، ص(٩١) بتصرف. وانظر: ابن تيمية كتاب الفتاوى علم السلوك، (١٠/٣٩، ٤٠).

الـذي يحيـط بنـا، فـسرُّ سـعادتنا يكمـنُ باكتشـافه وتسـخيره والاسـتفادة مـن بُنيانـه فيـما ينفـع الإسـلام والمسـلمين، ويـؤدّي إلى عـمارة هـذا الكـون، فعـمارة الكـون هـي الغايـة التـي مِـن أجلهـا خلـق اللـهُ الإنسـان.

وبهـذا التأمّـل المُتقـن في الكـون سنكتشـف خصائـصَ وصفـاتٍ عـلى الإنسـان أن يتحـلّى بهـا أثنـاءَ سـيره لتحقيـق غايتـه عـلى الأرض، مثـل: التـوازن، والنظـام، والدقـة، والتحديد، والهـدوء، ومراعاة المشـاعر؛ لذلـك كـثرت اللّمحـات الجميلـة حـول هـذا الموضـوع في فكـر شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة- رحمـه اللـه، ومنهـا مـا يقولـه شـيخُ الإسـلام في تفسـير قولـه تعـالى: ﴿ أَوَ مَـن كَانَ مَيْتًـا فَأَحْيَيْنَـاهُ وَجَعَلْنَـا لَـهُ نُـورًا يَمْـشِي بِـهِ فِي النَّـاسِ كَمَـن مَّثَلُـهُ فِي الظُّلُـمَاتِ لَيْـسَ بِخَـارِجٍ مِّنْهَـا ﴾ [الأنعـام: ١٢٢]، فهـذا وصـف المؤمـن كان ميتًـا في ظلمـة الجهـل فأحيـاه اللـه بـروحِ الرّسـالة ونـور الإيمـان، وجعـل لـه نـورًا يمـشي بـه في النـاس، وأمّـا الكافـر فميّـت القلـب في الظلـمات.

وسـمّى اللـه- تعـالى- رسـالته روحًـا، والـرّوح إذا عُدمـت فقـد فُقـدت الحيـاة. قـال اللـه- تعـالى: ﴿ وَكَذَلِـكَ أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ رُوحًـا مِّـنْ أَمْرِنَـا مَـا كُنـتَ تَـدْرِي مَـا الْكِتَـابُ وَلَا الْإِيمَـانُ وَلَكِـن جَعَلْنَـاهُ نُـورًا نَّهْـدِي بِـهِ مَـنْ نَّشَـاء مِـنْ عِبَادِنَـا ﴾ [الشـورى: ٥٢]. فذكـر هنـا الأصلـين وهُـما: الـروح والنـور، فالـروح الحيـاة والنـور النـور.

ويعطـي شـيخُ الإسـلام مثـالًا آخـر عـلى ذلـك فيقـول: وكذلـك يـضرب اللـهُ الأمثـال للوحـي الـذي أنزله حيـاةً للقلـوب ونـورًا لهـا بالمـاء الـذي ينزلـه مـن السـماء حيـاة لـلأرض، وبالنـار التـي يحصـل بهـا النـور، وهـذا كـما في قولـه تعـالى: ﴿ أَنـزَلَ مِـنَ السَّـمَاء مَـاء فَسَـالَتْ أَوْدِيَـةٌ بِقَدَرِهَـا فَاحْتَمَـلَ السَّـيْلُ زَبَـدًا رَّابِيًـا وَمِـمَّا يُوقِـدُونَ عَلَيْـهِ فِي النَّـارِ ابْتِغَـاء حِلْيَـةٍ أَوْ مَتَـاعٍ زَبَـدٌ مِّثْلُـهُ كَذَلِـكَ يَـضْرِبُ اللـهُ الْحَـقَّ وَالْبَاطِـلَ فَأَمَّـا الزَّبَـدُ فَيَذْهَـبُ جُفَـاء وَأَمَّـا مَـا يَنفَـعُ النَّـاسَ فَيَمْكُـثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِـكَ يَـضْرِبُ اللـهُ الأَمْثَـالَ ﴾ [الرعـد: ١٧]، فشـبّه العلـم بالمـاء المنـزّل مـن السـماء؛ لأنّ بـه حيـاة القلـوب، كـما أنّ بالمـاء حيـاة الأبـدان، وشـبّه القلـوب بالأوديـة؛ لأنّهـا محـلّ العلـم كـما أنّ الأوديـة محـلّ المـاء، فقلـب يسـعُ علـمًا كثـيراً، وواد يسـع مـاءً كثـيراً، وقلـبٌ يسـع علـمًا قليـلاً، وواد يسـع مـاءً قليـلاً، وأخـبر- تعـالى- أنـه يعلـو عـلى السّـيل مـن

الزّبد بسبب مخالطة الماء، وأنه يذهب جُفاء، أي: يرمى به ويخفى، والذي ينفع الناس يمكثُ في الأرض ويستقرّ، وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات فإذا ترابى فيها الحقّ ثارت فيها تلك الشهوات والشبهات ثمّ تذهب جفاء، ويستقرّ فيها الإيمان والقرآن الذي ينفع صاحبَه والناس.

وقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ [الرعد: ١٧]، فهذا المثل الآخر وهو الناري فالأول للحياة والثاني للضياء.

ونظيرُ هذين المثالين: المثالان المذكوران في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً﴾ إلى قوله: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاء﴾ إلى آخر الآية [البقرة: ١٧-١٩].

وأمّا الكافر ففي ظلمات الكفر والشّرك غيرُ حي، وإن كانت حياته حياةً بهيميّة فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التي سببها سببُ الإيمان، وبها يحصل للعبد السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة[١].

فمَن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها ولم يقمْ بما أمرَ به مِن الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلّقة بإلهيته وطاعة أمره وأمر رسوله؛ كان مِن جنس إبليس وأهل النار؛ وإنْ ظنّ مع ذلك أنه مِن خواصّ أولياء الله وأهل المعرفة والتحقيق الذين يسقط عنهم الأمرُ والنهي الشرعيّان؛ كان من أشرّ أهل الكفر والإلحاد[٢].

وهكذا مِن خلال تناول ابن تيمية لقضية المَسْطور والمَنْظور يظهر أنّ القرآن الكريم عُني عنايةً واضحة بالاثنين على سواء، فمعظم آيات القرآن تتحدّث عن قدرة الله في الآفاق والأنفس وتدبيرِ الله لهما مقرونةً بتكاليف شرعية وواجباتٍ عملية ما هي إلّا تحقيقٌ لتلك العلاقة بين المنظور والمسطور، وبين ما هو ديني وما هو كوني. لقد جاءت الشريعة لتنظّم حياتنا البشرية وعلاقتها بهذا الكون تسخيراً وفهماً؛ حتى يتحقّق للبشرية مرادُها التي أوجدها الله مِن أجله.

(١) الفتاوى، (٩٤/١٩، ٩٥).

(٢) مجموع الفتاوى، (١٥٦/١٠، ١٥٧).

بينَ الأمْر التكوينيّ والأمر التشريعي:

بـينَ مـا هـو دينـي شرعـي ومـا هـو كـوني في كتـاب اللـه تدخـلُ تلـك العناويـن، فهنـاك الكلـمات الدينيــة والكلــمات الكونيّــة، وهنــاك الإرادة الدينيــة والإرادة الكونيــة، وهنــاك الإذن الدينــي والإذن الكــوني، وهنــاك الكتــاب الدينــي والكتــاب الكــوني، وهنــاك الحكــم الدينــي والحكــم الكــوني، والقضــاء الدينــي والقضــاء الكــوني، والتحريــم الدينــي والتحريــم الكــوني.

وقـد قـام شـيخُ الإسـلام- رحمـه اللـه- بـشرح هـذه العناويـن مِـن خـلال اسـتخراج الآيـات الدّالـة عليها مِـن كتـاب اللـه، يقـول شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة: «إنّ اللـه -تعـالى - قـد بـيّن في كتابـه كلّ واحـدةٍ مـن: الكلـمات، والأمـر، والإرادة، والإذن، والكتـاب، والحكـم، والقضـاء، والتحريـم، ونحـو ذلـك مـمّا هـو دينـي موافـقٌ لمحبّـة اللـه ورضـاه وأمـره الشرعـي، ومـا هـو كـوني موافـقٌ لمشـيئته الكونيـة، مثـال عـلى ذلـك أنـه قـال في الأمـر الدينـي: ﴿إِنَّ اللــهَ يَأْمُـرُ بِالْعَـدْلِ وَالإِحْسَـانِ وَإِيتَـاء ذِي الْقُـرْبَى ﴾ [النحـل: ٩٠]، وقـال تعـالى: ﴿إِنَّ اللــهَ يَأْمُرُكُـمْ أَن تُـؤدُّواْ الأَمَانَـاتِ إِلَى أَهْلِهَـا ﴾ [النسـاء: ٥٨]، وقـال في الكـوني: ﴿ إِنَّمَـا أَمْـرُهُ إِذَا أَرَادَ شَـيْئًا أَنْ يَقُـولَ لَـهُ كُـنْ فَيَكُـونُ ﴾ [يـس: ٨٢]، وكذلـك قولـه: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَـا أَن نُّهْلِـكَ قَرْيَـةً أَمَرْنَـا مُتْرَفِيهَـا فَفَسَـقُواْ فِيهَـا فَحَـقَّ عَلَيْهَـا الْقَـوْلُ فَدَمَّرْنَاهَـا تَدْمِـيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦] عـلى إحـدى الأقـوال في هـذه الآيـة.

وقـال في الإرادة الدينيـة: ﴿يُرِيـدُ اللــهُ بِكُـمُ الْيُـسْرَ وَلاَ يُرِيـدُ بِكُـمُ الْعُـسْرَ﴾ [البقـرة: ١٨٥]، ﴿يُرِيـدُ اللــهُ لِيُبَـيِّنَ لَكُـمْ وَيَهْدِيَكُـمْ سُـنَنَ الَّذِيـنَ مِـن قَبْلِكُـمْ وَيَتُـوبَ عَلَيْكُمْ وَاللــهُ عَلِيـمٌ حَكِيمٌ ﴾ [النسـاء: ٢٦]، ﴿مَـا يُرِيـدُ اللــهُ لِيَجْعَـلَ عَلَيْكُـم مِّـنْ حَـرَجٍ وَلَكِـن يُرِيـدُ لِيُطَهَّرَكُـمْ﴾ [المائـدة: ٦].

وقــال في الإرادة الكـونيــة: ﴿وَلَـوْ شَـاء اللــهُ مَـا اقْتَتَلُـواْ وَلَكِنَّ اللــهَ يَفْعَـلُ مَا يُرِيـدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقـال: ﴿فَمَـن يُـرِدِ اللــهُ أَن يَهْدِيَـهُ يَـشْرَحْ صَـدْرَهُ لِلإِسْـلاَمِ وَمَـن يُـرِدْ أَن يُضِلَّـهُ يَجْعَلْ صَـدْرَهُ ضَيِّقًـا حَرَجًا كَأَنَّمَـا يَصَّعَّـد فِي السَّـماء ﴾ [الأنعـام: ١٢٥]، وقــال نـوح - عليـه السـلام -: ﴿وَلاَ يَنفَعُكُـمْ نُصْحِـي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَـحَ لَكُـمْ إِن كَانَ اللــهُ يُرِيـدُ أَن يُغْوِيَكُـمْ ﴾ [هـود: ٣٤]، وقـال تعـالى: ﴿إِنَّمَـا أَمْـرُهُ إِذَا أَرَادَ شَـيْئًا أَنْ يَقُـولَ لَـهُ كُـنْ فَيَكُـونُ ﴾ [يـس: ٨٢].

وقال تعالى في الإذن الديني: ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الحشر: ٥].

وقال تعالى في الكوني: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللهِ ﴾ [البقرة: ١٠٢].

وقال تعالى في القضاء الديني: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُواْ إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ [الإسراء: ٢٣]، أي: أمر.

وقال في الكوني: ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾ [فصلت: ١٢].

وقال تعالى في الحكم الديني: ﴿أُحِلَّتْ لَكُم بَهِيمَةُ الأَنْعَامِ إِلاَّ مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ غَيْرَ مُحِلِّي الصَّيْدِ وَأَنتُمْ حُرُمٌ إِنَّ اللهَ يَحْكُمُ مَا يُرِيدُ﴾ [المائدة: ١]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ [الممتحنة: ١٠].

وقال تعالى في الكوني عن ابن يعقوب: ﴿فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىَ يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ ﴾ [يوسف: ٨٠]، وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ١١٢].

وقال تعالى في التحريم الديني: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ ﴾ [المائدة: ٣]، ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ ﴾ [النساء: ٢٣].

وقال في التحريم الكوني: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ [المائدة: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴾ [الذاريات: ١٩].

وقال تعالى في الدينية: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ﴾ [البقرة: ١٢٤].

وقال تعالى في الكونية: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ بِمَا صَبَرُواْ ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

ومنه قولُه ﷺ المستفيض عنه من وجوه في الصحاح والسنن والمسانيد أنه كان يقول في استعاذته: «أعوذ بكلمات الله التامّات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر»[1]، ومِن المعلوم أنّ هذا

(١) سنن النسائي، باب: ذكر ما يكب العفريت ويطفئ شعلته، (٦/٢٣٧)، ح(١٠٧٩٢).

هـو الكـوني الـذي لا يخـرج منـه شيء عـن مشـيئته وتكوينـه، وأمّـا الكلـمات الدينيـة فقـد خالفهـا الفجّـار بمعصيته[١].

وقـال- أيضًـا- في موضـع آخـر: «إنّ كثـيرًا مـن النـاس يتكلّـم بلسـان (الحقيقـة)، ولا يفـرّق بـين الحقيقة الكونيـة القدريـة المتعلقـة بخلقـه ومشـيئته، وبـين الحقيقـة الدينية المتعلقـة برضـاه ومحبّته»[٢].

ويقـول أيضًـا: «الإرادة الكونيـة هـي مشـيئته لمـا خلقـه، وجميـع المخلوقـات داخلـة في مشـيئته وإرادتـه الكونيـة، والإرادة الدينيـة هـي المتضمّنـة محبّتـه ورضـاه المتناولـة لمـا أمـر بـه وجعلـه شرعًـا ودينًـا، وهـذه مختصّـة بالإيمـان والعمـل الصالـح»[٣].

وأدخـل- أيضًـا- في مواضـع أخـرى مِـن كلامـه تحـت مـا هـو دينـي ومـا هـو كـوني لفـظ: البعـث والإرسـال والجعـل.

فجعـلَ البعـث الكـوني في قولـه تعـالى: ﴿فَـإِذَا جَـاء وَعْـدُ أُولاهُـمَا بَعَثْنَـا عَلَيْكُـمْ عِبَـادًا لَّنَـا أُوْلِي بَـأْسٍ شَـدِيدٍ فَجَاسُـواْ خِـلاَلَ الدِّيَـارِ وَكَانَ وَعْـدًا مَّفْعُـولاً ﴾ [الإسراء: ٥].

وقـال في البعـث الدينـي: ﴿هُـوَ الَّـذِي بَعَـثَ فِي الْأُمِّيِّـينَ رَسُـولًا مِّنْهُـمْ يَتْلُـو عَلَيْهِـمْ آيَاتِـهِ وَيُزَكِّيهِـمْ وَيُعَلِّمُهُـمُ الْكِتَـابَ وَالْحِكْمَـةَ﴾ [الجمعـة: ٢]، وقـال تعـالى: ﴿وَلَقَـدْ بَعَثْنَـا فِي كُلِّ أُمَّـةٍ رَّسُـولاً أَنِ اعْبُـدُواْ اللـهَ وَاجْتَنِبُـواْ الطَّاغُـوتَ﴾ [النحـل: ٣٦].

وأمّـا لفـظ الإرسـال فقـال في الإرسـال الكـوني: ﴿وَهُـوَ الَّـذِي أَرْسَـلَ الرِّيَـاحَ بُـشْرًا بَـيْنَ يَـدَيْ رَحْمَتِـهِ ﴾ [الفرقـان: ٤٨].

وقـال في الدينـي: ﴿إِنَّـا أَرْسَـلْنَاكَ شَـاهِدًا وَمُبَـشِّرًا وَنَذِيـرًا ﴾ [الأحـزاب: ٤٥]، وقـال تعـالى: ﴿إِنَّـا أَرْسَـلْنَا نُوحًـا إِلَى قَوْمِـهِ﴾ [نـوح: ١]، وقـال تعـالى: ﴿ إِنَّـا أَرْسَـلْنَا إِلَيْكُـمْ رَسُـولًا شَـاهِدًا عَلَيْكُـمْ كَـمَا

---

(١) الفتاوى، (٢٤/١٠-٢٦).

(٢) الفتاوى، (٢٦٦/١١).

(٣) الفتاوى، (٢٦٦/١١).

أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ [المزمل: ١٥]، وقال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ﴾ [الحج: ٧٥].

وأمّا لفظ الجعل فقال في الكوني: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ﴾ [القصص: ٤١].

وقال في الديني: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿ مَا جَعَلَ اللَّهُ مِن بَحِيرَةٍ وَلاَ سَآئِبَةٍ وَلاَ وَصِيلَةٍ وَلاَ حَامٍ﴾ [المائدة: ١٠٣][١].

وهكذا نستنتج ممّا سبق تعدّدَ طريقة القرآن في عرضه لقضية السّنن من خلال فهم شيخ الإسلام للسّنن؛ حيث يتحدّث شيخ الإسلام عن قضية السنن، ووضّح أنها ذُكرت بدلالات مُختلفة، فمرّة ذكرت بلفظ السنة، ومرّة ذكرت بلفظ الاعتبار، ومرّة بمعنى الطريقة الإلهية المعهودة في الكون، ومرّة بمعنى الحقيقة، ومرّة بمعنى مصطلح الكلمة والكلمات، ومرّة بلفظ العادة والدأب، وفي مرّات أخرى تردُ تحت الإرادة الإلهية الكونية التي تنبعُ فيها الأحكام والمقاصد التكوينيّة مثل: الأمر الكوني، والبعث الكوني، والإرسال الكوني، والحكم الكوني، والجعل الكوني، والتحريم الكوني، والقضاء الكوني، والإذن الكوني، والتحريم الكوني؛ ومرّات أخرى وردت من خلال القصص القرآني ثمّ الإشارة إلى النظر لهؤلاء السابقين والاستفادة ممّا حدث لهم، وأنه سوف يلحقنا مثل ما لحقهم.

وهكذا نجده يشيرُ في معظم أحاديثه وتفسيراته لآياتِ السنن إلى هذه الأساليب المتنوعة للقرآن الكريم لهذه السنن، ويدلّ على مدى أهمية السنن بالنسبة لحياتنا البشرية.

وكثيرًا ما يقرن اللهُ - عز وجل - السننَ الكونية بالأوامر الإلهية؛ لينبّهنا على أنّ هذا النظام الكوني يجبُ أن يقترن- أيضًا- بالأنظمة البشرية حتى يحدثَ التوازن المطلوب[٢].

***

(١) الفتاوى، (٢٦٩/١١، ٢٧٠).

(٢) راجع: فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري، عادل بن بويزيد عيساوي، ص(٢٠).

المبحثُ الثّامن

السّننُ الربّانية والإرادةُ الإلهية

فـرَّق الشـيخُ بـيْن السـنن الربّانيـة والإرادة الإلهيـة، ووضّـح أنـه لا تعـارض بينهـما؛ فـإنّ طاعـة اللـه - عـز وجـل - وتنفيـذَ أوامـره الدينيـة هـي التـي تجعـل الإنسـان مـن أهـلِ طاعتـه - سـبحانه -، ومخالفـة أوامـره الدينيـة وعصيانـه لهـا هـي التـي تجعلـه مـن الفجّـار والكافريـن، ولا تتعـارض تلـك الطاعـة للأوامـر الدينيـة مـع قضـاء اللـه وقـدره، فقضـاؤه نافـذٌ لا محالـة، وكل أفعـال الإنسـان واقعـةٌ تحـت إرادتـه العامّـة التـي هـي القضـاء والقـدر.

وقـد لامَ شـيخُ الإسـلام- رحمـه اللـه- مَـن لا يسـتطيع التفريـق بـين الآمـرِ بالمأمـور النبـوي الإلهـي الفرقـاني الشرعـي الـذي دلّ عليـه الكتـاب والسـنة، وبـين مـا يكـون في الوجـود مِـن الأحـوال التـي تجـري عـلى أيـدي الكفـار والفجّـار، فيشـهدون وجـه الجمـع مـن جهـةِ كـوْن الجميـع بقضـاء اللـه وقـدره وربوبيّتـه وإرادتـه العامـة، وأنـه داخـل في ملكـه.

يقـول شـيخُ الإسـلام في ذلـك: «هـذا أصـلٌ عظيـم مـن أعظـم مـا يجـب الاعتنـاءُ بـه عـلى أهـل طريـق اللـه السـالكين سـبيلَ إرادة الدّيـن يريـدون وجهَـه؛ فإنـه قـد دخـل بسـبب إهـمال ذلـك عـلى طوائـف منهـم مِـن الكفـر والفسـوق والعصيـان مـا لا يعلمـه إلّا اللـه، حتـى يصـيروا معاونين عـلى البغـي والعدوان للمُسـلطين في الأرض مـن أهـلِ الظّلـم والعلـوّ الذيـن يتوجّهـون بقلوبهـم في معاونـة مَـن يهوونـه مِـن أهل العلـو في الأرض والفسـاد، ظانّـين أنهـم إذا كانـت لهـم أحـوالٌ أثّـروا بهـا في ذلـك كانـوا بذلـك مِـن أوليـاء اللـه، فـإنّ القلـوب لهـا مـن التأثـير أعظـم مـمّا للأبـدان، لكـن إنْ كانـت صالحـة كان تأثيرهـا صالحًـا، وإن كانـت فاسـدة كان تأثيرهـا فاسـدًا، فالأحـوالُ يكـون تأثيرهـا محبوبًـا للـه تـارة، ومكروهًـا للـه أخـرى.

وقـد تكلّـم الفقهـاء عـلى وجـوب القـود عـلى مَـن يقتـل بغـيره في الباطـن حيـث يجـبُ القـود في ذلـك، ويستشـهدون ببواطنهـم وقلوبهـم الأمـر الكـوني، ويعـدّون مجـرّد خـرق العـادة لأحدهـم بكشـفٍ لهـم أو بتأثـير يوافـق إرادتـه؛ هـو كرامـة مـن اللـه لـه، ولا يعلمـون أنّـه في الحقيقـة إهانـة، وأنّ الكرامـة لـزوم الاسـتقامة، وأنّ اللـه لم يكـرم عبـده بكرامـة أعظـمَ مـن موافقتـه فيـما يحبّـه ويرضـاه، وهـو طاعتـه وطاعـة رسـوله ومـوالاة أوليائـه، ومعـاداة أعدائـه، وهـؤلاء هُـم أوليـاء اللـه»[1].

---

(١) الفتاوى، كتاب علم السلوك، (٢٩/١٠، ٣٠).

المبحثُ التّاسع

كيفيةُ الاستدلال على السنّة الإلهية

يعتبر الدليل النقلي من كتابٍ وسنةٍ من أعظم الأدلة على ثبوت هذه السنة وفاعليتها؛ لكونهما يمثلان المرجعية العليا للفكر والعقل الإسلامي، والدليل النقلي يعني كلّ ما أشار إليه القرآن الكريم من أدلة وبراهين وقصص وأمثال وحكم وأحكام مما يدل على معنى السنن، سواء فهم ذلك صراحة كأن يرد بألفاظ السنن المعهودة في القرآن، أو يرد بما يشير إلى سننيتها بكل أنواع الدلالة، كدلالة السياق وغيرها.

وهذه النصوص والأدلة كما أنها حاكمة على من نزلت عليهم أيام نزولها هي كذلك إلى قيام الساعة، ولذلك تبقى مصدريّتها ومرجعيّتها وقيوميّتها في عالم الدّلالة من أقوى الطّرق الدّالة على السنن ما بقيت السموات والأرض.

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله: «فإنّ نصوص الكتاب والسنة اللّذين هما دعوة محمد ﷺ يتناولان عمومَ الخلق بالعموم اللّفظي والمعنوي، أو بالعموم المعْنوي، وعهود الله في كتابه وسنة رسوله تنالُ آخر هذه الأمّة كما نالت أوّلها، وإنما قصّ الله علينا قصص مَن قبلنا مِن الأمم لتكون عبرةً لنا، فنشبّه حالنا بحالهم، ونقيس أواخر الأمم بأوائلها، فيكون للمؤمن مِن المتأخّرين شبهٌ بما كان للمؤمن مِن المتقدّمين، ويكون للكافر والمنافق مِن المتأخّرين شبهٌ بما كان للكافر والمنافق من المتقدّمين، كما قال- تعالى- لمّا قصّ قصة يوسف مفصّلة وأجْمَلَ قصصَ الأنبياء، ثمّ قال: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى﴾ [يوسف: ١١١]»[١].

وهكذا نجد أنّ الدليل النّقلي من أقوى الأدلة إثباتًا لنسبة الجملة المفيدة خاصة ما يتعلّق بالسنّة الاجتماعية والنفسية والتاريخية، ولا يعني ذلك الاقتصارَ على ما أثبته القرآن فقط، بل القرآن ذاتُه يحيل إلى غيره مِن الأدلّة المعتبرة من إعمال العقل والتدبّر والسير في الأرض لاكتشافها[٢].

ولقد أشار ابنُ تيمية سابقًا في منهجيّته في التعامل مع القرآن أنه يجب علينا تدبّرُ الآيات وفهمُها، وإعمال العقل في فهْم ما ورد في كتاب الله - عز وجل -.

(١) الفتاوى، (٤٢٥/٢٨).

(٢) انظر: فقه السنن الإلهية، عادل بو يزيد العيساوي، ص(١٤٦) بتصرف كبير.

المبحثُ العاشر

أنواعُ السّنن الإلهية من خلال آثار شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله

لقد تنوّعت السّنن الإلهية التي تحكم هذا الكون بما فيه من أنفس ومجتمعات وأحداث إلى: سنن إلهية كليّة، وأخرى جزئية، ونجد وصفًا دقيقًا لهذه السّنن بكلا نوعيها في كتاب الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية للدكتور عبد الله محمد الأمين؛ حيث يقول: «إنّ حركة الوجود تخضع لسُنن ونواميس إلهيّة، ولقد طرح القرآن الكريم إشكاليّةَ السّنن التي تحكم حركةَ الوجود حفظًا له مِن الفوضى والفساد، ولما كان عمران الأرض مَقصدًا مِن مقاصد الرِّسالات السَّماوية كانت سننُ المُداولة والمدافعة والاستبدال والاستدراج وغيرها مِن السّنن الحضارية هي الحاكمةَ على الواقع، ومِن ثمّ فإنّ السَّيرورة الحضارية للأفراد والأمم محكومةٌ بهذه السنن والقوانين المضطردة، وهي سننٌ محايدة: ﴿كُلاًّ نُّمِدُّ هَـؤُلاء وَهَـؤُلاء مِنْ عَطَاء رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاء رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴾ [الإسراء: ٢٠].

وهذه السّننُ المحايدة تعتبر سننًا جزئية تعطي كلّ مَن يوظِّفها على قدر سعْيه في تسخيرها والتعامل معها.

غيْر أنّ هناك سننًا كُليَّة هي السنن التي جعلها الله مفتاحًا لقيام الحضارات بمفهومها الشامل كسُنَّة الإيمان: ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُواْ وَاتَّقَواْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاء وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وما ينبغي ملاحظته أنّه لا غنى للسنن الجزئية عن السنن الكليَّة، ولا غنى للسنن الكلية عن السنن الجزئيّة، فحضارة تؤمن بالله ولكنها لا تكتشف سنن الآفاق والأنفس- وهي سننٌ جزئية- هي حضارة عاطلة؛ وحضارة تستنطق السنن الجزئية يومًا بعد يوم- كالحضارة الغربية- دون أن تهتدي للإيمان الصحيح- وهو سنّة كليّة- هي حضارة تائهة، ضارّة لنفسها نافعة لغيرها عند اكتشافها لسنن الرّقي المادي، وهذا يعني أنّ لهذه الدنيا مقاييسها التي تجري على المؤمن والكافر»[1].

---

(١) الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية دراسة مقارنة، عبد الله محمد الأمين، ص(٦٦).

ونظـرًا لمـا قدّمـه الشـيخ- رحمـه اللـه- في علـم السّـنن نجـد أنّـه عُنـي عنايـةً كبـيرة بالسـنن الجزئيـة، كـما عُنـي بالسّـنن الكليـة، ومِـن هـذه السّـنن الكليـة: سـنّة الإيمـان والكفـر، سـنّة الهدايـة والضـلال، الشّـقاء والسـعادة، الأسـباب والمسـبّبات.

وتحـدّث- أيضًـا- عـنِ الأمـر الإلهـي الكـوني بوصفـه سـنّة كليّـة، ومـا يتفـرّع عنـه مـن سُـنن وأحـكام إلهيّـة، مثـل: الإذن الكـوني، والجعـل الكـوني، والإرسـال، والبعـث، والكتابـة، والقضـاء والتحريـم والآيـات التكوينيـة الكونيـة والعهـود، وهـذه السـنن ارتبطـت بـكلّ الجوانـب الاجتماعيـة والنفسـية والماديـة الطبيعيـة.

وأمّـا السّـنن الجزئيـة فمثـل: سـنة النّـصر والهزيمـة، وسـنّة التمكـين، وسـنّة البقـاء والفنـاء، وسـنّة الثـواب والعقـاب، وسـنّة التـوازن وتسـخير الكـون، وسـنّة اللـه في الحسـنات والسـيئات، وغيرهـا.

وتعـدّدت مشـاركات ومعالجـات وإدراكاتُ ابـن تيميـة للسّـنن الربانيـة، فشـملت السـنن النفسـية بمـا تحويـه مـن مفـردات، والسّـنن الاجتماعيـة بمـا تحويـه مـن مفـردات، والسّـنن التشريعيـة ومـا تحويـه، والسّـنن الطبيعيـة الكونيـة أو مظاهـر السّـنية في الكـون، والسّـنن التاريخيـة.

خلاصةٌ واستنتاج:

وبعدَ هذه التّطوافة يمكننا أن نقول:

تحدّثنـا في هـذا الفصـل عـن عـدّة نقـاط تخـصّ علاقـة شـيخ الإسـلام بالسّـنن الإلهيـة تنظـيراً وتطبيقًـا، وكانـت بداياتُ هـذه الدّراسـة معرفتنـا بالمؤهّـلات التـي جعلـت شـيخنا مؤهّـلاً لمعرفـة واسـتنباط السّـنن الإلهيـة، وتوصّلنـا في هـذه الدراسـة إلى أنّ أهـمّ هـذه المؤهّـلات:

١ـ مكوّنات شخصية ابن تيمية وصفاته النفسية، ومنها:

التأمّل والعمق.

حضور البديهة.

الاستقلال الفكري.

إخلاصه في طلب الحقّ.

فراستُه.

قدرته على التقعيد.

معرفته بالقصص القرآني.

٢- تكامل العلوم العقلية والدينية.

٣- ثقافته الواسعة.

٤- التجاوب بين ابن تيمية وعصره.

وكان لنـا في هـذا الفصـل- أيضًـا- لقـاءٌ مـع شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة والتدبّـر السّـنني عنـده واسـتنباطها مـن كتـاب اللـه.

كـما عرفنـا تعريفَـه للسّـنن وخصائصهـا وحجيّـة السّـنن الربانيـة عنـد شـيخ الإسـلام، وأنّهـا قطعيّـةُ الثبـوت؛ لأنهـا جـزءٌ مـن القـرآن الكريـم.

أيضًـا، كان لنـا في هـذا الفصـل معرفـةٌ للعلاقـة بـين السّـنن الإلهيـة والمعجـزة الإلهيـة، والعلاقـة بـين المَسـطور والمنْظـور، وأنّ الكـون مصـدرٌ مـن مصـادر المعرفـة السّـنية يكـون مُتكامـلاً تمامًـا مـع الكتـاب والسّـنة؛ لذلـك جـاءت الأمثلـة في القـرآن مرتبطـةً بمـا في الكـون مِـن مخلوقـات، فمثـلاً نجـدُ الظـلام والنور وعلاقتهـم بالإيمـان والكفـر، ضيـق الصـدر للكافريـن كمَـن يصعّـد في السـماء، وشـبه حيـاة الكافريـن وأعمالهـم بزبـدِ البحـر ليـس لـه أهميّـة كـما شـبه العلـم بالمـاء.

وأيضًـا وضّـح وبـيّن شـيخُ الإسـلام العلاقـةَ بـين المسـطور والمنظـور، والعلاقـة بـين الأمـر التشريعـي والأمـر التكوينـي، وبـيّن أنّ الأول يتعلّـق برضـاه ومحبّتـه، والثـاني يتعلّـق بخلقـه وقـدره ومحبّتـه.

وأيضًـا فـرّق الشـيخُ بـين السّـنن الربانيّـة والإرادة الإلهيّـة، وبـيّن أنـه لا تعـارض بينهـما، وأنّـه لا تعـارض بـيْن أن يكـون الإنسـانُ مِـن أهـل طاعـة اللـه - عـز وجـل - فيكـون مـن أهْـل الإيمـان، أو

يعْصيه فيكون مِن أهل الكفر، مع قضاء الله وقدره؛ فقضاؤه نافذٌ لا محالة، وكلّ أفعال الإنسان واقعةٌ تحتَ إرادته العامّة التي هي القضاء والقدر.

يعتبر الدليلُ النقلي من الكتاب والسنّة مِن أعظم الأدلّة على ثبوت السنة وفاعليّتها؛ لكوْنهما يمثّلان المرجعيّة العليا للفكر والعقل، والدليل النقلي يعني كلّ ما أشارَ إليه القرآن الكريم مِن أدلّة وبراهين وقصص وأحكامٍ وأمثال، ممّا يدلّ على معنى السّنن.

تنوّعت السّنن الإلهية عند شيخ الإسلام ابن تيمية بيْن سنن كليّة وأخرى جزئية، وأيضًا ما بيْن السّنن الاجتماعية والسّنن الكونية، والسّنن الإيمانية والسّنن النفسية.

***

الفصلُ الرّابع

الجانبُ التّطبيقي من السّنن الربّانية لدى ابن تيمية

المبحثُ الأوّل

سنّةُ الله في الأسباب والمسبّبات مِن خلال فهْم الشيخ لها

تعريفُ السّبب:

السبب في اللغة: كلّ شيء يتوصّل به إلى غيره، أو هو: كلّ شيء يتوصّل به إلى شيء غيره وقد تسبّب إليه، والجمعُ أسباب، وكلّ شيء يتوصّل به الشيء فهو سبب، وجعلت فلانًا سببًا إلى فلان في حاجتي وودجًا، أي: وصلة وذريعة، وقوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] قال ابن عباس: المودّة، وقال مجاهد: تواصلهم في الدّنيا، وقال أبو زيد: الأسباب: المنازل، والله - عز وجل - مسبّب الأسباب، ومنه التّسبيب، وأسباب السموات: مراقيها، وقيل: أسباب السماوات: نواحيها[1].

وفي قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا {٨٤/١٨} فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٤، ٨٥] نجد أنّ معنى الآية: ويسّرنا له أسباب التمكّن كـ: العلم والقدرة، فتبع سببّ التّمكن، واتّخذه موصّلاً إلى مقصده.

سنّة الله في الأسباب والمسبّبات:

خلق الله - سبحانه وتعالى - هذا الكونَ وجعله مُرتبطًا بالأسباب والمسبّبات، وهذا القانونُ الإلهي نجده واضحًا ظاهرًا حاكماً لهذا الكون؛ حيث نجد أنّ كلّ المكوّنات في هذا الكون تسير على الأسباب والمسبّبات وربط النتائج بالمقدمات.

فنجد مثلاً أنّ النبات لا يكتمل نموّه إلّا إذا تعرّض للضوء، والسحاب لا يصبح مطرًا إلّا بالأسباب التي قدّرها الله له، والإنسان لا ينمو ويعيش ويقدر على متطلبات الحياة إلّا بالتماسه لأسبابِ الرزق والسعادة، ولا ينجو وينجح في الآخرة إلّا بالتماسه لأسباب النجاة، وكذلك لا ترتفع الأمم ولا تتقدّم إلّا بالتماسها أسباب التقدّم والرقي.

---

(١) لسان العرب لابن منظور، دار صادر، بيروت، (١٠٠/٧).

فكلّ شيء في هذا الكون مرتبطٌ بالأسباب؛ فالنصر له أسبابه، والهزيمة لها أسبابها، وبقاء الأمم وتطورها له أسبابه، كما أنّ هلاك الأمم- أيضًا- له أسبابه.

لذلك اهتمّ شيخ الإسلام ابن تيمية بهذه السّنة الكليّة، وقام بتوضيحها، وتوضيح الشّبهات التي ارتبطت بها، مُبينًا أنّها لا تتنافى مع التوكّل على الله - عز وجل -، ولا تتعارض مع قدر الله - عز وجل -.

كما بيّن لنا ما هي الأسباب التي يجب على الإنسان أن يسلكَها حتى يكون سعيدًا في الدنيا والآخرة، وسنقوم بتوضيح هذه الأمور.

يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: «... فليس في الدنيا والآخرة شيء إلّا بسبب، والله خالق الأسباب والمسبّبات»[١].

كما بيّن أنّ قانون الأسباب والمسبّبات من سننِ الله - عز وجل - الحاكمة التي لا تتحوّل ولا تتبدّل، وأن ترك الأسباب ينافي سنّة الله في خلقه وأوامره، فيقول معترضًا على مَن يُنكر الأسباب: «وهذا وأمثاله من قلّة العلم بسنة الله في خلقه وأمره؛ فإنّ الله خلق المخلوقات بأسباب، وشرع للعباد أسبابًا ينالون بها مغفرتَه ورحمته وثوابه في الدنيا والآخرة، فمَن ظنّ أنه بمجرد توكّله مع تركه ما أمره الله به مِن الأسباب يحصلُ مطلوبُه، وأنّ المطالب لا تتوقّف على الأسباب التي جعلها الله أسبابًا لها؛ فهو غالط؛ فالله- سبحانه- وإنْ كان قد ضمنَ للعبد رزقه وهو لا بدّ أن يرزقه ما عمّر فهذا لا يمنع أنْ يكون ذلك الرزق المضمون له أسبابٌ تحصل مِن فعل العبد وغير فعلِه، فأيضًا قد يرزقه حلالًا وحرامًا، فإذا فعل ما أمره به رزقه حلالًا، وإذا ترك ما أمره الله به فقد يرزقه حرامًا»[٢].

ويقول- أيضًا- في موضعٍ آخر مؤكّدًا نفسَ المعنى: «بل جميع ما يخلقه الله ويقدّره إنّما يخلقه ويقدّره بأسباب، لكن مِن الأسباب ما يخرج عن قدرة العبد، ومنها ما يكون مقدورًا له، ومِن الأسباب ما يفعله العبد، ومنها ما لا يفعله»[٣].

---

(١) الفتاوى، (٧٠/٨).

(٢) الفتاوى، (٥٢٩/٨).

(٣) الفتاوى، (٥٣٤/٨).

بـل بـيّن- رحمـه اللـه- أنّـه كـما أنّ قـوام الحيـاة مرتبـطٌ بالأسـباب؛ فـإنّ المـوت مرتبـط بالأسـباب، فيقولـه- رحمـه اللـه: «أمّـا قـول القائـل: إنّ الغـذاء والقـوام هـو مِـن فعـل اللـه فـلا يمكـن طلبُـه كالحيـاة فليـس كذلـك هـو، بـل مـا فعـل اللـه بأسـباب يمكـن طلبـه ودفعـه بالأسـباب التـي قدّرهـا اللـه، فـإذا أردنـا أن يمـوت عـدوّ اللـه سـعيْنا في قتلـه، وإذا أردنـا دفـعَ ذلـك عـن المؤمنـين دفعْنـاه بمـا شرع اللـه الدّفـع بـه، قـال تعـالى: ﴿وَعَلَّمْنَـاهُ صَنْعَـةَ لَبُـوسٍ لَّكُـمْ لِتُحْصِنَكُـم مِّـن بَأْسِـكُمْ﴾ [الأنبيـاء: ٨٠]، وقـال تعـالى: ﴿ وَجَعَـلَ لَكُـمْ سَرَابِيـلَ تَقِيكُـمُ الْحَـرَّ وَسَرَابِيـلَ تَقِيكُـم بَأْسَـكُمْ ﴾ [النحـل: ٨١]، وقـال تعـالى: ﴿ وَلْيَأْخُـذُواْ حِذْرَهُـمْ وَأَسْـلِحَتَهُمْ ﴾ [النسـاء: ١٠٢].

وهـذا مثـل دفـعِ الحـرّ والـبرد عنّـا هـو مـن فعـل اللـه باللبـاس والاكْتسـاء، ومثـل دفـعِ الجـوع والعطـش هـو مِـن فعـل اللـه بالطّعـام والـشراب، وهـذا كـما أنّ إزهـاق الـرّوح هـو مِـن فعـل اللـه، ويمكـن طلبُـه بالقتـل، وحصـول العلـم والهـوى في القلـب هـو مِـن فعـل اللـه، ويمكـن طلبـه بأسـبابه المأمـور بهـا وبالدعـاء»[1].

لا يمكنُ الالتفاتُ إلى الأسباب وحدها

بـيَّن شـيخُ الإسـلام- رحمـه اللـه- أنّـه لا يمكـن الاعتـماد عـلى الأسـباب وحدهـا؛ لأنّ ذلـك شركٌ في التوحيـد، وكذلـك محْـو الأسـباب نقـصٌ في العقـل وقـدحٌ في الـشرع، فيقـول في ذلـك: «ولهـذا قـال بعضهـم: الالتفـاتُ إلى الأسـباب شركٌ في التوحيـد، ومحْـو الأسـباب أن تكـون أسـبابًا: نقـص في العقـل، والإعـراض عـن الأسـباب بالكليـة قـدح في الـشرع، ومجـرد الأسـباب لا يوجـب حصـول المسـبّب»[2].

ثـمّ يفـسّر شـيخُ الإسـلام هـذا الـكلامَ ويـشرح الالتفـات إلى الأسـباب، فيـبيّن أنّ الالتفـات إلى الأسـباب شركٌ في التوحيـد وظلـم وجهـل، وهـذه حـال مَـن دعـا غـير اللـه وتـوكّل عليـه، ويقـول: «وأمّـا قولهـم: محْـو الأسـباب أنْ تكـون أسـبابًا: نقـص في العقـل فهـو كذلـك، وهـو طعـنٌ في الـشرع

(١) الفتاوى، (٥٣٤/٨).

(٢) الفتاوى، (١١٩/٨).

أيضًـا؛ فـإنّ كثـيرًا مـن أهـل الـكلام أنْكـروا الأسـباب بالكليّـة وجعلـوا وجودهـا كعدمِهـا، كـما أنّ أولئـك الطبيعيّـين جعلوهـا علـلاً مُقتضيـة، وكـما أنّ المعتزلـة فرّقـوا بـين أفعـال الحيـوان وغيرهـا، والأقـوال الثلاثـة باطلـة؛ فـإنّ اللـه يقـول: ﴿يُرْسِـلُ الرِّيَـاحَ بُـشْرًا بَـيْنَ يَـدَيْ رَحْمَتِـهِ حَتَّـى إِذَا أَقَلَّـتْ سَـحَابًا ثِقَـالاً سُـقْنَاهُ لِبَلَـدٍ مَّيِّـتٍ فَأَنزَلْنَـا بِـهِ الْـمَاء فَأَخْرَجْنَـا بِـهِ مِـن كُلِّ الثَّمَـرَاتِ﴾ [الأعـراف: ٥٧]، ويقـول تعـالى: ﴿وَاللَّـهُ أَنـزَلَ مِـنَ السَّـمَاء مَـاء فَأَحْيَـا بِـهِ الأَرْضَ بَعْـدَ مَوْتِهَـا﴾ [النحـل: ٦٥]، وقـال تعـالى: ﴿يُضِـلُّ بِـهِ كَثِـيراً وَيَهْـدِي بِـهِ كَثِـيراً﴾ [البقـرة: ٢٦]، وأمثـال ذلـك، فمَـن قـال يفعـل عندهـا لا بهـا، ويعـرف الفـرق بـين الجبهـة والعـين في اختصـاص أحدهـما بقـوة ليسـت في الآخـر.

وأمّـا قولهـم: الإعـراض عـن الأسـباب بالكليـة قـدحٌ في الـشرع، بـل هـو- أيضًـا- قـدح في العقـل؛ فـإن أفعـال العبـاد مـن أقـوى الأسـباب لمـا نيـطَ بهـا، فمَـن جعـل الذيـن آمنـوا وعملـوا الصالحـات كالمُفسـدين في الأرض أو يجعـل المتّقـين كالفجّـار؛ فهـو مِـن أعظـم النـاس جهـلاً وأشـدّهم كفـرًا، بـل مـا أمـر اللـه مـن العبـادات والدعـوات والعلـوم والأعـمال مـن أعظـم الأسـباب فيـما نيـط بهـا مـن العبـادات، وكذلـك مـا نهـى عنـه مـن الكفـر والفسـوق والعصيـان هـي مِـن أعظـم الأسـباب لمـا علـق بهـا مـن الشـقاوات...».

ويقـول أيضًـا: «وكذلـك مَـن تـرك الأسـباب المشروعـة المأمـور بهـا أمـرَ إيجـاب أو أمـرَ اسـتحباب مِـن جلـب المنافـع أو دفـع المضـار؛ قـادحٌ في الـشرع خـارجٌ عـن العقـل»[(١)].

الأسبابُ تكون بسببها لا عندها

ردّ شـيخ الإسـلام عـلى مَـن قالـوا: إنّ الأسـباب تكـون بسـببها لا عندهـا مثـل أنْ يقولـوا: إنّ الإحـراق يحصـل عنـد وجـود النـار، وليـس بالنـار، والشـبع يحصـل لا بـالأكل ولكـن عنـد وجـوده، والإرواء ونحـو ذلـك.

يقـول شـيخُ الإسـلام في ذلـك: «قـال بعـضُ الفضـلاء: تكلّـم قـومٌ مـن النـاس في إبطـال الأسـباب والقـوى والطبائـع فأضحكـوا العقـلاءَ عـلى عقولهـم، ثـمّ إنّ هـؤلاء يقولـون: لا ينبغـي للإنسـان

(١) الفتاوى، (١٧٧/٨، ١٧٨).

أن يقـول: إنـه شـبع بالخبـز وروي بالمـاء، بـل يقـول: شـبعت عنـده ورويـت عنـده؛ فـإنّ اللـه يخلـق الشـبع والـريّ ونحـو ذلـك مـن الحـوادث عنـد هـذه المقترنـات بهـا عـادة لا بهـا، وهـذا خـلافُ الكتـاب والسـنة؛ فـإن اللـه- تعـالى- يقـول: ﴿وَهُـوَ الَّـذِي يُرْسِـلُ الرِّيَـاحَ بُـشْرًا بَـيْنَ يَـدَيْ رَحْمَتِـهِ حَتَّـى إِذَا أَقَلَّـتْ سَحَابًا ثِقَـالاً سُـقْنَاهُ لِبَلَـدٍ مَّيِّـتٍ فَأَنزَلْنَـا بِـهِ الْـمَاء فَأَخْرَجْنَـا بِـهِ مِـن كُلِّ الثَّمَـرَاتِ ﴾ [الأعـراف: ٥٧]، وقـال تعـالى: ﴿قَاتِلُوهُـمْ يُعَذِّبْهُـمُ اللّـهُ بِأَيْدِيكُـمْ﴾ [التـوبة: ١٤]، وقـال: ﴿قُـلْ هَـلْ تَرَبَّصُـونَ بِنَـا إِلاَّ إِحْـدَى الْحُسْـنَيَيْنِ وَنَحْـنُ نَتَرَبَّـصُ بِكُـمْ أَن يُصِيبَكُـمُ اللّـهُ بِعَـذَابٍ مِّـنْ عِنـدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَـا ﴾ [التوبـة: ٥٢]، وقـال: ﴿وَنَزَّلْنَـا مِـنَ السَّـمَاء مَـاء مُّبَـارَكًا فَأَنبَتْنَـا بِـهِ جَنَّـاتٍ وَحَـبَّ الْحَصِيـدِ﴾ [ق: ٩]، وقـال: ﴿ وَهُـوَ الَّـذِيَ أَنـزَلَ مِـنَ السَّـمَاء مَـاء فَأَخْرَجْنَـا بِـهِ نَبَـاتَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعـام: ٩٩]، وقـال: ﴿هُـوَ الَّـذِي أَنـزَلَ مِـنَ السَّـمَاء مَـاء لَّكُـم مِّنْـهُ شَرَابٌ وَمِنْـهُ شَـجَرٌ فِيـهِ تُسِـيمُونَ {١٠/١٦} يُنبِـتُ لَكُـم بِـهِ الـزَّرْعَ وَالزَّيْتُـونَ وَالنَّخِيـلَ وَالأَعْنَـابَ وَمِـن كُلِّ الثَّمَـرَاتِ ﴾ [النحـل: ١٠-١١]، وقـال تعـالى: ﴿إِنَّ اللّـهَ لاَ يَسْـتَحْيِي أَن يَـضْرِبَ مَثَـلاً مَّـا بَعُوضَـةً فَـمَا فَوْقَهَـا فَأَمَّـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ فَيَعْلَمُـونَ أَنَّـهُ الْحَـقُّ مِـن رَّبِّهِـمْ وَأَمَّـا الَّذِيـنَ كَفَـرُواْ فَيَقُولُـونَ مَـاذَا أَرَادَ اللّـهُ بِهَـذَا مَثَـلاً يُضِـلُّ بِـهِ كَثِـيراً وَيَهْـدِي بِـهِ كَثِـيراً ﴾ [البقـرة: ٢٦]، وقـال: ﴿قَـدْ جَاءكُـم مِّـنَ اللّـهِ نُـورٌ وَكِتَـابٌ مُّبِـينٌ {١٥/٥} يَهْـدِي بِـهِ اللّـهُ مَـنِ اتَّبَـعَ رِضْوَانَـهُ سُـبُلَ السَّـلاَمِ ﴾ [المائـدة: ١٥-١٦]، ومثـل هـذا في القـرآن كثـير.

وهكـذا إذا تأمّلنـا هـذه الآيـات الكريمـة التـي استشـهد بهـا شـيخُ الإسـلام في ضرورة الأخـذ بالأسـباب؛ نجـد أنّ اللـه- تعـالى- قـال: ﴿فَأَنزَلْنَـا بِـهِ الْـمَاء فَأَخْرَجْنَـا بِـهِ مِـن كُلِّ الثَّمَـرَاتِ ﴾ فاسـتعمل القـرآنُ البـاءَ في ﴿فَأَخْرَجْنَـا بِـهِ﴾ للدّلالـة عـلى السـببيّة، كـما جعـل المـاءَ سـببًا لإنبـات الجنـات جعـل العـذاب سـببًا للإصابـة.

وأيضًـا مِـن سـنّته- سـبحانه- أنْ جعـل الأمثلـة سـببًا لهدايـة البـشر أو ضلالهـم، وجعـل الآيـات البيّنات المُحكـمات سـبيلًا لتلـك الهدايـة، فسـبحانه مِـن حكمتـه أنْ جعـل كلّ الأمـور مرتبطـةً بأسـبابها، وجعـل الأخـذَ بالأسـباب مِـن تمـام الإيمـان باللـه - عـز وجـل -، وسـوف يحاسـب الإنسـان عـلى تـرك الأسـباب وعـدم الأخـذ بهـا.

وكـما اهتـمّ القـرآن بالأخـذ بالأسـباب وأهمّيتهـا في تحقيـق الأهـداف الدنيويـة والأخرويـة كذلـك جـاءت السـنّة النبويـة مؤكّـدة عـلى ذلـك؛ فحـثّ النبـي ﷺ في كثـيرٍ مـن الأحاديـث عـلى الأخـذ بالأسـباب، يقـول شـيخ الإسـلام- رحمـه اللـه: «وكذلـك في الحديـث عـن النبـي ﷺ كقولـه: (لا يموتـنّ أحدكـم إلّا آذنتمـوني بـه؛ فـإنّ صـلاتي عليـه بركـة ورحمـة)، وقـال ﷺ: (إنّ هـذه القبـور مملـوءة عـلى أهلهـا ظلمـة، وإنّ اللـه جعـل بصـلاتي عليهـم نـورًا)، ومثـل هـذا كثـير.

ونظـيرُ هـؤلاء الذيـن أبطلـوا الأسـبابَ المقـدّرة في خلـق اللـه مَـن أبطـل الأسـباب المشروعـة في أمـر اللـه؛ كالذيـن يظنّـون أنّ مـا يحصـل بالدّعـاء والأعـمال الصالحـة وغـير ذلـك مِـن الخـيرات إن كان مقـدّرًا حصـل بـدون ذلـك، وإن لم يكـن مقـدرًا لم يحصـل بذلـك، وهـؤلاء كالذيـن قالـوا للنبـي ﷺ: أفـلا نـدعُ العمـل ونتّـكل عـلى الكتـاب؟ فقـال: (لا، اعملـوا؛ فـكلٌّ ميـسّر لمـا خلـق لـه)[1].

وفي السّـنن أنـه قيـل: يـا رسـولَ اللـه، أرأيـت أدويـة نتـداوى بهـا، ورقـى نسـترقي بهـا، وتقـاة نتّقيهـا، هـل تـردّ مِـن قـدر اللـه شـيئًا؟ فقـال: (هـي مِـن قـدر اللـه)[2].

ولهـذا قـال مَـن قـال مِـن العلـماء: الالتفـات إلى الأسـباب شركٌ في التوحيـد، ومحْـو الأسـباب أن تكـون أسـبابًا تغْيـير في وجـه العقـل؛ والإعـراضُ عـن الأسـباب بالكلّيّـة قـدحٌ في الـشرع، واللـه- سـبحانه- خلـق الأسـباب والمسـبّبات، وجعـل هـذا سـببًا لهـذا، فـإذا قـال القائـل: إنْ كان هـذا مقـدّرًا حصـل بـدون السـبب وإلّا لم يحصـل؛ جوابـه أنـه مقـدّر بالسـبب، وليـس مقـدرًا بـدون السـبب»[3].

للأسباب شروطٌ وموانع

يتحـدّث شـيخُ الإسـلام عـن الأسـباب ويـرى: أنّـه يجـب أنْ يعلـم الإنسـان أنّ كلّ شيء في هـذا الكـون مـشروطٌ بأسـباب لـكي يتحقّـق، كـما أنّ هـذا الـشيء لـه موانـع تقتـضي عـدمَ تحقّقـه أو الوصـول إليـه، ولـكي يصـلَ الإنسـان إلى مـا يريـد لا بـدّ أنْ يحقّـق الأسـباب المشروطـة لهـذا الـشيء، ويقـضي عـلى

(١) سنن الترمذي، باب: الشقاء والسعادة، (٤٤٥/٤)، ح(٢١٣٦)، وقال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح، وقال الألباني: صحيح.

(٢) سنن الترمذي، ت شاكر، باب: ما جاء في الرقى، (٤٠٠/٤).

(٣) مجموع الفتاوى، (١٣٩/٨).

كلّ الموانـع التـي تحـول بينـه وبـين الوصـول إلى هدفـه، فمثـلاً لـكي يـزرع الفـلاح حقلَـه ويحصـل عـلى النبـات المطلـوب؛ لا بـدّ أن يأخـذ بالـشروط المطلوبـة مـن حـرثِ الأرض واختيـار البـذور وزرعهـا، ثـمّ رعايتهـا وريّهـا بانتظـام، وأيضًـا عليـه بـأن يزيـلَ الموانـع مثـل: منـع الآفات مـن الوصـول للنبـات، ومقاومة الأمـراض التـي تصيـب الـزرع، وغيرهـا.

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية: «فكلّ سببٍ هو موقوف على وجود الشروط وانتفاء الموانع»[١].

ثـمّ قـال: «فـلا بـدّ مـن تمـام الـشروط، وزوال الموانـع، وكلّ ذلـك بقضـاء اللـه وقـدره، وليـس شيء مـن الأسـباب مسـتقلًّا بمطلـوب، بـل لا بـدّ مـن انضـمام أسـباب أخَـر إليـه، ولا بـدّ- أيضًـا- مِـن صرف الموانـع والمعارضـات عنـه حتـى يحصـل المقصـود، فـكلّ سـببٍ فلـه شريـك ولـه ضـدّ، فـإنْ لم يعاونـه شريكـه ولم يـصرف عنـه ضـدّه لم يحصـل سـببه؛ فالمطـر وحـده لا ينبـت النبـات إلّا بمـا ينضـمّ إليـه مـن الهـواء والـتراب وغـير ذلـك، ثـمّ الـزرع لا يتـمّ حتـى تـصرف عنـه الآفـات المُفسـدة لـه، والطعـام والـشراب لا يغـذي إلّا بمـا جعـل في البـدن مـن الأعضـاء والقـوى»[٢].

ويقـول ابـن تيميـة- رحمـه اللـه: «وليـس شيء مـن الأسـباب مُفتعـلاً بمطلوبـه، بـل لا بـدّ مـن انضـمام أسـباب أخـرى إليه».

هـذه الأسـبابُ الأخـرى هـي التـي يسـمّيها البعـض بالـشروط، وقـد سـمّاها ابـن تيميـة نفسُـه شروطًـا في موضـعٍ آخـر مـن كلامـه حيـث يقـول: «مجـرّد الأسـباب لا يوجـب حصـولَ المسـبّب؛ فـإنّ المطـر إذا نـزل وبـذر الحَـبّ لم يكـن ذلـك كافيًـا في حصـول النبـات، بـل لا بـدّ مِـن ريـح مربيـة بـإذن اللـه، ولا بـدّ مـن صرف الانتفـاء عنـه، فـلا بـدّ مـن تمـام الـشروط، وزوال الموانـع، وكلّ ذلـك بقضـاء اللـه وقـدره، وكذلـك أمـر الآخـرة ليـس بمجـرد العمـل ينـال الإنسـان السـعادةَ بـل هـي سـبب، ولهـذا قـال النبـي ﷺ: «إنـه لـن يدخـل أحدكـم الجنـة بعملـه»، قالـوا: ولا أنـت يـا رسـول اللـه؟ قـال: «ولا أنـا إلّا

(١) مجموع الفتاوى، (١٣٣/٨).

(٢) مجموع الفتاوى، (١٦٧/٨).

أنْ يتغمّـدني اللـه برحمـة منـه وفضـل»[1]، وقـد قـال: ﴿ادْخُلُـواْ الْجَنَّـةَ بِمَـا كُنتُـمْ تَعْمَلُـون﴾ [النحـل: ٣٢] فهـذه بـاءُ السّـببية، أي: بسـبب أعمالكـم، والـذي نفـاه النبـي ﷺ بـاء المقابلـة عوضًـا وثمنًـا كافيًـا في دخـول الجنـة، بـل لا بـدّ مـن عفْـو اللـه وفضلـه ورحمتـه، فبعفْـوه يمحـو السـيئات، وبرحمتـه يـأتي بالخـيرات، وبفضْلـه يضاعـف الـبركات»[2][3].

كيف نعتبرُ بالأسباب؟

للأسـباب اعتبـاراتٌ كي تصـل بالإنسـان إلى طريـق السـعادة في الدّنيـا والآخـرة، وتحقّـق أهدافَـه في الحيـاة كـما يجـب، لذلـك وضـع- رحمـه اللـه- للأسـباب ثلاثـةَ أمـور يجـب مراعاتُهـا عنـد الأخـذ بالأسـباب، هـي:

أحدهـم: أنّ السـبب المُعـين لا يسـتقلّ بالمطلـوب، بـل لا بـدّ مـن أسـباب أخـرى، ومـع هـذا فلَهـا موانـع، فـإنْ لم يكمـل اللـه الأسـبابَ ويدفـع الموانـع؛ لم يحصـل المقصـود، وهـو- سـبحانه- مـا شـاء كان وإنْ لم يشـأ النـاس، ومـا شـاء النـاس لا يكـون إلّا أن يشـاء اللـه.

الثـاني: أنّـه لا يجـوز أنْ يعتقـد أنّ الـشيء سـبب إلّا بعلـم، فمَـن أثبـت شـيئًا سـببًا بـلا علـم، أو يخالـف الـشرع؛ كان مبطـلًا، مثـل أنْ يظـنّ أنّ النـذر سـببٌ في دفـع البـلاء وحصـول النّعماء.

الثالـث: أنّ الأعـمال الدينيـة لا يجـوز أنْ يتّخـذ منهـا شـيئًا سـببًا إلّا أن تكـون مشروعـة؛ فـإنّ العبـادات مبناهـا عـلى التوقيـف؛ فـلا يجـوز للإنسـان أن يـشرك باللـه فيدعـو غـيره، وإن ظـنّ أنّ ذلـك سـببٌ في حصـول بعـض أغراضـه، وكذلـك لا يُعبَـد اللـه بالبـدع المخالفـة للشريعـة، وإنْ ظـنّ ذلـك، فـإنّ الشـياطين قـد تعـين الإنسـان عـلى بعـض مقاصـده إذا أشرك، وقـد يحصـل بالكفـر والفسـوق والعصيـان بعـضُ أغـراض الإنسـان فـلا يحـلّ لـه ذلـك؛ إذ المفسـدة الحاصلـةُ بذلـك أعظـمُ

(١) صحيح البخاري، باب: القصد والمداومة على العمل، (١٢١/٧)، وصحيح مسلم، باب: لن يدخل أحدكم الجنة بعمله بل برحمة الله، (٢١٦٩/٤).

(٢) مجموع الفتاوى، (١٦٧/٨).

(٣) انظر: كتاب السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، الدكتور عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، ط: ٣.، ص(٢٨، ٢٩).

مِـن المصلحـة الحاصلـة بـه؛ إذِ الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم بعـث بتحصيـل المصالـح وتكميلهـا، وتعطيـل المفاسـد وتقليلهـا، فـما أمـر اللـهُ بـه فمصلحتـه راجحـة، ومـا نهـى عنـه فمفسـدتُه راجحـة[١].

بيْنَ الأسباب والقدر

ذمّ شـيخُ الإسـلام ابـن تيميـة- رحمـه اللـه- الذيـن تركـوا الأخـذَ بالأسـباب اعتـمادًا عـلى معرفتهـم بالقـدر، ووضّـح أنّ هـذا خطـأ عظيـم، يقـول في ذلـك: «ومِـن هـؤلاء طائفـة هُـم أعلاهـم قـدرًا، وهُـم مستمسـكون بالدّيـن في أداء الفرائـض المشـهورة، واجتنـاب المحرّمـات المشـهورة، لكـنْ يغلطـون في تـرك مـا أمـروا بـه مِـن الأسـباب التـي هـي عبـادة، ظانّـين أنّ العـارف إذا شـهد القـدر أعـرض عـن ذلـك، مثـل مَـن يجعـل التـوكّل منهـم أو الدّعـاء ونحـو ذلـك مِـن مقامـات العامّـة دون الخاصـة، بنـاءً عـلى أنّ مَـن شـهد القـدر علـم أنّ مـا قـدّر سـيكون، فـلا حاجـة إلى ذلـك، وهـذا غلـطٌ عظيـم؛ فـإن اللّـه قـدّر الأشـياء بأسـبابها كـما قـدّر السـعادة والشـقاوة بأسـبابها، كـما قـال النبـي ﷺ: «إنّ اللّـه خلـق للجنـة أهـلاً، خلقهـا لهـم وهُـم في أصـلاب آبائهـم، وبعمـل أهـل الجنـة يعملـون»[٢]، وكـما قـال النبـي ﷺ لمّـا أخبرهـم بـأنّ اللّـه كتـب المقاديـر، فقالـوا: يـا رسـول اللـه، أفـلا نـدع العمـل ونتّـكل عـلى الكتـاب؟ فقـال: (لا، اعملـوا فـكلّ ميـسّر لمـا خُلـق لـه، أمّـا مَـن كان مِـن أهـل السـعادة، فسـيُيَسر لعمـل أهـل السـعادة، وأمّـا مَـن كان مِـن أهـل الشـقاوة، فسـيُيَسر لعمـل أهـل الشـقاوة»[٣].

بيْنَ الأسباب والتوكّل

إنّ التـوكّل هـو اعتـمادُ القلـب عـلى اللـه - عـز وجـل - في النّفـع والـضّر، وفي الـرزق، وفي قضـاء جميـع الحوائـج، ولكـنْ لا يتـمّ هـذا التـوكّل الـذي هـو مِـن أفضـل العبـادات عنـد اللـه - عـز وجـل - إلّا بعدمـا يأخـذ الإنسـانُ بكافّـة الأسـباب المتاحـة لديـه.

وقـد فصّـل شـيخُ الإسـلام ابـن تيميـة هـذا المعنـى وردّ عـلى الشـبهات، ومِـن كلامـه- رحمـه اللـه: «ومِـن هنـا غلطـوا في تـرك الأسـباب المأمـور بهـا، وظنّـوا أنّ هـذا مِـن تمـام التـوكّل، والتّـوكل مَقـرون

---

(١) الفتاوى، (١٣٧/١، ١٣٨).

(٢) مسند إسحاق بن راهويه، (٤٤٨/٢).

(٣) الفتاوى، (١٧١/١٠)، وصحيح مسلم، (٢٠٥٠/٤)، وصحيح البخاري، (١٧١/٦).

بالعبادة في قوله: ﴿فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]، والعبادة فعلُ المأمور، فمَن ترك العبادة المأمور بها وتوكّل لم يكنْ أحسن حالًا ممّن عبدَه ولم يتوكّل عليه، بل كلاهما عاصٍ لله تاركٌ لبعض ما أمِر به»[١].

وفي موضعٍ آخر يقول: «وأمّا مَن ظنّ أنّ التوكّل يغني عن الأسباب المأمور بها فهو ضالّ، وهذا كمَن ظنّ أنه يتوكّل على ما قدر عليه من السعادة والشقاوة دونَ أن يفعل ما أمَره الله».

ويوضّح- أيضًا- كيف يكون التوكّل، فيقول: «فعلى العبد أن يكون قلبُه معتمدًا على الله لا على سببٍ من الأسباب، والله ييسّر له مِن الأسباب ما يُصلحه في الدنيا والآخرة، فإنْ كانت الأسباب مقْدورة له وهو مأمور بها فعلَها مع التوكّل على الله، كما يؤدّي الفرائض، وكما يجاهد العدو، ويحمل السلاح ويلبس جنّة الحرب، ولا يكتفي في دفْع العدوّ على مجرّد توكّله دونَ أن يفعل ما أمِر به من الجهاد، ومن ترك الأسباب المأمور بها؛ فهو عاجزٌ مفرّط مذموم.

وفي صحيح مسلم، عنْ أبي هريرة t عن النبي ﷺ قال: (المؤمن القوي خيرٌ وأحبّ إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلّ خير، احرصْ على ما ينفعك، واستعنْ بالله ولا تعجز؛ وإنْ أصابك شيء فلا تقل: لو أنّي فعلت لكان كذا وكذا، ولكنْ قل: قدّر الله وما شاء فعل؛ فإنّ لو تفتح عمل الشيطان)[٢].

وفي سنن أبي داود: أنّ رجليْن تحاكما إلى النبي ﷺ فقضى على أحدهما، فقال المقضي عليه: حسبنا الله ونعم الوكيل. فقال ﷺ: «إنّ الله يلوم على العجز، ولكن عليك بالكيس، فإنْ غلبك أمرٌ فقل: حسبنا الله ونعم الوكيل»[٣].

وقد تكلّم الناس في حمل الزّاد في الحجّ وغيره من الأسفار، فالذي مضت عليه سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين وأصحابه والتابعين لهم بإحسان وأكابر المشايخ هو حمل الزاد؛ لما في ذلك مِن طاعة الله ورسوله وانتفاع الحامل ونفعه للناس»[٤].

---

(١) الفتاوى، (١٧٧/٨).

(٢) صحيح مسلم، (٢٠٥٢/٤).

(٣) شعب الإيمان، (٤٢٩/٢).

(٤) الفتاوى، (٥٢٩/٨).

ثـمّ يتابـع ابـن تيميـة- رحمـه اللـه- كلامَـه، ويذكـر أنّ الدعـاء والتـوكّل مـن أفضـل العبـادات فيقـول: «فقـد ظـنّ بعـض النـاس أنّ ذلـك (الدّعـاء والتـوكّل) لا تأثـير لـه في حصـول مَطلـوب، ولا دفـع مَرهـوب، ولكنّـه عبـادة مَحْضـة، ولكـن مـا حصـل بـه حصـل بدونـه، وظـنّ آخـرون أنّ ذلـك مجـرّد علامـة، والصـواب الـذي عليـه السـلف والأئمـة والجمهـور أنّ ذلـك مـن أعظـم الأسـباب التـي تُنـال بهـا سـعادة الدنيـا والآخـرة»[1].

ويقـول شـيخُ الإسـلام- أيضًـا- موضّحًـا بعـضَ شـبهات النـاس حـول الأسـباب والتـوكّل: «ومـا قـدّره اللـه بالدعـاء والتـوكّل والكسـب وغـير ذلـك مـن الأسـباب إذا قـال القائـل: فلـو لم يكـنِ السّـبب مـاذا يكـون بمنزلـة مـن يقـول: هـذا المقتـول لـو لم يقتـل هـل كان يعيـش، وقـد ظـنّ بعـض القدريّـة أنـه كان يعيـش، وظـنّ بعـض المنتسـبين إلى السـنة أنـه كان يمـوت.

والصّـواب أنّ هـذا تقديـر لأمـر علـم اللـهُ أنّـه يكـون؛ فاللـه قـدّر موتـه بهـذا السـبب، فـلا يمـوت إلّا بـه، كـما قـدّر اللـه سـعادة هـذا في الدنيـا والآخـرة بعبادتـه ودعائـه وتوكّلـه وعملـه الصالـح وكسْـبه، فـلا يحصـل إلّا بـه، وإذا قـدّر عـدم هـذا السـبب لم يعلـم مـا يكـون المقـدَّر، وبتقديـر عدمـه فقـد يكـون المقـدّر حينئـذ أنـه يمـوت، وقـد يكـون المقـدَّر أنـه يحيـى، والجـزم بأحدهـما خطـأ»[2].

***

(١) الفتاوى، (٨/٥٣٠، ٥٣١).

(٢) الفتاوى، (٨/٥٣١).

المبحثُ الثّاني

سنةُ الله في الاختلاف

الاختلاف في اللغة:

يعنـي عـدمَ الاتفـاق عـلى الـشيء، بـأن يأخـذ كلّ واحـدٍ طريقًـا غـير طريـق الآخريـن في أمريْـن مـن الأمـور.

ويعني- أيضًا- عدمَ التساوي: فكلّ ما لم يتساو فقد تخالف.

والاختـلاف والخـلاف هـو المضـادّة، وقـد خالفـه مخالفـة وخلافًـا فهـو يـدلّ عـلى مـا يـدلّ عليـه لفـظُ الاختـلاف، وإن كان معنـاه أعـمّ؛ إذ هـو مِـن الضّـد، ولا يلـزم مـن كلّ مختلفـين أن يكونـا ضدّيـن، وإن كان كلّ ضديـن مختلفـين[١].

لقـد أمرنـا اللـه - عـز وجـل - بالاجتـماع والائتـلاف، ونهانـا عـن التفـرق والاختـلاف، قـال تعـالى: ﴿ وَاعْتَصِمُـواْ بِحَبْـلِ اللّــهِ جَمِيعًـا وَلاَ تَفَرَّقُـواْ ﴾ [آل عمـران: ١٠٣].

وقال رسول الله ﷺ: «وَلا تَخْتَلِفُوا؛ فَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمُ اخْتَلَفُوا فَهَلَكُوا»[٢].

وفي حديـث أخرجـه الترمـذي قـال ﷺ: «عَلَيْكُـمْ بِالجَمَاعَـةِ، وَإِيَّاكُـمْ وَالفُرْقَـةَ؛ فَـإِنَّ الشَّـيْطَانَ مَـعَ الوَاحِـدِ، وَهُـوَ مِـنَ الاثْنَـيْنِ أَبْعَـدُ»[٣].

ويقـول شـيخ الإسـلام- رحمـه اللـه تعـالى: «وأمرنـا اللـه- تعـالى- بالاجتـماع والائتـلاف، ونهانـا عـن التفـرّق والاختـلاف»[٤].

---

(١) لسان العرب، (٤٣٠/١).

(٢) صحيح البخاري، باب: ما يذكر في الأشخاص والخصومة بين المسلم واليهود، (١٢٠/٣).

(٣) سنن الترمذي، كتاب الفتن، باب: ما جاء في لزوم الجماعة، (٤٦٥/٤)، وانظر: السنة الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد، عبد الكريم زيدان، ص(١٣٧) بتصرف.

(٤) مجموع الفتاوى، (١٨٦/١٩).

وهـذا يعنـي أنّ الاختـلاف سـنة بشريـة لا يمكـن إغفالهـا، أو يسـتحيل أن يوجـد مجتمـع بـشري دون أن يكـون بـين أفـراده اختلافـات، يذكـر شـيخ الإسـلام ذلـك ويوضّحـه في أثنـاء حديثـه عـنْ دعـاء النبـي ﷺ لأمّتـه حيـث يقـول- صلـوات اللـه وسـلامه عليـه- في الحديـث الصحيـح: «سـألت ربي لأمتـي ثلاثًـا فأعطـاني اثنتـيْن ومنعنـي واحـدة، سـألته أن لا يهلـك أمتـي بسِـنَة عامّـة فأعطانيهـا، وسـألته أن لا يسـلّط عليهـم عـدوًا مـن غيرهـم فيجتاحهـم فأعطانيهـا، وسـألته أنْ لا يجعـل بأسـهم بينهـم فمنعنيهـا، وقـال: يـا محمّـد، إني إذا قضيـت قضـاءً لا يُـرَد»[1]. فيقـول شـيخ الإسـلام: «وكذلـك في الصحيحـيْن: لمّـا نـزل قولـه تعـالى: ﴿قُـلْ هُـوَ الْقَـادِرُ عَـلَى أَن يَبْعَـثَ عَلَيْكُـمْ عَذَابًـا مِّـن فَوْقِكُـمْ﴾ [الأنعـام: ٦٥] قـال النبـي ﷺ: (أعـوذ بوجهـك). ﴿أو مـن تحـت أرجلكـم﴾ قـال: (أعـوذ بوجهـك). ﴿أَوْ يَلْبِسَـكُمْ شِـيَعاً وَيُذِيـقَ بَعْضَكُـم بَـأْسَ بَعْـضٍ﴾ قـال: (هاتـان أهـون)[2].

وهـذا لأنّـه لا بـدّ أن تقـع الذنـوب مـن هـذه الأمّـة، ولا بـدّ أن يختلفـوا؛ فـإن هـذا مـن لـوازم الطبـع البـشري، لا يمكـن أن يكـون بنـو آدم إلّا كذلـك، ولهـذا لم يكـن مـا وقـع فيهـا مـن الاختـلاف والقتـال والذنـوب دليـلاً عـلى نقصهـا، بـل هـي أفضـل الأمـم، وهـذا الواقـع بينهـم مـن لـوازم البشريـة، وهـو في غيرهـا أكـثر وأعظـم، وخـير غيرهـا أقـلّ، والخـير فيهـا أكـثر، والـشرّ فيهـا أقـلّ، فـكلّ خـير في غيرهـا فهـو فيهـا أعظـم، وكلّ شرّ فيهـا فهـو في غيرهـا أعظـم»[3].

معنى الاختلاف عند شيخ الإسلام ابن تيمية:

جـاء لفـظُ الاختـلاف في القـرآن الكريـم في آيـاتٍ كثـيرة، وكان في معظـم المـواد يـدلّ عـلى التّضـاد لا المقابلـة، يقـول شـيخُ الإسـلام ابـن تيميـة- رحمـه اللـه: «ولفـظ (الاختـلاف) في القـرآن يُـراد بـه التّضـاد والتعـارض، لا يُـراد بـه مجـرّد عـدم التماثـل- كـما هـو اصطـلاح كثـيرٍ مـن النّظّـار- ومنـه قولـه: ﴿وَلَـوْ كَانَ مِـنْ عِنـدِ غَـيْرِ اللــهِ لَوَجَـدُواْ فِيـهِ اخْتِلاَفًـا كَثِـيرًا﴾ [النسـاء: ٨٢]، وقولـه: ﴿إِنَّكُـمْ لَفِـي قَـوْلٍ مُّخْتَلِـفٍ {٨/٥١} يُؤْفَـكُ عَنْـهُ مَـنْ أُفِـكَ ﴾ [الذاريـات: ٨-٩]، وقولـه: ﴿وَلَكِـنِ اخْتَلَفُـواْ فَمِنْهُـم مَّـنْ آمَـنَ وَمِنْهُـم مَّـن كَفَـرَ ﴾ [البقـرة: ٢٥٣]»[4].

---

(١) روى جزءًا منه مسلم في صحيحه، باب: هلاك هذه الأمّة بعضهم ببعض، (٢٢١٥/٤).

(٢) صحيح البخاري، باب: قوله: ﴿قل هو القادر﴾، (٥٦/٦).

(٣) مجموع الفتاوى، (١٤/١٥٠-١٥١).

(٤) مجموع الفتاوى، (١٩/١٣).

ولقد تعدّدت أوْجه الاختلاف بين الناس على مرّ العصور والأزمان، خاصّة فيما يتعلّق بالقضايا الخلافية الدينية، ومِن أوْجه الاختلاف التي ذكرها ابن تيمية «اختلاف الناس فيما يشرع من الدّعاء وما لا يشرع، وكاختلافهم هل تشرع الصّلاة عند الذبح، وليس هو مِن مسائل السبّ عند أحدٍ مِن المسلمين»[١].

هلاكُ الأمّة بالاختلاف:

إنّ الإسلام أمر بالاجتماع، ونهى عن الاختلاف وعدم الاتفاق؛ وذلك لأنّ الله - عز وجل - يعرف طبيعةَ الناس البشرية؛ المسلمين منهم وغير المسلمين، لذلك كان الاختلاف مذمومًا وهو مِن أسباب هلاك الأمم، والائتلاف ممدوحًا وهو من أسباب بقائها وقوتها؛ فالاتحاد قوّة، والتفرقة ضعف، لذلك وضّح شيخ الإسلام هذا الأمرَ وبيّنه عندما ذكر حديث الإمام مسلم عن عبد الله بن مسعود قال: سمعت رجلًا قرأ آية سمعت النبي يقرأ خلافَها، فأخذت بيده فانطلقت به إلى النبي ﷺ، فذكرت ذلك فعرفت في وجهه الكراهية، وقال: «كلاكما مُحسن، ولا تختلفوا؛ فإنّ مَن كان قبلكم اختلفوا فهلكوا»، فذكر أنّ هذا الحديث أخرجه الإمام مسلم، ثمّ قال: نهى النبي ﷺ عن الاختلاف الذي فيه جحد كلّ واحدٍ من المختلفين ما معَ الآخر من الحقّ؛ لأنّ كلا القارئين كان مُحسنًا فيما قرأه، وعلّل ذلك: بأنّ مَن كان قبلنا اختلفوا فهلكوا؛ فالخلاف إذًا علّة هلاك الأمّة[٢].

تطبيقاتٌ على السنّة السابقة:

جاءت تطبيقاتُ شيخ الإسلام- رحمه الله- لهذه السنّة كثيرة لا نستطيع إحصاءها هنا، وهي تطبيقاتٌ واعية عالج فيها كثيرًا من أوجه الخلاف في الأمّة المسلمة، ومن هذه التطبيقات الخلافُ بين أهل السنّة وأهل البدعة، موضّحًا أنّ أهل السنة هُم أهل طاعة الله- تعالى، وجزاؤهم الجنة، وأهل البدعة هُم أناس خضعوا لأهوائهم وحادوا عن منهج الله- تعالى- وسنّة النبي ﷺ، وهنا

(١) مجموع الفتاوى، (١٠٦/١).

(٢) اقتضاء الطريق المستقيم، ص(٣٥)، والحديث أخرجه الإمام البخاري، (١٧٥/٤).

طـرفٌ مـن كلام شـيخ الإسـلام يوضّـح فيـه جـزءًا مـن هـذه التطبيقـات؛ فيقـول: «إنّ اللـه - عـز وجـل - أمرنـا بالاتحـاد وعـدم التفـرق؛ حيـث قـال - سـبحانه وتعـالى -: ﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ اتَّقُـواْ اللـهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُـنَّ إِلاَّ وَأَنتُـم مُّسْـلِمُونَ {١٠٢/٣} وَاعْتَصِمُـواْ بِحَبْـلِ اللــهِ جَمِيعًـا وَلاَ تَفَرَّقُـواْ وَاذْكُـرُواْ نِعْمَـةَ اللــهِ عَلَيْكُـمْ إِذْ كُنتُـمْ أَعْـدَاء فَأَلَّـفَ بَـيْنَ قُلُوبِكُـمْ فَأَصْبَحْتُـم بِنِعْمَتِـهِ إِخْوَانًـا ﴾ [آل عمـران: ١٠٢-١٠٣] إلى قولـه تعـالى: ﴿ وَلاَ تَكُونُـواْ كَالَّذِيـنَ تَفَرَّقُـواْ وَاخْتَلَفُـواْ مِـن بَعْـدِ مَـا جَاءهُـمُ الْبَيِّنَـاتُ ﴾ [آل عمـران: ١٠٥] إلى قولـه: ﴿كُنتُـمْ خَـيْرَ أُمَّـةٍ أُخْرِجَـتْ لِلنَّـاسِ﴾ [آل عمـران: ١١٠]، فأمرنـا بملازمـة الإسـلام إلى المـمات، كـما أمـر الأنبيـاء جميعَهـم بالإسـلام، وأن نعتصـم بحبلـه جميعًـا ولا نتفـرق، ونهانـا أن نكـون كالذيـن تفرّقـوا واختلفـوا مـن بعـد مـا جاءهـم البينـات، وذكـر أنـه تبيـضّ وجـوه وتسـودّ وجـوه، قـال ابـن عبـاس: تبيـضّ وجـوه أهـل السـنّة والجماعـة، وتسـودّ وجـوه أهـل البدعـة والفرقـة، وذكـر أنّـه يقـال لهـم: ﴿أَكْفَرْتُـم بَعْـدَ إِيمَانِكُـمْ﴾ [آل عمـران: ١٠٦]، وهـذا عائـد إلى قولـه: ﴿وَلاَ تَمُوتُـنَّ إِلاَّ وَأَنتُـم مُّسْـلِمُونَ﴾ فأمـر بملازمـة الإسـلام، وبـيّن أن المسـودّةَ وجوهُهـم أهـل التفـرق والاختـلاف»[١].

ووضّـح شـيخ الإسـلام أنّ الابتعـاد عـن الأصـول الثابتـة مـن كتـاب وسـنة هـو أصـل كلّ الخلافـات بـين المسـلمين، وأنّ التمسـك بهـذه الأصـول هـو الحـلّ الأمثـل لإنشـاء أمّـة الإسـلام المتّحـدة التـي هـي خـير أمّـة أخرجـت للنـاس، فـيرى أنـه «إذا كان اللـه- تعـالى- قـد أمَرنـا بطاعـة اللـه وطاعـة رسـوله وأولي الأمـر منّـا، وأمرنـا عنـد التنـازع في شيء أن نـردّه إلى اللـه وإلى الرسـول، وأمرنـا بالاجتـماع والائتـلاف، ونهانـا عـن التفـرّق والاختـلاف، وأمرنـا أن نسـتغفر لمَـن سـبقنا بالإيمـان، وسـمّانا المسـلمين، وأمرنـا أن نـدوم عليـه إلى المـمات، فهـذه النصـوص ومـا كان في معناهـا توجـبُ علينـا الاجتـماع في الديـن كاجتـماع الأنبيـاء قبلنـا في الديـن، وولاة الأمـور فينـا هُـم خلفـاء الرسـول، قـال النبـي ﷺ في الحديـث الصحيـح: (إن بنـي إسرائيـل كانـت تسوسـهم الأنبيـاء كلـما هلـك نبـي قـام نبـي، وإنـه لا نبـي بعـدي، وسـيكون خلفـاء ويكـثرون. قالـوا: فـما تأمرنـا يـا رسـول اللـه؟ قـال: أوفـوا بيعـة الأول فـالأول، وأدوا لهـم الـذي لهـم؛ فـإن اللـه سـائلهم عـمّا اسـترعاهم)[٢]. وقـال أيضًـا: (العلـماء

(١) مجموع الفتاوى، (١١٤/١٩، ١١٥).

(٢) مسند أحمد، ط الرسالة، مسند أبي هريرة، (٣٤٠/١٣).

ورثـة الأنبيـاء)[1]. وروي عنـه أنّـه قـال: (وددت أني قـد رأيـت خلفـائي. قالـوا: ومَـن خلفـاؤك؟ قـال: الذيـن يحيـون سـنتي يعلّمونهـا النـاس)[2]. فهـؤلاء هُـم ولاة الأمـر بعـدَه، وهُـم الأمـراء والعلـماء، وبذلـك فسّرهـا السـلف ومَـن تبعهـم مِـن الأئمـة كالإمـام أحمـد وغـيره.

فالأصـولُ الثابتـة بالكتـاب والسـنّة والإجـماع هـي بمنزلـة الدّيـن المشـترك بـين الأنبيـاء، ليـس لأحـدٍ خـروج عنهـا، ومَـن دخـل فيهـا كان مِـن أهـل الإسـلام المحـض، وهُـم أهـل السـنة والجماعـة.

ومـا تنوّعـوا فيـه مـن الأعـمال والأقـوال المشروعـة فهـو بمنزلـة مـا تنوّعـت فيـه الأنبيـاء، قـال اللـه تعـالى: ﴿وَالَّذِيـنَ جَاهَـدُوا فِينَـا لَنَهْدِيَنَّهُـمْ سُـبُلَنَا ﴾ [العنكبـوت: ٦٩]، وقـال تعـالى: ﴿قَـدْ جَاءكُـم مِّـنَ اللـهِ نُـورٌ وَكِتَـابٌ مُّبِـينٌ {١٥/٥} يَهْـدِي بِـهِ اللـهُ مَـنِ اتَّبَـعَ رِضْوَانَـهُ سُـبُلَ السَّـلاَمِ ﴾، وقـال: ﴿ يَاأَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ ادْخُلُـواْ فِي السِّـلْمِ كَآفَّـةً ﴾ [البقـرة: ٢٠٨]»[3].

كـما تحـدّث الشـيخ عـن هـذه السـنّة الإلهيـة في أثنـاء تفسـيره لبعـض آيـات القـرآن الكريـم، فيقـول في قولـه تعـالى: ﴿ لَـمْ يَكُـنِ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا مِـنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ وَالْمُشْرِكِـينَ مُنفَكِّـينَ حَتَّـى تَأْتِيَهُـمُ الْبَيِّنَـةُ {١/٩٨} رَسُـولٌ مِّـنَ اللـهِ يَتْلُـو صُحُفًـا مُّطَهَّـرَةً﴾ [البينـة: ١، ٢]: جملـة فيـه بيـان إرسـال الرسـول إلى الجميـع.

وقولـه: ﴿وَمَـا تَفَـرَّقَ الَّذِيـنَ أُوتُـوا الْكِتَـابَ إِلَّا مِـن بَعْـدِ مَـا جَاءتْهُـمُ الْبَيِّنَـةُ ﴾ [البينـة: ٤] فيـه إقامـة الحجّـة عـلى أهـل الشرائـع، وذمّ تفرّقهـم واختلافهـم، وأن ذلـك بعـد أن جاءتهـم البينـة.

وهاتـان الجُمْلتـان نظيرهـما قولـه: ﴿كَانَ النَّـاسُ أُمَّـةً وَاحِـدَةً فَبَعَـثَ اللـهُ النَّبِيِّـينَ مُبَشِّرِيـنَ وَمُنذِرِينَ وَأَنـزَلَ مَعَهُـمُ الْكِتَـابَ بِالْحَـقِّ لِيَحْكُـمَ بَـيْنَ النَّـاسِ فِيـمَا اخْتَلَفُـواْ فِيـهِ﴾ [البقـرة: ٢١٣]، ثـمّ قـال: ﴿وَمَـا اخْتَلَـفَ فِيـهِ إِلاَّ الَّذِيـنَ أُوتُـوهُ مِـن بَعْـدِ مَـا جَاءتْهُـمُ الْبَيِّنَـاتُ بَغْيًـا بَيْنَهُـمْ فَهَـدَى اللـهُ الَّذِيـنَ آمَنُـواْ لِـمَا اخْتَلَفُـواْ فِيـهِ مِـنَ الْحَـقِّ بِإِذْنِـهِ﴾ [البقـرة: ٢١٣].

(١) سنن أبي داود، ت: الأرنؤوط، باب: الحث على العلم، (٤٨٥/٥).

(٢) جامع بيان العلم وفضله، باب: فساد التقليد ونفيه، (٩٩٧/٢).

(٣) الفتاوى، (١١٦/١٩) وما بعدها.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، ثمّ قال: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورى: ١٤].

وقوله: ﴿لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَاخْتُلِفَ فِيهِ وَلَوْلاَ كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّهُمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠، فصلت: ٤٥] في سورة هود وسورة عسق[١].

ثمّ ذكر ما أمرَ به الجميع بقوله: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاء وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة: ٥]، ثمّ ذكر عاقبة الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين، وعاقبة الذين آمنوا وعملوا الصالحات»[٢].

معنى ذلك- كما ذكره الشيخ- أنه لا بدّ من إرسال الرسل إلى الناس بالبينات، ولكنّ الناس هُم الذين يختلفون في أنبيائهم، وهذا التفرّق والاختلاف لا يزول إلّا بالاجتماع على الدّين الحقّ، وإقامة شريعة الله في الأرض، وإلّا سيكون هذا التفرق سببًا لهلاكهم في الدين، وعقوبتهم في الآخرة.

ويذكر شيخُ الإسلام ابن تيمية في موضعٍ آخر أنّ الاختلاف والفرقة كان بسبب ترك الحقّ وأخذهم الباطل؛ فيقول: «وقد ظهر بذلك أنّ المفترقين المختلفين من الأمّة إنّما ذلك بتركهم بعض الحقّ الذي بعث الله به نبيه، وأخذهم باطلاً يخالفه، واشتراكهم في باطلٍ يخالف ما جاء به الرسول، وهو مِن جنس مخالفة الكفار للمؤمنين كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ شَاء اللَّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

---

(١) كذا.

(٢) الفتاوى، (١٦/٥٠٩، ٥١٠).

فإذا اشتركوا في باطل خالفوا به المؤمنين المتّبعين للرسل نسوا حظًّا ممّا ذكّروا به فألقى بينهم العداوة والبغضاء، واختلفوا فيما بينهم في حقّ آخر جاء به الرسول، فآمن هؤلاء ببعضه وكفروا ببعضه، والآخرون يؤمنون بما كفر به هؤلاء، ويكفرون بما يؤمن به هؤلاء»[(١)].

ويذكر شيخُ الإسلام في تفسيره لكلمة ﴿بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ أنّ سبب الاختلاف كان «بغيًا على الدنيا، وطلبَ ملكها وزخرفها وزينتها، أيّهم يكون له الملك والمهابة في النّاس فبغى بعضُهم على بعض وضرب بعضهم رقاب بعض»[(٢)].

يرسل الله الرسلَ عند الاختلاف

للاختلاف خطرٌ كبير على الأمّة المسلمة التي هدفها الأساس قيادة الناس إلى الحقّ والخير، ومن سنة الله- تعالى- أنه يرسل الرسل عندما يجد الأمّة مختلفة في أمورها، لا تجد الحقّ والعدل قائمين بها.

يقول شيخ الإسلام- رحمه الله: «وأنّ الله إنّما أرسل الرسل وأنزل الكتب عند الاختلاف ﴿وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣] قال: أنزل الكتاب عند الاختلاف، ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾ [البقرة: ٢١٣]، يعني: بني إسرائيل أوتوا الكتاب والعلم ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ [البقرة: ٢١٣]»[(٣)].

كيف نخرج مِن الاختلاف، وما نتائج ذلك البعد عن الاختلاف؟

مِن أهمّ الحلول التي يمكن السعي في تحصيلها هو إقامةُ النفوس على منهاج الله من العبادة الحقّة والشرائع الربانية والأخلاق القويمة.

قال تعالى: ﴿فَهَدَى اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣] بعد ذكر هذه الآية وضّح شيخ الإسلام أنهم خرجوا من الاختلاف فـ«أقاموا على الإخلاص لله وحده وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأقاموا على الأمر الأول الذي كان

(١) الفتاوى، (٢٤٥/١٦).
(٢) الفتاوى، (١٦/ ٥١٤)، وتفسير الطبري، (٢٨٢/٤).
(٣) الفتاوى، (٥١٤/١٦).

قبل الاختلاف، واعتزلوا الاختلاف، فكانوا شهداء على الناس يوم القيامة، كانوا شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون أنّ رسلهم قد بلغتهم، وأنهم كذبوا رسلهم»[١].

الاختلافُ نوعان:

اهتمّ القرآن الكريم بقضية الاختلاف لما فيها من فساد كبير في الأرض؛ فالأمم المختلفة لا يمكن لها أن تقيم حضارة أو تبني مجدًا؛ لذا بيّن لنا أوجه الاختلاف حتى نفهمها ولا نكون من المتفرقين.

يقول شيخُ الإسلام: «إنّ الاختلاف في كتاب الله نوعان: الأول: اختلاف مذموم يذمّ فيه المختلفين كلّهم، كقوله: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُواْ فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ [البقرة: ١٧٦]، وقوله: ﴿وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨].

والثاني: يمدحُ المؤمنين ويذمّ الكافرين كقوله: ﴿الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقوله: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ ﴾ [الحج: ١٩] إلى قوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ [الحج: ٢٣]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [الحج: ١٧].

ويقول شيخ الإسلام: «وإذا كان كذلك فالذي ذمّه من تفرق أهل الكتاب واختلافهم ذمّ فيه الجميع، ونهى عن التشبّه بهم فقال: ﴿ وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ [آل عمران: ١٠٥]، وقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ﴾ [البقرة: ٢١٣][٢].

(١) الفتاوى، (٥١٤/١٦).

(٢) الفتاوى، (٥١٤/١٦، ٥١٥) بتصرف.

كيف نتعاملُ مع الاختلاف»

تحـدّث شـيخُ الإسـلام عـن أسـباب الاختـلاف والتفـرق واضعًـا الحلـول الجيـدة المسـتنبطة مـن كتـاب اللـه وسـنة رسـوله ﷺ لـكي يظـلّ النـاس مؤتلفـين غـير مُختلفـين، وتحـدّث عـن هـذه الحلـول في عـدّة مواضـع منهـا مـا ذكـره بـأنّ «سـبب الاجتـماع والألفـة جمـع الدّيـن والعمـل بـه كلّـه، وهـو عبـادة اللـه وحـده لا شريـك لـه، كـما أمـر بـه باطنًـا، وظاهـرًا.

وسببُ الفرقة: ترك حظّ ممّا أمر العباد به، والبغي بينهم.

ونتيجة الجماعة: رحمة الله، ورضوانه، وصلواته، وسعادة الدنيا والآخرة، وبياض الوجوه.

ونتيجة الفرقة: عذاب الله، ولعنته، وسواد الوجوه، وبراءة الرسول ﷺ منهم.

وهـذا أحـدُ الأدلـة عـلى أنّ الإجـماع حجّـة قاطعـة؛ فإنهـم إذا اجتمعـوا كانـوا مطيعـين للـه بذلـك مرحومـين، فـلا تكـون طاعـة اللـه ورحمتـه: بفعـل لم يأمـر اللـه به مـن اعتقـاد، أو قـول، أو عمـل، فلو كان القـول، أو العمـل الـذي اجتمعـوا عليـه لم يأمـر اللـه بـه لم يكـن ذلـك طاعـة للـه، ولا سـببًا لرحمتـه»[1].

ويضـع شـيخُ الإسـلام سـببًا لحـلّ المشـاكل والمنازعـات في موضـع آخـر، فيقـول: «أمـر- سـبحانه- بطاعتـه وطاعـة رسـوله وأولي الأمـر منّـا، وأمـر إنْ تنازعنـا في شيء أنْ نـردّه إلى اللـه والرسـول، فـدلّ هـذا عـلى أنّ كلّ مـا تنـازع المؤمنـون فيـه مـن شيء فعليهـم أن يـردّوه إلى اللـه والرسـول، والمعلّـق بالـشرط يعـدم عنـد عـدم الـشرط، فـدلّ ذلـك عـلى أنهـم إذا لم يتنازعـوا لم يكـنْ هـذا الأمـر ثابتًـا، وكذلـك إنّمـا يكـون لأنّهـم إذا لم يتنازعـوا كانـوا عـلى هـدى وطاعـة للـه ورسـوله، فـلا يحتاجـوا حينئـذ أنْ يأمـروا بمـا هـم فاعلـون مـن طاعـة اللـه والرسـول»[2].

ويقـول- أيضًـا- شـيخُ الإسـلام في موضـعٍ آخـر موضّحًـا أنّ هنـاك أصـولًا ثابتـة يجـب أن يتّفـق عليهـا النـاس، هـي القاسـم المشـترك، ومـا عداهـا ففيـه الاختـلاف باجتهـاد وحجـة، ولـكلٍّ أجـرُه: «فالأصـول الثابتـة بالكتـاب والسـنة والإجـماع هـي بمنزلـة الديـن المشـترك بـين الأنبيـاء، ليـس لأحـدٍ خـروج عنهـا، ومَـن دخـل فيهـا كان مِـن أهـل الإسـلام المحـض وهُـم أهـل السـنة والجماعـة.

(١) الفتاوى، (١٧/١).

(٢) الفتاوى، (٩١/١٩).

وما تنوّعوا فيه مِن الأعمال والأقوال المشروعة فهو بمنزلة ما تنوّعت فيه الأنبياء، قال الله- تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت: ٦٩]، وقال تعالى: ﴿قَدْ جَاءكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ {١٥/٥} يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلاَمِ﴾ [المائدة: ١٥-١٦]، وقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ ادْخُلُواْ فِي السِّلْمِ كَآفَّةً ﴾ [البقرة: ٢٠٨].

والتنوّع قد يكون في الوجوب تارة، وفي الاستحباب أخرى»[1].

ولقد أفاض شيخُ الإسلام في هذا الجانب، ولا يمكن حصر ما وضعه من حلول، وما رصده من مواضع الخلاف في هذا الجانب، ولكن هذه بعض فيما أفاض فيه، ومن ذلك- أيضًا- توضيحُه لمذهب السنة والجماعة: «ومذهب أهل السنة والجماعة أنه لا إثم على مَن اجتهد وإنْ أخطأ، فهذا النوع يشبه النوع الأول من وجْه دون وجْه، أمّا وجْهُ المخالفة فلأنّ الأنبياء- عليهم السلام- معصومون عن الإقرار على الخطأ بخلاف الواحد من العلماء والأمراء؛ فإنه ليس معصومًا من ذلك، ولهذا يسوغ بل يجب أنْ نبيّن الحقّ الذي يجب اتباعه، وإن كان فيه بيان خطأ من أخطأ من العلماء والأمراء»[2].

***

(١) الفتاوى، (١١٧/١٩، ١١٨).

(٢) الفتاوى، (١٢٣/١٩).

المبحثُ الثّالث

سنّةُ الله في المتساوين والمختلفين

لقـد جعـل اللـه - عـز وجـل - المتسـاوين في الصّفـات والأعـمال ممّـن يطيعـون اللـه ورسـوله لهـم جزاؤهـم، والمختلفـون في الصفـات والأحـكام ممّـن لا يتبعـون منهـج اللـه ولا يتبعـون سـنة رسـول اللـه لهـم أحكامهـم وعقوباتهـم الجامعـة.

يقـول شـيخُ الإسـلام ابـن تيميـة موضّحًـا هـذه السـنّة الربانيـة: «وهـو - سـبحانه - كـما يفـرق بـين الأمـور المختلفـة فإنـه يجمـع ويسـوّي بـين الأمـور المتماثلـة، فيحكـم في الـشيء خَلقًـا وأمـرًا بحكـم مثلـه لا يفـرق بـين متماثلـين ولا يسـوي بـين شـيئين غـير متماثلـين، بـل إن كانـا مختلفـين متضاديـن لم يسـوّ بينهـما، ولفـظ (الاختـلاف) في القـرآن يـراد بـه التضـاد والتعـارض، لا يـراد بـه مجـرّد عـدم التماثـل- كـما هـو اصطـلاح كثـيرٍ مـن النّظّـار- ومنـه قولـه: ﴿وَلَـوْ كَانَ مِـنْ عِنـدِ غَـيْرِ اللّــهِ لَوَجَـدُواْ فِيـهِ اخْتِلاَفًـا كَثِـيرًا ﴾، وقولـه: ﴿إِنَّكُـمْ لَفِـي قَـوْلٍ مُّخْتَلِـفٍ {٨/٥١} يُؤْفَـكُ عَنْـهُ مَـنْ أُفِـكَ ﴾، وقولـه: ﴿وَلَكِـنِ اخْتَلَفُـواْ فَمِنْهُـم مَّـنْ آمَـنَ وَمِنْهُـم مَّـن كَفَـرَ﴾.

وقـد بـيّن - عـز وجـل - أنّ السـنة لا تتبـدّل ولا تتحـوّل في غـير موضـع، و(السـنّة): هـي العـادة التـي تتضمّـن أن يفعـل في الثـاني مثـل مـا فعـلَ بنظـيره الأول؛ ولهـذا أمـر - عـز وجـل - بالاعتبـار وقـال: ﴿ لَقَـدْ كَانَ فِي قَصَصِهِـمْ عِـبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَـابِ﴾ [يوسـف: ١١١].. والاعتبـار أن يقـرَنَ الـشيء بمثلـه فيعلـم أنّ حكمـه مثـل حكمـه، كـما قـال ابـن عبـاس: هـلاّ اعتبرتـم الأصابـع بالأسـنان؟ فـإذا قـال: ﴿فَاعْتَـبِرُوا يَـا أُولِي الْأَبْصَـارِ﴾ وقـال: ﴿لَقَـدْ كَانَ فِي قَصَصِهِـمْ عِـبْرَةٌ لِّأُوْلِي الأَلْبَـابِ﴾ أفـاد أنّ مَـن عمـل مثـل أعمالهـم جـوزيَ مثـل جزائهـم؛ ليحـذر أنْ يعمـل مثـل أعـمال الكفـار؛ وليرغـب في أن يعمـل مثـل أعـمال المؤمنـين أتبـاع الأنبيـاء، قـال تعـالى: ﴿قَـدْ خَلَـتْ مِـن قَبْلِكُـمْ سُـنَنٌ فَسِـيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُـرُواْ كَيْـفَ كَانَ عَاقِبَـةُ الْمُكَذِّبِـين﴾ [آل عمـران: ١٣٧]، فاللـه- تعـالى- أخـبر أنّ سـنّته لـن تتبـدّل ولـن تتحـوّل.

وسنّته- تعالى- عادته التي يسوي فيها بين الشيء وبين نظيره الماضي، أي: الذي وقع قبله، وهذا يقتضي أنه- سبحانه- يحكم في الأمور المتماثلة بأحكام متماثلة، ولهذا قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ﴾ [القمر: ٤٣]، وقال تعالى: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ ﴾ [الصافات: ٢٢]، أي: أشباههم ونظراءهم. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ ﴾، أي: قرن النظير بنظيره، وقال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [التوبة: ١٠٠]، فجعل- تعالى- التابعين لهم بإحسانٍ مُشاركين لهم فيما ذكر من الرضوان والجنة»[(١)].

إذًا ما السببُ الذي جعل الناس لا يستطيعون التفرقة بين الأجناس؟

«إنّ السبب الذي أوقع الناس في هذا الخطأ حينما سوّى بعضهم بين الأجناس المختلفة التي فرّق الله بينها غاية التفريق هو شهودُهم للحقيقة الكونية دون الحقيقة الدينية، حتى آل بهم الأمرُ إلى أنْ يسووا الله بالأصنام، كما قال الله- تعالى- عنهم: ﴿تَاللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ {٩٧/٢٦} إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الشعراء: ٩٧، ٩٨]، بل قد آل الأمرُ بهؤلاء إلى أنْ سوّوا الله بكلّ موجود، وجعلوا ما يستحقه من العبادة والطاعة حقًّا لكلّ موجود، إذ جعلوه هو وجود المخلوقات، وهذا من أعظم الكفر والإلحاد برب العباد.

والحقيقة الكونية: هي التي يشترك فيها وفي شهودها ومعرفتها المؤمن والكافر والبر والفاجر، وإبليس مُعترف بهذه الحقيقة وأهل النار؛ فهو- سبحانه- خالقهم ورازقهم، وهو مدبّر الأمر كله.

والحقيقة الدينية: هي عبادته المتعلّقة بإلهيّته وطاعة أمره وأمر رسوله.

فمَن وقف عند هذه الحقيقة الكونية كان مِن جنس إبليس وأهل النار، ونظائر ذلك ما يفرّق به بين أهل الحقّ وأهل الباطل، وأهل الطاعة وأهل المعصية، وأهل البر وأهل الفجور، وأهل الهدى وأهل الضلال، وأهل الغي وأهل الرشاد، وأهل الصدق وأهل الكذب»[(٢)].

---

(١) مجموع الفتاوى، (١٩/١٣) وما بعدها، وانظر: كتاب السنة الإلهية بين الأمم والأفراد والجماعات، ص(١٦٤).

(٢) مجموع الفتاوى، (١٥٩/١٠) وما بعدها.

متى يفرّق الله بين متماثلين؟

هنـاك ظواهـرُ قـد يجدهـا النـاس مُخالفـة لسـنة اللـه -عـز وجـل - في ظاهـر الأمـر، مثـل: أن يفـرّق اللـه - عـز وجـل - بـيْن متماثلـين، فيقـول شـيخُ الإسـلام في ذلـك موضّحًـا هـذه الصـورة: «وبالجملـة، فالشـارع حكيـمٌ لا يفـرّق بـين متماثلـين إلّا لاختصـاص أحدهـما بمـا يوجـب الاختصـاص، ولا يسـوّي بـين مُختلفـين غـير مُتسـاويين، بـل قـد أنكـر- سـبحانه- عـلى مَـن نسـبه إلى ذلـك، وقبّـح مَـن يحكـم بذلـك، فقـال تعـالى: ﴿ أَمْ نَجْعَـلُ الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ كَالْمُفْسِـدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَـلُ الْمُتَّقِـينَ كَالْفُجَّـارِ ﴾ [ص: ٢٨]، وقـال تعـالى: ﴿أَمْ حَسِـبَ الَّذِيـنَ اجْتَرَحُـوا السَّـيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُـمْ كَالَّذِيـنَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ سَـوَاء مَّحْيَاهُـم وَمَمَاتُهُـمْ سَـاء مَـا يَحْكُمُـونَ ﴾ [الجاثيـة: ٢١]، وقـال تعـالى: ﴿ أَفَنَجْعَـلُ الْمُسْـلِمِينَ كَالْمُجْرِمِـينَ {٣٥/٦٨} مَـا لَكُـمْ كَيْـفَ تَحْكُمُـونَ﴾ [القلـم: ٣٥-٣٦]، وقـال تعـالى: ﴿ أَكُفَّارُكُـمْ خَـيْرٌ مِّـنْ أُوْلَئِكُـمْ أَمْ لَكُـم بَـرَاءَةٌ فِي الزُّبُـرِ ﴾، وقـال تعـالى: ﴿يُخْرِبُـونَ بُيُوتَهُـم بِأَيْدِيهِـمْ وَأَيْـدِي الْمُؤْمِنِـينَ فَاعْتَـبِرُوا يَـا أُولِي الْأَبْصَـارِ﴾ [الحـشر: ٢]»[١].

ويتّضـح مـن الآيـات السـابقة أنّ سـنّة اللـه تعـالى في خلقـه أنْ يسـوّي بـين المتماثلـين ويفـرّق بـين المختلفـين، ولكنّـه قـد يفـرق بـين المتماثلـين لاختصـاص أحدهـما بصفـاتٍ لم تكـن في الآخـر؛ فنجـد أنّ اللـه- تعـالى- قـد فـرّق تفرقـة تامّـة بـين المؤمنـين والكافريـن، وفـرّق بـين المتماثلـين مـن المؤمنـين عندمـا اختـصّ بعـض المؤمنـين بعمـل الصالحـات واختـصّ بعضهـم بالفسـاد في الأرض واكتسـاب المعـاصي؛ فهـم مجرمـون بمـا اقترفـوه مـن الآثـام والذنـوب، لذلـك فقـد خرجـوا عـن طبيعتهـم الإيمانيـة التـي بـدؤوا بهـا، وبعـدوا عـن المؤمنـين أصحابهـم وأمثالهـم.

المساواةُ في الثّواب والعقاب للمتساويين لهم في الأعمال:

قـال تعـالى: ﴿وَالسَّـابِقُونَ الأَوَّلُـونَ مِـنَ الْمُهَاجِرِيـنَ وَالأَنصَـارِ وَالَّذِيـنَ اتَّبَعُوهُـم بِإِحْسَـانٍ رَّضِيَ اللّـهُ عَنْهُـمْ وَرَضُـواْ عَنْـهُ وَأَعَـدَّ لَهُـمْ جَنَّـاتٍ تَجْـرِي تَحْتَهَـا الأَنْهَـارُ خَالِدِيـنَ فِيهَـا أَبَـدًا ذَلِـكَ الْفَـوْزُ الْعَظِيـمُ ﴾ [التوبـة: ١٠٠].

(١) مجموع الفتاوى، (١٢٧/١٧).

يقـول شـيخُ الإسـلام في هـذه الآيـة: «فجعـل التابعـين لهـم بإحسـان مشـاركين لهـم فيـما ذكـر مـن الرضـوان والجنـة».

ويذكـر سببَ ذلـك فيقـول حيـث قـال اللـه تعـالى: ﴿ وَالَّذِيـنَ جَـاؤُوا مِـن بَعْدِهِـمْ يَقُولُـونَ رَبَّنَـا اغْفِـرْ لَنَـا وَلِإِخْوَانِنَـا الَّذِيـنَ سَـبَقُونَا بِالْإِيمَـانِ وَلَا تَجْعَـلْ فِي قُلُوبِنَـا غِـلًّا لِّلَّذِيـنَ آمَنُـوا رَبَّنَـا إِنَّـكَ رَؤُوفٌ رَّحِيـمٌ ﴾ [الحـشر: ١٠]، وقـال تعـالى: ﴿وَآخَرِيـنَ مِنْهُـمْ لَـمَّا يَلْحَقُـوا بِهِـمْ وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْحَكِيـمُ ﴾ [الجمعـة: ٣]: «فمـن اتبـع السـابقين الأولـين كان منهـم، وهـم خـير النـاس بعـد الأنبيـاء؛ فـإن أمّـة محمـد خـير أمّـة أخرجـت للنـاس، وأولئـك خـير أمّـة محمـد، كـما ثبـت في الصحـاح مِـن غـير وجْـه أنّ النبـي ﷺ قـال: «خـير القـرون القـرن الـذي بعثـت فيهـم ثـمّ الذيـن يلونهـم ثـمّ الذيـن يلونهـم)»[(١)].

تحـدّث شـيخُ الإسـلام تطبيقًـا عـلى سـنّة التماثـل والاختـلاف عـن الـكلام الجامـع موضحًـا ماهيتـه فيقـول: «فلـمّا كانـت الحقائـق المقصـودة والموجـودة ترجـع إلى أصـل واحـد وهـو اللـه- سـبحانه، كان الـكلام الحـقّ فيهـا خـبرًا وأمـرًا متشـابهًا ليـس بمنزلـة المختلـف المتناقـض، كـما يوجـد في كلام أكـثر البـشر، والمصنّفـون الكبـار منهـم يقولـون شـيئًا ثـمّ ينقضونـه وهـو جميعُـه مثـاني؛ لأنـه اسـتوفيت فيـه الأقسـام المختلفـة؛ فـإن اللـه يقـول: ﴿وَمِـن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَـا زَوْجَـيْنِ ﴾ [الذاريـات: ٤٩]، فذكـر الزوجـين مثـاني، والإخبـار عـن الحقائـق بمـا هـي عليـه بحيـث يحكـم عـلى الـشيء بحكـم نظـيره، وهـو حكـم عـلى المعنـى الواحـد المشـترك خـبرًا أو طلبًـا خطـاب متشـابه، فهـو متشـابه مثـاني.

وهـذا في المعـاني مثـل الوجـوه والنظائـر في الألفـاظ؛ فـإن كلّ شـيئين مـن الأعيـان والأعـراض وغـير ذلـك إمّـا أن يكـون أحدهـما مثـل الآخـر، أو لا يكـون مثلـه، فهـي الأمثـال وجمعهـا هـو التأليـف، وإذا جـاءت بلفـظ واحـد كانـت نظائـر، وإن لم يكـن مثلـه فهـو خلافـه، سـواء كان ضـدًّا أو لم يكـن، وقـد يقـال: إمّـا أن يجمعهـما جنـس أو لا، فـإن لم يجمعهـما جنـس فأحدهـما بعيـدٌ عـن الآخـر، ولا مناسـبة بينهـما، وإن جمعهـما جنـس فهـي الأقسـام، وجمعهـا هـو التصنيـف، ودلالـة اللفـظ الواحـد عـلى المعـاني المختلفـة تسـمّى الوجـوه.

---

(١) الفتاوى، (٢٣/١٣) وما بعدها، وانظر: كتاب عبد الكريم زيدان، ص(١٨٢) بتصرف كبير.

والـكلام الجامـع هـو الـذي يسـتوفي الأقسـام المختلفـة والنظائـر المتماثلـة جمعًـا بـين المتماثلـين وفرقًـا بـين المختلفـين، بحيـث يبقـى محيطًـا، وإلّا فذكْـر أحـدِ القسـمين أو المثلـين لا يفيـد التّـمام، ولا يكـون الكلـم محيطًـا ولا الكلـم جوامـع وهـو فعـل غالـب النـاس في كلامهـم.

والحقائـق في نفسـها: منهـا المختلـف ومنهـا المؤتلـف، والمختلفـان بينهـما اتفـاق مـن وجـه وافـتراق مـن وجْـه، فـإذا أحـاط الـكلام بالأقسـام المختلفـة والأمثـال المؤتلفـة كان جامعًـا، وباعتبـار هـذه المعـاني كانـت ضروب القيـاس العقـلي المنطقـي ثلاثـة: الحمليـات، والشرطيـات المتصلـة، والشرطيـات المنفصلـة.

فالأول للحقائق المتماثلة الداخلة في القضية الجامعة.

والثــاني للمختلفات التي ليســت متضـادة، بــل تتلازم تــارة، ولا تتــلازم أخرى.

والثالـث للحقائـق المتضـادة المتنافيـة، إمّـا وجـودًا أو عدمًـا وهـي النقيضـان، وإمّـا وجـودًا فقـط وهـو أعـمّ مـن النقيضـين، وإمّـا عدمًـا فقـط وهـو أخـصّ مـن النقيضـين.

فالحمليّـات للمثلـين، والأمثـال والشرطيّـات المنفصلـة للمتضاديـن والمتضـادات، ويسـمى التقسـيم والسـبر والترديـد والبيـاني، والمتّصلـة للخلافـين غـير المتضاديـن، ويسـمّى التـلازم»[١].

***

(١) مجموع الفتاوى، (٥٢٣/١٦) وما بعدها.

المبحثُ الرّابع

سنّةُ الله في الفرقان بين الحقّ والباطل

سنّة الفرقان هي سنّة من سننِ الله الإلهية التي يفرّق الله بها بين الحقّ والباطل، والهدى والضلال، والخير والشر، والرشاد والغي، والصدق والكذب، والعلم والجهل، والمعروف والمنكر، والسعداء والأشقياء.

معنى الفرقان في اللغة:

الفَرْقُ خلافُ الجمع، فَرَقه يَفْرُقُه فَرْقًا، وفَرَّقه وقيل فَرَقَ للصلاح فَرْقًا وفَرَّق للإفساد تَفْريقًا، وانْفَرَقَ الشيء وتَفَرَّق وافْتَرَقَ، والفرقُ طائفة من الناس والفريق طائفة من الناس والمَفرَق والمِفرق: وسط الرأس الذي يفرق فيه الشعر، ومفرق الطريق ومفرقه: متشعبه الذي يتشعّب فيه طريق آخر، والفرقان القرآن: وكلّ ما فرق به بين الحقّ والباطل، والفرقان الحجّة، والفرقان: النصر[(١)].

قال ابن القيم- رحمه الله: الفرقان: النور الذي يفرق به العبد بين الحقّ والباطل، وكلّما كان قلبه أقرب إلى الله كان فرقانه أتمّ[(٢)].

تقريرُ سنّة الفرقان في القرآن الكريم:

إنّ سنّة الله في التفريق بين الحقّ والباطل واضحةً بيّنة بالنظر والاعتبار والعلم والفهم، فمِن سنّته- سبحانه- أن ينجّي أهل الحقّ وينصرهم، ويعذّب أهل الباطل ويهزمهم، كما أنّه سبحانه جعل هناك فرقًا واضحًا بين أولياء الله وأعداء الله، فأحسن إلى أوليائه وعاقب أعداءه، يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: (وهنا قال: ﴿وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ جاء بلفظ الإنزال؛ فلهذا شاع بينهم أنّ القرآن والبرهان يحصل بالعلم والبيان كما حصل بالقرآن ويحصل بالنظر والتّمييز بين أهل الحقّ

(١) لسان العرب، صـ١٦٨ وما بعدها جـ١١

(٢) إعلام الموقّعين: ٤/ ١٩٩.

والباطـل بـأن ينجّـي هـؤلاء وينصرهـم ويعـذّب هـؤلاء، فيكـون قـد فـرق بـين الطائفتـين كـما يفـرّق المفـرق بـين أوليـاء اللـه وأعدائـه بالإحسـان إلى هـؤلاء وعقوبـة هـؤلاء)[1].

قـال تعـالى: ﴿تَبَـارَكَ الَّـذِي نَـزَّلَ الْفُرْقَـانَ عَـلَى عَبْـدِهِ لِيَكُـونَ لِلْعَالَمِـينَ نَذِيـرًا ﴾ [الفرقـان: ١]، وقـال تعـالى: ﴿الم {١/٣} اللــهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُـوَ الْحَـيُّ الْقَيُّـومُ {٢/٣} نَـزَّلَ عَلَيْـكَ الْكِتَـابَ بِالْحَـقِّ مُصَدِّقـاً لِّـمَا بَـيْنَ يَدَيْـهِ وَأَنـزَلَ التَّـوْرَاةَ وَالإِنجِيـلَ {٣/٣} مِـن قَبْـلُ هُـدًى لِّلنَّـاسِ وَأَنـزَلَ الْفُرْقَـانَ ﴾ [آل عمـران: ١-٤].

قـال جماهـير المفسريـن: هـو القـرآن، روى ابـن أبي حاتـم بإسـناده عـن الربيـع بـن أنـس قـال: هـو الفرقـان فـرق بـين الحـقّ والباطـل.

قال: وروي عن عطاء ومجاهد ومقسم وقتادة ومقاتل بن حيان نحْو ذلك.

وروي بإسـناده عـن شـيبان عـن قتـادة في قولـه: ﴿ وَأَنـزَلَ الْفُرْقَـانَ﴾ قـال: هـو القـرآن الـذي أنزلـه اللـهُ عـلى محمّـد، ففـرق بـه بـين الحـقّ والباطـل، وبـيّن فيـه دينـه، وشرع فيـه شرائعـه، وأحـلّ حلالـه، وحـرّم حرامـه، وحـدّ حـدوده، وأمـر بطاعتـه، ونهـى عـن معصيتـه.

وعن عباد بن منصور: سألت الحسن عن قوله تعالى: ﴿ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ﴾ قال: هو كتاب بحقّ.

و(الفرقـان): مصـدر فـرق فرقانًـا، مثـل: الرّجحـان والكفـران والخـسران، وكذلـك (القـرآن) هـو في الأصـل مصـدر قـرأ قرآنًـا، ومنـه قولـه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَـا جَمْعَـهُ وَقُرْآنَـهُ {١٧/٧٥} فَـإِذَا قَرَأْنَـاهُ فَاتَّبِـعْ قُرْآنَـهُ {١٨/٧٥} ثُـمَّ إِنَّ عَلَيْنَـا بَيَانَـهُ ﴾ [القيامـة: ١٧-١٩].

ويسـمّى الـكلام المقـروء نفسـه (قرآنـا)، وهـو كثـيرٌ كـما في قوله: ﴿فَـإِذَا قَـرَأْتَ الْقُـرْآنَ فَاسْـتَعِذْ بِاللــهِ مِـنَ الشَّـيْطَانِ الرَّجِيـمِ ﴾ [النحـل: ٩٨].

ويقـول شـيخُ الإسـلام- أيضًـا: «لفـظ (الفرقـان) إذا أريـد بـه المصـدر كان المـراد أنّـه أنـزل الفصـل والفـرق بـين الحـقّ والباطـل، وهـذا منـزّل في الكتـاب، فـإن في الكتـاب الفصـل، وإنـزال الفـرق هـو إنـزال الفـارق.

(١) مجموع الفتاوى: جـ١٣ صـ١٠

وإنْ أريد بالفرقان ما يفرق فهو الفارق- أيضًا، فهما في المعنى سواء.

وإنْ أريـد بالفرقـان نفـس المصـدر فيكـون إنزالـه كإنـزال الإيمـان، وإنـزال العـدل، فإنـه جعـل في القلـوب التفريـق بـين الحـقّ والباطـل بالقـرآن، كـما جعـل فيهـا الإيمـان والعـدل، وهـو - تعـالى - أنـزل الكتـاب، والميـزان قـد فـسّر بالعـدل، وفـسّر بأنـه مـا يـوزن بـه ليعـرف العـدل، وهـو كالفرقـان يفـسّر بالفـرق، ويفـسّر بمـا يحصـل بـه الفـرق، وهُـما متلازمـان؛ فـإذا أريـد الفـرق نفسُـه فهـو نتيجـة الكتـاب وثمرتـه ومقتضـاه، وإذا أريـد الفـارق فالكتـاب نفسُـه هـو الفـارق، ويكـون لـه اسـمان كلّ اسـم يـدلّ عـلى صفـة ليسـت هـي الصفـة الأخـرى، سـمي كتابًـا باعتبـار أنّـه مجمـوع مكتـوب تحفـظ حروفـه ويقـرأ ويكتـب، وسـمي فرقانًـا باعتبـار أنـه يفـرق بـين الحـقّ والباطـل- كـما تقـدم.

كـما سـمّي هـدى باعتبـار أنـه يهـدي إلى الحـقّ، وشـفاء باعتبـار أنـه يشـفي القلـوب مـن مـرض الشـبهات والشـهوات، ونحـو ذلـك مـن أسـمائه»[1].

أعظم فرقانًا

جعـل اللـه - عـز وجـل - الفرقـانَ منحـةً إلهيـة وصفـةً ربانيـة لأحبائـه المتّبعـين لهديـه، وهـي صفـة يسـتطيعون بهـا التّفرقـة بـين الحـقّ والباطـل بحساسـية مفرطـة وفراسـة رائعـة، فهُـم متوسّـمون يـرون الحـقّ دائمًـا كضـوء الشـمس، يقـول شـيخُ الإسـلام: «فمَـن كان أعظـم اتباعًـا لكتابـه الـذي أنزلـه ونبيّـه الـذي أرسـله كان أعظـم فرقانًـا، ومَـن كان أبعـد عـن اتبـاع الكتـاب والرسـول كان أبعـدَ عـن الفرقـان، واشـتبه عليـه الحـقّ بالباطـل، كالذيـن اشـتبه عليهـم عبـادة الرحمـن بعبـادة الشـيطان، والنبـي الصـادق بالمتنبـئ الـكاذب، وآيـات النبيّـين بشـبهات الكذابـين، حتـى اشـتبه عليهـم الخالـق بالمخلـوق»[2].

يتّضـح مـمّا سـبق أنّ الفرقـان يتنـوّع بتنـوّع الهيئـات والأفـراد، وأنّ النـاس مُختلفـين في درجـات الفرقـان كـما أنّهـم مختلفـين في درجـات الإيمـان، ويؤكّـد شـيخُ الإسـلام عـلى هـذا المعنـى فيقـول: (فهـذا هـو الفرقـان بـين أهـل الإيمـان والسـنة وأهـل النفـاق والبدعـة، وإن كان هـؤلاء لهـم مِـن الإيمـان

---

(١) مجموع الفتاوى، (٧/١٣، ٨، ٩) وما بعدها باختصار وتصرّف.

(٢) الفتاوى، (٦/١٣).

نصيبٌ وافر مِن اتباع السنة لكن فيهم من النفاق والبدعة بحسب ما تقدّموا فيه بين يدي الله ورسوله وخالفوا الله ورسوله، ثمّ إن لم يعلموا أنّ ذلك يخالف الرسول ولو علموا لما قالوه لم يكونوا منافقين، بل ناقصي الإيمان مبتدعين، وخطؤهم مغفور لهم، لا يعاقَبون عليه وإن نقصوا به)[١].

ويقول- أيضًا- ذاكرًا أهل البدع المتّبعين لأهوائهم المخالفين لمنهج النبي- ﷺ- وسنته والمنحرفين عن طريق السلف الصالح من الصوفية وغيرهم الذين يروْن أنفسهم من أصحاب الرؤى والمكاشفات أو الكرامات؛ يقول: (فهؤلاء يحتاجون إلى الفرقان الإيماني القرآني النبوي الشرعي أعظم مِن حاجة غيرهم، وهؤلاء لهم حسيّات يروْنها ويسمعونها، والحسيّات يضطرّ إليها الإنسان بغير اختياره كما قد يرى الإنسان أشياءً ويسمع أشياءً بغير اختياره، كما أنّ النّظّار لهم قياس ومعقول، وأهل السمع لهم أخبار منقولات، وهذه الأنواع الثلاثة هي طرق العلم: الحسّ، والخبر، والنظر، وكلّ إنسان يستدلّ مِن هذه الثلاثة في بعض الأمور؛ لكن يكون بعضُ الأنواع أغلب على بعض الناس في الدين وغير الدين)[٢].

مواردُ كلمةِ الفرقان في القرآن الكريم:

ذكر شيخُ الإسلام- رحمه الله- كثيرًا مِن الصّور التي ورد ذكرُها في القرآن الكريم لكلمة الفرقان، ودلالاتها:

١- فجاءت الكلمة بمعنى التفريق: وذلك كقوله في القرآن ﴿إِن كُنتُمْ آمَنتُمْ بِاللّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾الأنفال: ٤١، قال الوالبي عن ابن عباس: «يوم الفرقان يوم بدر، فرق الله بين الحقّ والباطل».

٢- جاء لفظ «الفرقان» بمعنى مخرجًا، كما في قوله تعالى: ﴿ إَن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ﴾الأنفال:٢٩، أي مخرجًا، كما في قوله: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ﴾، ولقد قال

(١) الفتاوى جـ١٣ صـ٦٣
(٢) الفتاوى جـ١٣ صـ٧٥

بذلـك ابـن أبي حاتـم، ورويَ عـن مجاهـد ومقسـم وعبيـد اللـه بـن عبـد اللـه والضحـاك وقتـادة ومقاتـل بـن حيـان؛ أنّ مجاهـدًا قـال «مخرجًـا في الدنيـا والآخـرة»، وروي عـن الضحّـاك عـن ابـن عبـاس قـال نـصرًا، قـال : وفي آخـر قـول ابـن عبـاس والسـدي نجـاة.

٣- وجـاء لفـظ «الفرقـان» بمعنـى الفصـل بـين الحـقّ والباطـل، عـن عـروة بـن الزبـير ﴿ يَجْعَـل لَّكُـمْ فُرْقَانـاً ﴾ أي: فصـلاً بـين الحـق والباطـل يظهـر اللـه بـه حقّكـم، ويطفـئ بـه باطـلَ مَـن خالفكـم.

٤- جـاء لفـظ «الفرقـان» بمعنـى الهـدى والبيـان، يقـول شـيخ الإسـلام: (وقـد ذكـر عـن ابـن زيـد أنّـه قـال: هـدى في قلوبهـم يعرفـون بـه الحـقّ مـن الباطـل، ونوعـا الفرقـان فرقـان الهـدى والبيـان والنـصر والنّجـاة هـما نوعـا «الظهـور» في قولـه تعـالى ﴿هُـوَ الَّـذِي أَرْسَـلَ رَسُـولَهُ بِالْهُـدَى وَدِيـنِ الْحَـقِّ لِيُظْهِـرَهُ عَلَـى الدِّيـنِ كُلِّـهِ ﴾ يظهـره بالبيـان والحجـة والبرهـان ويظهـر باليـد والعـز والسـنان).

٥- كـما جـاء لفـظ «الفرقـان» بمعنـى السـلطان في قولـه: ﴿ وَاجْعَـل لِّي مِـن لَّدُنـكَ سُـلْطَاناً نَّصِـيراً {﴾ فهـذا النـوع وهـو الحجّـة والعلـم كـما في قولـه: ﴿أَمْ أَنزَلْنَـا عَلَيْهِـمْ سُـلْطَاناً فَهُـوَ يَتَكَلَّـمُ بِمَـا كَانُـوا بِـهِ يُشْـرِكُونَ﴾ وقــوله: ﴿الَّذِيـنَ يُجَادِلُـونَ فِـي آيَـاتِ اللّــهِ بِغَيْـرِ سُـلْطَانٍ أَتَاهُـمْ كَبُـرَ ﴾ وقــوله: ﴿إِنْ هِـيَ إِلَّا أَسْـمَاء سَـمَّيْتُمُوهَا أَنتُـمْ وَآبَاؤُكُـم مَّـا أَنـزَلَ اللّــهُ بِهَـا مِـن سُـلْطَانٍ ﴾، ويتابـع شـيخُ الإسـلام فيذكـر أنّـه كـما ذكـر السـلطان بالقـدرة واليـد، وفسّر بالحجّـة والبيـان فكذلـك الفرقـان، وذلـك كـما في قولـه تعـالى: ﴿وَرَحْمَتِـي وَسِـعَتْ كُلَّ شَـيْءٍ فَسَـأَكْتُبُهَا لِلَّذِيـنَ يَتَّقُـونَ وَيُؤْتُـونَ الـزَّكَاةَ وَالَّذِيـنَ هُـم بِآيَاتِنَـا يُؤْمِنُـونَ﴾ ﴿الَّذِيـنَ يَتَّبِعُـونَ الرَّسُـولَ النَّبِـيَّ الأُمِّـيَّ الَّـذِي يَجِدُونَـهُ مَكْتُوبًـا عِندَهُـمْ فِـي التَّـوْرَاةِ وَالإِنْجِيـلِ يَأْمُرُهُـم بِالْمَعْـرُوفِ وَيَنْهَاهُـمْ عَـنِ الْمُنكَـرِ وَيُحِـلُّ لَهُـمُ الطَّيِّبَـاتِ وَيُحَـرِّمُ عَلَيْهِـمُ الْخَبَآئِـثَ وَيَضَـعُ عَنْهُـمْ إِصْرَهُـمْ وَالأَغْـلاَلَ الَّتِـي كَانَـتْ عَلَيْهِـمْ ﴾ ففـرق بـين المعـروف والمنكـر، أمـر بهـذا ونهـى عـن هـذا، وبـيّن الطيـب والخبيـث، أحـلّ هـذا وحـرم هـذا).

٦- وجــاء بمعنــى التفريــق وعــدم التســوية في الجــزاء والثــواب والعقــاب بــين أهــل الحــقّ وأهــل الباطـل، فجعـل أهـل الحـقّ أهـل الحسـنات وأهـل الباطـل هُـم الكفـار الضّالـين المفسـدين

أهـل السـيئات، يقـول شـيخُ الإسـلام رحمـه اللـه: (ومـن «الفرقـان» أنّـه فـرق بـين أهـل الحـقّ المهتديـن المؤمنـين المُصلحـين أهـل الحسـنات وبـين أهـل الباطـل الكفـار الضالـين المفسـدين أهـل السـيئات؛ قـال تعـالى: ﴿أَمْ حَسِـبَ الَّذِيـنَ اجْتَرَحُـوا السَّـيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُـمْ كَالَّذِيـنَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ سَـوَاء مَّحْيَاهُـم وَمَمَاتُهُـمْ سَـاء مَـا يَحْكُمُـونَ﴾ وقـال تعـالى: ﴿أَمْ نَجْعَـلُ الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ كَالْمُفْسِـدِينَ فِـي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَـلُ الْمُتَّقِيـنَ كَالْفُجَّـارِ﴾ وقـال تعـالى: ﴿ أَفَنَجْعَـلُ الْمُسْـلِمِينَ كَالْمُجْرِمِـينَ ﴾ ﴿ مَـا لَكُـمْ كَيْـفَ تَحْكُمُـونَ ﴾ وقـال تعـالى: ﴿ مَثَـلُ الْفَرِيقَـيْنِ كَالأَعْمَـى وَالأَصَـمِّ وَالْبَصِـيرِ وَالسَّـمِيعِ هَـلْ يَسْـتَوِيَانِ مَثَـلاً أَفَـلاَ تَذَكَّـرُونَ﴾ وقـال تعـالى: ﴿أَمَّـنْ هُـوَ قَانِـتٌ آنَـاء اللَّيْـلِ سَـاجِدًا وَقَائِمًـا يَحْـذَرُ الْآخِـرَةَ وَيَرْجُـو رَحْمَـةَ رَبِّـهِ قُـلْ هَـلْ يَسْـتَوِي الَّذِيـنَ يَعْلَمُـونَ وَالَّذِيـنَ لَا يَعْلَمُـونَ إِنَّمَـا يَتَذَكَّـرُ أُوْلُـوا الْأَلْبَـابِ ﴾ وقـال تعـالى: ﴿ وَمَـا يَسْـتَوِي الْأَعْمَـى وَالْبَصِـيرُ ﴾﴿ وَلَا الظُّلُمَـاتُ وَلَا النُّـورُ ﴾ ﴿وَلَا الظِّـلُّ وَلَا الْحَـرُورُ ﴾ ﴿وَمَـا يَسْـتَوِي الْأَحْيَـاء وَلَا الْأَمْـوَاتُ إِنَّ اللـهَ يُسْـمِعُ مَـن يَشَـاء وَمَـا أَنـتَ بِمُسْـمِعٍ مَّـن فِـي الْقُبُـورِ ﴾ ﴿ إِنْ أَنـتَ إِلَّا نَذِيـرٌ ﴾ ﴿إِنَّـا أَرْسَـلْنَاكَ بِالْحَـقِّ بَشِـيرًا وَنَذِيـرًا وَإِن مِّـنْ أُمَّـةٍ إِلَّا خـلاَ فِيهَـا نَذِيـرٌ ﴾ وقـال تعـالى: ﴿ أَوَ مَـن كَانَ مَيْتًـا فَأَحْيَيْنَـاهُ وَجَعَلْنَـا لَـهُ نُـورًا يَمْـشِي بِـهِ فِي النَّـاسِ كَمَـن مَّثَلُـهُ فِي الظُّلُـمَاتِ لَيْـسَ بِخَـارِجٍ مِّنْهَـا ﴾ وقـال تعـالى: ﴿أَفَمَـن كَانَ مُؤْمِنًـا كَمَـن كَانَ فَاسِـقًا لَّا يَسْـتَوُونَ ﴾ فهـو سـبحانه بـيّن الفـرق بـيْن أشـخاص أهـل الطاعـة للـه والرسـول والمعصيـة للـه والرسـول، كـما بـيّن الفـرق بـين مـا أمـر بـه وبـين مـا نهـى عنـه.

وأعظـم مـن ذلـك أنّـه بـيّن الفـرق بـين الخالـق والمخلـوق، وأنّ المخلـوق لا يجـوز أنْ يسـوي بـيْن الخالـق والمخلـوق في شيء فيجعـل المخلـوق نـدًّا للخالـق، قـال تعـالى: ﴿ وَمِـنَ النَّـاسِ مَـن يَتَّخِـذُ مِـن دُونِ اللــهِ أَنـدَاداً يُحِبُّونَهُـمْ كَحُـبِّ اللــهِ وَالَّذِيـنَ آمَنُـواْ أَشَـدُّ حُبًّـا ﴾ وقـال تعـالى: ﴿هَـلْ تَعْلَـمُ لَـهُ سَـمِيًّا ﴾ ﴿وَلَـمْ يَكُـن لَّـهُ كُفُـوًا أَحَـدٌ ﴾ ﴿لَيْـسَ كَمِثْلِـهِ شَـيْءٌ﴾ وضرب الأمثـال في القـرآن عـلى مَـن لم يفـرق؛ بـل عـدلَ بربّـه وسـوّى بينـه وبـين خلقـه؛ كـما قالـوا- وهُـم في النـار يصطرخـون فيهـا-: ﴿ تَاللــهِ إِن كُنَّـا لَفِـي ضَـلَالٍ مُّبِيـنٍ ﴾ ﴿إِذْ نُسَـوِّيكُم بِـرَبِّ الْعَالَمِيـنَ ﴾ وقـال تعـالى: ﴿أَفَمَـن يَخْلُـقُ كَمَـن لاَّ يَخْلُـق أَفَـلا تَذَكَّـرُونَ ﴾ ﴿وَإِن تَعُـدُّواْ نِعْمَـةَ اللــهِ لاَ تُحْصُوهَـا إِنَّ اللــهَ لَغَفُـورٌ رَّحِيـمٌ﴾ ﴿وَاللــهُ

يَعْلَـمُ مَـا تُسِـرُّونَ وَمَـا تُعْلِنُـونَ﴾ ﴿وَالَّذِيـنَ يَدْعُـونَ مِـن دُونِ اللّـهِ لاَ يَخْلُقُـونَ شَـيْئًا وَهُـمْ يُخْلَقُـونَ {٢٠/١٦} أَمْـواتٌ غَـيْرُ أَحْيَـاء وَمَـا يَشْـعُرُونَ أَيَّـانَ يُبْعَثُـونَ ﴾.. فهـو سـبحانه الخالـق العليـم الحـقّ الحـيّ الـذي لا يمـوت، ومَـن سـواه لا يخلـق شـيئًا كـما قـال: ﴿إِنَّ الَّذِيـنَ تَدْعُـونَ مِـن دُونِ اللَّـهِ لَـن يَخْلُقُـوا ذُبَابًـا وَلَـوِ اجْتَمَعُـوا لَـهُ وَإِن يَسْـلُبْهُمُ الذُّبَـابُ شَـيْئًا لَّا يَسْـتَنقِذُوهُ مِنْـهُ ضَعُـفَ الطَّالِـبُ وَالْمَطْلُـوبُ ﴾ ﴿ مَـا قَـدَرُوا اللَّـهَ حَـقَّ قَـدْرِهِ﴾.. وهـذا مثـل ضربـه اللـه؛ فـإن الذبـاب مـن أصغـر الموجـودات، وكلّ مَـن يدعـى مـن دون اللـه لا يخلقـون ذبابًـا ولـو اجتمعـوا لـه وإنْ يسـلبهم الذبـاب شـيئًا لا يسـتنقذوه منـه. فـإذا تبـيّن أنهـم لا يخلقـون ذبابًـا ولا يقـدرون عـلى انتـزاع مـا يسـلبهم؛ فهُـم عـن خلـقِ غـيره وعـن مغالبتـه أعجـزُ وأعْجَـز)

ويظهـر لفـظ الفرقـان ضمنًـا في مـا ذكـره اللـه- عـزّ وجـل- في أحـوال الأمـم الماضيـة، وقـارن وفـرّق بـين أهـل الكفـر وجزاؤهـم، وأهـل الإيمـان وجزاؤهـم؛ فقـال في حـقّ الكافريـن ﴿قَـدْ خَلَـتْ مِـن قَبْلِكُـمْ سُـنَنٌ فَسِـيرُواْ فِـي الأَرْضِ فَانْظُـرُواْ كَيْـفَ كَانَ عَاقِبَـةُ الْمُكَذَّبِيـنَ ﴾ وقـال في حـقّ المؤمنـين: ﴿وَعَـدَ اللَّـهُ الَّذِيـنَ آمَنُـوا مِنكُـمْ وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَـمَا اسْـتَخْلَفَ الَّذِيـنَ مِـن قَبْلِهِـمْ ﴾ فجعل أهـلَ الإيمـان مـن النّاجـين والسـعداء في الدنيـا والآخـرة، وأهـلَ الكفـر مـن الأشـقياء في الدنيـا والآخـرة[1].

***

(١) انظر مجموع الفتاوى جـ١٣ صـ١١ وما بعدها

المبحثُ الخامس

سنّةُ الله في الهدى والضّلال والرّشد والغيّ

لعلّ أفضل مقدّمة لهذه السُّنّة هي ما كتبه شيخُ الإسلام بنفسه متحدثًا عن هذه السنّة فيقول: إنّ الله- سبحانه- يريد أن يبيّن لنا ويهدينا سنن الذين من قبلنا، الذين قال فيهم: ﴿ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وهُم الذين أمرنا أنْ نسأله الهداية لسبيلهم في قوله: ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ {٦/١} صِرَاطَ الَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِمْ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧]، فهو يحبّ لنا ويأمرنا أنْ نتّبع صراط هؤلاء، وهو سبيل مَن أناب إليه، فذكر هنا ثلاثةَ أمور: البيان، والهداية، والتوبة.

وقيل: المراد بالسّنن هنا سننُ أهل الحقّ والباطل، أي: يريد أن يبيّن لنا سنن هؤلاء وهؤلاء، فيهدي عباده المؤمنين إلى الحقّ ويضلّ آخرين؛ فإنّ الهدى والضلال إنما يكون بعد البيان، كما قال: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَن يَشَاء وَيَهْدِي مَن يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ﴾ [التوبة: ١١٥].

المعنى المعجمي لكلمتي الهدى والضلال:

الهدى: مِن أسماء الله - عز وجل - الهادي، قال ابن الأثير: هو الذي بصّر عباده وعرّفهم طريق معرفته حتى أقرّوا بربوبيته، وهدى كلّ مخلوق إلى ما لا بدّ له منه في بقائه ودوام وجوده.

وقال ابنُ سيده: الهدى ضدّ الضلال، وهو الرشاد، والمهدي: هو الذي قد هداه الله إلى الحقّ. وهديته الطريق: أي عرّفته، والهدى- أيضًا: الطاعة والورع[1].

(١) لسان العرب لابن منظور، دار صادر، (٤١/١٥، ٤٢).

معنـى الضـلال: ضلّـل: الضـلال والضلالـة: ضـدّ الهـدى والرشـاد، وأضلّـه: جعلـه ضـالًّا، وقولـه تعـالى: ﴿ إِن تَحْـرِصْ عَـلَى هُدَاهُـمْ فَـإِنَّ اللـهَ لاَ يَهْـدِي مَـن يُضِـلُّ﴾ [النحـل: ٣٧].

يقال: أضللت فلانًا: إذا وجّهته للضلال عن الطريق، وأضللت الشيء: إذا غيبته.

ومـن معـاني الضـلال: الضيـاع، ومنـه قولـه تعـالى: ﴿ضَـلَّ سَـعْيُهُمْ فِي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَـا﴾ [الكهـف: ١٠٤]، وأضلّـه: أي أضاعـه وأهلكـه، وفي التنزيـل: ﴿إِنَّ الْمُجْرِمِـينَ فِي ضَـلَالٍ وَسُـعُرٍ﴾ [القمـر: ٤٧]، أي: في هـلاك، والضـلال: النسـيان، والضـلال: الغيبوبـة: يقـال ضـلّ المـاء في اللـبن: إذا غـاب. وضـلّ الكافـر: إذا غـاب عـن الحجّـة، وضـلّ فـلان عـن القصـد: إذا جـار ووقـع في الباطـل[1].

المقصود بالهدى:

إنّ هـدى اللـه هـو الهـدى، وهـو الإسـلام، قـال تعـالى: ﴿هُـوَ الَّـذِي أَرْسَـلَ رَسُـولَهُ بِالْهُـدَى وَدِيـنِ الْحَـقِّ لِيُظْهِـرَهُ عَـلَى الدِّيـنِ كُلِّـهِ﴾ [التوبـة: ٣٣]، وقـال تعـالى: ﴿قُـلْ إِنَّ هُـدَى اللـهِ هُـوَ الْهُـدَى﴾ [البقـرة: ١٢٠]، أي: ليـس هنـاك هدايـة وراء هـذا الهـدى.

ويقـول ابـن كثـير في تفسـير قولـه تعـالى: ﴿ وَلَـن تَـرْضَى عَنـكَ الْيَهُـودُ وَلاَ النَّصَـارَى حَتَّـى تَتَّبِـعَ مِلَّتَهُـمْ قُـلْ إِنَّ هُـدَى اللـهِ هُـوَ الْهُـدَى ﴾ [البقـرة: ١٢٠]، أي: قـل يـا محمـد: إن هـدى اللـه الـذي بعثنـي بـه هـو الهـدى، يعنـي: هـو الديـن المسـتقيم الصحيـح الكامـل الشـامل[2].

تقريرُ سنّة الله (تعالى) في الهدى والضلال:

جعـل اللـه تعـالى سـنَّته ماضيـةً عـلى جميـع خلقـه، فبـيّن سـبحانه أنّـه يحـب لنـا أن نتبـع صراطـه المسـتقيم الواضـح البـيّن الـذي لا اعوجـاج فيـه، وأنْ نقتفـي سـنن الذيـن مـن قبلنـا في ملازمتهـم الحـقّ وعدولهـم عـن الباطـل.

الهدى والضّلال لا يأتيان إلّا بعد التّبيين:

لقـد بـيّن شـيخ الإسـلام أنّ الهـدى والضـلال لا يكـون إلّا بعـد البيـان؛ حيـث ذكـر قولـه تعـالى: ﴿وَمَـا أَرْسَـلْنَا مِـن رَّسُـولٍ إِلاَّ بِلِسَـانِ قَوْمِـهِ لِيُبَـيِّنَ لَهُـمْ فَيُضِـلُّ اللـهُ مَـن يَشَـاء وَيَهْـدِي مَـن

(١) لسان العرب، جـ٩، ١٠، ص(٥٦، ٥٧، ٥٨) باختصار وتصرف.

(٢) ابن كثير، (١٦٣/١).

يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ [إبراهيم: ٤]، وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾، ووضّح أنّ الهدى والضلال يأتي بعد أن يبيّن الله للناس طرق الحقّ والخير.

ومِن كلامه في توضيح هذه الآية: «فتكون ﴿سُنَنٌ﴾ متعلقًا بـ ﴿يُبَيِّنَ﴾، يعني: سنن أهل الباطل لا بـ (يهدي)، وأهل الحقّ متعلّق بقوله: ويهديكم.

وقال الزجّاج: السنن: الطرق، فالمعنى: يدلّكم على طاعته كما دلّ الأنبياء وتابعيهم.

وهذا أوْلى؛ لأنه قد يقدّم فعلين، فلا يجعل الأول هو العامل وحده؛ بل العامل إمّا الثاني وحده، وإمّا الاثنان كقوله: ﴿آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴾ [الكهف: ٩٦].

أو إذا أريد هذا التقدير: يبيّن لكم سنن الذين من قبلكم ويهديكم سننًا، فدلّ على أنه يهدينا سننهم .

والمراد بذلك سنن أهل الحقّ، بخلاف قوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ ﴾ فإنه قال بعدها: ﴿فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذَّبِينَ ﴾ فإنه أراد تعريف عقوبة الظالمين بالعيان، وهنا فأنزل علينا من القرآن ما يهدينا به سنن الذين من قبلنا، وهُم الذين أنعم الله عليهم»[1].

ارتباطُ سنّة الله في الهدى بالتّبيين والتوبة:

وذلك لأنّ الإنسان- أولًا- يحتاج إلى معرفة الخير والشر، وما أمر به وما نهي عنه، ثمّ يحتاج بعد ذلك إلى أن يهدى فيقصد الحقّ ويعمل به دون الباطل.

وهو سننُ الأنبياء والصالحين، ثمّ لا بدّ له بعد ذلك من الذنوب، فيريد أن يتطهّر منها بالتوبة، فهو محتاجٌ إلى العلم والعمل به، وإلى التوبة مع ذلك، فلا بدّ له من التقصير أو الغفلة في سلوك تلك السّنن التي هداه الله إليها، فيتوب منها بما وقع من تفريط في كلّ سنة من تلك السنن.

---

(١) الفتاوى، (٥٧٩/١٠).

وهـذه «السـنن» تدخـل فيهـا الواجبـات والمسـتحبّات، فـلا بـدّ للسـالك فيهـا مـن تقصـير وغفلـة فيسـتغفر اللـه ويتـوب إليـه، فـإنّ العبـد لـو اجتهـد مهْـما اجتهـد لا يسـتطيع أن يقـوم للـه بالحـقّ الـذي أوجبـه عليـه، فـما يسـعه إلّا الاسـتغفار والتوبـة عقيـب كلّ طاعـة[1].

ورودُ كلمةِ الهدى في القرآن الكريم:

١ـ الهدى بمعنى الدّعاء إلى الخير:

الهدايـة عنـد شـيخ الإسـلام تعنـي الأمـرَ والنهـي، وهـو الدعـاء إلى الخـير كـما قـال تعـالى: ﴿وَلِـكُلِّ قَـوْمٍ هَـادٍ ﴾ [الرعـد: ٧]، أي: داع يدعوهـم إلى الخـير، كـما قـال تعـالى: ﴿وَإِنَّـكَ لَتَهْـدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْـتَقِيمٍ ﴾ [الشـورى: ٥٢]، أي: تدعوهـم إليـه دعـاء تعليـم.

ويوضّـح هنـا شـيخ الإسـلام ذلـك فيقـول: قـد يقـال: «الهدايـة» هنـا البيـان والتعريـف، أي: يعرفكـم سـنن الذيـن مـن قبلكـم مـن أهـل السـعادة والشـقاوة؛ لتتبعـوا هـذه وتجتنبـوا هـذه، كـما قـال تعـالى: ﴿وَهَدَيْنَـاهُ النَّجْدَيْـنِ ﴾ [البلـد: ١٠]، قـال عـلي وابـن مسـعود: سـبيل الخـير والـشرّ. وعـن ابـن عبـاس: سـبيل الهـدى والضـلال. وقـال مجاهـد: سـبيل السـعادة والشـقاوة، أي: فطرنـاه عـلى ذلـك وعرّفنـاه إيّـاه، والجميـع واحـد.

والنجدان: الطريقان الواضحان، والنجدُ: المرتفع من الأرض.

فالمعنى: ألم نعرّفه طريق الخير والشر ونبيّنه له كتبيين الطريقين العاليين.

لكنّ الهدى والتبيين والتعريف في هذه الآية يشترك فيه بنو آدم ويعرفونه بعقولهم.

وأمّـا طريـق مَـن تقـدّم مـن الأنبيـاء فـلا بـدّ مـن إخبـار اللـه- تعـالى- عنهـا كـما قـال: ﴿تِلْـكَ مِـنْ أَنبَـاء الْغَيْـبِ نُوحِيهَـا إِلَيْـكَ مَـا كُنـتَ تَعْلَمُهَـا أَنـتَ وَلاَ قَوْمُـكَ مِـن قَبْـلِ هَـذَا ﴾ [هـود: ٤٩].

لكـنْ يجـاب عـن هـذا بأنـه لـو أريـد هـذا المعنـى لقـال: يريد اللـه ليبين لكـم سـنن الذيـن مـن قبلكم، ولم يحتَـجْ أن يذكـرَ الهـدى إذا كان المعنـى واحـدًا، فلـمّا ذكـر أنـه يريـد التبيـين والهـدى علـم أنّ هـذا غـير

(١) الفتاوى، (٥٨٠/١٠).

هـذا؛ فـ«التبيـين» التعريـف والتعليـم، و«الهـدى» هـو الأمـر والنهـي، وهـو الدعـاء إلى الخـير، كـما قـال تعـالى: ﴿وَلِـكُلِّ قَـوْمٍ هَـادٍ ﴾، أي: داع يدعوهـم إلى الخـير، كـما قـال تعـالى: ﴿وَإِنَّـكَ لَتَهْـدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْـتَقِيمٍ﴾، أي: تدعوهـم إليـه دعـاء تعليـم[1].

٢ـ الهدى بمعنى الإلزام:

بـيّن الشـيخ ووضّـح أنّ المقصـود بسـنة اللـه في الهـدى هـو سـنته فيمَـن يتبـع تعاليـم الإسـلام وهـدى الأنبيـاء ولا يحيـد عـن ذلـك أن يثيبـه، ومَـن عـصى أن يعاقبـه، وأنّ الذيـن أطاعـوه في ذلـك إنّمـا أطاعـوه بهـداه لهـم (هـدى الإلهـام).

وأنّ الذيـن عصـوه عصـوه بإرادتهـم، ولكـن تمـادوا في ذلـك، فعاقبهـم اللـه - عـز وجـل - بهـذا التّـمادي فأضلّهـم بـأنْ حرمهـم سـبل الهدايـة، فاللـه وحـده هـو الـذي جعـل المصـلي مصليًـا والمسـلم مسـلمًا، وقـد حـذّر اللـه - عـز وجـل - النـاس مِـن أن يتبعـوا سـبل الغوايـة، وأمرهـم أن يسـلكوا سـبلَ الهـدى والرشـاد، فقـال تعـالى: ﴿فَمَـنِ اتَّبَـعَ هُـدَايَ فَـلاَ يَضِـلُّ وَلَا يَشْـقَى﴾ [طـه: ١٢٣].

ويقـول شـيخُ الإسـلام في ذلـك بأسـلوبه الرائـع مبيّنًـا لطائـف معنـى الفعـل هـدى: «وهـداه هنـا يتعـدّى بنفسـه؛ لأنّ التقديـر: ويلزمكـم سـنن الذيـن مـن قبلكـم فـلا تعدلـوا عنهـا، وليـس المـراد هنـا بالهـدى الإلهـام، كـما في قولـه: ﴿اهدِنَـا الـصِّرَاطَ المُسـتَقِيمَ﴾؛ لكونـه لـو أراد ذلـك لوقـع؛ ولم يكـن فينـا ضـالّ؛ بـل هـذه إرادة شرعيـة أمريـة بمعنـى المحبـة والرضـا، ولهـذا قـال الزجّـاج: يريـد أن يدلّكـم عـلى مـا يكـون سـببًا لتوبتكـم، فعلّـق الإرادة بفعـل نفسـه.

فـإنّ الزجّـاج ظـنّ الإرادة في القـرآن ليسـت إلّا كذلـك، وليـس كـما ظـن؛ بـل الإرادة المتعلّقـة بفعلـه يكـون مرادهـا كذلـك، فإنـه مـا شـاء كان ومـا لم يشـأ لم يكـن.

وأمّـا الإرادة الموجـودة في أمـره وشرعـه فهـو كقولـه: ﴿مَـا يُرِيـدُ اللــهُ لِيَجْعَـلَ عَلَيْكُـم مِّـنْ حَـرَجٍ وَلَكِـن يُرِيـدُ لِيُطَهَّرَكُـمْ﴾ الآيـة [المائـدة: ٦]، وقولـه: ﴿إِنَّمَـا يُرِيـدُ اللــهُ لِيُذْهِـبَ عَنكُـمُ الرِّجْـسَ أَهْـلَ الْبَيْـتِ ﴾ [الأحـزاب: ٣٣]، ونحـو ذلـك.

(١) الفتاوى، (١٠/ ٥٨٠، ٥٨١).

فهـذه إرادتـه لما أمـر بـه، بمعنـى أنـه يحبـه ويرضـاه ويثيـب فاعلـه؛ لا بمعنـى أنـه أراد أن يخلقـه فيكـون كـما قـال: ﴿فَمَـن يُـرِدِ اللــهُ أَن يَهْدِيَـهُ يَـشْرَحْ صَـدْرَهُ لِلإِسْـلاَمِ وَمَـن يُـرِدْ أَن يُضِلَّـهُ يَجْعَـلْ صَـدْرَهُ ضَيِّقًـا حَرَجًـا ﴾ الآيـة [الأنعـام: ١٢٥]، وكـما قـال نـوح: ﴿ وَلاَ يَنفَعُكُـمْ نُصْحِـي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَـحَ لَكُـمْ إِن كَانَ اللــهُ يُرِيـدُ أَن يُغْوِيَكُـمْ هُـوَ رَبُّكُـمْ وَإِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ﴾ فهـذه إرادةٌ لما يخلقـه ويكونـه، كـما يقـول المسـلمون: مـا شـاء اللـه كان ومـا لم يشـأ لم يكـن، وهـذه الإرادة متعلّقـة بـكلّ حـادث.

والإرادة الشرعيـة الأمريـة لا تتعلـق إلّا بالطاعـات، كـما يقـول النـاس لمـن يفعـل القبيـح: يفعـل شـيئًا مـا يريـده اللـه مـع قولهـم: مـا شـاء اللـه كان ومـا لم يشـأ لم يكـن.

فإنّ هذه الإرادة (نوعان) كما قد بسط في موضع آخر.

وقـد يُـراد بالهـدى الإلهـام، ويكـون الخطـاب للمؤمنـين المطيعـين الذيـن هداهـم اللـه إلى طاعتـه؛ فـإن اللـه- تعـالى- أراد أنْ يتـوب عليهـم ويهديهـم فاهتـدوا، ولـولا إرادتـه لهـم ذلـك لم يهتـدوا، كـما قالـوا: ﴿الْحَمْـدُ للـهِ الَّـذِي هَدَانَـا لِهَـذَا وَمَـا كُنَّـا لِنَهْتَـدِيَ لَـوْلا أَنْ هَدَانَـا اللــهُ لَقَـدْ جَـاءَتْ رُسُـلُ رَبِّنَـا بِالْحَـقِّ ﴾ [الأعـراف: ٤٣]»[١].

٣ـ الهدى بمعنى البيان:

قـال شـيخ الإسـلام: (هنـا البيـان والتعريـف أي: يعرفكـم سـنن الذيـن مـن قبلكـم مـن أهـل السـعادة والشـقاوة لتتبعـوا هـذه وتجتنبـوا هـذه كـما قـال تعـالى: ﴿وَهَدَيْنَـاهُ النَّجْدَيْـنِ ﴾ قـال عـلي وابن مسـعود: سـبيل الخـير، والـشر. وعـن ابـن عبـاس: سـبيل الهـدى والضلال. وقـال مجاهد: سـبيل السـعادة والشـقاوة: أي فطرنـاه عـلى ذلـك وعرّفنـاه إيّـاه، والجميـع واحـد. والنّجـدان الطريقـان الواضحـان، والنجـدُ المرتفـعُ مـن الأرض، فالمعنـى ألم نعرّفـه طريـق الخـير والـشر ونبيّنـه لـه كتبيـين الطريقـين العاليـين؛ لكـن الهـدى والتبيـين والتعريـف في هـذه الآيـة يشـترك فيـه بنـو آدم ويعرفونـه بعقولهـم)[٢].

(١) الفتاوى، (٥٨١/١٠، ٥٨٢).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ٥٨٠)

الضلال خلاف الهدى:

نجد ذلك في كتاب الله حيث يقول - سبحانه وتعالى -: ﴿وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُواْ مَيْلاً عَظِيماً﴾ [النساء: ٢٧]، وكما في قوم نوح: ﴿وَلاَ يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ [هود: ٣٤]، ويوضّح شيخ الإسلام أن المقصود بالآية: «تحذيرهم من متابعة الذين يتبعون الشهوات. والمعنى: إني أريد لكم الخير الذي ينفعكم، وهؤلاء يريدون لكم الشرّ الذي يضركم كالشيطان الذي يريد أن يغويكم، وأتباعه هُم أهل الشهوات فلا تتخذوه وذريته أولياء من دوني، بل اسلكوا طرق الهدى والرشاد، وإياكم وطرق الغي والفساد، كما قال تعالى: ﴿فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى﴾ الآيات»[1].

الأشياءُ التي تناقض الهدى أو «أسباب الضلال»:

١- اتباع الشهوات والأهواء:

كما قال تعالى: ﴿أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون: ٧١]، وقال تعالى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعُواْ أَهْوَاء قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ﴾ [المائدة: ٧٧]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءهُمْ ﴾ [محمد: ١٤]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الجاثية: ١٨]، وهذا في القرآن كثير.

واتّباع الهوى: هو اتباع أمر النفس، أي: فعل ما تهواه.

يقول النبي ﷺ:«ثلاثٌ مهلكات: شحّ مُطاع، وهوى مُتبع، وإعجابُ المرء بنفسه. وثلاثٌ مُنجيات: خشية الله في السرّ والعلانية، والقصد في الفقر والغنى، وكلمة الحقّ في الغضب والرضا»[2].

(١) الفتاوى، (٥٨٣/١٠، ٥٨٤).

(٢) الفتاوى، (٥٨٤/١٠) وما بعدها باختصار وتصرف، والحديث أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، باب: الخوف من الله، (٢٠٤/٢).

٢- الغفلة عن الله والدار الآخرة:

والمقصود أنّ القلب قد يغمره فيستولي عليه ما يريده العبد ويحبّه وما يخافه ويحذره كائنًا مَن كان؛ ولهذا قال تعالى: ﴿بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِّنْ هَذَا وَلَهُمْ أَعْمَالٌ مِن دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٣]، فهي فيما يغمرها عما أنذرت به فيغمرها ذلك عن ذكر الله والدار الآخرة وما فيها من النعيم والعذاب الأليم.

قال الله تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ﴾ [المؤمنون: ٥٤]، أي: فيما يغمر قلوبهم من حبّ المال والبنين المانع لهم من المسارعة في الخيرات والأعمال الصالحة.

وقال تعالى: ﴿قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ {١٠/٥١} الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ﴾ الآيات [الذاريات: ١٠-١١]، أي: ساهون عن أمر الآخرة، فهم في غمرة عنها، أي: فيما يغمر قلوبهم من حبّ الدنيا ومتاعها، ساهون عن أمر الآخرة وما خلقوا له.

وهذا يشبه قوله: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا﴾ [الكهف: ٢٨]، فالغمرة تكون من اتباع الهوى، والسهو من جنس الغفلة؛ ولهذا قال من قال: «السهو» الغفلة عن الشيء، وذهاب القلب عنه، وهذا جماع الشرّ «الغفلة» و«الشهوة»، «فالغفلة» عن الله والدار الآخرة تسدّ بابَ الخير الذي هو الذكر واليقظة. و«الشهوة» تفتح بابَ الشرّ والسهو والخوف فيبقى القلب مغمورًا فيما يهواه ويخشاه غافلاً عن الله، رائدًا غير الله، ساهيًا عن ذكره، قد اشتغل بغير الله، قد انفرط أمره، قد ران حبّ الدنيا على قلبه.

كما روي في صحيح البخاري وغيره عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ أنه قال: «تعس عبدُ الدينار، تعس عبدُ الدرهم، تعس عبدُ القطيفة، تعس عبدُ الخميصة، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي، وإن منع سخط»(١).

٣- حبّ الرئاسة وحبّ المال ومحبّة غير الله - عز وجل -:

ولقد عدّ شيخُ الإسلام هؤلاء الثلاث من الأشياء الشاغلة المهلكة للإنسان التي تحول بينه وبين الوصول إلى طاعة الله - عز وجل - وهدايته، فيقول- رحمه الله: «وطالب الرئاسة- ولو

(١) الفتاوى، (٥٩٦/١٠، ٥٩٧)، والحديث خرجه ابن ماجه في السنن، باب: في المكثرين، (١٣٨٥/٢).

بالباطـل- ترضيـه الكلمـة التـي فيهـا تعظيمـه وإن كانـت باطـلاً، وتغضبـه الكلمـة التـي فيهـا ذمّـه وإن كانـت حقًّـا.

والمؤمـن ترضيـه كلمـة الحـقّ لـه وعليـه، وتغضبـه كلمـة الباطـل لـه وعليـه؛ لأن اللـه- تعـالى- يحـبّ الحـقّ والصـدق والعـدل، ويبغـض الكـذب والظلـم.

فـإذا قيـل: الحـقّ والصـدق والعـدل الـذي يحبّـه اللـه أحبّـه وإن كان فيـه مخالفـة هـواه؛ لأن هـواه قـد صـار تبعًـا لمـا جـاء بـه الرسـول.

وإذا قيل: الظلم والكذب فالله يبغضه والمؤمن يبغضه ولو وافق هواه.

وكذلـك طالـب «المـال»- ولـو بالباطـل- كـما قـال تعـالى: ﴿وَمِنْهُـم مَّـن يَلْمِـزُكَ فِي الصَّدَقَـاتِ فَـإِنْ أُعْطُـواْ مِنْهَـا رَضُـواْ وَإِن لَّـمْ يُعْطَـوْاْ مِنهَـا إِذَا هُـمْ يَسْـخَطُونَ ﴾ [التوبـة: ٥٨].

وكذلـك الذيـن يحبـون العبـد كأصدقائـه والذيـن يبغضونـه كأعدائـه فالذيـن يحبونـه يجذبونـه إليهـم، فـإذا لم تكـن المحبـة منهـم لـه للـه كان ذلـك مـما يقطعـه عـن اللـه، والذيـن يبغضونـه يؤذونـه ويعادونـه فيشـغلونه بأذاهـم عـن اللـه، ولـو أحسـن إليـه أصدقـاؤه الذيـن يحبونـه لغـير اللـه أوجـب إحسـانهم إليـه محبتـه لهـم، وانجـذاب قلبـه إليهـم، ولـو كان عـلى غـير الاسـتقامة وأوجـب مكافأتـه لهـم فيقطعونـه عـن اللـه وعبادتـه.

فـلا تـزول الفتنـة عـن القلـب إلّا إذا كان ديـن العبـد كلـه للـه - عـز وجـل -، فيكـون حبـه للـه، ولمـا يحبـه اللـه، وبغضـه للـه ولمـا يبغضـه اللـه، وكذلـك موالاتـه ومعاداتـه، وإلّا فمحبـة المخلـوق تجذبـه، وحـب الخلـق لـه سـبب يجذبهـم بـه إليـه.

ثـمّ قـد يكـون هـذا أقـوى، وقـد يكـون هـذا أقـوى، فـإذا كان هـو غالبًـا لهـواه لم يجذبـه مغلـوب مـع هـواه ولا محبوباتـه إليهـا؛ لكونـه غالبًـا لهـواه ناهيًـا لنفسـه عـن الهـوى؛ لمـا في قلبـه مـن خشـية اللـه ومحبتـه التـي تمنعـه عـن انجذابـه إلى المحبوبـات.

وأمّـا حـبّ النـاس لـه فإنـه يوجـب أن يجذبـوه هـم بقوتهـم إليهـم، فـإن لم يكـن فيـه قـوة يدفعهـم بهـا عـن نفسـه مـن محبـة اللـه وخشـيته وإلّا جذبـوه وأخـذوه إليهـم، كحـب امـرأة العزيـز ليوسـف؛ فإن

قـوة «يوسـف» ومحبتـه للـه وإخلاصـه وخشـيته كانـت أقـوى مـن جـمال امـرأة العزيـز وحسـنها وحبّـه لهـا.

هـذا إذا أحـبّ أحدهـم صورتـه، مـع أن هنـا الداعـي قـوي منـه ومنهـم، فهنـا المعصـوم مـن عصمـه اللـه، وإلّا فالغالـب عـلى النـاس في المحبـة مـن الطرفـين أنـه يقـع بعـض الـشر بينهـم، ولهـذا قـال رسـول اللـه ﷺ: (لا يخلـونّ رجـل بامـرأة إلّا كان ثالثهـما الشـيطان)[١].

وقـد يحبونـه لعلمـه أو دينـه أو إحسـانه أو غـير ذلـك؛ فالفتنـة في هـذا أعظـم؛ إلّا إذا كانـت فيـه قـوة إيمانيـة وخشـية وتوحيـد تـام؛ فـإن فتنـة العلـم والجـاه والصـور فتنـة لـكل مفتون.

وهــم مـع ذلـك يطلبـون منـه مقاصدهــم إن لم يفعلهـا وإلّا نقـص الحــب، أو حصـل نــوع بغـض، وربمـا زاد أو أدى إلى الانسـلاخ مـن حبّـه، فصـار مبغوضًـا بعـد أن كان محبوبًـا؛ فأصدقـاء الإنسـان يحبـون اسـتخدامه واسـتعماله في أغراضهـم حتـى يكـون كالعبـد لهـم، وأعـداؤه يسـعون في أذاه وإضراره، وأولئـك يطلبـون منـه انتفاعهـم، وإن كان مـضرًا لـه مفسـدًا لدينـه لا يفكـرون في ذلـك، وقليـل منهـم الشـكور.

فالطائفتـان في الحقيقـة لا يقصـدون نفعـه ولا دفـع ضرره، وإنمـا يقصـدون أغراضهـم بـه، فـإن لم يكـن الإنسـان عابـدًا للـه متـوكلًا عليـه مواليًـا لـه مواليًـا فيـه ومعاديًـا، وإلّا أكلتـه الطائفتـان، وأدى ذلـك إلى هلاكـه في الدنيـا والآخـرة»[٢].

وهناك الكثير من التفاصيل في ذلك في كتب شيخ الإسلام- رحمه الله.

المستحقون لهدايته– سبحانه:

١-المتّبعون لأوامره:

«ألبـس اللـه- سـبحانه- الذّلـة والصّغـار لمَـن خالـف أمـره، كـما في مسـند الإمـام أحمـد مـن حديـث عبـد اللـه بـن عمـر؛ عـن النبـي ﷺ أنـه قـال: (بعثـت بين يـدي السـاعة حتـى يعبد اللـه وحـده لا شريك

(١) سنن الترمذي، ت: شاكر، باب: في كراهية الدخول على المغيبات، (٤٦٦/٣).

(٢) الفتاوى، (٥٩٩/١٠) وما بعدها.

لـه، وجعـل رزقـي تحـت ظـلّ رمحـي، وجعلـت الذّلـة والصَّغـار عـلى مَـن خالـف أمـري، ومـن تشـبه بقـوم فهـو منهـم)[١].

وكـما أن مـن خالفـه وشـاقه وعـاداه هـو الشـقي الهالـك، فكذلـك مـن أعـرض عنـه وعـما جـاء بـه واطـمأن إلى غـيره ورضي بـه بـدلًا منـه هـو هالـك- أيضًـا.

فالشـقاء والضـلال في الإعـراض عنـه، وفي تكذيبـه، والهـدى والفـلاح في الإقبـال عـلى مـا جـاء بـه وتقديمـه عـلى كلّ مـا سـواه.

فالأقسام ثلاثة: المؤمن به، وهو: المتّبع له، المحبّ له، المقدّم له على غيره.

والمعادي له والمنابذ له والمعرض عما جاء به، فالأول هو السعيد، والآخران هما الهالكان»[٢].

٢- المتّبعون لرسله:

يقـول شـيخ الإسـلام- رحمـه اللـه- في رسـالة رائعـة تحـدّث فيهـا عـن الرسـالة وأهميتهـا في إصـلاح العبـد ومعاشـه ومعـاده: «لـولا الرسـالة لم يهتـد العقـل إلى تفاصيـل النافـع والضـار في المعـاش والمعـاد، فمـن أعظـم نعـم اللـه عـلى عبـاده وأشرف منـة عليهـم: أن أرسـل إليهـم رسـله، وأنـزل عليهـم كتبـه، وبـين لهـم الـصراط المسـتقيم، ولـولا ذلـك لكانـوا بمنزلـة الأنعـام والبهائـم، بـل أشرّ حـالًا منهـا.

فمَـن قبِـلَ رسـالةَ اللـه واسـتقام عليهـا فهـو مِـن خـير البريـة، ومَـن ردّهـا وخـرج عنهـا فهـو مِـن شرّ البريـة، وأسـوأ حـالًا مـن الكلـب والخنزيـر والحيـوان البهيـم.

وفي الصحيـح مـن حديـث أبي مـوسى - رضي اللـه عنـه -، عـن النبـي ﷺ قـال: (مثـل مـا بعثنـي اللـه بـه مـن الهـدى والعلـم كمثـل غيـث أصـاب أرضًـا فكانـت منهـا طائفـة قبلـت المـاء، فأنبتـت الـكلأ والعشـب الكثـير، وكان منهـا أجـادب أمسـكت المـاء فنفـع اللـه بهـا النـاس فشربـوا منهـا وانتفعـوا وزرعـوا، وأصـاب طائفـة منهـا أخـرى إنمـا هـي قيعـان لا تمسـك مـاء ولا تنبـت كلأ. فذلـك مثـل مـن

---

(١) مسند أحمد، (١٢٦/٩).

(٢) الفتاوى، (١٠٤/١٩، ١٠٥).

فقه في دين الله- تعالى- ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به) متفق على صحته»[١].

وهكذا نرى أهمية الرسالة في هداية الإنسان إلى السعادة وإلى الطريق الحق، وكما يقول شيخ الإسلام: «وحاجة العبد إلى الرسالة أعظم بكثير من حاجة المريض إلى الطب؛ فإن آخر ما يقدر بعدم الطبيب موت الأبدان، وأمّا إذا لم يحصل للعبد نور الرسالة وحياتها مات قلبه موتًا لا ترجى الحياة معه أبدًا، أو شقي شقاوة لا سعادة معها أبدًا»[٢].

٣- أصلُ الهدى العلم النافع، وأصلّ الرشاد العمل بالحقّ:

يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: (فالعلم النافع هو أصل الهدى والعمل بالحق هو الرشاد، وضدّ الأول الضلال، وضدّ الثاني الغي فالضلال العمل بغير علم، والغيّ اتباعُ الهوى. قال تعالى: ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى ﴾ ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى﴾ فلا ينال الهدى إلّا بالعلم ولا ينال الرشاد إلّا بالصبر؛ ولهذا قال علي: ألَا إنّ الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد- فإذا انقطع الرأس بان الجسد- ثمّ رفع صوته فقال ألَا لا إيمان لمَن لا صبر له)[٣].

***

(١) الفتاوى، (١٠٠/١٩)، راجع: صحيح البخاري، (٢٧/١)، باب: فضل من علم وعلم.

(٢) الفتاوى، (٩٦/١٩، ٩٧).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٠/ ٤٠).

المبحثُ السّادس

سنّةُ الله في الابتلاء أو الفتنة

المعنى اللغوي والاصطلاحي:

جاء في لسان العرب: جماع معنى الفتنة: الابتلاء والامتحان، والاختبار، وأَصلها مأْخوذ من قولك: فتَنْتُ الفضة والذهب: إِذا أَذبتهما بالنار؛ لتميز الرديء من الجيِّد.

وفي الصحاح: إِذا أَدخلته النار لتنظر ما جَوْدَتُه، والفتنة الإحراق، الإثم، اختلاف آراء الناس، الإزالة، وفيه قوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [الإسراء: ٧٣]، أي: يميلونك ويزيلونك عن الذي أوحينا إليك.

والفتنة: الكفر كما في قوله تعالى: ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ١٩١]، والفتنة ما يقع بين الناس من القتال كما في قوله تعالى: ﴿ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُواْ ﴾ [النساء: ١٠١]، وقوله ﷺ: (أرى الفتنة خلال بيوتكم) بأن يكون القتل والحروب والاختلاف الذي بين فرق المسلمين، ويكون بما به من زينة الدنيا وشهواتها فيفتنون بذلك عن الآخرة والعمل لها.

ابن الأَعرابي: الفِتْنة: الاختبار، والفِتْنة: المِحْنة، والفِتْنة: المال، والفِتْنة: الأَوْلادُ، والفِتْنة: الكُفْرُ، والفِتْنةُ: اختلافُ الناس بالآراء، والفِتْنةُ: الإِحراق بالنار؛ وقيل: الفِتْنة في التأْويل الظُّلْم.

يقال: فلان مَفْتُونٌ بطلب الدنيا قد غَلا في طلبها»[1].

معنى الابتلاء: بلوت الرجل بلوًا وبلاء وابتليته: اختبرته، وبلاه يبلوه بلوًا: إذا جربه واختبره. والاسم البلوى والبلوة والبلية والبلاء، وبلي بالشيء بلاء وابتلي، والبلاء يكون في الخير والشر. يقال: ابتليته بلاء حسنًا وبلاء سيئًا، والله- تعالى- يبلي العبد بلاء حسنًا ويبليه بلاء سيئًا، نسأل الله- تعالى- العفو والعافية، والجمع: البلايا[2].

---

(١) لسان العرب لابن منظور، ص(١٢٥) جـ(١١، ١٢).

(٢) لسان العرب، جـ١، ٢، ص(١٥١).

والابتـلاء والفتنـة والتمحيـص والامتحـان كلـمات قرآنيـة، وأصـل الابتـلاء: الاختبـار، جـاء مـن معناهـا اللغـوي: بلـوت الرجـل وابتليتـه: اختبرتـه، وابتـلاه اللـه: امتحنـه، والاسـم البلـوى والبـلاء، والبـلاء: الاختبـار يكـون في الخـير والـشر.

الابتلاءُ سنّةٌ إلهية:

الابتـلاء سُـنَّة جاريـة في النَّـاس عامَّـةً وفي المؤمنـين خاصَّـةً، «فقـد شـاءت إرادة اللـه - عـز وجـل - أن تكـون حيـاة الإنسـان فـوق هـذه الأرض سلسـلة متواصلـة لا تـكاد تنتهـي مـن الابتـلاءات والمحـن، وفي هـذا يقـول - سـبحانه - : ﴿تَبَـارَكَ الَّـذِي بِيَـدِهِ الْمُلْـكُ وَهُـوَ عَـلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيـرٌ {١/٦٧} الَّـذِي خَلَـقَ الْمَـوْتَ وَالْحَيَـاةَ لِيَبْلُوَكُـمْ أَيُّكُـمْ أَحْسَـنُ عَمَـلاً وَهُـوَ الْعَزِيـزُ الْغَفُـورُ ﴾ [الملـك: ١-٢]، وهـذا الابتـلاء قـد يكـون بالخـير أو بالـشر: ﴿كُلُّ نَفْـسٍ ذَائِقَـةُ الْمَـوْتِ وَنَبْلُوكُـم بِالـشَّرِّ وَالْخَـيْرِ فِتْنَـةً وَإِلَيْنَـا تُرْجَعُـونَ ﴾ [الأنبيـاء: ٣٥].

وقـد يكـون الابتـلاء للمؤمنـين في سـبيل تمييـز المجاهديـن منهـم والصابريـن ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُـمْ حَتَّـى نَعْلَـمَ الْمُجَاهِدِيـنَ مِنكُـمْ وَالصَّابِرِيـنَ وَنَبْلُـوَ أَخْبَارَكُـمْ ﴾ [محمـد: ٣١].

فالابتـلاء يمكـن أن يكـون في أي شـأن مـن شـئون الحيـاة، فاللـه - سـبحانه وتعـالى - خلـق البـشر، واسـتخلفهم في الأرض، ولم يتركهـم يهيمـون عـلى غـير هـدى، بـل أرسـل إليهـم الرسـل مبشريـن ومنذريـن، فبينـوا لهـم سـنن الهدايـة والرشـاد، وبشروهـم بالفـوز في الدنيـا والآخـرة، إن هـم أخـذوا بهـا واتبعوهـا، كـما حذروهـم مـن مخالفـة هـذه السـنن، وأنذروهـم مـن عـذاب اللـه إن هـم ضلـوا عنهـا، وتنكّبـوا جـادّة الصـواب..

فلـم يعـد إذًا للنـاس مـن حجـة بعـد الرسـل، بـل أصبحـوا بعـد الرسـالات في غمـرة الابتـلاء والاختبـار، وغـدوا مطالبـين بتحـرّي الصـواب في شـئونهم كلّهـا، وإلّا سـقطوا في الامتحـان، خـسروا الدنيـا والآخـرة»[1].

(١) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، د/ أحمد كنعان، ص(١٣٣)، دار النفائس، ط أولى، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.

ولهذا الابتلاء والاختبار حكم عظيمة وفوائد جسيمة، ومنها:

١- تصفيةُ الصفوف والإعداد الحقيقي لتحمل الأمانة ورفع المنزلة والدرجة عند الله وتكفير السيئات ومعرفة عز الربوبية وقهرها، وذل العبودية وكسرها، والإنابة إلى الله، ورحمة أهل البلاء ومساعدتهم، ومعرفة قدر نعمة العافية والشكر عليها وثواب الآخرة.

٢- الابتلاء مرتبط بالتمكين في الأرض ارتباطًا وثيقًا؛ إذ بعد كلّ محنة منحة، وبعد كلّ بلية عطيّة، وبعد كلّ ترح فرح، وإن مع العسر يسرًا، وقد جرت سنة الله- تعالى- ألّا يمكّن لأمّة إلّا بعد أن تمرّ بمراحل الاختبار المختلفة، وإلّا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث المختلفة؛ ليميز الله الخبيث من الطيب، وليمحص الله الإيمان، ويختبر المؤمنين، وليعلم الصابرين، ثمّ يكون لهم التمكين في الأرض، ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

٣- الابتلاء بالسراء تارة وبالضراء تارة يختبرهم بالمسار ليشكروا، ويبتليهم بالمضار ليصبروا ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٣٥][(١)].

سنّةُ الله في الابتلاء عند شيخ الإسلام ابن تيمية:

إنّ من سنن الله في الإنسان أن يبتليهم بالخير والشر؛ حتى تتميز معادنهم وتتّضح، وحتى تظهر درجاتهم المختلفة فمنهم الصابر ومنهم الجزع ومنهم السابق بالخيرات بإذن الله، ولقد تعدّدت مظاهر هذا الابتلاء ونتائجه؛ فهناك الكثير من الابتلاءات بالضراء كـ: الحوادث الكونية والكوارث الأرضية من زلازل وبراكين وجفاف وفساد في الماء وهلاك الزرع والنسل، وانتشار الأمراض بأنواعها المختلفة من أمراض بدنية وقلبية، وابتلاءات بالهزيمة، والاعتداء من الأعداء، وتسلط الحكام على المحكومين، أو عدم فهم المحكومين لحكامهم، وتحملهم لمسؤولية التكاليف، أو التفرق والتمزق والعداوة والبغضاء، وغيرها من المِحَن والمصائب أو الموت!

(١) راجع: محمد خير الشعال، (٢٠٠٨/٢/١) سلسلة قوانين القرآن.

وقد يبتلى بأنواع من السراء تكون اختبارًا له؛ حتى يرى الله - عز وجل - كيف سيكون تصرف الناس في هذه الحالة هل سيشكرون ويؤدون حقوق النعمة أم سيكفرون؟

ولقد تحدّث شيخُ الإسلام عن هذه السنة بإسهاب واضح، وبين كثيرًا من أوجه التعامل مع هذه الابتلاءات، وكيفية النجاح في هذه الاختبارات، مبينًا أن سبب المصائب من نفس الإنسان التي ارتكبت المعاصي وبعدت عن منهج الله - عز وجل- الذي فيه الخير للإنسان في الدنيا والآخرة: فيقول: «إن ما جاء به الرسول ﷺ ليس سببًا لشيء من المصائب، ولا تكون طاعة الله ورسوله قط سببًا لمصيبة، بل طاعة الله والرسول لا تقتضي إلّا جزاء أصحابها بخيري الدنيا والآخرة.

ولكن قد تصيب المؤمنين بالله ورسوله مصائب بسبب ذنوبهم، لا بما أطاعوا فيه الله والرسول، كما لحقهم يوم أحد بسبب ذنوبهم، لا بسبب طاعتهم الله ورسوله ﷺ.

وكذلك ما ابتلوا به في السراء والضراء والزلزال، ليس هو بسبب نفس إيمانهم وطاعتهم، لكن امتحنوا به؛ ليتخلصوا مما فيهم من الشر، وفتنوا به كما يفتن الذهب بالنار؛ ليتميّز طيّبُه من خبيثه.

والنفوس فيها شرّ، والامتحان يمحص المؤمن من ذلك الشر الذي في نفسه، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاء وَاللّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ {١٤٠/٣} وَلِيُمَحِّصَ اللّهُ الَّذِينَ آمَنُواْ وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠، ١٤١]، وقال تعالى: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، ولهذا قال صالح - عليه السلام - لقومه: ﴿قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ اللّهِ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ﴾ [النمل: ٤٧].

ولهذا كانت المصائب تكفّر سيئات المؤمنين، وبالصبر عليها ترتفع درجاتهم، وما أصابهم في الجهاد من مصائب بأيدي العدو فإنه يعظم أجرهم بالصبر عليها، وفي الصحيح عن النبي ﷺ قال: (ما من غازية يغزون في سبيل الله، فيسلمون ويغنمون إلّا تعجّلوا ثلثي أجرهم. وإن أصيبوا وأخفقوا: تمّ لهم أجرهم).

وأمّـا مـا يلحقهـم مـن الجـوع والعطـش والتعـب فـذاك يكتـب لهـم بـه عمـل صالـح، كـما قـال تعـالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لاَ يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلاَ نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَلاَ يَطَؤُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلاَ يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبـة: ١٢٠]»[1].

ويقـول شـيخُ الإسـلام في موضـع آخـر مؤكـدًا عـلى هـذا المعنـى: «وقـد أخـبر اللـه- تعـالى- في كتابـه أنـه يبتـلي عبـاده بالحسـنات والسـيئات؛ فالحسـنات هـي النعـم والسـيئات هـي المصائـب؛ ليكـون العبـد صبّـارًا شـكورًا، وفي الصحيـح عـن النبـي ﷺ أنـه قـال: (والـذي نفـسي بيـده لا يقـضي اللـه للمؤمـن قضـاء إلّا كان خـيًرا لـه، وليـس ذلـك لأحـد إلّا للمؤمـن إن أصابتـه سراء شـكر فـكان خـيرًا لـه، وإن أصابتـه ضراء صـبر فـكان خـيرًا لـه)»[2].

مِن أنواع الابتلاء:

تعـدّدت صـور الابتـلاء التـي ذكرهـا شـيخُ الإسـلام مـن خـلال تتبعـه للقـرآن الكريـم وفهمـه لمضامينـه، ومن هـذه الابتـلاءات:

١- الابتلاء بإنزال العقوبات:

«والقـرآن يبـيّن في غـير موضـع أن اللـه لم يهلـك أحـدًا ولم يعذبـه إلّا بذنـب، فقـال هنـا: ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ [النسـاء: ٧٩]، وقـال لهـم في شـأن أحـد: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ ﴾ [آل عمـران: ١٦٥]، وقـال تعـالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشـورى: ٣٠]، وقـال تعـالى في سـورة الشـورى- أيضًـا: ﴿ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشـورى: ٤٨]، وقـال تعـالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ [يونـس: ٥٠]، وقـال تعـالى: ﴿وَمَا أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ إِلَّا لَهَا مُنذِرُونَ {٢٠٨/٢٦}

(١) مجموع الفتاوى، (٢٥٤/١٤، ٢٥٥).

(٢) الفتاوى، (٥٤/١٦).

ذِكْرَى وَمَا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴾ [الشعراء: ٢٠٨، ٢٠٩]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴾ [القصص: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، وقال تعالى: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال تعالى: ﴿ أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٤]، وقال تعالى في سورة القلم عن أهل الجنة الذين ضرب بهم المثل لما أهلكها بذلك العذاب: ﴿ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٧]، وقال تعالى عن أهل سبأ: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ إلى قوله: ﴿ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ [سبأ: ١٦، ١٧]، وقال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾ [الإسراء: ١٥].

وفي الحديث الصحيح الإلهي: (يا عبادي، إنما هي أعمالكم أحصيها لكم، ثمّ أوفيكم إيّاها. فمَن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلّا نفسه)[1].

وفي سيد الاستغفار: (أبوء لك بنعمتك علي وأبوء بذنبي).

وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الطور: ٤٧]»[2].

٢- سلبُ النعم:

لقد جعلَ الله - عز وجل - لنا النعم الكثيرة التي لا تعدّ ولا تحصى؛ حتى نتمتع بها في هذه الدنيا، وأمرنا بالشكر عليها، وطاعة الله - عز وجل - في كلّ شيء؛ حتى تستمر هذه البركة؛

(١) صحيح مسلم، (١٩٩٤/٤).

(٢) الفتاوى، (٤٢٤/١٤، ٤٢٥).

فـإذا تركنـا الطاعـة والشـكر المسـتلزم لحفـظ هـذه النعـم سـلبها اللـه - عـز وجـل - منـا حتـى يبتلينـا فنتـوب ونعـود إليـه؛ وذلـك لأن الشـكر مـن الواجـب المسـتحق مـن العبـد تجـاه الخالـق.

وقـد أشـار شـيخُ الإسـلام إلى هـذا الابتـلاء في أكـثر مـن موضـع مـن ذلـك، ذكـره أن اللـه يسـلب النعـم ويخفـض المنزلـة بفعـل المنهيـات فيقـول: «ونتيجـة فعـل المنهـي انخفـاض المنزلـة وسـلب كثـير مـن النعم التـي كان فيهـا، وإن كان لا يعاقـب بالـضرر، ويبـيّن أن الوجـوب والاسـتحقاق يعلـم بالبديهـة، فتـارك الواجـب وفاعـل القبيـح وإن لم يعـذب بـالآلام كالنـار فيسـلب مـن النعـم وأسـبابه مـا يكـون جـزاءه، وهـذا جـزاء مـن لم يشـكر النعمـة، بـل كفرهـا أن يسـلبها، فالشـكر قيـد النعـم، وهـو موجـب للمزيـد، والكفـر بعـد قيـام الحجـة موجـب للعـذاب، وقبـل ذلـك ينقـص النعمـة ولا يزيـد»[١].

وفي موضـع آخـر تحـدّث شـيخ الإسـلام عـن الابتـلاء والسـلب في أثنـاء شرحـه لحديـث النبـي ﷺ الـذي سـأل فيـه ربَّـه ألّا يسـلط عليهـم عـدوًا مـن غيرهـم فيقـول في ذلـك: «وبيـان هـذا أن الـشرع وإن كان قـد اسـتقر بمـوت النبـي ﷺ وقـد أخـبر أن اللـه تجـاوز لأمتـه عـن الخطـأ والنسـيان، وقـد أخـبر أن الرسـول يضـع عـن أمتـه إصرهـم والأغـلال التـي كانـت عليهـم، وسـأل ربـه لأمتـه أن لا يسـلط عليهـم عـدوًّا مـن غيرهـم فيجتاحهـم فأعطـاه ذلـك؛ لكـن ثبـوت هـذا الحكـم في حـقّ آحـاد الأمّـة قـد لا يحصـل إلا بطاعـة اللـه ورسـوله، فـإذا عـصى اللـه ذلـك الشـخص العـاصي عوقـب عـن ذلـك بسـلب هـذه النعمـة، وإن كانـت الشريعـة لم تنسـخ.

يبـيّن هـذا أن في هـذا الدعـاء سـؤال اللـه بالعفـو والمغفـرة والرحمـة والنـصر عـلى الكفـار، ومعلـوم أنّ هـذا ليـس حاصـلاً لـكلّ واحـد مـن أفـراد الأمـة، بـل منهـم مَـن يدخـل النـار، ومنهـم مَـن ينـصر عليـه الكفـار، ومنهـم مَـن يُسـلب الـرزق؛ لكونهـم فرطـوا في طاعـة اللـه ورسـوله، فيسـلبون ذلـك بقـدر مـا فرطـوا أو قـصروا»[٢].

(١) الفتاوى، (٢٥٤/١٦).

(٢) مجموع الفتاوى، (١٤٩/١٤).

٣- الابتلاءُ بالذنوب:

قد يقع الإنسان في كثير من الذنوب التي قد تحار نفسه كيف وقعت في هذه الذنوب؟ وعندما يبحث في أعماق نفسه يجد أن الذي أوقعه في ذلك ربما تفريطه في بعض الحقوق أو النوايا الصالحة، أو عدم فعله ما خلق من أجله من إخلاص العبودية لله- تعالى، يقول شيخ الإسلام موضّحًا هذا المعنى: «إن ما يبتلى به العبد من الذنوب الوجودية- وإن كانت خلقًا لله- فهو عقوبة له على عدم فعله ما خلقه الله له، وفطره عليه، فإن الله إنما خلقه لعبادته وحده لا شريك له، ودلّه على الفطرة، كما قال النبي ﷺ: (كلُّ مولود يولَد على الفطرة)[1].

وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

فهو لمّا لم يفعل ما خلق له وما فطر عليه وما أمر به من معرفة الله وحده، وعبادته وحده؛ عوقب على ذلك بأن زين له الشيطان ما يفعله من الشرك والمعاصي. قال تعالى للشيطان: ﴿ اذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَاء مَّوْفُورًا ﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ ﴾ [الإسراء: ٦٣-٦٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ {٩٩/١٦} إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ [النحل: ٩٩، ١٠٠]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَواْ إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ {٢٠١/٧} وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِي الْغَيِّ ثُمَّ لاَ يُقْصِرُونَ ﴾ [الأعراف: ٢٠١، ٢٠٢].

فقد تبيّن أنّ إخلاص الدين لله يمنع من تسلط الشيطان، ومن ولاية الشيطان التي توجب العذاب، كما قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاء إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]، فإذا أخلص العبد لربه الدين كان هذا مانعًا له من فعل ضدّ ذلك، ومن إيقاع الشيطان له في ضد ذلك.

---

(١) صحيح البخاري، باب: إذا أسلم الصبي فمات، (٩٥/٢).

وإذا لم يخلص لربه الدين ولم يفعل ما خلق له وفطر عليه عوقب على ذلك، وكان من عقابه: تسلّط الشيطان عليه حتى يزين له فعل السيئات، وكان إلهامه لفجوره عقوبة له على كوْنه لم يتّق الله»[١].

٤- الابتلاءُ بالمصائب من أجل تكفير الذنوب:

لقد منّ الله على المؤمنين بفضله ورحمته بأنْ فتح لهم الأبواب التي يخرجون منها مِن الذنوب التي أوقعهم الشيطان أو النفس الأمارة بالسوء فيها، فجعل الأمل في رضا الله - عز وجل- موجودًا وباستمرار، حيث جعل لهم ما يكفر ذنوبهم، ويرفع درجاتهم في الجنة، ومِن هذه الأشياء الابتلاء بالمصائب.

وتناول شيخُ الإسلام هذا المعنى في كتاباته كثيرًا، ومن هذا ما يتناوله في شرح حديث النبي ﷺ: «لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلّا كان خيرًا له»[٢].

وقد قضى عليه بالسيئات الموجبة للعقاب، فكيف يكون ذلك خيرًا؟

والإجابة على هذا التساؤل لها وجهان:

«أحدهما: أنّ أعمال العباد لم تدخل في الحديث، إنما دخل فيه ما يصيب الإنسان من النعم والمصائب، كما في قوله: ﴿مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، ولهذا قال: (إن أصابته سراء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرًا له)، فجعل القضاء ما يصيبه من سرّاء وضرّاء.

هذا ظاهرُ لفظ الحديث، فلا إشكال عليه.

الوجه الثاني: أنه إذا قدر أن الأعمال دخلت في هذا، فقد قال النبي ﷺ: (مَن سرّته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن)[٣]، فإذا قضى له بأن يحسن فهذا ممّا يسره، فيشكر الله عليه، وإذا قضى

---

(١) مجموع الفتاوى، (٣٣١/١٤، ٣٣٢، ٣٣٣).

(٢) مسند الشهاب، القضاعي، (٣٤٨/١).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة، باب: ما ذكر فيما يطوى عليه المؤمن من الخلال، (١٦١/٦).

عليه بسيئة فهي إنما تكون سيئة يستحق العقوبة عليها إذا لم يتب منها، فإن تاب أبدلت بحسنة، فيشكر الله عليها، وإن لم يتب ابتلي بمصائب تكفرها فصبر عليها، فيكون ذلك خيراً له.

والرسول ﷺ قال: (لا يقضي الله للمؤمن)، والمؤمن هو الذي لا يصرّ على ذنب، بل يتوب منه، فيكون حسنة كما قد جاء في عدّة آيات.

إنّ العبد ليعمل الذنب فيدخل به الجنة بعمله، لا يزال يتوب منه حتى يدخل بتوبته منه الجنة، والذنب يوجب ذلّ العبد وخضوعه ودعاء الله واستغفاره إياه وشهوده بفقره وحاجته إليه، وأنه لا يغفر الذنوب إلّا هو، فيحصل للمؤمن- بسبب الذنب- من الحسنات ما لم يكن يحصل بدون ذلك، فيكون هذا القضاء خيراً له.

فهو في ذنوبه بين أمرين: إمّا أن يتوب فيتوب الله عليه فيكون من التوابين الذين يحبّهم الله. وإمّا أن يكفر عنه بمصائب؛ تصيبه ضراء فيصبر عليها، فيكفر عنه السيئات بتلك المصائب وبالصبر عليها ترتفع درجاته، وقد جاء في بعض الأحاديث: (يقول الله- تعالى: أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل معصيتي لا أؤيسهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم)، أي: مُحبهم؛ فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، (وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأكفر عنهم المعائب)»[١].

٥- الابتلاء بالحسنات والسيئات:

قد أخبر الله- تعالى- في كتابه أنه يبتلي عباده بالحسنات والسيئات؛ فالحسنات هي النعم، والسيئات هي المصائب؛ ليكون العبد صبّارًا شكورًا، وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلّا كان خيراً له، وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن، إن أصابته سرّاء شكر، فكان خيراً له، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له)[٢].

ولقد وضح شيخ الإسلام ابن تيمية ذلك في موضع غير هذا فقال: «وقد أخبر الله- تعالى- أن الحسنات يذهبن السيئات، والاستغفار سبب للرزق والنعمة، وأن المعاصي سبب للمصائب

(١) مجموع الفتاوى، (٣١٨/١٤، ٣١٩).

(٢) الفتاوى، (٥٤/١٦)، والحديث سبق تخريجه.

والشـدة، فقـال تعـالى: ﴿الَـر كِتَـابٌ أُحْكِمَـتْ آيَاتُـهُ ثُـمَّ فُصِّلَـتْ مِـن لَّـدُنْ حَكِيـمٍ خَبِـيرٍ ﴾ إلى قولـه: ﴿ وَيُـؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْـلٍ فَضْلَـهُ﴾ [هـود: ١-٣]، وقـال تعـالى: ﴿اسْـتَغْفِرُوا رَبَّكُـمْ إِنَّـهُ كَانَ غَفَّـارًا ﴾ إلى قولـه: ﴿ وَيَجْعَـل لَّكُمْ جَنَّـاتٍ وَيَجْعَـل لَّكُـمْ أَنْهَـارًا ﴾ [نـوح: ١٠-١٢]، وقـال تعـالى: ﴿ وَأَلَّـوِ اسْـتَقَامُوا عَـلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْـقَيْنَاهُم مَّـاء غَدَقًـا {١٦/٧٢} لِنَفْتِنَهُـمْ فِيـه ﴾ [الجـن: ١٦-١٧]، وقـال تعـالى: ﴿ وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ الْقُـرَى آمَنُـواْ وَاتَّقَـواْ لَفَتَحْنَـا عَلَيْهِـم بَـرَكَاتٍ مِّـنَ السَّـمَاء وَالأَرْضِ وَلَكِـن كَذَّبُـواْ فَأَخَذْنَاهُـم بِمَـا كَانُـواْ يَكْسِـبُونَ﴾، وقـال تعـالى: ﴿وَلَـوْ أَنَّهُـمْ أَقَامُـواْ التَّـوْرَاةَ وَالإِنجِيـلَ وَمَـا أُنـزِلَ إِلَيهِـم مِّـن رَّبِّهِـمْ لأكَلُـواْ مِـن فَوْقِهِـمْ وَمِـن تَحْـتِ أَرْجُلِهِـم ﴾ [المائـدة: ٦٦]، وقـال تعـالى: ﴿وَمَـا أَصَابَكُـم مِّـن مُّصِيبَـةٍ فَبِـمَا كَسَـبَتْ أَيْدِيكُـمْ وَيَعْفُـو عَـن كَثِـيرٍ ﴾، وقـال تعـالى: ﴿ وَلَـئِنْ أَذَقْنَـا الإِنْسَـانَ مِنَّـا رَحْمَـةً ثُـمَّ نَزَعْنَاهَـا مِنْـهُ إِنَّـهُ لَيَئُـوسٌ كَفُـورٌ ﴾ [هـود: ٩]، وقـال تعـالى: ﴿ مَّـا أَصَابَـكَ مِـنْ حَسَـنَةٍ فَمِـنَ اللـهِ وَمَـا أَصَابَـكَ مِـن سَـيِّئَةٍ فَمِـن نَّفْسِـكَ ﴾، وقـال تعـالى: ﴿ فَأَخَذْنَاهُـمْ بِالْبَأْسَـاء وَالـضَّرَّاء لَعَلَّهُـمْ يَتَضَرَّعُـونَ {٤٢/٦} فَلَـوْلا إِذْ جَاءهُـمْ بَأْسُـنَا تَضَرَّعُـواْ وَلَكِـن قَسَـتْ قُلُوبُهُـمْ وَزَيَّـنَ لَهُـمُ الشَّـيْطَانُ مَـا كَانُـواْ يَعْمَلُـونَ﴾ [الأنعـام: ٤٢-٤٣]»[1].

٦- الابتلاء بالهزيمة:

لقـد جعـل اللـه الابتـلاء سـنته التـي يعالـج بهـا أحـوال النـاس ونفوسـهم إذا خرجـت عـن الإطـار الذي رسـمه اللـه لهـم في كتابـه العظيـم وسـنة رسـوله ﷺ، ولقـد تنوعـت هـذه الابتـلاءات طبقًـا لأحـوال النـاس ونفوسـهم، وطبقًـا لمـا يعالـج الأفـراد أو يعالـج الجماعـات، ومـن هـذه الابتـلاءات التـي تعالـج الجماعـات هـو الابتـلاء بالهزيمـة؛ حتـى تراجـع الجماعـة المسـلمة طريقتهـا وأطرهـا ومـا جلبتـه لنفسـها مـن الخـير والـشر، فتسـتعيد طريقهـا الـذي فقدتـه، وتسـترد عافيتهـا، فتحصـل عـلى النـصر الدائـم، وتخـرج مـن الهزيمـة المؤقتـة بـإذن اللـه.

لذلـك عالـج شـيخ الإسـلام هـذه المسـألة، ومـن هـذه المعالجـات معالجتـه لمـا ابتـلي بـه المسـلمون مـن غـزو التتـار، ووضـع مقارنـة رائعـة بـين مـا حـدث للمسـلمين في هـذا الزمـان، ومـا حـدث لهـم في غـزوة الخنـدق وغـزوة أحـد، ووضـح أن هـذا الأمـر هـو سـنة اللـه في الأولـين، كـما هـي سـنته في

(١) مجموع الفتاوى، (٥٣/١٦، ٥٤).

المتأخرين، وسنن الله لا تتخلف؛ فهي مطردة وعادته- سبحانه- مستمرة، وعهود الله في كتابه وسنة رسوله تنال آخر هذه الأمّة كما نالت أولها، أي: هذه القصص المذكورة في الكتاب ليست بمنزلة ما يفترى من القصص المكذوبة، كنحو ما يذكر في الحروب من السير المكذوبة.

وقال- تعالى- لمّا ذكر قصة فرعون: ﴿فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى {٧٩/ ٢٥} إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى﴾ [النازعات: ٢٥، ٢٦].

وقال في سيرة نبينا محمد ﷺ مع أعدائه ببدر وغيرها: ﴿ قَدْ كَانَ لَكُمْ آيَةٌ فِي فِئَتَيْنِ الْتَقَتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فِي سَبِيلِ اللهِ وَأُخْرَى كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْيَ الْعَيْنِ وَاللهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِ مَن يَشَاء إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَارِ ﴾ [آل عمران: ١٣]، وقال- تعالى- في محاصرته لبني النضير: ﴿هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُوا وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ اللهِ فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِي الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ [الحشر: ٢]، فأمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمة، وممّن قبلها من الأمم[1].

لذلك فسنة الله في الابتلاء بالهزيمة هي سنة إلهية باقية على الدوام، ومن أسباب الابتلاء بالهزيمة ما ذكره شيخُ الإسلام في حديثه عن هزيمة المسلمين أمام التتار في بادئ الأمر حيث قال: «وكانت هزيمة المسلمين في العام الماضي بذنوب ظاهرة وخطايا واضحة من: فساد النيات، والفخر، والخيلاء، والظلم، والفواحش، والإعراض عن حكم الكتاب والسنة، وعن المحافظة على فرائض الله، والبغي على كثير من المسلمين الذين بأرض الجزيرة والروم، وكان عدوهم في أول الأمر راضيًا منهم بالموادعة والمسالمة، شارعًا في الدخول في الإسلام، وكان مبتدئًا في الإيمان والأمان، وكانوا- هُم- قد أعرضوا عن كثير من أحكام الإيمان، فكان من حكمة الله ورحمته بالمؤمنين أن ابتلاهم بما ابتلاهم به؛ ليمحص الله الذين آمنوا وينيبوا إلى ربهم، وليظهر من عدوهم ما ظهر منه من البغي والمكر والنكث والخروج عن شرائع الإسلام، فيقوم

(١) مجموع الفتاوى، (٤٢٥/٢٨، ٤٢٦).

بهـم مـا يسـتوجبون بـه النـصر، وبعدوهـم مـا يسـتوجب بـه الانتقـام؛ فقـد كان في نفـوس كثـير مـن مقاتلـة المسـلمين ورعيتهـم مـن الـشر الكبـير مـا لـو يقـترن بـه ظفـر بعدوهـم- الـذي هـو عـلى الحـال المذكـورة- لأوجـب لهـم ذلـك مـن فسـاد الديـن والدنيـا مـا لا يوصـف.

كـما أن نـصر اللـه للمسـلمين يـوم بـدر كان رحمـةً ونعمـة، وهزيمتهـم يـوم أحـد كان نعمـة ورحمـة عـلى المؤمنـين؛ فـإن النبـي ﷺ قـال: (لا يقـضي اللـه للمؤمـن قضـاء إلّا كان خـيرًا، وليـس ذلـك لأحـد إلّا للمؤمـن، إن أصابتـه سراء فشـكر اللـه كان خـيرًا لـه، وإن أصابتـه ضراء فصـبر كان خـيرًا لـه)»[١].

ثـمّ يقـدم شـيخ الإسـلام وصفًـا لحـال المؤمنـين عندمـا يبتليهـم اللـه - عـز وجـل - بهـذه المحنـة مـن هزيمـة وخـوف، فيقـول تعقيبًـا عـلى قـول اللـه- تعـالى: ﴿لَقَـدْ كَانَ لَكُـمْ فِي رَسُـولِ اللـهِ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ لِّمَـن كَانَ يَرْجُـو اللــهَ وَالْيَـوْمَ الْآخِـرَ وَذَكَـرَ اللــهَ كَثِـيرًا ﴾ [الأحـزاب: ٢١]، فأخـبر- سـبحانه- أن الذيـن يبتلـون بالعـدو كـما ابتـلي رسـول اللـه ﷺ فلهـم فيـه أسـوة حسـنة، حيـث أصابهـم مثـل مـا أصابـه، فليتأسـوا بـه في التـوكل والصـبر، ولا يظنـون أنّ هـذه نقـم لصاحبهـا وإهانـة لـه، فإنـه لـو كان كذلـك مـا ابتـلي بهـا رسـول اللـه ﷺ خـير الخلائـق، بـل بهـا ينـال الدرجـات العاليـة، وبهـا يكفـر اللـه الخطايـا لمـن كان يرجـو اللـه واليـوم الآخـر وذكـر اللـه كثـيرًا، وإلّا فقـد يبتـلى بذلـك مـن ليـس كذلـك فيكـون في حقـه عذابًـا، كالكفـار والمنافقـين.

ثـمّ قـال تعـالى: ﴿ وَلَـمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُـونَ الْأَحْـزَابَ قَالُـوا هَـذَا مَـا وَعَدَنَـا اللــهُ وَرَسُـولُهُ وَصَـدَقَ اللــهُ وَرَسُـولُهُ وَمَـا زَادَهُـمْ إِلَّا إِيمَانًـا وَتَسْـلِيمًا ﴾ [الأحـزاب: ٢٢] قـال العلـماء: كان اللـه قـد أنـزل في سـورة البقـرة: ﴿ أَمْ حَسِـبْتُمْ أَن تَدْخُلُـواْ الْجَنَّـةَ وَلَـمَّا يَأْتِكُـم مَّثَـلُ الَّذِيـنَ خَلَـوْاْ مِـن قَبْلِكُـم مَّسَّـتْهُمُ الْبَأْسَـاء وَالـضَّراء وَزُلْزِلُـواْ حَتَّـى يَقُـولَ الرَّسُـولُ وَالَّذِيـنَ آمَنُـواْ مَعَـهُ مَتَـى نَـصْرُ اللــهِ أَلا إِنَّ نَـصْرَ اللــهِ قَرِيـبٌ﴾ [البقـرة: ٢١٤] فبـيّن اللـه- سـبحانه- منكـرًا عـلى مَـن حسـب خـلاف ذلـك أنّهـم لا يدخلـون الجنـة إلّا بعـد أن يبتلـوا مثـل هـذه الأمـم قبلهـم بــ «البأسـاء» وهـي الحاجـة والفاقـة، و«الـضراء» وهـي الوجـع والمـرض، و«الزلـزال» وهـي زلزلـة العـدو[٢].

(١) مجموع الفتاوى، (٤٣١/٢٨، ٤٣٢).

(٢) الفتاوى، (٤٥٩/٢٨، ٤٦٠).

مـن الابتـلاءات التـي تصيـب الإنسـان أمـراض القلـوب، ولـو تأمّلنـا أمـراض القلـوب لوجدنـا أنهـا تصيـب الإنسـان بسـبب مخالفتـه لكتـاب اللـه والسـنة النبويـة المطهـرة، وغفلتـه عـن ذكـره- سـبحانه- عـلى النحـو الـذي ينبغـي لـه.

ولقـد تحـدّث شـيخُ الإسـلام عـن هـذه المحنـة، وفصـل القـول فيهـا حتـى أخـذت مـن كتاباتـه فصـولًا في أماكـن مختلفـة في كتبـه؛ لأنّ صـلاح القلـوب، وهـي أسـباب قبـول العبـادات، وبلـوغ الدرجـات العاليـة عنـد اللـه- سـبحانه، فيقـول الشـيخ في مـرض القلـب: «وكذلـك (مـرض القلـب) هـو نـوعُ فسـاد يحصـل لـه يفسـد بـه تصـوره وإرادتـه، فتصـوره بالشـبهات التـي تعـرض لـه حتـى لا يـرى الحـق، أو يـراه عـلى خـلاف مـا هـو عليـه، وإرادتـه بحيـث يبغـض الحـقّ النافـع ويحـب الباطـل الضـار؛ فلهـذا يفـسر المـرض تـارة بالشـك والريـب، كـما فـسر مجاهـد وقتـادة قولـه: ﴿فِي قُلُوبِهِـم مَّـرَضٌ ﴾ [البقـرة: ١٠]، أي: شـك، وتـارة يفـسر بشـهوة الزنـا كـما فـسر بـه قولـه: ﴿فَيَطْمَـعَ الَّـذِي فِي قَلْبِـهِ مَـرَضٌ ﴾ [الأحـزاب: ٣٢]»[1].

وكذلـك يقـول- رحمـه اللـه: «ألم يحصـل في القلـب كالغيـظ مـن عـدو اسـتولى عليـك، فـإن ذلـك يـؤلم القلـب، والقـرآن شـفاء لما في الصـدور، ومـن في قلبـه أمـراض الشـبهات والشـهوات ففيـه مِـن البينـات مـا يزيـل الحـقّ مـن الباطـل، فيزيـل أمـراض الشـبهة المفسـدة للعلـم، والتصـور والإدراك بحيـث يـرى الأشـياء عـلى مـا هـي عليـه.

وفيـه مـن الحكمـة والموعظـة الحسـنة بالترغيـب والترهيـب والقصـص التـي فيهـا عـبرة مـا يوجـب صـلاح القلـب، فيرغـب القلـب فيـما ينفعـه، ويرغـب عـمّا يـضره، فيبقـى القلـب محبًّـا للرشـاد، مبغضًـا للغـي، بعـد أن كان مريـدًا للغـي مبغضًـا للرشـاد.

فالقــرآن مُزيــل للأمــراض الموجبــة لــلإرادات الفاســدة حتــى يصلــح القلــب، فتصلــح إرادتــه، ويعــود إلى فطرتــه التــي فطــر عليهــا، كــما يعــود البــدن إلى الحــال الطبيعــي، ويغتــذي القلــب مــن

(١) الفتاوى، (٩٣/١٠).

الإيمان والقرآن بما يزكيه ويؤيده، كما يغتذي البدن بما ينمّيه ويقوّمه، فإن زكاة القلب مثل نَماء البدن»[1].

ولقد فصّل شيخُ الإسلام ابن تيمية في هذا الموضوع موضحًا أنواع أمراض القلوب، وطرق معالجتها، مبيّنًا الفرق بينها وبين موت القلوب.

٧- الابتلاء بالخير والشر:

الله I يبتلي البشر جميعًا بالخير ليرى ماذا يفعلون في هذه النعم، وكيف سيؤدون حقوقها، وكذلك يبتليهم بالشر ليعلم كيف سيتصرفون في أحوالهم، هل سيصبرون أم سيجزعون أم سيحاولون أن يغيروا من أنفسهم ويجاهدوها؟

وفي كلّ حالات الإنسان المختلفة يكون له من الجزاء بالثواب أو العقاب على حسب حالته.

والخيرُ والشرّ سنّة إلهية موجودة منذ أن خلق الله البشر، فليس في الكون خير مطلق أو شرّ مطلق، ولعل ذلك لحكمة إلهية جليلة، وهي أن لا نركن إلى الدنيا وننسى الآخرة، ونعشق دار الفناء فلا نستعد جيدًا لدار البقاء، يقول شيخ الإسلام في هذا المعنى: «وكل ما خلقه- ممّا فيه شرّ جزئي إضافي- ففيه من الخير العام والحكمة والرحمة أضعاف ذلك، مثل: إرسال موسى إلى فرعون، فإنه حصل به التكذيب والهلاك لفرعون وقومه، وذلك شر بالإضافة إليهم، لكن حصل به- من النفع العام للخلق إلى يوم القيامة، والاعتبار بقصة فرعون- ما هو خير عام، فانتفع بذلك أضعاف أضعاف مَن استضر به».

كما قال تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ {٥٥/٤٣} فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ﴾ [الزخرف: ٥٥-٥٦]، وقال- تعالى- بعد ذكر قصته: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّمَن يَخْشَى ﴾ [النازعات: ٢٦].

وكذلك محمد ﷺ شقي برسالته طائفةٌ من مشركي العرب وكفار أهل الكتاب، وهم الذين كذبوه، وأهلكهم الله- تعالى- بسببه، ولكن سعد بها أضعاف أضعاف هؤلاء، ولذلك مَن

(١) مجموع الفتاوى، (٩٦/١٠).

شقي به مِن أهل الكتاب كانوا مبدلين محرفين قبل أن يبعث الله محمدًا صلى الله عليه وسلم، فأهلك الله بالجهاد طائفة، واهتدى به من أهل الكتاب أضعاف أضعاف أولئك، والذين أذلّهم الله من أهل الكتاب بالقهر والصغار، أو من المشركين الذين أحدث فيهم الصّغار، فهؤلاء كان قهرهم رحمة لهم؛ لئلا يعظم كفرهم، ويكثر شرهم، ثمّ بعدهم حصل من الهدى والرحمة لغيرهم ما لا يحصيهم إلّا الله، وهم دائمًا يهتدي منهم ناس من بعد ناس ببركة ظهور دينه بالحجة واليد.

فالمصلحة بإرساله وإعزازه، وإظهار دينه، فيها من الرحمة التي حصلت بذلك ما لا نسبة لها إلى ما حصل بذلك لبعض الناس من شر جزئي إضافي، لما في ذلك من الخير والحكمة- أيضًا؛ إذ ليس فيما خلقه الله- سبحانه- شرّ محض أصلًا، بل هو شرّ بالإضافة»[1].

وفي موضع آخر تحدّث شيخ الإسلام عن الشر الجزئي الإضافي، وذلك بعد ذكره لدعاء النبي ﷺ في دعاء الاستفتاح: (والخير بيديك، والشر ليس إليك)[2]: فإنه لا يخلق شرًّا محضًا، بل كلّ ما يخلقه ففيه حكمة، هو باعتبارها خير، ولكن قد يكون فيه شرّ لبعض الناس، وهو شر جزئي إضافي.

فأمّا شرّ كلي، أو شرّ مطلق؛ فالربّ منزّه عنه، وهذا هو الشر الذي ليس إليه.

وهذا الموضع ضلّ فيه فريقان من الناس الخائضين في القدر بالباطل:

فرقة كذبت بهذا، وقالت: إنه لا يخلق أفعال العباد، ولا يشاء كلّ ما يكون؛ لأن الذنوب قبيحة، وهو لا يفعل القبيح، وإرادتها قبيحة، وهو لا يريد القبيح.

وفرقة: لمّا رأت أنه خالق هذا كله ولم تؤمن أنه خلق هذا لحكمة بل قالت: إذا كان يخلق هذا فيجوز أن يخلق كلّ شر، ولا يخلق شيئًا لحكمة، وما ثمّ فعل تنزه عنه، بل كلّ ما كان ممكنًا جاز أن يفعله، وجوّزوا: أن يأمر بكلّ كفر ومعصية، وينهى عن كلّ إيمان وطاعة، وصدق وعدل، وأن يعذّب الأنبياء، وينعم الفراعنة والمشركين وغير ذلك، ولم يفرقوا بين مفعول ومفعول.

---

(١) الفتاوى، (٢٧٦/١٤، ٢٧٧).

(٢) مسند الشافعي، (٢٥٧/١).

وهـذا منكـر مـن القـول وزور، كالأول، قـال تعـالى: ﴿أَمْ حَسِـبَ الَّذِيـنَ اجْتَرَحُـوا السَّـيِّئَاتِ أَن نَّجْعَلَهُـمْ كَالَّذِيـنَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ سَـوَاء مَّحْيَاهُـم وَمَمَاتُهُـمْ سَـاء مَـا يَحْكُمُـونَ ﴾ [الجاثيـة: ٢١]، وقـال تعـالى: ﴿ أَفَنَجْعَـلُ الْمُسْـلِمِينَ كَالْمُجْرِمِـينَ {٣٥/٦٨} مَـا لَكُـمْ كَيْـفَ تَحْكُمُـونَ ﴾ [القلـم: ٣٥-٣٦]، وقـال تعـالى: ﴿أَمْ نَجْعَـلُ الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ كَالْمُفْسِـدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَـلُ الْمُتَّقِـينَ كَالْفُجَّـارِ﴾، ونحـو ذلـك مـمّا يوجـب أنـه يفـرق بـين الحسـنات والسـيئات، وبـين المحسـن والمسيء، وأن مـن جـوّز عليـه التسـوية بينهـما فقـد أتى بقـول منكـر، وزور ينكـر عليـه.

وليـس إذا خلـق مـا يتـأذى بـه بعـض الحيـوان لا يكـون فيـه حكمـة، بـل فيـه مـن الحكمـة والرحمـة مـا يخفـى عـلى بعضهـم مـمّا لا يقـدر قـدره إلّا اللـه، وليـس إذا وقـع في المخلوقـات مـا هـو شر جـزئي بالإضافـة يكـون شرًّا كليًّـا عامًّـا، بـل الأمـور العامـة الكليـة لا تكـون إلّا خـيرًا ومصلحـة للعبـاد، كالمطـر العـام، وكإرسـال رسـول عـام.

وهـذا مـمّا يقتـضي أنـه لا يجـوز أن يؤيـد اللـه كذابًـا عليـه بالمعجـزات التـي أيـد بهـا أنبيـاءه الصادقـين؛ فـإن هـذا شرّ عـام للنـاس، يضلهـم ويفسـد عليهـم دينهـم ودنياهـم وآخرتهـم.

وليـس هـذا كالملـك الظالم، والعـدو؛ فـإن الملـك الظالم لا بـدّ أن يدفـع اللـه بـه مـن الـشر أكـثر مـن ظلمـه، وقـد قيـل: سـتون سـنة بإمـام ظالم خـير مـن ليلـة واحـدة بـلا إمـام، وإذا قـدر كـثرة ظلمـه فـذاك ضرر في الديـن، كالمصائـب تكـون كفـارة لذنوبهـم ويثابـون عليهـا، ويرجعـون فيهـا إلى اللـه، ويسـتغفرونه ويتوبـون إليـه.

وكذلك ما يسلط عليهم من العدو.

وأمّـا مَـن يكـذب عـلى اللـه، ويقـول- أي: يدعـي- أنـه نبـي، فلـو أيـده اللـه تأييـد الصـادق للـزم أن يسـوي بينـه وبـين الصـادق، فيسـتوي الهـدى والضـلال، والخـير والـشر، وطريـق الجنـة وطريـق النـار، ويرتفـع التمييـز بـين هـذا وهـذا، وهـذا مـمّا يوجـب الفسـاد العـام للنـاس في دينهـم ودنياهـم وآخرتهـم.

ولهـذا أمـر النبـي ﷺ بقتـال مـن يقاتـل عـلى الديـن الفاسـد مـن أهـل البـدع، كالخـوارج، وأمـر بالصـبر عـلى جـور الأئمـة، ونهـى عـن قتالهـم والخـروج عليهـم، ولهـذا قـد يمكـن اللـه كثـيرًا مـن الملـوك

الظالمين مدّة، وأمّا المتنبئون الكذابون فلا يطيل تمكينهم، بل لا بدّ أن يهلكهم؛ لأن فسادهم عام في الدين والدنيا والآخرة. قال تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ {٤٤/٦٩} لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ {٤٥/٦٩} ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا فَإِن يَشَأِ اللهُ يَخْتِمْ عَلَى قَلْبِكَ ﴾ [الشورى: ٢٤]، فأخبر: أنه- بتقدير الافتراء- لا بدّ أن يعاقب من افترى عليه»[١].

وخلاصة القول في هذا الأمر ما ذكره شيخ الإسلام في موضع آخر: «أن الشر لا يضاف إلى الله، إلّا على أحد الوجوه الثلاثة، وقد تضمنت الفاتحة للأقسام الثلاثة هو- سبحانه- الرحمن الذي وسعت رحمته كلّ شيء، وفي الصحيح عن النبيﷺ أنه أرحم بعباده من الوالدة بولدها[٢]، وقد سبقت وغلبت رحمته غضبه، وهو الغفور الودود، الحليم الرحيم.

فإرادته أصل كلّ خير ونعمة، وكل خير ونعمة فمنه، ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ ﴾ [النحل: ٥٣]، وقد قال سبحانه: ﴿ نَبِّىءْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴾، ثمّ قال: ﴿وَ أَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمَ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠].

وقال تعالى: ﴿اعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ٩٨]، فالمغفرة والرحمة من صفاته المذكورة بأسمائه، فهي من موجب نفسه المقدسة، ومقتضاها ولوازمها.

وأمّا العذاب فمن مخلوقاته، الذي خلقه بحكمة، هو باعتبارها حكمة ورحمة؛ فالإنسان لا يأتيه الخير إلّا من ربه وإحسانه وجوده، ولا يأتيه الشر إلّا من نفسه»[٣].

الإنسانُ والتعرّض للبلاء:

لقد مدحَ الله - عز وجل - الصابرين في مواقف البلاء ووعدهم بالأجر العظيم على هذا الصبر، قال- تعالى- في محكم كتابه: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ {١٥٥/٢} الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُواْ إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعونَ﴾ [البقرة: ١٥٥، ١٥٦]، ومع هذا كره لنا أن نعرض أنفسنا للبلاء، أو نضعها

(١) الفتاوى، (٢٦٦/١٤) وما بعدها.

(٢) مختصر صحيح مسلم للمنذري، ت: الألباني، (٥١٢/٢).

(٣) الفتاوى، (٢٧٢/١٤).

في مواطـن لا تطيقهـا، حيـث قـال ﷺ: «لا ينبغـي للمؤمـن أن يـذلّ نفسـه». قالـو: كيـف يـذل نفسـه؟ قـال: «يتعـرض مـن البـلاء مـا لا يطيـق».

وفي هـذه المعـاني تحـدّث شـيخ الإسـلام حيـث يقـول: «ولهـذا كـره للمـرء أن يتعـرض للبـلاء بـأن يوجـب عـلى نفسـه مـا لا يوجبـه الشـارع عليـه بالعهـد والنـذر ونحـو ذلـك، أو يطلـب ولايـة، أو يقـدم عـلى بلـد فيـه طاعـون، كـما ثبـت في الصحيحـين مـن غـير وجـه عـن النبـي ﷺ أنـه نهـى عـن النـذر، وقـال: (إنـه لا يـأتي بخـير، وإنمـا يسـتخرج بـه مـن البخيـل)[1].

وثبـت عنـه في الصحيحـين أنـه قـال لعبـد الرحمـن بـن سـمرة: (لا تسـأل الإمـارة؛ فإنـك إن أعطيتهـا عـن مسـألة وكلـت إليهـا، وإن أعطيتهـا مـن غـير مسـألة أعنـت عليهـا، وإذا حلفـت عـلى يمـين فرأيـت غيرهـا خـيرًا منهـا فـأت الـذي هـو خـير، وكفـر عـن يمينـك)[2].

وثبـت عنـه في الصحيحـين أنـه قـال في الطاعـون: (إذا سـمعتم بـه بـأرض فـلا تقدمـوا عليـه، وإذا وقـع بـأرض وأنتـم بهـا فـلا تخرجـوا فـرارًا منـه)[3].

وثبــت عنــه في الصحيحــين أنــه قــال: (لا تتمنــوا لقــاء العــدو، واســألوا اللــه العافيــة، ولكــن إذا لقيتموهــم فاصــبروا، واعلمــوا أن الجنــة تحــت ظــلال الســيوف)[4].

وأمثـال ذلـك مـمّا يقتـضي أن الإنسـان لا ينبغـي لـه أن يسـعى فيـما يوجـب عليـه أشـياء ويحـرم عليـه أشـياء فيبخـل بالوفـاء، وكـما يفعـل كثـير ممّـن يعاهـد اللـه عهـودًا عـلى أمـور، وغالـب هـؤلاء يبتلـون بنقـض العهـود»[5].

ماذا يجب على الإنسان عند البلاء؟

عندمــا يتعــرّض الإنســان للبــلاء تحــار نفســه وقــد يفقــد عقلــه أو صحتــه في زحــام الهمــوم والصدمــات، لذلــك كان الصــبر عنــد الشــدائد هــو العــلاج لــكل هــذه الأعــراض لأن الصــبر يعطــي الإنســان الفرصــة للتفكــير والمراجعــة فيحصــل بذلــك الفــوز والفــلاح في الدنيــا والآخــرة، وعــلى

(١) صحيح مسلم، (١٢٦١/٣)، باب: النهي عن النذر، وأنه لا يرد شيئًا.

(٢) صحيح البخاري، باب: من لم يسأل الإمارة أعين عليها، (٦٣/٩).

(٣) صحيح البخاري، (١٧٥/٤).

(٤) صحيح مسلم، (١٣٦٢/٣).

(٥) مجموع الفتاوى، (٣٨/١٠).

المسلم عند تعرضه للابتلاء واجبات يتحتم عليه القيام بها، حتى تزول المحنة ويتنزل الفرج، يقول شيخ الإسلام: «ويقتضي أن الإنسان إذا ابتلي فعليه أن يصبر ويثبت ولا يتّكل؛ حتى يكون من الرجال الموقنين القائمين بالواجبات، ولا بدّ في جميع ذلك من الصبر؛ ولهذا كان الصبر واجبًا باتفاق المسلمين على أداء الواجبات وترك المحظورات، ويدخل في ذلك الصبر على المصائب عن أن يجزع فيها، والصبر عن اتباع أهواء النفوس فيما نهى الله عنه.

وقد ذكر الله الصبر في كتابه في أكثر من تسعين موضعًا، وقرنه بالصلاة في قوله تعالى: ﴿ وَاسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلاَّ عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ [البقرة: ٤٥]، ﴿ اسْتَعِينُواْ بِالصَّبْرِ وَالصَّلاَةِ إِنَّ اللّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ﴾ إلى قوله: ﴿وَاصْبِرْ فَإِنَّ اللّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [هود: ١١٤-١١٥]، ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا ﴾ [طه: ١٣٠]، ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ الآية [غافر: 55]، وجعل «الإمامة في الدين» موروثة عن الصبر واليقين بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ فإن الدين كله علم بالحق وعمل به، والعمل به لا بدّ فيه من الصبر، بل وطلب علمه يحتاج إلى الصبر، كما قال معاذ بن جبل - رضي الله عنه -: عليكم بالعلم؛ فإن طلبه لله عبادة، ومعرفته خشية، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، ومذاكرته تسبيح، به يعرف الله ويعبد، وبه يمجد الله ويوحد، يرفع الله بالعلم أقوامًا يجعلهم للناس قادة وأئمة يهتدون بهم، وينتهون إلى رأيهم.

فجعل البحث عن العلم من الجهاد، ولا بدّ في الجهاد من الصبر؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ وَالْعَصْرِ {١/١٠٣} إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ {٢/١٠٣} إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣]، وقال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥].

ووضّح شيخُ الإسلام أنّ أفضل ما يقابل به الإنسان البلاء هو الرضا والصبر فيقول: «وأمّا (الرضا) فقد تنازع العلماء والمشايخ من أصحاب الإمام أحمد وغيرهم في الرضا بالقضاء: هل

هـو واجـب أو مسـتحب؟ عـلى قولـين: فعـلى الأول يكـون مـن أعـمال المقتصديـن، وعـلى الثـاني يكـون مـن أعـمال المقربـين. قـال عمـر بـن عبـد العزيـز: الرضـا عزيـز ولكـن الصـبر معـول المؤمـن.

وقـد بـينّ شـيخ الإسـلام منزلـة الرضـا، ووضـح أن الحمـد مـن كـمال الرضـا، فذكـر أن الرضا بمـا أمـر اللـه بـه فأصلـه واجـب وهـو مـن الإيمـان، وقـد فصـل في هـذا الأمـر تفصيـلاً كثـيراً مصطحبًـا ذلـك بالأدلـة مـن الكتـاب والسـنة وأقوال الأئمـة[1].

وجوبُ الاحتراز من أسباب الفتنة والبلاء:

الاحـتراز مـن الفـتن واجـبٌ عـلى كلّ مسـلم؛ فـإن الإنسـان إذا تعـرض للفـتن فقـد يفـتن ولا يسـلم، ومـن هـذه الفـتن التـي يعـرض الإنسـان نفسـه لهـا: الدخـول عـلى السـلطان، أو الاختـلاط بالنسـاء، فيقـع بالمحرمـات، أو الاختـلاط بأصحـاب البـدع والمنكـرات، أو طلـب الإمـارة والملـك والرئاسـة، وبـينّ ذلـك الشـيخ فيقـول: «فـإن في (العلـم) و(الإمـارة) و(الجهـاد) و(الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر) و(الصـلاة) و(الحـج) و(الصـوم) و(الـزكاة) مـن الفـتن النفسـية وغيرهـا مـا ليـس في غيرهـا.

ويعـرض في ذلـك ميـل النفـس إلى الرئاسـة والمـال والصـور، فـإذا كانـت النفـس غـير قـادرة عـلى ذلـك لم تطمـع فيـه كـما تطمـع مـع القـدرة؛ فإنهـا مـع القـدرة تطلـب تلـك الأمـور المحرمـة؛ بخـلاف حالهـا بـدون القـدرة؛ فـإن الصـبر مـع القـدرة جهـاد؛ بـل هـو مـن أفضـل الجهـاد. وأكمـل مـن ثلاثـة أوجـه: (أحدهـا): أن الصـبر عـن المحرمـات أفضـل مـن الصـبر عـلى المصائـب. (الثـاني): أن تـرك المحرمـات مـع القـدرة عليهـا وطلـب النفـس لهـا أفضـل مـن تركهـا بـدون ذلـك. (الثالـث): أن طلـب النفـس لهـا إذا كان بسـبب أمـر دينـي، كمـن خـرج لصـلاة أو طلـب علـم أو جهـاد فابتـلي بمـا يميـل إليـه مـن ذلـك فـإن صـبره عـن ذلـك يتضمـن فعـل المأمـور وتـرك المحظـور، بخـلاف مـا إذا مالـت نفسـه إلى ذلـك بـدون عمـل صالـح، ولهـذا كان يونـس بـن عبيـد يـوصي بثـلاث يقـول: لا تدخـل عـلى سـلطان، وإن قلـت: آمـره بطاعـة اللـه. ولا تدخـل عـلى امـرأة، وإن قلـت: أعلمهـا كتـاب اللـه. ولا تصـغ أذنـك إلى صاحـب بدعـة وإن قلـت: أرد عليـه»[2].

---

(١) الفتاوى، (٤٠/١٠) وما بعدها.

(٢) الفتاوى، (٥٧٦/١٠، ٥٧٧).

كـما يبـيّن شـيخ الإسـلام هـذا في موضـع آخـر بقولـه: «فـإذا قـدر أنـه ابتـلي بذلـك بغـير اختيـاره أو دخـل فيـه باختيـاره وابتـلي فعليـه أن يتقـي اللـه، ويصـبر ويخلـص ويجاهـد.

وصـبره عـلى ذلـك وسـلامته مـع قيامـه بالواجـب مـن أفضـل الأعـمال، كمـن تـولى ولايـة وعـدل فيهـا، أو ردّ عـلى أصحـاب البـدع بالسـنة المحضـة ولم يفتنـوه، أو علـم النسـاء الديـن عـلى الوجـه المـشروع مـن غـير فتنـة.

لكـن اللـه إذا ابتـلى العبـد وقـدر عليـه أعانـه، وإذا تعـرض العبـد بنفسـه إلى البـلاء وكلـه اللـه إلى نفسـه، كـما قـال النبـي ﷺ لعبـد الرحمـن بـن سـمرة: (لا تسـأل الإمـارة؛ فإنـك إن أعطيتهـا عـن مسـألة وكلـت إليهـا، وإن أعطيتهـا عـن غـير مسـألة أعنـت عليهـا)[١]، وكذلـك قـال في الطاعـون: (إذا وقـع ببلـد وأنتـم بهـا فـلا تخرجـوا فـرارًا منـه، وإذا سـمعتم بـه بـأرض فـلا تقدمـوا عليـه)[٢].

فمَـن فعـل مـا أمـره اللـه بـه فعرضـت لـه فتنـة مـن غـير اختيـاره فـإنّ اللـه يعينـه عليهـا بخـلاف مَـن تعـرّض لهـا، لكـن بـاب التوبـة مفتـوح؛ فـإن الرجـل قـد يسـأل الإمـارة فيـوكل إليهـا، ثـمّ ينـدم فيتـوب مـن سـؤاله فيتـوب اللـه عليـه ويعينـه؛ إمّـا عـلى إقامـة الواجـب، وإمّـا عـلى الخـلاص منهـا؛ وكذلـك سـائر الفـتن، كـما قـال: ﴿ قُـلْ يَـا عِبَـادِيَ الَّذِيـنَ أَسْرَفُـوا عَـلَى أَنفُسِـهِمْ لَا تَقْنَطُـوا مِـن رَّحْمَـةِ اللـهِ إِنَّ اللـهَ يَغْفِـرُ الذُّنُـوبَ جَمِيعًـا ﴾ [الزمـر: ٥٣]»[٣].

***

(١) صحيح البخاري، (٦٣/٩).

(٢) مسند أحمد، ط الرسالة، (٢١٤/٣).

(٣) الفتاوى، (٥٧٧/١٠، ٥٧٨).

المبحثُ السّابع

سنّةُ الله في الخائنين للأمانة

قـال تعـالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ لاَ تَخُونُـواْ اللـــهَ وَالرَّسُـولَ وَتَخُونُـواْ أَمَانَاتِكُـمْ وَأَنتُـمْ تَعْلَمُـونَ {٢٧/٨} وَاعْلَمُـواْ أَنَّمَـا أَمْوَالُكُـمْ وَأَوْلاَدُكُـمْ فِتْنَـةٌ وَأَنَّ اللـــهَ عِنـدَهُ أَجْـرٌ عَظِيـمٌ﴾ [الأنفـال: ٢٧، ٢٨].

«يأمـر- تعـالى- عبـاده المؤمنـين أن يـؤدوا مـا ائتمنهـم اللـه عليـه مـن أوامـره ونواهيـه؛ فـإنّ الأمانـة قـد عرضهـا اللـه عـلى السـموات والأرض والجبـال، فأبـين أن يحملنهـا وأشـفقن منهـا وحملهـا الإنسـان إنـه كان ظلومًـا جهـولًا، فمَـن أدى الأمانـة اسـتحقّ مـن اللـه الثـواب الجزيـل، ومـن لم يؤدهـا- بـل خانهـا- اسـتحق العقـاب الوبيـل، وصـار خائنًـا للـه وللرسـول ولأمانتـه، منقصًـا لنفسـه بكونـه اتصفـت نفسـه بأخـسّ الصفـات، وأقبـح الشـيات، وهـي الخيانـة مفوتًـا لهـا أكمـل الصفـات وأتمهـا، وهـي الأمانـة.

ولمّـا كان العبـد ممتحنًـا بأموالـه وأولاده، فربمـا حملـه محبـة ذلـك عـلى تقديـم هوى نفسـه عـلى أداء أمانتـه، أخـبر اللـه- تعـالى- أنّ الأمـوال والأولاد فتنـة يبتـلي اللـه بهـما عبـاده، وأنهـا عاريـة سـتؤدى لمَـن أعطاهـا، وتـردّ لمَـن اسـتودعها ﴿وَأَنَّ اللـــهَ عِنـدَهُ أَجْـرٌ عَظِيـمٌ ﴾.

فـإنْ كان لكـم عقـل ورأي، فآثـروا فضلـه العظيـم عـلى لـذة صغـيرة فانيـة مُضمحلـة، فالعاقـل يـوازن بـين الأشـياء، ويؤثـر أولاهـا بالإيثـار، وأحقّهـا بالتقديـم»[١].

وقـد أعطـى الشـيخ صـورةً مـن صـور الأمانـة والحفـاظ عليهـا، وصـورة مـن صـور التخـلي عنهـا بقولـه: «فـإن الرجـل لحبّـه لولـده أو لعتيقـه قـد يؤثـره في بعـض الولايـات، أو يعطيـه مـا لا يسـتحقه، فيكـون قـد خـان أمانتـه، كذلـك قـد يؤثـره زيـادة في مالـه أو حفظـه بأخـذ مـا لا يسـتحقه أو محابـاة مَـن يداهنـه في بعـض الولايـات، فيكـون قـد خـان اللـه ورسـوله وخـان أمانتـه.

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص(٣١٩).

ثـمّ إنّ المـؤدي للأمانـة مـع مخالفـة هـواه يثبتـه اللـه فيحفظـه في أهلـه ومالـه، والمطيـع لهـواه يعاقبـه اللـه بنقيـض قصـده فيـذلّ أهلـه ويذهـب مالـه، وفي ذلـك الحكايـة المشـهورة أن بعـض خلفـاء بنـي العبـاس سـأل بعـض العلـماء أن يحدثـه عـمّا أدرك فقـال: أدركـت عمـر بـن عبـد العزيـز فقيـل لـه: يـا أمير المؤمنـين أقفـرت أفـواه بنيـك مـن هـذا المـال، وتركتهـم فقـراء لا شيء لهـم، وكان في مـرض موتـه فقـال: أدخلوهـم عـليّ، فأدخلوهـم بضعـة عـشر ذكـرًا ليـس فيهـم بالـغ، فلـمّا رآهـم ذرفـت عينـاه ثـمّ قـال: يـا بنـي، واللـه مـا منعتكـم حقًّـا هـو لكـم، ولم أكـنْ بالـذي آخـذ أمـوال النـاس فأدفعهـا إليكـم، وإنمـا أنتـم أحـد رجلـين: إمّـا صالـح فاللـه يتـولّى الصالحـين، وإمّـا غـير صالـح فـلا أتـرك لـه مـا يسـتعين بـه عـلى معصيـة اللـه، قومـوا عنـي.

قـال: فلقـد رأيـت بعـض ولـده حمـل عـلى مائـة فـرس في سـبيل اللـه، يعنـي: أعطاهـا لمَـن يغـزو عليهـا.

قلـت: هـذا وقـد كان خليفـة المسـلمين مـن أقـصى المـشرق بـلاد الـترك إلى أقـصى المغـرب بـلاد الأندلس وغيرهـا، ومـن جزائـر قـبرص وثغـور الشـام والعواصـم كطرسـوس ونحوهـا إلى أقـصى اليمـن، وإنمـا أخـذ كلّ واحـد مـن أولاده مـن تركتـه شـيئًا يسـيرًا يقـال: أقـلّ مِـن عشريـن درهـمًا.

قـال: وحـضرت بعـض الخلفـاء وقـد اقتسـم تركتـه بنـوه فأخـذ كلّ واحـد منهـم سـتمائة ألـف دينـار، ولقـد رأيـت بعضهـم يتكفّـف النـاس- أي: يسـألهم بكفّـه، وفي هـذا البـاب مـن الحكايـات والوقائـع المشـاهدة في الزمـان والمسـموعة عـمّا قبلـه مـا فيـه عـبرة لـكل ذي لـبّ»[١].

***

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية، ص(١٥، ١٦).

المبحثُ الثّامن

سنّةُ الله في التسخير

معنى التسخير لغة:

ومعنى التسخير في اللغة: التّذليل، والسخرة: ما تسخره من دابة أو خادم بلا أجر أو ثمن، ويقال: سخرته بمعنى: قهرته وذللته، قال تعالى: ﴿وَسَخَّر لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ ﴾ [إبراهيم: ٣٣]، أي: ذللهما، وقال الزجّاج: تسخير ما في السموات، أي: تسخير الشمس والقمر والنجوم للآدميّين، وهو الانتفاع بها في بلوغ منابتهم، والاقتداء بها في مسالكهم، وتسخير ما في الأرض، أي: تسخير بحارها وأنهارها ودوابها وجميع منافعها[1].

وسنّة الله في التسخير هي سنة تدلنا على أن كلّ ما في هذا الكون مسخر من قبل الله - عز وجل - لعباده؛ حتى ينتفعوا، وليستفيدوا من مكونات هذا الكون في عمارة الأرض، وتحقيق العبودية الكاملة، ولقد ألمح الشيخ عن هذه السنة حين حديثه عن الأسباب، فذكر أنّ الأسباب ليست وحدها مستقلة، ويجب أن لا يعتمد الإنسان على الأسباب، وذكر أنّ كلّ ما في الكون مسخّر من قبل الله - عز وجل - بتدبيره وحكمته، فيقول شيخُ الإسلام متحدثًا عن حركة الكون: «والحركات كلها: إمّا (طبيعية) وإمّا (إرادية) وإمّا (قسرية)، فالقسرية تابعة للقاسر، والطبيعية هي التي لا إحساس للمتحرك بها كحركة التراب إلى أسفل، والإرادية هي التي للمتحرك بها حس كحركة الحيوان، فما كان من هذه متحركًا بطبع فيه أو إرادة فمبدأ حركته منه، وما كان مقسورًا فقاسره من المخلوقات إنما يقسره لما فيه من الاستعداد لقبول قسره، وذلك معنى ليس من القاسر، فحركات الأفلاك إذا اجتمعت ليست مستقلّة بتحريك هذه الأجسام، وإن جاز أن تكون جزءًا للسبب، كما نشهد أن الشمس جزء سبب في نمو بعض الأجسام ورطوبتها ويبسها ونحو ذلك، ثمّ بتقدير أن تكون أسبابًا فلها موانع ومعارضات؛ إذ ما من سبب يقدر إلّا وله مانع إرادي أو طبيعي أو غير ذلك كـ: الدعاء والصدقة والأعمال الصالحة؛ فإنها من

(١) لسان العرب، (١٤٥/٧).

أعظـم الأسـباب في دفـع البـلاء النـازل مـن السـماء، ولهـذا أمرنـا بذلـك عنـد الكسـوف، وغـيره مـن الآيـات السـماوية التـي تكـون سـببًا للعـذاب، كـما قـال النبـي ﷺ: (إن الشـمس والقمـر لا ينكسـفان لمـوت أحـد ولا لحياتـه، ولكنهـما آيتـان مـن آيـات اللـه يخـوف بهـما عبـاده، فـإذا رأيتـم ذلـك فافزعـوا إلى الصـلاة)[1]، وأمـر ﷺ عنـد الكسـوف بالصـلاة والذكـر والاسـتغفار والصدقـة والعتاقـة»[2].

المسخَّراتُ الكونية ودلالتها على الله- تعالى:

اهتـمّ شـيخُ الإسـلام- رحمـه اللـه- بذكـر المسـخّرات الكونيـة ودلالتهـا عـلى اللـه- تعـالى، وفوائدهـا في حيـاة الخلـق، فـيرى أنّ: «النجـوم مـن آيـات اللـه الدالـة عليـه، المسـبحة لـه، السـاجدة لـه، كـما قـال تعـالى: ﴿ أَلَـمْ تَـرَ أَنَّ اللــهَ يَسْـجُدُ لَـهُ مَـن فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـن فِي الْأَرْضِ وَالشَّـمْسُ وَالْقَمَـرُ وَالنُّجُـومُ وَالْجِبَـالُ وَالشَّـجَرُ وَالـدَّوَابُّ وَكَثِـيرٌ مِّـنَ النَّـاسِ ﴾[الحـج: ١٨].

وهـو- سـبحانه- مـع ذلـك قـد جعـل فيهـا منافـع لعبـاده وسـخرها لهـم كـما قـال تعـالى: ﴿وَسَـخَّر لَكُـمُ الشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ دَآئِبَـينَ وَسَـخَّرَ لَكُـمُ اللَّيْـلَ وَالنَّهَـارَ ﴾ [إبراهيـم: ٣٣]، وقـال: ﴿وَالشَّـمْسَ وَالْقَمَـرَ وَالْنُّجُـومُ مُسَـخَّرَاتٌ بِأَمْـرِهِ ﴾ [الأعـراف: ٥٤]، وقـال: ﴿ وَسَـخَّرَ لَكُـم مَّـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًـا مِّنْـهُ ﴾ [الجاثيـة: ١٣]، ومـن منافعهـا الظاهـرة مـا يجعلـه- سـبحانه- بالشـمس مـن الحـرّ والـبرد والليـل والنهـار ونضـاج الثـمار وخلـق الحيـوان والنبـات والمعـادن، وكذلـك مـا يجعلـه بهـا لهـم مـن الترطيـب والتيبيـس، وغـير ذلـك مـن الأمـور المشـهودة، كـما جعـل في النـار الإشراق والإحـراق، وفي المـاء التطهـير والسـقي وأمثـال ذلـك مـن نعمـه التـي يذكرهـا في كتابـه، كـما قـال تعـالى: ﴿ وَأَنزَلْنَـا مِـنَ السَّـمَاء مَـاء طَهُـورًا {٤٨/٢٥} لِنُحْيِـيَ بِـهِ بَلْـدَةً مَّيْتًـا وَنُسْـقِيَهُ مِـمَّا خَلَقْنَـا أَنْعَامًـا وَأَنَـاسِيَّ كَثِـيرًا ﴾ [الفرقـان: ٤٨-٤٩]، وقـد أخـبر اللـه في غـير مـوضع أنــه يجعـل حيـاة بعـض مخلوقاتـه ببعض كـما قـال تعـالى: ﴿لِنُحْيِيَ بِـهِ بَلْـدَةً مَّيْتًـا ﴾، وكـما قـال: ﴿ وَهُـوَ الَّـذِي يُرْسِـلُ الرِّيَـاحَ بُـشْرًا بَـيْنَ يَـدَيْ رَحْمَتِـهِ حَتَّـى إِذَا أَقَلَّـتْ سَـحَابًا ثِقَـالاً سُـقْنَاهُ لِبَلَـدٍ مَّيِّـتٍ فَأَنزَلْنَـا بِـهِ الْـمَاء فَأَخْرَجْنَـا بِـهِ مِـن كُلِّ الثَّمَـرَاتِ ﴾[3].

---

(١) صحيح البخاري، (٣٤/٢).

(٢) الفتاوى، (١٧١/٨).

(٣) مجموع الفتاوى، (١٦٧/٣٥).

مِن سنة الله في خلقه أن جعل بعضهم فوق بعض درجات كما أنه سخر بعضهم لبعض:

يتحدّث شيخُ الإسلام عن سنّة الله- تعالى- في تسخير الخلق لبعضهم بعضًا أنْ فضّل بعضهم على بعض في الدنيا؛ ليتخذ بعضهم بعضًا سخريًّا، ومعنى ذلك أن يستفيد بعضهم من بعض في الأعمال والحرف والصنائع؛ لأنه لو تساوى الناس في الغنى ولم يحتَجْ بعضهم إلى بعض لتعطلت المصالح والمنافع، ولم تنشأ منهم المجتمعات، ولم تقم فيها حضارة، «فمنهم من يؤثر أن يكون هو القاهر، ثمّ إنه مع هذا لا بدّ له- في العقل والدين- من أن يكون بعضهم فوق بعض، كما أن الجسد لا يصلح إلّا برأس، قال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، وقال تعالى: ﴿ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ﴾ [الزخرف: ٣٢]»[1].

***

(١) السياسة الشرعية، ص(٢١٧)، والحديث خرجه البيهقي في شعب الإيمان، (٨٥/١٣).

المبحثُ التّاسع

سنّةُ الله في السعادة والشقاء

قال- تعالى- مبيّنًا سنّته في السعادة والشقاوة: ﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ [طه: ١٢٤].

يقول الطبري- رحمه الله: «﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي ﴾ الذي أذكره به فتولى عنه ولم يقبله ولم يستجب له، ولم يتعظ به فينزجر عما هو عليه مقيم من خلافه أمر ربه ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا ﴾ يقول: فإن له معيشة ضيقة، والضنك من المنازل والأماكن والمعايش: الشديد، يقال: هذا منزل ضنك: إذا كان ضيّقًا»[1].

يقول شيخ الإسلام- رحمه الله- مبيّنًا الطريق الأصلح للسعادة: «القلب لا يصلح ولا يفلح ولا يلتذّ ولا يسرّ ولا يطيب ولا يسكن ولا يطمئن إلّا بعبادة ربه وحبه والإنابة إليه، ولو حصل له كلّ ما يلتذّ به من المخلوقات لم يطمئن ولم يسكن؛ إذ فيه فقر ذاتي إلى ربه، ومن حيث هو معبوده ومحبوبه ومطلوبه، وبذلك يحصل له الفرح والسرور واللذة والنعمة والسكون والطمأنينة.

وهذا لا يحصل له إلّا بإعانة الله له، لا يقدر على تحصيل ذلك له إلّا الله، فهو دائمًا مفتقر إلى حقيقة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فإنه لو أعين على حصول ما يحبه ويطلبه ويشتهيه ويريده ولم يحصل له عبادته لله بحيث يكون هو غاية مراده ونهاية مقصوده، وهو المحبوب له بالقصد الأول، وكلّ ما سواه إنما يحبه لأجله، لا يحبّ شيئًا لذاته إلّا الله، فمتى لم يحصل له هذا لم يكن قد حقّق حقيقةَ (لا إله إلّا الله)، ولا حقق التوحيد والعبودية والمحبة، وكان فيه من النقص والعيب، بل من الألم والحسرة والعذاب بحسب ذلك.

---

(١) جامع البيان، ت: شاكر، (٣٩٠/١٨).

ولـو سـعى في هـذا المطلـوب ولم يكـنْ مسـتعينًا باللـه متـوكلًا عليـه مفتقـرًا إليـه في حصولـه لم يحصـل لـه؛ فإنـه مـا شـاء اللـه كان ومـا لم يشـأ لم يكـن، فهـو مفتقـر إلى اللـه مـن حيـث هـو المطلـوب المحبـوب المـراد المعبـود، ومـن حيـث هـو المسـئول المسـتعان بـه المتـوكل عليـه، فهـو إلهـه، لا إلـه لـه غـيره، وهـو ربـه لا ربّ لـه سـواه»[١].

من أسباب السعادة في نظر الشيخ- رحمه الله-:

تتبّـع شـيخُ الإسـلام- رحمـه اللـه- أسـباب السـعادة، وسـننَ اللـه- تعـالى- فيهـا مـن خـلال فهْـم الشـيخ لمضامـين القـرآن الكريـم، ويمكننـا أن نرصدهـا على النحـو الآتي:

١ـ اتّباع المرسلين:

قـال- رحمـه اللـه: «وإذا كانـت (سـعادة الدنيـا والآخـرة) هـي باتبـاع المرسـلين، فمـن المعلـوم أنّ أحـقّ النـاس بذلـك هـم أعلمهـم بآثـار المرسـلين، وأتبعهـم لذلـك، فالعالمـون بأقوالهـم وأفعالهـم المتبعـون لهـا هم أهـل السـعادة في كلّ زمـان ومـكان، وهـم الطائفـة الناجيـة مـن أهـل كلّ ملّـة، وهـم أهـل السـنة والحديث مـن هـذه الأمـة؛ فإنهـم يشـاركون سـائر الأمّـة فيـما عندهـم مـن أمـور الرسـالة، ويمتـازون عنهم بمـا اختصوا بـه مـن العلـم المـوروث عـن الرسـول؛ مـمّا يجهلـه غيرهـم أو يكـذب بـه»[٢].

٢- فعلُ المأمور وتركُ المحظور:

ويبـينّ شـيخُ الإسـلام- رحمـه اللـه أن فعـل المأمـور وتـرك المحظـور مـن أسـباب السـعادة التـي يتحصـل عليهـا الإنسـان في حياتـه فيقـول: «لكـن اللـه جعـل فعـل المأمـور وتـرك المحظـور سـببًا للنجـاة والسـعادة؛ فشـهادة التوحيـد تفتـح بـاب الخـير، والاسـتغفار مـن الذنـوب يغلـق بـاب الـشر».

٣- الإخلاصُ لله- تعالى:

ويـرى- رحمـه اللـه: «أنـه إذا كان العبـد مخلصًـا لـه اجتبـاه ربـه، فيحيي قلبـه، واجتذبه إليـه فينصرف عنـه مـا يضـادّ ذلـك مـن السـوء والفحشـاء، ويخـاف مـن حصـول ضـدّ ذلـك، بخـلاف القلـب الـذي

---

(١) مجموع الفتاوى، (١٠/١٩٤).

(٢) مجموع الفتاوى، (٤/٢٦).

لم يخلص لله فإنه في طلب وإرادة وحب مطلق، فيهوى ما يسنح له، ويتشبّث بما يهواه، كالغصن أي نسيم مر بعطفه أماله، فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرّمة، فيبقى أسيرًا عبدًا لمن لو اتخذه هو عبدًا له لكان ذلك عيبًا ونقصًا وذمًّا، وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة، ويستعبده مَن يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي مَن يذمّه ولو بالحقّ، وتارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها، فيتخذ إلهه هواه، ويتبع هواه بغير هدى من الله.

ومَن لم يكن خالصًا لله عبدًا له قد صار قلبه مستعبدًا لربه وحده لا شريك له بحيث يكون هو أحبّ إليه ممّا سواه، ويكون ذليلاً خاضعًا له، وإلّا استعبدته الكائنات، واستوْلت على قلبه الشياطين، وكان من الغاوين إخوان الشياطين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلّا الله»[1].

٤- اعتقادُ الحقّ الثابت:

يبيّن الشيخُ- رحمه الله- أنّ أشدّ الناس سعادة وأبعدهم عن الشقاء مَن كان ملتزمًا بالحقّ الثابت، فيقول:

(فكلّ مَن استقرأ أحوال العالم وجدَ المسلمين أحدّ وأسدّ عقلاً، وأنهم ينالون في المدّة اليسيرة من حقائق العلوم والأعمال أضعاف ما يناله غيرهم في قرون وأجيال، وكذلك أهل السنة والحديث تجدهم كذلك متمتعين. وذلك لأنّ اعتقاد الحقّ الثابت يقوّي الإدراك ويصحّحه، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾، محمد: ١٧. وقال: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا {٦٦/٤} وَإِذاً لَّآتَيْنَاهُم مِّن لَّدُنَّا أَجْراً عَظِيماً {٦٧/٤} وَلَهَدَيْنَاهُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴾(النساء: ٦٦: ٦٨)[2].

***

(١) مجموع الفتاوى، (٢١٦/١٠).

(٢) مجموع الفتاوى: (٤/ ١٠).

المبحثُ العاشر

مِن سننِ الله في خلقه أنْ جعل لهم أميرًا، ولا يصلح حالهم إلّا بهذه الإمارة

يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: «يجب أنْ يعرف أنّ ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلّا بها؛ فإنّ بني آدم لا تتم مصلحتهم إلّا بالاجتماع لحاجة بعضهم إلى بعض، ولا بدّ لهم عند الاجتماع من رأس حتى قال النبي ﷺ: (إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمّروا أحدهم) رواه أبو داود من حديث أبي سعيد وأبي هريرة[1].

وروى الإمام أحمد في المسند، عن عبد الله بن عمرو، أن النبي ﷺ قال: (لا يحلّ لثلاثة يكونوا بفلاة من الأرض إلّا أمّروا عليهم أحدهم)، فأوجب ﷺ تأمير الواحد في الاجتماع القليل العارض في السفر تنبيهًا بذلك على سائر أنواع الاجتماع، ولأن الله- تعالى- أوجب الأمر بالمعروف والنهيَ عن المنكر، ولا يتمّ ذلك إلّا بقوة وإمارة، وكذلك سائر ما أوجبه من الجهاد والعدل وإقامة الحج والجمع والأعياد، ونصر المظلوم، وإقامة الحدود لا يتمّ إلّا بالقوة والإمارة، ولهذا روي: (إنّ السلطان ظلّ الله في الأرض)[2].

ويقال: ستّون سنَة من إمامٍ جائر أصلحُ من ليلة بلا سلطان، والتجربة تبيّن ذلك، ولهذا كان السّلف كالفضيل بن عياض وأحمد بن حنبل وغيرهما يقولون: لو كان لنا دعوة مُجابة لدعونا بها للسلطان، وقال النبي ﷺ: (إنّ الله يرضى لكم ثلاثة: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا مَن ولّاه الله أمركم) رواه مسلم[3].

---

(١) سنن أبي داود، ت: الأرنؤوط، (٢٤٩/٤).

(٢) شعب الإيمان، (٤٧٦/٩).

(٣) صحيح مسلم، (١٣٤٠/٣).

وقال: (ثلاث لا يغلّ عليهم قلب مسلم: إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمر، ولزوم جماعة المسلمين؛ فإن دعوتهم تحيط بهم من ورائهم) رواه أهل السنن[١].

في الصحيح عنه أنه قال: الدين النصيحة، الدين النصيحة، الدين النصيحة. قالوا: لمَن يا رسول الله؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم[٢].

فالواجبُ اتّخاذ الإمارة دينًا وقربة يتقرب بها إلى الله؛ فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسوله من أفضل القربات، وإنما يفسد فيها حالُ كثيرٍ من الناس لابتغاء الرياسة أو المال بها، وقد روى كعب بن مالك، عن النبي ﷺ أنه قال: (ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال أو الشرف لدينه)[٣]، قال الترمذي: حديث حسن صحيح، فأخبر أنّ حرص المرء على المال والرياسة يفسد دينه مثل أو أكثر من إرسال الذئبين الجائعين لزريبة الغنم»[٤].

***

(١) مسند أحمد، ط: الرسالة، (٤٦٧/٣٥).

(٢) صحيح البخاري، (٢١/١).

(٣) سنن الترمذي، ت: بشار، (١٦٦/٤)، ومصنف ابن أبي شيبة، (٨٤/٧).

(٤) السياسة الشرعية، ص(٢١٧).

المبحثُ الحادي عشر

مِن سُنن الله في الأمّة المسلمة

١ـ أنها لا تجتمع على ضلالة:

يقـول شـيخُ الإسـلام في معنـى الإجـماع: «إنْ تجتمـع علـماء المسـلمين عـلى حكـم مـن الأحـكام، وإذا ثبت إجـماع الأمّـة عـلى حكـمٍ مـن الأحـكام؛ لم يكـن لأحـدٍ أن يخـرج عـن إجماعهـم؛ فـإنّ الأمّـة لا تجتمـع عـلى ضلالـة، ولكـن كثـير مـن المسـائل يظـنّ بعـض النـاس فيهـا إجماعًـا ولا يكـون الأمـرُ كذلـك، بـل يكـون القـول الآخـر أرجـح في الكتـاب والسـنة»[١].

٢ـ أنّها لا تؤخذ بسنَةٍ عامة:

وأيضًـا مِـن سـنن اللـه في الأمَـم المسـلمة أنـه- تعـالى- لا يبتليهـا بـشرّ عـام، ولكنـه يبتليهـا بـشرور جزئيـة؛ حتـى تثـوب إلى رشـدها وتسـترجع مجدهـا، خاصـة إذا حـادت عـن منهـج اللـه، يقـول شـيخ الإسـلام: (وليـس إذا وقـع في المخلوقـات مـا هـو شر جـزئي بالإضافـة: يكـون شرًّا كليًّـا عامًّـا، بـل الأمـور العامـة الكليـة لا تكـون إلّا خـيرًا ومصلحـة للعبـاد.)[٢].

٣ـ الامتحانُ للمؤمنين ونصرة الله لهم:

فمِـن سـنن اللـه- تعـالى- في المؤمنـين أن يمتحنهـم وينصرهـم عـلى أعدائهـم مـن الكفـار المكذّبـين للرسـل، فذكـر شـيخُ الإسـلام في تناولـه لسـورة العنكبـوت «امتحـان اللـه تعـالى للمؤمنـين ونـصره لهـم، وحاجتهـم إلى الصـبر والجهـاد، وذكـر فيهـا حسـن العاقبـة لمـن صـبر، وعاقبـة مـن كـذب الرسـل، فذكـر قصـة إبراهيـم؛ لأنهـا مـن النمـط الأول، ونـصرة اللـه لـه عـلى قومـه، وكذلـك سـورة الصافـات قـال فيهـا: ﴿ وَلَقَـدْ ضَـلَّ قَبْلَهُـمْ أَكْـثَرُ الْأَوَّلِـينَ {٧١/٣٧} وَلَقَـدْ أَرْسَـلْنَا فِيهِـم مُّنذِرِيـنَ {٧٢/٣٧} فَانظُـرْ كَيْـفَ كَانَ عَاقِبَـةُ الْمُنذَرِيـنَ ﴾ [الصافـات: ٧١-٧٣]، وهـذا يقتـضي أنهـا عاقبـة رديئـة، إمّـا بكونهـم غلبـوا

(١) مجموع الفتاوى، (٢٠ / ١٠).

(٢) مجموع الفتاوى، (١٤/ ٢٦٨).

وذلـوا، وإمّـا بكونهـم أهلكـوا، ولهـذا ذكـر فيهـا قصـة إليـاس، ولم يذكرهـا في غيرهـا، ولم يذكـر هـلاك قومه، بـل قـال: ﴿فَكَذَّبُـوهُ فَإِنَّهُـمْ لَمُحْـضَرُونَ {١٢٧/٣٧} إِلَّا عِبَـادَ اللَّـهِ الْمُخْلَصِـينَ ﴾ [الصافـات: ١٢٧-١٢٨]، وإليـاس قـد روي أن اللـه- تعـالى- رفعَـه، وهـذا يقتـضي عذابهـم في الآخـرة؛ فـإن إليـاس لم يقـمْ فيهـم، وإليـاس المعـروف بعـد مـوسى مـن بنـي إسرائيـل، وبعـد مـوسى لم يُهلـك المكذّبـين بعـذاب الاسـتئصال، وبعـد نـوح لم يهلـك جميـع النـوع، وقـد بعـث في كلّ أمّـة نذيـرًا، واللـه- تعـالى- لم يذكـر- قـطّ- عـن قـوم إبراهيـم أنهـم أهلكـوا كـما ذكـر عـن غيرهـم، بـل ذكـر أنهـم ألقـوه في النـار فجعلهـا اللـه عليـه بـردًا وسـلامًا، وأرادوا بـه كيـدًا، فجعلهـم اللـه الأسـفلين الأخسريـن»[١].

٤- مضاهاتُها لليهود والنصارى:

يقـول شـيخُ الإسـلام- رحمـه اللـه: «كفْرُ اليهـود أصلُـه مـن جهـة عـدم العمـل بعلمهـم؛ فهُـم يعلمون الحـقّ ولا يتبعونـه عمـلاً، أو لا قـولًا ولا عمـلاً، وكفـر النصـارى مـن جهـة عملهـم بـلا علـم، فهـم يجتهدون في أصنـاف العبـادات بـلا شريعـة مـن اللـه، ويقولـون عـلى اللـه مـا لا يعلمـون.

ولهـذا كان السـلف- سـفيان بـن عيينـة، وغـيره- يقولـون: إنّ مَـن فسـد مِـن علمائنـا ففيـه شـبهٌ مـن اليهـود! ومَـن فسـد مِـن عبّادنـا ففيـه شـبه مـن النصـارى. وليـس هـذا موضـع شرح ذلـك.

ومـع أنّ اللـه قـد حذّرنـا سـبيلهم، فقضـاؤه نافـذ بمـا أخـبر بـه رسـوله مـمّا سـبق في علمـه، حيـث قـال فيـما خرجـاه في الصحيحـين: عـن أبي سـعيد الخـدري قـال: قـال رسـول اللـه: (لتتّبعـن سـننَ مَـن كان قبلكـم حـذو القـذة بالقـذة حتـى لـو دخلـوا جحـر ضـب لدخلتمـوه). قالـوا: يـا رسـول اللـه، اليهـود والنصـارى؟ قـال: (فمَـن)[٢].

وروى البخـاري في صحيحـه، عـن أبي هريـرة، عـن النبـي قـال: (لا تقـوم السـاعة حتـى تأخـذ أمتـي مأخـذ القـرون، شـبرًا بشـبر، وذراعًـا بـذراع). فقيـل: يـا رسـول اللـه، كفـارس والـروم؟ قـال: (ومَـن النـاس إلّا أولئـك)؟[٣].

(١) النبوات، ص(٢٩).

(٢) صحيح البخاري، (١٦٩/٤)، وصحيح مسلم، (٢٠٥٤/٤).

(٣) مسند أحمد، ت: شاكر، (٣١٣/٨).

فأخبر أنه سيكون في أمّته مضاهاة لليهود والنصارى، وهم أهل الكتاب، ومضاهاة لفارس والروم، وهم الأعاجم.

وقد كان ينهى عن التشبه بهؤلاء وهؤلاء، وليس هذا إخبارًا عن جميع الأمّة، بل قد تواتر عنه أنّه قال: (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحقّ حتى تقوم الساعة)[(١)]، وأخبر أنّ الله لا يجمع هذه الأمّة على ضلالة، وأنّ الله لا يزال يغرس في هذا الدين غرسًا يستعملهم فيه بطاعته.

فعلم بخبره الصدق أنه في أمّته قوم متمسكون بهديه، الذي هو دين الإسلام محضًا، وقوم منحرفون إلى شعبة من شعب اليهود، أو إلى شعبة من شعب النصارى، وإن كان الرجل لا يكفر بكلّ انحراف، بل وقد لا يفسق- أيضًا، بل قد يكون الانحراف كفرًا، وقد يكون فسقًا، وقد يكون معصية، وقد يكون خطأ.

وهذا الانحراف أمرٌ تقتضيه الطباعُ ويزيّنه الشيطان، فلذلك أمر العبد بدوام دعاء الله- سبحانه- بالهداية إلى الاستقامة التي لا يهودية فيها ولا نصرانية أصلًا»[(٢)].

***

(١) صحيح البخاري، (١٠١/٩)، وصحيح مسلم، (١٣٧/١).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لشيخ الإسلام، ص(٧٩-٨٣).

المبحثُ الثّاني عشر

سنّةُ الله في قبول الأعمال

ومِن سنن الله- تعالى- في قبول الأعمال: (أنْ تكون أعمالاً صالحة، ومخلصة لله - عز وجل -).

قال- رحمه الله: «وهذان الأصلان هُما تحقيق: (شهادة أن لا إله إلّا الله، وأن محمدًا رسول الله)، كما قال تعالى: ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ [الملك: ٢] قال الفضيل بن عياض: أخلصه وأصوبه. قالوا: يا أبا علي، ما أخلصه وأصوبه؟ قال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا.

والخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، وذلك تحقيق قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاء رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

وكان أميرُ المؤمنين عمر بن الخطاب يقول في دعائه له: اللهم اجعل عملي كله صالحًا، واجعله لوجهك خالصًا، ولا تجعل لأحد فيه شيئًا، وقال تعالى: ﴿ أَمْ لَهُمْ شُرَكَاء شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللهُ ﴾ [الشورى: ٢١]»[١].

وقال- رحمه الله: «ومن هذا الباب: الحديث الذي رواه ابن ماجه، عن أبي سعيد، عن النبي ﷺ في دعاء الخارج إلى الصلاة: (اللهم إني أسألك بحقّ السائلين عليك، وبحقّ ممشاي هذا، فإني لم أخرج أشرًا ولا بطرًا ولا رياء ولا سمعة، ولكن خرجت اتقاءَ سخطك، وابتغاء مرضاتك، أسألك أن تنقذني من النار، وأن تغفر لي ذنوبي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلّا أنت)»[٢].

***

(١) مجموع الفتاوى، (٣٣٣/١).

(٢) الفتاوى، (٣٤٠/١)، والحديث في مصنف ابن أبي شيبة، (٢٥/٦).

المبحثُ الثّالث عشر

مِن سُنن الله - عز وجل - العدل

قـال تعـالى: ﴿ إِنَّ اللــهَ يَأْمُرُ بِالْعَـدْلِ وَالإِحْسَـانِ وَإِيتَـاء ذِي الْقُـرْبَى وَيَنْهَـى عَـنِ الْفَحْشَـاء وَالْمُنكَـرِ وَالْبَغْـيِ يَعِظُكُـمْ لَعَلَّكُـمْ تَذَكَّـرُونَ {٩٠/١٦} وَأَوْفُـواْ بِعَهْـدِ اللــهِ إِذَا عَاهَدتُّـمْ وَلاَ تَنقُضُـواْ الأَيْمَـانَ بَعْـدَ تَوْكِيدِهَـا وَقَـدْ جَعَلْتُـمُ اللــهَ عَلَيْكُـمْ كَفِيـلاً إِنَّ اللــهَ يَعْلَـمُ مَـا تَفْعَلُـونَ﴾ [النحـل: ٩٠، ٩١].

تلـك قاعـدةٌ قرآنيـة ماضيـة وسـنّة ربانيـة مـن أعظـم سـنن الشرائـع السـماوية؛ «وذلـك لأن أمـورَ النـاس تسـتقيم في الدنيـا مـع العـدل الـذي فيـه الاشـتراك في أنـواع الإثـم أكـثر مـمّا تسـتقيم مـع الظلـم في الحقـوق وإن لم تشـترك في إثـم؛ ولهـذا قيـل: إن اللـه يقيـم الدولـة العادلـة وإن كانـت كافـرة، ولا يقيـم الظالمـة وإن كانـت مسـلمة. ويقـال: الدنيـا تـدوم مـع العـدل والكفـر، ولا تـدوم مـع الظلـم والإسـلام.

وقـد قـال النبـي ﷺ: (ليـس ذنـب أسرع عقوبـة مـن البغـي وقطيعـة الرحـم)؛ فالباغـي يـصرع في الدنيـا وإن كان مغفـورًا لـه مرحومًـا في الآخـرة؛ وذلـك أن العـدل نظـام كلّ شيء؛ فـإذا أقيـم أمـر الدنيـا بعـدل قامـت وإن لم يكـن لصاحبهـا في الآخـرة مـن خـلاق، ومتـى لم تقـم بعـدل لم تقـم وإن كان لصاحبهـا مـن الإيمـان مـا يجـزى بـه في الآخـرة؛ فالنفـس فيهـا داعـي الظلـم لغيرهـا بالعلـو عليـه والحسـد لـه؛ والتعـدي عليـه في حقـه»[1].

صورُ العدل كما ذكرها شيخ الإسلام ابن تيمية:

مِـن سُـنن اللـه - عـز وجـل - في هـذا الكـون العـدل، ومـن أجـل تحقيـق هـذا العـدل في الكـون والحيـاة لـكلّ المخلوقـات بأمـان واسـتقرار، وحتـى تتحقّـق العبوديـة للـه وحـده وعـمارة الأرض جعـل اللـه - عـز وجـل - صـورًا كثـيرة لتحقيـق هـذا العـدل، منهـا: الحـدود والأحـكام المختلفـة، ومـن هـذه الحـدود القصاص الـذي يحفـظ عـلى الإنسـان حياتـه وأمنـه وحقـه في البقـاء كـما أراد اللـه لـه.

(١) مجموع الفتاوى، (١٤٦/٢٨).

١- القصاص:

قـال تعـالى: ﴿ يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ كُتِـبَ عَلَيْكُـمُ الْقِصَـاصُ فِي الْقَتْـلَى الْحُـرُّ بِالْحُـرِّ وَالْعَبْـدُ بِالْعَبْـدِ وَالأُنثَـى بِالأُنثَـى فَمَـنْ عُفِـيَ لَـهُ مِـنْ أَخِيـهِ شَيْءٌ فَاتِّبَـاعٌ بِالْمَعْـرُوفِ وَأَدَاء إِلَيْـهِ بِإِحْسَـانٍ ذَلِـكَ تَخْفِيـفٌ مِّـن رَّبِّكُـمْ وَرَحْمَـةٌ فَمَـنِ اعْتَـدَى بَعْـدَ ذَلِـكَ فَلَـهُ عَـذَابٌ أَلِيـمٌ {١٧٨/٢} وَلَكُـمْ فِي الْقِصَـاصِ حَيَـاةٌ يَـاْ أُولِي الأَلْبَـابِ لَعَلَّكُـمْ تَتَّقُـونَ﴾ [البقـرة: ١٧٨، ١٧٩].

يقـول شـيخُ الإسـلام- رحمـه اللـه- في ذلـك مُظهـرًا معرفتَـه بالنفـوس البشريـة ومـا يجـول بهـا: «وذلـك لأنّ أوليـاء المقتـول تغـلي قلوبهـم بالغيـظ حتـى يؤثـروا أن يقتلـوا القاتـل وأوليـاءه، وربمـا لم يرضـوا بقتـل القاتـل بـل يقتلـون كثـيرًا مـن أصحـاب القاتـل كسـيد القبيلـة ومقـدم الطائفـة، فيكـون القاتـل قـد اعتـدى في الابتـداء وتعـدّى هـؤلاء في الاسـتيفاء، كـما كان يفعلـه أهـل الجاهليـة الخارجـون عـن الشريعـة في هـذه الأوقـات مـن الأعـراب وغيرهـم، وقـد يسـتعظمون قتـل القاتـل لكونـه عظيـماً أشرف مـن المقتـول، فيفـضي ذلـك إلى أوليـاء المقتـول يقتلـون مَـن قـدروا عليـه مـن أوليـاء القاتـل، وربمـا حالـف هـؤلاء قومًـا واسـتعانوا بهـم، وهـؤلاء قومًـا فيفـضي إلى الفـتن والعـداوات العظيمـة.

وسببُ ذلـك خروجهـم عـن سـنن العـدل الـذي هـو القصـاص في القتـلى، فكتـب اللـه علينـا القصاص- وهـو المسـاواة والمعادلـة في القتـلى- وأخـبر أن فيـه حيـاة؛ فإنـه يحقـن دمَ غـير القاتـل مـن أوليـاء الرجلين.

وأيضًـا فـإذا علـم مَـن يريـد القتـل أنـه يُقتَـل كـفّ عـن القتـل، وقـد روي عـن عـلي بـن أبي طالـب - كـرم اللـه وجهـه - وعمـرو بـن شـعيب، عـن أبيـه، عـن جـده- رضي اللـه عنهـما، عـن النبـيﷺ أنـه قـال: (المؤمنـون تتكافـأ دماؤهـم، وهـم يـدٌ عـلى مَـن سـواهم، ويسـعى بذمتهـم أدناهـم، ألا لا يقتـل مسـلم بكافـر، ولا ذو عهـد في عهـده)[١]. رواه أحمـد وأبـو داود وغيرهـما مـن أهـل السـنن.

فقـضى رسـول اللـه ﷺ أن المسـلمين تتكافـأ دماؤهـم- أي: تتسـاوى وتتعـادل- فـلا يفضُـلُ عـربي عـلى عجمـي، ولا قـرشي أو هاشـمي عـلى غـيره مـن المسـلمين، ولا حـرٌّ أصـلي عـلى مـولى عتيـق، ولا عـالم أو أمـير عـلى أمـي أو مأمـور، وهـذا متفـق عليـه بـين المسـلمين، بخـلاف مـا كان عليـه أهـل الجاهليـة وحـكام اليهـود»[٢].

---

(١) سنن أبي داود، (١٨١/٤).

(٢) السياسة الشرعية، ص(١٩٥).

٢- العدل في الأموال:

ومِن صور العدل- أيضًا- «العدل في الأموال»؛ فهو عماد الحياة، وبه تقوم المصالح، لذلك وضع الله - عز وجل - كثيرًا من الأحكام التي تنظم العلاقة الحالية بين الناس. يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله- شارحًا ذلك: «وأمّا الأحوال فيجب الحكم بين الناس فيها بالعدل، كما أمر الله ورسوله مثل: قسم المواريث بين الورثة على ما جاء به الكتاب والسنة.

وقد تنازع المسلمون في مسائل من ذلك، وكذلك في المعاملات من المبايعات والإجارات والوكالات والمشاركات والهبات والوقوف والوصايا ونحو ذلك من المعاملات المتعلقة بالعقود والقبوض، فإن العدل فيها هو قوام العالمين، لا تصلح الدنيا والآخرة إلّا به.

فمِن العدل فيها ما هو ظاهر يعرفه كلّ أحد بعقله كوجوب تسليم الثمن على المشتري، وتسليم المبيع على البائع المشتري، وتحريم تطفيف المكيال والميزان، ووجوب الصدق والبيان، وتحريم الكذب والخيانة والغش، وأن جزاء القرض الوفاء والحمد.

ومنها ما هو خفي جاءت به الشرائع أو شريعتنا أهل الإسلام، فإنّ عامّة ما نهى عنه الكتاب والسنة من المعاملات يعود إلى تحقيق العدل، والنهي عن الظلم، دقّه وجلّه، مثل أكثر المال الباطل وجنسه من الربا والميسر وأنواع الربا والميسر التي نهى النبي ﷺ مثل: بيع الغرر، وبيع حبل الحبلى، وبيع الطير في الهواء، والسمك في الماء، والبيع إلى أجل غير مسمى، وبيع المسراة، وبيع المدلس والملامسة والمنابذة والمزابنة والمحاقلة والنجش، وبيع الثمن قبل بدوّ صلاحه، وما نهى عنه من أنواع المشاركات الفاسدة كالمخابرة كزرع بقعةٍ بعينها من الأرض.

ومن ذلك ما قد ينازع فيه المسلمون لخفائه واشتباهه، فقد يرى هذا العقد والقبض صحيحًا عدلًا، وإن كان غيره يرى فيه جورًا يوجب فساده، وقد قال الله- تعالى: ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ [النساء: ٥٩]، والأصل في هذا أنه لا يحرم على الناس من المعاملات

التـي يحتاجـون إليهـا إلا مـا دلّ الكتـاب والسـنة عـلى تحريمـه، كـما لا يـشرع لهـم مـن العبـادات التـي يتقربـون بهـا إلى اللـه إلّا مـا دلّ الكتـاب والسـنة عـلى شرعـه»[1].

٣- العدلُ مع النفس:

إنّ العـدل مـع النفـس مِـن أهـمّ أنـواع العـدل؛ لأن الإنسـان إن لم يكـن عـادلًا مـع نفسـه فإنـه يوردهـا المهالـك، فـلا تأخـذ حظّهـا في الدنيـا ولا تأخـذ حظهـا في الآخـرة؛ لذلـك وضّـح شـيخُ الإسـلام لنـا كيفيـة العـدل مـع النفـس، وبـيّن أنّ مـن أهـمّ صـور العـدل معهـا هـو فعـل الحسـنات وتـرك السـيئات؛ وذلـك لأنّ «العمـل لـه أثـر في القلـب مـن نفـعٍ وضرّ وصـلاح قبـل أثـره في الخـارج، فصلاحهـا عـدل لهـا، وفسـادها ظلـم لهـا، قـال تعـالى: ﴿ مَـنْ عَمِـلَ صَالِحًـا فَلِنَفْسِـهِ وَمَـنْ أَسَـاء فَعَلَيْهَـا ﴾ [فصلـت: ٤٦]، وقـال تعـالى: ﴿ إِنْ أَحْسَـنتُمْ أَحْسَـنتُمْ لِأَنفُسِـكُمْ وَإِنْ أَسَـأْتُمْ فَلَهَـا ﴾ [الإسراء: ٧].

قـال بعـض السـلف: إن للحسـنة لنـورًا في القلـب، وقـوة في البـدن، وضيـاء في الوجـه، وسـعة في الـرزق، ومحبـة في قلـوب الخلـق، وإن للسـيئة لظلمـة في القلـب، وسـوادًا في الوجـه، ووهنًـا في البـدن، ونقصًـا في الـرزق، وبغضًـا في قلـوب الخلـق»[2].

مِن فضل العدل:

١- أنّ العدلَ أصلٌ جامع:

يقـول شـيخُ الإسـلام ابـن تيميـة في فضـل العـدل: «إنّ جـماع الحسـنات العـدل، وجـماعَ السـيئات الظلـم، وهـذا أصـلٌ جامـع عظيـم»[3].

٢- أنّ العدلَ صفةٌ من صفات المؤمنين:

وقال- رحمه الله: «والمؤمن إنْ قدَرَ عدل وأحسن، وإن قهِرَ وغُلب صبر واحتسب»[4].

***

(١) السياسة الشرعية، ص(٢١١).

(٢) الفتاوى، (٩٨/١٠).

(٣) مجموع الفتاوى، (٨٦/١).

(٤) الفتاوى، (٣٢٧/٢).

المبحثُ الرّابع عشر

سنّةُ الله في النصر والهزيمة

معنى النصر: إعانة المظلوم، نصره على عدوه.

وفي الحديث: «انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»[1]، وتفسيره: أن يمنعه من الظلم إن وجده ظالمًا، وإن كان مظلومًا أعانه على ظالمه، والاسم النصرة.

والنصرة: حسن المعونة، قال الله - عز وجل -: ﴿ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ﴾ [الحج: ١٥]، المعنى: مَن ظنّ مِن الكفار أن الله لا يظهر محمدًا على مَن خالفه فليختنق غيظًا حتى يموت كمدًا؛ فإن الله - سبحانه وتعالى - يظهره، ولا ينفعه غيظه وموته حنقًا، فالهاء في قوله: ﴿أَن لَّن يَنصُرَهُ اللَّهُ ﴾ للنبي محمد ﷺ.

وانتصر الرجل: إذا امتنع من ظالمه.

قال الأزهري: يكون الانتصار من الظالم: الانتصاف والانتقام، وانتصر منه: انتقم.

والانتصار: الانتقام، والتناصر: التعاون على النصر[2].

وردَ النصرُ في القرآن الكريم على أربعة وجوه:

الوجه الأول: النصر بمعنى: المنع، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلاَ يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلاَ هُمْ يُنصَرُونَ ﴾ [البقرة: ٤٨].

الوجه الثاني: النصر بمعنى: العون، فذلك كقوله تعالى: ﴿ وَإِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ [الحشر: ١١]، يعني: لنعيننكم.

الوجه الثالث: يعني: الظفر، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، ومثل قوله تعالى: ﴿وانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

(١) صحيح البخاري، (١٢٨/٣).

(٢) لسان العرب لابن منظور، جـ١٣، ١٤، ص(٢٦٧، ٢٦٩).

الوجه الرابع: يعني: الانتقام في مثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَشَاء اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ﴾ [محمد: ٤].

ومن هذه المعاني يظهر أنّ النصر له صور متعدّدة يجعلها الله لعباده، فقد ينصرهم بمنعهم من أعدائهم، وقد يكون بالعون على الأعداء، وقد يكون بالظفر المادي والتّمكين، وقد يكون بالانتقام من أعدائهم الكافرين، إلى غير ذلك من وجوه النصر»[1].

تقريرُ سنّة الله في النصر والهزيمة وبيانها:

«إنّ من سنن الله في هذا الكون سنتَه - عز وجل - في نصر المؤمنين وهزيمة الكافرين، وهي طرفٌ من الناموس الأكبر الذي يحكم الحياة الإنسانية، وقد ربط الله بين نصره للمؤمنين وبين الحقّ الذي تقوم عليه السماء والأرض والنظام الكوني بشكل عام، وهذه السنة- شأنها كشأن بقية سنن الله- نافذةٌ ماضية، كما تمضي هذه الكواكب والنجوم في دوراتها المنتظمة، وكما يتعاقب الليل والنهار في الأرض على مدار الزمان، وكما تنبثق الحياة في الأرض الميتة التي ينزل عليها الماء، بل إن هذه السنة هي الأكثر مضيًّا ونفاذًا من كلّ ذلك؛ لأن هذه السنة المادية قد تنخرق لتحقق سنة النصر، أو لحكمة يريدها الله»[2].

ولقد تحدّث شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- عن هذه السنة الإلهية، ووضّح فيها قوانين الله - عز وجل - وشريعته الواضحة في النصر والهزيمة، فتراه يتحدّث عن ذلك في مواضع متعدّدة من كتاباته موضّحًا أنّ سنن الله على مرّ العصور والأزمات ثابتة تلحق أوّل الأمم وآخرها لا تتبدّل، ومِن ذلك ما أورده عن تفاصيل حرب التتار مع المسلمين، وما ألحقوه بالأمّة من الهزيمة والبلاء في معارك مريبة، ثمّ نالت الأمّة الفوز والانتصار على هذا العدو الحاقد.

يقول شيخُ الإسلام: «لقد صدق الله وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده ﴿ وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴾ [الأحزاب: ٢٥]، والله- تعالى- يحقّق لنا التمام بقوله: ﴿وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، د/ شريف صالح أحمد الخطيب، (١١٦/٢).

(٢) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، د/ شريف صالح أحمد الخطيب، (١١٧/٢)، مكتبة الرشد، ط ٢٠٠٤، الرياض، السعودية.

مِـن صَيَاصِيهِـمْ وَقَـذَفَ فِي قُلُوبِهِـمُ الرُّعْـبَ فَرِيقًـا تَقْتُلُـونَ وَتَـأْسِرُونَ فَرِيقًـا {٢٦/٣٣} وَأَوْرَثَكُـمْ أَرْضَهُـمْ وَدِيَارَهُـمْ وَأَمْوَالَهُـمْ وَأَرْضًـا لَّـمْ تَطَؤُوهَـا وَكَانَ اللـهُ عَـلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيـرًا ﴾ [الأحـزاب: ٢٦، ٢٧].

فـإنّ هـذه الفتنـة التـي ابتـلي بهـا المسـلمون مـع هـذا العـدو المفسـد الخـارج عـن شريعـة الإسـلام قـد جـرى فيهـا شـبيهٌ بمـا جـرى للمسـلمين مـع عدوهـم عـلى عهـد رسـول اللـه ﷺ في المغـازي التـي أنـزل اللـه فيهـا كتبـه، وابتـلى بهـا نبيـه والمؤمنـين مـمّا هـو أسـوة لمَـن كان يرجـو اللـه واليـوم الآخـر وذكـر اللـه كثـيرًا إلى يـوم القيامـة؛ أي: هـذه القصـص المذكـورة في الكتـاب ليسـت بمنزلـة مـا يفـترى مـن القصـص المكذوبـة كنحـو مـا يذكـر في الحـروب مـن السـير المكذوبـة.

وقـال- تعـالى- لمّـا ذكـر قصـة فرعـون: ﴿ فَأَخَـذَهُ اللـهُ نَـكَالَ الْآخِـرَةِ وَالْأُولَى {٧٩/ ٢٥} إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَعِـبْرَةً لِّمَـن يَخْـشَى ﴾ [النازعـات: ٢٥-٢٦].

وقـال في سـيرة نبينـا محمـد ﷺ مـع أعدائـه ببـدر وغيرهـا: ﴿قَـدْ كَانَ لَكُـمْ آيَـةٌ فِي فِئَتَـيْنِ الْتَقَتَـا فِئَـةٌ تُقَاتِـلُ فِي سَـبِيلِ اللــهِ وَأُخْـرَى كَافِـرَةٌ يَرَوْنَهُـم مِّثْلَيْهِـمْ رَأْيَ الْعَـيْنِ وَاللــهُ يُؤَيِّـدُ بِنَـصْرِهِ مَـن يَشَـاء إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَعِـبْرَةً لَّأُوْلِي الأَبْصَـارِ ﴾ [آل عمـران: ١٣].

وقـال- تعـالى- في محاصرتـه لبنـي النضـير: ﴿ هُـوَ الَّـذِي أَخْـرَجَ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا مِـنْ أَهْـلِ الْكِتَـابِ مِـن دِيَارِهِـمْ لِأَوَّلِ الْحَـشْرِ مَـا ظَنَنتُـمْ أَن يَخْرُجُـوا وَظَنُّـوا أَنَّهُـم مَّانِعَتُهُـمْ حُصُونُهُـم مِّـنَ اللــهِ فَأَتَاهُـمُ اللــهُ مِـنْ حَيْـثُ لَـمْ يَحْتَسِـبُوا وَقَـذَفَ فِي قُلُوبِهِـمُ الرُّعْـبَ يُخْرِبُـونَ بُيُوتَهُـم بِأَيْدِيهِـمْ وَأَيْـدِي الْمُؤْمِنِـينَ فَاعْتَـبِرُوا يَـا أُولِي الْأَبْصَـارِ ﴾ [الحـشر: ٢].

فأمرنا أن نعتبر بأحوال المتقدمين علينا من هذه الأمّة وممّن قبلها من الأمم.

وذكـر في غـير موضـع أنّ سـنّته في ذلـك سـنة مطـردة وعادتـه مسـتمرة، فقـال تعـالى: ﴿ لَـئِن لَّـمْ يَنتَـهِ الْمُنَافِقُـونَ وَالَّذِيـنَ فِي قُلُوبِهِـم مَّـرَضٌ وَالْمُرْجِفُـونَ فِي الْمَدِينَـةِ لَنُغْرِيَنَّـكَ بِهِـمْ ثُـمَّ لَا يُجَاوِرُونَـكَ فِيهَـا إِلَّا قَلِيلاً {٣٣/٦٠} مَلْعُونِـينَ أَيْنَـمَا ثُقِفُـوا أُخِـذُوا وَقُتِّلُـوا تَقْتِيـلاً {٣٣/٦١} سُـنَّةَ اللــهِ فِي الَّذِيـنَ خَلَـوْا مِـن قَبْـلُ وَلَـن تَجِـدَ لِسُـنَّةِ اللــهِ تَبْدِيـلاً ﴾ [الأحـزاب: ٦٠-٦٢].

وقـال تعـالى: ﴿ وَلَـوْ قَاتَلَكُـمُ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا لَوَلَّـوُا الْأَدْبَـارَ ثُـمَّ لَا يَجِـدُونَ وَلِيًّـا وَلَا نَصِـيراً {٤٨/٢٢} سُـنَّةَ اللــهِ الَّتِـي قَـدْ خَلَـتْ مِـن قَبْـلُ وَلَـن تَجِـدَ لِسُـنَّةِ اللــهِ تَبْدِيـلاً ﴾ [الفتـح: ٢٢، ٢٣].

وأخـبر- سـبحانه- أنّ دأب الكافريـن مـن المسـتأخرين كـدأب الكافريـن مـن المسـتقدمين، فينبغـي للعقـلاء أن يعتـبروا بسـنة اللـه وأيامـه في عبـاده ودأب الأمـم وعاداتهـم»[١].

وقـد تبطـئ هـذه السـنّة فـلا تتحقّـق سريعًـا، أو تتحقّـق بصـورة قـد لا يدركهـا البـشر، ولكـن المؤمنـين الصادقـين يوقنـون أنّ النـصر آتٍ لا محالـة، وأنـه هـو سـنة اللـه - عـز وجـل - التـي لا تتبـدّل ولا تتخلّـف.

يقـول شـيخُ الإسـلام مبيّنًـا هـذا المعنـى عنـد حديثـه عـن قولـه تعـالى: ﴿حَتَّـى إِذَا اسْـتَيْأَسَ الرُّسُـلُ﴾ [يوسـف: ١١٠]: «فمـن المعلـوم أنّ اللـه إذا وعـد الرسـل والمؤمنـين بنـصر مطلق- كـما هو غالـب إخباراته- لم يقيّـد زمانـه ولا مكانـه ولا سـنته ولا صفتـه، فكثـيرًا مـا يعتقـد النـاس في الموعـود بـه صفـات أخـرى لم ينـزل عليهـا خطـاب الحـقّ، بـل اعتقدوهـا بأسـباب أخـرى كـما اعتقـد طائفـةٌ مـن الصحابـة إخبـار النبـي ﷺ لهـم أنهـم يدخلـون المسـجد الحـرام ويطوفـون بـه أنّ ذلـك يكـون عـام الحديبيـة؛ لأن النبـي ﷺ خـرج معتمـرًا، ورجـا أن يدخـل مكّـة ذلـك العـام ويطـوف ويسـعى، فلـمّا استيأسـوا مـن دخولـه مكـة ذلـك العـام- لمّـا صدّهـم المشركـون حتـى قاضاهـم النبـي ﷺ عـلى الصلـح المشـهور- بقـي في قلـبِ بعضهـم شيء حتـى قـال عمـر للنبـي ﷺ: ألم تخبرنـا أنـا ندخـل البيـت ونطـوف؟ قـال: بـلى، فأخبرتـك أنـك تدخلـه هـذا العـام؟ قـال: لا. قـال: فإنـك داخلـه ومطـوّف بـه». وكذلـك قـال لـه أبـو بكـر[٢].

ويتحـدّث شـيخُ الإسـلام في موضـعٍ آخـر مؤكّـدًا عـلى هـذا المعنـى مـن أنّ وعـد اللـه بالنـصر للمؤمنـين الصادقـين لا بـدّ أن يتحقّـق، وإنْ ظـنّ النـاس خـلاف ذلـك، ويبـيّن أنّ سـبب هـذا الظـنّ الـذي قـد يصيـب بعـض النـاس بسـبب أنّ بـاب الوعـد والوعيـد هـو في الكتـاب بأسـماء مطلقـة للمؤمنـين والصابريـن والمجاهديـن والمحسـنين، فـما أكـثر مَـن يظـنّ مِـن النـاس أنـه مِـن أهـل الوعـد، ويكـون اللفـظ في ظنّـه أنـه متّصـف بمـا يدخـل في الوعـد لا في اعتقـاد صـدق الوعـد في نفسـه، ويـضرب

---

(١) الفتاوى، (٤٢٤/٢٨) وما بعدها.

(٢) الفتاوى، (١٨٤/١٥).

مثالًا على ذلك فيقول: «وهذا كقوله: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ ﴾ [غافر: ٥١]، وقوله: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ﴾ الآيتين [الصافات: ١٧١، ١٧٢]، فقد يظنّ الإنسان في نفسه أو غيره كمال الإيمان المستحقّ للنصر، وأن جند الله الغالبون، ويكون الأمرُ بخلاف ذلك»[١].

وأيضًا يقول شيخ الإسلام: إنّ النصر قد يقع، ويتحقّق موعوده- سبحانه- للإنسان بالنصر، ولكنّه لا يدرك ذلك، فقد يأتي النصر بصورٍ غير مألوفة لا توجد في اعتقادات الناس، ولكن في خيرهم وفلاحهم، فيقول- رحمه الله- في ذلك: «وقد يقع مِن النصر الموعود به ما لا يظنّ أنه مِن الموعود به، فالظنّ المخطئ في فهْم ذلك كثير جدًّا، أكثر مِن باب الأمر والنهي، مع كثرة ما وقع من الغلط في ذلك، وهذا ممّا لا يحصر الغلط فيه إلّا الله- تعالى، وهذا عامّ لجميع الآدميّين؛ لكن الأنبياء- صلوات الله عليهم وسلامه- لا يقرّون؛ بل يتبيّن لهم، وغير الأنبياء قد لا يتبيّن له ذلك في الدنيا، ولهذا كثرَ في القرآن ما يأمر نبيّهﷺ بتصديق الوعد والإيمان، وما يحتاج إليه ذلك مِن الصبر إلى أنْ يجيء الوقت، ومن الاستغفار لزوال الذنوب التي بها تحقيق اتّصافه بصفة الوعد، كما قال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم: ٦٠]، وقال تعالى: ﴿ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ ﴾ الآية [غافر: ٧٧]، والآيات في هذا الباب كثيرة معلومة»[(٢)].

إنّ حال الناس في وقت الأزمات التي تصيب الأمّة يختلف من حيث اختلاف الناس في درجاتهم الإيمانية بين متيقّن من النصر، وبين يائس منه، وبين آخر قد هزّته المفاجأة فلا يدري ماذا يفعل ولا إلى أين يصير، وهنا تظهر قوة المؤمن وثباته الذي هو حتمًا يكون عاملًا من عوامل النصر على الأعداء في كلّ زمان ومكان، وخير تطبيق لهذه الأحوال ما ذكره ابن تيمية من حال الناس عند غزو التتار لهم، وهي حال أشبه بوقت غزوة الأحزاب في عهد رسول الله ﷺ، فالله في كلّ زمان ومكان يثبت المؤمنين ويلهمهم ماذا يفعلون في مثل هذه المواقف

(١) الفتاوى، (١٥/١٩٤).

(٢) الفتاوى، (١٥/١٩٥).

الصعبة، فيكون ذلك من أسباب نصرهم على عدوهم مهما كان ذلك عسيرًا، في حين ترى المنافقين وضعاف الإيمان يتخبطون فيخرج المؤمنون من الأزمة وقد فازوا بالأجر والنصر معًا، أمّا غيرهم فيخرجون من الأزمة صفر اليدين، لا هم فرحون بموعود الله حيث أصابهم الشك فلم يقفوا في صفّ الحقّ، ولا هُم مأجورون على صبرهم وثباتهم.

فإنّ الناس تفرّقوا فيها ما بين شقي وسعيد، كما يتفرّقون كذلك في اليوم الموعود، وفرّ الرجل فيها من أخيه وأمّه وأبيه؛ إذْ كان لكلّ امرئ منهم شأن يغنيه، وكان مِن الناس مَن أقصى همّته النجاة بنفسه لا يلوي على ماله ولا ولده ولا عرسه، كما أنّ منهم مَن فيه قوّة على تخليص الأهل والمال، وآخر فيه زيادة معونة لمَن هو منه ببال، وآخر منزلته منزلة الشفيع المُطاع، وهُم درجات عند الله في المنفعة والدفاع، ولم تنفع المنفعة الخالصة من الشكوى إلّا الإيمان والعمل الصالح والبر والتقوى.

وبليت فيها السرائر، وظهرت الخبايا التي كانت تكنّها الضمائر، وتبين أن البهرج من الأقوال والأعمال يخون صاحبَه أحوج ما كان إليه في المآل، وذم سادته وكبراءه مَن أطاعهم فأضلوه السبيلَ، كما حمد ربّه من صدق في إيمانه فاتّخذ مع الرسول سبيلًا، وبان صدق ما جاءت به الآثار النبوية من الأخبار بما يكون، وواطأتها قلوب الذين هُم في هذه الأمّة محدثون، كما تواطأت عليه المبشرات التي أريها المؤمنون، وتبيّن فيها الطائفة المنصورة الظاهرة على الدين الذين لا يضرّهم مَن خالفهم ولا مَن خذلهم إلى يوم القيامة؛ حيث تحزّبت الناس ثلاثة أحزاب: حزب مجتهد في نصر الدين، وآخر خاذل له، وآخر خارج عن شريعة الإسلام، وانقسم الناس ما بين مأجور ومعذور، وآخر قد غرّه بالله الغرور، وكان هذا الامتحان تمييزًا من الله وتقسيمًا؛ ﴿ لِيَجْزِيَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ إِن شَاء أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٢٤]»[1].

عواملُ النصر:

للنّصر أسبابٌ وعواملُ، منها ما هو مادي ومنها ما هو معنوي.

(١) الفتاوى، (٤٢٧/٢٨) وما بعدها.

أولًا: الأسباب المعنوية:

اتّباع الرسل:

مِن أهم أسباب النصر اتّباع الرسل وتعاليمهم التي أمروا بها قومهم من التمسك بحبل الله، وحسن الاعتماد على الله- عز وجل -، وطاعتهم فيما أمرهم الله به، واتباع سنتهم، والاقتداء بهم في مثل مواقفهم التي سلكوها من قبل، يقول شيخ الإسلام في ذلك: «والله- سبحانه- قد أخبر أنه ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ﴾، [التوبة: ٣٣]، وأخبر أنه ينصر رسله والذين آمنوا في الحياة الدنيا، والله- سبحانه- يجزي الإنسان بجنس عمله؛ فالجزاء من جنس العمل؛ فمن خالف الرسل عوقب بمثل ذنبه؛ فإن كان قد قدح فيهم ونسب ما يقولونه إلى أنه جهل وخروج عن العلم والعقل ابتلي في عقله وعلمه، وظهر من جهله ما عوقب به. ومن قال عنهم: إنهم تعمدوا الكذب أظهر الله كذبه، ومن قال: إنهم جهال أظهر الله جهله؛ ففرعون وهامان وقارون لما قالوا عن موسى: إنه ساحر كذاب أخبر الله بذلك عنهم في قوله: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُّبِينٍ {٤٠/ ٢٣} إِلَى فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ﴾ [غافر: ٢٣-٢٤]، وطلب فرعون إهلاكه بالقتل، وصار يصفه بالعيوب كقوله: ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴾ [غافر: ٢٦]، وقال: ﴿أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: ٥٢]، أهلك الله فرعون وأظهر كذبه وافتراءه على الله وعلى رسله، وأذلّه غاية الإذلال، وأعجزه عن الكلام النافع؛ فلم يبين حجّة.

وفرعون هذه الأمّة، أبو جهل، كان يسمّى أبا الحكم، ولكن النبي ﷺ سمّاه أبا جهل، وهو كما سمّاه رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو جهل أهلك به نفسه وأتباعه في الدنيا والآخرة.

والذين قالوا عن الرسول: إنه أبتر، وقصدوا أنه يموت فينقطع ذكره عوقبوا بانبتارهم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ [الكوثر: ٣]، فلا يوجد من شنأ الرسول إلّا بترَه الله حتى أهل البدع المخالفون لسنته.

قيل لأبي بكر بن عياش: إنّ بالمسجد قومًا يجلسون للناس ويتكلمون بالبدعة. فقال: مَن جلس للناس جلس الناس إليه، لكن أهل السنة يبقون ويبقى ذكرهم، وأهل البدعة يموتون ويموت ذكرهم»[١].

وتحدّث شيخُ الإسلام في موضع آخر عن هزيمة اليهود، وبيّن أن سببها تكذيبهم للأنبياء، ومخالفتهم لهم، يقول شيخ الإسلام: «فاليهود- من حين ضُربت عليهم الذلّة أينما ثقفوا إلّا بحبل من الله وحبلٍ من الناس- لم يكونوا بمجرّدهم ينتصرون لا على العرب ولا غيرهم، وإنما كانوا يقاتلون مع حلفائهم قبل الإسلام، والذلة ضربت عليهم من حين بعث المسيح - عليه السلام - فكذبوه»[٢].

مِن عوامل النصرِ الجهادُ في سبيل الله:

لقد جعلَ الله - عز وجل - الجهادَ سنّته في هذا الكون للوقوف في وجه الأعداء؛ للحفاظ على أمن الأمّة وأعراضها وضعفائها ومقدراتها، فإذا ترك المسلمون الجهاد وضيّعوا هذه السنة فقد استحقوا عقوبة الله - عز وجل - بأن يسلط عليهم الأعداء، ويرزقهم الذلّ والمهانة، وفي ذلك تحدّث شيخ الإسلام عن فريضة الجهاد وأهميتها في نصر الأمّة في أكثر من موضع، ومن هذه المواضع يقول شيخُ الإسلام: «ولهذا مضت السنّة بأنّ الشروع في العلم والجهاد يلزم كالشروع في الحج، يعني: أنّ ما حفظه من علم الدين وعلم الجهاد ليس له إضاعته؛ لقول النبي ﷺ: (مَن قرأ القرآن ثمّ نسيه لقي الله وهو أجذم) رواه أبو داود[٣]، وقال: (عرضت علي أعمال أمتي- حسنها وسيئها- فرأيت في مساوئ أعمالها الرجل يؤتيه الله آية من القرآن ثمّ ينام عنها حتى ينساها)، وقال: (مَن تعلّم الرمي ثمّ نسيه فليس منا) رواه مسلم[٤].

---

(١) الفتاوى، (١٧١/١٣، ١٧٢، ١٧٣).

(٢) الفتاوى، (٣٠١/١).

(٣) سنن أبي داود، ت: الأرنؤوط، (٢٠٩/٧).

(٤) الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، (٢٤٣/٣٤).

وكذلـك الـشروع في عمـل الجهـاد؛ فـإنّ المسـلمين إذا صافـوا عـدوًّا أو حـاصروا حصنًـا ليـس لهـم الانـصراف عنـه حتـى يفتحـوه، ولـذا قـال النبـي ﷺ: (مـا ينبغـي لنبـي إذا لبـس لأَمَتَـه أن ينزعهـا حتـى يحكـم اللـه بينـه وبـين عـدوه)»[1].

الإخلاصُ والاتحاد

مِـن أسـباب النـصر والتمكـين، الاعتصـامُ بحبـل اللـه وكتابـه، والبعـدُ عـن التعـزّي بعـزاء الجاهليـة، وهـو التعصّـب للقبائـل وغـير القبائـل، والقتـال مـن أجـل ذلـك لا يفلـح عنـد اللـه، أي: لا بـدّ للمجاهـد أن يكـون مخلصًـا للـه- تعـالى- في جهـاده، ويكـون مجاهـدًا لـكي تكـون كلمـةُ اللـه هـي العليـا، عاريًـا مـن حظـوظ الأنفـس، ورغبـات الدنيـا، طامعًـا في ثـواب اللـه ومرضاتـه، ولقـد ذكـر شـيخُ الإسـلام في هـذا كثـيرًا مـن الأحاديـث التـي تؤيّـد هـذا المعنـى، منهـا:

قـال رسـول اللـهﷺ: (إذا التقـى المسـلمان بسـيفيْهما فالقاتـل والمقتـول في النـار). قيـل: يـا رسـول اللـه، هـذا القاتـل، فـما بـال المقتـول؟ قـال: (إنـه أراد قتـل صاحبـه)[2].

من عوامل النصر: الإرادة:

مِـن عوامـل النـصر: الإرادة الصادقـة المنبعثـة مـن الإيمـان باللـه إيمانًـا صادقًـا قويًّـا بأنـه هـو ناصرهـم ومعينهـم ومؤيدهـم، وأنّـه هـو حسـيبهم يعلـم مـا بهـم، وأنهـم بذلـوا كلّ مـا في وسـعهم بعزيمـة وهمـة، فيرحمهـم- سـبحانه- وينـزل عليهـم نـصرَه المبـين، ويؤيّدهـم بجنـود مِـن عنـده، فهـم لم يفعلـوا إلّا كلّ مـا يـرضي اللـه ورسـولَه بنيّـة صالحـة، وهدفهـم نـصرُ ديـن اللـه، ورفـع كلمـة التوحيـد، أو تخليـص الأمّـة مـمّا يلحقهـا مـن فسـاد واعتـداء.

فبـالإرادة وحدَهـا قـد ينـصر اللـهُ المسـلمين عـلى عدوّهـم نـصرًا لم يكونـوا يتوقّعونـه، وبقـوّة وأسـباب لم يكونـوا يعلمونهـا، بـل كانـوا يكرهونهـا، وهـذا مـا حـدث مـع التتـار عنـد غزوهـم لبـلاد الشـام، ولنـترك أحـد المجاهديـن الأعـلام أصحـاب الإرادة القويـة والعزيمـة الثابتـة شـيخ الإسـلام

---

(١) مجموع الفتاوى، (١٨٧/٢٨).

(٢) صحيح البخاري، (١٥/١)، وصحيح مسلم، (٢٢١٣/٤).

ابـن تيميـة، والـذي يشـبه هزيمـة التتـار بغـزوة الأحـزاب عندمـا هـزم اللـه المشركـين ومـن والاهـم، وفي ذلـك يقـول: «قـد كان بعـض النـاس يكـره تلـك الثلـوج والأمطـار العظيمـة التـي وقعـت في هـذا العـام حتـى طلبـوا الاسـتصحار غـير مـرّة، وكنـا نقـول لهـم: هـذا فيـه خـيرة عظيمـة، وفيـه للـه حكمـة وسرّ فـلا تكرهـوه، فـكان مـن حكمتـه: أنـه فيـما قيـل: أصـاب قـازان وجنـوده حتـى أهلكهـم، وهـو كان فيـما قيـل: سـبب رحيلهـم.

وابتلي به المسلمون ليتبيّن مَن يصبر على أمر الله وحكمه ممّن يفرّ عن طاعته وجهاد عدوه.

وكان مبـدأ رحيـل قـازان فيمَـن معـه مـن أرض الشـام وأراضي حلـب يـوم الاثنـين حـادي عـشر جـمادى الأولى يـوم دخلـتْ مـصر عقيْـب العسـكر، واجتمعـت بالسّـلطان وأمـراء المسـلمين، وألقـى اللـه في قلوبهـم مِـن الاهتـمام بالجهـاد مـا ألقـاه، فلـمّا ثبّـت اللـه قلـوب المسـلمين صرف العـدو جـزاءً منـه، وبيانًـا أنّ النيّـة الخالصـة والهمّـة الصادقـة ينـصر اللـه بهـا، وإن لم يقـعِ الفعـل، وإن تباعـدت الديـار»[1].

الأسبابُ الماديّة للنصر:

للنصر أسبابٌ ماديّة متعدّدة، ومن أهمها:

١- إعدادُ العدّة والسلاح:

لقـد جعـل اللـه - عـز وجـل - القـوةَ الماديـة مـن أسـباب النـصر التـي لا يمكـن الاسـتغناء عنهـا، حيـث قـال- تعـالى- في كتابـه الكريـم: ﴿وَأَعِـدُّواْ لَهُـم مَّـا اسْـتَطَعْتُم مِّـن قُـوَّةٍ﴾ [الأنفـال: ٦٠]، وكلمـة ﴿قُـوَّةٍ﴾ جـاءت نكـرة لتـدلّ عـلى الشـمول لجميـع أنـواع القـوى في كلّ عـصر، وأنّ هـذا الشـمول وهـذا الخلـود مـن مزايـا القـرآن الكريـم، فهـو يـأتي بالكلمـة الواحـدة تحسـبها كغيرهـا مـن الكلـمات، فـإذا تتابعـت العصـور وتطـوّر النـاس مـن حـالٍ إلى حـال وجدتهـا أوسـعَ مـن هـذه العصـور ومِـن تلكُـم التطـورات، فكلمـة القـوّة شـملت مـا عرفـه الصحابـة أيـام الرسـول ﷺ مِـن: سـيف ورمـح ودرع، وهـي تشـمل اليـومَ مـا نعرفـه مـن أسـلحة متطـوّرة، وكلمـة الرمـي التـي فـسر

(١) مجموع الفتاوى، (٤٦٣/٢٨)، والسنن الإلهية في الحياة الإنسانية، ص(١٦٥).

بها الرسول ﷺ القوة التي في الآية تنبيهًا لأهميتها ومكانتها، ولأنها أداة حسمٍ في المعركة تشمل الرمي بالسهام والنبل بالأمس، وتشمل اليوم الرمي بالرصاص أو القنابل أو الصواريخ من البندقية أو المدفعية أو راجمات الصواريخ.

ويقول شيخُ الإسلام مؤكّدًا على أن هذه القوة هي «الرمي»: «الرمي في سبيل الله، والطعن في سبيل الله، والضرب في سبيل الله، كلّ ذلك ممّا أمر الله- تعالى- به ورسوله، وقد ذكر الله- تعالى- الثلاثة فقال تعالى: ﴿فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاء حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ﴾ [محمد: ٤]، وقال تعالى: ﴿ فَاضْرِبُواْ فَوْقَ الأَعْنَاقِ وَاضْرِبُواْ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: ١٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ ﴾ [المائدة: ٩٤]، وقال تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]، وقد ثبت في صحيح مسلم وغيره عن النبي ﷺ أنه قرأ على المنبر هذه الآية فقال: (ألَا إنّ القوة الرمي، ألَا إنّ القوة الرمي، ألَا إنّ القوة الرمي)، وثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال: (ارموا واركبوا، وأنْ ترموا أحبّ إليّ من أن تركبوا، ومَن تعلم الرمي ثمّ نسيه فليس منّا)، وفي رواية: (ومَن تعلم الرمي ثمّ نسيه فهي نعمة جحدها)، وفي السنن عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال: (كل لهو يلهو به الرجل فهو باطل؛ إلّا رميه بقوسه، وتأديبه فرسه، وملاعبته امرأته، فإنهن من الحق)[١]، وقال: (ستفتح عليكم أرضون، ويكفيكم الله، فلا يعجز أحدكم أن يلهو بأسهمه)[٢].

وقد كشف القرآن الكريم للمؤمنين عن منابع القوة وعناصرها، وأمرهم بالبحث عنها واستخدامها، ومسايرة التقدم البشري، والسبق في الكشف والاختراع والسلطان، وبيّن لهم أنها في الحديد وما يستخرج منه من المصنوعات النافعة بواسطة النار التي هي أقوى منه كنتيجة للفكر والعمل، وأثبت لهم هذه الحقيقة حتى جعلها عقيدة لا قيام لدينهم ولا لدولتهم إلّا

---

(١) مسند أحمد، ط: الرسالة، (٥٣٣/٢٨).

(٢) صحيح مسلم، (١٥٢٢/٣).

بهـا، حيـث أعلمهـم أنـه أنـزل الحديـد مـع الكتـاب إشـارة إلى أن القـوة مـع الحـق، ولا قيـام لـه إلّا بـه، فقـال تعـالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحديـد: ٢٥]، فـلا عـزة إذًا ولا قـوة ولا منعـة إلّا بالحديـد والنـار، وهـذه سـنة اللـه[1].

ولأنّ الحديـد مـن أهـم عنـاصر القـوة وعمادهـا فـلا تخلـو منـه صنعـة أو أسـلحة، ولا تقـوم حيـاة النـاس إلّا بـه، لذلـك ذكـر شـيخُ الإسـلام ذلـك مبينًـا دعائـم الإسـلام، حيـث هـو عـماد الأسـلحة التـي تسـتخدم في جهـاد الأعـداء.

يقـول ابـن تيميـة- رحمـه اللـه: «فالمقصـود أن يكـون الديـنُ كلـه للـه، وأن تكـون كلمـة اللـه هـي العليـا، وكلمـة اللـه: اسـم جامـع لكلماتـه التـي تضمنهـا كتابـه، وهكـذا قـال اللـه- تعـالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ ..﴾ الآيـة، فالمقصـود مـن إرسـال الرسـل وإنـزال الكتـب أن يقـوم الناس بالقسـط في حقوق اللـه وحقـوق خلقـه، ثـمّ قـال تعـالى: ﴿وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ...﴾، فمَـن عـدل عـن الآيـات قـوّم بالحديـد، ولهـذا كان قـوام الديـن بالمصحـف والسـيف»[2].

٢- إعداد المجاهدين عسكريًّا:

«ومِـن الأسـس والقواعـد التـي يقـوم عليهـا النـصر إعـداد القـوة الماديـة، ومـن أهـم إعـدادات القـوة الماديـة إعـدادُ الرجـال المقاتلـين، فالرجـال هُـم أساسًـا عـماد الحـرب وبهـم تكـون، وهـذا الإعـداد يحتـاج إلى تدريـب؛ لأنّ الحـرب تحتـاج إلى نـوعٍ معيّن مـن الرجـال بقـدرات خاصـة تـأتي نتيجـة لإعـدادٍ خـاص بدنيًّـا وفنيًّـا، ومِـن هنـا كان التدريـب ركـنَ الزاويـة في الحـرب.

ونظـرًا لأهميـة التدريـب؛ فقـد حـرص الإسـلام حرصًـا شـديدًا عـلى تنشـئة أبنائـه تنشـئة قويـة في أجسـامهم، أو عـلى إعدادهـم عسـكريًّا بالتدريـب عـلى السـلاح، ومرحلـة الإعـداد هـذه تبـدأ

(١) السنة الإلهية في الحياة الإنسانية، ص(٢٥٢) وما بعدها بتصرف.
(٢) الفتاوى، (٢٨/٦٣-٦٤)، وانظر: السنن الإلهية، ص(٢٥٥) بتصرف.

مـن مرحلـة مبكـرة في حيـاة المسـلم، إنهـا تبـدأ في مرحلـة الطفولـة بـأن يرعـى الآبـاء أبناءهـم برعايـة أجسـامهم لتقـوى، وتدريبهـم عـلى أنـواع الرياضـة مـن السـباحة والرمايـة وركـوب الخيـل والمصارعـة والجـري وغـير ذلـك».

كـما كتـب عمـر لأهـل الشـام يقـول: (علّمـوا أولادكـم السـباحة والرمايـة وركـوب الخيـل)، مـع تعويدهـم عـلى الخشـونة والقسـوة وغـرس معـاني القـوة والرجولـة والجهـاد في نفوسـهم.

ولقـد عـدّد شـيخُ الإسـلام- رحمـه اللـه- الأحاديـث التـي وردت في ذلـك أو التـي كلهـا تدعـو المسـلمين إلى تعلّـم هـذه المهـارات القتاليـة التـي هـي مـن أفضـل الأعـمال؛ لأنهـا مـن أعـمال الجهـاد، والجهـاد أفضـل مـا تطـوّع بـه الإنسـان.

مِن هذه الأحاديث:

في صحيح البخاري عنه ﷺ أنه قال: (ارموا بني إسماعيل؛ فإن أباكم كان راميًا)[1].

ومرّ عـلى نفـرٍ مِـن أسْـلم ينتضّلـون فقـال ﷺ: (ارمـوا بنـي إسـماعيل؛ فـإن أباكـم كان راميًـا، ارمـوا وأنـا مـع بنـي فـلان). فأمسـك أحـد الفريقـين بأيديهـم فقـال: (مـا لكـم لا ترمـون)؟ قالـوا: كيـف نرمـي وأنـت معهـم؟ فقـال: (ارمـوا وأنـا معكـم كلكـم)[2].

وقال ﷺ: (مَن رمى بسهم في سبيل الله- بلغَ العدو أو لم يبلغه- كانت له عدل رقبة).

وفي السّـنن عنـه ﷺ أنـه قـال: (إنّ اللـه يدخـل بالسـهم الواحـد ثلاثـة نفـر الجنـة: صانعـه يحتسـب في صنعتـه الخـير؛ والرامـي بـه، والمُمـدّ بـه)[3].

وفي الصحيحـين عـن النبـي ﷺأنـه قـال: (إنّ في الجنـة مائـة، درجـة مـا بـين الدرجـة إلى الدرجـة كـما بـين السـماء والأرض، أعدّهـا اللـه للمجاهديـن في سـبيله)[4].

(١) صحيح البخاري، (٣٨/٤).
(٢) صحيح البخاري، (١٤٧/٤).
(٣) مسند أحمد، ط: الرسالة، (٥٧١/٢٨).
(٤) صحيح البخاري، (١٦/٤).

٣- الجمع بين القوة الروحية والقوة الماديّة:

إنّ من أهم عوامل النّصر الجمع بين القوتين الروحية والمادية، كما يؤكد الشيخُ هذا بأنه (لن يقوم الدين إلّا بالكتاب والميزان والحديد، كتاب يهدى به، وحديد ينصره، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ [الحديد: ٢٥] فالكتاب به يقوم العلم والدين، والميزان به تقوم الحقوق في العقود المالكية والقبوض، والحديد به تقوم الحدود على الكافرين والمنافقين، ولهذا كان في الأزمان المتأخّرة الكتاب للعلماء والعباد، والميزان للوزراء والكتّاب، وأهل الديوان، والحديد للأمراء والأجناد، والكتاب له الصلاة؛ والحديد له الجهاد؛ ولهذا كان أكثرُ الآيات والأحاديث النبوية في الصلاة والجهاد، وكان النبيﷺيقول في عيادة المريض: «اللّهم اشفِ عبدك يشهد لك صلاة؛ وينكأ لك عدوًّا»[1].

تطبيقاتٌ على سنة الله في النصر:

لقد ذكر شيخُ الإسلام في رسالةٍ كتبها إلى الملك الناصر يهنئه بنصره على التتار، واصفًا فيها حالَ التتار التي أدّت إلى هزيمتهم، وبين فيها سبب نصر الملك الناصر على عدوّه من التتار، ولقد جاء في هذه الرسالة:

«بسم الله الرحمن الرحيم»

مِن الدّاعي أحمد بن تيمية إلى سلطان المسلمين، ومَن أيّد الله في دولته الدين، وأعزّ بها عباده المؤمنين، وقمعَ فيها الكفار والمنافقين والخوارج المارقين، نصره الله، ونصر به الإسلام، وأصلح له وبه أمورَ الخاص والعام، وأحيا به معالم الإيمان، وأقام به شرائع القرآن، وأذلّ به أهلَ الكفر والفسوق والعصيان.

سلامٌ عليكم ورحمة الله وبركاته.

فإنا نحمدُ إليكم الله الذي لا إله إلّا هو، وهو للحمدِ أهل، وهو على كلّ شيء قدير، ونسأله

---

(١) الفتاوى الكبرى لابن تيمية (٥/ ١١٦)

أن يصلي على خاتم النبيين، وإمام المتقين، محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليمًا.

أمّا بعد،

فقد صدقَ الله وعده، ونصر عبدَه، وأعزّ جنده، وهزم الأحزاب وحده، وأنعم الله على السلطان وعلى المؤمنين في دولته نعماً لم تعهد في القرون الخالية، وجدّد الإسلام في أيامه تجديدًا بانت فضيلتُه على الدول الماضية، وتحقّق في ولايته خبرُ الصادق المصدوق أفضل الأوّلين والآخرين الذي أخبر فيه عن تجديد الدين في رءوس المئين.

والله- تعالى- يوزعه والمسلمين شكر هذه النعم العظيمة في الدنيا والدين، ويتمّها بتمام النصر على سائر الأعداء المارقين.

وذلك أنّ السلطان- أتمّ الله نعمته- حصل للأمّة بيُمن ولايته وحسن نيّته وصحة إسلامه وعقيدته وبركة إيمانه ومعرفته وفضل همته وشجاعته وثمرة تعظيمه للدين وشرعته ونتيجة اتباعه كتاب الله وحكمته؛ ما هو شبيهٌ بما كان يجري في أيام الخلفاء الراشدين، وما كان يقصده أكابرُ الأئمة العادلين من جهاد أعداء الله المارقين من الدين.. «[1].

وهكذا يتّضح لنا من خلال قراءة هذه الرسالة وضع أيدينا على أسباب النصر، وهي:

١- إحياء معالم الإيمان.

٢- إقامة شرائع القرآن.

٣- يمن ولايته وحسن نيته.

٤- صحة إسلام القائد وعقيدته.

٥- بركة إيمان القائد ومعرفته.

٦- همة القائد وشجاعته.

٧- تعظيمه للدين وشرعته.

٨- قيامه لفريضة الجهاد.

---

(١) الفتاوى، (٣٩٨/٢٨-٣٩٩).

كما وضّح- أيضًا- الأسباب التي أدّت إلى هزيمة التتار مثل أنهم: «أهل الفجور والطغيان، وذوو الغي والعدوان، الخارجون عن شرائع الإيمان طلبًا للعلو في الأرض والفساد، وتركًا لسبيل الهدى والرشاد».

أو أنّهم الأعداء «أهل البدع المارقون، وذوو الضلال المنافقون الخارجون عن السنة والجماعة، المفارقون للشرعة والطاعة»(١).

ولقد جعل شيخُ الإسلام الجهاد سببًا للنصر على الأعداء وحضّ عليه بالحديث في فضله وأهميته، كما ذمّ المتقاعسين عنه، وبيّن أنّ الله - عز وجل - قد ذمهم، وبيّن أنّ الجهاد سببٌ عظيم للمغفرة، وهو الدواء الناجح لكثير من الأدواء(٢)، ومن ذلك يقول شيخ الإسلام: «واعلموا أنّ الجهاد فيه خير الدنيا والآخرة، وفي تركه خسارة الدنيا والآخرة، قال الله- تعالى- في كتابه: ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة: ٥٢]، يعني: إمّا النصر والظفر وإمّا الشهادة والجنة، فمَن عاش مِن المجاهدين كان كريمًا له ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، ومن مات منهم أو قتل فإلى الجنة، قال النبي ﷺ: (يعطى الشهيد ست خصال: يغفر له بأول قطرة من دمه، ويرى مقعده من الجنة، ويكسى حلة من الإيمان، ويزوج ثنتين وسبعين من الحور العين، ويوقى فتنة القبر، ويؤمن من الفزع الأكبر) رواه أهل السنن، وقال ﷺ: (إن في الجنة لمائة درجة، ما بين الدرجة إلى الدرجة كما بين السماء والأرض، أعدها الله - عز وجل - للمجاهدين في سبيله)، فهذا ارتفاع خمسين ألف سنة في الجنة لأهل الجهاد، وقال ﷺ: (مثل المجاهد في سبيل الله مثل الصائم القائم القانت الذي لا يفتر من صلاة ولا صيام)(٣)، وقال رجل: أخبرني بعمل يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: (لا تستطيعه). قال: أخبرني به؟ قال: (هل تستطيع إذا خرج المجاهد أن تصوم لا تفطر وتقوم لا تفتر)؟ قال: لا. قال: (فذلك الذي يعدل الجهاد في سبيل الله)(٤).

(١) الفتاوى، (٣٩٩/٢٨).
(٢) انظر: الفتاوى، (٤١٧/٢٨-٤٢٢).
(٣) صحيح البخاري، (١٦/٤).
(٤) صحيح البخاري، (٤/ ١٥).

وهذه الأحاديث في الصحيحين وغيرهما.

وكذلك اتّفق العلماء- فيما أعلم- على أنه ليس في التطوعات أفضل من الجهاد؛ فهو أفضل من الحج، وأفضل من الصوم التطوع، وأفضل من الصلاة التطوع.

والمرابطة في سبيل الله أفضل من المجاورة بمكة والمدينة وبيت المقدس، حتى قال أبو هريرة - رضي الله عنه -: لأنْ أرابط ليلة في سبيل الله أحبّ إليّ من أن أوافق ليلة القدر عند الحجر الأسود.

فقد اختار الرباطَ ليلة على العبادة في أفضل الليالي عند أفضل البقاع؛ ولهذا كان النبي ﷺ وأصحابه يقيمون بالمدينة دونَ مكة؛ لمعان منها: أنهم كانوا مرابطين بالمدينة؛ فإنّ الرباط هو المقام بمكان يخيفه العدو ويخيف العدو، فمن أقام فيه بنية دفع العدو فهو مرابط والأعمال بالنيات، قال رسول الله ﷺ: (رباط يوم في سبيل الله خيرٌ من ألف يوم فيما سواه من المنازل) رواه أهل السنن وصححوه[1].

وفي صحيح مسلم، عن سلمان، أن النبي ﷺ قال: (رباط يوم وليلة في سبيل الله خيرٌ من صيام شهر وقيامه، ومن مات مرابطًا أجري عليه عمله، وأجري عليه رزقه من الجنة، وأمن الفتّان)[2]، يعني: منكرًا ونكيرًا.

فهذا في الرباط فكيف الجهاد؟

وقال ﷺ: (لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في وجه عبد أبدًا)([3])، وقال: (من اغبرّت قدماه في سبيل الله حرمهما الله على النار) فهذا في الغبار الذي يصيب الوجه والرجل فكيف بما هو أشقّ منه؛ كـ: الثلج والبرد والوحل؟

ولهذا عاب الله - عز وجل - المنافقين الذين يتعلّلون بالعوائق كـ: الحر والبرد؛ فقال - عز وجل -: ﴿فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلاَفَ رَسُولِ اللـهِ وَكَرِهُواْ أَن يُجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي

---

(١) راجع سنن النسائي، (٣٩/٦).

(٢) مستخرج أبي عوانة، (٤٩٧/٤).

(٣) سنن النسائي، (٦/ ١٣).

سَبِيلِ اللّـهِ وَقَالُواْ لاَ تَنفِرُواْ فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ ﴾ [التوبة ٨١]، وهكذا الذين يقولون: لا تنفروا في البرد فيقال: نار جهنم أشدّ بردًا، كما أخرجاه في الصحيحين من النبيﷺ أنه قال: (اشتكت النار إلى ربها فقالت: ربي أكل بعضي بعضًا، فأذن لها بنفسين نفس في الشتاء، ونفس في الصيف، فأشدّ ما تجدون من الحر والبرد فهو من زمهرير جهنم)[1].

فالمؤمن يدفع بصبره على الحر والبرد في سبيل الله حرّ جهنم وبردها، والمنافق يفرّ من حرّ الدنيا وبردها حتى يقع في حر جهنم وزمهريرها.

واعلموا- أصلحكم الله- أنّ النصرة للمؤمنين، والعاقبة للمتقين، وأنّ الله مع الذين اتقوا والذين هُم محسنون.

وهؤلاء القوم مقهورون مقموعون، والله - عز وجل - ناصرنا عليهم، ومنتقم لنا منهم، ولا حول ولا قوة إلّا بالله العلي العظيم.

فأبشروا بنصر الله- تعالى- وبحُسن عاقبته ﴿وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وهذا أمرٌ قد تيقناه وتحقّقناه، والحمد لله رب العالمين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ {١٠/٦١} تُؤْمِنُونَ بِاللَّـهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّـهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ {١١/٦١} يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {١٢/٦١} وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّـهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ {١٣/٦١} يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونوا أَنصَارَ اللَّـهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّـهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّـهِ فَآمَنَت طَّائِفَةٌ مِّن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَت طَّائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ [الصف: ١٠-١٤].

واعلموا- أصلحكم الله- أنّ من أعظم النعم على من أراد الله به خيرًا أنْ أحياه إلى هذا الوقت الذي يجدّد الله فيه الدين، ويحيي فيه شعار المسلمين وأحوال المؤمنين والمجاهدين حتى يكون شبيهًا بالسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار.

(١) صحيح البخاري، (١٢٠/٤)، وصحيح مسلم، (٤٣١/١).

فمَـن قـام في هـذا الوقـت بذلـك كان مِـن التابعـين لهـم بإحسـان الذيـن رضي اللـه عنهـم ورضـوا عنـه، وأعـدّ لهـم جنـات تجـري مـن تحتهـا الأنهـار خالديـن فيهـا أبـدًا، ذلـك الفـوز العظيم.

فينبغـي للمؤمنـين أن يشـكروا اللـه- تعـالى- عـلى هـذه المِحْنـة التـي حقيقتهـا مِنْحـة كريمـة مـن اللـه، وهـذه الفتنـة التـي في باطنهـا نعمـة جسـيمة حتـى واللـه لـو كان السـابقون الأوّلـون مـن المهاجريـن والأنصـار- كأبي بكـر وعمـر وعثـمان وعـلي وغيرهـم- حاضريـن في هـذا الزمـان لـكان مـن أفضـل أعمالهـم جهـاد هـؤلاء القـوم المجرمـين، ولا يفـوت مثـل هـذه الغـزاة إلّا مَـن خـسرت تجارتـه، وسـفّه نفسـه، وحـرم حظًّـا عظيـمًا مـن الدنيـا والآخـرة؛ إلّا أن يكـون ممّـن عـذر اللـه- تعـالى- كـ: المريـض والفقـير والأعمـى وغيرهـم، وإلّا فمَـن كان لـه مـال وهـو عاجـز ببدنـه فليغـزُ بمالـه؛ ففـي الصحيحـين، عـن النبـيﷺ أنـه قـال: (مَـن جهّـز غازيًـا فقـد غـزا، ومَـن خلفـه في أهلـه بخـير فقـد غـزا)[(١)].

ومَـن كان قـادرًا ببدنـه وهـو فقـير فليأخـذ مـن أمـوال المسـلمين مـا يتجهّـز بـه، سـواء كان المأخـوذ زكاة أو صلـة أو مـن بيـت المـال أو غـير ذلـك؛ حتـى لـو كان الرجـل قـد حصـل بيـده مـال حـرام وقـد تعـذّر ردّه إلى أصحابـه لجهلـه بهـم ونحـو ذلـك، أو كان بيـده ودائـع أو رهـون أو عـوار قـد تعـذّر معرفـة أصحابهـا فلينفقهـا في سـبيل اللـه؛ فـإنّ ذلـك مصرفهـا.

ومَـن كان كثـير الذنـوب فأعظـم دوائـه الجهـاد؛ فـإنّ اللـه - عـز وجـل - يغفـر ذنوبـه، كـما أخـبر اللـه في كتابـه بقولـه - عـز وجـل -: ﴿ يَغْفِـرْ لَكُـمْ ذُنُوبَكُـمْ﴾.

ومَـن أراد التخلّـص مـن الحـرام والتوبـة ولا يمكـن ردّه إلى أصحابـه فلينفقـه في سـبيل اللـه عـن أصحابـه؛ فـإنّ ذلـك طريـق حسـنة إلى خلاصـه، مـع مـا يحصـل لـه مـن أجـر الجهـاد».

وأيضًـا ذكـر مـن أسـباب النـصر: الاعتصـام بحبـل اللـه وكتابـه وسـنة رسـوله، والبعـد عـن التعـزّي بعـزاء الجاهليـة، والمقصـود بـه هـو التعصّـب للقبائـل وغيرهـا، والقتـال مـن أجـل ذلـك لا يفلـح عنـد اللـه، وقـال ﷺ: (مـن قتـل تحـت رايـة عميـة يغضـب لعصبيـة ويدعـو لعصبيـة فهـو في النـار) رواه مسـلم، وقـال ﷺ: (مـن تعـزّى بعـزاء أهـل الجاهليـة فأعضـوه بهـنّ أبيـه ولا تكنـوا)، فسـمع أبي بـن

(١) صحيح البخاري، (٢٧/٤)، وصحيح مسلم، (١٥٠٦/٣).

كعب رجلاً يقول: يا لفلان فقال: اعضض أير أبيك. فقال: يا أبا المنذر؛ ما كنت فاحشًا. فقال بهذا أمرنا رسول الله ﷺ. رواه أحمد في مسنده.

ووضح الشيخ: ومعنى قوله: (مَن تعزّى بعزاء الجاهلية)، يعني: يعتزي بعزواتهم، وهي الانتساب إليهم في الدعوة، مثل قوله: يا لقيس، يا ليمن، ويا لهلال، ويا لأسد، فمَن تعصّب لأهل بلدته أو مذهبه أو طريقته أو قرابته أو لأصدقائه دون غيرهم كانت فيه شعبة من الجاهلية، حتى يكون المؤمنون كما أمرهم الله- تعالى- معتصمين بحبله وكتابه وسنة رسوله؛ فإنّ كتابهم واحد ودينهم واحد ونبيّهم واحد وربهم إله واحد لا إله إلّا هو، له الحمد في الأولى والآخرة وله الحكم وإليه ترجعون، قال الله- تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ {١٠٢/٣} وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ وَاذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاء فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ {١٠٣/٣} وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {١٠٤/٣} وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {١٠٥/٣} يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ [آل عمران: ١٠٢-١٠٦]. قال ابن عباس- رضي الله عنهما: تبيضّ وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودّ وجوه أهل الفرقة والبدعة.

فاللهَ الله، عليكم بالجماعة والائتلاف على طاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله؛ يجمع اللهُ قلوبكم، ويكفّر عنكم سيئاتكم، ويحصل لكم خير الدنيا والآخرة[1].

النّصرٌ سنّة إلهية:

لقد خلق الله الكونَ وجعل كلّ ما فيه محكومًا بالسنن والقوانين الإلهية الثابتة التي لا تتغيّر ولا تتبدّل، وقد جعل الله للنصر قوانينَ ثابتة، كما جعل للهزيمة قوانينها، ولقد تحدّث شيخُ الإسلام عن هذه السنّة ووضّح فيها قوانين الله وشريعته الواضحة في النصر والهزيمة، فنراه

---

(١) الفتاوى، (٤٢٣/٢٨)، وصحيح مسلم، (٢٢١٤/٤).

يتحدّث عن ذلك في مواضع متعددة من كتاباته، موضحًا أنّ سنن الله على مرّ العصور والأزمان ثابتة تلحق أول الأمم وآخرها لا تتبدّل، ومن هذا الحديث كلامه الذي أورده عن تفاصيل حرب التّتار مع المسلمين، وما ألحقوه في الأمّة من هزيمة في المعارك، وأخيرًا نال الأمّة الفوز والانتصار على هذا العدو الحاقد، يقول شيخُ الإسلام: «فإنّ هذه الفتنة التي ابتلي بها المسلمون مع هذا العدو المفسد الخارج عن شريعة الإسلام قد جرى فيها شبيه بما جرى للمسلمين مع عدوهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم في المغازي التي أنزل الله فيها كتبه، وابتلى بها نبيه والمؤمنين، ممّا هو أسوة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا إلى يوم القيامة؛ فإنّ نصوص الكتاب والسنة اللذين هما دعوة محمد ﷺ يتناولان عموم الخلق بالعموم اللفظي والمعنوي، أو بالعموم المعنوي... »[1].

مِن أسباب هزيمة المؤمنين:

لقد كثرت وتعدّدت أسباب النصر والهزيمة على مرّ العصور والأزمان، ومنها: عدم الاستعداد الجيد للمعارك، والبعد عن منهج الله وأحكامه، أو التفرقة والضعف بين الصفوف، أو التفرقة والنفاق، أو البخل بالنفقة، أو الجبن والهلع والتقاعس عن الجهاد، ولشيخ الإسلام في ذلك أحاديث منها: كلامه ووصفه لأسباب هزيمة المسلمين أمام التتار في بداية الأمر فيقول- رحمه الله: «وكان هذا مثل حال المسلمين لما انكسروا في العام الماضي، وكانت هزيمة المسلمين في العام الماضي بذنوب ظاهرة وخطايا واضحة من: فساد النيات والفخر والخيلاء والظلم والفواحش والإعراض عن حكم الكتاب والسنة، وعن المحافظة على فرائض الله، والبغي على كثير من المسلمين الذين بأرض الجزيرة والروم، وكان عدوّهم في أول الأمر راضيًا منهم بالموادعة والمسالمة، شارعًا في الدخول في الإسلام، كان مبتدئًا في الإيمان والأمان، وكانوا هم قد أعرضوا عن كثيرٍ من أحكام الإيمان، فكان من حكمة الله ورحمته بالمؤمنين أن ابتلاهم بما ابتلاهم به ليمحّص الله الذين آمنوا، وينيبوا إلى ربهم، وليظهر من عدوهم ما ظهر منه من البغي

(١) الفتاوى، (٤٢٥/٢٨).

والمكر والنكث والخروج عن شرائع الإسلام، فيقوم بهم ما يستوجبون به النصر، وبعدوهم ما يستوجب به الانتقام»[١].

للهزيمة حكمةٌ ربّانية:

إنّ الله - عز وجل - يبتلي الناس بالهزيمة، فيكون ذلك سببَ رجوعهم إلى ربّهم، فيحصل لهم من البركة والخير ما لا يحصل لهم لو انتصروا على عدوهم، يقول في ذلك شيخ الإسلام- رحمه الله- في حديثٍ عن هزيمة المسلمين أمام التتار مقارنة بهزيمتهم في غزوة أحد: «فقد كان في نفوس كثيرٍ من مقاتلة المسلمين ورعيتهم من الشر الكبير ما لو يقترن به ظفر بعدوّهم- الذي هو على الحال المذكورة- لأوجب لهم ذلك من فساد الدين والدنيا ما لا يوصف.

كما أنّ نصر الله للمسلمين يوم بدر كان رحمة ونعمة، وهزيمتهم يوم أحد كان نعمة ورحمة على المؤمنين؛ فإنّ النبي ﷺ قال: (لا يقضي الله للمؤمن قضاء إلّا كان خيرًا، وليس ذلك لأحد إلّا للمؤمن، إن أصابته سراء فشكر الله كان خيرًا له، وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرًا له)»[٢].

تطبيقاتٌ على سنن الله في النصر والهزيمة:

يقول شيخُ الإسلام تطبيقًا على سنّة الله في النصر والهزيمة: «فلمّا كانت حادثة المسلمين عام أول شبيهة بأحد، وكان بعد أحد بأكثر من سنة- وقيل: بسنتين- قد ابتلي المسلمون عام الخندق.

كذلك في هذا العام ابتلي المؤمنون بعدوهم كنحو ما ابتلي المسلمون مع النبي ﷺ عام الخندق، وهي غزوة الأحزاب التي أنزل الله فيها «سورة الأحزاب»، وهي سورة تضمّنت ذكر هذه الغزاة التي نصر الله فيها عبده ﷺ، وأعزّ فيها جنده المؤمنين، وهزم الأحزاب- الذين تحزّبوا عليه- وحده بغير قتال، بل بثبات المؤمنين بإزاء عدوهم.

(١) الفتاوى، (٢٨/٤٣١-٤٣٢).

(٢) الفتاوى، (٢٨/٤٣٢).

ذكـر فيهـا خصائـص رسـول اللـه ﷺ وحقوقـه وحرمتـه وحرمـة أهـل بيتـه لما كان هـو القلـب الـذي نـصره اللـه فيهـا بغـير قتـال، كـما كان ذلـك في غزوتنـا هـذه سـواء، وظهـر فيهـا سرّ تأييـد الديـن كـما ظهـر في غـزوة الخنـدق، وانقسـم النـاس فيهـا كانقسـامهم عـام الخنـدق»[1].

بيْن غزوة الأحزاب ومعركة المغول:

شـيخُ الإسـلام رسـم صـورةً لغـزوة الأحـزاب وقارنهـا بمعركـة المغـول ومـا فيهـا مـن الأحـداث، وسـنذكر مقتطفـاتٍ مِـن كلامـه في ذلـك: «وفي هـذه الحادثـة تحـزّب هـذا العـدو مـن مغـول وغيرهـم مـن أنـواع الـترّك ومـن فـرس ومسـتعربة، ونحوهـم مـن أجنـاس المرتـدة، ومِـن نصـارى الأرْمـن وغيرهـم، ونـزل هـذا العـدو بجانـب ديـار المسـلمين وهـو بـين الإقـدام والإحجـام مـع قلّـة مـن بإزائهـم مـن المسـلمين، ومقصودهـم الاسـتيلاء عـلى الـدار واصطـلام أهلهـا، كـما نـزلَ أولئـك بنواحـي المدينـة بـإزاء المسـلمين.

٢- وكذلـك دام الحصـارُ عـلى المسـلمين عـام الخنـدق- عـلى مـا قيـل- بضعًـا وعشريـن ليلـة. وقيـل: عشريـن ليلـة، وهـذا العـدوّ عـبر الفـرات سـابع عـشر ربيـع الآخـر، وكان أول انصرافـه راجعًـا عـن حلـب لما رجـع مقدّمهـم الكبـير قـازان بمـن معـه يـوم الاثنـين حـادي أو ثـاني عـشر جـمادى الأولى يـوم دخـل العسـكر عسـكر المسـلمين إلى مـصر المحروسـة، واجتمـع بهـم الداعـي وخاطبهـم في هذه القضيـة، وكان اللـه - عـز وجـل - لما ألقـى في قلـوب المؤمنـين مـا ألقـى مـن الاهتـمام والعـزم ألقـى اللـه في قلـوب عدوهـم الـروع والانـصراف.

٣- وكان عـام الخنـدق بـردًا شـديدًا وريحًـا شـديدة منكـرة بهـا صرفَ اللـه الأحـزاب عـن المدينـة، كـما قـال تعـالى: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ﴾ [الأحـزاب: ٩]، وهكـذا هـذا العـام أكـثر اللـه فيـه الثلـج والمطـر والـبرد عـلى خـلاف أكـثر العـادات، حتـى كـره أكـثر النـاس ذلـك، وكنّـا نقـول لهـم: لا تكرهـوا ذلـك؛ فـإنّ للـه فيـه حكمـة ورحمـة.

وكان ذلـك مـن أعظـم الأسـباب التـي صرف اللـه بـه العـدو؛ فإنـه كـثر عليهـم الثلـج والمطـر والـبرد حتـى هلـك مـن خيلهـم مـا شـاء اللـه، وهلـك- أيضًـا- منهـم مَـن شـاء اللـه، وظهـر فيهـم وفي بقيـة

(١) الفتاوى، (٤٣٣/٢٨).

خيْلهـم مـن الضعـف والعجـز بسـبب الـبرد والجـوع مـا رأوا أنهـم لا طاقـة لهـم معـه بقتـال، حتـى بلغنـي عـن بعـض كبـار المقدمـين في أرض الشـام أنـه قـال: لا بيّـض اللـه وجوهنـا، أعدونـا في الثلـج إلى شـعره ونحـن قعـود لا نأخذهـم؟ وحتـى علمـوا أنهـم كانـوا صيـدًا للمسـلمين لـو يصطادونهـم؛ لكـن في تأخـير اللـه اصطيادهـم حكمـة عظيمـة»[1].

وموضـع آخـر تتشـابه فيـه المعركتـان تسـجّله الآيـة الكريمـة في غايـة الروعـة، حيـث يقـول اللـه- تعـالى- في سـورة الأحـزاب: ﴿إِذْ جَاؤُوكُـم مِّـن فَوْقِكُـمْ وَمِـنْ أَسْـفَلَ مِنكُـمْ وَإِذْ زَاغَـتْ الْأَبْصَـارُ وَبَلَغَـتِ الْقُلُـوبُ الْحَنَاجِـرَ وَتَظُنُّـونَ بِاللــهِ الظُّنُونَـا {١٠/٣٣} هُنَالِـكَ ابْتُـلِيَ الْمُؤْمِنُـونَ وَزُلْزِلُـوا زِلْـزَالًا شَـدِيدًا ﴾ [الأحـزاب: ١٠، ١١].

يقـول شـيخُ الإسـلام: «وهكـذا هـذا العـام، جـاء العـدو مـن ناحيتـي علـو الشـام وهـو شـمال الفـرات، وهـو قبـلي الفـرات، فزاغـت الأبصـار زيغًـا عظيـمًا، وبلغـت القلـوب الحناجـر؛ لعظـم البـلاء؛ لا سـيّما لمّـا اسـتفاض الخـبر بانـصراف العسـكر إلى مـصر، وتقـرب العـدو وتوجّهـه إلى دمشـق، وظـنّ النـاس باللـه الظنونـا، هـذا يظـن أنـه لا يقـف قدامهـم أحـد مـن جنـد الشـام حتـى يصطلمـوا أهـل الشـام، وهـذا يظـن أنهـم لـو وقفـوا لكسروهـم كـسرة، وأحاطـوا بهـم إحاطـة الهالـة بالقمـر.

وهذا يظنّ أنّ أرض الشام ما بقيت تسكن ولا بقيت تكون تحت مملكة الإسلام.

وهـذا يظـنّ إنهـم يأخذونهـا، ثـمّ يذهبـون إلى مـصر فيسـتولون عليهـا فـلا يقـف قدامهـم أحـدٌ فيحـدث نفسـه بالفـرار إلى اليمـن ونحوهـا.

وهـذا- إذا أحسـن ظنّـه- قـال: إنهـم يملكونهـا العـام كـما ملكوهـا عـام هولاكـو سـنة سـبع وخمسـين، ثـمّ قـد يخـرج العسـكر مـن مـصر فيسـتنقذها منهـم كـما خـرج ذلـك العـام، وهـذا ظـنّ خيارهـم.

وهـذا يظـنّ أنّ مـا أخـبره بـه أهـل الآثـار النبويـة وأهـل التحديـث والمبـشرات أمـاني كاذبـة وخرافـات لاغيـة، وهـذا قـد اسـتولى عليـه الرّعـب والفـزع حتـى يمـرّ الظـنّ بفـؤاده مـرّ السـحاب ليـس لـه عقـل يتفهـم ولا لسـان يتكلـم.

---

(١) الفتاوى، (٤٥٤/٢٨).

وهـذا قـد تعارضـت عنـده الأمـارات وتقابلـت عنـده الإرادات؛ لا سـيّما وهـو لا يفـرق مـن المبـشرات بـين الصـادق والـكاذب، ولا يميّـز في التحديـث بـين المخطـئ والصائـب، ولا يعـرف النصـوص الأثريـة معرفة العلـماء؛ بـل إمّـا أن يكـون جاهـلاً بهـا، وقـد سـمعها سـماع العـبر، ثـمّ قـد لا يتفطّـن لوجـوه دلالتهـا الخفيـة، ولا يهتـدي لدفـع مـا يتخيـل أنـه معـارض لهـا في بـادئ الرويـة؛ فلذلـك اسـتولت الحـيرة عـلى مَـن كان متّسـماً بالاهتـداء وتراجمـت بـه الآراء تراجـم الصبيـان بالحصبـاء ﴿هُنَالِـكَ ابْتُـلِيَ الْمُؤْمِنُـونَ وَزُلْزِلُـوا زِلْـزَالًا شَـدِيدًا ﴾. ابتلاهـم اللـه بهـذا الابتـلاء الـذي يكفـر بـه خطيئاتهـم، ويرفـع بـه درجاتهـم، وزلزلـوا بما يحصـل لهـم مـن الرجفـات مـا اسـتوجبوا بـه أعـلى الدرجـات.

قـال اللـه- تعـالى: ﴿وَإِذْ يَقُـولُ الْمُنَافِقُـونَ وَالَّذِيـنَ فِي قُلُوبِهِـم مَّـرَضٌ مَّـا وَعَدَنَـا اللـهُ وَرَسُـولُهُ إِلَّا غُـرُورًا ﴾ [الأحـزاب: ١٢]، وهكـذا قالـوا في هـذه الفتنـة فيـما وعدهـم أهـل الوراثـة النبويـة والخلافـة الرسـالية وحـزب اللـه المحدثـون عنـه، حتـى حصـل لهـؤلاء التـأسي برسـول اللـه ﷺ كـما قـال اللـه- تعالى: ﴿لَقَـدْ كَانَ لَكُـمْ فِي رَسُـولِ اللـهِ أُسْـوَةٌ حَسَـنَةٌ ﴾»[١].

قـدّم شـيخ الإسـلام شـبيهًا آخـر بـين المعركتـين، وهـي ظهـور المنافقـين بكـثرة حيـث يقـول اللـه- تعـالى: ﴿إِذْ يَقُـولُ الْمُنَافِقُـونَ وَالَّذِيـنَ فِي قُلُوبِهِـم مَّـرَضٌ غَـرَّ هَـؤُلاء دِينُهُـمْ ﴾ [الأنفـال: ٤٩]، وهـؤلاء فئـة خطـيرة عـلى المجتمـع تعيقهـم عـن تحقيـق التقـدم والرقـي، بـل تسـاعدهم عـلى الهزيمـة بتلونهـم وخيانتهـم وتقاعسـهم وجبنهـم وأهواؤهـم، لذلـك يقـول شـيخُ الإسـلام مبينًـا خطـرَ ذلـك: «عـلى أنّ المـرض والنفـاق في القلـب يوجـب الريـب في الأنبـاء الصادقـة التـي توجـب أمـن الإنسـان مـن الخـوف، حتـى يظنّـوا أنهـا كانـت غـرورًا لهـم كـما وقـع في حادثتنـا هـذه سـواء»[٢].

ويقـول في موضـع آخـر: «وهكـذا لمـا قـدم هـذا العـدو كان مـن المنافقـين مَـن قـال: مـا بقيـت الدولـة الإسـلامية تقـوم فينبغـي الدخـول في دولـة التتار.

وقـال بعـضُ الخاصـة: مـا بقيـت أرض الشـام تسـكَن؛ بـل ننتقـل عنهـا إمّـا إلى الحجـاز واليمـن وإمّـا إلى مـصر.

---

(١) الفتاوى، (٢٨/٤٤٦، ٤٤٧).

(٢) الفتاوى، (٢٨/٤٥٠).

وقال بعضهم: بل المصلحة الاستسلام لهؤلاء كما قد استسلم لهم أهل العراق، والدخول تحت حكمهم .

فهذه المقالاتُ الثلاث قد قيلت في هذه النازلة، كما قيلت في تلك، وهكذا قال طائفة من المنافقين والذين في قلوبهم مرض لأهل دمشق خاصة والشام عامة: لا مقام لكم بهذه الأرض، ونفي المقام بها أبلغ من نفي المقام، وإن كانت قد قرئت بالضم- أيضًا؛ فإن مَن لم يقدر أن يقوم بالمكان فكيف يقيم به؟ قال الله- تعالى: ﴿وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴾ [الأحزاب: ١٣]»[1].

ووضّح شيخُ الإسلام في سياقه لتفسير الآية عن مجاهد والحسن أن معنى ذلك: أن الله يحفظهما، فهُم يقصدون الفرار من الجهاد، ويحتجّون بحجة العائلة.

ويضيف شيخُ الإسلام ذلك الحدث وما انطبق منه على تلك المعركة الدائرة بين المسلمين والتتار فيقول: «وهكذا أصاب كثيرًا من الناس في هذه الغزاة، صاروا يفرّون مِن الثغر إلى المعاقل والحصون وإلى الأماكن البعيدة كمصر، ويقولون: ما مقصودنا إلّا حفظ العيال، وما يمكن إرسالهم مع غيرنا، وهم يكذبون في ذلك؛ فقد كان يمكنهم جعلهم في حصن دمشق لو دنا العدو، كما فعل المسلمون على عهد رسول الله ﷺ، وقد كان يمكنهم إرسالهم والمقام للجهاد، فكيف بمَن فرّ بعد إرسال عياله؟ قال الله- تعالى: ﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَآتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا بِهَا إِلَّا يَسِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٤]، فأخبر أنه لو دخلت عليهم المدينة من جوانبها ثمّ طلبت منهم الفتنة- وهي الافتتان عن الدّين بالكفر أو النفاق- لأعطوا الفتنة، ولجؤوها من غير توقّف.

وهذه حالُ أقوام لو دخل عليهم هذا العدو المنافق المجرم، ثمّ طلب منهم موافقته على ما هو عليه من الخروج عن شريعة الإسلام- وتلك فتنة عظيمة- لكانوا معه على ذلك.

كما ساعدهم في العام الماضي أقوام بأنواع من الفتنة في الدين والدنيا ما بين ترك واجبات وفعل محرمات، إمّا في حق الله، وإمّا في حق العباد، كـ: ترك الصلاة وشرب الخمور وسب

---

(١) الفتاوى، (٢٨/٤٥٠).

السلف وسب جنود المسلمين، والتجسس لهم على المسلمين، ودلالتهم على أموال المسلمين وحريمهم، وأخذ أموال الناس وتعذيبهم وتقوية دولتهم الملعونة، وإرجاف قلوب المسلمين منهم إلى غير ذلك من أنواع الفتنة»[1].

أيضًا من السنن الإلهية في النصر هو عدم الفرار من المعركة، وأنّ مَن يفرّ مِن المعركة لن ينفعه هذا الفرار؛ فالموت قدر لا بدّ منه، فالفرار من الموت كالفرار من الطاعون، ولذلك قال النبي ﷺ: (إذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه)[2]، والفرار من القتل كالفرار من الجهاد، وحرف «لن» ينفي الفعل في الزمن المستقبل، والفعل نكرة، والنكرة في سياق النفي تعمّ جميع أفرادها، فاقتضى ذلك: أنّ الفرار من الموت أو القتل ليس فيه منفعة أبدًا، وهذا خبر الله الصادق، فمن اعتقد أن ذلك ينفعه فقد كذب الله في خبره.

والتجربة تدلّ على مثل ما دل عليه القرآن؛ فإنّ هؤلاء الذين فرّوا في هذا العام لم ينفعهم فرارهم؛ بل خسروا الدين والدنيا وتفاوتوا في المصائب، والمرابطون الثابتون نفعهم ذلك في الدين والدنيا حتى الموت الذي فرّوا منه كثر فيهم، وقلّ في المقيمين، فما منع الهرب من شاء الله، والطالبون للعدو والمعاقبون له لم يمت منهم أحد ولا قتل؛ بل الموت قلّ في البلد من حين خرج الفارون، وهكذا سنة الله قديمًا وحديثًا.

ثمّ قال تعالى: ﴿وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٦] يقول: لو كان الفرار ينفعكم لم ينفعكم إلّا حياة قليلة ثمّ تموتون؛ فإن الموت لا بدّ منه، وقد حكي عن بعض الحمقى أنه قال: فنحن نريد ذلك القليل، وهذا جهل منه بمعنى الآية؛ فإن الله لم يقل: إنهم يمتعون بالفرار قليلاً، لكنه ذكر أنه لا منفعة فيه أبدًا، ثمّ ذكر جوابًا ثانيًا أنه لو كان ينفع لم يكن فيه إلّا متاع قليل، ثمّ ذكر جوابًا ثالثًا وهو أن الفار يأتيه ما قضي له من المضرة، ويأتي الثابت ما قضي له من المسّرة، فقال: ﴿قُلْ مَن ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ اللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٧]، ونظيره: قوله في سياق آيات الجهاد: ﴿أَيْنَمَا

---

(١) الفتاوى، (٤٥٢/٢٨).

(٢) مسند أبي داود الطيالسي (٢/ ٢٢).

تَكُونُواْ يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ﴾ الآية [النساء: ٧٨]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ كَفَرُواْ وَقَالُواْ لإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُواْ فِي الأَرْضِ أَوْ كَانُواْ غُزًّى لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا مَا مَاتُواْ وَمَا قُتِلُواْ لِيَجْعَلَ اللّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾ [آل عمران: ١٥٦]، فمضمون الأمر: أن المنايا محتومة، فكم من حضر الصفوف فسلم، وكم ممّن فرّ من المنية فصادفته، كما قال خالد بن الوليد- لمّا احتضر: لقد حضرت كذا وكذا صفًّا، وإن ببدني بضعًا وثمانين ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح ورمية بسهم، وهأنذا أموت على فراشي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء[1].

ظهر- أيضًا- توافق آخرَ بيْن الغزوتين، وهو وجود المعوقين عن النصر في كلّ معركة، والقائلين لإخوانهم: ارجعوا فلن تستطيعوا أن تفعلوا شيئًا؛ حيث يقول الله- تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ وَالْقَائِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ﴾ [الأحزاب: ١٨]، يقول شيخ الإسلام في هذا المعنى: «فوصف المثبطين عن الجهاد- وهُم صنفان- بأنهم إمّا أن يكونوا في بلد الغزاة، أو في غيره، فإن كانوا فيه عوقوهم عن الجهاد بالقول أو بالعمل أو بهما، وإن كانوا في غيره راسلوهم أو كاتبوهم: بأن يخرجوا إليهم من بلد الغزاة؛ ليكونوا معهم بالحصون أو بالبعد، كما جرى في هذه الغزاة، فإن أقوامًا في العسكر والمدينة وغيرهما صاروا يعوقون من أراد الغزو، وأقوامًا بعثوا من المعاقل والحصون وغيرها إلى إخوانهم: هلمّ إلينا، قال الله- تعالى- فيهم: ﴿وَلَا يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلاً {١٨/٣٣} أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ﴾، أي: بخلاء عليكم بالقتال معكم، والنفقة في سبيل الله، وقال مجاهد: بخلاء عليكم بالخير والظفر والغنيمة.

وهذه حال مَن بخل على المؤمنين بنفسه وماله، أو شحّ عليهم بفضل الله من نصره ورزقه الذي يجريه بفعل غيره؛ فإن أقوامًا يشحون بمعروفهم، وأقوامًا يشحّون بمعروف الله وفضله، وهم الحسّاد»[2].

(١) الفتاوى، (٤٥٤/٢٨).

(٢) الفتاوى، (٤٥٦/٢٨).

من سنن الله في النصر: التثبيت والتأييد للمؤمنين الصادقين في المعركة بجند من عنده، يقول شيخُ الإسلام في هذا المعنى: «فإن الله صرف الأحزاب عام الخندق بما أرسل عليهم من ريح الصبا (ريح شديدة باردة)، وبما فرق به بين قلوبهم حتى شتت شملهم ولم ينالوا خيراً؛ إذ كان همّهم فتح المدينة والاستيلاء عليها وعلى الرسول والصحابة، كما كان همّ هذا العدو فتح الشام والاستيلاء على مَن بها مِن المسلمين، فردّهم الله بغيظهم حيث أصابهم من الثلج العظيم والبرد الشديد والريح العاصف والجوع المزعج ما الله به عليم»[1].

وأيضًا من أسباب النصر: أن الله فرق بين قلوب هؤلاء المغول والكرج، وألقى بينهم تباغضًا وتعاديًا، كما ألقى- سبحانه- عام الأحزاب بين قريش وغطفان وبين اليهود[2].

خاتمةٌ لسنّة الله في النصر:

أفضل ما نختمُ به هذه السنة كلامُ شيخ الإسلام يصف حالَ المسلمين من كلّ زمان ومكان عندما تهبّ عليهم العواصف والمصائب، ثمّ بفضل الله ورحمته أولًا وبإيمانهم الثابت وعقيدتهم الصالحة وتمسّكهم بسنة نبيهم يهديهم الله إلى فعل الصواب والخير، وينصرهم ويثبتهم بجند من عنده- سبحانه هو القادر المعين، يقول شيخ الإسلام: «فإنّ هذه الحادثة كان فيها أمور عظيمة جازت حد القياس، وخرجت عن سنن العادة، وظهر لكلّ ذي عقل من تأييد الله لهذا الدين وعنايته بهذه الأمّة وحفظه للأرض التي بارك فيها للعالمين بعد أن كادَ الإسلام أن ينثلم، وكرّ العدو كرة فلم يلوِ على شيء، وخذل الناصرون فلم يلووا على شيء»[3].

***

(١) الفتاوى، (٤٦٣/٢٨).

(٢) الفتاوى، (٤٦٤/٢٨).

(٣) الفتاوى، (٤٦٦/٢٨-٤٦٧).

المبحثُ الخامسُ عشر

سنّةُ الله في الغرابة

معنى الغرابة: مصدر غرب، والجمعُ غرباء، وهي ما يحيد عن المفهوم العام، وما يجعل الشيء غريبًا عنْ غيره خارجًا عن المألوف، ورجل غُرُب، وغريب: بعيد عن وطنه، والأنثى غريبة، وفي الحديث سئل النبي عن الغرباء، فقال: الذين يحيون ما أمات الناسُ من سنتي.

يقول النبي في الحديث الصحيح: «بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا فطوبى للغرباء»(١).

تحدّث شيخُ الإسلام عن هذه السنة الإلهية، وأن معنى هذه السنّة أنّ الإسلام يعرض له ما يعرض لكلّ الدعوات والرسالات من القوة والضعف والامتداد والانكماش والازدهار والذبول وفق سنة الله التي لا تتبدّل؛ فهو كغيره خاضع لهذه السنن الإلهية التي لا تعامل الناس بوجهين، ولا تكيل لهم بكيلين، فما يجري على الأديان والمذاهب يجري على الإسلام، وما يجري على سائر الأمم يجري على أمّة الإسلام(٢).

وقد تحدّث شيخ الإسلام عن هذه السنة موضحًا إيّاها في فصل كامل بدأ بذلك الحديث، ثمّ ذكر أن هذا الحديث وهذه الغربة لا تقتضي منّا ترك الإسلام، فهذا غير جائز والعياذ بالله، وذكر كثيرًا من الدلالات القرآنية التي توضّح أن الله تعالى لم يقبل العمل إلّا ممّن كان مسلمًا ومات على ذلك، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]، وأكد- أيضًا- أنه ليس معنى أنّ الإسلام غريب أنْ لا نتمسك به، يقول شيخ الإسلام: «ولهذا لما بدأ الإسلام غريبًا لم يكن غيره من الدين مقبولًا، بل قد ثبت في الحديث الصحيح- حديث عياض بن حمار، عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم- عربهم وعجمهم- إلّا بقايا من أهل الكتاب) الحديث، ولا يقتضي

(١) صحيح مسلم، (١٣٠/١).

(٢) فتاوى معاصرة، يوسف القرضاوي، ص(٥٧).

هـذا أنـه إذا صار غريبًـا أن المتمسـك بـه يكـون في شرّ، بـل هـو أسـعد النـاس كـما قـال في تمـام الحديـث: (فطـوبى للغربـاء)، و(طـوبى) مـن الطيـب، قـال تعـالى: ﴿طُـوبَى لَهُـمْ وَحُسْـنُ مَـآبٍ﴾ [الرعـد: ٢٩]، فإنـه يكـون مـن جنـس السـابقين الأولـين الذيـن اتبعـوه لمـا كان غريبًـا، وهـم أسـعد النـاس.

أمّا في الآخرة فهُم أعلى الناس درجة بعد الأنبياء- عليهم السلام.

وأمّـا في الدنيـا فقـد قـال تعـالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا النَّبِـيُّ حَسْـبُكَ اللـهُ وَمَـنِ اتَّبَعَـكَ مِـنَ الْمُؤْمِنِـينَ ﴾ [الأنفـال: ٦٢]، أي: أن اللـه حسـبك وحسـب متبعـك، وقـال تعـالى: ﴿إِنَّ وَلِيِّـيَ اللـهُ الَّـذِي نَـزَّلَ الْكِتَـابَ وَهُـوَ يَتَـوَلَّى الصَّالِحِـينَ ﴾ [الأعـراف: ١٩٦]، وقـال تعـالى: ﴿أَلَيْـسَ اللـهُ بِـكَافٍ عَبْـدَهُ ﴾ [الزمـر: ٣٦]، وقـال: ﴿وَمَـن يَتَّـقِ اللـهَ يَجْعَـل لَّـهُ مَخْرَجًـا {٢/٦٥} وَيَرْزُقْـهُ مِـنْ حَيْـثُ لَا يَحْتَسِـبُ وَمَـن يَتَـوَكَّلْ عَـلَى اللـهِ فَهُـوَ حَسْـبُهُ ﴾ [الطـلاق: ٢-٣]. فالمسـلم المتبـع للرسـول اللـه- تعـالى- حسـبه وكافيـه، وهـو وليـه حيـث كان ومتـى كان.

ولهـذا كان المسـلمون المتمسّـكون بالإسـلام في بـلاد الكفـر لهـم السـعادة كلـما كانـوا أتـم تمسـكًا بالإسـلام، فـإن دخـل عليهـم شرّ كان بذنوبهـم؛ حتـى إن المشركـين وأهـل الكتـاب إذا رأوا المسـلم القائـم بالإسـلام عظّمـوه وأكرمـوه وأعفـوه مـن الأعـمال التـي يسـتعملون بهـا المنتسـبين إلى ظاهـر الإسـلام مـن غـير عمـل بحقيقتـه لم يكـرم.

وكذلـك كان المسـلمون في أول الإسـلام وفي كلّ وقـت، فإنـه لا بـدّ أن يحصـل للنـاس في الدنيـا شرّ، ولله عـلى عبـاده نعـم، لكـن الـشر الـذي يصيـب المسـلم أقـل، والنعـم التـي تصـل إليـه أكـثر، فـكان المسـلمون في أول الإسـلام وإن ابتلـوا بـأذى الكفـار والخـروج مـن الديـار فالـذي حصـل للكفـار مـن الهـلاك كان أعظـم بكثـير، والـذي كان يحصـل للكفـار مـن عـز أو مـال كان يحصـل للمسـلمين أكـثر منـه حتـى مـن الأجانـب، فرسـول اللـه ﷺ- مـع مـا كان المشركـون يسـعون في أذاه بـكل طريـق- كان اللـه يدفـع عنـه ويعـزّه ويمنعـه وينـصره مـن حيـث كان أعـز، قريـش مـا منهـم إلّا مـن كان يحصـل لـه مـن يؤذيـه ويهينـه مـن لا يمكنـه دفعـه إذ لـكل كبـير كبـير يناظـره ويناويـه ويعاديـه، وهـذه حـال مـن لم يتبـع الإسـلام- يخـاف بعضهـم بعضًـا، ويرجـو بعضهـم بعضًـا، وأتباعـه الذيـن هاجـروا إلى

الحبشـة أكرمهـم ملـك الحبشـة وأعزهـم غايـة الإكـرام والعـز، والذيـن هاجـروا إلى المدينـة فكانـوا أكـرم وأعـز.

والـذي كان يحصـل لهـم مـن أذى الدنيـا كانـوا يعوضـون عنـه عاجـلاً مـن الإيمـان وحلاوتـه ولذتـه مـا يحتملـون بـه ذلـك الأذى، وكان أعداؤهـم يحصـل لهـم مـن الأذى والـشرّ أضعـاف ذلـك مـن غـير عـوض لا آجـلاً ولا عاجـلاً؛ إذ كانـوا معاقبـين بذنوبهـم، وكان المؤمنـون مُمتحنـين ليخلـص إيمانهـم وتكفـر سـيئاتهم، وذلـك أن المؤمـن يعمـل للـه، فـإن أوذي احتسـب أذاه عـلى اللـه، وإن بـذل سـعيًا أو مـالاً بذلـه للـه، فاحتسـب أجـره عـلى اللـه.

والإيمـان لـه حـلاوة في القلـب، ولـذة لا يعدلهـا شيء ألبتـة، وقـد قـال النبـي ﷺ (ثـلاث مَـن كـن فيـه وجـد بهـنّ حـلاوة الإيمـان: مَـن كان اللـه ورسـوله أحـب إليـه مـمّا سـواهما، ومَـن كان يحـبّ المـرء لا يحبّـه إلّا للـه، ومَـن كان يكـره أن يرجـع في الكفـر بعـد إذ أنقـذه اللـه منـه كـما يكـره أن يلقـى في النـار) أخرجـاه في الصحيحـين.

وفي صحيح مسلم: (ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد نبيًّا)[١]»[٢].

كيفيةُ تعايش الإنسان مع الغربة:

إنّ الإنسـان المسـلم ينبغـي لـه مـع هـذه الظـروف الصعبـة ألّا ييـأس ولا يقنـط، بـل يكـون إيجابيًّـا يحـاول أن يبـذل جهـده في نـشر دينـه، وتوسـيع مسـاحته في موطنـه، وأن يصـبر عـلى الأذى، كـما صـبر النبـي ﷺ وصحابتـه، يقـول شـيخ الإسـلام عـن هـذا: «وكـما أن اللـه نهـى نبيـه أن يصيبـه حـزن أو ضيـق ممّـن لم يدخـل في الإسـلام في أول الأمـر، فكذلـك في آخـره.

فالمؤمـن منهـيّ أن يحـزن عليهـم، أو يكـون في ضيـق مـن مكرهـم، وكثـير مـن النـاس إذا رأى المنكـر أو تغـير كثـير مـن أحـوال الإسـلام جـزع وكل ونـاح، كـما ينـوح أهـل المصائـب، وهـو منهـيّ

---

(١) صحيح مسلم، (٦٢/١).

(٢) الفتاوى، (٢٩٥/١٨).

عن هذا؛ بل هو مأمور بالصبر والتوكل والثبات على دين الإسلام، وأن يؤمن بأن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، وأن العاقبة للتقوى، وأن ما يصيبه فهو بذنوبه، فليصبر إن وعد الله حقّ، وليستغفر لذنبه، وليسبح بحمد ربه بالعشي والإبكار»[1].

ألّا يغتمّ بقلّة مَن يعرف حقيقة الإسلام، ولا يضيق صدره بذلك، ولا يكون في شك من دين الإسلام، كما كان الأمر حين بدأ، قال تعالى: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُونَ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكَ﴾ [يونس: ٩٤] إلى غير ذلك من الآيات والبراهين الدالة على صحة الإسلام، وكذلك إذا تغرب يحتاج صاحبه من الأدلة والبراهين إلى نظير ما احتاج إليه في أول الأمر، وقد قال الله: ﴿أَفَغَيْرَ اللّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ {١١٤/٦} وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {١١٥/٦} وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٤- ١١٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤][2].

صورُ الغربة التي تعتري الإسلامَ وأهله من الغرباء:

يبيّن الشيخ صورَ الغربة التي تعتري الإسلام فيقول: «وقوله صلى الله عليه وسلم: (ثم يعود غريبًا كما بدأ) يحتمل شيئين: أحدهما: أنه في أمكنة وأزمنة يعود غريبًا بينهم، ثمّ يظهر كما كان في أول الأمر غريبًا، ثمّ ظهر، ولهذا قال: (سيعود غريبًا كما بدأ)، وهو لما بدأ كان غريبًا لا يعرف، ثمّ ظهر وعرف، فكذلك يعود حتى لا يعرف، ثمّ يظهر ويعرف، فيقلّ من يعرفه في أثناء الأمر كما كان مَن يعرفه أولًا.

ويحتمل أنّه في آخر الدنيا لا يبقى مسلم إلّا قليلاً، وهذا إنما يكون بعد الدّجال ويأجوج ومأجوج عند قرب الساعة، وحينئذ يبعث الله ريحًا تقبض روح كلّ مؤمن ومؤمنة، ثمّ تقوم

---

(١) الفتاوى، (٢٩٥/١٨).

(٢) الفتاوى، (٢٩٧/١٨-٢٩٨).

القيامـة، وأمّـا قبـل ذلـك فقـد قـال ﷺ: (لا تـزال طائفـة مـن أمتـي ظاهريـن عـلى الحـقّ لا يضرّهـم مَـن خالفهـم ولا مـن خذلهـم حتى تقـوم السـاعة)[1].

وهـذا الحديـث في الصحيحـين ومثلـه مـن عـدّة أوْجـه، فقـد أخـبر الصـادق المصـدوق أنـه لا تـزال طائفـة ممتنعـة مـن أمتـه عـلى الحـقّ أعـزاء لا يضرهـم المخالـف، ولا خـلاف الخـاذل.

فأمّا بقاء الإسلام غريبًا ذليلًا في الأرض كلها قبل الساعة فلا يكون هذا.

وقولـه ﷺ: (ثـم يعـود غريبًـا كـما بـدأ) أعظـم مـا تكـون غربتـه إذا ارتـد الداخلـون فيـه عنـه، وقـد قـال تعـالى: ﴿مَـن يَرْتَـدَّ مِنكُـمْ عَـن دِينِـهِ فَسَـوْفَ يَـأْتِي اللـهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُـمْ وَيُحِبُّونَـهُ أَذِلَّـةٍ عَـلَى الْمُؤْمِنِـينَ أَعِـزَّةٍ عَـلَى الْكَافِرِيـنَ يُجَاهِـدُونَ فِي سَـبِيلِ اللـهِ وَلاَ يَخَافُـونَ لَوْمَـةَ لآئِـمٍ﴾ [المائـدة: ٥٤]، فهـؤلاء يقيمونه إذا ارتـد عنـه أولئـك، وكذلـك بـدأ غريبًـا ولم يـزل يقـوى حتـى انتـشر، فهكـذا يتغـرب في كثـير مـن الأمكنـة والأزمنـة، ثـمّ يظهـر حتـى يقيمـه اللـه تعـالى، كـما كان عمـر بـن عبـد العزيـز لمّـا ولي قـد تغـرب كثـير مـن الإسـلام عـلى كثـير مـن النـاس حتـى كان منهـم مـن لا يعـرف تحريـم الخمـر، فأظهـر اللـه بـه في الإسـلام مـا كان غريبًـا.

وفي السـنن: «إن اللـه يبعـث لهـذه الأمّـة عـلى رأس كلّ مائـة سـنة مَـن يجـدّد لهـا دينهـا»[2]، والتجديد إنمـا يكـون بعـد الـدُرُوس، وتلـك هـي غربة الإسـلام.

وقـد تكـون الغربـة في بعـض شرائعـه، وقـد يكـون ذلـك في بعـض الأمكنـة؛ ففـي كثـير مـن الأمكنـة يخفـى عليهـم مـن شرائعـه مـا يصـير بـه غريبًـا بينهـم لا يعرفـه منهـم إلّا الواحـد بعـد الواحـد.

ومـع هـذا فطـوبى لمَـن تمسّـك بتلـك الشريعـة كـما أمـر اللـه ورسـوله؛ فـإن إظهـاره والأمـر بـه والإنـكار عـلى مـن خالفـه هـو بحسـب القـوة والأعـوان، وقـد قـال النبـي ﷺ: (مـن رأى منكـم منكـرًا فليغـيّره بيـده، فـإن لم يسـتطع فبلسـانه، فـإن لم يسـتطع فبقلبـه، وذلـك أضعـف الإيمـان)[3].

(١) صحيح البخاري، (١٠١/٩)، وصحيح مسلم، (١٣٧/١).
(٢) سنن أبي داود: (٤/ ١٠٩)، وقال الألباني: صحيح.
(٣) صحيح مسلم، (٦٩/١).

وإذا قدر أن في الناس من حصل له سوء في الدنيا والآخرة بخلاف ما وعد الله به رسوله وأتباعه فهذا من ذنوبه ونقص إسلامه كالهزيمة التي أصابتهم يوم أحد»[1].

ويقول شيخُ الإسلام- أيضًا- موضّحًا صورة من صور الغربة، وكيفية التعامل معها: «وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة التي يندرس فيها كثير من علوم النبوات حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيرًا ممّا يبعث الله به رسوله، ولا يكون هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يكفر؛ ولهذا اتفق الأئمّة على أن مَن نشأ ببادية بعيدة عن أهل العلم والإيمان وكان حديث العهد بالإسلام فأنكر شيئًا من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة؛ فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول؛ ولهذا جاء في الحديث: (يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة ولا صومًا ولا حجًّا إلّا الشيخ الكبير والعجوز الكبيرة يقول: أدركنا آباءنا وهم يقولون: لا إله إلّا الله وهُم لا يدرون صلاة ولا زكاة ولا حجًّا. فقال: ولا صوم ينجيهم من النار)»[2].

ويبيّن شيخ الإسلام سببَ وصول هؤلاء إلى هذه الحالة من عدم معرفتهم بالدين وأحكامه فيقول: «وهؤلاء الأجناس وإن كانوا قد كثروا في هذا الزمان فلقلة دعاة العلم والإيمان وفتور آثار الرسالة في أكثر البلدان، وأكثر هؤلاء ليس عندهم من آثار الرسالة وميراث النبوة ما يعرفون به الهدى، وكثير منهم لم يبلغهم ذلك»[3].

وقد بيّن شيخ الإسلام طريقة التعامل مع هذه الفئة فيقول: «وفي أوقات الفترات وأمكنة الفترات يثاب الرجل على ما معه من الإيمان القليل، ويغفر الله فيه لمن لم تقم الحجّة عليه ما لا يغفر به لمَن قامت الحجة عليه»[4].

***

(١) الفتاوى، (٢٩٥/١٨-٢٩٩).

(٢) مجموع الفتاوى، (٤٠٧/١١)، وراجع نفس المرجع، (١٠٣/٣٥).

(٣) مجموع الفتاوى، (١٦٥/٣٥).

(٤) السابق جزءًا وصفحة.

المبحثُ السّادس عشر

سنّةُ الله في التمكين

معنى التمكين في اللغة:

يقول ابن سيده: المكانة: هي المنزلة عند الملك، والجمع مكانات، وتمكّن من الشيء واستمكن: ظفر به، والاسم من كلّ ذلك المكانة، ويقال: أمكنني الأمر، ومكنني فهو ممكن[١].

إنّ سنّة التمكين سنة جعلها الله تعالى للمؤمنين الصالحين، حيث يقول عز وجل: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

سنة الله في الخلق ثابتة باقية فمن اتصف بصفات السابقين الذين اتصفوا بالعدل والخير وكان هدفهم الأول والأخير عبادة الله وحده وعدم الشرك به مكنهم الله عز وجل في الأرض، وجعلهم أئمة الهدى لهذه الأمة، وهذا ما حدث للصحابة في عصرهم، وهو الذي سيحدث لكلّ جيل قام بما قام به الصحابة مقتدين مهتدين بهم.

وجيلُ التمكين الذي يمنّ الله عليه بأن يكون سببًا من أسباب نشر دين الله في أرضه وبلاغ رسالته لعباده «هو هذا الجيل الفريد الذي يمكن الله للدين على يديه، تنتظره البشرية عامة، والأمّة المسلمة خاصة، انتظار الظامئ في الهاجرة للماء البارد والوارف الظليل، إنهم المصابيح المنيرة في كلّ عتمة مدلهمة وفتنة مهلكة، هؤلاء هم السائرون على الدّرب النير الواضح عبر العصور، هم الذين لم يركنوا إلى حولهم وقوتهم، ولا اعتمدوا على عقولهم وعلومهم، وإنما شعّ نور الهداية على عقولهم وقلوبهم فاستضاءوا به كما يستضيء المبصرون بنور الشمس، لقد سار

(١) لسان العرب لابن منظور، جـ١٣-١٤، ص(١١٢-١١٣).

هـؤلاء ونـور اللـه يشـع عليهـم، وعنايتـه تكلؤهـم، بينـما النـاس مـن حولهـم الذيـن لم يسـلكوا سـبيلهم يرفضـون أن يسـتضيئوا بنـور السـماء، ويأبـون إلّا أن يعتمـدوا عـلى أنـوار خافتـة باهتـة، لا يسـتطيعون أن يكشـفوا بهـا غياهـب الظـلام، فكانـوا كمـن يمسـك بيـده ذبالـة في ليـل بهيـم عاصـف، بينـما الأولـون يمسـكون بنـور الشـمس السـاطعة، هـؤلاء الذيـن نصـف حالهـم يتفـرّدون عمّـن سـواهم بخصائـص واضحـة، وصفـات بينـة، تجعلهـم يمثلـون في عـالم البـشر نمطًـا فريـدًا.. فـإن لهـم شـخصية محـددة المعـالم، تراهـا في المسـلمين الأوائـل، كالرسـل والأنبيـاء، وأتباعهـم، كـما تجدهـا في الذيـن يتمثلـون الإسـلام بصـدق في هـذه الأمّـة، هـؤلاء هـم جيـل التّمكـين»[١].

إنّ مـن صفـات هـذا الجيـل كـما تحـدّث عنـه شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة أنـه جيـل متمسـك بالشريعـة كـما أمـر اللـه ورسـوله، متمسـك بالأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر، يقـول شـيخ الإسـلام: «فطـوبى لمَـن تمسّـك بتلـك الشريعـة كـما أمـر اللـه ورسـوله»[٢].

أيضًـا أنـه جيـل يحـبّ اللـه تعـالى ويحبهـم اللـه، يقـول شـيخ الإسـلام: «فـإن قيـل: قولـه- تبـارك وتعـالى: ﴿ مَـن يَرْتَـدَّ مِنكُـمْ عَـن دِينِـهِ فَسَـوْفَ يَـأْتِي اللـهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُـمْ وَيُحِبُّونَـهُ ﴾ هـو خطـاب لذلـك القـرن، كقولـه تعـالى: ﴿وَعَـدَ اللـهُ الَّذِيـنَ آمَنُـوا مِنكُـمْ وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ لَيَسْـتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَـمَا اسْـتَخْلَفَ الَّذِيـنَ مِـن قَبْلِهِـمْ﴾ [النـور: ٥٥]، ولهـذا بـين النبـي ﷺ أنهـم أهـل اليمـن الذيـن دخلـوا في الإسـلام لمـا ارتـدّ مَـن ارتـدّ مِـن العـرب، ويـدل عـلى ذلـك أنـه في آخـر الأمـر لا يبقـى مؤمـن.

قيـل: قولـه- تبـارك وتعـالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا ﴾ خطاب لـكلّ مَن بلغـه القرآن من المؤمنين كسـائر أنـواع هـذا الخطـاب، كقولـه تعـالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ إِذَا قُمْتُـمْ إِلَى الصَّـلاةِ﴾ [المائـدة: ٦] وأمثالهـا.

وكذلـك قولـه تعـالى: ﴿وَعَـدَ اللـهُ الَّذِيـنَ آمَنُـوا مِنكُـمْ ﴾، وكلاهـما وقـع ويقـع كـما أخـبر اللـه تعـالى، فإنـه مـا ارتـد عـن الإسـلام طائفـة إلّا أتى اللـه بقـوم يحبهـم يجاهـدون عنـه، وهـم الطائفـة المنصـورة إلى قيام السـاعة»[٣].

---

(١) صفات جيل التمكين في المنظور القرآني، د/ رمضان خميس، ص(١١).

(٢) الفتاوى، (٢٩٨/١٨).

(٣) الفتاوى، (٢٩٩/١٨-٣٠٠).

تبـيّن مـمّا سـبق أنهـم جيـل اختصهـم اللـه بفضلـه ورحمتـه وتمكينـه ونـصره، فهـم الفئـة المنصـورة إلى يـوم القيامـة.

وأيضًـا مــن صفاتهــم الرائعــة أنهــم لا يوالــون اليهــود والنصــارى، فهــم معتــزون بدينهــم في كلّ الأوقـات والأحـوال، وهـو شـغلهم الدائـم، ويوالـون المؤمنـين، ويحرصـون عـلى نفـع النـاس.

يقـول شـيخُ الإسـلام ابـن تيميـة مبيّنًـا أنّ ذكـر الطائفـة المنصـورة جـاء بعـد النهـي عـن مـوالاة اليهـود والنصـارى: «يبـين ذلـك أنـه ذكـر هـذا في سـياق النهـي عـن مـوالاة الكفـار؛ فقـال تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ لاَ تَتَّخِـذُواْ الْيَهُـودَ وَالنَّصَـارَى أَوْلِيَـاء بَعْضُهُـمْ أَوْلِيَـاء بَعْـضٍ وَمَـن يَتَوَلَّهُـم مِّنكُـمْ فَإِنَّـهُ مِنْهُـمْ إِنَّ اللــهَ لاَ يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظَّالِمِـينَ {٥١/٥} فَـتَرَى الَّذِيـنَ فِي قُلُوبِهِـم مَّـرَضٌ يُسَـارِعُونَ فِيهِـمْ يَقُولُـونَ نَخْشَى أَن تُصِيبَنَـا دَآئِـرَةٌ فَعَـسَى اللــهُ أَن يَـأْتِيَ بِالْفَتْـحِ أَوْ أَمْـرٍ مِّـنْ عِنـدِهِ فَيُصْبِحُـواْ عَـلَى مَـا أَسَرُّواْ فِي أَنْفُسِـهِمْ نَادِمِـينَ ﴾ إلى قولـه: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـواْ مَـن يَرْتَـدَّ مِنكُـمْ عَـن دِينِـهِ فَسَـوْفَ يَـأْتِي اللــهُ بِقَـوْمٍ يُحِبُّهُـمْ وَيُحِبُّونَـهُ ﴾ [المائـدة: ٥١-٥٤]، فالمخاطبـون بالنهـي عـن مـوالاة اليهـود والنصـارى هـم المخاطبـون بآيـة الـردّة.

ومعلـومٌ أنّ هـذا يتنـاول جميـع قـرون الأمّـة، وهـو لما نهـى عـن مـوالاة الكفـار، وبـيّن أنّ مَـن تولاهـم مِـن المخاطبـين فإنـه منهـم، بـيّن أنّ مَـن تولاهـم وارتـدّ عـن ديـن الإسـلام لا يـضر الإسـلام شـيئًا، بـل سـيأتي اللـه بقـوم يحبهـم ويحبونـه، فيتولـون المؤمنـين دون الكفـار، ويجاهـدون في سـبيل اللـه لا يخافـون لومـة لائـم، كـما قـال في أول الأمـر: ﴿فَـإِن يَكْفُـرْ بِهَـا هَـؤُلاء فَقَـدْ وَكَّلْنَـا بِهَـا قَوْمًـا لَّيْسُـواْ بِهَـا بِكَافِرِيـنَ ﴾ [الأنعـام: ٨٩]، فهـؤلاء الذيـن لم يدخلـوا في الإسـلام، وأولئـك الذيـن خرجـوا منـه بعـد الدخـول فيـه لا يـضرون الإسـلام شـيئًا، بـل يقيـم اللـه مَـن يؤمـن بمـا جـاء بـه رسـوله، وينـصر دينـه إلى قيـام السـاعة»[١].

إنهـم جيـلٌ لا يسـتبدلون، فهـم ثابتـون عـلى دينهـم وشريعتهـم حتـى يلقـوا اللـه تعـالى، فيدخلهـم الجنـة، بينـما يسـتبدل اللـه غيرهـم ممّـن ذلـوا واتبعـوا الكفـار شـبراً شـبراً، فهـم جيـل يقومـون بالجهـاد وبفرائـض الإسـلام كـما أمـر اللـه تعـالى، يقـول شـيخ الإسـلام: «وأهـل اليمـن هـم ممّـن جـاء اللـه بهـم لمّـا

(١) الفتاوى، (١٨/٣٠٠-٣٠١).

ارتـدّ مَـن ارتـدّ إذ ذاك، وليسـت الآيـة مختصـة بهـم، ولا في الحديـث مـا يوجـب تخصيصهـم، بـل قـد أخبر الله أنـه يـأتي بغير أهـل اليمـن كأبنـاء فـارس لا يختـص الوعـد بهـم، بـل قـد قـال تعـالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ أَرَضِيتُم بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ قَلِيلٌ {٣٨/٩} إِلاَّ تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [التوبـة: ٣٨، ٣٩]، وهـذا- أيضًـا- خطـاب لـكلّ قـرن، وقـد أخـبر فيـه أنـه مَـن نـكل عـن الجهـاد المأمـور بـه عذبـه واسـتبدل بـه مـن يقـوم بالجهـاد، وهـذا هـو الواقـع»[1].

أيضًـا هـو جيـلٌ يعـرف الإنفـاق في سـبيل اللـه، ولا يعـرف البخـل، يقـول شـيخ الإسـلام: «وكذلـك قولـه في الآيـة الأخـرى: ﴿ هَاأَنتُمْ هَؤُلَاء تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنتُمُ الْفُقَرَاء وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ ﴾ [محمـد: ٣٨]، فقـد أخـبر- تعـالى- أنـه مَـن يتـولّ عـن الجهـاد بنفسـه أو عـن الإنفـاق في سـبيل اللـه؛ اسـتُبدل بـه.

فهـذه حـالُ الجبـان البخيـل يسـتبدل اللـه بـه مـن ينـصر الإسـلام وينفـق فيـه، فكيـف تكـون حـال أصـل الإسـلام مَـن ارتـدّ عنـه؟ أتى اللـه بقـوم يحبهـم ويحبونـه أذلـة عـلى المؤمنـين أعـزة عـلى الكافريـن يجاهـدون في سـبيل اللـه ولا يخافـون لومـة لائـم، وهـذا موجـود في أهـل العلـم والعبـادة والقتـال والمـال؛ مـع الطوائـف الأربعـة مؤمنـون مجاهـدون منصـورون إلى قيـام السـاعة، كـما منهـم مَـن يرتـدّ، أو مـن ينـكل عـن الجهـاد والإنفـاق»[2].

ثـمّ يذكـر شـيخُ الإسـلام أن هـذا الجيـل هـو الـذي قـال اللـه فيـه: ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ ﴾ [النـور: ٥٥]، فيقـول معلقًـا: «فهـذا الوعـد مناسـب لـكلّ مَـن اتّصـف بهـذا الوصـف، فلـما اتصـف بـه الأولـون اسـتخلفهم اللـه كـما وعـد، وقـد اتّصـف بعدهـم

(١) الفتاوى، (٣٠١/١٨).

(٢) الفتاوى، (٣٠١/١٨-٣٠٢).

به قوم بحسب إيمانهم وعملهم الصالح، فمن كان أكمل إيمانًا وعمل صالحًا كان استخلافه المذكور أتمّ، فإن كان فيه نقص وخلل كان في تمكينه خلل ونقص، وذلك أن هذا جزاء هذا العمل فمَن قام بذلك العمل استحق ذلك الجزاء.

لكن ما بقي قرن مثل القرن الأول فلا جرم ما بقي قرن يتمكّن تمكّن القرن الأول. قال ﷺ: (خير القرون القرن الذين بعثت فيهم، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم)، ولكن قد يكون هذا لبعض أهل القرن كما يحصل هذا لبعض المسلمين في بعض الجهات، كما هو معروف في كلّ زمان»[١].

***

(١) الفتاوى، (٣٠٣/١٨).

المبحثُ السّابع عشر

سنّةُ الله في الاستبدال

معنى الاستبدال: تبديل الشيء، أي: تغييره، وإن لم تأتِ ببدل، واستبدل الشيء بغيره وتبدل به: إذا أخذ مكانه، قال أبو العباس: وحقيقته: أن التبديل تغيير الصورة إلى صورة أخرى[١].

قضت سنّتُه- تعالى- أن يستبدل مِن الأقوام مَن تولّوا عن شريعته فلم يطبقوها، وكانوا مرتدّين عن الإسلام غير عاملين به، كافرين بنعمة الله في هدايتهم إلى الإيمان به.

قال تعالى: ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾، يقول شيخُ الإسلام موضحًا لهذه الآية: «هو خطاب لذلك القرن كقوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾،النور ٥٥. ولهذا بين النبي ﷺ أنهم أهل اليمن الذين دخلوا في الإسلام لمّا ارتد مَن ارتدّ من العرب، ويدلّ على ذلك أنه في آخر الأمر لا يبقى مؤمن.

قيل: قوله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ خطاب لكل من بلغه القرآن من المؤمنين كسائر أنواع هذا الخطاب، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ ﴾ وأمثالها، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ ﴾[٢].

وكلام الشيخ هذا يوضّح لنا أن الاستبدال سنة جعلها الله لكل زمان ومكان، ثمّ يعقب على الكلام السابق فيقول: «وكلاهما وقع ويقع كما أخبر الله تعالى، فإنه ما ارتد عن الإسلام طائفة إلّا أتى الله بقوم يحبهم يجاهدون عنه، وهم الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة»[٣].

***

(١) لسان العرب، (٣٨/١).

(٢) الفتاوى، (٢٩٩/١٨، ٣٠٠).

(٣) الفتاوى، (٣٠٠/١٨).

المبحثُ الثّامن عشر

سنّةُ الله في التدافع

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴾ [الأنعام: ١١٢].

معنى التدافع في اللغة:

منه دفعت إلى فلان شيئًا، ودفعت الرجل فاندفع، واندفع الفرس؛ أي: أسرع في سيره، اندفعوا في الحديث وتدافع القوم؛ أي: دفع بعضهم بعضًا، وتدافعوا في الحرب؛ أي: دفع بعضهم بعضًا.

وفي الاصطلاح:

هو الصراعُ والقتال بين الناس، بين الخير والشرّ، وبين الحقّ والباطل، بين أمّة وأمّة.

سنّة الله في التدافع سنّة إلهية ثابتة منذ خلق الله الإنسان، فالصراع بين الحقّ والباطل والخير والشرّ موجودٌ منذ القدم، حيث يقول عز وجل: ﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَت صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ [الحج: ٤٠]، وقال تعالى: ﴿ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ ﴾ [البقرة: ٢٥١].

«وقد أضاف الله تعالى الدفع إلى نفسه على قراءة الجمهور فقال: ﴿وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ﴾ في الآيتين؛ ليدلّ على أنّ هذا الدفع سنة منه، وأنه سنة من سُنن الله في الاجتماع البشري الذي أقام عليها دعائم العمران والاستقرار في الوجود، ولولا هذا الدفع- دفع الله الناس بعضهم ببعض- الذي هو دفع أهل الباطل بأهل الحقّ، وأهل الإفساد في الأرض بأهل الإصلاح فيها لغلب أهل الباطل بأهل الحقّ، وأهل الإفساد في الأرض بأهل الإصلاح فيها، لغلب

أهل الباطل والإفساد في الأرض وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم، حتى يكون لهم السلطان وحدهم فتفسد الأرض بفسادهم، وتبطل منافعها وتتعطّل مصالحها، حتى إن أماكن العبادة من الصوامع والبيع والصلوات والمساجد على قداستها وتخصيصها لعبادة الله وذكره لا تسلم من أذاهم، بل تمتد إليها أيدي الظالمين بالهدم والتخريب، ولا يقف أمام هذا الإفساد والتخريب إلّا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول الباطل وأهله، فكان من فضل الله على العالمين وإحسانه إلى الناس أجمعين أنْ شرع لأهل دينه الحقّ المصلحين في الأرض قتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا ﴾ [الحج: ٣٩]، فأهل الحقّ حرب لأهل الباطل في كلّ زمان ومكان، والله ناصرهم ما نصروا الحقّ وأرادوا الإصلاح في الأرض ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾[1].

ولقد تنبّه شيخ الإسلام لهذه السنة وأشار إليها في حديثه عن الإرادة الكونية، وهي الإرادة المستلزمة لوقوع المراد التي يقال فيها: ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فذكر أنّ هذه الإرادة متمثّلة في قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ شَاء اللَّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾، البقرة: ٢٥٣. أي: أن الصراع والاقتتال هو مشيئة الله وسنته في خلقه[2].

«وهذه الآية جزء من قوله- تعالى- الذي ورد في سورة البقرة آية (٢٥٣): ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللَّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾، وفي هذه الآية بيّن عز وجل أنه بالرغم من وحدة الرسل الذين أرسلهم الله للبشر، وبرغم وحدة ما جاءوا به من توحيد الله وإفراده بالعبودية، إلّا أنّ الاختلاف والتقاتل وقع بين أتباعهم وبين سائر البشر وفق مشيئة الله وسنته من خلق الإنسان بتكوينه واستعداده قادرًا على الهدى أو الضلال، ومشيئته عز وجل في اختلاف استعدادات البشر وقواهم وميولهم»[3].

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، (١١١/٢).

(٢) انظر: الفتاوى، (٥٥/٨، ١٨٨).

(٣) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، الظلال، (٢٨٤/١).

وذكر شيخُ الإسلام في موضع آخر أن الآية الكريمة ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نِبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاء رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ {١١٢/٦} وَلِتَصْغَى إِلَيْهِ أَفْئِدَةُ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُواْ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ﴾ جاء بعدها قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنَزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾، ثمّ قال: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلِ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾، وقال تعالى: ﴿ وَاتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴾.

فبيّن أنّ الله عز وجل لا مبدّل لكلماته، وأنها تمّت صدقًا وعدلًا، وأنه قد تواتر عن النبي ﷺ أنه كان يستعيذ ويأمر بالاستعاذة بكلمات الله التامّات، وفي بعض من الأحاديث: «التي لا يجاوزهنّ برّ ولا فاجر»[1].

وفي هذا الكلام إشارةٌ إلى السنن الإلهية، وهذه السنة التي وردت في الآية هي سنة الله في التدافع، حيث بيّنت الآية أنّ الصراع بين الحقّ والباطل سنة إلهية وجدت دائمًا بين البشر، ثمّ ينتصر الحقّ في النهاية في الدنيا وفي الآخرة بالدخول في الجنة والفوز بها، فهذا الاختلاف في المنهج بين الإيمان بالله والكفر به مَدْعاة للتخاصم والنزاع، وعلى المسلمين المؤمنين أن يقوموا بواجبهم بمدافعة أهل الباطل؛ حتى يتحقّق وعد الله لهم بالنصر والتمكين في الأرض طلبًا لرضى الله عز وجل.

***

(١) الفتاوى، (٥٥/٨)، (٤٩٦/١٤، ٤٩٧).

المبحثُ التّاسع عشر

سنّةُ الله في أوليائه

معنى الولاية: الأولياء جمع: ولي، وهو النّصير، والله وليّه، أي: حافظُه، والولي الصالح هو الرجُل المعروف بسيرته المستقيمة وعبادته وسلوكه، والولي: هو التابع المحبّ، وقوله تعالى: ﴿ اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُواْ ﴾ [البقرة: ٢٥٧]. قال أبو إسحاق: الله وليّهم في حجاجهم وهدايتهم وإقامة البرهان لهم؛ لأنه يزيدهم بإيمانهم هداية، كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد: ١٧]، ووليّهم- أيضًا- في نصرهم على عدوّهم، وإظهار دينهم على دين مُخالفيهم، وقيل: وليّهم، أي: يتولّى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم[١].

ممّا لا شكّ فيه أنّ الولاية منزلة عند الله للعبد الصالح تتطلّع إليها القلوب المؤمنة الصالحة؛ لأنّ الله حباها بالجزاء الرّائع والنصرة الدائمة والمساندة في الدنيا والآخرة، وهي منزلة لها سنتها التي لا تتبدّل ولا تتغيّر؛ حيث يقول عز وجل: ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاء اللّهِ لاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ {٦٢/١٠} الَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ {٦٣/١٠} لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لاَ تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ [يونس: ٦٣، ٦٤].

ذكر الله عز وجل في هذه الآية الكريمة أن موعود الله آتٍ لا محالة، وأن أولياء الله تعالى الذين مِن صفتهم أنهم يتّقون الله ويخافونه ويؤمنون به حقّ الإيمان لن ينالوا خوفًا ولا حزنًا، دائمًا فرحون فهم لهم البشرى في الدنيا والآخرة، حيث يلقون الثواب العظيم والأجر الوافر[٢].

***

(١) لسان العرب لابن منظور، جـ١٥-١٦، ص(٢٨٣).

(٢) انظر: الفتاوى، (٤٩٧/١٤).

المبحثُ العشرون

سنّةُ الله في الأنبياء

للأنبياء رسالةٌ عظيمة هدفُها إخراج الناس من ظلمات الكفر والعناد والعبودية لغير الله إلى أنوار الدين، وحرية العبودية لله عز وجل؛ ليكونوا سعداء في الدنيا والآخرة، وليخرجوا من ضيق النفس وظلمها إلى رحابة النفس وعدل الإسلام، لذلك اقتضت سنته عز وجل أنّ «جميع الأنبياء يتعرّضون في دعوتهم للإيذاء والتكذيب، وهذه سنّة إلهيّة لكلّ من يحمل عبء رسالات الأنبياء والدعوة إلى الله؛ أنْ يحكم عليه بالتكذيب والإيذاء بكل أنواعه، سواء كان هذا الإيذاء معنويًّا أم ماديًّا، ولقد تحدّث القرآن الكريم في آيات كثيرة عن صور إيذاء الأنبياء مثل: القتل والإخراج والتكذيب والسخرية والشتم والتعذيب؛ وذلك حتى يعلم الناس أنّ الدين أمرٌ مهمّ في حياتهم لابد أن يدافعوا عنه بأرواحهم وأموالهم وكل ما يملكون؛ حتى ينتشر فتكون كلمة الله هي العليا، وكلمة الكافرين هي السفلى، يقول عز وجل في كتابه الكريم: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُواْ عَلَى مَا كُذِّبُواْ وَأُوذُواْ حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللّهِ وَلَقدْ جَاءكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤]، فبيّنت الآية أن هذه هي حكمته النافذة التي لا تتبدل ولا تتغير، وأن نصر الله عز وجل آتٍ بعد هذا الصبر والتحمل والإيذاء»[١].

ويذكر الشيخُ بعد تفسيره لقوله تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُواْ جَاءهُمْ نَصْرُنَا ﴾ [يوسف: ١١٠]: «وفي قصص هذه الأمور عبرة للمؤمنين بهم؛ فإنهم لا بدّ أن يبتلوا بما هو أكثر من ذلك، ولا ييأسوا إذا ابتلوا بذلك، ويعلمون أنه قد ابتلي به مَن هو خيرٌ منهم، وكانت العاقبة إلى خير، فليتيقن المرتاب، ويتوب المذنب، ويقوى إيمان المؤمنين، فبها يصحّ الاتساء بالأنبياء كما في قوله: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ ﴾»[٢].

(١) انظر: الفتاوى، (٤٩١/١٤).

(٢) الفتاوى، (١٧٨/١٥).

من سُنن الله في البشر أنْ خلقهم أحرارًا:

قد جعل الله عز وجل الحرية والاختيار والإرادة سلوكًا لازمًا للمؤمنين، لم يرغمهم على الإيمان به، أو يجبرهم على فعل الخير، ولكنه- سبحانه- ترك لهم الاختيار، فقال تعالى: ﴿فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ ﴾ [الكهف: ٢٩]، ولكن رحمته- سبحانه- اقتضت ألّا يتركهم همَلًا، فبيّن لهم طريق الخير وحبّبه إلى نفوسهم، وبين لهم الشر وبغضه إلى نفوسهم، وأرسل لهم الأنبياء ليرشدهم، وهذا لا يتعارض مع قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦].

يقول شيخُ الإسلام: «وكذلك ما خلقهم إلّا للعبادة، ثمّ قد يعبدون، وقد لا يعبدون»، ثمّ بيّن أنه- سبحانه- لم يقل: إنّه فعل الأول ليفعل هو الثاني، ولا ليفعل بهم الثاني، فلم يذكرْ أنه خلقهم ليجعلهم هم عابدين؛ فإن ما فعله من الأسباب لما يفعله هو من الغايات يجب أن يفعله لا محالة، ويمتنع أن يفعل أمرًا ليفعل أمرًا ثانيًا، ولا يفعل الأمر الثاني، ولكن ذكر أنه فعل الأول ليفعلوا هم الثاني؛ فيكونون هم الفاعلين له، فيحصل بفعلهم سعادتهم، وما يحبّه ويرضاه لهم، فيحصل ما يحبه هو، وما يحبونه هم، كما تقدم أن كلّ ما خلقه وأمر به غايته محبوبة لله ولعباده، وفيه حكمة له، وفيه رحمة لعباده.

فهذا الذي خلقهم له لو فعلوه لكان فيه ما يحبّه وما يحبّونه، ولكن لم يفعلوه، فاستحقّوا ما يستحقه العاصي المخالف لأمره، التارك فعل ما خلق لأجله من عذاب الدنيا والآخرة، وهو- سبحانه- قد شاء أن تكون العبادة ممّن فعلها، فجعلهم عابدين مسلمين بمشيئته وهداه لهم وتحبيبه إليهم الإيمان؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]، فهؤلاء أراد العبادة منهم خلقًا وأمرًا أمرهم بها؛ وخلقًا جعلهم فاعلين، والصنف الثاني لم يشأ هو أن يخلقهم عابدين، وإن كان قد أمرهم بالعبادة»[1].

(١) الفتاوى، (٨/٥٦-٥٩).

ومثـل هـذه السـنة سـنة اللـه في التسـخير حيـث قـال تعـالى: ﴿كَذَلِـكَ سَـخَّرَهَا لَكُـمْ لِتُكَـبِّرُوا اللَّـهَ عَـلَى مَـا هَدَاكُـمْ ﴾ [الحـج: ٣٧]، أي: جعـل الأنعـام سـخرةً للإنسـان؛ حتـى ينتفـع بهـا، فيحصـل لـه مـن تعظيـم اللـه عـز وجـل وتكبـيره مـا يكـون نتيجـة لانتفاعـه.

مِن سُنن الله في الأنبياء أنّه يؤيّدهم بالمعجزات، وينصرهم على مَن كذّبوهم:

يقـول شـيخُ الإسـلام في كتـاب النبـوّات: «مـن آيـات الأنبيـاء: نصرهـم عـلى قومهـم، وذلـك عـلى وجهـين:

١- إهلاك الأمم وإنجاء الرسل وأتباعهم كـ: قوم نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وموسى.

٢- إظهـار برهـان النبـي بالحجـة والعلـم والقـدرة، كـما أظهـر إبراهيـم عـلى قومـه، فقـد أظهـره عليهـم بالحجـة والعلـم، وأظهـره- أيضًـا- بالقـدرة؛ حيـث أذلّهـم ونـصره، وهـذا مـن جنـس المجاهـد الـذي هـزم عـدوه، وتلـك مـن جنـس المجاهـد الـذي قتـل عـدوه.

وإبراهيـم بعـد هـذا لم يقـمْ بينهـم، بـل هاجـر وتركهـم، وأولئـك الرسـل لم يزالـوا مقيمـين بـين ظهـراني قومهـم حتـى هلكـوا، فلـم يوجـد في حـقّ قـوم إبراهيـم سـبب الهـلاك وهـو إقامتـه فيهـم وانتظـار العـذاب النـازل، وهكـذا محمـد مـع قومـه لم يقـمْ فيهـم، بـل خـرج عنهـم حتـى أظهـره اللـه- تعـالى- عليهـم بعـد ذلـك»[١].

(١) النبوات، ص(٢٠٥، ٢٠٩) بتصرف يسير.

المبحثُ الحادي والعشرون

سنّةُ الله في التداول

معنى التداول في اللغة: الدَّولة والدُّولة: العاقبة في المال والحرب سواء، وقيل: الدُّولة: في المال والدَّولة: في الحرب، وقيل: هما سواء فيهما. قال الجوهري: الدَّولة في الحرب أنْ تُدال إحدى الفئتين على الأخرى، يقال: كانت لنا عليهم الدَّولة، والجمع: الدُّوَل، والدُّولة: في المال، يقال: صار الفيئ دولة بينهم يتداولونه مرّة لهذا ومرّة لهذا، والجمع: دولات ودُوَل، والدَّولة: الانتقال من حال الشدة إلى الرخاء، وتداولنا الأمر: أخذناه بالدول، ودالت الأيام، أي: دارت، والله يداولها بين الناس، ويقال: تداولنا العمل بيننا، بمعنى: تعاورناه[1].

قال تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧]، سنة التداول من السنن الشاملة لكثيرٍ من الاتجاهات، وقد ذكرها القرآن في مواضع متعددة، وكلمة تداول تعني: تعاقب، قال تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ [الحج: ٦١]، أي: يتعاقبان، ويحلّ أحدهما محلّ الآخر، فكما يولج الله الليل والنهار يولج كذلك الحضارات والأمم والأموال، فتزول أمّة وتحلّ أمّة أخرى محلها، وتزول حضارة لتأتي حضارة أخرى أقوى أو أفيد محلّها وهكذا، والتاريخ شاهد على ذلك، وما ذكره القرآن من قصص الغابرين يدلّ على هذا التداول، وأنه تفنى أمّة أو تهلك وتأتي أمّة أخرى تستحق البقاء والوجود، حتى يحلّ بها الفناء فتزول ويأتي غيرها، والعوامل التي تحكم تلك المداولة جاءت في القرآن الكريم في مواضع كثيرة، منها: أنّ صلاح الأمم وإيمانها وقوتها يكون سببًا في بقائها، كما أن ترفَ الأمم وبطرها وكفرها وتكذيبها لرسلها ولليوم الآخر يكون سببًا لفنائها[2].

ولقد أشار شيخُ الإسلام إلى هذه السنة في أثناء حديثه عن كلمات الله التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر، ويقصد السنة الإلهية فذكر هذه الآية: ﴿السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاء مِنكُمْ﴾، أي: حتى لا

---

(١) لسان العرب لابن منظور، جـ٥-٦، ص(٣٢٧-٣٢٨).

(٢) فقه السنن الإلهية ودوره في البناء الحضاري، عادل عيساوي، ص(٢٢٨).

يظل المال في يد الأغنياء يحتكرونه لهم فينقسم الجميع ويصبحوا فئات متفرقة، مجموعة الأغنياء بما تمتلكه من أموال، ودولة الفقراء الذين يعانون النقص في احتياجاتهم الضرورية، فيحقدون على الأغنياء ويظاهرونهم العداء، فيحدث التنافر والتفرقة بين المجتمع، وقد يحدث الاقتتال أو السرقة والفساد، لذلك عالج الله هذا الأمر بأن أمر المؤمنين بإخراج الزكاة والصدقات؛ حتى يسود التعاطف والود في المجتمع عندما يجد الفقراء حاجاتهم التي يحتاجون إليها.

وقد ذكر شيخُ الإسلام في مواضع كثيرة هذا التداول، وأسبابَ بقاء الأمم وفنائها فقال: «إن الله يبقي الدولة الكافرة مع العدل، ويهلك الدول المسلمة مع الظلم»، فأظهر أنّ البقاء يكون بالعدل، وهذا العدل يشمل العدل في جميع المجالات سياسية واقتصادية واجتماعية وغيرها.

وهكذا نجد أن حكمة الله وسنته في رسله وأتباعهم جرت بأن يداولوا مرة ويُدال عليهم أخرى، لكن تكون لهم العاقبة، فإنهم لو انتصروا دائمًا دخل معهم المؤمنون وغيرهم، ولم يتميّز الصادق من غيره، ولو انتصر عليهم دائمًا لم يحصل المقصود من البعثة والرسالة، فاقتضت حكمةُ الله أنْ جمع لهم بين الأمرين؛ ليتميّز مَن يتّبعهم ويطيعهم للحقّ، وما جاءوا به ممّن يتبعهم على الظهور والغلبة خاصة.

ومنها: أنْ يتميّز المؤمن الصادق من المنافق الكاذب؛ فإن المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يوم بدر، وطار بهم الصيت دخل معهم في الإسلام ظاهرًا من ليس معهم باطنًا، فاقتضت حكمة الله تعالى أنه سبب لعباده محنة ميّزت بين المؤمن والمنافق، فأطلع المنافقون رؤوسهم في غزوة أحد، وتكلّموا بما كانوا يكتمونه، وظهرت مخبأتهم، وعاد تلويحهم تصريحًا، وانقسم الناس إلى كافر ومؤمن ومنافق انقسامًا ظاهرًا، وعرف المؤمنون أنّ لهم عدوًّا من نفس دورهم، وهم معهم لا يفارقونهم، فاستعدّوا لهم وتحرّزوا، وبهذا يتميّز المؤمنون من المنافقين، فيعلمهم الله علم رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومين في غيبه، وذلك العلم الغيبي لا يترتب عليه ثواب ولا عقاب، وإنّما يترتب الثواب والعقاب على المعلوم إذا صار مشاهدًا واقعًا في الحسّ[1].

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، (٢/٣٠٣-٣٠٤).

المبحثُ الثّاني والعشرون

سنّةُ الله في الكافرين والمشركين

إنّ الله سبحانه وتعالى خلق الأرض، وخلق آدم عليه السلام وذريته؛ ليقوموا بإعمارها، وليكون الإنسان خليفةَ الله في الأرض، يحيى ويموت تبعًا لأوامر الله تعالى، وما كان للإنسان أن يكفر بالله حرًّا على أرض الله التي خلقها له عابثًا لاهيًا مفسدًا فيها دون أن يرشده الله إلى الحقّ، لذلك اقتضت سنته عز وجل أن يرسل لهم الأنبياء والرسل؛ ليرشدوهم إلى الصواب والحقّ.

ويوضّح لنا شيخ الإسلام هذ المعنى من خلال قوله تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١]: «أي: لم يكونوا متروكين باختيار أنفسهم يفعلون ما يهوونه لا حجر عليهم، كما أنّ المنفكّ لا حجر عليه، وهو لم يقل: «مفكوكين»، بل قال: ﴿مُنفَكِّين ﴾، وهذا أحسن؛ فإنه نفي لفعلهم، ولو قال: «مفكوكين» كان التقدير: لم يكونوا مسيبين مخلّين فهو نفي لفعل غيرهم، والمقصود أنهم لم يكونوا متروكين لا يؤمرون ولا ينهون، ولا ترسل إليهم رسل، بل يفعلون ما شاءوا ممّا تهواه الأنفس.

والمعنى: أنّ الله ما يخليهم ولا يتركهم، فهو لا يفكهم حتى يبعث إليهم رسولًا، وهذا كقوله: ﴿ أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾ [القيامة: ٣٦] لا يؤمر ولا ينهى، أي: أيظنّ أنّ هذا يكون؟ هذا ما لا يكون ألبتة، بل لا بدّ أن يؤمر وينهى.

وقريبٌ من ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ {٣/٤٣} وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ {٤/٤٣} أَفَنَضْرِبُ عَنكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَن كُنتُمْ قَوْمًا مُّسْرِفِينَ ﴾ [الزخرف: ٣-٥]، وهذا استفهام إنكار، أي: لأجل إسرافكم نترك إنزال الذكر، ونعرض عن إرسال الرسل، ومن كره إرسالهم؟

فإنّ الأول تكذيب بوجودهم، والثاني يتضمّن بغضَهم وكراهة ما جاءوا به.

قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩]، وقال عن مؤمن آل فرعون: ﴿وَلَقَدْ جَاءكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَاءكُم بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ [غافر: ٣٤].

وأمّا مَن كذّب بهم بعد الإرسال فكفره ظاهر، ولكن مَن ظنّ أنّ الله لا يرسل إليه رسولًا، وأنّه يترك سدى مهملاً لا يؤمر ولا ينهى فهذا- أيضًا- ممّا ذمّه الله، إذا كان لا بدّ من إرسال الرسل وإنزال الكتب، كما أنه- أيضًا- لا بدّ من الجزاء على الأعمال بالثواب والعقاب وقيام القيامة.

ولهذا ينكر- سبحانه- على مَن ظنّ أنّ ذلك لا يكون، فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاء وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلاً ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ {٢٧/٣٨} أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧-٢٨]، وقال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ {٨٥/١٥} إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلاَّقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر: ٨٥، ٨٦]، وقال: ﴿وَخَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢٢].

وقال عن أولي الألباب: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩١]، ونحوه في القرآن ممّا يبيّن أنّ الأمر والنهي والثواب والعقاب والمعاد ممّا لا بدّ منه، وينكر على مَن ظنّ أو حسب أن ذلك لا يكون، وهو يقتضي وجوب وقوع ذلك، وأنه يمتنع أن لا يقع»[1].

ثمّ يقول الشيخُ مؤكّدًا على ما سبق: إنّ قوله تعالى: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ [البينة: ١] «بيان منه أن الكفار لم يكن الله ليدعهم ويتركهم

(١) الفتاوى، (٤٩٥/١٦-٤٩٧).

على ما هم عليه من الكفر، بل لا يفكهم حتى يرسل إليهم الرسول بشيرًا ونذيرًا ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى ﴾ [النجم: ٣١]، وممّا يبيّن ذلك أن «حتى» حرف غاية، وما بعد الغاية يخالف ما قبلها، كما في قوله: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ﴾ [البقرة: ١٨٧]، وقوله: ﴿حَتَّىَ يَطْهُرْنَ ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقوله: ﴿ حَتَّى تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ ﴾ [البقرة: ٢٣٠]، ونظائر ذلك»[1].

مِن سنّة الله في الكافرين أنْ جعلَ لهم العذاب المقيم في الدنيا والآخرة:

يقول شيخُ الإسلام في قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴾ [التوبة: ٦٨] إنها إشارة إلى ما هو لازم لهم في الدنيا والآخرة من الآلام النفسية: غمًّا وحزنًا، وقسوة وظلمة قلب، وجهلًا، فإنّ للكفر والمعاصي من الآلام العاجلة الدائمة ما الله به عليم، ولهذا تجد غالب هؤلاء لا يطيبون عيشهم إلّا بما يزيل العقل، ويلهي القلب ومن تناول مسكر، أو رؤية مُلْه، أو سماع مطرب، ونحو ذلك وبإزاء ذلك قوله في المؤمنين: ﴿أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّهُ ﴾ [التوبة: ٧١] فإن الله عجّلَ للمؤمنين من الرحمة في قلوبهم، وغيرها بما يجدونه من حلاوة الإيمان ويذوقونه مِن طعمه، وانشراح صدورهم للإسلام، إلى غير ذلك من السرور بالإيمان، والعلم والعمل الصالح، بما لا يمكن وصفه.[2]

***

(١) الفتاوى، (٥٠١/١٦).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم، (١/ ١١٠)

المبحثُ الثّالثُ والعشرون

سنّة الله- تعالى- في المُظهرين للإيمان

مضت سنّةُ الله- تعالى- وإرادته في خلقه أن يمحّصهم، ويُظهر ما في قلوبهم، فيعرف المتقين من المنافقين، وكذلك حتى تتّضح درجات الإيمان، فيأخذوا أجورهم في الجنة بإنصاف تامّ، وكذلك ليعرف الصفّ الإسلامي مَن سيقوم بنصره حقًّا ومَن سيخذله إذا احتاجت الضرورة إلى نصرته، وهذا التّمحيص هو سنة الله المطّردة الثابتة على مرّ الأزمان لكلّ مَن أظهر إيمانه وأصبح في صفّ المؤمنين الطائعين لله تعالى.

يقول شيخُ الإسلام: «وهو- سبحانه- قد ذكر أنّ المُظهرين للإيمان ما كان ليدعهم حتى يميز الخبيثَ من الطيب ويمتحنهم، كما قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ اللهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىَ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وقال: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُواْ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُواْ مِن دُونِ اللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [التوبة: ١٦]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصر اللهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: ٢١٤]»[1].

***

(١) الفتاوى، (٥٠٤/١٦).

المبحثُ الرّابع والعشرون

سنّةُ الله تعالى فيمَن يُعرض عن ذكره

قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {١٢٣/٢٠} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى {١٢٤/٢٠} قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا {١٢٥/٢٠} قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى ﴾ [طه: ١٢٣-١٢٦].

معنى الذّكر في الآية:

يقول شيخُ الإسلام: إنه قد يُقصد بالذكر القرآن، أو ما أنزله من الكتاب؛ فإنّ الذكر مصدر، والمصدر تارة يُضاف إلى الفاعل، وتارة إلى المفعول، فإذا قيل: ذكر الله بالمعنى الثاني كان ما يذكر به مثل قول العبد: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلّا الله والله أكبر.

وإذا قيل: بالمعنى الأوّل كان ما يذكره هو، وهو كلامه وهذا هو المراد في قوله: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي﴾؛ لأنه قال قبل ذلك: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى ﴾، وهداه هو ما أنزله من الذكر، وقال بعد ذلك: ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا ﴾، والمقصود أنْ يعرف أنّ الذكر هو كلامه المنزل، أو هو ذكر العبد له، فسواء قيل: ذكري كتابي أو كلامي أو هداي أو نحو ذلك كان المسمّى واحدًا[١].

أشار شيخُ الإسلام إلى أهمية فهم القرآن، وكيف أنّ حاجة الأمّة ماسّة إلى ذلك، وذكر الآيات التي تبيّن كيف أنه مَن أعرض عن ذكره- سبحانه- كان له مصيرًا لا يحمد وضلالًا لا يداويه إلّا الرجوع إلى ذكره (الذي هو كتابه) بتدبّر وفهم وتطبيق لآياته المحكمات، متمسكين في ذلك بمنهج النبي ﷺ وصحابته؛ فقد أوضح النبي معاني القرآن كما بيّن لهم ألفاظه، كما قال تعالى: ﴿ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ [النحل: ٤٤]، كما قال أبو عبد الرحمن السلمي: حدثنا

(١) الفتاوى، (٣٣٤/١٣، ٣٣٥).

الذين كانوا يقرئوننا القرآن كـ: عثمان بن عفان وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلّموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلّمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا؛ ولهذا كانوا يبقون مدّة في حفظ السورة، وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلّ في أعيننا، وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدّة سنين، قيل: ثمان سنين. ذكره مالك؛ وذلك أنّ الله- تعالى- قال: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص: ٢٩]، وقال: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، وقال: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾، وتدبّر الكلام دونَ فهم معانيه لا يمكن، وكذلك قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وعقل الكلام متضمّن لفهمه[١].

ويقول شيخُ الإسلام مؤكدًا على فهم القرآن، ومبينًا أنه هو الغاية دون سواه: «ومن المعلوم أن كلّ كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه؛ فالقرآن أولى بذلك، وأيضًا فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتابًا في فنٍّ من العلم كـ: الطبّ والحساب ولا يستشرحوه، فكيف بكلام الله الذي هو عصمتهم، وبه نجاتهم وسعادتهم، وقيام دينهم ودنياهم؟»[٢].

ولو رجعنا إلى القرآن وفهمه وكيف أنه يغير حياتنا كلها إلى الأفضل فيتحقّق لنا السعادة في الدنيا والآخرة؛ نجد قولَ النبي ﷺ في وصف القرآن: (إنه هو حبل الله المتين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسن، ولا يخلق عن كثرة الترديد، ولا تنقضي عجائبه، ولا يشبع منه العلماء، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم، ومن تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله)[٣].

ولو تتبّعنا ما ذكره شيخ الإسلام- رحمه الله- من الآيات التي تدلّ على أهمية تدبّر القرآن وفهمه وتطبيقه واتّباع أحكامه (أوامره ونواهيه)، وفهم سننه وقصصه وآدابه، وما احتوى

(١) الفتاوى، (٣٣٠/١٣، ٣٣١).

(٢) الفتاوى، (٣٣٢/١٣).

(٣) الفتاوى، (٣٣٠/١٣). والحديث في مسند الشاميين للطبراني (٣/ ٢٥٨).

عليـه مـن مبـشّرات ومحـذورات وإخبـارات عـن السـاعة واليـوم الآخـر ومقاصـد الآيـات (ومحكمـه ومتشـابهه)، إلى الفوائـد التـي لا تعـدّ ولا تحـصى؛ لعرفنـا مـدى الخطـر الـذي يحيـط بنـا مـن الإعـراض عــن ذكـره الحكيــم، أو ســوء التعامــل مــع كتــاب اللــه، وقــد أوضــح شــيخُ الإســلام في هــذا الجانــب كثـيرًا مـن خـلال كتاباتـه كلهـا موضحًـا شـمولية المنهـج القـرآني لـكلّ الحيـاة، ولا ينبغـي لنـا أن نأخـذ جانبًـا واحـدًا ونـترك الجوانـب الكثـيرة مـن هدايـات القـرآن، وسـنورد الآيـات القرآنيـة متأمّلـين متفهمـين معانيهـا؛ حتـى نـدرك هـذه السـنة، قـال تعـالى: ﴿ فَإِمَّـا يَأْتِيَنَّكُـم مِّنِّـي هُـدًى فَمَـنِ اتَّبَـعَ هُـدَايَ فَـلاَ يَضِـلُّ وَلَا يَشْـقَى {١٢٣/٢٠} وَمَـنْ أَعْـرَضَ عَـن ذِكْـرِي فَـإِنَّ لَـهُ مَعِيشَـةً ضَنـكًا وَنَحْـشُرُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ أَعْمَـى {١٢٤/٢٠} قَـالَ رَبِّ لِـمَ حَشَرْتَنِـي أَعْمَـى وَقَـدْ كُنـتُ بَصِـيرًا {١٢٥/٢٠} قَـالَ كَذَلِـكَ أَتَتْـكَ آيَاتُنَـا فَنَسِـيتَهَا وَكَذَلِـكَ الْيَـوْمَ تُنـسَى ﴾ [طـه: ١٢٣-١٢٦]، فهكـذا هـذا جـزاء المكذبـين المعرضـين عـن كتابـه كليًّـا أو جزئيًّـا، أو مقصريـن في فهمـه وتطبيقـه، الحرمـان مـن السـعادة في الدنيـا، بـل يصيبهـم الشـقاء، ثـمّ الخـزي في الآخـرة، قـال تعـالى: ﴿ قَـدْ جَاءكُـم مِّـنَ اللّــهِ نُـورٌ وَكِتَـابٌ مُّبِـينٌ {١٥/٥} يَهْـدِي بِـهِ اللّــهُ مَـنِ اتَّبَـعَ رِضْوَانَـهُ سُـبُلَ السَّـلاَمِ وَيُخْرِجُهُـم مِّـنِ الظُّلُـمَاتِ إِلَى النُّـورِ بِإِذْنِـهِ وَيَهْدِيهِـمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْـتَقِيمٍ ﴾ [المائـدة: ١٥-١٦] جـاء في هـذه الآيـة المقابلـة بـين النـور والظـلام؛ فالنـور لمـن اتبـع طريقـه المسـتقيم ونهجـه المبـين الموجـود في كتابـه، والظـلام والحـيرة لمـن أعـرض عـن هـذا الخـير، وقـال تعـالى: ﴿ الَـر كِتَـابٌ أَنزَلْنَـاهُ إِلَيْـكَ لِتُخْـرِجَ النَّـاسَ مِـنَ الظُّلُـمَاتِ إِلَى النُّـورِ بِـإِذْنِ رَبِّهِـمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيـزِ الْحَمِيـدِ {١/١٤} اللّــهِ الَّـذِي لَـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الأَرْضِ ﴾ [إبراهيـم: ١-٢]، وقـال تعـالى: ﴿ وَكَذَلِـكَ أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ رُوحًـا مِّـنْ أَمْرِنَـا مَـا كُنـتَ تَـدْرِي مَـا الْكِتَـابُ وَلَا الْإِيمَـانُ وَلَكِـن جَعَلْنَـاهُ نُـورًا نَّهْـدِي بِـهِ مَـنْ نَّشَـاء مِـنْ عِبَادِنَـا وَإِنَّـكَ لَتَهْـدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْـتَقِيمٍ {٥٢/٤٢} صِرَاطِ اللّــهِ الَّـذِي لَـهُ مَـا فِي السَّـمَاوَاتِ وَمَـا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللّــهِ تَصِـيرُ الأُمُـورُ ﴾ [الشـورى: ٥٢-٥٣][1].

مِن سنّته- سبحانه- إرسال الرسل عند الاختلاف والتفرقة:

---

(١) ذكرت الآيات في الفتاوى، (٣٣٠/١٣، ٣٣١).

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللـهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ ﴾ [البقرة: ٢١٣].

ثمّ قال تعالى: ﴿ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللـهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢١٣].

ومثل ذلك: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللـهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاء وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣]، ثمّ قال: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ أُورِثُوا الْكِتَابَ مِن بَعْدِهِمْ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [الشورى: ١٤].

يقول الشيخ السعدي- رحمه الله في تفسير (٢١٣ من سورة البقرة): «إنّ الناس كانوا مُجتمعين على الكفر والضلال والشقاء، ليس لهم نور ولا إيمان، فرحمهم الله- تعالى- بإرسال الرسل إليهم.

﴿ مُبَشِّرِينَ ﴾ من أطاع الله بثمرات الطاعات، من الرزق، والقوة في البدن والقلب، والحياة الطيبة، وأعلى ذلك، الفوز برضوان الله والجنة.

﴿وَمُنذِرِينَ ﴾ من عصى الله بثمرات المعصية، من حرمان الرزق، والضعف، والإهانة، والحياة الضيقة، وأشدّ ذلك سخط الله والنار.

﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ وهو الإخبارات الصادقة، والأوامر العادلة، فكلّ ما اشتملت عليه الكتب فهو حقّ، يفصل بين المختلفين في الأصول والفروع، وهذا هو الواجب عند الاختلاف والتنازع، أن يردّ الاختلاف إلى الله وإلى رسوله، ولولا أن في كتابه وسنة رسوله فصل النزاع، لمَا أمر بالردّ إليهما، ولمَا ذكر نعمته العظيمة بإنزال الكتب على أهل الكتاب، وكان هذا يقتضي اتفاقهم عليها واجتماعهم، فأخبر- تعالى- أنّهم بغى بعضُهم على بعض، وحصل النزاع والخصام وكثرة الاختلاف.

فاختلفوا في الكتاب الذي ينبغي أن يكونوا أولى الناس بالاجتماع عليه، وذلك من بعد ما علموه وتيقّنوه بالآيات البينات، والأدلة القاطعات، فضلّوا بذلك ضلالًا بعيدًا.

﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ من هذه الأمّة ﴿لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾، فكلّ ما اختلف فيه أهل الكتاب، وأخطؤوا فيه الحقّ والصواب، هدى الله للحقّ فيه هذه الأمّة ﴿بِإِذْنِهِ﴾ تعالى، وتيْسييره لهم ورحمته»[١].

أورد الشيخُ ابن تيمية بعض آراء المفسرين التي توضح هذه الآيات، وتفصل في معناها، وذكر رأي ابن أبي العالية من أنّ الله أرسل الرسل وأنزل الكتاب عند الاختلاف ﴿ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ قال: أنزل الكتاب عند الاختلاف ﴿وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلاَّ الَّذِينَ أُوتُوهُ﴾، يعني: بني إسرائيل، أوتوا الكتاب والعلم ﴿ مِن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ﴾ يقول: بغيًا على الدنيا وطلب ملكها وزخرفها وزينتها أيهم يكون له الملك والمهابة في الناس، فبغى بعضهم على بعض، وضرب بعضهم رقاب بعض، ﴿فَهَدَى اللهُ الَّذِينَ آمَنُواْ لِمَا اخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ﴾ يقول: فهداهم الله عند الاختلاف أنهم أقاموا على ما جاءت به الرسل قبل الاختلاف، أقاموا على الإخلاص لله وحده، وعبادته لا شريك له، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وأقاموا على الأمر الأول الذي كان قبل الاختلاف، واعتزلوا الاختلاف، فكانوا شهداء على الناس يوم القيامة، كانوا شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون أن رسلهم قد بلغتهم، وأنهم كذبوا رسلهم[٢].

وهكذا هي سنّته- سبحانه- في جميع المخلوقات، أنهم إذا انتشر فيهم الظلم والبغض واغترّوا بالدنيا وتفرّقوا بعث لهم مَن يجمع شملهم ويوحدهم، وينشر فيهم الخير، ويبعدهم عن الشر، فيستحقون لقب أنهم شهداء على الناس يوم القيامة، وفي زماننا هذا بعد أن جاء نبينا محمد ﷺ ختامًا للأنبياء كان العلماء الربانيون هم الرسل في هذا الكون يقع عليهم عبء

(١) تيسير الكريم الرحمن، ص(٩٥-٩٦).

(٢) الفتاوى، (٥١٤/١٦).

إصلاح النـاس، وردّهـم إلى دينهـم، فيمتنـع التفـرق، وتسـود الوحـدة والخـير، ويتحقّـق الشـهود الحضـاري لهم .

ويقـول شـيخُ الإسـلام: «الاختـلاف في كتـاب اللـه نوعـان: أحدهـما: يـذمّ فيـه المختلفـين كلّهـم كقولـه: ﴿ وَإِنَّ الَّذِيَـن اخْتَلَفُـواْ فِي الْكِتَـابِ لَفِـي شِـقَاقٍ بَعِيـدٍ﴾، وقولـه: ﴿ وَلاَ يَزَالُـونَ مُخْتَلِفِـينَ {١١٨/١١} إِلاَّ مَـن رَّحِـمَ رَبُّـكَ ﴾.

والثـاني: يمـدح المؤمنـين ويـذمّ الكافريـن كقولـه: ﴿وَلَـوْ شَـاء اللـــهُ مَـا اقْتَتَـلَ الَّذِيـنَ مِـن بَعْدِهِـم مِّـن بَعْـدِ مَـا جَاءتْهُـمُ الْبَيِّنَـاتُ وَلَكِـنِ اخْتَلَفُـواْ فَمِنْهُـم مَّـنْ آمَـنَ وَمِنْهُـم مَّـن كَفَـرَ وَلَـوْ شَـاء اللـــهُ مَـا اقْتَتَلُـواْ وَلَكِـنَّ اللـــهَ يَفْعَـلُ مَـا يُرِيـدُ ﴾».

***

المبحثُ الخامسُ والعشرون

سنّةُ الله في شانئ الرسول

ومعنـي شـانئ الرسـول ﷺ، أي: مُبغضـه وكارهـه وذامّـه ومنتقصـه، وهـذه سـنة اللـه- تعـالى- الماضيـة في كلّ مَـن يحـاول الانتقـاص مـن مقـام النبـي ﷺ؛ فهـو يمثـل للأمّـة القـدوة والمعلـم والمـربي.

يقـول شـيخُ الإسـلام: «فإنـه عـز وجـل بـتر شـانئ رسـوله مـن كلّ خـير، فيبـتر ذكـره وأهلـه ومالـه، فيخـسر ذلـك في الآخـرة، ويبـتر حياتـه فـلا ينتفـع بهـا، ولا يتـزود فيهـا صالحًـا لمعـاده، ويبـتر قلبـه فـلا يعـي الخـير، ولا يؤهلـه لمعرفتـه ومحبتـه والإيمـان برسـله، ويبـتر أعمالـه فـلا يسـتعمله في طاعـة، ويبـتره مـن الأنصـار فـلا يجـد لـه نـاصرًا ولا عونًـا، ويبـتره مـن جميـع القـرب والأعـمال الصالحـة فـلا يـذوق لهـا طعـماً، ولا يجـد لهـا حـلاوة، وإن باشرهـا بظاهـره فقلبـه شـارد عنهـا.

وهـذا جـزاء مَـن شـنأ بعـض مـا جـاء بـه الرسـول ﷺ، ورده لأجـل هـواه أو متبوعـه أو شـيخه أو أمـيره أو كبـيره.

كمَـن شـنأ آيـات الصفـات وأحاديـث الصفـات وتأوّلهـا عـلى غـير مـراد اللـه ورسـوله منهـا، أو حملهـا عـلى مـا يوافـق مذهبـه ومذهـب طائفتـه، أو تمنـى أن لا تكـون آيـات الصفـات أنزلـت ولا أحاديـث الصفـات قالهـا رسـول اللـه ﷺ.

ومـن أقـوى علامـات شـناءته لهـا وكراهتـه لهـا أنـه إذا سـمعها حـين يسـتدل بهـا أهـل السـنة عـلى مـا دلّـت عليـه مـن الحـقّ اشـمأز مـن ذلـك، وحـاد ونفـر عـن ذلـك؛ لمـا في قلبـه مِـن البغـض لهـا، والنفـرة عنهـا، فـأي: شـانئ للرسـول أعظـم مـن هـذا.

وكذلـك أهـل السـماع الذيـن يرقصـون عـلى سـماع الغنـاء والقصائـد والدفـوف والشـبابات إذا سـمعوا القـرآن يتـلى ويقـرأ في مجالسـهم اسـتطالوا ذلـك واسـتثقلوه، فـأي شـنآن أعظـم مـن هـذا.

وقسْ على هذا سائر الطوائف في هذا الباب.

وكـذا مَـن آثـر كلام النـاس وعلومهـم عـلى القـرآن والسـنة، فلـولا أنـه شـانئ لما جـاء بـه الرسـول مـا فعـل ذلـك، حتـى إن بعضهـم لينـسى القـرآن بعـد أن حفظـه ويشـتغل بقـول فـلان وفـلان.

ولكـن أعظـم مَـن شـنأه وردّه مـن كفـر بـه وجحـده وجعلـه أسـاطير الأولـين، وسـحرًا يؤثـر، فهـذا أعظـم وأطـمّ انبتـارًا، وكلّ مـن شـنأه لـه نصيـب مـن الانبتـار عـلى قـدر شـناءته لـه، فهـؤلاء لمّـا شـنئوه وعـادوه جازاهـم اللـه بـأن جعـل الخـير كلـه معاديًـا لهـم فبترهـم منـه، وخـصّ نبيّـه ﷺ بضـدّ ذلـك، وهـو أنـه أعطـاه الكوثـر، وهـو مـن الخـير الكثـير الـذي آتـاه اللـه في الدنيـا والآخـرة، فمـمّا أعطـاه في الدنيـا الهـدى والنـصر والتأييـد وقـرة العـين والنفـس وشرح الصـدر ونعـم قلبـه بذكـره وحبّـه بحيـث لا يشـبه نعيمـه نعيـمًا في الدنيـا ألبتـة، وأعطـاه في الآخـرة الوسـيلة والمقـام المحمـود، وجعلـه أول مَـن يفتـح لـه ولأمّتـه بـاب الجنـة، وأعطـاه في الآخـرة لـواءَ الحمـد والحـوض العظيـم في موقـف القيامة إلى غـير ذلك.

وجعـل المؤمنـين كلّهـم أولاده وهـو أبٌ لهـم، وهـذا ضـد حـال الأبـتر الـذي يشـنؤه ويشـنأ مـا جـاء بـه.

وقولـه: ﴿ إِنَّ شَـانِئَكَ﴾، أي: مبغضـك، والأبـتر: المقطـوع النسـل الـذي لا يولـد لـه خـير ولا عمـل صالـح، فـلا يتولـد عنـه خـير ولا عمـل صالـح.

فالحـذر الحـذر- أيّهـا الرجـل- مِـن أن تكـره شـيئًا مـمّا جـاء بـه الرسـول ﷺ، أو تـردّه لأجـل هـواك، أو انتصـارًا لمذهبـك، أو لشـيخك، أو لأجـل اشـتغالك بالشـهوات، أو بالدنيـا؛ فـإن اللـه لم يوجـب عـلى أحـدٍ طاعـة أحـدٍ إلّا طاعـة رسـوله، والأخـذ بمـا جـاء بـه، بحيـث لـو خالـف العبـد جميـع الخلـق واتبـع الرسـول مـا سـأله اللـه عـن مخالفـة أحـد، فـإن مـن يطيـع أو يطـاع إنمـا يطـاع تبعًـا للرسـول، وإلّا لـو أمـر بخـلاف مـا أمـر بـه الرسـول مـا أطيـع.

فاعلـم ذلـك واسـمع وأطـعْ واتّبـع، ولا تبتـدع تكـن أبـترَ مـردودًا عليـك عملـك، بـل لا خـير في عمـل أبـتر مـن الاتبـاع، ولا خـير في عاملـه، واللـه أعلـم»[١].

(١) الفتاوى، (٥٢٦/١٦-٥٢٩).

وفي موضع آخر يقول شيخُ الإسلام: (فمن شنأ شيئًا ممّا جاء به الرسول- صلى الله عليه وسلم- فله من ذلك نصيب؛ فإنّ ما أكرم الله به نبيّه من سعادة الدنيا والآخرة فللمؤمنين المتابعين نصيبٌ بقدر إيمانهم. فما كان من خصائص النبوة والرسالة فلم يشارك فيه أحدٌ من أمّته وما كان مِن ثواب الإيمان والأعمال الصالحة فلكلّ مؤمن نصيب بقدر ذلك)[١].

سنّةُ الله في متّبع الرسول:

وهكذا نجد سُننّ الله- تعالى- الماضية في شانئ الرسول، وما تمضي سننه في شانئه تبدو سننه في متّبعه في كفاية الله له وحفظه وتنوير قلبه بالبصيره والفراسة الصائبة، يحدثنا عن هذا شيخُ الإسلام عند تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأنفال: ٦٤)، فيذكر أن معنى حسبك الله (أي الله كافيك وكافي من اتبعك من المؤمنين، فلو كانت كفايته للمؤمنين المتبعين للرسول سواء اتبعوه أو لم يتّبعوه لم يكن للإيمان واتباع الرسول ثمّ أثر في هذه الكفاية ولا كان لتخصّصهم بذلك معنى، وكان هذا نظير أن يقال هو خالقك وخالق من اتبعك من المؤمنين، ومعلوم أنّ المراد خلاف ذلك، وإذا كان الحسب معنى يختص به بعض الناس علم أن قول المتوكّل حسبي الله، وقوله تعالى ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [سورة الطلاق ٣] أمرٌ مختصّ لا مشترك، وأنّ التوكل سبب ذلك الاختصاص، والله تعالى إذا وعد على العمل بوعدٍ أو خصّ أهلَه بكرامة؛ فلا بدّ أن يكون بين وجود ذلك العمل وعدمه فرق في حصول تلك الكرامة، وإن كان قد يحصل نظيرها بسبب آخر فقد يكفي الله بعضَ مَن لم يتوكل عليه كالأطفال لكن لا بدّ أن يكون للمتوكل أثرٌ في حصول الكفاية الحاصلة للمتوكلين، فلا يكون ما يحصل من الكفاية بالتوكل حاصلاً مطلقًا وإن عدم التوكل)[٢].

وممّا يؤكّد أن الاتّباع ينير بصيرة القلب قوله: (كلّ مَن وافق الرسولﷺ في أمر خالف فيه غيره؛ فهو من الذين اتبعوه في ذلك، وله نصيب من قوله: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا﴾ فإن

---

(١) مجموع الفتاوى، جـ٢٨ صـ٣٨

(٢) جامع الرسائل لابن تيمية: (١/ ٨٩).

المعية الإلهية المتضمنة للنصر هي لما جاء به إلى يوم القيامة، وهذا قد دلّ عليه القرآن، وقد رأينا من ذلك وجرّبنا ما يطول وصفه)[1].

ويقول أيضًا: (وذكر- سبحانه- آية النور عقيب آيات غضّ البصر، فقال: ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وكان شاه بن شجاع الكرماني لا تخطئ له فراسة، وكان يقول: مَن عمر ظاهره باتباع السّنة وباطنه بدوام المراقبة، وغضّ بصره عن المحارم، وكفّ نفسه عن الشهوات، وذكر خصلة خامسة وهي أكلُ الحلال؛ لم تخطئ له فراسة. والله تعالى يجزي العبدَ على عمله بما هو من جنس عمله؛ فغضّ بصره عمّا حرم يعوّضه الله عليه من جنسه بما هو خير منه فيطلق نور بصيرته ويفتح عليه باب العلم والمعرفة والكشوف، ونحو ذلك ممّا ينال ببصيرة القلب)[2].

***

(١) مجموع الفتاوى، جـ٢٨ صـ٣٧

(٢) مجموع الفتاوى، جـ٢١ صـ٢٥٨\٢٥٧.

المبحثُ السّادس والعشرون

من سُنن الله- تعالى- في المخلوقات أنْ خلقهم أزواجًا وأقرانًا

مِـن سـنّته- سـبحانه- في المخلوقـات أنْ خلقهـم أزواجًـا وأقرانًـا، وهـذه سـنّة ربانيـة ثابتـة ومطـردة، لا يتخلّـف عنهـا كائـن مـن الكائنـات، يقـول الشـيخ في ذلـك: «إنّ اللـه عـز وجـل هـو وحـده الواحـد الأحـدُ المختـصّ بالوحدانيـة دون سـواه، تنـزه عـن كلّ مـا يكـون طبعًـا في مخلوقاتـه ﴿ قُـلْ هُـوَ اللـهُ أَحَـدٌ {١/١١٢} اللـهُ الصَّمَـدُ {٢/١١٢} لَـمْ يَلِـدْ وَلَـمْ يُولَـدْ {٣/١١٢} وَلَـمْ يَكُـن لَّـهُ كُفُـوًا أَحَـدٌ ﴾ [الإخـلاص: ١-٤] فنفـى عـن نفسـه الأصـول والفـروع والنظـراء، وهـي جـماع مـا ينسـب إليـه المخلـوق مـن الآدميّـين والبهائـم والملائكـة والجـن، بـل والنبـات ونحـو ذلـك؛ فإنّـه مـا مـن شيء مـن المخلوقـات إلّا ولا بـدّ أن يكـون لـه شيء يناسـبه: إمّـا أصـل وإمّـا فـرع وإمّـا نظـير أو اثنـان مـن ذلـك أو ثلاثـة، وهـذا في الآدميّـين والجـن والبهائـم ظاهـر، وأمّـا الملائكـة فإنهـم وإنْ لم يتوالـدوا بالتناسـل فلهـم الأمثـال والأشـباه؛ ولهـذا قـال سـبحانه: ﴿وَمِـن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَـا زَوْجَـيْنِ لَعَلَّكُـمْ تَذَكَّـرُونَ {٤٩/٥١} فَفِـرُّوا إِلَى اللـهِ ﴾ [الذاريـات: ٤٩-٥٠] قـال بعـض السّـلف: لعلكـم تتذكـرون فتعلمـون أن خالـق الأزواج واحـد[١]».

سنّةُ الله في خلق الناس درجات:

لقـد مـنّ اللـه عـلى بنـي آدم أنّـه خلقهـم ورزقهـم وفاضَـلَ بينهـم في الـرزق، ورفـع بعضهـم فـوق بعـض درجـات، وسـخّرهم لبعضهـم البعـض؛ حتـى يعمـر الكـون، وينتفـع النـاس بمـا خلقـه اللـه لهـم مِـن نعـم، فيعبـدوه حـقّ عبادتـه.

ومـن الأشـياء التـي يتفاضـل بهـا النـاس العلـم، يقـول شـيخ الإسـلام: «ذكـر اللـه أنـه يرفـع درجـات مـن يشـاء في قصـة مناظـرة إبراهيـم، وفي قصـة احتيـال يوسـف، ولهـذا قـال السـلف: بالعلـم؛ فـإن سـياق الآيـات يـدلّ عليـه، فقصّـة إبراهيـم في العلـم بالحجـة والمناظـرة لدفـع ضرر الخصـم عـن

(١) الفتاوى، (٤٣٩/٢).

الديـن، وقصّـة يوسـف في العلـم بالسياسـة والتدبـير لتحصـل منفعـة المطلـوب، فـالأول علـم بمـا يدفـع المضـارّ في الديـن، والثـاني علـم بمـا يجلـب المنافـع، أو يقـال: الأول هـو العلـم الـذي يدفـع المـضرّة عـن الديـن ويجلـب منفعتـه، والثـاني علـمٌ بمـا يدفـع المـضرّة عـن الدنيـا ويجلـب منفعتهـا».

ويواصـل شـيخُ الإسـلام حديثـه مبيّنًـا أنّ هذيـن الصّنفـين مـن قـصر عـن علمهـما أصبـح مقهـورًا لهـما، فتـارة بالاحتيـاج إليهـم إذا هجـم عـدوّ يفسـد الديـن بالجـدل، أو الدنيـا بالظلـم، وتـارة بالاحتيـاج إليهـم إذا هجـم عـلى أنفسـهم مِـن أنفسـهم ذلـك، وتـارة بالاحتيـاج إليهـم لتخليـص بعضهـم مِـن شرّ بعـض في الديـن والدنيـا، وتـارة يعيشـون في ظلهـم في مـكان ليـس فيـه مبتـدع يسـتطيل عليهـم ولا والٍ يظلمهـم ومـا ذاك إلّا لوجـود علـماء الحجـج الدامغـة لأهـل البـدع والسياسـة الدافعـة للظلـم.

صنفـان إذا صلحـوا صلـحَ النـاس: العلـماء والأمـراء، وكـما أنّ المنفعـة فيهـما فالمـضرّة منهـما؛ فـإنّ البـدع والظلـم لا تكـون إلّا فيهـما: أهـل الرياسـة العلميـة، وأهـل الرياسـة القدريـة، ولهـذا قـال طائفـة مـن السـلف كالثـوري وابـن عيينـة وغيرهـما مـا معنـاه: إنّ مَـن نجـا مـن فتنـة البـدع وفتنـة السـلطان؛ فقـد نجـا مِـن الـشرّ كلـه»[١].

***

(١) الفتاوى، (٤٩٤/١٤).

المبحثُ السّابع والعشرون

سنّةُ الله في الأنفس

للنّفس البشرية أسرارٌ كثيرة، منها ما اكتشفه العلم، ومنها ما يعرفه الناس بالعُرف والخبرة، ومنها ما أخبرنا عنه القرآن الكريم؛ ولله في هذه الأنفس سنن لا تتبدّل ولا تتحوّل، فطرها الله عليها ولا تصلح إلّا بمراعاتها، وقد عُني شيخ الإسلام عناية خاصة في معظم كتبه بها مبيّنًا أن سعادة الإنسان وصلاحه لا يتمّ إلّا بالاهتمام بهذه السنن وتطبيقها، وأن نحسن التعامل مع النفوس كما أمرنا الله حتى نظفر بسعادة الدنيا والآخرة.

ولقد تعدّدت سننُ الله في الأنفس فهي بمثابة سنّة كليّة تحوي تحتها سننًا جزئية ومنها:

جعل الغيرةَ صفةً لازمة للنفس الإنسانية:

يقول شيخُ الإسلام في ذلك مبينًا أنّ الله قد جعل الغيرة في نفس بني آدم لازمة لهم: «إن الله قد جعل في نفوس بني آدم من الغيرة ما هو معروف؛ فيستعظم الرجل أن يطأ الرجل امرأته أعظم من غيرته على نفسه أن يزني، فإذا لم يكره أن تكون زوجته بغيًّا وهو ديوث كيف يكره أن يكون هو زان، ولهذا لم يوجد من هو ديوث أو قواد يعفّ عن الزنا؛ فإن الزاني له شهوة في نفسه، والديوث ليس له شهوة في زنا غيره، فإذا لم يكن معه إيمان يكره به زنا غيره بزوجته كيف يكون معه إيمان يمنعه من الزنا، فمَن استحلّ أن يترك امرأته تزني استحل أعظم الزنا، ومن أعان على ذلك فهو كالزاني، ومن أقرّ على ذلك مع إمكان تغييره فقد رضيه، ومَن تزوّج غير تائبة فقد رضي أن تزني؛ إذ لا يمكنه منعها من ذلك؛ فإن كيد النساء عظيم»[1].

المودّة والرحمة بين الزوجين:

معنى المودة: الودّ مصدر وددت، وهو يودّ من الأمنية ومن المودّة، يقول ابن سيده: الودّ هو الحبّ يكون في جميع مداخل الخير، والودّ بضم الواو وفتحها وبكسرها هو المودّة، والودود هو المحبّ[2].

---

(١) الفتاوى، (٣٢٠/١٥).

(٢) لسان العرب، (١٧٧/١٥).

وقد قال الله- تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١].

فالمودة والرحمة نعمتان جعلهما الله- تعالى- ملازمين لكلّ زوجين راغبين في أن تكون لهما أسرة ناجحة مكتوب لها الدوام والاستمرار.

«إنّ المودّة وحدها آصرة عظيمة، وهي آصرة الصداقة والأخوة وتفاريعهما، والرحمة وحدها آصرة منها الأبوة والبنوة، فما ظنّكم بآصرة جمعت الأمرين، وكانت بجعل الله- تعالى، وما هو بجعل الله فهو في أقصى درجات الإتقان»[١].

«والمودّة والرحمة التي يريد الله في سنته لحفظ المجتمع هما مادة لبناء أول مجتمع يقوم عليه صرح المجتمع الشامخ العريض، وهما ثمرة الإخاء الرحمي الذي ربط الله بوشائجه الإنسانية كلها رباطًا أخويًا لا تنفصم عراه»[٢].

يقول شيخُ الإسلام ابن تيمية: «والله- تعالى- قد جعل بين الزوجين مودّة ورحمة، فأحدهما يحبّ لنفسه ما يحبّ للآخر، فإذا رضيت المرأة أن تنكح زانيًا فقد رضيت عمله، وكذلك إن رضي الرجل أن ينكح زانية فقد رضي عملها، ومن رضي الزنا كان بمنزلة الزاني، فإن أصل الفعل هو الإرادة، ولهذا جاء في الأثر: (من غاب عن معصية فرضيها كان كمَن شهدها أو فعلها)، وفي الحديث: (المرء على دين خليله)[٣]، وأعظم الخلة خلّة الزوجين»[٤].

من سُنن الله في خلق الأنفس محبّةُ العلم دون الجهل:

في النفوس حاجةٌ ضرورية إلى العلم؛ به تقوم، وعليه تبنى، ولا تستقرّ نفس سوية إلّا به، ولا تسعد إلّا في رياضه؛ ولذا كانت أول كلمة من القرآن الكريم نزولًا: ﴿اقْرَأْ﴾ داعية إلى

---

(١) التحرير والتنوير: (٦٤٤/١).

(٢) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم للصادق عرجون، ص(٣٠)، ط: الدار السعودية، ط: الثالثة، ١٤٠٤هـ/١٩٨٠م.

(٣) مسند إسحاق بن راهويه، (٣٥٢/١).

(٤) الفتاوى، (٣١٩/١٥).

القـراءة، التـي هـي بـاب أسـاس مـن أبـواب العلـم، يقـول شـيخُ الإسـلام في ذلـك: «ومـن المعلـوم أنّ اللـه خلـق في النفـوس محبّـة العلـم دون الجهـل، ومحبّـة الصـدق دون الكـذب، ومحبّـة النافـع دون الضّـار، وحيـث دخـل ضـدّ ذلـك فلمعـارض مـن هـوى وكـبر وحسـد ونحـو ذلـك.

كـما أنّـه في صالـح الجسـد خلـق اللـه فيـه محبّـة الطعـام والـشراب الملائـم لـه دون الضّـار، فـإذا اشـتهى مـا يـضرّه أو كـره مـا ينفعـه فلمـرض في الجسـد، وكذلـك- أيضًـا- إذا انْدفـع عـن النفـس المعـارض مـن الهـوى والكـبر والحسـد وغـير ذلـك أحـبّ القلـب مـا ينفعـه مـن العلـم النافـع والعمـل الصالـح.

كـما أنّ الجسـد إذا اندفـع عنـه المـرض أحـبّ مـا ينفعـه مـن الطعـام والـشراب، فـكلّ واحـد مـن وجـود المقتـضي وعـدم الدافـع سـبب للآخـر، وذلـك سـبب لصـلاح حـال الإنسـان، وضدّهـما سـببٌ لضـدّ ذلـك؛ فـإذا ضعـف العلـم غلـب الهـوى الإنسـان، وإن وجـد العلـم والهـوى وهـما المقتـضي والدافـع فالحكـم للغالـب.

وإذا كان كذلك فصلاحُ بني آدم الإيمان والعمل الصالح، ولا يخرجهم عن ذلك إلّا شيئان:

أحدهما: الجهل المضادّ للعلم فيكونون ضلّالًا.

والثـاني: اتّبـاع الهـوى والشـهوة اللذيـن في النفـس فيكونـون غـواة مغضوبًـا عليهـم؛ ولهـذا قـال: ﴿وَالنَّجْـمِ إِذَا هَـوَى {١/٥٣} مَـا ضَـلَّ صَاحِبُكُـمْ وَمَـا غَـوَى﴾ [النجـم: ١، ٢]، وقـال: «عليكـم بسـنتي وسـنة الخلفـاء الراشـدين المهديّـين مـن بعـدي، تمسـكوا بهـا، وعضـوا عليهـا بالنواجـذ»[1].

فوصفهـم بالرشـد الـذي هـو خـلاف الغـي، وبالهـدى الـذي هـو خـلاف الضـلال، وبهـما يصلـح العلـم والعمـل جميعًـا، ويصـير الإنسـان عالمًـا عـادلًا، لا جاهـلًا ولا ظالمًـا»[2].

سنّةُ الله في أهل الطاعة:

لقـد جعـل اللـه تعـالى القـوة والعـزّة لازمـةً مـن لـوازم أهـل الطاعـة؛ فهُـم أقويـاء بتمسـكهم بمـا أمرهـم اللـه بـه مـن الطاعـات، ومجاهدتهـم لأنفسـهم، واعتمادهـم الدائـم عـلى اللـه تعـالى، وعزّتهـم

(١) سنن أبي داود، (٢٠١/٤).

(٢) الفتاوى، (٢٤٢/١٥).

بالله تعالى؛ لأنه هو الغني، وهو الذي يرزقهم ويدافع عنهم ويحميهم من شر أعدائهم المحدقين بهم، وقد ذكر شيخُ الإسلام هذه السنة موضّحًا ومبيّنًا لها فيقول: «وقد دلّ القرآن على أنّ القوة والعزة لأهل الطاعة التائبين إلى الله في مواضع كثيرة كقوله في سورة هود: ﴿ وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُواْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاء عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ ﴾ [هود: ٥٢]، وقوله: ﴿وَلِلهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]، ﴿ وَلاَ تَهِنُوا وَلاَ تَحْزَنُوا وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وإذا كان الذي قد يهجر السيئات يغضّ بصره ويحفظ فرجه وغير ذلك ممّا نهى الله عنه؛ يجعل الله له من النور والعلم والقوة والعزة ومحبة الله ورسوله، فما ظنّك بالذي لم يحُمْ حول السيئات، ولم يعرْها طرفَه قطّ، ولم تحدّثه نفسُه بها، بل هو يجاهد في سبيل الله أهلها ليتركوا السيئات؟ فهل هذا وذاك سواء؛ بل هذا له من النور والإيمان والعزة والقوة والمحبة والسلطان والنجاة في الدنيا والآخرة أضعاف أضعاف ذاك، وحاله أعظم وأعلى، ونورُه أتمّ وأقوى؛ فإن السيئات تهواها النفوس، ويزينها الشيطان، فتجتمع فيها الشبهات والشهوات»[١].

سنّة الله في أهل الجهاد:

إنّ لأهل الجهاد والإيمان منزلة عند الله عز وجل؛ فالجهاد تمام الإيمان وذروة سنامه، لذلك مدحهم الله عز وجل في كتابه العزيز، وأعطاهم من المزايا ما لم يعطِ لغيرهم، يوضح شيخ الإسلام هذه السنة الإلهية فيقول: «إذا كان المؤمن قد حبّب الله إليه الإيمان وزينه في قلبه، وكره إليه الكفر والفسوق والعصيان حتى يعوض عن شهوات الغي بحب الله ورسوله وما يتبع ذلك، وعن الشهوات والشبهات بالنور والهدى، وأعطاه الله من القوة والقدرة ما أيده به حيث دفع بالعلم الجهل، وبإرادة الحسنات إرادة السيئات، وبالقوة على الخير القوة على الشر في نفسه فقط، والمجاهد في سبيل الله يطلب فعل ذلك في نفسه وغيره- أيضًا؛ حتى يدفع جهله بالعلم، وإرادته السيئات بإرادة الحسنات ونحو ذلك، والجهاد تمام الإيمان، وسنام العمل»[٢].

(١) الفتاوى، (٤٠٠/١٥).

(٢) الفتاوى، (٤٠١/١٥).

إنّ سـنة اللـه تعـالى في أهـل الإيمـان والجهـاد أن يرفعهـم عـلى غيرهـم مـن النـاس، وأن يغفـر لهـم ويدخلهـم جنتـه، ويثبـت أقدامهـم، وينصرهـم عـلى عدوهـم إذا هـم أخلصـوا للـه عـز وجـل، يقـول شـيخُ الإسـلام موضّحًـا هـذه السـنة: «والجهـاد تمـام الإيمـان وسـنام العمـل كـما قـال تعـالى: ﴿ إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِيـنَ آمَنُـوا بِاللـــهِ وَرَسُـولِهِ ثُـمَّ لَـمْ يَرْتَابُـوا وَجَاهَـدُوا بِأَمْوَالِهِـمْ وَأَنفُسِـهِمْ فِي سَـبِيلِ اللـــهِ أُوْلَئِـكَ هُـمُ الصَّادِقُـونَ ﴾ [الحجـرات: ١٥]، وقـال: ﴿كُنتُـمْ خَـيْرَ أُمَّـةٍ أُخْرِجَـتْ لِلنَّـاسِ﴾ الآيـة، وقـال: ﴿أَجَعَلْتُـمْ سِـقَايَةَ الْحَـاجِّ﴾ الآيـة [التوبـة: ١٩]، فكذلـك يكـون هـذا الجـزاء في حـقّ المجاهديـن كـما قـال تعـالى: ﴿وَالَّذِيـنَ جَاهَـدُوا فِينَـا لَنَهْدِيَنَّهُـمْ سُـبُلَنَا ﴾ [العنكبـوت: ٦٩]، فهـذا في العلـم والنـور.

وقـال: ﴿وَلَـوْ أَنَّـا كَتَبْنَـا عَلَيْهِـمْ أَنِ اقْتُلُـواْ أَنفُسَـكُمْ ﴾ إلى قولـه: ﴿صِرَاطًـا مُّسْـتَقِيمًا ﴾ [النسـاء: ٦٦-٦٨] فقتـل النفـوس هـو قتـل بعضهـم بعضًـا وهـو مـن الجهـاد، والخـروج مـن ديارهـم هـو الهجـرة، ثـمّ أخـبر أنهـم إذا فعلـوا مـا يوعظـون بـه مـن الهجـرة والجهـاد كان خـيراً لهـم وأشـدّ تثبيتًـا؛ ففـي الآيـة أربعـة أمـور: الخـير المطلـق، والتثبيـت المتضمّـن للقـوة والمكنـة، والأجـر العظيـم، وهدايـة الـصراط المسـتقيم.

وقــال تعــالى: ﴿يَـا أَيُّهَـا الَّذِيـنَ آمَنُـوا إِن تَنـصُرُوا اللـــهَ يَنصُرْكُـمْ وَيُثَبِّـتْ أَقْدَامَكُـمْ ﴾ [محـمــد: ٧]، وقــال: ﴿وَلَيَنـصُرَنَّ اللـــهُ مَـن يَنـصُرُهُ﴾ إلى قولــه: ﴿عَاقِبَةُ الْأُمُـورِ﴾ [الحـج: ٤٠-٤١]، وقــال: ﴿يُجَاهِدُونَ فِـي سَـبِيلِ اللـــهِ وَلاَ يَخَافُـونَ لَوْمَـةَ لآئِـمٍ ﴾ [المائـدة: ٥٤]»[1].

سنّةُ الله عز وجل في أهل الفواحش:

للفواحـش آثارُهـا السـيئة عـلى الفـرد والمجتمـع؛ فهـي وسـيلة مـن أهـمّ وسـائل الهـدم، وقـد عاقـب اللـه عليهـا بعـض الأقـوام السـابقة كقـوم لـوط فأهلكهـم بإصرارهـم عـلى هـذا السـوء، وهـذه سـنّته- سـبحانه- فمَـن يفعـل فعلهـم يجـترئ عـلى اللـه تعـالى بتلـك المعـاصي التـي نهـى اللـه عنهـا، يقـول في ذلـك شـيخُ الإسـلام:

---

(١) الفتاوى، (٤٠٢/١٥).

«وأمّا أهل الفواحش الذين لا يغضّون أبصارهم، ولا يحفظون فروجهم، فقد وصفهم الله بضدّ ذلك من السّكرة والعَمه والجهالة وعدم العقل وعدم الرشد والبغض وطمس الأبصار، هذا مع ما وصفهم به من الخبث والفسوق والعدوان والإسراف والسوء والفحش والفساد والإجرام، فقال عن قوم لوط: ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴾ [النمل: ٥٥]، فوصفهم بالجهل وقال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢]، وقال: ﴿أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ ﴾ [هود: ٧٨]، وقال: ﴿ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ ﴾ [القمر: ٣٧]، وقال: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾ [الأعراف: ٨١]، وقال: ﴿فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ [النمل: ٦٩]، وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ ﴾ [الأنبياء: ٧٤]، وقال: ﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنكَرَ﴾ إلى قوله: ﴿ انصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴾ إلى قوله: ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [العنكبوت: ٢٩-٣٤]، وقوله: ﴿ مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الذاريات: ٣٤]»[١].

مِن السّنن الإلهية أنّ كلّ بني آدم خطّاء، وأنّ الله يغفر الذنوب جميعًا:

لقد خلق الله- تعالى- بني آدم جميعًا لديهم قابلية للخطأ، ولديهم قابلية للتوبة عند المعاصي والرجوع لله تعالى، ومِن حكمته- سبحانه- وسننِه الماضية أنه غفور رحيم، يغفر لكلّ مَن رجع إليه تائبًا نادمًا، ولقد تناول شيخُ الإسلام ابن تيمية هذا المعنى موضّحًا ومبيّنًا: «أنه لا يخلو مؤمن من بعض الذنوب مثل: ترك غض البصر، أو ترك إبداء الزينة، وما يتبع ذلك.

ويؤكد ذلك بحديث: (ما من أحد من بني آدم إلّا أخطأ أو همّ بخطيئة إلّا يحيى بن زكريا)[٢]، وذلك لا يكون إلّا عن نظر، وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال: (كلّ بني آدم خطاء وخير الخطائين التوابون)[٣].

وفي الصحيح عن أبي ذر، عن النبي ﷺ: (يقول الله- تعالى: يا عبادي إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا ولا أبالي، فاستغفروني أغفر لكم).

(١) الفتاوى، (٤٠٢/١٥).

(٢) مصنف ابن أبي شيبة، (٣٤٦/٦).

(٣) سنن الترمذي، ت: شاكر، (٦٥٩/٤)، وقال الترمذي: هذا حديث غريب، لا نعرفه إلّا من حديث علي بن مسعدة، عن قتادة.

وفي الصحيحين عن ابن عباس قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللّمم ممّا قال أبو هريرة: إنّ النبي ﷺ قال: (إنّ الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا أدرك ذلك لا محالة؛ فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق) الحديث إلى آخره، وفيه: (والنفس تتمنى ذلك وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) أخرجه البخاري تعليقًا من حديث طاووس، عن أبي هريرة[(١)]».

ويقول- أيضًا: «ومنها أنّ أهل الفواحش الذين لم يغضوا أبصارهم ولم يحفظوا فروجهم مأمورون بالتوبة، وإنّما أمروا بها لتقبل منهم، فالتوبة مقبولة منهم ومن سائر المذنبين، كما قال تعالى: ﴿ أَلَمْ يَعْلَمُواْ أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ ﴾ [التوبة: ١٠٤]، وقال تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴾ [الشورى: ٢٥]، وسواء كانت الفواحش مغلّظة لشدّتها وكثرتها كـ: إتيان ذوات المحارم وعمل قوم لوط أو غير ذلك، وسواء تاب الفاعل أو المفعول به فمَن تابَ تابَ الله عليه بخلاف ما عليه طائفة من الناس؛ فإنهم إذا رأوا مَن عمل مِن هذه الفواحش شيئًا أيسوه من رحمة الله حتى يقول أحدهم: من عمل من ذلك شيئًا لا يفلح أبدًا ولا يرجون له قبول توبة»[(٢)].

مِن سنّة الله في خلقه أنْ جعل الجزاءَ من جنس العمل:

قال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

قال ابن القيم: (من هدى في هذه الدار إلى صراط الله المستقيم الذي أرسل به رسله وأنزل به كتبه هدى هناك إلى الصراط المستقيم الموصل إلى جنته ودار ثوابه وعلى قدر ثبوت قدم العبد على هذا الصراط الذي نصبه الله لعباده في هذه الدار؛ يكون ثبوتُ قدمه على الصراط المنصوب على متن جهنم، وعلى قدر سيره على هذه الصراط يكون سيره على ذاك الصراط؛ فمنهم مَن يمرّ كالبرق، ومنهم من يمرّ كالطرف، ومنهم من يمرّ كالريح، ومنهم من يمرّ كشدّ الركاب، ومنهم من يسعى سعيًا، ومنهم من يمشي مشيًا، ومنهم من يحبوا حبوًا، ومنهم المخدوش

---

(١) والحديث أخرجه مسلم- أيضًا- في صحيحه: (٢٠٤٦/٤).

(٢) الفتاوى: (٤٠٣/١٥، ٤٠٤).

المسلّم، ومنهم المكدوس في النار؛ فلينظر العبد سيره على ذلك الصراط مِن سيره على هذا حذو القذة بالقذة: ﴿جَزَاء وِفَاقًا﴾ ﴿ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾[١].

قال ابن تيمية: (ولمّا كان في الصبر من حبس النفس والخشونة التي تلحق الظاهر والباطن من التعب والنصب والحرارة ما فيه كان الجزاء عليه بالجنة التي فيها السعة والحرير الذي فيه اللّين والنعومة والإتكاء الذي يتضمن الراحة والظلال المنافية للحر[٢].

قال ابن تيمية: (فالجزاء من جنس العمل؛ فمَن كان في الدنيا ليس بحي الحياة النافعة التي خلق لأجلها، بل كانت حياته من جنس حياة البهائم، ولم يكن ميتًا عديم الإحساس؛ كان في الآخرة كذلك)[٣].

ولنا في الأمم السابقة عبرةٌ وعظة حيث أهلكهم الله بنفس طريقتهم في الاعتداء والظلم، فمَن أخاف الناس أخافه الله، ولقد عاقب الله المتخلّفين في غزوة تبوك بأنْ حرمهم من الجهاد.

قال شيخ الإسلام: (ومن احتمل الهوان والأذى في طاعة الله على الكرامة والعز في معصية الله كما فعل يوسف- عليه السلام- وغيرُه من الأنبياء والصالحين؛ كانت العاقبة له في الدنيا والآخرة، وكان ما حصل له من الأذى قد انقلب نعيماً وسرورًا[٤].

من سُنن الله في الأنفس الأمرُ بالمعروف والنهيُّ عن المنكر:

إنّ صلاح المجتمع لا يتمّ إلّا بصلاح الفرد، وإنّ ضرر المجتمع يتمّ- أيضًا- بضرر الفرد؛ لذلك فإنّ سنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من السنن الاجتماعية التي جعلها الله تعالى لحفظ المجتمع ووقايته من الفساد والخطأ، ولو تذكّرنا حديث النبي ﷺ وتمثيله لذلك بالسفينة التي كان أعلاها قومٌ وأسفلها قومٌ قد قاموا بخرق السفينة، فإذا سكتَ الذين بالأعلى ولم ينهوهم عن فعلهم غرقوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعًا، لذلك اهتمّ ابن

---

(١) مدارج السالكين: جـ١ صـ٣٣

(٢) جامع الرسائل: جـ١ صـ٧٣.

(٣) مجموع الفتاوى: جـ١٤ صـ٢٩٧-٢٩٨

(٤) السابق: جـ١٥ صـ١٣٢

تيمية بهذه السنة قولًا وفعلًا، يقول ابن تيمية: «وبنو آدم لا يعيشون إلّا باجتماع بعضهم مع بعض، وإذا اجتمع اثنان فصاعدًا فلا بدّ أن يكون بينهما ائتمار بأمر وتناهٍ عن أمر، وإذا كان الأمر والنهي من لوازم وجود بني آدم، فمن لم يأمر بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله، ويَنْهَ عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله، ويؤمَر بالمعروف الذي أمر الله به ورسوله، ويُنْه عن المنكر الذي نهى الله عنه ورسوله؛ وإلّا فلا بدّ أن يأمر وينهى، ويؤمر وينهى، إمّا بما يضاد ذلك، وإمّا بما يشترك فيه الحقّ الذي أنزله الله بالباطل الذي لم ينزله الله»[1].

في سياق هذه السنّة الإلهية الاجتماعية الجماعية نجد الجزاء في الآخرة يأخذ طابعًا جماعيًّا تبعًا للجزاء الدنيوي، ففي الآخرة كذلك سنن جزائية فردية وجماعية، كما يوجد كتاب فردي يوجد كتاب للمجتمع بناءً على سنن الاجتماع البشري.

قال تعالى: ﴿ وَتَرَى كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ {٢٨/٤٥} هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ٢٨، ٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَآئِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا {١٣/١٧} اقْرَأْ كَتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٣، ١٤] فهما كتابان: كتاب فردي وكتاب جماعي، «ولا يوجد فقط كتاب للفرد وكتاب للأمّة، وإنما يوجد- أيضًا- إحضار للفرد وإحضار للأمّة؛ حيث إن هناك إحضارًا بين يدي الله - عز وجل -، فالإحضار الفردي يأتي فيه كلّ إنسان فردًا فردًا، وهناك إحضار للفرد وسط جماعة، وإحضار للأمّة بين يدي الله تعالى»[2].

وسنرى كيف تحدّث ابن تيمية عن هلاك الأمم، وعَدّ من أسباب الهلاك إغفال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

اختلافُ الناس في امتثالهم لسنّة الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

أمرَ الله- تعالى- عبادَه بمباشرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأنّه صمام أمان البشرية وضمان بقائها، ولأنّه ليس بالأمر السهل؛ مدحه الله- تعالى- وجعله من خصائص الخيريّة

---

(١) الاستقامة: (٢٩٢/٢، ٢٩٤).

(٢) فقه السنن الإلهية: ص(٢١٥، ٢١٦).

للأمّـة المسـلمة، يقـول شـيخ الإسـلام: «فإنّـه كثـيرًا مـا يجتمـع في كثـير مـن النـاس بغـضُ الكفـر وأهلـه وبغـضُ الفجـور وأهلـه وبغـضُ نهيهـم وجهادهـم، كـما يحـبّ المعـروف وأهلـه، ولا يحـبّ أن يأمـر بـه ولا يجاهـد عليـه بالنفـس والمـال؛ وقـد قـال تعـالى: ﴿ إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِيـنَ آمَنُـوا بِاللـهِ وَرَسُـولِهِ ثُـمَّ لَـمْ يَرْتَابُـوا وَجَاهَـدُوا بِأَمْوَالِهِـمْ وَأَنفُسِـهِمْ فِي سَـبِيلِ اللـهِ أُوْلَئِـكَ هُـمُ الصَّادِقُـونَ ﴾، وقـال تعـالى: ﴿قُـلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُـمْ وَأَبْنَآؤُكُـمْ وَإِخْوَانُكُـمْ وَأَزْوَاجُكُـمْ وَعَشِـيرَتُكُمْ وَأَمْـوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَـا وَتِجَـارَةٌ تَخْشَـوْنَ كَسَـادَهَا وَمَسَـاكِنُ تَرْضَوْنَهَـا أَحَـبَّ إِلَيْكُم مِّـنَ اللـهِ وَرَسُـولِهِ وَجِهَـادٍ فِي سَـبِيلِهِ فَتَرَبَّصُـواْ حَتَّـى يَـأْتِيَ اللـهُ بِأَمْـرِهِ وَاللــهُ لاَ يَهْـدِي الْقَـوْمَ الْفَاسِـقِينَ ﴾ [التوبـة: ٢٤]، وقولـه: ﴿لَا تَجِـدُ قَوْمًـا يُؤْمِنُـونَ بِاللـهِ وَالْيَـوْمِ الْآخِـرِ يُـوَادُّونَ مَـنْ حَـادَّ اللــهَ وَرَسُـولَهُ وَلَـوْ كَانُـوا آبَاءهُـمْ أَوْ أَبْنَاءهُـمْ أَوْ إِخْوَانَهُـمْ أَوْ عَشِـيرَتَهُمْ أُوْلَئِـكَ كَتَـبَ فِي قُلُوبِهِـمُ الْإِيمَـانَ وَأَيَّدَهُـم بِـرُوحٍ مِّنْـهُ﴾ الآيـة [المجادلـة: ٢٢].

وكثـيرٌ مـن النـاس بـل أكثرهـم كراهتهـم للجهـاد عـلى المنكـرات أعظـم مـن كراهتهـم للمنكـرات، لا سـيّما إذا كـثرت المنكـرات وقويـت فيهـا الشـبهات والشـهوات، فربّمـا مالـوا إليهـا تـارة وعنهـا أخـرى، فتكـون نفـس أحدهـم لوّامـة بعـد أن كانـت أمـارة، ثـمّ إذا ارتقـى إلى الحـال الأعـلى في هجـر السـيئات وصـارت نفسـه مطمئنـة تاركـةً للمنكـرات والمكروهـات لا تحـبّ الجهـاد ومصابـرة العـدو عـلى ذلـك، واحتـمال مـا يؤذيـه مـن الأقـوال والأفعـال، فـإنّ هـذا شيء آخـر داخـل في قولـه: ﴿أَلَـمْ تَـرَ إِلَى الَّذِيـنَ قِيـلَ لَهُـمْ كُفُّـواْ أَيْدِيَكُـمْ وَأَقِيمُـواْ الصَّـلاَةَ وَآتُـواْ الـزَّكَاةَ فَلَـمَّا كُتِـبَ عَلَيْهِـمُ الْقِتَـالُ إِذَا فَرِيـقٌ مِّنْهُـمْ يَخْشَـوْنَ النَّـاسَ كَخَشْـيَةِ اللـهِ أَوْ أَشَـدَّ خَشْـيَةً ﴾ الآيـات إلى قولـه: ﴿وَكَانَ اللــهُ عَـلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقِيتًـا ﴾ [النسـاء: ٧٧-٨٥]»[١].

أهمّية سنّة الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

خلـق اللـه- تعـالى- البـشر وجعـلَ في نفوسـهم ضعفًـا لوجـود الشـهوات والأهـواء، وقـد تنزعهـم تلـك المواطـن الضعيفـة في نفوسـهم إلى البعـد عـن الحـقّ، والركـون إلى الدنيـا وأهلهـا، أو التراخـي عـن السـعي إلى الجنـة ونعيمهـا، لذلـك جعـل اللـه الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر وسـيلة لـردّ

(١) الفتاوى: (٣٤١/١٥).

الناس إلى رشدهم وتنبيههم إلى مواطن الخير والسبق، وهذه رحمة الله بعباده وتكريمه لهم، يقول شيخُ الإسلام في هذه السنة مبينًا قدرها: «وكلّ بشر على وجه الأرض فلا بدّ له من أمر ونهي، ولا بدّ أن يأمر وينهى حتى لو أنّه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها؛ إمّا بمعروف وإمّا بمنكر؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ [يوسف: ٥٣]، فإن الأمر هو طلب الفعل وإرادته؛ والنهي طلب الترك وإرادته، ولا بدّ لكلّ حي من إرادة وطلب في نفسه يقتضي بهما فعل نفسه، ويقتضي بهما فعل غيره إذا أمكن ذلك؛ فإن الإنسان حي يتحرك بإرادته، وبنو آدم لا يعيشون إلّا باجتماع بعضهم مع بعض، وإذا اجتمع اثنان فصاعدًا فلا بدّ أن يكون بينهما ائتمار بأمر وتناهٍ عن أمر؛ ولهذا كان أقلّ الجماعة في الصلاة اثنين؛ كما قيل: الاثنان فما فوقهما جماعة؛ لكن لما كان ذلك اشتراكًا في مجرد الصلاة حصل باثنين أحدهما إمام والآخر مأموم، كما قال النبي ﷺ لمالك بن الحويرث وصاحبه: (إذا حضرت الصلاة فأذّنا وأقيما؛ وليؤمّكما أكبركما)[1]، وكانا متقاربين في القراءة، وأمّا الأمور العادية ففي السنن أنه ﷺ قال: (لا يحلّ لثلاثة يكونون في سفر إلّا أمروا عليهم أحدهم)[2].

وهذا كما أن كلّ بشر فإنه حي متحرك بإرادته همام حارث فمن لم تكن نيته صالحة وعمله عملاً صالحًا لوجه الله، وإلّا كان عملاً فاسدًا أو لغير وجه الله وهو الباطل، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى ﴾ [الليل: ٤]، وهذه الأعمال كلها باطلة من جنس أعمال الكفار ﴿ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:١]، وقال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاء حَتَّى إِذَا جَاءهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ [النور: ٣٩]، وقال: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاء مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣].

وقد أمر الله في كتابه بطاعته وطاعة رسوله وطاعة أولي الأمر من المؤمنين، كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾ [النساء: ٥٩].

---

(١) صحيح البخاري، (١٣٢/١).

(٢) مسند أحمد، (٢٢٧/١١).

ووضّح معنى أولي الأمر فقال: «وأولو الأمر أصحاب الأمر وذووه؛ وهم الذين يأمرون الناس؛ وذلك يشترك فيه أهل اليد والقدرة وأهل العلم والكلام؛ فلهذا كان أولو الأمر صنفين: العلماء، والأمراء. فإذا صلحوا صلحَ الناس وإذا فسدوا فسد الناس؛ كما قال أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - للأحمسية لمّا سألته: ما بقاؤنا على هذا الأمر؟ قال: ما استقامت لكم أئمتكم، ويدخل فيهم الملوك والمشايخ وأهل الديوان؛ وكلّ مَن كان متبوعًا فإنّه من أولي الأمر، وعلى كلّ واحدٍ من هؤلاء أنْ يأمر بما أمر الله به، وينهى عمّا نهى عنه، وعلى كلّ واحدٍ ممّن عليه طاعته أنْ يطيعه في طاعة الله، ولا يطيعه في معصية الله، كما قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه حين تولّى أمر المسلمين وخطبهم؛ فقال في خطبته: أيّها الناس، القوي فيكم الضعيف عندي حتى آخذَ منه الحقّ، والضعيف فيكم القوي عندي حتى آخذ له الحقّ، أطيعوني ما أطعت الله فإذا عصيت الله فلا طاعة لي عليكم»[1].

أحوالُ الناس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يتنوّع الناس في قيامهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فنجد أنّ الناس (ثلاثة أقسام: قوم لا يقومون إلّا في أهواء نفوسهم؛ فلا يرضون إلّا بما يعطونه، ولا يغضبون إلّا لما يحرمونه؛ فإذا أعطي أحدهم ما يشتهيه من الشهوات الحلال والحرام زال غضبه، وحصل رضاه، وصار الأمر الذي كان عنده منكرًا- ينهى عنه ويعاقب عليه، ويذمّ صاحبه ويغضب عليه- مرضيًّا عنده، وصار فاعلًا له وشريكًا فيه، ومعاونًا عليه، ومعاديًا لمَن نهى عنه وينكر عليه.

وهذا غالبٌ في بني آدم يرى الإنسان ويسمع من ذلك ما لا يحصيه، وسببه: أنّ الإنسان ظلوم جهول؛ فلذلك لا يعدل، بل ربّما كان ظالمًا في الحالين يرى قومًا ينكرون على المتولّي ظلمه لرعيته واعتداءه عليهم، فيرضى أولئك المنكرون ببعض الشيء فينقلبون أعوانًا له، وأحسن أحوالهم أن يسكتوا عن الإنكار عليه، وكذلك تراهم ينكرون على مَن يشرب الخمر ويزني ويسمع الملاهي حتى يدخلوا أحدهم معهم في ذلك، أو يرضوه ببعض ذلك، فتراه قد صار عونًا لهم.

---

(١) الفتاوى، (١٧٠/٢٨، ١٧١).

وهـؤلاء قـد يعـودون بإنكارهـم إلى أقبـح مـن الحـال التـي كانـوا عليهـا، وقـد يعـودون إلى مـا هـو دون ذلـك أو نظـيره.

وقـوم يقومـون ديانـة صحيحـة يكونـون في ذلـك مخلصـين للـه، مصلحـين فيـما عملـوه، ويسـتقيم لهـم ذلـك حتـى يصـبروا عـلى مـا أوذوا.

وهــؤلاء هُــم الذيــن آمنــوا وعملــوا الصالحــات، وهُــم مــن خــير أمّــة أخرجــت للنــاس: يأمــرون بالمعــروف وينهــون عــن المنكــر ويؤمنــون باللــه.

وقـوم يجتمـع فيهـم هـذا وهـذا، وهُـم غالـب المؤمنـين، فمَـن فيـه ديـن ولـه شـهوة تجتمـع في قلوبهـم إرادة الطاعـة وإرادة المعصيـة، وربمـا غلـب هـذا تـارة وهـذا تـارة.

وهذه القسمة الثلاثية كما قيل: الأنفس ثلاث: أمّارة، ومطمئنة، ولوّامة.

فالأوّلـون هُـم أهـل الأنفـس الأمّـارة التـي تأمـره بالسـوء، والأوسـطون هُـم أهـل النفـوس المطمئنـة التـي قيـل فيهـا: ﴿يَـا أَيَّتُهَـا النَّفْـسُ الْمُطْمَئِنَّـةُ {٢٧/٨٩} ارْجِعِـي إِلَى رَبِّـكِ رَاضِيَـةً مَّرْضِيَّـةً {٢٨/٨٩} فَادْخُـلِي فِي عِبَـادِي {٢٩/٨٩} وَادْخُـلِي جَنَّتِـي﴾ [الفجـر: ٢٧-٣٠]، والآخـرون هـم أهـل النفـوس اللوّامـة التـي تفعـل الذنـب ثـمّ تلـوم عليـه، وتتلـون تـارة كـذا، وتـارة كـذا، وتخلـط عمـلاً صالحًـا وآخـر سـيئًا»[(١)].

سنّةُ الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أنّها مصحوبةٌ بالابتلاء:

إنّ الـذي يأمـر بالمعـروف وينهـى عـن المنكـر لا بـدّ لـه مـن الابتـلاء والمِحـن مـمّا يجعـل المـرء يتعـرّض للفتنـة، لذلـك كان لا بـدّ لـه مـن أخلاقيّـات يلتـزم بهـا حتـى يسـتطيع أن يحمـي نفسـه مـن هـذه الفـتن، يقـول شـيخُ الإسـلام مبيّنًـا ذلـك: «فهـذه الأخـلاق والأفعـال يحتـاج إليهـا المؤمـن عمومًـا وخصوصًـا في أوقـات المِحـن والفـتن الشـديدة؛ فإنهـم يحتاجـون إلى صـلاح نفوسـهم، ودفـع الذنـوب عـن نفوسـهم عنـد المقتـضي للفتنـة عندهـم، ويحتاجـون- أيضًـا- إلى أمْـر غيرهـم ونهيـه بحسـب قدرتهـم، وكلّ مِـن هذيـن الأمريـن فيـه مـن الصعوبـة مـا فيـه، وإن كان يسـيرًا عـلى مَـن يـسّره اللـه عليـه.

(١) الفتاوى، (١٤٧/٢٨، ١٤٨).

وهـذا لأنّ اللـه أمـر المؤمنـين بالإيمـان والعمـل الصالـح، وأمرهـم بدعـوة النـاس وجهادهـم عـلى الإيمـان والعمـل الصالـح، كـما قـال اللـه- تعـالى: ﴿وَلَيَنـصُرَنَّ اللـهُ مَـن يَنـصُرُهُ إِنَّ اللـهَ لَقَـوِيٌّ عَزِيـزٌ {٤٠/٢٢} الَّذِيـنَ إِن مَّكَّنَّاهُـم فِي الْأَرْضِ أَقَامُـوا الصَّـلاةَ وَآتَـوُا الـزَّكَاةَ وَأَمَـرُوا بِالْمَعْـرُوفِ وَنَهَـوْا عَـنِ الْمُنكَـرِ وَللـهِ عَاقِبَـةُ الْأُمُـورِ ﴾ [الحـج: ٤٠-٤١]، وكـما قـال: ﴿ إِنَّـا لَنَنـصُرُ رُسُـلَنَا وَالَّذِيـنَ آمَنُـوا فِي الْحَيَـاةِ الدُّنْيَـا وَيَـوْمَ يَقُـومُ الْأَشْـهَادُ ﴾ [غافـر: ٥١]، وكـما قـال: ﴿ كَتَـبَ اللـهُ لَأَغْلِـبَنَّ أَنَـا وَرُسُـلِي إِنَّ اللـهَ قَـوِيٌّ عَزِيـزٌ﴾ [المجادلـة: ٢١]، وكـما قـال: ﴿وَإِنَّ جُندَنَـا لَهُـمُ الْغَالِبُـونَ﴾ [الصافـات: ١٧٣]»[١].

أحوالُ الناس في التّعامل مع الفتن التي تلقاهم حالَ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

تختلـف أحـوالُ النـاس في تحمّـل مـا يصيبهـم مـن البـلاء حـالَ الأمـر والنهـي، يوضّـح الشـيخ هـذا التبايـن فـيرى أنّ «النـاس هنـا ثلاثـة أقسـام: قسـم يأمـرون وينهـون ويقاتلـون طلبًـا لإزالـة الفتنـة التـي زعمـوا، ويكـون فعلُهـم ذلـك أعظـم فتنـة؛ كالمقتتلـين في الفتنـة الواقعـة بـين الأمّـة.

وأقـوام ينكلـون عـن الأمـر والنهـي والقتـال الـذي يكـون بـه الديـن كلـه للـه، وتكـون كلمـة اللـه هـي العليـا لئـلّا يفتنـوا، وهُـم قـد سـقطوا في الفتنـة، وهـذه الفتنـة المذكـورة في سـورة بـراءة دخـل فيهـا الافتتـان بالصـور الجميلـة؛ فإنهـا سـبب نـزول الآيـة، وهـذه حـال كثـير مـن المتدينـين يتركـون مـا يجـب عليهـم مـن أمـر ونهـي وجهـاد يكـون بـه الديـن كلـه للـه وتكـون كلمـة اللـه هـي العليـا؛ لئـلّا يفتنـوا بجنـس الشـهوات؛ وهُـم قـد وقعـوا في الفتنـة التـي هـي أعظـم مـمّا زعمـوا أنهـم فـرّوا منـه، وإنمـا الواجـب عليهـم القيـام بالواجـب وتـرك المحظـور، وهـما متلازمـان؛ وإنمـا تركـوا ذلـك لكـوْن نفوسـهم لا تطاوعهـم إلّا عـلى فعلهـما جميعًـا أو تركهـما جميعًـا، مثـل كثـيرٍ ممّـن يحـبّ الرئاسـة أو المـال وشـهوات الغـي؛ فإنـه إذا فعـل مـا وجـب عليـه مـن أمـر ونهـي وجهـاد وإمـارة ونحـو ذلـك فـلا بـدّ أن يفعـل شـيئًا مـن المحظـورات، فالواجـب عليـه أن ينظـر أغلـب الأمريـن، فـإن كان المأمـور أعظـم أجـرًا مـن تـرك ذلـك المحظـور لم يـترك ذلـك لمـا يخـاف أن يقـترن بـه مـا هـو دونـه في المفسـدة، وإن كان تـرك المحظـور أعظـم أجـرًا لم يفـوّت ذلـك برجـاء ثـواب بفعـل واجـب يكـون دون ذلـك»[٢].

(١) الفتاوى، (١٦٥/٢٨).

(٢) الفتاوى، (١٦٦/٢٨، ١٦٧).

المبحثُ الثّامن والعشرون

سنّةُ الله عز وجل في المحبّة والكراهية

ومِـن طبيعـة النّفـس الحـبّ والكـره، ولكـن الإسـلام يعـرّف النفـس أي شيء تحـبّ، وأي شيء تكـره، فيوقـع في النفـس حـبّ الـذات، ولكـن بقـدر محـدود لا يطغـى بحيـث يصـير عبـدًا لشـهواته وللذاتـه وللدنيـا، ويوقـع عليـه الحـبّ للـه؛ لأنـه الـودود الرحيـم المنعـم.

ويجعـل النفـس تحـبّ الكـون بمـا يوقـع عليهـا مِـن أنّ هـذا الكـون مخلـوق للـه، وأنهـما عبـدان للـه، وأن هـذا الكـون مسـخَّر لخدمـة الإنسـان.

ثمّ يجعل الحبّ للمؤمنين فيدفعه إلى السعي على مصالحهم ومنافعهم.

ثـمّ يوقـع عـلى وتـر حـبّ جنـس الإنسـان؛ لأنـه مـن مخلوقـات اللـه، والآيـات والأحاديـث التـي جـاءت تبـيّن هـذه المعـاني كثـيرة نـورد بعضهـا: ﴿قُـلْ إِن كُنتُـمْ تُحِبُّـونَ اللـهَ فَاتَّبِعُـونِي يُحْبِبْكُـمُ اللـهُ وَيَغْفِـرْ لَكُـمْ ذُنُوبَكُـمْ وَاللـهُ غَفُـورٌ رَّحِيـمٌ﴾ [آل عمـران: ٣١]، ﴿وَمِـنَ النَّـاسِ مَـن يَتَّخِـذُ مِـن دُونِ اللـهِ أَنـدَاداً يُحِبُّونَهُـمْ كَحُـبِّ اللـهِ وَالَّذِيـنَ آمَنُـواْ أَشَـدُّ حُبًّـا﴾ [البقـرة: ١٦٥].

ومـن الأحاديـث كقولـه: «مـن أحـبّ لقـاء اللـه أحـبّ اللـه لقـاءه، ومَـن كـره لقـاء اللـه كـره اللـه لقـاءه»[١].

وأمّـا الكـره فهـو لـكلّ مـا ورد خـارج طاعـة اللـه سـواء كان شـيطانًا جنيًّـا أو إنسـيًّا، ويوجـه الإسـلام طاقـة الكـره الفكريـة إلى كـره الظلـم بجميـع أنواعـه «يـا عبـادي، إنّي حرمـت الظلـم عـلى نفـسي وجعلتـه بينكـم محرمًـا فـلا تظالمـوا»[٢].

والعـدوان شرّ ينبغـي أن يكـره ويقـاوم ﴿فَمَـنِ اعْتَـدَى عَلَيْكُـمْ فَاعْتَـدُواْ عَلَيْـهِ بِمِثْـلِ مَـا اعْتَـدَى عَلَيْكُـمْ﴾ [البقـرة: ١٩٤].

---

(١) مسند أحمد، ت: شاكر (٨/ ٢٠١).

(٢) صحيح مسلم، (٤/ ١٩٩٤).

والاعتداء على الضعفاء في الجماعة ينبغي أن يكرَه ويقاوم ﴿ وَمَا لَكُمْ لاَ تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاء وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء: ٧٥].

وفتنة الناس عن دينهم شرّ ينبغي أن يكره ويقاوم ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ ﴾ [البقرة: ١٩١]، ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٣].

والإفساد في الأرض ومحاربة الله ورسوله، والصدّ عن سبيله شرّ ينبغي أن يكره وأن يقاوم.

والفواحش ما ظهرَ منها وما بطن شرّ ينبغي أن يقاوم، وكلّ انحراف عن سبيل الله شرّ ينبغي أن يقاوم ويكره، وجماع الشرّ كلّه الشيطان، وهو الذي يتمثّل فيه الشرّ كله، وهو الذي يدعو إلى كلّ شرّ، ومن ثمّ ينبغي أن توجّه له طاقة الكره كاملة، وتُعلَن عليه حربٌ لا هوادة فيها ولا تسليم!

والمؤمن بكلّ طاقاته مجنّد حياته كلها لدفع الشرّ، ومحاولة التغلب عليه، وبذلك يتوازن الحبّ والكره، ويصدر عن كلّ وتر منهما نغمة الصحيح.

والإسلام يوافق الفطرة في هذا فيعترف بالدّوافع: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاء وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران: ١٤] يعترف بدافع حبّ الحياة وما يتفرع عنه من دافع حفظ الذات وحفظ النوع، ودافع القتال عن الذات، أو القتال عن الغير، ودافع الملك، ودافع التميز والبروز.

ولكن لا يترك لهذه الدوافع العنان، بل يضبطها بضوابط لتستقيم الحياة، وإلّا لساقت هذه الدوافع الإنسان إلى الدمار والهلاك، فمهمّة العقيدة والقيم الإسلامية هي ضبط هذه الدوافع حتى لا تصل إلى حدّ التهور والدمار[1].

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، د/ شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، (٨٦/٢-٩٠).

لـو نظرنـا إلى جميـع الأفعـال الموجـودة في هـذا الكـون سـتجد وراءهـا إمّـا بغضًـا لهـذا الفعـل، أو محبّـة لـه، ومـا كان مـن خـلاف ذلـك كان مـن لـوازم أفعـال أخـرى، يقـول شـيخُ الإسـلام موضّحًـا هـذا المعنـى: «فأمّـا وجـود الفعـل فـلا يكـون إلّا عـن محبّـة وإرادة، حتـى دفعـه للأمـور التـي يكرهها ويبغضها هـو لما في ذلـك مـن المحبـوب أو اللـذة يجدهـا بالدّفـع، فيقـال: شـفى صـدره وقلبـه، والشـفاء والعافيـة بمحبـوب.

والمحبـة والإرادة تكـون إمّـا بواسـطة، وإمّـا بغـير واسـطة مثـل فعلـه للأشـياء التـي يكرههـا كـشرب الـدواء والمكـروه، وفعـل الأشـياء المخالفـة لهـواه وصـبره ونحـو ذلـك.

فـإنّ هـذه الأمـور وإنْ كانـت مكروهـة مـن بعـض الوجـوه فإنمـا يفعـل- أيضًـا- لمحبّـة وإرادة، وإن لم تكـن المحبّـة لنفسـها بـل المحبّـة لملازمهـا، فإنـه يحـبّ العافيـة والصحـة المسـتلزمة لإرادة شرب الـدواء، ويحـبّ رحمـة اللـه ونجاتـه مـن عذابـه المسـتلزم لإرادة تـرك مـا يهـواه، كـما قـال تعـالى: ﴿وَأَمَّـا مَـنْ خَـافَ مَقَـامَ رَبِّـهِ وَنَهَـى النَّفْـسَ عَـنِ الْهَـوَى ﴾ [النازعـات: ٤٠]، فـلا يـترك الحـي مـا يحبّـه ويهـواه إلّا لما يحبّـه ويهـواه، لكـن يـترك أضعفهـما محبّـة لأقواهـما محبّـة كـما يفعـل مـا يكرهـه لما محبّتـه أقـوى مـن كراهـة ذلـك، وكـما يـترك مـا يحبّـه لما كراهتـه أقـوى مـن محبـة ذلـك»[١].

المحبّةُ والإرادة أصلان للبغض والكراهية:

«ولهـذا كانـت المحبّـة والإرادة أصـلاً للبغـض والكراهـة، وعلّـة لهـا، ولازمًـا مسـتلزمًا لهـا مـن غـير علـة»[٢].

أسبابُ البغض:

«وفعـل البغـض في العـالم إنّمـا هـو لمنافـاة المحبـوب، ولـولا وجـود المحبـوب لم يكـن البغـض بخـلاف الحـبّ للـشيء، فإنـه قـد يكـون لنفسـه لا لأجـل منافاتـه للبغـض، وبغـض الإنسـان وغضبـه مـمّا يضـادّ وجـود محبوبـه ومانـع ومسـتلزم لا يكـره عليـه، ونجـد قـوة البغـض للنـافي أشـدّ وأحْـوط»[٣].

(١) قاعدة في المحبة، ص(٨).
(٢) قاعدة في المحبة، ص(٨).
(٣) قاعدة في المحبة، ص(٨).

الحبّ في الله والبغضُ في الله رأسُ الإيمان:

يقـول شـيخُ الإسـلام- رحمـه اللـه: «ولهـذا كان رأسُ الإيمـان الحـبَّ في اللـه والبغـضَ في اللـه، وكان مـن أحـبّ للـه وأبغـض للـه وأعطـى للـه ومنـع للـه؛ فقـد اسـتكمل الإيمـان»(١).

المحبّة المحمودة والمحبّة المذمومة:

المحبّـة المحمـودة: التـي أمـر اللـه بهـا وخلـق خلقـه لأجلهـا هـي مـا في عبادتـه وحـده لا شريـك لـه؛ إذ العبـادة متضمّنـة لغايـة الحـبّ بغايـة الـذّل، والمحبّـة التـي تليـق بـه- سـبحانه- هـي العبـادة والإنابـة ونحوهما(٢).

المحبّـة المذمومـة: هـي المحبّـة التـي دخـل فيهـا الـشرك، كـما قـال تعـالى: ﴿وَمِـنَ النَّـاسِ مَـن يَتَّخِـذُ مِـن دُونِ اللـــهِ أَنـدَاداً يُحِبُّونَهُـمْ كَحُـبِّ اللـــهِ وَالَّذِيـنَ آمَنُـواْ أَشَـدُّ حُبًّـا ﴾.

ولهـذا كان هـذا الحـبّ أعظـم الأقسـام المذمومـة في المحبّـة، كـما أن حـبّ اللـه أعظـم الأنـواع المحمــودة(٣).

السعادةُ والنعيم لأصحاب المحبّة المحمودة، والشقاءُ لأصحاب المحبّة المذمومة:

إنّ الـشرك باللـه هـو أعظـمُ أقسـام الحـبّ المذمومـة؛ فهـو أصـل الشـقاء ورأسـه الـذي لا يبقـي في العـذاب إلّا أهلـه.

أمّـا أصحـاب المحبّـة المحمـودة مـن أهـل التوحيـد الذيـن أحبّـوا اللـه وعبـدوه وحـده لا شريـك لـه فـلا يبقـى منهـم في العـذاب أحـد، والذيـن اتّخـذوا مـن دونـه أنـدادًا يحبّونهـم كحبّـه وعبـدوا غـيره هُـم أهـل الـشرك الذيـن قـال اللـه- تعـالى- فيهـم: ﴿إِنَّ اللـــهَ لاَ يَغْفِـرُ أَن يُـشْرَكَ بِـهِ ﴾ [النسـاء: ٤٨].

وجـماعُ القـرآن هـو الأمـر بتلـك المحبّـة ولوازمهـا، والنهـي عـن هـذه المحبّـات ولوازمهـا، وضرب الأمثـال والمقاييـس للنوعـين، وذكـر قصـص أهـل النوعـين.

(١) قاعدة في المحبة، ص(٩).
(٢) قاعدة في المحبة، ص(١٠).
(٣) قاعدة في المحبة، ص(١١).

وأصـل دعـوة جميـع المرسـلين قولهـم: ﴿اعْبُـدُواْ اللــهَ مَـا لَكُـم مِّـنْ إِلَـهٍ غَـيْرُهُ﴾ [الأعـراف: ٥٩]، وعـلى ذلـك قاتـلَ مَـن قاتـل منهـم المشركـين، كـما قـال خاتـم الرسـل: «أمـرت أن أقاتـل النـاس حتـى يشـهدوا أن لا إلـه إلّا اللـه، وأن محمـدًا عبـده ورسـوله، فـإذا قالوهـا عصمـوا منـي دماءهـم وأموالهـم إلّا بحقّهـا وحسـابهم عـلى اللـه»[1].

قـال اللـه- تعـالى: ﴿شَرَعَ لَكُـم مِّـنَ الدِّيـنِ مَـا وَصَّى بِـهِ نُوحًـا وَالَّـذِي أَوْحَيْنَـا إِلَيْـكَ وَمَـا وَصَّيْنَـا بِـهِ إِبْرَاهِيـمَ وَمُـوسَى وَعِيـسَى أَنْ أَقِيمُـوا الدِّيـنَ وَلَا تَتَفَرَّقُـوا فِيـهِ كَـبُرَ عَـلَى الْمُشْرِكِـينَ مَـا تَدْعُوهُـمْ إِلَيْـهِ﴾ [الشـورى: ١٣].

ولهـذا قـال في الحديـث المتّفـق عليـه في الصحيحـين، عـن أنـس بـن مالـك -رضي اللـه عنـه - قـال: «ثـلاث مَـن كـنّ فيـه وجـد حـلاوة الإيمـان»[2]، وفي روايـة في الصحيـح: «لا يجـد طعـم الإيمـان إلّا مَـن كان فيـه ثـلاث: أن يكـون اللـه ورسـوله أحـبّ إليـه مـمّا سـواهما، وأن يحـبّ المـرء لا يحبّـه إلّا للـه، وأن يكـره أن يرجـع في الكفـر بعـد إذ أنقـذه اللـه كـما يكـره أن يلقـى في النـار».

وفي الصحيـح عـن أنـس- أيضًـا، عـن النبـي قـال: «والـذي نفـسي بيـده لا يؤمـن أحدكـم حتـى أكـون أحـبّ إليـه مـن ولـده ووالـده والنـاس أجمعـين»[3].

وفي صحيـح البخـاري أنّ عمـر قـال: يـا رسـولَ اللـه، واللـه لأنـت أحـبّ إليّ مـن كلّ شيء إلّا مـن نفـسي. فقـال: «لا يـا عمـر، حتـى أكـون أحـبّ إليـك مـن نفسـك». قـال: فـو الـذي بعثـك بالحـقّ لأنـت أحـبّ إلي مـن نفـسي. قـال: «الآن يـا عمـر»[4].

آثارُ وتوابع المحبّة:

يقـول شـيخُ الإسـلام- رحمـه اللـه: «كـما بيّنّـا أنّ المحبّـة والإرادة أصـل كلّ عمـل في العـالم؛ فعـن إرادة ومحبّـة صـدر، ولهـذا كانـت المحبّـة والإرادة مُنقسـمة إلى: محبـوب للـه وغـير محبـوب، كـما أنّ العمـل والحركـة منقسـم كذلـك.

(١) صحيح البخاري، (١/ ١٤).

(٢) صحيح البخاري، (١٢/١).

(٣) صحيح مسلم، (٦٧/١).

(٤) قاعدة في المحبة، ص(١١، ١٢، ١٣)، وانظر الحديث في الجامع الصحيح للسنن والمسانيد، (٤٣/٤).

وإذا كان كذلك فالمحبّة لها آثار وتوابع سواء كانت صالحة محمودة نافعة، أو كانت غير ذلك، لها وجْدٌ وحلاوة وذوق ووصال وصدود، ولها سرور وحزن وبكاء.

والمحبّة المحمودة هي المحبّة النافعة، وهي التي تجلب لصاحبها ما ينفعه وهو السعادة، والضارة هي التي تجلب لصاحبها ما يضرّه وهو الشقاء، ومعلوم أنّ الحي العالم لا يختار أن يحبّ ما يضرّه، لكن يكون ذلك عن جهل وظلم؛ فإنّ النفس قد تهوى ما يضرّها ولا ينفعها، وذلك ظلم منها لها، وقد تكون جاهلة بحالها به بأنْ تهوى الشيء وتحبّه بلا علم منها بما في محبّته من المنفعة والمضرّة وتتبع هواها، وهذا حال مَن اتّبع هواه بغير علم.

وقد يكون عن اعتقادٍ فاسد، وهو حال مَن اتّبع الظنّ وما تهوى نفسه، وكلّ ذلك من أمور الجاهلية، وإن كان كلّ من جهلها وظلمها لا يكاد يخلو عن شبهة يشتبه بها الحقّ، وشهوة هي في الأصل محمودة إذا وضعت في محلّها كحال الذي يحبّ لقاء قريبه؛ فإن هذا محمود، وهو أصل صلة الرحم التي هي شجنة من الرحمن.

لكن إذا اتّبع هواه حتى خرج عن العدل بين ذوي القربى وغيرهم كان هذا ظلمًا، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء للهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ ﴾ [النساء: ١٣٥].

وكذلك الذي يحبّ الطعام والشراب والنساء فإن هذا محمود، وبه يصلح حال بني آدم، ولولا ذلك لما استقامت نفس الأنساب، ولا وجدت الذرية، ولكن يجب العدل والقصد في ذلك، كما قال تعالى: ﴿وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: ٣١]، وكذلك: ﴿إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ {٦/٢٣} فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاء ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦، ٧]، فإذا تجاوز حدّ العدل، وهو المشروع؛ صار ظالمًا عاديًا بحسب ظلمه وعدوانه[١].

(١) قاعدة في المحبة، ص(١٦، ١٧).

الأهواءُ المذمومة:

عدّد شيخُ الإسلام صورًا من الأهواء المذمومة، منها:

١- الآراءُ المخالفة للسنّة والشريعة في مسائل الاعتقاد الخبرية ومسائل الأحكام العملية، وسمّى أهلها: أهل الأهواء؛ لأنّ الرأي المخالف للسنة جهلٌ لا علم، ويؤكّد على ذلك بدليلٍ من القرآن حيث يذكر الله في القرآن مَن يتّبع هواه بغير علم، ويذمّ من يتبع هواه بغير هدي من الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللّهِ﴾ [القصص: ٥٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ [الأنعام: ١١٩].

وكلّ مَن اتبع هواه اتبعه بغير علم؛ إذ لا علم بذلك إلّا بهدى الله الذي بعث به رسله، كما قال تعالى: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى {١٢٣/٢٠} وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾، ولهذا ذمّ الله الهوى في مواضع من كتابه[1].

٢- واتباع الهوى يكون في الحبّ والبغض، كقوله تعالى: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ [ص: ٢٦]، فهنا يكون اتباع الهوى هو ما يخالف الحقّ في الحكم، قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ كُونُواْ قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاء لِلّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقَيراً فَاللّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ وَإِن تَلْوُواْ أَوْ تُعْرِضُواْ فَإِنَّ اللّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ [النساء: ١٣٥][2].

نهى النبيُّ عن اتّباع أهواء الخلق:

قال تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءهُم بَعْدَ الَّذِي جَاءكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ ﴾ [البقرة: ١٢٠]، نهى عن اتباع أهواء الذين أوتوا الكتاب بعد ما جاءهم من العلم.

---

(١) قاعدة في المحبة، ص(١٩).

(٢) قاعدة في المحبة، ص(١٩، ٢٠).

وكذلك قال- تعالى- في آية أخرى: ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾ [المائدة: ٤٩].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللّهَ حَرَّمَ هَذَا فَإِن شَهِدُواْ فَلاَ تَشْهَدْ مَعَهُمْ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴾ [الأنعام: ١٥٠].

فقد نهاه عن اتّباع أهواء المشركين، واتباع أهواء أهل الكتاب، وحذره أن يفتنوه عما أنزل الله إليه من الحقّ، وذلك يتضمّن النهي عن اتباع أهواء أحد في خلاف شريعته وسنته، وكذا أهل الأهواء من هذه الأمّة.

وقد بيّن ذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاء الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ {١٨/٤٥} إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا عَنكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاء بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ ﴾ [الجاثية: ١٨، ١٩].

فقد أمره في هذه الآية باتّباع الشريعة التي جعله عليها، ونهاه عن اتباع ما يخالفها، وهي أهواء الذين لا يعلمون.

ولهذا كان كلّ مَن خرج عن الشريعة والسنة من أهل الأهواء كما سماهم السلف[1].

وأخيرًا يقول شيخُ الإسلام ملخّصًا ما في هذه السنة بكلام رائع: «ولمّا كانت كلّ حركة وعمل في العالم فأصلها المحبّة والإرادة، وكلّ محبّة وإرادة لا يكون أصلها محبّة الله وإرادةَ وجهه فهي باطلةٌ فاسدة؛ كان كلّ عمل لا يُراد به وجهه باطلًا، فأعمال الثقلين الجنّ والإنس منقسمة؛ منهم مَن يعبد الله ومنهم مَن لا يعبده، بل قد يجعل معه إلهًا آخر، وأمّا الملائكة فهم عابدون لله.

وجميعُ الحركات الخارجة عن مقدور بني آدم والجن والبهائم فهي من عمل الملائكة وتحريكها لما في السماء والأرض وما بينهما، فجميع تلك الحركات والأعمال عبادات لله مُتضمنة

(١) انظر: قاعدة في المحبة، ص(٢٠، ٢١، ٢٢) بتصرف.

لمحبّته وإرادته وقصده، وجميع المخلوقات عابدة لخالقها، إلّا ما كان من مردَة الثقلين، وليست عبادتها إيّاه قبولها لتدبيره وتصريفه وخلقه، فإنّ هذا عام لجميع المخلوقات حتى كفار بني آدم، فلا يخرج أحدٌ عن مشيئته وتدبيره، وذلك بكلمات الله التي كان النبي يستعيذ بها فيقول: (أعوذ بكلمات الله التامّات التي لا يجاوزهن برّ ولا فاجر)، وهذا من عموم ربوبيّته وملكه.

وهذا الوجه هو الذي أدركه كثيرٌ من أهل النظر والكلام حتى فسّروا ما في القرآن والحديث من عبادة الأشياء وسجودها وتسبيحها بذلك، وهُم غالطون في هذا التّخصيص شرعًا وعقلًا- أيضًا؛ فإنّ المعقول الذي لهم يعرفهم أنّ كلّ شيء وكلّ مُتحرك وإنْ كان له مبدأ فلا بدّ له من غاية ومنتهى، كما يقولون: لها علّتان، فاعلية وغائية، والذي ذكروه إنّما هو من جهة العلة الفاعلية، وبعض المخلوقين كذلك يجعلونه من جهة العلة الغائية، وهذا غلط»[1].

ذكر الشيخ- رحمه الله- آراءَ الفلاسفة وردّ عليها، ثمّ ذكر بعد ذلك استنتاجًا وهو «أنّه إذا كانت المحبّة والإرادة أصل كلّ عمل وحركة، وأعظمها في الحقّ محبّة الله وإرادته بعبادته وحده لا شريك له، وأعظمها في الباطل أن يتّخذ الناس من دون الله أندادًا يحبونهم كحب الله، ويجعلون له عدلًا وشريكًا؛ علم أنّ المحبة والإرادة أصل كلّ دين، سواء كان دينًا صالحًا أو دينًا فاسدًا؛ فإنّ الدين هو من الأعمال الباطنة والظاهرة، والمحبّة والإرادة أصل ذلك كلّه، والدين هو الطاعة والعبادة والخلق، فهو الطّاعة الدائمة اللازمة التي قد صارت عادة وخلقًا بخلاف الطاعة مرّة واحدة، ولهذا فسّر الدين بالعادة والخلق، ويفسر الخلق بالدين- أيضًا- كما في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤]، قال ابن عباس: على دين عظيم، وذكره عنه سفيان بن عيينة، وأخذه الإمام أحمد عن سفيان بن عيينة وبذلك فسراه، وكذلك يفسر بالعادة..»[2].

ويقول- أيضًا: «وإذا كان كلّ عمل عن محبّة وإرادة، والترك يكون عن بغض وكراهة، وكلّ أحد همام حارث له حبّ وبغض لا يخلو الحي عنهما، وعمله يتبع حبّه وبغضه، ثمّ قد

(١) قاعدة في المحبة، ص(٢٢-٢٣).

(٢) انظر: قاعدة في المحبة، ص(٣١-٣٢).

يكون ذلك في أمور هي له عادة وخلق، وقد يكون في أمور عارضة لازمة؛ علم أنّ كلّ طائفة من بني آدم لا بدّ لهم من دين يجمعهم؛ إذْ لا غني لبعضهم عن بعض، وأحدهم لا يستقل بجلب منفعته ودفع مضرته، فلا بدّ من اجتماعهم، وإذا اجتمعوا فلا بدّ أن يشتركوا في اجتلاب ما ينفعهم كلهم مثل: طلب نزول المطر، وذلك محبتهم له، وفي دفع ما يضرهم مثل عدوهم، وذلك بغضهم له، فصار ولا بدّ أن يشتركوا في محبة شيء عام وبغض شيء عام، وهذا هو دينهم المشترك العام.

وأمّا اختصاص كلّ منهم بمحبة ما يأكله ويشربه وينكحه وطلب ما يستره باللباس فهذا يشتركون في نوعه لا في شخصه، بل كلّ منهم يحب نظير ما يحبه الآخر لا عينه، بل كلّ منهم لا ينتفع في أكله وشربه ونكاحه ولباسه بعين ما ينتفع به الآخر، بل بنظيره.

وهكذا هي الأمور السماوية في الحقيقة، فإنّ عين المطر الذي ينزل في أرض هذا ليس هو عينَ الذي ينزل في أرض هذا، ولكن نظيره ولا عين الهواء البارد الذي يصيب جسد أحدهم قد لا يكون نفس عين الهواء البارد الذي يصيب جسد الآخر، بل نظيره»[١].

لكنّ الأمور السماوية تقع مشتركة عامّة، ولهذا تعلّق حبّهم وبغضهم بها عامّة مشتركة بخلاف الأمور التي تتعلّق بأفعالهم كالطعام واللباس، فقد تقع مختصة، وقد تقع مشتركة.

وإذا كان كذلك فالأمور التي يحتاجون إليها يحتاجون أن يوجبوها على أنفسهم، والأمور التي تضرّهم يحتاجون أن يحرموها على نفوسهم وذلك دينهم، وذلك لا يكون إلّا باتفاقهم على ذلك وهو التعاهد والتعاقد؛ ولهذا جاء في الحديث «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمَن لا عهد له»[٢]، فهذا هو من الدين المشترك بين جميع بني آدم من التزام واجبات ومحرمات، وهو الوفاء والعهد، وهذا قد يكون باطلاً فاسدًا إذا كان فيه مضرّة لهم راجحة على منفعته، وقد يكون دينًا حقًّا إذا كانت منفعة خاصة أو راجحة، كما قال تعالى: ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ {١/١٠٩} لَا أَعْبُدُ

(١) قاعدة في المحبة، ص(٣٥).

(٢) السنن الكبرى للبيهقي، (٤٧١/٦).

مَـا تَعْبُـدُونَ {٢/١٠٩} وَلَا أَنتُـمْ عَابِـدُونَ مَـا أَعْبُـدُ {٣/١٠٩} وَلَا أَنَـا عَابِـدٌ مَّـا عَبَدتُّـمْ {٤/١٠٩} وَلَا أَنتُـمْ عَابِـدُونَ مَـا أَعْبُـدُ {٥/١٠٩} لَكُـمْ دِينُكُـمْ وَلِيَ دِيـنِ ﴾ [سـورة الكافـرون](١).

«وإذا كان لا بـدّ لـكل آدمـي مـن اجتـماع، ولا بـدّ في كلّ اجتـماع مـن طاعـة وديـن، وكل ديـن وطاعـة لا يكـون للـه فهـو باطـل، فـكل ديـن سـوى الإسـلام فهـو باطـل، وأيضًـا- فـلا بـدّ لـكل حـي مـن محبـوب هـو منتهـى محبتـه وإرادتـه، وإليـه تكـون حركـة باطنـه وظاهـره، وذلـك هـو إلهـه، ولا يصلـح ذلـك إلّا للـه وحـده لا شريـك لـه، فـكلّ مـا سـوى الإسـلام فهـو باطـل.

والمتفرّقـون- أيضًـا- فيـه الذيـن أخـذ كلّ منهـم ببعضـه وتـرك بعضـه، وافترقـت أهواؤهـم قـد بـرئ اللـه ورسـوله منهـم، ولا بـدّ في كلّ ديـن وطاعـة ومحبّـة مِـن شـيئين: أحدهـما: الديـن المحبـوب المطـاع، وهـو المقصـود المـراد. والثـاني: نفـس صـورة العمـل التـي تطـاع ويعبـد بهـا، وهـو السـبيل والطريـق والشريعـة والمنهـاج والوسـيلة.

كـما قـال الفضيـل بـن عيـاض في قولـه تعـالى: ﴿لِيَبْلُوَكُـمْ أَيُّكُـمْ أَحْسَـنُ عَمَـلاً ﴾ قـال: أخلصـه وأصوبـه. قالـوا: يـا أبـا عـلي، مـا أخلصـه وأصوبـه؟ قـال: إنّ العمـل إذا كان خالصًـا ولم يكـن صوابًـا لم يقبـل، وإذا كان صوابًـا ولم يكـن خالصًـا لم يقبـل، حتـى يكـون خالصًـا صوابًـا، والخالـص أن يكـون للـه، والصـواب أن يكـون عـلى السـنة.

فهكـذا كان الديـن يجمـع هذيـن الأمريـن المعبـود والعبـادة، والمعبـود إلـه واحـد، والعبـادة طاعتـه وطاعـة رسـوله، فهـذا هـو ديـن اللـه الـذي ارتضـاه، كـما قـال تعـالى: ﴿وَرَضِيـتُ لَكُـمُ الإِسْـلاَمَ دِينًـا ﴾ [المائـدة: ٣]، وهـو ديـن المؤمنـين مـن الأولـين والآخريـن، وهـو الديـن الـذي لا يقبـل اللـه مـن أحـد غـيره؛ لأنـه ديـن فاسـد باطـل كمـن عبـد مَـن لا تصلـح عبادتـه، أو عبـد بمـا لا يصلـح أن يعبـد بـه»(٢).

وموضـوع الحـبّ والكراهيـة يحـوي تحتَـه كثـيرًا مـن العناويـن التـي لا يمكـن اسـتقصاؤها في هـذه الرسـالة، ومـن هـذه العناويـن: تفـاوت النـاس في الحـبّ والكراهيـة، وكيـف يتبـدّل الحـبّ بالكراهيـة

(١) قاعدة في المحبة، ص(٣٦).

(٢) قاعدة في المحبة، ص(٣٩، ٤٠).

والعكس[(١)].

أيضًا- إن كلّ محبة وكراهية لا بدّ أن يتبعها لذّة وألم؛ ففي نيل المحبوب لذّة، وفراقه يكون فيه ألم، وفي نيل المكروه ألم، وفي العافية فيه تكون لذّة، فاللذة تكون بعد إدراك المشتهى، والمحبّة تدعو إلى إدراكه[(٢)].

أصل الإيمان العملي هو حبّ الله- تعالى- ورسوله، وحبّ الله أصل التوحيد العملي[(٣)].

أصلُ الإشراك العملي بالله الإشراك في المحبّة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللّهِ أَندَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللّهِ وَالَّذِينَ آمَنُواْ أَشَدُّ حُبًّا لله ﴾[(٤)].

إنّ الحبّ يوجب المجاهدة ومحبة الجهاد؛ لأنه من أحبّ الله وأحبّه الله أحبّ ما يحبّه الله، وأبغض ما يبغضه الله، ووالى مَن يواليه الله، وعادى مَن يعاديه الله، لا تكون محبّة قط إلّا وفيها ذلك بحسب قوّتها وضعفها؛ فإنّ المحبّة توجب الدّنو من المحبوب، والبعد عن مكروهاته، ومتى كان مع المحبّة نبذ ما يبغضه المحبوب؛ فإنها تكون تامّة[(٥)].

***

(١) انظر: السابق، ص(٥٠) وما بعدها.

(٢) قاعدة في المحبة، ص(٦٠) وما بعدها.

(٣) السابق: ص(٦٨).

(٤) السابق: ص(٦٩، ٧٠).

(٥) السابق: ص(٨٩) وما بعدها.

المبحثُ التّاسع والعشرون

سنّةُ الله في إهلاك الأمم

إنّ لله - عز وجل - في الأمم والجماعات سننًا جارية لا تتخلّف ولا تتبدّل، ومن هذه السنن سنّته في الإهلاك، والمرادُ بالإهلاك هنا: التساقط والنّفاد والدمار، يقول شيخُ الإسلام موضّحًا هذه السنّة: «ومن المعلوم بما أرانا الله من آياته في الآفاق وفي أنفسنا وبما شهد به في كتابه: أنّ المعاصي سببُ المصائب؛ فسيئات المصائب والجزاء من سيئات الأعمال. وأنّ الطاعة سببُ النعمة فإحسان العمل سبب لإحسان الله، قال تعالى: ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ ﴾، وقال تعالى: ﴿ مَّا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُواْ وَلَقَدْ عَفَا اللهُ عَنْهُمْ ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، وقال: ﴿ أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال: ﴿أَوْ يُوبِقْهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٤]، وقال: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَإِنَّ الْإِنسَانَ كَفُورٌ﴾ [الشورى: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وقد أخبر- سبحانه- بما عاقب به أهلَ السيئات من الأمم، كـ: قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين وقوم فرعون في الدنيا، وأخبر بما يعاقبهم به في الآخرة، ولهذا قال مؤمن آل فرعون: ﴿ يَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُم مِّثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ {٤٠/ ٣٠} مِثْلَ دَأْبِ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ {٤٠/ ٣١} وَيَا قَوْمِ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ يَوْمَ التَّنَادِ {٤٠/ ٣٢} يَوْمَ تُوَلُّونَ مُدْبِرِينَ مَا لَكُم مِّنَ اللهِ مِنْ عَاصِمٍ وَمَن يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ [غافر: ٣٠-٣٣]، وقال تعالى: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ ﴾ [القلم: ٣٣]، وقال: ﴿سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابٍ عَظِيمٍ ﴾ [التوبة: ١٠١]، وقال: ﴿ وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَدْنَى دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [السجدة: ٢١]، وقال: ﴿فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّمَاء بِدُخَانٍ مُّبِينٍ﴾ إلى قوله: ﴿ يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرَى إِنَّا مُنتَقِمُونَ ﴾ [الدخان: ١٠-١٦]»[١].

ومِن هنا يتّضح لنا أنّ سنّة الله- تعالى- في إهلاك الأمم ماضية لكلّ مَن وقع في أسباب الهلاك.

منهجُ القرآن الكريم في تناوله لإهلاك الأمم:

ولقد وضّح شيخُ الإسلام هذه السنّة، ثمّ عرض منهج القرآن في تناوله لهلاك الأمم؛ فذكر أنّ القرآن عدّد صور ذكر هذه السنّة، فمرّة ذكر العقاب الدنيوي فقط، ومرّة ذكر العقاب الأخروي فقط، ومرّة ذكر العقاب الدنيوي مقرونًا بالآخروي، وقد يأتي العذاب الأخروي مقرونًا ببيان ثواب الأمم الطائعة لله - عز وجل -.

يقول الشيخ- رحمه الله: «لهذا يذكر الله في عامّة سور الإنذار ما عاقب به أهل السيئات في الدنيا، وما أعدّه لهم في الآخرة، وقد يذكر في السورة وعد الآخرة فقط؛ إذ عذاب الآخرة أعظم؛ وثوابها أعظم؛ وهي دار القرار، وإنما يذكر ما يذكره من الثواب والعذاب في الدنيا تبعًا»[٢].

ثمّ عدّد شيخُ الإسلام الأمثلة التي توضّح هذا الكلام، أمّا ذكره للأمم التي تثاب أو التي لها من الثواب والأجر فمثل قصة يوسف: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ {٥٦/١٢} وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف: ٥٦-٥٧]، وقال عن إبراهيم- عليه الصلاة والسلام: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٧].

وأمّا ذكره لعقوبة الدنيا والآخرة ففي سورة: ﴿وَالنَّازِعَاتِ غَرْقًا {٧٩/ ١} وَالنَّاشِطَاتِ نَشْطًا﴾ ثمّ قال: ﴿ يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ {٧٩/ ٦} تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾ فذكر القيامة مطلقًا، ثمّ قال: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ

---

(١) الفتاوى، (١٣٨/٢٨).

(٢) مجموع الفتاوى، (١٣٩/٢٨).

مُـوسَى {٧٩/ ١٥} إِذْ نَـادَاهُ رَبُّـهُ بِالْـوَادِ الْمُقَـدَّسِ طُـوًى {٧٩/ ١٦} اذْهَـبْ إِلَى فِرْعَـوْنَ إِنَّـهُ طَغَـى ﴾ إلى قولـه: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَعِـبْرَةً لِّمَـن يَخْـشَى﴾، ثـمّ ذكـر المبـدأ والمعـاد مفصـلاً فقـال: ﴿أَأَنتُـمْ أَشَـدُّ خَلْقًـا أَمِ السَّـماء بَنَاهَـا ﴾ إلى قـوله تعـالى: ﴿ فَـإِذَا جَـاءتِ الطَّامَّـةُ الْكُـبْرَى ﴾ إلى قولـه تعـالى: ﴿فَأَمَّـا مَـن طَغَـى {٧٩/ ٣٧} وَآثَـرَ الْحَيَـاةَ الدُّنْيَـا {٧٩/ ٣٨} فَـإِنَّ الْجَحِيـمَ هِـيَ الْـمَأْوَى {٧٩/ ٣٩} وَأَمَّـا مَـنْ خَـافَ مَقَـامَ رَبِّـهِ وَنَهَـى النَّفْـسَ عَـنِ الْهَـوَى {٧٩/ ٤٠} فَـإِنَّ الْجَنَّـةَ هِـيَ الْـمَأْوَى ﴾ إلى آخـر السـورة.

وكذلـك في «المزمـل» ذكـر قولـه: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِـينَ أُولِي النَّعْمَـةِ وَمَهِّلْهُـمْ قَلِيـلاً {١١/٧٣} إِنَّ لَدَيْنَـا أَنـكَالًا وَجَحِيـمًا {١٢/٧٣} وَطَعَامًـا ذَا غُصَّـةٍ وَعَذَابًـا أَلِيـمًا ﴾ إلى قولـه تعـالى: ﴿ كَـمَا أَرْسَـلْنَا إِلَى فِرْعَـوْنَ رَسُـولًا {١٥/٧٣} فَعَـصَى فِرْعَـوْنُ الرَّسُـولَ فَأَخَذْنَـاهُ أَخْـذًا وَبِيـلاً﴾.

كذلـك في «سـورة الحاقـة» ذكـر قصـص الأمـم؛ كـ: ثمـود وعـاد وفرعـون، ثـمّ قـال تعـالى: ﴿فَـإِذَا نُفِـخَ فِي الصُّـورِ نَفْخَـةٌ وَاحِـدَةٌ {١٣/٦٩} وَحُمِلَـتِ الْأَرْضُ وَالْجِبَـالُ فَدُكَّتَـا دَكَّـةً وَاحِـدَةً ﴾ إلى تمـام مـا ذكـره مـن أمـر الجنـة والنـار.

وكذلـك في سـورة القلـم؛ ذكـر قصـة أهـل البسـتان الذيـن منعـوا حـقّ أموالهـم، ومـا عاقبهـم بـه، ثـمّ قـال: ﴿كَذَلِـكَ الْعَـذَابُ وَلَعَـذَابُ الْآخِـرَةِ أَكْبَرُ لَـوْ كَانُـوا يَعْلَمُـونَ ﴾.

كذلـك في «سـورة التغابـن» قـال: ﴿أَلَـمْ يَأْتِكُـمْ نَبَـأُ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا مِـن قَبْـلُ فَذَاقُـوا وَبَـالَ أَمْرِهِـمْ وَلَهُـمْ عَـذَابٌ أَلِيـمٌ {٥/٦٤} ذَلِـكَ بِأَنَّـهُ كَانَـت تَّأْتِيهِـمْ رُسُـلُهُم بِالْبَيِّنَـاتِ فَقَالُـوا أَبَـشَرٌ يَهْدُونَنَـا فَكَفَـرُوا وَتَوَلَّـوا وَّاسْـتَغْنَى اللـهُ وَاللـهُ غَنِـيٌّ حَمِيـدٌ ﴾، ثـمّ قـال: ﴿زَعَـمَ الَّذِيـنَ كَفَـرُوا أَن لَّـن يُبْعَثُـوا قُـلْ بَـلَى وَرَبِّي لَتُبْعَـثُن ﴾.

وكذلك في سورة «ق» ذكر حال المخالفين للرسل، وذكر الوعد والوعيد في الآخرة.

وكذلك في «سورة القمر» ذكر هذا وهذا.

كذلـك في «آل حـم» مثـل حـم غافـر؛ والسـجدة، والزخـرف، والدخـان وغـير ذلـك. إلى غـير ذلـك مـمّا لا يحـصى[1].

(١) الفتاوى، (١٣٩/٢٨) وما بعدها بتصرف يسير.

صورُ هلاكِ الأمم في القرآن الكريم:

تنوّعت صور الهلاك للأمم في كتاب الله - عز وجل -، وذكر الله تفصيلاً لهذا الهلاك حتى تكون أحوالهم عبرة لمن يأتي بعدهم، فلا يصدر منهم ما يكون سببًا لهلاكهم، كما كانت الأمم البائدة، ومن هذه الأمم: ثمود حيث أهلكهم الله بالصيحة، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: ٩]، يقول شيخُ الإسلام: «وهذا كثير في الكتاب العزيز، يخبر الله- سبحانه- عن إهلاك المخالفين للرسل ونجاة أتباع المرسلين؛ ولهذا يذكر- سبحانه- في سورة الشعراء قصّة موسى وإبراهيم ونوح وعاد وثمود ولوط وشعيب، ويذكر لكلّ نبي إهلاكه لمكذبيهم، والنجاة لهم ولأتباعهم، ثمّ يختم القصة بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ {٨/٢٦} وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾، فختم القصة باسمين من أسمائه تقتضيها تلك الصفة ﴿وهو العزيز الرحيم﴾ فانتقم من أعدائه بعزّته وأنجى رسله وأتباعهم برحمته»[1].

ويقول شيخُ الإسلام- رحمه الله- موضّحًا هذا التنوع: «وكان عذاب كلّ أمّة بحسب ذنوبهم وجرائمهم، فعذّب قوم عاد بالريح الشديدة العاتية التي لا يقوم لها شيء، وعذّب قوم لوط بأنواع من العذاب لم يعذب بها أمّة غيرهم، فجمع لهم بين الهلاك والرّجم بالحجارة من السماء وطمس الأبصار وقلب ديارهم عليهم؛ بأن جعل عاليها سافلها والخسف بهم إلى أسفل سافلين، وعذّب قوم شعيب بالنار التي أحرقتهم وأحرقت تلك الأموال التي اكتسبوها بالظلم والعدوان، وأمّا ثمود فأهلكهم بالصيحة فماتوا في الحال.

فإذا كان هذا عذابه لهؤلاء وذنبهم مع الشرك عقر الناقة التي جعلها الله آية لهم، فمَن انتهك محارم الله واستخفّ بأوامره ونواهيه وعقر عباده وسفك دماءهم كان أشدّ عذابًا.

ومَن اعتبر أحوال العالم قديمًا وحديثًا، وما يعاقب به مَن يسعى في الأرض بالفساد وسفك الدماء بغير حقّ وأقام الفتن واستهان بحرمات الله علم أنّ النجاة في الدنيا والآخرة للذين آمنوا وكانوا يتقون»[2].

(١) الفتاوى، (٩٨/١٩).

(٢) الفتاوى، (٢٥٠/١٦)

مِن أسباب هلاك الأمم:

تنوّعت أسبابُ هلاك الأمم في القرآن الكريم، ومنها:

١- الشرك والذنوب.

٢- مخالفة الرسل وتكذيبهم.

٣- الظلم بشتى صوره وأنواعه.

٤- الفساد بألوانه المتعدّدة.

٥- الانحراف عن منهج الله.

لقد ارتبطت كلّ أمّة من الأمم التي أهلكها الله بذنبٍ لم يسبق أحد إليه غيرها، وجمعوا مع ذلك الشرك، «فمثلاً قوم لوط كان مع الشرك إتيان الفواحش، وفي عاد مع الشرك التجبر والتكبر والتوسع في الدنيا وشدة البطش، وقولهم: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً ﴾ [فصلت: ١٥]، وفي أصحاب مدين مع الشرك الظلم في الأموال، وفي قوم فرعون الفساد في الأرض والعلو؛ لذلك كان عذابهم على ذنوبهم من جنس أعمالهم.

ويذكر شيخُ الإسلام أسباب الهلاك بصورة أكثر تفصيلاً في موضع آخر فيقول: «قصّ الله علينا أخبار الأمم المكذّبة للرسل، وما صارت إليه عاقبتهم، وأبقى آثارهم وديارهم عبرةً لمَن بعدهم وموعظة، وكذلك مسخ من مسخ قردة وخنازير لمخالفتهم لأنبيائهم، وكذلك من خسف به، وأرسل عليه الحجارة من السماء وأغرقه في اليم، وأرسل عليه الصيحة، وأخذه بأنواع العقوبات، وإنما ذلك بسبب مخالفتهم للرسل وإعراضهم عمّا جاءوا به، واتخاذهم أولياء من دونه.

وهذه سنتُه- سبحانه- فيمَن خالف رسله وأعرض عمّا جاءوا به واتبع غير سبيلهم؛ ولهذا أبقى الله- سبحانه- آثار المكذبين لنعتبر بها ونتّعظ؛ لئلاّ نفعل كما فعلوا فيصيبنا ما أصابهم.

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَـذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ {٣٤/٢٩} وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٣٤، ٣٥]، وقال تعالى:

﴿ ثُـمَّ دَمَّرْنَـا الْآخَرِيـنَ {١٣٦/٣٧} وَإِنَّكُـمْ لَتَمُـرُّونَ عَلَيْهِـم مُّصْبِحِـينَ {١٣٧/٣٧} وَبِاللَّيْـلِ أَفَـلَا تَعْقِلُـونَ ﴾ [الصافـات: ١٣٦-١٣٨]، أي: تمـرّون عليهـم نهـارًا بالصبـاح وبالليـل، ثـمّ قـال: ﴿ أَفَـلَا تَعْقِلُـونَ ﴾، وقـال- تعـالى- في مدائـن قـوم لـوط: ﴿وَأَمْطَرْنَـا عَلَيْهِـمْ حِجَـارَةً مِّـن سِجِّيلٍ {٧٤/١٥} إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـاتٍ لِّلْمُتَوَسِّـمِينَ {٧٥/١٥} وَإِنَّهَـا لَبِسَـبِيلٍ مُّقِيـمٍ ﴾ [الحجـر: ٧٤-٧٦]، يعنـي: مدائنهـم بطريـق مقيـم يراهـا المـارّ بهـا، وقـال تعـالى: ﴿ أَوَلَـمْ يَسِـيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُـرُوا كَيْـفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِيـنَ مِن قَبْلِهِـمْ ﴾. الروم: ٩.

وهـذا كثـيرٌ في الكتـاب العزيـز يخـبر اللـه- سـبحانه- عـن إهـلاك المخالفـين للرسـل، ونجـاة أتبـاع المرسـلين؛ ولهـذا يذكـر- سـبحانه- في سـورة الشـعراء قصـة مـوسى وإبراهيـم ونـوح وعـاد وثمـود ولـوط وشـعيب، ويذكـر لـكلّ نبـي إهلاكـه لمكذبيهـم، والنجـاة لهـم ولأتباعهـم، ثـمّ يختـم القصـة بقولـه: ﴿إِنَّ فِي ذَلِـكَ لَآيَـةً وَمَـا كَانَ أَكْثَرُهُـم مُّؤْمِنِـينَ {٦٧/٢٦} وَإِنَّ رَبَّـكَ لَهُـوَ الْعَزِيـزُ الرَّحِيـمُ ﴾، فختـم القصـة باسـمين مـن أسـمائه تقتضيهـا تلـك الصفـة وهـو ﴿ الْعَزِيـزُ الرَّحِيـمُ﴾ فانتقـم مـن أعدائـه بعزتـه، وأنجـى رسـله وأتباعهـم برحمتـه»[1].

ومن سنّته- تعالى- أنه لا يعذّبُ إلّا بذنب:

يـرى الشـيخ أنّ هـذا مِـن سـنن اللـه- تعـالى- في إهـلاك الأمـم فيقـول: «والقـرآن يبـيّن في غـير موضـعٍ أنّ اللـه لم يهلـك أحـدًا ولم يعذّبـه إلّا بذنـب، فقـال هنـا: ﴿ وَمَـا أَصَابَـكَ مِـن سَـيِّئَةٍ فَمِـن نَّفْسِـكَ ﴾ [النسـاء: ٧٩]، وقـال لهـم في شـأن أحـد: ﴿أَوَلَـمَّا أَصَابَتْكُـم مُّصِيبَـةٌ قَـدْ أَصَبْتُـم مِّثْلَيْهَـا قُلْتُـمْ أَنَّى هَـذَا قُـلْ هُـوَ مِـنْ عِنـدِ أَنْفُسِـكُمْ ﴾ [آل عمـران: ١٦٥]، وقـال تعـالى: ﴿وَمَـا أَصَابَكُـم مِّـن مُّصِيبَـةٍ فَبِـمَا كَسَـبَتْ أَيْدِيكُـمْ وَيَعْفُـو عَـن كَثِيرٍ ﴾، وقـال- تعـالى- في سـورة الشـورى- أيضًـا: ﴿وَإِن تُصِبْهُـمْ سَـيِّئَةٌ بِمَـا قَدَّمَـتْ أَيْدِيهِـمْ فَـإِنَّ الْإِنسَـانَ كَفُـورٌ ﴾ [الشـورى: ٤٨]، وقـال تعـالى: ﴿قُـلْ أَرَأَيْتُـمْ إِنْ أَتَاكُـمْ عَذَابُـهُ بَيَاتًـا أَوْ نَهَـارًا مَّـاذَا يَسْـتَعْجِلُ مِنْـهُ الْمُجْرِمُـونَ﴾ [يونـس: ٥٠]»[2].

***

(١) الفتاوى، (٩٨/١٩).

(٢) الفتاوى، (٤٢٤/١٤).

المبحثُ الثّلاثون

سنّةُ الله في بقاء الأمم

المقصود ببقاء الأمم هو التّمكين لها في الأرض ونجاتها ممّا حلّ بالأمم الماضية من العذاب، وتحوي في طيّاتها البركة والنماء والاستمرار، كما يعني الاستخلاف في الأرض، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا منكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُم فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُون﴾ [النور: ٥٥]، وقال تعالى: ﴿ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُواْ إِنَّ الأَرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَن يَشَاء مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [الأعراف: ١٢٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

وإذا تتبّعنا الآيات القرآنية الكريمة وجدنا بوضوح أنّها تدلّ على أن الله- تعالى- له في بقاء الأمم وفنائها سننٌ ثابتة لا تتغيّر ولا تتبدّل، وتتّبع شيخ الإسلام هذه الآيات الكريمة وغيرها، وتناول السّننية فيها فيما نعرضه في الصفحات الآتية:

أسبابُ بقاء الأمم:

عرض شيخُ الإسلام سنةَ الله في بقاء الأمم مبينًا ذلك بمقابلتها بأسباب الهلاك، فذكرَ مثالين للأمم التي أراد لها البقاء والخير مثل: قوم يوسف - عليه السلام-، وقوم إبراهيم، وذكر الآيات؛ ففي قصة يوسف - عليه السلام - ذكر قوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ مَكَّنِّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاء نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاء وَلاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ {٥٦/١٢} وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ﴾ [يوسف: ٥٦-٥٧]، وقال: ﴿فَآتَاهُمُ اللهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي اللهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ {٤١/١٦} الَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٤١، ٤٢]، وقال عن إبراهيم- عليه الصلاة والسلام: ﴿وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾[1].

---

(١) الفتاوى، (١٤٠/٢٨).

ونلمـح مـمّا سـبق أهـم الصفـات التـي سـاعدت تلـك الأمـم عـلى البقـاء مـن: التقـوى والعمـل الصالـح والصـبر عـلى الابتـلاء، وحسـن توكلهـم عـلى اللـه تعـالى.

ولقـد ذكـر شـيخُ الإسـلام أسـبابَ هـلاك الأمـم بعـد اسـتعراضه لفضيلـة الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر وأسـبابها وشروطهـا وفضلهـا، وبـيّن أنهـا وسـيلة للقضـاء عـلى الذنـوب التـي هـي السـبب الأسـاس لهـلاك الأمـم، مـمّا يفهـم ضمنـًا أنّ مـن أسـباب بقـاء الأمـم التـي وضّـح الشـيخ الأخـذ بالأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر فهـو سـببٌ مـن أسـباب خيريـة هـذه الأمّـة المحمـدية؛ لقولـه تعـالى: ﴿كُنتُـمْ خَـيْرَ أُمَّـةٍ أُخْرِجَـتْ لِلنَّـاسِ تَأْمُـرُونَ بِالْمَعْـرُوفِ وَتَنْهَـوْنَ عَـنِ الْمُنكَـرِ .. ﴾؛ لذلـك يسـتبين لنـا أنّ مـن أسـباب بقـاء الأمـم الأعـمال الصالحـة والإيمـان باللـه - عـز وجـل -.

وكـما جـاء سـابقًا العـدل وتـرك الظلـم؛ حيـث ذكـر شـيخُ الإسـلام أن اللـه يبقـى مـع الأمّـة العادلـة ولـو كانـت كافـرة، ويهلـك الأمـم الظالمـة ولـو كانـت مؤمنـة، مـن خـلال الآيـات التـي ذكرهـا في قصـة يوسـف وقصـة إبراهيـم- عليهـما السـلام- نجـد أنّ مـن أسـباب بقـاء الأمـم تتمثـل: في الأخـذ بالصـبر وحسـن التـوكل عـلى اللـه - عـز وجـل -، وصفـة الإحسـان التـي وصفـت بهـا هـذه الأمـم.

كـما كان مـن صفـات الأمـم الهالكـة عـدم الإيمـان باللـه، واقـتراف المعـاصي والسـيئات، والشـح والطغيـان والظلـم، ومـمّا ذكـر شـيخ الإسـلام في هـلاك الأمـم في موضـع آخـر الشـح حيـث ذكـر حديـث النبـي ﷺ كـما في الصحيـح: «إيّاكـم والشـح؛ فإنـه أهلـك مـن كان قبلكـم، أمرهـم بالبخـل فبخلـوا، وأمرهـم بالظلـم فظلمـوا، وأمرهـم بالقطيعـة فقطعـوا»[1].

ومـن أسـباب البقـاء- أيضًـا: التقـوى يقـول شـيخ الإسـلام: «وأمّـا غـير المتقـين فلهـم عاجلـة لا عاقبـة، والعاقبـة وإن كانـت في الآخـرة فتكـون في الدنيـا- أيضًـا؛ كـما قـال- تعـالى- لمّـا ذكـر قصـة نـوح ونجاتـه بالسـفينة: ﴿ قِيـلَ يَـا نُـوحُ اهْبِـطْ بِسَـلَامٍ مِّنَّـا وَبَـرَكَاتٍ عَلَيْـكَ وَعَـلَىٰ أُمَـمٍ مِّمَّـن مَّعَـكَ وَأُمَـمٌ سَـنُمَتِّعُهُمْ ثُـمَّ يَمَسُّـهُم مِّنَّـا عَـذَابٌ أَلِيـمٌ ﴾ إلى قولـه: ﴿فَاصْـبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَـةَ لِلْمُتَّقِـينَ﴾ [هـود: ٤٨، ٤٩]»[2].

***

(١) الفتاوى، (١٤٤/٢٨).

(٢) الفتاوى، (١٦٣/٢٨).

المبحثُ الحادي والثلاثون

سنّةُ الله في التغيير

معنى التغيير:

غـيّر بمعنـى: بـدّل، وتغـيّر الـشيء عـن حالـه: تحـوّل، وغـيره: حوّلـه وبدلـه، كأنـه جعلـه غـير مـا كان، وفي التنزيـل العزيـز: ﴿ذَلِـكَ بِـأَنَّ اللــهَ لَـمْ يَـكُ مُغَـيِّرًا نِّعْمَـةً أَنْعَمَهَـا عَـلَى قَـوْمٍ حَتَّـى يُغَـيِّرُواْ مَـا بِأَنفُسِـهِمْ وَأَنَّ اللــهَ سَـمِيعٌ عَلِيـمٌ ﴾ [الأنفـال: ٥٣]، قـال تعلـب: معنـاه: حتـى يبدلـوا مـا أمرهـم اللـه، والغـير: الاسـم مـن التغيـير، وغـير الدهـر أحوالـه المتغـيرة، وورد في حديـث الاستسـقاء: «تغـيّر الحـال مـن حـال إلى حـال، وانتقالهـا مـن الصـلاح إلى الفسـاد»[1].

واسـتعمل القـرآن كلمـةَ التغيـير بمعنـى الدلالـة عـلى الانتقـال من المعنـى الإيجـابي إلى المعنى السـلبي، ومـن النعمـة إلى النقمـة، ومـن الأمـن إلى إنـزال العقوبـة، وذلـك في الآيـات المتحدّثـة عـن عـالم الشـهادة الـذي هـو موطـن التكليـف والعمـل، ومنـه قولـه تعـالى: ﴿فَبَـدَّلَ الَّذِيـنَ ظَلَمُـواْ قَـوْلاً غَـيْرَ الَّـذِي قِيـلَ لَهُـمْ فَأَنزَلْنَـا عَـلَى الَّذِيـنَ ظَلَمُـواْ رِجْـزاً مِّـنَ السَّـمَاء بِمَـا كَانُـواْ يَفْسُـقُونَ ﴾ [البقـرة: ٥٩]، وقولـه تعـالى: ﴿ كَـدَأْبِ آلِ فِرْعَـوْنَ وَالَّذِيـنَ مِـن قَبْلِهِـمْ كَفَـرُواْ بِآيَـاتِ اللــهِ فَأَخَذَهُـمُ اللــهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللــهَ قَوِيٌّ شَـدِيدُ الْعِقَـابِ {٥٢/٨} ذَلِـكَ بِـأَنَّ اللــهَ لَـمْ يَـكُ مُغَـيِّرًا نِّعْمَـةً أَنْعَمَهَـا عَـلَى قَـوْمٍ حَتَّـى يُغَـيِّرُواْ مَـا بِأَنفُسِـهِمْ وَأَنَّ اللــهَ سَـمِيعٌ عَلِيـمٌ ﴾ [الأنفـال: ٥٢، ٥٣].

إنّ تغـيّر المجتمعـات والأمـم مـن حـالٍ إلى حـال ظاهـرة مشـاهدة يشـهد لهـا التاريـخ، ويؤكّدهـا الواقـع الـذي نعيشـه؛ فالمجتمعـات لا تبقـى عـلى حـال واحـدة، بـل دائمـة التغـير مـن حـالٍ إلى حـال.

وتـأتي للدّلالـة عـلى الانتقـال مـن المعنـى السـلبي إلى المعنـى الإيجـابي، ومـن دفـع النّقمـة إلى جلـب النعمـة، ومـن إنـزال العقوبـة إلى طلـب الأمـن، وذلـك في الآيـات المتحدّثـة عـن عـالم الغيـب، الـذي

---

(١) لسان العرب لابن منظور، (١٠٧/١١).

هو موطن الحساب والجزاء، مثل قوله تعالى: ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَل لَّنَا مِن شُفَعَاء فَيَشْفَعُواْ لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُواْ أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴾ [الأعراف: ٥٣].

وخلاصة مفهوم التغيير في القرآن يدلّ على الانتقال الكلي من المحمود إلى المذموم، ومن الأمن إلى العقوبة، وهذا التغيير هو التغيير الجذري الذي هو من باب العقوبة، أمّا التغيير النسبي (الإصلاح) فجاء في قوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، وهو ما بيّنه النبي ﷺ في قوله: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»، فالمقصود الإصلاح والتتميم، لا الإلغاء والإقصاء[1].

وإذا كان هذا التغير ظاهرة اجتماعية ملموسة، فإن هذا التغيير لا بدّ له من قانون يضبطه، وسنة يسير عليها، فلا يمضي جزافًا، ويخبط خبط عشواء! فهذا الكون له سنن تضبطه، وله قوانين تحكمه، فلا يتغير من حال إلى حال إلّا وفق سنة من سنن الله؛ فالله تعالى جعل لكل شيء قدرًا، وكل شيء عنده بمقدار، كما قال- عزّ من قائل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩]، فأبانَ- سبحانه- في هذه الآية سنتَه العامّة الشاملة لكلّ ما خلق، فنظام تحديد مقادير العناصر والصفات نظام مطرد في كلّ ما خلق الله، وهو نظام لا استثناء فيه.

قال سبحانه: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢]، فأكّد- سبحانه- بيان سنّته العامّة في الخلق التي سبق أن أعلنها في سورة القمر، وأضاف هنا الإشارة إلى الإحكام والدّقة التّامة والتقدير إذ قال هنا: ﴿فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾، وأضاف أنّ عمليات الخلق متلاحقة بإحكام التقدير كما هي مبدوءة بإحكام التقدير، كما في سورة القمر ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾، وإذا كان كلّ شيء عند الله بمقدار، وقد جعل لكلّ شيء قدرًا، وخلق كلّ شيء فقدره تقديرًا، فأي تغيير في مقادير الأجزاء والعناصر والشروط لشيء ما، عمّا هي عليه عند الله وفي سننه التي أبانها

(١) التغيير وبناء الأمّة الوسط، د/ المثنى عبد الفتاح، ص(٤٠-٤٢) بتصرف، والحديث في السنن الكبرى للبيهقي، (٣٢٣/١٠).

لنا، أو ما خلق الله أو جعله؛ ينتج تغيراً في صفات ذلك الشيء وآثاره، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلاَ مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ ﴾ [الرعد: ١١]، ويقول تعالى: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ {٨/٥٢} ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الأنفال: ٥٢-٥٣]، في هاتين الآيتين يقرّر- سبحانه- سنّة من سننه، وهي أنه يغيّر ما بالقوم نتيجةَ تغييرهم لما في نفوسهم، وقد وضع ذلك في صيغة قانون ثابت لا يتخلف ولا يحابي ولا يظلم، «فقد مضت سنّته أن تترتّب مشيئة الله بالبشر على تصرف هؤلاء البشر، وأن تنفذ فيهم سنته بناءً على تعرضهم لهذه السنة بسلوكهم»[1].

ولقد اهتمّ شيخُ الإسلام- رحمه الله- بالتغير الذي يصيب الناس سواء كان حسنًا أو سيئًا، ويبيّن الطرق والمناهج التي يجب على الناس سلوكها لحدوث التغيير الحسن الذي يجعلهم في رضى الله - عز وجل -، فيمنحهم السعادة والهناء في الدنيا، ثمّ النجاة والجنة في الآخرة.

ووضّح في كثيرٍ مِن كتبه أحوال النفس وكيفية التعامل معها، وكان ذلك واضحًا في سننِ الله في الأنفس عند شيخ الإسلام ابن تيمية؛ حيث التغيير لا يكون تغييرًا إلّا إذا عالج خلجاتِ النفس ودقائقها، ووضح وسائل التغيير، وأهميته في حياة الناس، وسنوضّح ذلك:

١- تعريف التغيير:

«إنّ لفظ (التغيّر) لفظ مُجمل؛ فالتغير في اللغة المعروفة لا يُراد به مجرد كون المحلّ قامت به الحوادث؛ فإن الناس لا يقولون للشمس والقمر والكواكب إذا تحركت: إنّها قد تغيّرت، ولا يقولون للإنسان إذا تكلم ومشى: إنه تغير، ولا يقولون إذا طاف وصلى وأمر ونهى وركب: إنه تغير، إذا كان ذلك عادته، بل إنما يقولون: تغير لِمَن استحال مِن صفة إلى صفة؛ كالشمس إذا زال نورها ظاهرًا لا يقال: إنها تغيرت، فإذا اصفرت قيل: تغيرت.

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، (٢/٥-٨).

وكذلك الإنسان إذا مرض أو تغيّر جسمه بجوع أو تعب قيل: قد تغير، وكذلك إذا تغيّر خلقه ودينه مثل أن يكون فاجرًا فينقلب ويصير بارًّا، أو يكون بارًّا فينقلب فاجرًا فإنه يقال: قد تغيّر.

وفي الحديث: رأيت وجهَ رسول الله ﷺ متغيراً لمّا رأى منه أثر الجوع، ولم يزل يراه يركع ويسجد.

فلم يسمّ حركته تغيراً، وكذلك يقال: فلان قد تغير على فلان إذا صار يبغضه بعد المحبّة، فإذا كان ثابتًا على مودّته لم يسمّ هشته إليه وخطابه له تغيراً، وإذا جرى على عادته في أقواله وأفعاله فلا يقال: إنه قد تغير، قال الله- تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾، ومعلوم أنهم إذا كانوا على عادتهم الموجودة يقولون ويفعلون ما هو خير لم يكونوا قد غيروا ما بأنفسهم، فإذا انتقلوا عن ذلك فاستبدلوا بقصد الخير قصد الشر، وباعتقاد الحقّ اعتقاد الباطل قيل: قد غيروا ما بأنفسهم، مثل مَن كان يحبّ الله ورسوله والدار الآخرة فتغيّر قلبُه وصار لا يحبّ الله ورسوله والدار الآخرة، فهذا قد غيّر ما في نفسه»[1].

٢- أنواع التغيير:

إنّ التغيير الذي يحدثه اللهُ بالأمم على ضَربيْن: تغيير من نعمة إلى النقمة، كما دلّت عليه آيتا الأنفال والرعد؛ حيث وردتا في سياق تغيير النعمة إلى نقمة، وزادت على ذلك آية سورة الأنفال بما فيه من التصريح بهذا المعنى؛ حيث قال الله- تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

وتغييرٌ من النقمة إلى النعمة، ويدل عليه آية سورة الرعد: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾؛ حيث وردت في التغيير بصورة عامة، أي: من كلا الجانبين إلى الآخر، فكلمة ﴿مَا﴾ الواردة في هذه الآية تفيد العموم.

ويشهد لذلك واقع الأمم؛ فكم من أمّة كانت في نقمة فغير الله ما بها من نقمة إلى نعمة حين غيّروا ما بأنفسهم، فالعرب قبل الإسلام كانوا أمّة ذليلة لا أحد يحفل بهم فأعزّهم الله

(١) الفتاوى، (٦/٢٤٩-٢٥٠).

بالإسلام، كما قال عمر: «نحن قوم أعزّنا الله بالإسلام ومهما ابتغينا العزة بغير الإسلام أذلّنا الله».

وعـن عـلي - رضي اللـه عنـه -، أنّ الرسـول ﷺ حدّثـه عـن ربّـه فقـال: «قـال الـرب - عـز وجـل-: وعـزتي وجـلالي وارتفاعـي فـوق عـرشي، مـا مـن أهـل قريـة، ولا مـن أهـل بيـت، ولا رجـل بـاد كانـوا عـلى مـا كرهـت مـن معصيتـي، ثـمّ تحولـوا عنهـا إلى مـا أحببـت مـن طاعتـي إلّا تحوّلـت لهـم عـمّا يكرهـون مـن عـذابي إلى مـا يحبّـون مـن رحمتـي».

وتغيـير اللـه مـا بالقـوم مـن نقمـةٍ إلى نعمـة ومـن شرّ إلى خـير قـد يكـون إذا غـيروا جميعًـا مـا بأنفسـهم، وقـد يكـون هـذا التغيـير مرهونًـا بفئـةٍ منهـم تصلـح مـا بأنفسـها وتسـتجيب لهـدي ربّهـا، فيكـون صلاح هـذه الفئـة طريقًـا لصلاح المجتمـع كلـه حيـث يمكنهـم مـن هـذا الإصلاح، ويهيـئ نفـوس النـاس إلى قبـول مـا يدعـون إليـه مـن خـير وصـلاح.

والنّـصّ يفيـد أن بإمـكان قـوم أن يبقـوا في عـزٍّ ونعمـة مـن اللـه، ويقـول في ذلـك الشـيخ المراغـي: «وفي الآيـة إيمـاءٌ إلى أنّ نعـم اللـه عـلى الأمّـة منوطـة ابتـداء ودوامًـا بأخـلاق وصفـات وأعـمال تقتضيهـا، فـما دامـت هـذه الشـئون ثابتـة لهـم متمكنـة فيهـم كانـت تلـك النعـم ثابتـة لهـم، واللـه لا ينتزعهـا بغـير ظلـم ولا جـرم..». وهكـذا فـإن «في ذلـك تنبيهًـا عـلى لـزوم الطاعـة وتحذيـرًا بوبـال المعصيـة»[1].

يقـول شـيخُ الإسـلام: التغيـير نوعـان: «أحدهـما: أن يبـدو ذلـك فيبقـى قـولًا وعمـلًا يترتـب عليـه الـذمّ والعقـاب.

والثـاني: أن يغـيّروا الإيمـان الـذي في قلوبهـم بضـدّه مـن الريـب والشـك والبغـض، ويعزمـوا عـلى تـرك فعـل مـا أمـر اللـه بـه ورسـوله، فيسـتحقون العـذاب هنـا عـلى تـرك المأمـور، وهنـاك عـلى فعـل المحظـور.

وكذلـك مـا في النفـس مـمّا يناقـض محبـة اللـه والتـوكل عليـه والإخـلاص لـه والشـكر لـه يعاقـب عليـه؛ لأنّ هـذه الأمـور كلهـا واجبـة، فـإذا خـلي القلـب عنهـا واتصـف بأضدادهـا؛ اسـتحقّ العـذاب عـلى تـرك هـذه الواجبـات»[2].

(١) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، (١٤/٢).

(٢) الفتاوى، (١٠٩/١٤).

منهجُ شيخِ الإسلام ابن تيمية في التغيير:

لعلّ أهمّ ملامح المنهج التغييري والإصلاحي لدى شيخ الإسلام يتلخّص في النقاط الآتية:

١- إصلاح النفس، يقول الله- تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ ﴾، لذلك اهتمّ الشيخ بمعرفة النفس الإنسانية وخصائصها وأمراضها، وبيّن ذلك ووضّحه في كثير من كتاباته؛ لأنّ بها مناط التغيير، ولا يكون إلّا عن طريقها كما وضّحت الآية؛ فوضح أنواعها وصفاتها[1].

٢- الاستعانة بالله - عز وجل -:

يقول شيخُ الإسلام- رحمه الله: «يجب على المؤمن أن يستعين بالله، ويتوكّل عليه في أن يقيم قلبه ولا يزيغه، ويثبته على الهدى والتقوى، ولا يتبع الهوى، كما قال تعالى: ﴿ فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ﴾ [الشورى: ١٥]».

٣- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

يرى شيخُ الإسلام أنّ القيام بهذا الحقّ هو أهم وسائل التغيير؛ فإن النفس مجبولةٌ على أنها لو رأت غيرها يهتمّ بالخير وكان في نفسها ذلك الخير ضعيفًا؛ قويت لما رأت مَن يقوم بنفس فعلها، ويثبتها عليه، وقد سبق الحديث عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند الشيخ.

٤- الإصلاح عن طريق دعوة الناس إلى الخير:

وضع شيخُ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- منهاجًا لدعوة الناس إلى الخير ليظهر فيه فهمَه لنفوس الناس، وطرق إصلاحها، ويظهر ذلك جليًّا في إظهاره كيفية التعامل مع الناس عندما ندعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، فذكر شيخ الإسلام- رحمه الله- أنّ التعامل مع

(١) انظر: (مصنفات النفس) الفتاوى، (٢١/٢٨، ١٤٧-١٤٨).

النـاس لا بـدّ أن يكـون طبقًـا لطبيعتهـم ونفوسـهم، معلّـلًا ذلـك بـأنّ مِـن النـاس مَـن إذا نصحتـه يـترك مـا لديـه مـن الفضـل إلى مـا هـو أفضـل منـه، لا يسـتطيع أن يفعـل الأفضـل ولا مـا هـو أفضـل منـه.

ويـرى- أيضًـا- أنّ مِـن النـاس مَـن يـضرّ إذا سـلك طريقًـا مـن سـبل السـلام الإسـلامية أن يـرى غـيره أفضـل منهـا؛ لأنـه يتشـوّف إلى الأفضـل، فـلا يقـدر عليـه، والمفضـول يعـرض عنـه.

لذلـك فإنّـه ليـس مـن مصلحتـه أن يعـرف أفضـل مـن طريقتـه، إذا كان يـترك طريقتـه ولا يسـلك تلـك، فليـس- أيضًـا- مِـن الحـقّ أنْ يعتقـد أنّ طريقتـه أفضـل مـن غيرهـا، بـل مصلحتـه أنْ يسـلك تلـك الطريقـة المفضيـة إلى رحمـة اللـه- تعـالى.

ويبيّن في ذلك أنّ النصيحة أو هذا العمل الدعوي مبني على أربعة أصول في معالجة النفس:

الأول: معرفـة مراتـب الحـقّ والباطـل والحسـنات والسـيئات والخـير والـشر؛ ليعـرف خـير الخيريـن وشرّ الشرّيـن.

والثاني: معرفة ما يجب من ذلك وما لا يجب، وما يستحبّ من ذلك وما لا يستحب.

الثالـث: معرفـة شروط الوجـوب والاسـتحباب مـن الإمـكان والعجـز، وأن الوجـوب والاسـتحباب قـد يكـون مشروطًـا بإمـكان العلـم والقـدرة.

والرابـع: معرفـة أصنـاف المخاطبـين وأعيانهـم؛ ليؤمـر كلّ شـخص بمـا يصلحـه، أو بمـا هـو أصلـح لـه مـن طاعـة اللـه ورسـوله ﷺ، وينهـى بمـا ينفـع نهيـه عنـه، ولا يؤمـر بخـير يوقعـه فيـما هـو شرّ مـن المنهـي عنـه مـع الاسـتغناء عنـه»[(١)].

٥- المبادرةُ بفعل الطاعات وترك السيئات:

يقـول شـيخُ الإسـلام: «وهـذا- أيضًـا- حـال الأمّـة فيـما تفرّقـت فيـه واختلفـت في المقـالات والعبـادات، وهــذه الأمــور مــمّا تعظــم بهــا المحنــة عــلى المؤمنــين؛ فإنهــم يحتاجــون إلى شــيئيْن: إلى دفــع الفتنــة التــي ابتــلي بهــا نظراؤهــم مــن فتنــة الديــن والدنيــا عــن نفوســهم مــع قيــام المقتــضي لهــا؛ فــإن معهــم

(١) انظر: مجموع الفتاوى، (٤٣٣/١٤) بتصرف.

نفوسًا وشياطين كما مع غيرهم، فمع وجود ذلك من نظرائهم يقوى المقتضي عندهم، كما هو الواقع؛ فيقوى الداعي الذي في نفس الإنسان وشيطانه، وما يحصل من الداعي بفعل الغير والنظير.

فكم ممّن لم يردْ خيراً ولا شرًّا حتى رأى غيره- لا سيما إن كان نظيره- يفعله ففعله؛ فإنّ الناس كأسراب القطا؛ مجبولون على تشبه بعضهم ببعض.

ولهذا كان المبتدئ بالخير والشرّ له مثلُ مَن تبعه من الأجر والوزر، كما قال النبي ﷺ: (مَن سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر مَن عمل بها إلى يوم القيامة مِن غير أن ينقص مِن أجورهم شيئًا، ومَن سنّ سنّة سيئة فعليه وزرها ووزر مَن عمل بها إلى يوم القيامة مِن غير أن ينقص مِن أوزارهم شيئًا)[1]؛ وذلك لاشتراكهم في الحقيقة، وإن حكم الشيء حكم نظيره، وشبه الشيء مُنجذب إليه، فإذا كان هذان داعيين قويين فكيف إذا انضمّ إليهما داعيان آخران؟

وذلك أنّ كثيراً من أهل المنكر يحبّون من يوافقهم على ما هم فيه، ويبغضون مَن لا يوافقهم، وهذا ظاهرٌ في الديانات الفاسدة مِن موالاة كلّ قوم لموافقيهم، ومعاداتهم لمخالفيهم.

وكذلك في أمور الدنيا والشهوات كثيراً ما يختارون ويؤثرون من يشاركهم إمّا للمعاونة على ذلك كما في المتغلّبين من أهل الرّياسات وقطاع الطريق ونحوهم، وإمّا بالموافقة كما في المجتمعين على شرب الخمر؛ فإنهم يختارون أن يشرب كلّ من حضر عندهم، وإمّا لكراهتهم امتيازه عنهم بالخير، إمّا حسدًا له على ذلك؛ لئلاّ يعلو عليهم بذلك ويحمد دونهم، وإمّا لئلاّ يكون له عليهم حجة، وإمّا لخوفهم من معاقبته لهم بنفسه، أو بمَن يرفع ذلك إليهم؛ ولئلاّ يكونوا تحت منّته وخطره ونحو ذلك من الأسباب، قال الله- تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ ﴾ [البقرة: ١٠٩]، وقال- تعالى- في المنافقين: ﴿وَدُّواْ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُواْ فَتَكُونُونَ سَوَاء﴾ [النساء: ٨٩]، وقال عثمان بن عفان - رضي الله عنه - ودت الزانية لو زنى النساء كلهن»[2].

(١) شعب الإيمان، (٩/ ٢٤٠).

(٢) الفتاوى، (١٤٩/٢٨-١٥١).

٦- مقابلةُ السيئات بالحسنات:

يقـول الشـيخ: «لهـذا يؤمـر المؤمنـون أنْ يقابلـوا السـيئات بضدّهـا مـن الحسـنات؛ كما يقابـل الطبيب المـرض بضـدّه؛ فيؤمـر المؤمـن بـأن يصلـح نفسـه، وذلـك بشـيئين: بفعـل الحسـنات، وتـرك السـيئات، مـع وجـود مـا ينفـي الحسـنات ويقتـضي السـيئات، وهـذه أربعـة أنـواع.

ويؤمـر- أيضًـا- بإصـلاح غـيْره بهـذه الأنـواع الأربعـة بحسـب قدرتـه وإمكانـه، قـال تعـالى: ﴿ وَالْعَـصْرِ {١/١٠٣} إِنَّ الْإِنسَـانَ لَفِـي خُـسْرٍ {٢/١٠٣} إِلَّا الَّذِيـنَ آمَنُـوا وَعَمِلُـوا الصَّالِحَـاتِ وَتَوَاصَـوْا بِالْحَـقِّ وَتَوَاصَـوْا بِالصَّـبْرِ﴾ [العـصر: ١-٣]»[١].

٧- الصبر على فعل الحسن وترك السيئ:

يقـول ابـن تيميـة: «لا بـدّ مـن الصبر عـلى فعـل الحسـن المأمـور بـه، وتـرك السـيئ المحظـور، ويدخـل في ذلـك الصبر عـلى فعـل الأذى وعـلى مـا يقـال؛ والصـبر عـلى مـا يصيبـه مـن المـكاره، والصـبر عـن البطـر عنـد النعـم، وغـير ذلـك مـن أنـواع الصـبر.

ولا يمكـن للعبـد أن يصـبر إن لم يكـن لـه مـا يطمـئن بـه ويتنعـم بـه ويغتـذي بـه وهـو اليقـين؛ كـما في الحديـث الـذي رواه أبـو بكـر الصديـق - رضي اللـه عنـه -، عـن النبـيﷺ أنـه قـال: (يـا أيهـا النـاس، سـلوا اللـه اليقـين والعافيـة؛ فإنـه لم يعـط أحـد بعـد اليقـين خـيرًا مـن العافيـة فسـلوهما اللـه)»[٢].

٨- معرفةُ الإنسان ربّه معرفة جيدة ومعرفة صفاته وأسمائه:

إنّ العبوديـة الحقـة للـه - عـز وجـل - تخـرج الإنسـان مـن عبوديـة النفـس وهواهـا وطاعتهـا في الـشرّ إلى عبوديـة اللـه وحـده وطاعتـه واجتنـاب نواهيـه، فيثمـر فيهـا الخـير والعـدل والصلاح.

يقـول شـيخُ الإسـلام: «وهكـذا حـال مَـن كان متعلقًـا برئاسـة أو بصـورة ونحـو ذلـك مـن أهواء نفسـه، إن حصـل لـه رضي، وإن لم يحصـل لـه سـخط، فهـذا عبـد مـا يهـواه مـن ذلـك، وهـو رقيـق لـه؛ إذ الـرق والعبوديـة في الحقيقـة هـو رق القلـب وعبوديتـه، فـما اسـترق القلـب واسـتعبده فهـو عبـده، ولهـذا يقـال:

(١) الفتاوى، (١٥٢/٢٨).
(٢) الفتاوى، (١٥٣/٢٨).

العبـــــد حـــر ما قـــنع والحـر عبد ما طمـــع[1]

وقال القائل:

أطعت مطامعي فاستعبدتني ولو أني قنعت لكنت حرًّا[2]

ويقـال: الطمـع غـلّ في العنـق، قيـدٌ في الرجـل، فـإذا زال الغـلّ مـن العنـق زال القيـد مـن الرجـل، ويـروى عـن عمـر بـن الخطـاب t أنـه قـال: الطمـع فقـر، واليـأس غنـى، وإنّ أحدكـم إذا يئـس مِـن شيء اسـتغنى عنـه.

وهـذا أمـر يجـده الإنسـان مـن نفسـه؛ فـإن الأمـر الـذي ييـأس منـه لا يطلبـه ولا يطمـع بـه، ولا يبـق قلبـه فقـيرًا إليـه، ولا إلى مَـن يفعلـه، وأمـا إذا طمـع في أمـر مـن الأمـور ورجـاه تعلـق قلبـه بـه فصـار فقـيرًا إلى حصولـه؛ وإلى مَـن يظـنّ أنـه سـبب في حصولـه، وهـذا في المـال والجـاه والصـور وغـير ذلـك، قـال الخليـل - عليـه السـلام-: ﴿ فَابْتَغُـوا عِنـدَ اللَّـهِ الـرِّزْقَ وَاعْبُـدُوهُ وَاشْـكُرُوا لَـهُ إِلَيْـهِ تُرْجَعُـونَ﴾ [العنكبـوت: ١٧].

فالعبـد لا بـدّ لـه مـن رزق، وهـو محتـاج إلى ذلـك، فـإذا طلـب رزقـه مـن اللـه صـار عبـدًا للـه فقـيرًا إليـه، وإن طلبـه مـن مخلـوق صـار عبـدًا لذلـك المخلـوق فقـيرًا إليـه»[3].

ويقـول في موضـع آخـر: «فـإذا عـرف العبـدُ أنّ اللـه ربُّـه وخالقـه، وأنـه مفتقـرٌ إليـه محتـاج إليـه؛ عـرف العبوديـة المتعلقـة بربوبيـة اللـه، وهـذا العبـد يسـأل ربـه ويتـضرّع إليـه ويتـوكل عليـه، لكـن قـدْ يطيـع أمـره، وقـد يعصيـه، وقـد يعبـده مـع ذلـك، وقـد يعبـد الشـيطان والأصنـام، ومثـل هـذه العبوديـة لا تفـرق بـين أهـل الجنـة وأهـل النـار، ولا يصـير بهـا الرجـل مؤمنًـا، كـما قـال اللـه- تعـالى: ﴿ وَمَـا يُؤْمِـنُ أَكْثَرُهُـمْ بِاللَّـهِ إِلاَّ وَهُـم مُّشْرِكُـونَ ﴾ [يوسـف: ١٠٦]؛ فـإن المشركـين كانـوا يقـرون أن اللـه خالقهـم ورازقهـم، وهـم يعبـدون غـيره، قـال تعـالى: ﴿ وَلَـئِن سَـأَلْتَهُم مَّـنْ خَلَـقَ السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ

(١) المستطرف في كلّ فن مستظرف، ص(٧٩).

(٢) روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار، ص(٢٦٧).

(٣) الفتاوى، (١٠/١٨٢).

لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ [لقمان: ٢٥]، وقال تعالى: ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٤/٢٣} سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ {٨٥/٢٣} قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ {٨٦/٢٣} سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ {٨٧/٢٣} قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ {٨٨/٢٣} سَيَقُولُونَ للهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩]»[١].

وهذه المعرفة وحدها لا تكفي لإصلاح النفس، ولا بدّ للإنسان من أن يعرف ربه معرفة الألوهية، يقول شيخ الإسلام: «فمَن وقف عند هذه الحقيقة وعند شهودها، ولم يقمْ بما أمر الله به مِن الحقيقة الدينية التي هي عبادته المتعلقة بألوهيته وطاعة أمره وأمر رسوله؛ كان من جنس إبليس وأهل النار.

فإن ظنّ مع ذلك أنه من خواص أولياء الله وأهل المعرفة والتحقيق، الذين سقط عنهم الأمر والنهي الشرعيان؛ كان من أشر أهل الكفر والإلحاد.

ومَن ظنّ أنّ الخَضِرَ وغيره سقط عنهم الأمر لمشاهدة الإرادة ونحو ذلك، كان قوله هذا من شرّ أقوال الكافرين بالله ورسوله، حتى يدخل في النوع الثاني من معنى العبد، وهو العبد بمعنى العابد، فيكون عابدًا لله، لا يعبد إلّا إياه، فيطيع أمره وأمر رسله، ويوالي أولياءه المؤمنين المتقين، ويعادي أعداءه.

وهذه العبادة متعلّقة بالإلهية لله- تعالى، ولهذا كان عنوان التوحيد: لا إله إلّا الله، بخلاف مَن يقرّ بربوبيته ولا يعبده، أو يعبد معه إلهًا آخر.

فالإله هو الذي يألهه القلب بكمال الحب والتعظيم والإجلال والإكرام والخوف والرجاء ونحو ذلك، وهذه العبادة هي التي يحبها الله ويرضاها، وبها وصف المصطفين مِن عباده، وبها بعث رسله»[٢].

ولكن، كيف تكون العبادةُ التي تحقّق للإنسان سعادة الدنيا والآخرة؟

يوضّح شيخُ الإسلام- رحمه الله- العبادة بقوله: «هي اسمٌ جامع لكلّ ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة؛ فـ: الصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث

(١) العبودية، ص(٥٢).

(٢) العبودية، ص(٥٤).

وأداء الأمانـة وبـرّ الوالديـن وصلـة الأرحـام والوفـاء بالعهـود والأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان للجار واليتيم والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة. وكذلك حبّ الله ورسوله، وخشية الله والإنابة إليه، وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف من عذابه، وأمثال ذلك؛ هي من العبادة لله.

وذلك أنّ العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خَلق الخلق لها، كما قال الله- تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

وبها أرسل جميع الرسل كما قال نوح لقومه: ﴿ اعْبُدُواْ اللّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَـهٍ غَيْرُهُ ﴾ [الأعراف: ٥٩]»[١].

«والرسول هو المبلّغ عن الله- تعالى- أمرَه ونهيَه وتحليله وتحريمه، فالحلالُ ما أحلّه، والحرام ما حرّمه، والدين ما شرعه.. فعلينا أن نصدّق بخبره، ونطيع أمره، ونعبد الله بما شرع، لا نعبده بغير ذلك من الأهواء والظنون والبدع، ففي الأولى أن لا نعبد إلّا إيّاه- سبحانه، وفي الثانية أن نعبده بما شرع لنا»[٢].

أمّا معرفة الله بأسمائه وصفاته فقد بيّن شيخُ الإسلام أن طريقة سلف الأمّة وأئمتها إثبات ما أثبته من الصفات من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل.

وكذلك ينفون عنه ما نفاه عن نفسه، ومع إثبات ما أثبته من الصفات من غير إلحاد، لا في أسمائه ولا في آياته؛ فإنّ الله ذمّ الذين يلحدون في أسمائه وآياته، كما قال الله- تعالى: ﴿ وَلِلّهِ الأَسْمَاء الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُواْ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٨٠]، فطريقتهم تتضمّن إثبات الأسماء والصفات، مع نفي مماثلة المخلوقات إثباتًا بلا تشبيه، وتنزيهًا بلا تعطيل، كما قال الله- تعالى: ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ ﴾ [الشورى: ١١].

---

(١) العبودية، ص(٤٤).

(٢) مجموع الفتاوى، (٣٦٥/١)، والعبودية، ص(١٧٠).

إنّ الإيمان بالله - سبحانه وتعالى - وتوحيده في ألوهيته وربوبيته وأسمائه وصفاته على نحو ما وصفت ليؤثر في النفس تأثيرًا عميقًا، إن هذه العقيدة تنفذ إلى باطن الإنسان وأعماق نفسه؛ فتغيّر محاور الثقل في النفس، وتجعلها كلها لله.

فالإنسانُ عندما يؤمن بأنّ هناك إلهًا واحدًا هو الخالق وهو الرازق، وهو الذي بيده ملكوت كلّ شيء، ويؤمن إيمانًا لا يخالجه شك أنه وحده الذي يستحق العبادة لا أحد سواه، فعندما يتحرّر الإنسان من كلّ الأرباب الزائفة، يتحرّر من إله الشهوة، يتحرّر من إله المادة، يتحرّر من إله الطاغوت، يتحرّر من كلّ شيء، فعبودية الإنسان لربه هي مصدر عزته وحريته؛ فإنّ الإنسان بطبعه وفطرته لا بدّ له من إلهٍ يؤلّهه، فإذا جعل الله هو إلهه، فإنّ الآلهة الأخرى تنجاب وتزول من نفسه، وإذا لم يفرد الله بالألوهية ولم يؤمن به فلا بدّ أن يعبد شيئًا ما فيعبد الدرهم والدينار والخميصة والقطيفة، ويعبد الجنس، يعبد الشهوة، يعبد الشجر، يعبد الحجر، يعبد الإنسان، يعبد شيئًا ما؛ لأن الإنسان «له إرادة دائمًا، وكلّ إرادة فلا بدّ لها من مراد تنتهي إليه، فلا بدّ لكلّ عبدٍ من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك، فلا بدّ أن له مرادًا محبوبًا يستعبده غير الله، فيكون عبدًا لذلك المراد المحبوب، إمّا المال وإمّا الجاه وإمّا الصور، وإمّا ما يتخذه إلهًا من دون الله كـ: الشمس والقمر والكواكب، أو غير ذلك ممّا عبد من دون الله»[1].

«وأنّ المخلص لله ذاقَ من حلاوة عبوديته لله ما يمنعه عن عبوديته لغيره، ومن حلاوة محبته لله ما يمنعه عن محبة غيره؛ إذ ليس عند القلب السليم أحلى ولا ألذ ولا أطيبَ ولا أسرّ ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله، ومحبته له، وإخلاص الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله، فيصير القلب منيبًا إلى الله، خائفًا منه، راغبًا راهبًا، كما قال تعالى: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَن بِالْغَيْبِ وَجَاء بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]؛ إذ المحبّ يخاف من زوال مطلوبه، أو حصول مرغوبه، فلا يكون عبد الله ومحبّه إلّا بين خوف ورجاء، كما قال تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧].

---

(١) العبودية لابن تيمية، ص(١١١-١١٢).

وإذا كان العبد مخلصًا لله اجتباه ربّه، فأحيا قلبه، واجتذبه إليه، فينصرف عنه ما يضاد ذلك من السوء والفحشاء، ويخاف من حصول ضد ذلك، بخلاف القلب الذي لم يخلص لله؛ فإن فيه طلبًا وإرادة وحبًّا مطلقًا، فيهوى ما يسنح له، ويتشبث بما يهواه، كالغصن أيّ نسيمٍ مرّ به؛ عطفه وأماله، فتارة تجتذبه الصور المحرمة وغير المحرمة، فيبقى أسيرًا عبدًا لمن لو اتخذه هو عبدًا له لكان ذلك عيبًا ونقصًا وذمًّا.

وتارة يجتذبه الشرف والرئاسة فترضيه الكلمة وتغضبه الكلمة، ويستعبده من يثني عليه ولو بالباطل، ويعادي مَن يذمّه ولو بالحق.

وتارة يستعبده الدرهم والدينار، وأمثال ذلك من الأمور التي تستعبد القلوب، والقلوب تهواها، فيتّخذ إلهه هواه ويتّبع هواه بغير هدى من الله، ومن لم يكن خالصًا لله عبدًا له قد صار قلبه معبدًا لربّه وحده لا شريك له بحيث يكون الله أحب إليه من كلّ ما سواه، ويكون ذليلاً له خاضعًا، وإلا استعبدته الكائنات، واستولت على قلبه الشياطين، فكان من الغاوين إخوان الشياطين، وصار فيه من السوء والفحشاء ما لا يعلمه إلّا الله.

وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه؛ فالقلب إن لم يكن حنيفًا مقبلاً على الله، معرضًا عمّا سواه، وإلّا كان مشركًا، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ {٣٠/٣٠} مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ {٣١/٣٠} مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [الروم: ٣٠-٣٢]»[1].

من هذا التحليل النفسي الرائع لابن تيمية، ندرك تمامًا أن الإيمان بالله طريق الحرية، وأن الكفر بالله والإشراك به طريق العبودية والاستعباد لمن لا يستحق العبادة»[2].

---

(١) العبودية، ص(١١١-١٤٢).

(٢) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، د/ شريف الشيخ صالح، (٦٠/٢-٦١).

وأنّ طريـق العبوديـة للـه - عـز وجـل - هـو أفضـل الطـرق وأهمهـا للحصـول عـلى التغيـير، وهـذه هـي سنّته، فـلا يصلـح فـرد ولا أمّـة إلّا إذا تغـيّر حالهـم إلى العبوديـة الحقـة للـه - عـز وجـل -.

وهـذا مـا يؤكّـده العلّامـة الصـادق عرجـون، وهـو أن اللـه- تعـالى- «لا يُحـدث للنـاس حـالًا مـن النعيـم أو البـؤس إلّا اذا أحدثـوا لأنفسـهم حـالًا غـيروا بـه مـا كانـوا عليـه مـن الخـير والهـدى، فعاشـوا فى الـشر والفسـاد، أو مـا كانـوا عليـه مـن الطغيـان والإفسـاد، فثابـوا إلى الخـير، وأنابـوا إلى ربهـم تائبـين، واللـه- تعـالى- أخـبر أنـه فطـر النـاس عـلى الخـير والهـدى، فقـال جـلَّ شـأنه: ﴿فَأَقِـمْ وَجْهَـكَ لِلدِّيـنِ حَنِيفًـا فِطْـرَةَ اللـهِ الَّتِـي فَطَـرَ النَّـاسَ عَلَيْهَـا لَا تَبْدِيـلَ لِخَلْـقِ اللـهِ ذَلِـكَ الدِّيـنُ الْقَيِّـمُ﴾، فـإذا غـير الناس فطـرة اللـه بسـوء تصرفهـم، وانحـدروا مـع الشـيطان إلى مزالـق الـشر والفسـاد فى عقائدهـم وتفكيرهـم وسـلوكهم الاجتماعـي؛ أنـزل اللـه بهـم عقابـه، وأذاقهـم عذابـه الشـديد؛ ليتذكـروا مـا كانـوا عليـه مـن خـير وهـدى، علّهـم يعـودون إلى إصـلاح أحوالهـم، فيرفـع اللـه عنهـم بأسـه وشـدة وطأتـه، فـإذا عـادوا إلى الـشرّ والفسـاد عـاد اللـه عليهـم ببطشـه وانتقامـه، وهكـذا تقتـضي سـنّة اللـه وعدلـه أنْ يجـزي الإحسـان إحسـانًا، والسـوء عقابًـا وعذابًـا، فـإن أحسـن النـاس كان إحسـانهم لأنفسـهم؛ لأنهـم يجنـون ثمـاره نعـمًا ورحمـة، وإن أسـاءوا فعواقـب إسـاءتهم راجعـة إليهـم، لا يـضرّون إلّا أنفسـهم»(١).

***

(١) سنن الله في المجتمع، ص(٢٨).

المبحثُ الثّاني والثلاثون

التّوازنُ عند شيخ الإسلام ابن تيمية

تعريفُ التوازن:

وزن: وزن الشيء، أي: رجح، ويروى بيت الأعشى:

وإن يستضافوا إلى حكمة   يضاف إلى عادل قد وزن

وقد وزن وزانة: إذا كان مثبتًا، وقال أبو سعيد: أوزن نفسه على الأمر وأوزنها: إذا وطّن نفسه من الميزان، أي: العدل، وأيضًا وزن الشيء، أي: قدره[1].

والمقصود من التوازن: إعطاء كلّ أمر من الأمور قدره المستحق له دون تقصير أو نقص، مع الموازنة بينه وبين الأمور الأخرى.

التّوازنُ سنّة إلهية:

إنّ كلّ ما في الكون يدلّ على هذا التوازن، فلا يطغى شيء على شيء، فكلّ نواميس الكون تسير بنظام وبتوازن في العمل والوقف، لا تزيد ولا تنقص إلّا بأمر الله وتدبيره.

ونجدُ هذا التوازن في كلّ الجوانب حتى في الألوان والأشكال والتعدّد، ولقد تحدّث العلماءُ كثيرًا عن هذه الظاهرة بما يعرف بالتوازن البيئي للكائنات، وهي- أيضًا- نلاحظها في شرائع الله وأحكامه، نجد منهجًا وسطًا متوازنًا في كلّ الأحكام والأوامر والأخلاقيات والقوانين، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: ٦٧].

ويعرّف العلّامةُ الشيخ الصادق عرجون- رحمه الله- التوازنَ بأنه سنّة هذا الكون وسمته المميزة فيقول: «والتوازن بين عناصر الكون ووشائجه هو سنة الله التي دبر بها الكون، وعليها

(١) انظر: لسان العرب، باب وزن، ص(٢٠٥، ٢٠٦)، الجزء (١٥، ١٦).

أدار فلك نظامه الإلهي البديع، وهذا التوازن هو العدل الذى قامت به السموات والأرض، وهو الحقّ الذي خلقت به الحياة.

ومن أبرع ما عبّر به البيان القرآني عن سنة الله العامة في الكون ما لقّن الله- تعالى- كليمَه موسى - عليه السلام - في جوانب التعنت الفرعوني؛ إذ يقول حاكيًا للسؤال والجواب في أوجز أسلوب إعجازي ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى {٢٠/٤٩} قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ [طه: ٤٩-٥٠]، والتعبير بقوله: ﴿أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ﴾ بيان لسنّته- تعالى- في توازن عناصر كلّ مخلوق، توازنًا جرى على تقدير مُنسّق مُحكم، والتعبير بقوله: ﴿ثُمَّ هَدَى﴾ بيان لسنة الله- تعالى- في توازن التمكين الذي أوتيه كلّ مخلوق في طرائق عيشه وضوابط حياته، فإعطاء الله- تعالى- كلّ شيء في الوجود تقديره الملائم لمكانه مِن نظام الكون، وتوجيه الله- تعالى- لكلّ مخلوقٍ بمقتضى خلقته الخاصّة التي فطره الله- تعالى- عليها، لكي يُعْطى ما أريد منه في الحركة الكونية الدائبة هو سنّة التوازن الكوني العام التي يقوم عليها صلاحه وبقاؤه في نظامه الإلهي البديع»[١].

وهناك توازنٌ واضح بين الكون والشريعة قد أشار إليه الأستاذ سيد قطب- رحمه الله- فيقول: «وهو منهج قائم على العلم المطلق بحقيقة الكائن الإنساني، والحاجات الإنسانية، وبحقيقة الكون الذي يعيش فيه الإنسان، وبطبيعة النواميس التي تحكمه وتحكم الكينونة الإنسانية..

ومِن ثمّ لا يفرط في شيء من أمور هذه الحياة، ولا يقع فيه ولا ينشأ عنه أي تصادم مدمّر بين أنواع النشاط الإنساني، ولا أي تصادم مدمّر بين هذا النشاط والنواميس الكونية، إنّما يقع التوازن والاعتدال والتوافق والتناسق..

الأمرُ الذي لا يتوافر أبدًا لمنهج من صنع الإنسان الذي لا يعلم إلّا ظاهرًا من الأمر، وإلّا الجانب المكشوف في فترة زمنية معينة، ولا يسلم منهج يبتدعه من آثار الجهل الإنساني، ولا

(١) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن الكريم، ص(١٦، ١٧).

يخلـو مـن التصـادم المدمّـر بـين بعـض ألـوان النشـاط، وبعـض الهـزّات العنيفـة الناشـئة عـن هـذا التصـادم»[1].

وبهـذا يتّضـح لنـا تـوازن الكـون كلّـه الـذي يتـماشى مـع الشريعـة الربانيـة الهاديـة، وهكـذا نـدرك أنـه لا يشـذّ عـن التـوازن إلّا مخالـفٌ للكـون أو معانـد للشريعـة[2].

وهكـذا نجـد أن هـذا التـوازن البديـع في هـذا الكـون ملحـوظ في كلّ الجوانـب، فـلا يعلـو أمـرٌ عـلى أمـر، فسـبحانه يمسـك السـموات أن تقـع عـلى الأرض إلّا بإذنـه، كـما أنـه- سـبحانه- هـو الـذي يقـدر الأرزاق ويوزعهـا عـلى كلّ الكائنـات؛ حتـى تبقـى الحيـاة عـلى هـذه الأرض وتعمـر عـلى النحـو الـذي أراده اللـه لهـا.

ثـمّ جعـل شريعتـه للبـشر حاكمـة عليهـم ومهيمنـة؛ حتـى يكونـوا جـزءًا مـن هـذا الكـون المنظّـم المتـوازن، فـلا يحـدث الخلـل الـذي يفسـد هـذا الكـون، ويصبـح الـكلّ في فلـك واحـد يرتّـل تسـبيحة واحـدة لـه- سـبحانه.

ويقـول شـيخُ الإسـلام مشـيرًا إلى هـذه السـنة الإلهيـة في أثنـاء تفسـيره لقولـه تعـالى: ﴿وَالَّـذِي قَـدَّرَ فَهَـدَى﴾ [الأعـلى: ٣]: «وقـرأ الجمهـور ﴿قَـدَّرَ﴾ بتشـديد الـدّال فاحتمـل أن يكـون مـن القـدر والقضـاء، واحتمـل أن يكـون مـن التقديـر والموازنـة بـين الأشـياء»[3].

والتـوازن هـو أحـد معـاني الوسـطية والاعتـدال، وتجلـت الوسـطية، أي: «التـوازن» في قـول شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة في تفسـيره لقولـه تعـالى: ﴿قَآئِمَـاً بِالْقِسْـطِ ﴾ [آل عمـران: ١٨]: «إن الاسـتقامة والاعتـدال متلازمـان، فمـن كان قولـه وعملـه بالقسـط كان مسـتقيمًا، ومَـن كان قولـه وعملـه مسـتقيمًا كان قائمًـا بالقسـط.

ولهـذا أمرنـا اللـه- سـبحانه- أن نسـأله أن يهدينـا الـصراط المسـتقيم، صراط الذيـن أنعـم عليهـم مـن: النبيّـين والصديقـين والشـهداء والصالحـين، وصراطهـم هـو العـدل والميـزان؛ ليقـوم النـاس

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب، (٨٩٠/٢).
(٢) وسطية الإسلام ودور العلماء في إبرازها، د/ أكرم كساب، ص(٢٠١).
(٣) الفتاوى، (١٤٦/١٦).

بالقسـط، والـصراط المسـتقيم هـو العمـل بطاعتـه وتـرك معاصيـه؛ فالمعـاصي كلهـا ظلـم مناقـض للعـدل مخالـف للقيـام بالقسـط والعـدل، واللـه- سـبحانه- أعلـم»[1].

ولقـد تحـدّث شـيخ الإسـلام في مواضـع مختلفـة مـن كتاباتـه شـارحًا هـذه السـنة ومعـززًا لهـا، فهـو يذكـر أنّ التـوازن روحٌ تـسري في هـذه الأمّـة في كلّ أمورهـا الخلقيـة والتشريعيـة والعقائديـة، فلقـد جعـل اللـه - عـز وجـل - لنـا منهجًـا وسـطيًا متوازنًـا في كلّ شيء لا يجنـح إلى اليمـين ولا إلى اليسـار، بـل جـاء متناسـبًا مـع حيـاة البـشر وطبيعتهـم التـي جبلهـم اللـه عليهـا، ملائمًـا لحياتهـم وظروفهـم.

ومِـن هـذه المواضـع التـي ذكرهـا شـيخُ الإسـلام- رحمـه اللـه- قولـه: «وقـد خـصّ اللـه- تبـارك وتعـالى- محمـدًا صـلى اللـه عليـه وسـلم بخصائـص ميّـزه بهـا عـلى جميـع الأنبيـاء والمرسـلين، وجعـل لـه شرعـة ومنهاجًـا، أفضـل شرعـة وأكمـل منهـاج مبـين.

كـما جعـل أمّتـه خـير أمّـة أُخرجـت للنـاس، هداهـم اللـه بكتابـه ورسـوله لمـا اختلفـوا فيـه مـن الحـقّ قبلهـم، وجعلهـم وسـطًا عـدلًا خيـارًا.

فهُـم وسـط في توحيـد اللـه وأسـمائه وصفاتـه، وفي الإيمـان برسـله وكتبـه وشرائـع دينـه، مـن الأمـر والنهـي والحـلال والحـرام، فأمرهـم بالمعـروف ونهاهـم عـن المنكـر، وأحـلّ لهـم الطيّبـات وحـرّم عليهـم الخبائـث.

لم يحـرّم عليهـم شـيئًا مـن الطيبـات كـما حـرم عـلى اليهـود، ولم يحـلّ لهـم شـيئًا مـن الخبائـث كـما اسـتحلتها النصـارى.

ولم يضيّـق عليهـم بـاب الطهـارة والنجاسـة كـما ضيّـق عـلى اليهـود، ولم يرفـع عنهـم طهـارة الحـدث والخبـث كـما رفعتـه النصـارى، فـلا يوجبـون الطهـارة مـن الجنابـة ولا الوضـوء للصـلاة ولا اجتنـاب النجاسـة في الصـلاة، بـل يعـدّ كثـير مـن عبادهـم مبـاشرة النجاسـات مـن أنـواع القـرب والطاعـات، حتـى يقـال في فضائـل الراهـب: (لـه أربعـون سـنة مـا مـسّ المـاء)، ولهـذا تركـوا الختـان مـع أنـه شرع إبراهيـم الخليـل- عليـه الصـلاة السـلام- وأتباعـه.

---

(١) الفتاوى، (١٧٩/١٤).

واليهـود عندهـم إذا حاضـت المـرأة لا يؤاكلونهـا ولا يشـاربونها، ولا يقعـدون معهـا في بيـت واحـد، والنصـارى لا يحرّمـون وطء الحائـض.

وكان اليهـود لا يـرون إزالـة النجاسـة، بـل إذا أصـاب ثـوبَ أحـدٍ منهـم قرضـه بالمقـراض، والنصـارى ليـس عندهـم شيء نجـس يحـرم أكلـه أو تحـرم الصـلاة معـه»[١].

ويقـول في موضـع آخـر مؤكـدًا عـلى التـوازن الـذي حبـى اللـه بـه هـذه الأمّـة: «فبعـث اللـه محمـدًا ﷺ بالشريعـة الكاملـة العادلـة، وجعـل أمّتَـه عـدلًا خيـارًا لا ينحرفـون إلى هـذا الطـرف ولا إلى هـذا الطـرف، بـل يشـتدون عـلى أعـداء اللـه، ويلينـون لأوليـاء اللـه، ويسـتعملون العفـو والصفـح فيـما كان لنفوسـهم، ويسـتعملون الانتصـار والعقوبـة فيـما كان حقًّـا للـه»[٢].

كـما بـيّن أنّ المسـلمين وسـط ومتوازنـون عـن غيرهـم مـن الأمـم في تعاملهـم مع أحـكام اللـه وشريعته، وأيضًـا في عقيدتهـم مـع أحـكام اللـه وشريعتـه، وأيضًـا في عقيدتهـم في اللـه - عـز وجـل - وعبوديتهـم لـه، فيقـول- رحمـه اللـه: «ولذلـك المسـلمون وسـط في الشريعـة؛ فلـم يجحـدوا شرعـه الناسـخ لأجـل شرعـه المنسـوخ كـما فعلـت اليهـود، ولا غـيروا شـيئًا مـن شرعـه المحكـم، ولا ابتدعـوا شرعًـا لم يـأذن بـه اللـه كـما فعلـت النصـارى، ولا غلـوا في الأنبيـاء والصالحـين كغلـو النصـارى، ولا بخسـوهم حقوقهـم كفعـل اليهـود، ولا جعلـوا الخالـق- سـبحانه- متّصفًـا بخصائـص المخلـوق ونقائضـه ومعايبـه مـن: الفقـر والبخـل والعجـز كفعـل اليهـود، ولا المخلـوق متّصفًـا بخصائـص الخالـق- سـبحانه- التـي ليـس كمثلـه فيهـا شيء كفعـل النصـارى، ولم يسـتكبروا عـن عبادتـه كفعـل اليهـود، ولا أشركـوا بعبادتـه أحـدًا كفعـل النصـارى.

وأهـل السـنة والجماعـة في الإسـلام كأهـل الإسـلام في أهـل الملـل؛ فهـم وسـط في بـاب صفـات اللـه - عـز وجـل - بـين أهـل الجحـد والتعطيـل، وبـين أهـل التشـبيه والتمثيـل، يصفـون اللـه بمـا وصـف بـه نفسـه، وبمـا وصفـه بـه رسـله مـن غـير تعطيـل ولا تمثيـل إثباتًـا لصفـات الكـمال، وتنزيهًـا لـه عـن أن

(١) الجواب الصحيح، (٦٨/١، ٦٩، ٧٠).

(٢) الجواب الصحيح، (٨٣/٥).

يكون له فيها أنداد وأمثال، إثبات بلا تمثيل، وتنزيه بلا تعطيل، كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ ردّ على الممثلة، ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ﴾»[١].

وأيضًا نجد شيخ الإسلام يطبق هذه السنة في حياته وفي تعامله مع خصومه، فيتجلى ذلك واضحًا في موقفه مع التصوف والصوفية، حيث يقول- رحمه الله: «وأنت تجد كثيرًا من المتفقهة إذا رأى المتصوفة والمتعبدة لا يراهم شيئًا، ولا يعدهم إلّا جهالًا ضلالًا، ولا يعتقد في طريقهم من العلم والهدى شيئًا، وترى كثيرًا من المتصوفة والمتفقرة لا يرى الشريعة والعلم شيئًا، بل يرى أن المتمسك بها منقطعًا عن الله، وأنه ليس عند أهلها ممّا ينفع عند الله شيئًا.

وإنّما الصواب أنّ ما جاء به الكتاب والسنة من هذا وهذا حقّ، وما خالف الكتاب والسنة من هذا وهذا باطل»[٢].

وأيضًا في تعامله مع الرافضة حيث يقول: «والرافضة فيهم مَن هو متعبّد متورّع زاهد، لكن ليسوا في ذلك مثل غيرهم من أهل الأهواء؛ فالمعتزلة أعقل منهم وأعلم وأدْيَن، والكذب والفجور فيهم أقلّ منه في الرافضة، والزيدية من الشيعة خير منهم أقرب إلى الصدق والعدل والعلم، وليس في أهل الأهواء أصدق ولا أعبد من الخوارج... »[٣].

ويقول- أيضًا: «وقد ذهب كثير من مبتدعة المسلمين من: الرافضة والجهمية وغيرهم إلى بلاد الكفار فأسلم على يديه خلق كثير، وانتفعوا بذلك وصاروا مسلمين مبتدعين، وهو خيرٌ من أن يكونوا كفارًا، وكذلك بعض الملوك قد يغزو غزوًا يظلم فيه المسلمين والكفار ويكون آثمًا بذلك، ومع هذا فيحصل به نفع خلق كثير كانوا كفارًا فصاروا مسلمين... »[٤].

---

(١) الجواب الصحيح، (٧١/١).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم، ص(١٠)، وراجع: كتاب وسطية الإسلام ودور العلماء في إبرازها، ص(١٨٣) وما بعدها.

(٣) منهاج السنة النبوية لابن تيمية، (١٥٧/٥).

(٤) دقائق التفسير، (١٤٣/٢)، ت: محمد السيد الجليند، جـ١، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، ط ٢، ١٢٠٤هـ.

أيضًـا- تحقّـق التـوازن في اختياراتـه العلميـة والعمليـة، وقـد عـدّ ابـن تيميـة تحقّـق الوسـط في الاختيـارات العلميـة مـمّا وقـع بـين الفقهـاء مـن خـلاف فقـال: «وأيضًـا فـإن أصـول الشريعـة تفـرق في جميـع مواردهـا بـين القـادر والعاجـز، والمفـرط، والمعتـدي، ومـن ليـس بمفـرط ولا معتـد.

والتفريـق بينهـما أصـل عظيـم معتمـد، وهـو الوسـط الـذي عليـه الأمّـة الوسـط، وبـه يظهـر العـدل بـين القولـين المتباينـينْ.

وقـد تأمّلـت مـا شـاءَ اللـهُ مـن المسـائل التـي يتبايـن فيهـا النـزاع نفيًـا وإثباتًـا حتـى تصـير مشـابهة لمسـائل الأهـواء، ومـا يتعصـب لـه الطوائـف مـن الأقـوال؛ كمسـائل الطرائـق المذكـورة في الخـلاف بـين أبي حنيفـة والشـافعي وبـين الأئمـة الأربعـة، وغـير هـذه المسـائل؛ فوجـدت كثـيرًا منهـا يعـود الصـواب فيـه إلى الوسـط؛ كمسـألة إزالـة النجاسـة بغـير المـاء، ومسـألة القضـاء بالنكـول، وإخـراج القيـم في الـزكاة، والصـلاة في أول الوقـت، والقـراءة خلـف الإمـام، ومسـألة تعيـين النيـة وتبييتهـا، وبيـع الأعيـان الغائبـة، واجتنـاب النجاسـة في الصـلاة، ومسـائل الشركـة كـ: شركـة الأبـدان والوجـوه والمفاوضـة، ومسـألة صفـة القـاضي.

وكذلـك هـو الأصـل المعتمـد في المسـائل الخبريـة العلميـة التـي تسـمى مسـائل الأصـول، أو أصـول الديـن، أو أصـول الـكلام، يقـع فيهـا اتبـاع الظـن ومـا تهـوى الأنفـس»(١).

وقـد قرّرنـا- أيضًـا- مـا دلّ عليـه الكتـاب والسـنة فيهـا وفي غيرهـا مـن الفـرق بـين المؤمـن باطنًـا وظاهـرًا، وبـين المنافـق الزنديـق المؤمـن ظاهـرًا لا باطنًـا، وأن المؤمنـين قـد عُفـي لهـم عـن الخطـأ والنسـيان، ثـمّ غالـب الخـلاف المتبايـن فيهـا يعـود الحـقّ فيـه إلى القـول الوسـط في مسـائل التوحيـد والصفـات، ومسـائل القـدر والعـدل، ومسـائل الأسـماء والأحـكام، ومسـائل الإيمـان والإسـلام، ومسـائل الوعـد والوعيـد، ومسـائل الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر، والخـروج عـلى الأمـراء ومذاهبهـم، أو موافقتهـم عـلى طاعـة اللـه؛ فأمرهـم ونهيهـم بحسـب الإمـكان والامتنـاع عـن الخـروج والفـتن، وأمثـال هـذه الأهـواء(٢).

---

(١) الفتاوى، (١٤١/٢١، ١٤٢).

(٢) الفتاوى، (١٤١/٢١، ١٤٢).

وهكـذا نجـد أنّ شـيخَ الإسـلام- رحمـه اللـه- جعـل سـنة اللـه في التـوازن بـين الأمـور منهجًـا لـه في حياتـه كلهـا، فهـو يـوازن بـين الأهـداف المختلفـة في حياتـه قـدر الطاقـة، فـلا يطغـى هـدف عـلى هـدف، فهـو العـالم الحافـظ المجاهـد صاحـب التصانيـف، المسـلم الواعـي بقضايـا الأمّـة لسـائر المسـلمين في كلّ أمـور حياتهـم، منصـف مـع مخالفيـه، متـوازن في اختياراتهـم العلميـة والفقهيـة.

السّننُ الاجتماعية لدى ابن تيمية:

والمقصـود بالسـنن الاجتماعيـة أنهـا السـنن التـي تحكـم الجماعـات والمجتمعـات الإنسـانية وتنظّمهـا، وبدونهـا تحـدّث الفـوضى للأمـم، فيكـون ذلـك سـببًا في فشـلها وتأخرهـا، أو هلاكهـا كـما حـدث في أمـم عـاد وثمـود وغيرهـا؛ «فسـنن اللـه- تعـالى- في المجتمـع جانـب مـن جوانـب الفكـرة القرآنيـة التـي بثهـا اللـه في آيـات هـذا الكتـاب المبـين نظامًـا اجتماعيًّـا مترابطًـا إلى جانـب سـنن اللـه العامـة في الكـون، التـي تصـوّر فلسـفة القـرآن في فهـم الحيـاة، كـما تصـوّر حكمتـه في نعـوت الكـمال للـه- تعـالى- خالـق الحيـاة، وفلسـفة القـرآن تجعـل مـن الكـون كلـه حقيقـة واحـدة طـوى فيهـا خالقهـا دلائـل وجـوده، وبراهـين وحدانيتـه، وآيـات قدرتـه وعلمـه وحكمتـه، ووكل إلى العقـل البـشرى تكليفًـا وتشريفًـا الكشـف عـن هـذه الدلائـل والبراهـين بمـا أودع فيـه مـن قـوة إدراكيـة غائصـة، وبمـا أمـدّه بـه مـن عـون في تهديـه إليهـا، وهـذا المعنـى هـو خلاصـة وعـد اللـه- تعـالى- لهـذا العقـل بالكشـف عـن آيـات اللـه- تعـالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]»[1].

لقـد بـيّن شـيخُ الإسـلام- رحمـه اللـه- مـن خـلال حديثـه عـن مفهـوم العبـادة أن العبـادة الحقـة لا تكـون إلّا بإعـمار الكـون عـن طريـق تنظيـم علاقتـه بالخالـق - عـز وجـل -، وتنظيـم علاقتـه بالمخلوقـين وبالكـون الـذي يعيـش فيـه، وسـنوضّح ذلـك:

أولًا: «مفهوم العبادة عند ابن تيمية: أن العبادة نوعان: عبادة دينية وعبادة كونية.

العبـادة الدينيـة: تنظـم علاقـة المسـلم بالخالـق، وعلاقاتـه بالأفـراد والجماعـات والأمـم مـن حولـه، فالعبـادة الدينيـة لهـا مظهـران: مظهـر تعبـدي ومظهـر اجتماعـي.

(١) سنن الله في المجتمع، ص(٧).

وتطبيـق هـذه العبـادة بمظهـر تعبـدي يقتـضي تعليـم الفـرد وتدريبـه عـلى تنظيـم علاقتـه بالخالـق، وهـو ميـدان علـوم التوحيـد وأصـول الديـن.

أمّـا تطبيـق هـذه العبـادة بمفهومهـا الاجتماعـي فيقتـضي تعليـم الجماعـة وتدريبهـا عـلى الفضائـل الاجتماعيـة، وهـو ميـدان علـوم الشريعـة.

أمّـا العبـادة الكونيـة: معناهـا الخضـوع لتدبـير اللـه وتصريفـه، وتدبـير اللـه وتصريفـه يتمثـل في القوانـين التـي تنظـم الكائنـات ومظاهـر الاجتـماع والحيـاة، وبهـذا الاعتبـار فالمخلوقـون كلهـم عبـاد اللـه مـن الأبـرار والفجـار والمؤمنـين والكفـار وأهـل الجنـة والنـار؛ لأنهـم كلهـم خاضعـون لقوانـين اللـه، ولا يخرجـون عـن مشـيئته وقدرتـه، والألـوان ومـا فيهـا كلهـا عبـاد اللـه؛ لأنهـا لا تخـرج عـن قوانينـه في الحركـة والسـكون.

وفي كافـة الأحـوال فهـو- سـبحانه- رب العـوالم والخوالـق ومـصرّف أمورهـا لا غـيره ولا مالـك سـواه، اعـترف النـاس بذلـك أو أنكـروه، وسـواء علمـوا ذلـك أو جهلـوه ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّـهِ يَبْغُـونَ وَلَـهُ أَسْـلَمَ مَـن فِي السَّـمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًـا وَكَرْهًـا وَإِلَيْـهِ يُرْجَعُـونَ﴾ [آل عمـران: ٨٣].

وتحقيـق العبـادة الكونيـة يقتـضي البحـث عـن أسرار الأكـوان المحيطـة، واكتشـاف قوانينهـا، وتدريـب المتعلـم عـلى كيفيـة التعامـل مـع الأكـوان واسـتغلالها حسـب القوانـين التـي فطرهـا اللـه عليهـا طبقًـا لهـا، وهـذا هـو ميـدان العلـوم الطبيعيـة؛ فهـذا الكـون المحيـط كتـاب كبـير يحتـوي عـلى آيـات الآفـاق التـي تـدلّ عـلى وحدانيـة اللـه، وإحـكام المخلوقـات بالشـكل الـذي هـي عليـه يكشـف عـن علـم اللـه، وإبـداع أنـواع المحدثـات تظهـر قـدرة اللـه، ومـا يجـري فيـه مـن أحـوال وأحـداث في حيـاة الأفـراد والأمـم وبقيـة المخلوقـات ترشـد إلى فعـل اللـه المتيقـن، والنعيـم الـذي يزخـر بـه الكـون يـدلّ عـلى سـعة رحمـة اللـه.

وهـذه علـوم وأسرار إذا عرفهـا الإنسـان وشـهدها بسـمعه وبـصره وقلبـه أدرك ضرورة العبـادة التـي يجـب أن يعبـد بهـا»[١].

---

(١) الفكر التربوي عند ابن تيمية، ص(١٠٢) وما بعدها، وانظر: الفتاوى، توحيد الألوهية، (١/١).

المبحثُ الثّالث والثلاثون

منهجيّةُ شيخ الإسلام ابن تيمية في عرض السّنن

يتميّـز شـيخُ الإسـلام ابـن تيميـة في عرضـه للسـنن وتناولـه لهـا بعـددٍ مـن الملامـح تمثـل منهجيّتَـه في معالجتهـا، ومـن أهـمّ هـذه الملامـح:

١- إبراز الجانب السنني والتركيز على إيضاحه؛ سعيًا منه إلى ترسيخ الوعي بها في نفوس المسلمين.

٢- حشد الأمثلة التي تؤيد الفكرة.

٣- ذكر كثير من الآيات القرآنية التي توضّح قضيته.

٤- تعزيز موضوعه بالأحاديث إن وجدت.

٥- عقد المقارنات بين مَن يطبّقون هذه السنن ومَن يخالفونها.

٦- الجمع بين التفصيل والإجمال.

٧- الجمع بين التأصيل والتنزيل.

٨- ربط السنن بالواقع المعيش للمسلمين.

٩- بروز الجانب الدعوي في تناوله للسنن بصورة لافتة.

السننُ الإلهية بين النظرية والتطبيق في حياة شيخ الإسلام ابن تيمية:

شـغلت السّـنن الربانيـة في حيـاة ابـن تيميـة حيـزًا كبـيراً؛ حتـى إنـه جعلهـا بابًـا مـن أبـواب الدّلالـة عـلى اللـه- تعـالى؛ فعـرف أنّ الدلالـة عـلى اللـه تـأتي مـن خـلال:

١- دراسة الله في كتابه وآياته في الآفاق والأنفس.

٢- النظـر في إتقـان المخلوقـات هـو الـذي يـؤدي إلى العلـم باللـه- تعـالى، كـما أنـه يـؤدي إلى الوقـوف عـلى قـدرة اللـه- تعـالى.

٣- ومن خلال التكامل بين المنهج الشرعي والمنهج الكوني فإن ذلك يؤدي إلى معرفة قوانين الكون والحياة والموت والخلق ومجريات الأحداث.

لقد برزت السنن الإلهية ومعرفتها في شخصية ابن تيمية بروزًا رائعًا حيث جعلها قانونًا في الهيكل العام لحياة المسلمين وظيفتها سدّ الثغرات التي يدخل منها أعداء الإسلام لهذا الهيكل، وتركّزت كثير من اتجاهاته العلمية على هذا الأمر، فتحدث عن أمراض النفوس بوصفها ثغرًا وموطن ضعف يهدّد بنيان الأمة، وأيضًا مداخل الشيطان؛ لأنها آفة تفت في عضد الأمة، وأيضًا رأى بعينيه تلك الأمراض والخلافات وكل ما يمنع اتحاد بنيان الأمّة واتساقه، فاهتم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومجاهدة الغائبين والمضللين عن دين الإسلام، وكل ما يخالف الشرع بوصفه لا يرى النموذج الأمثل إلّا فيما رسمه الله - عز وجل - لإقامة البنيان من: شرائع وأحكام وأخلاق ومبادئ بعث من أجلها الرسول والأنبياء، حتى تبلورت في النموذج العملي لحياة الصحابة والتابعين.

وقد رأى ذلك بقلبه وعقله وعلمه الذي تعلمه فقرّر أن يكون هو فرض الكفاية لسدّ الثغور داخل الهيكل والبنيان مضحّيًا بوقته وحياته من أجل ذلك، مستعينًا بالله، متحملاً للأذى، راجيًا لثواب الله - عز وجل -، وأيضًا من هذه الثغور التي حاول القيام بسدها مواجهات أعداء الإسلام للأمّة مثل: النصارى والمنافقين والتتار والصليبيين والخارجين عن الإسلام.

لقد فهم جيدًا من خلال السنن أنّ الله - عز وجل - يهلك كلّ من يحاول أن يفتّ هذا البنيان، فأخذ على عاتقه الدعوة إلى الله لتنقذ الناس من الهلاك المحتدم إذا هم خالفوا منهج الله - عز وجل - في إقامة هذا المنهاج، الذي يهدف إلى تعمير الأرض، ولن تعمر الأرض ولن نستفيد بها إذا بعدنا عن هذا المنهاج.

وهذه مفاتيح الربانية لفهم الكون حتى نتّسق مع عنصر الزمن، ونسير كما تسير الشمس والقمر في نفس المنظومة الشاملة للكون، لا نعاديها ولا نعاكسها، بل نفهمها ونسايرها.

وهكذا لقد فهم جيدًا أنّ الآفة لا تصيب الإنسان إذا لم يأخذ بالأسباب التي تؤدي إلى منعها؛ فالمرض يأتي بنقص عناصر الجسم، أو التعرض لما لا يعتاده الجسم مثل: الحر الشديد

أو البرد الشديد أو السموم التي تتلف أجزاءه، وهكذا، أو أن الحشرات لا تأتي إلّا إذا أهملنا النظافة.

لذلـك اهتـمّ شـيخ الإسـلام بالأسـباب والمسـببات، واهتـم آفـات الكيـان الاجتماعـي للإنسـان مثـل: البعـد عـن منهـج اللـه في كلّ مـا يتصـل بعنـاصر الكيـان مـن أجسـام ماديـة وروحيـة وأسرة وعلاقـة بـين زوجـين وأبنـاء، ثـمّ مجتمـع لـه أفـراده مثـل أسـباب الاختـلاف والفرقـة، كيفيـة الاجتـماع والالتئـام والوحـدة.

وأيضًا الوهن والضعف الذي يجعل المجتمع يضعف عن صدّ أعدائه أسبابه وعلاجه ووسائله.

وكذلـك اهتـمّ بإنقـاذ الإنسـان الأخـروي، ووضـح الطـرق الرائعـة التـي توصـل إلى ذلـك؛ ليعيـش الإنسـان السـلام في حياتـه وبعـد موتـه.

لقـد فهـم شـيخُ الإسـلام أن الآفـات الاجتماعيـة هـي نتيجـة حتميـة لتلـك المخالفـات التـي يخالفهـا الإنسـان للسـنن الإلهيـة، لذلـك حـاول جاهـدًا أن يـشرح للنـاس هـذه السـنن، وأنهـا لا تتبـدّل ولا تتغـيّر ولا تحـابي، وليدلّنـا أن نسـير كـما هـي تسـير، لا نعاكسـها ولا نخالفهـا، بـل نكـون نحـن- أيضًـا- متّسـقين مـع هـذه النواميـس كـما الشـمس والقمـر ودوران الأرض والزمـن، فنسـتفيد مـن تـوالي الأزمـان، ومـن حركـة الليـل والنهـار مـن شروق الشـمس وغروبهـا، فنسـتطيع أن ننفـع أنفسـنا، ونسـخر الكـون كـما أراد اللـه لنـا ذلـك.

فـشرع يوضـح للنـاس أنّ اللـه - عـز وجـل - لم يتركنـا همـلاً، بـل جـاء بنـا وخلقنـا ومعنـا الدسـتور الـذي يعلمنـا كيـف نسـير وفـق هـذه السـنن، فجعـل لنـا الفطرة التـي تقودنـا إلى تلـك المعرفة، والسـعادة تتحقّـق لـو طبقنـا الدسـتور، فهـو الـشراع لنـا الـذي يسـير بنـا إلى الهـدف المنشـود، ولـو خالفنـا المنهـج سـنغرق، ولـن نسـتطيع الحصـول عـلى النجـاة إلّا إذا استمسـكنا بهـذا الأمـل الإلهـي.

لذلـك عندمـا وجـد شـيخ الإسـلام الأمّـة تغـرق في متاهـات الجهـل والتفـرق والأحـزاب؛ أخـذ يصـفُ لهـم هـذا العـلاج مـن مسـايرة سـنن اللـه - عـز وجـل -.

وهكـذا يظهـر لنـا- أيضًـا- فقـه التـوازن واضحًـا في حيـاة شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة؛ فهـو يـوازن مـا بـين جوانبـه الشـخصية وبـين تحصيـل العلـم والدعـوة والجهـاد، وهـذا بسـبب نظرتـه الشـمولية للحيـاة، ورؤيتـه التأمليـة للكـون مـن حولـه.

وأيضًـا تظهـر سـنّة الـصراع مـا بـين الحـقّ والباطـل واضحـة في تعاملـه مـع خصومـه؛ فلقـد نـصره اللـه ورفـع قـدره ودحـض آراء المخالفـين.

وتظهـر- أيضًـا- سـنة اللـه في التغيـير واضحـة في حياتـه؛ فهـو دائمًـا كان يسـتعمل الحكمـة والموعظـة الحسـنة والنصيحـة، وامتـازت أخلاقـه بالصـبر والتسـامح وصفـاء القلـب؛ مـمّا أكسـبه ذلـك العلـم النافـع في كافـة المجـالات، فوصـل إلى اليقـين، ومحبـة اللـه - عـز وجـل -، وحـارب البـدع والخرافـات في حياتـه، وبـيّن أنّهـا مـن أسـباب الهزيمـة، وأن النـصر مرتبـط ارتباطًـا وثيقًـا بالرجـوع إلى الديـن.

وهكـذا كانـت حياتـه كلهـا تطبيقًـا عمليًّـا للسـنن الإلهيـة، فهـو قانـع في عيشـه، متـوكل عـلى ربـه، لا يخـاف في اللـه لومـة لائـم، يتمثـل فيـه قـول الشـاعر[1]:

تَوكلْـتُ في رِزْقـي عَـلَى اللَّـهِ خَالقـي ... وأيقنـتُ أنَّ اللـهَ لا شـك رازقـي

ومـا يـكُ مـن رزقـي فليـسَ يفوتنـي ... وَلَـو كَانَ في قَـاع البَحَـارِ الغَوامِـقِ

سيـأتي بـهِ اللـهُ العظيـمُ بفضلـهِ ... ولـو لم يكـن منـي اللسـانُ بناطـقِ

ففـي أي شيءٍ تذهـبُ النفـسُ حـسرةً ... وَقَـدْ قَسَـمَ الرَّحْمَـنُ رِزْقَ الخَلاَئِـقِ

لقـد علّمنـا شـيخُ الإسـلام أن العلـماء يجـب أن يكونـوا كالنجـوم والشـموس، يتسـقون في منظومـة جميلـة تنـشر النـور والـدفء، وتزيـن هـذا الكـون، ولا تخالـف أحـد الشـموس الأخـرى، أو تخـرج عـن المنظومـة العامـة للكـون، بـل هـم يـؤدون أهدافهـم في تعـاون ونظـام، هدفهـم صـلاح الكـون، مسـبحين للـه، عابديـن لـه عـلى خـير طاعـة، يفهمـون جيـدًا أنّ الـكلّ ميـسّر لمـا خُلـق لـه، يفهمـون جيـدًا سـنن اللـه وكيفيـة التعامـل معهـا وتوظيفهـا كـما أراد اللـه لهـا في اتسـاق وتـوازن غـير متخلفـين عـن حركـة الكـون وزمانـه، شـعارهم كـما كان شـيخ الإسـلام يتمثّـل قـول الشـاعر:

(١) الأبيات للإمام الشافعي، انظر: ديوانه، ص(٩٩).

لا تجزعـي إن الفـؤاد قـد امتطـى		ظهـر اليقـين وفي معارجـه ارتقـى
غذيـت قلبـي بالكتـاب وآيـه		وجعلـت لي في كلّ حـق منطقـا
ووطئـت أوهامـي فـما أسـكنتها		عقـلي وجـاوزت الفضـاء محلقـا

بـارك اللـه في شـيخنا وأسـتاذنا شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة- رحمـه اللـه- وجميـع العلـماء الصالحـين الربانيـين الذيـن أنـاروا لنـا الـدرب، فجزاهـم اللـه عنـا خـير الجـزاء.

* * *

المبحثُ الرّابع والثلاثون

ملاحظاتٌ حول السنن لدى ابن تيمية

تنوّعت سنن الله - عز وجل - تنوعًا بديعًا ما بين سنن كلية وسنن جزئية شاملة.

كلّ المجالات من سنن في الأنفس، وسنن في المجتمعات، وسنن في التاريخ، وسنن في الآفاق.

وجاءت الدراسة للسنن عند شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله- متنوعة؛ فنجد لديه دراسات منوعة شملت سننًا كلية لديها سنن جزئية تندرج تحتها، وأيضًا شملت سننًا شمولية تحوي تحتها سننًا كلية، وهي كالآتي:

١- سنة الله في الإيمان والكفر، ويأتي تحتها:

- الهدى والضلال.
- الشقاء والسعادة.
- سنة الله في المتوكّلين.
- سنة الله في التّمكين.
- سنة الله في سلب النعم.
- سنة الله في الفرقان.
- سنة الله في الظالمين.
- سنة الله في الخير والشر.
- سنة الله في فقر المخلوقات إلى الله.

٢- سنن الله في أهل الجهاد، ويندرج تحتها:

- سنة الله في نصر الأمم.

- سنة الله في الهزيمة.

- سنة الله في هلاك الأمم.

- سنة الله في بقاء الأمم.

٣- سنن الله في الآفاق، ويندرج تحتها:

- التسخير.

- التوازن.

- الأسباب والمسببات.

- الجمع بين المتشابهين والتفريق بين المختلفين.

- سنة الله في الثواب والعقاب.

- سنة الله فيمن يعتقد الحقّ الثابت.

- سنة الله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- سنة الله أن خلقهم أزواجًا.

- سنة الله في التوازن.

- التمكين والاستبدال.

- التدافع والتداول.

٣- سنن الله في الأنفس وهذه كثيرة.

٤- السنن الاجتماعية وتحوي تحتها:

- سنة الله في المجتمع.

- من سنن الله في خلقه أن جعل لهم أميرًا، ولا يصلح حالهم إلّا بهذه الإمارة.

- من سنن الله في الأمّة المسلمة ألّا تجتمع على ضلالة.

- من سنن الله في الأنبياء أنه يؤيدهم بالمعجزات، وينصرهم على من كذبوهم.

- من سنن الأنفس الامتحان للمؤمنين ونصره لهم، وحاجتهم إلى الصبر والجهاد.

- من سنن الله في الأمّة المسلمة مضاهاتها لليهود والنصارى.

- سنة الله في قبول الأعمال.

- من سنن الله - عز وجل - العدل.

- من سنة الله إرسال الرسل عند الاختلاف والتفرقة.

- من سنة الله في الخلق أن خلقهم درجات.

- المودة والرحمة بين الزوجين.

- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

- سنة الله في الحب والكراهية.

- سنة الله في إهلاك الأمم.

- سنة الله في التغيير.

٥- سنن حضارية، وهي سنن كلية جعلها الله مفتاحًا لقيام الحضارات:

- سنن المداولة.

- التدافع.

- الاستبدال.

- سنة الله في التغيير.

وهـذه السـنن كلهـا متشـابكة ومتداخلـة كالبنـاء، ولا نسـتطيع أن نفصـل بـين لبناتهـا وأجزائهـا؛ فهـي لُحمـة واحـدة، تمثـل كيانًـا مشـتركًا، وتكاملهـا هـذا يـؤدي إلى تعمـير الأرض، وهـذه هـي مهمـة الإنسـان التـي خلقـه اللـه - عـز وجـل - لأجلهـا، ولذلـك وضـع لـه تلـك القوانـين والسـنن التـي تحكمـه، وتحكـم مـا حولـه مـن الآفـاق، وتحكـم المجتمعـات حتـى يكـون مؤدّاهـا نهايـة الأمـر إلى التعمـير والشـهود الحضـاري الـذي ننشـده.

وكلّ سنّة من السنن الجزئية يمكن أن تصنف تحت أكثر من سنّة كليّة.

إنّ مـادة السـنن عنـد شـيخ الإسـلام غزيـرة غـزارة تسـتحق الدراسـة، ولقـد اخـترت في دراسـتي هـذه مـا أمكننـي اسـتقصاءه.

ولَـدَى شـيخ الإسـلام إلمـامٌ رائـع بمـادة كلّ سـنة، وتفصيـل رائـع لهـا بحيـث تصبـح هـذه الدراسـات عنـد شـيخ الإسـلام منبعًـا صافيًـا يسـتفيد منـه الدارسـون في هـذا الجانـب.

إنّ شـيخ الإسـلام- رحمـه اللـه- منبـعٌ جيّـد لمعرفـة السـنن، هـذا المنبـع ارتبـط جيـدًا بكتـاب اللـه وسـنة رسـوله ﷺ فهـمًا جيـدًا وعمـلاً.

كـما عرفنـا- أيضًـا- مـن روافـد السـنن عنـده أن لديـه تأهيـلاً جيـدًا لذلـك بسـبب ثقافتـه الواسـعة التـي شـملت كافـة المجـالات.

وفي ذلـك حـلٌّ لكثـير مـن مشـاكل المسـلمين الناجمـة عـن التقصـير في معرفـة علـم السـنن وكشـفها ودراسـتها وفهمهـا حتـى نسـتطيع تسـخيرها.

فموضـوع السـنن يمثـل لنـا المنطلـق الفكـري للأمـم في دربهـا الحضـاري، وهـو التوجيـه الـلازم الـذي يحكـم سـلوك الأفـراد والجماعـات، ويقودهـا نحـو التقـدم والرقـي والسـعادة في الدنيـا والآخـرة.

وعندما درسنا سيرة شيخ الإسلام- رحمه الله- وحياته تعرّفنا على شخصية رائعة تمتاز بصفات تستحق التقدير والثقة، فهي مثال صادق يجمع بين النظرية والتطبيق.

لقد كانت فكرة سنتنا كما كانت حياته قائمة بهذه السنن، وما نجاحاته التي أحرزها في وقت قصير إلّا دليل يدلّنا على الدرب الصحيح لنتقدم في حياتنا، فهو استحق أن يكون إمامًا وقائدًا في عصره وعصرنا، فما كتبه في عصره لا ينفصل عن عصرنا ما دام ذلك فهمًا وشرحًا لكتاب الله وسنة نبيه ﷺ امتزج بوعي وفكر بالكون والأنفس والمجتمعات.

إنّ معرفتنا بالسنن تمنحنا الحرية والقوة؛ فهي تدلنا على الأسباب التي تحكم كلّ شيء، فإذا عرفنا السبب توصلنا إلى اكتشاف الأشياء واستطعنا استخدامها، وكذلك في الأنفس والمجتمعات سنعرف من خلال السنن كيف نصل إلى فردٍ متوحّد مع نفسه وخالقه ثمّ الكون والمجتمع فيؤدي بذلك لتكوين مجتمع متماسك.

وتطبيق السنن وتسخيرها قد جعله الله متاحًا لنا، وأعطانا مفاتيح اكتشافها، وأرشدنا إلى كيفية استعمال تلك المفاتيح، وما علينا إلّا استعمال تلك المفاتيح لنحصل على ما نريد، فمثلًا سنة الله في الأسرة السعيدة تقوم على الأخذ بالأسباب التي تساهم في تكوين تلك الأسرة، الاستعانة بالله، وحسن التوكل على الله في اختيار الزوج والزوجة، وقد أمرنا الله - عز وجل - باختيار الزوج الصالح والزوجة الصالحة، وجعل هذا الاختيار قائمًا على الدين والخلق الرفيع، وأنّ مَن يحيد عن هذا الاختيار فسوف يبوء بالخسران؛ وذلك حتى يكونا صالحين لتكوين ورعاية أبناء صالحين، ووضع لهم سننًا جزئية تحكم تعاملاتهم، وتوضح لهم سبيل هذه الحياة في كلّ جزء من جزئياتها حتى يستقيم البنيان.

خلاصةٌ واستنتاج:

إنّ مادة السّنن عند ابن تيمية غزيرة كثيرة غنية ثرية، يصعب حصرها ويعزّ استقصاؤها؛ فهو غزير المعرفة مثل البحر الزاخر.

إن كلّ سنّة عن شيخ الإسلام تحوي سجلًّا معرفيًّا يعتبر مرجعًا للفهم السنني، وكيفية تحويله إلى التطبيق العملي الفعلي.

إنّ شيخ الإسلام يعطينا تفصيلات ضابطة لكلّ سنّة من السنن لو طبقت تلك السّنن الجزئية لحصلنا على النجاح السنني الذي يترتب عليه العمارة الحقّة لهذا الكون، والشهود الحضاري الذي تتمنّاه الأمّة الإسلامية.

وللإنسان مع السّنن عقوبات وعطاءات جماعية بحسب انتمائه لأمّة بعينها، أو فاعليته فيها، كما أنّ عليه عقوبات وثوابات فردية، وسنحشر يوم القيامة أممًا وجماعات، وسنحاسب كذلك جموعًا وأفرادًا، فالأمّة الإسلامية من خلال دراستنا ستحاسب مرّتين، مرة أفرادًا كلّ عن نفسه وأسرته، ثمّ جماعات بما قدّمناه للإسلام والمسلمين من الخير، وبما قدمناه للأمم الأخرى من نشر الإسلام، وبما أنقذناهم به من عذاب جهنم.

لقد كانت السنن في حياة شيخ الإسلام مثالاً حيًّا طبّقه في حياته كلها، فكانت سببًا في إخراج نموذج فريد للفرد المسلم الذي يعرف حقّ ربه وأمته، ويسعى جاهدًا لإعلاء شأنها.

***

الخاتمةُ، أسأل الله حسنها

وبعدَ هذه الرحلة الماتعة النافعة مع ابن تيمية وجهوده في الدراسات القرآنية تطبيقًا على علم السّنن الربانية، وما قدّمه من نفع للإسلام والمسلمين في مجال التفسير والسّنن الربانية نجد أنّ الشيخ نبعٌ لا ينضُب ماؤه، وروح باقية على مدى الزمان، تبثّ الخير والأمل والسعادة في نفوس الناس أجمعين، وتعالج ما فسد من النفوس، وتنبّه على الأخطار، وتصحبنا إلى جنة عرضها السموات والأرض يمكننا أن نرصد الآتي:

١- حفلت حياة ابن تيمية بالجهاد العلمي والجهاد العملي، ومزج بين الدعوة قولًا وسلوكًا، وشغل الناس حيًّا وميتًا، وما زال تراثه زاخرًا بالنفع العام والخاص، وبصورة أخصّ ما يتعلق منه بالدراسات القرآنية وعلم السنن، وما زال في حاجة إلى إبراز وخدمة وتقريب يتيح لعموم الأمّة الإفادة منه والنفع به.

٢- توفّرت لابن تيمية روافد متعددة كونته قرآنيًّا وسننيًّا ومنحته القدرة على استخراج كثير من سنن الله- تعالى- في الأنفس والآفاق.

٣- أنّ تأثيره فيمن بعده بدا واضحًا جليًّا سواء فيمن تتلمذوا عليه مباشرة أو فيمن جاء بعدهم، وظلّ أثره هذا عبر قرون وما زال، وفيه من المجالات الخصبة التي تستحق الدراسة وتستأهل البحث.

٤- اعتمد شيخُ الإسلام في تفسيره على الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين، وبعد ذلك كانت اللغة العربية وعلومها والثقافة العامة لديه وسيلة للترجيح بين الآراء واختيار أحسنها.

٥- أن الجوانب التطبيقية في علم السنن لديه بدتْ واضحةً جليّة، وساعده على هذا الوعي السعي بالحركة والدعوة، وتبيان الحقّ وتصحيح المفاهيم وإرشاد الناس إلى الحق، ودلالتهم على الله- تعالى.

٦- أن موضوع السنن بصفة عامة وتطبيقاته لدى ابن تيمية بصفةٍ خاصّة من أهمّ الموضوعات التي نحتاجها اليوم؛ لما تمرّ به أمتنا الإسلامية من مِحن ونكبات، وفيه تِبيان للنهج الصحيح للخروج ممّا هي فيه.

٧- أنّ شخصية ابن تيمية من الشخصيات التي ظُلمت وهُضمت من خصومها، وكثير من أتباعها، فلم يعرض فكره بصورة مناسبة، ونسب إليه كثير من التشدّد وهو منه براء.

إنّ مَن يدرس تراث ابن تيمية ويعكف على قراءته قراءة متأنية يجد الرحمة واللين والرفق والدعوة بالتي هي أحسن يتخلل كلّ هذا تراثه، وأن لديه رؤية واضحة وبصرًا شديدًا بمنهجية التعامل مع الطوائف الأخرى من خلال الكتاب والسنة، وقد صدقت الأيام وأيّد الواقع المعيش الذي تحياه الأمّة اليوم صواب رأيه في الحكم على الفرق النافرة عن الإسلام كلًّا أو بعضًا.

٨- تنوّعت السّنن في تراث ابن تيمية بين تأصيلية وتطبيقية وفردية وجماعية، ونفسية وتاريخية، وإن دلّ هذا على شيء فإنما يدل على استيعابه للسنن ووعيه بها وتطبيقه لها.

٩- تعلّمنا من خلال هذه الدراسة كيف أنّ العلم بالكتاب شرحًا وتفصيلاً هو الوسيلة الوحيدة لإحياء قلوب شقيت وحزنت لبعدها عن كتاب الله- تعالى.

١٠- أنّ هذه الدراسة التي قدّمت لنا مجموعة من السنن الإلهية تمثل لبنةً من لبنات تراث الشيخ وعطائه الفكري.

أهم المصادر والمراجع

أولًا: القرآن الكريم.

ثانيًا:

١- أبجد العلوم: أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنَّوجي، دار ابن حزم، الطبعة الأولى، ١٤٢٣ هـ- ٢٠٠٢ م.

٢- ابن تيمية السلفي: خليل هراس، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٤- ١٩٨٤م.

٣- ابن تيمية وجهوده في التفسير وعلوم القرآن: إبراهيم خليل بركة، المكتب الإسلامي، الطبعة الأولى، ١٤٠٥هـ- ١٩٨٤م.

٤- ابن تيمية، حياته وعصره وآراؤه الفقهية: للعلامة محمد أبي زهرة، دار الفكر، ١٩٩١م.

٥- اختيارات ابن تيمية في التفسير ومنهجه في الترجيح: د/ محمد بن زيدان الهندي.

٦- أسس التجديد في منهج ابن تيمية في التفسير: د/ فرقان إسماعيل، بحث مطبوع في مجلة جامعة دمشق للعلوم الاقتصادية القانونية، ٢١/ ٢٠٠٥.

٧- إغاثة الغريق وإنارة الطريق إجابات لشيخ الإسلام ابن تيمية: شريف علي الراجحي، بدون.

٨- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: ناصر عبد الكريم العقل، دار عالم الكتب، بيروت، الطبعة السابعة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٩- البداية والنهاية: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثمّ الدمشقي، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م.

١٠- تدبر السنن الإلهية عند السلف الصالح: رشيد كهوس، دار الكتاب المغربي، الطبعة الأولى، ١٤٣٧هـ- ٢٠١٥م.

١١- تذكرة الحفاظ ، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: ٧٤٨هـ)الناشر: دار الكتب العلمية بيروت- لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ- ١٩٩٨م

١٢- ترجمة ابن تيمية من كتاب ذيل تاريخ الإسلام للحافظ شمس الدين الذهبي ٦٧٣، تحقيق وتعليق: محمد بن ناصر العجمي، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ-١٩٩٥م- دار ابن الأثير، الكويت.

١٣- تفسير ابن كثير (تفسير القرآن العظيم): إسماعيل بن عمر بن كثير، دار الفكر، بيروت، ١٤٠١هـ.

١٤- تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد بن علي رضا بن محمد شمس الدين بن محمد بهاء الدين بن منلا علي خليفة القلموني الحسيني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٠ م.

١٥- ثلاث تراجم نفيسة للأئمة الأعلام ابن تيمية والحافظ علم الدين البرزالي والحافظ جمال الدين المزي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، تحقيق: محمد بن ناصر العجمي، دار ابن الأثير، الكويت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

١٦- الجامع الصحيح للسنن والمسانيد: صهيب عبد الجبار، ٢٠١٤م.

١٧- جامـع بيـان العلـم وفضلـه: أبـو عمـر يوسـف بـن عبـد اللـه بـن محمـد بـن عبـد الـبر بـن عاصـم النمـري القرطبـي، تحقيـق: أبي الأشـبال الزهـيري، دار ابـن الجـوزي، المملكـة العربيـة السـعودية، الطبعـة الأولى، ١٤١٤ هــ - ١٩٩٤ م.

١٨- الجامـع لسـيرة شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة خـلال سـبعة قـرون: محمـد عزيـز بـن شـمس وعـلي بـن محمـد العمـران، دار عـالم الفوائـد، مكـة، الطبعـة الثانيـة، شـوال ١٤٢٢ هــ.

١٩ - جهـود شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة في توضيـح الإيمـان بالقـدر: د/ تامـر متـولي، رسـالة (دكتـوراه) - الجامعـة الإسـلامية.١

٢٠- الجـواب الصحيـح لمـن بـدل ديـن المسـيح: تقـي الديـن أبـو العبـاس أحمـد بـن عبـد الحليـم بـن عبـد السـلام بـن عبـد اللـه بـن أبي القاسـم بـن محمـد ابـن تيميـة الحـراني الحنبـلي الدمشـقي، تحقيـق: عـلي بـن حسـن- عبـد العزيـز بـن إبراهيـم- حمـدان بـن محمـد، دار العاصمـة، السـعودية، الطبعـة الثانيـة، ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م.

٢١- الجـواب الصحيـح لمـن بـدل ديـن المسـيح: شـيخ الإسـلام ابـن تيميـة، ت: عـلي بـن حسـن الألمعـي، دار الفضيلـة، الريـاض، الطبعـة الأولى، ١٤٨٤هــ - ٢٠٠٤م.

٢٢- الجواهـر والـدرر في ترجمـة شـيخ الإسـلام ابـن حجـر: شـمس الديـن أبـو الخـير محمـد بـن عبـد الرحمـن بـن محمـد بـن أبي بكـر بـن عثـمان بـن محمـد السـخاوي، تحقيـق: إبراهيـم باجـس عبـد المجيـد، دار ابـن حـزم للطباعـة والنـشر والتوزيـع، بـيروت، الطبعـة الأولى، ١٤١٩ هــ - ١٩٩٩ م.

٢٣- الـدارس في تاريـخ المـدارس، لعبـد القـادر بـن محمـد النعيمـي الدمشـقي، تحقيـق: إبراهيـم شـمس الديـن، دار الكتـب العلميـة، الطبعـة الأولى، ١٤١٠هــ - ١٩٩٠م،

٢٤- الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: مراقبة/ محمد عبد المعيد ضان، مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الهند، الطبعة الثانية، ١٣٩٢هـ- ١٩٧٢م.

٢٥- دعوة شيخ الإسلام وأثرها على الحركات الإسلامية المعاصرة، وموقف الخصوم منها: صلاح الدين مقبول أحمد، دار ابن الأثير، الكويت، ١٤١٢هـ - ١٩٩٢ م.

٢٦- دقائق التفسير، ابن تيمية، تحقيق: محمد السيد الجليند، مؤسسة علوم القرآن، دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ.

٢٧- دليل الرسائل الجامعية في علوم شيخ الإسلام، إعداد: عثمان بن محمد الأخضر شوشان، الرياض، ١٤٢٤هـ.

٢٨- ذيل طبقات الحنابلة: زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثمّ الدمشقي، الحنبلي، تحقيق: د/ عبد الرحمن بن سليمان العثيمين.

٢٩- الرد الوافر: محمد بن عبد الله (أبي بكر) بن محمد ابن أحمد بن مجاهد القيسي الدمشقي الشافعي، شمس الدين، الشهير بابن ناصر الدين، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، ١٣٩٣هـ.

٣٠- الرسالة الزكية في ثناء العلماء على ابن تيمية: مرعي يوسف الحنبلي، دار الفرقان، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

٣١- الرؤية الإسلامية والمسألة الحضارية دراسة مقارنة: عبد الله محمد الأمين.

٣٢- السلوك لمعرفة دول الملوك: أحمد بن علي بن عبد القادر، أبو العباس الحسيني العبيدي، تقي الدين المقريزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب، العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م.

٣٣- سنن أبي داود: سليمان بن الأشعث السجستاني، دار الفكر، بيروت، تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد.

٣٤- السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية: د/ عبد الكريم زيدان، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م.

٣٥- السنن الإلهية في الحياة الإنسانية: د/ شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب، مكتبة الرشد، الرياض، ٢٠٠٤م.

٣٦- سنن الترمذي: محمد بن عيسى الترمذي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

٣٧- سنن الترمذي: محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى، تحقيق وتعليق: أحمد محمد شاكر (جـ ١، ٢)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ ٣)، وإبراهيم عطوة عوض (جـ ٤، ٥)، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، الطبعة الثانية، ١٣٩٥هـ - ١٩٧٥م.

٣٨- سنن الدارقطني: علي بن عمر، تحقيق: السيد عبد الله هاشم اليماني، دار المعرفة، بيروت، ١٣٨٦هـ.

٣٩- السنن الكبرى للنسائي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ.

٤٠- السياسة الشرعية لابن تيمية، دار ابن حزم، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

٤١- السياسة الشرعية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ.

٤٢- سير أعلام النبلاء: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي، دار الحديث، القاهرة.

٤٣- شـذرات الذهـب في أخبـار مـن ذهـب: عبـد الحـي بـن أحمـد بـن محمـد ابـن العـماد العَكـري الحنبـلي، أبـو الفـلاح، حققـه: محمـود الأرنـاؤوط، خـرج أحاديثـه: عبـد القـادر الأرنـاؤوط، دار ابـن كثـير، دمشـق- بـيروت، الطبعـة الأولى، ١٤٠٦ هــ - ١٩٨٦ م.

٤٤- شـعب الإيمـان. أحمـد بـن الحسـين بـن عـلي بـن مـوسى الخُسْرَوْجِـردي الخراسـاني، أبـو بكـر البيهقـي (المتـوفى: ٤٥٨هــ) حققـه وراجـع نصوصـه وخـرج أحاديثـه: الدكتـور عبـد العـلي عبـد الحميـد حامـد، أشرف عـلى تحقيقـه، تخريـج أحاديثـه: مختـار أحمـد النـدوي، صاحـب الـدار السـلفية ببومبـاي- الهنـد، النـاشر: مكتبـة الرشـد للنـشر والتوزيـع بالريـاض بالتعـاون مـع الـدار السـلفية ببومبـاي بالهنـد، الطبعـة: الأولى، ١٤٢٣ هــ - ٢٠٠٣ م

٤٥- الشـهادة الزكيـة في ثنـاء الأئمـة عـلى ابـن تيميـة: مرعـي بـن يوسـف بـن أبي بكـر بـن أحمـد الكرمـى المقـدسي الحنبـلي، تحقيـق: نجـم عبـد الرحمـن خلـف، دار الفرقـان، مؤسسـة الرسـالة، بـيروت، الطبعـة الأولى، ١٤٠٤هـ.

٤٦- شـيخ الإسـلام أحمـد بـن تيميـة رجـل الإصـلاح والدعـوة: دار القلـم، ط أولى، ١٤٢١هــ / ٢٠٠ سلسـلة: أعـلام المسـلمين، إبراهيـم محمـد العـلي.

٤٧-شـيخ الإسـلام تقـي الديـن بـن تيميـة: العلامـة الشـيخ حسـنين مخلـوف، ضمـن تقدمـة ديـوان ابـن تيميـة، جمـع وتحقيـق وشرح: د/ محمـد عبـد الرحيم.بـدون.

٤٨- صحيـح البخـاري: محمـد بـن إسـماعيل البخـاري، تحقيـق: محمـد زهـير بـن نـاصر النـاصر، دار طـوق النجاة، الطبعـة الأولى، ١٤٢٢هـ.

٤٩- صفـات جيـل التمكـين في المنظـور القـرآني: د/ رمضـان خميـس، بحـث منشـور في مجلـة كليـة دار العلـوم، العـدد الثامـن عـشر، ديسـمبر ٢٠٠٧م.

٥٠- طبقات علوم الحديث، ضمن الجامع، ١٤٢٧هـ-٢٠٠٦م

٥١- العقود الدرية من مناقب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية: شمس الدين محمد بن أحمد بن عبد الهادي بن يوسف الدمشقي الحنبلي، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكاتب العربي، بيروت.

٥٢- على ساحل ابن تيمية: عائض القرني، الطبعة الأولى، العبيكان، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٣م.

٥٣- الفتاوى الفقهية الكبرى (فتاوى ابن حجر): الهيتمي، المكتبة الإسلامية.

٥٤- فتاوى معاصرة: يوسف القرضاوي، الطبعة المكتب الإسلامي، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م.

٥٥- فقه التغيير وبناء الأمّة الوسط، البحث الفائز بجائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني الوقفية لعام ١٤٣٧هـ ، ٢٠١٦م. ط: وزارة الأوقاف القطرية، ط: أولى، د/ المثنى عبد الفتاح محمود.

٥٦- فقه السنن الإلهية ودورها في البناء الحضاري، البحث الفائز بجائزة الشيخ علي بن عبد الله آل ثاني الوقفية لعام ١٤٣٢هـ ٢٠١١م، ط: أولى، عام ٢٠١٢م ط وزارة الأوقاف القطرية، عادل بن بو يزيد عيساوي.

٥٧- الفكر التربوي عند ابن تيمية: د/ ماجد عرسان الكيلاني، مكتبة دار تراث، المدينة المنورة.

٥٨- فوات الوفيات: محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن بن شاكر بن هارون بن شاكر الملقب بصلاح الدين، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى.

٥٩- في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي، دار الشروق، بيروت- القاهرة، الطبعة السابعة عشر، ١٤١٢ هـ.

٦٠- قاعدة في المحبة: شيخ الإسلام ابن تيمية، ت: د/ محمد رشاد سالم، مكتبة التراث الإسلامي، بدون.

٦١- الكامل في التاريخ: أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيباني الجزري، عز الدين ابن الأثير، تحقيق: عمر عبد السلام تدمري.

٦٢- الكتاب المصنف في الأحاديث والآثار: أبو بكر بن أبي شيبة، عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان بن خواستي العبسي، تحقيق: كمال يوسف الحوت، مكتبة الرشد، الرياض.

٦٣- الكواكب الدرية، دار الغرب الإسلامي، ط: أولى، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م، مرعي بن يوسف الحنبلي.

٦٤- لسان العرب: جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، دار ومكتبة الهلال، القاهرة.

٦٥- لمحات تاريخية من حياة ابن تيمية: صالح بن سعيد بن هلابي، مجلة الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة.

٦٦- الملل والنحل، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم بن أبى بكر أحمد الشهرستاني (المتوفى: ٥٤٨هـ)، الناشر: مؤسسة الحلبي. إعجاز القرآن الكريم: د محمد عبد العزيز العواجي، مكتبة دار المنهاج، تقديم: د/ حكمت بشير، د/ محمد عمر عبد الله حوبة،

٦٧- أوراق مجموعة من حياة شيخ الإسلام ابن تيمية، محمد بن إبراهيم الشيباني، الطبعة الأولى، ١٤٠٩هـ- ١٩٨٩م، مكتبة ابن تيمية.

٦٨- الأعلام العلية في مناقب ابن تيمية: عمرُ بنُ عليٍّ بنِ موسى بنِ خليلٍ البغداديُّ الأزجيُّ البزَّارُ، سراجُ الدينِ أبو حفصٍ، تحقيق: زهير الشاويش، المكتب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.

٦٩- أعيان العصر وأعوان النصر: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق: د/ علي أبو زيد، د/ نبيل أبو عشمة، د/ محمد موعد، د/ محمود سالم محمد، قدم له: مازن عبد القادر المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت، دار الفكر، دمشق، الطبعة الأولى، ١٤١٨ هـ - ١٩٩٨ م.

٧٠- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد: أبو الحسن نور الدين علي بن أبي بكر بن سليمان الهيثمي، تحقيق: حسام الدين القدسي، مكتبة القدسي، القاهرة، ١٤١٤ هـ- ١٩٩٤م.

٧١- مسند أحمد: أحمد بن حنبل الشيباني، مؤسسة قرطبة، مصر، بدون.٧٢- مسند إسحاق بن راهويه: إسحاق بن إبراهيم بن مخلد، مكتبة الإيمان، المدينة المنورة، ١٤١٢هـ.

٧٣- مسند الشافعي: أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي، دار الكتب العلمية، بيروت، صحّحت هذه النسخة على النسخة المطبوعة في مطبعة بولاق الأميرية والنسخة المطبوعة في بلاد الهند، ١٤٠٠ هـ.

٧٤- مسند الشهاب: أبو عبد الله محمد بن سلامة بن جعفر بن علي بن حكمون القضاعي المصري، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد السلفي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ- ١٩٨٦م.

٧٥- مصنف ابن أبي شيبة: عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤٠٩هـ تحقيق: كمال يوسف الحوت.

٧٦- معجم البلدان، المؤلف: شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله الرومي الحموي (المتوفى: ٦٢٦هـ)، الناشر: دار صادر، بيروت، الطبعة: الثانية، ١٩٩٥ م

٧٧- مفهوم السنن الربانية من الفهم إلى التسخير دراسة في ضوء القرآن الكريم: د/ رمضان خميس الغريب، مكتبة الشروق الدولية، ط: أولى، تقديم العلامة د/ محمد عمارة.

٧٨- مقدمة في أصول التفسير: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٤٩٠هـ- ١٩٨٠م.

٧٩- المقصد الأرشد في ذكر أصحاب الإمام أحمد: إبراهيم بن محمد بن عبد الله بن محمد ابن مفلح، أبو إسحاق، برهان الدين، تحقيق: د/ عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.

٨١- منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: محمد رشاد سالم، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.

٨٢- منهج شيخ الإسلام ابن تيمية في التأليف، ومراحله المتعددة: د/ عبد الله محمد الحجيلي.

٨٣- النبوات: تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي، تحقيق: عبد العزيز بن صالح الطويان، أضواء السلف، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ-٢٠٠٠م.

٨٤- وسطية الإسلام ودور العلماء في إبرازها: د/ أكرم كساب، الطبعة الأولى، دار النداء، ٢٠١٤م.

***

فهرس الموضوعات